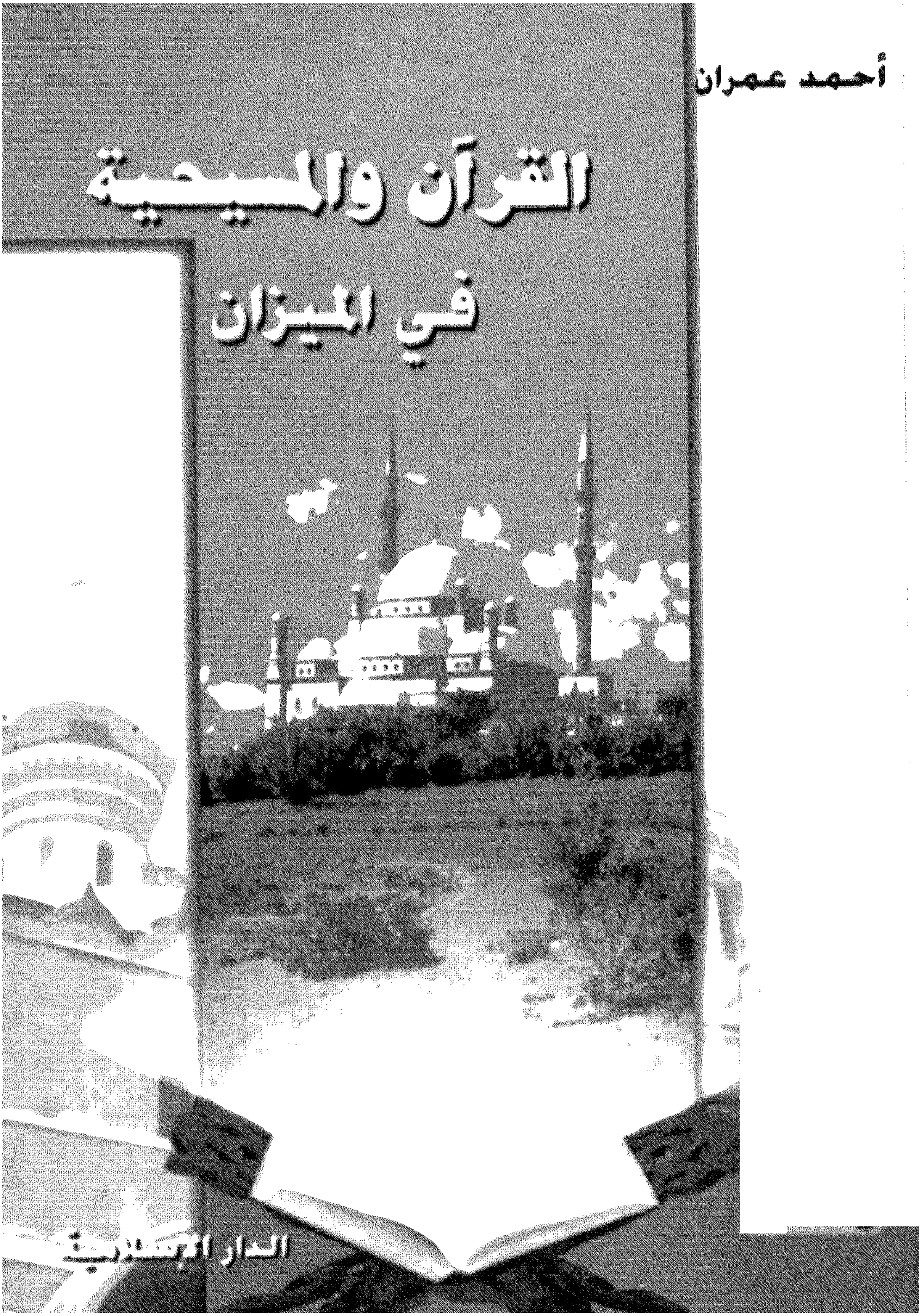
أحمد عمران

القرآن والمسيحية في الميزان



الدار الإسلامية

القرآن والمسيحية
في الميزان

بسم الله الرحمن الرحيم

المحامي أحمد عمران

القرآن والمسيحية في الميزان

الدار الإسلامية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

١٩٩٥م ــ ١٤١٦هـ

كورنيش المزرعة ـ بناية الحسـن سـنتر ـ طابـق ثـانـي
هاتف : ٦٢٧ ٨١٦ ـ ص.ب: ١٤/٥٦٨٠ ـ تلكس: ٢٣٢١٢ غدير
حارة حريك ـ شارع دكاش ـ هاتف : ٦٧٠ ٨٣٥ ـ ص.ب: ٢٥/٢٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم: بقلم
سماحة آية اللّه السيد محمد حسين فضل الله

الحمد لله والسلام على عباده الذي اصطفى.

وبعد: للحوار في الإسلام الدور الكبير في عملية الدعوة إلى الله، للوصول إلى المعرفة التفصيلية في القضايا التي يختلف فيها الناس في شؤون العقيدة والشريعة والمنهج والحياة، لأنه هو السبيل الأمثل للحصول على كل مفردات الفكر الملائم والفكر المضاد في حركة الصراع الفكري بالطريقة التي تثير عمق العناوين المتنوعة فتدقق في كل جزئياتها لتطل على الخطوط الكلية من أجل الوصول إلى العقيدة في وضوح من الرؤية، وعمقٍ في النظرة وامتدادٍ في المعرفة وهذا هو الذي يمثل المنهج السليم لحماية الفكر الإسلامي من الفكر المضاد لأن فقدان المعرفة للآخر لا يتيح لك الفرصة للاطلاع على نقاط قوته وضعفه، كما أن فقدان الوضوح للرؤية للإسلام يتيح للآخرين أن يدخلوا في الإسلام ما ليس فيه من الباطل الذي يحوّله الجهل في ذهنية المسلمين إلى شيء إسلامي، وبالتالي فهو يمنع المسلم من الأخذ بأسباب القوة للدفاع عن الإسلام لأنّ أوّل شروط الدفاع بما تملكه من الأسلحة أن تعرف طبيعة سلاح العدوّ.

وهذا هو الذي جعل من القرآن كتاب الحوار مع الآخرين ملحدين أو مشركين أو أهل كتاب أو منافقين لأنّ الله سبحانه مركز الدعوة على العقل وأراد للناس أن يدركوا الإسلام من خلال عناصر الفكر العقلي والمعرفة العلمية ولن يستطيع العقل أن يعرف الإيجاب إلاّ إذا عرف السلب، كما لا يملك أن يفكر بالشيء إلاّ إذا اكتشف ضده،

ولهذا كانت مفردات الفكر والعقل والحجة والبرهان والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة في دائرة الجدال بالتي هي أحسن هي المفردات التي تحرّك بها النبي (ص) في أسلوب الدعوة وحركيتها، بالإضافة إلى شخصيته الغنية بالروح والعقل والخلق واللطف الإلهي العميق.

* * *

والحوار الإسلامي ـ المسيحي هو من بين مفردات الحوار القرآني في حديثه مع النصارى في الجانب العقيدي المتصل باللاهوت وفروعه وقد رأيناه يعنف تارة ويرقّ أخرى وينفتح بطريقة حميمة ثالثة لأنّ القضية لم تكن منطلقة لديه من الرغبة في تدمير الآخر بل كانت منطلقةً من إقناع عقله في خطاب فكره، والحصول على صداقته في انفتاح قلبه، والوصول معه إلى الكلمة السواء في التفاصيل بعد الانطلاق من الكلمة السواء في المبدأ.

وقد تحركت التجارب الحوارية ـ الجدلية في الدائرة الثقافية في الجانب الإسلامي مما تركه المسلمون من تراث في مناقشة النصرانية ومحاكمتها، وفي الجانب النصراني مما تركه النصارى من نقد الإسلام والاعتراض عليه، لأن الواقع الديني كان يفرض على كلٍّ منها أن يحمي مواقعه الدينية على صعيد الفكر والواقع بعد أن انفتحت ساحة الصراع على المستويات الفكرية والسياسية والعسكرية، وخيّل لكل منهما أن الآخر يعمل على إبادته ومصادرة وجوده وحريته لا سيما بعد التجارب التي كان الصراع فيها قاسياً شديداً بحيث أدى إلى إلغاء الآخر بالكلية من ساحته كما حدث للمسلمين في الأندلس وفي أماكن أخرى، مما لم يحدث ما يماثله في سنوات الإسلام مع النصارى. لأن الإسلام يلتقي مع النصارى في الإيمان بالله الواحد وبالرسل وبعيسى عليه السلام وبأمه مريم، وباليوم الآخر وبالإنجيل كما يلتقي معهم في الإيمان بالتوراة، مما يجعل هناك أكثر من موقع لقاء، وأكثر من كلمة سواء وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنّا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون﴾.

ولذلك كان العيش المشترك مع أهل الكتاب، ولا سيما النصارى، أساساً في التشريع الإسلامي مع ملاحظة بعض التحفظات الفقهية التي كثر الجدل حولها كنظام

أهل الذمة ونحوه. وهذا ما يجعل المجتمع الإسلامي، في دائرة التشريع مجتمعاً متنوع الأفكار الدينية في نطاق الحريات المسؤولة، ويمنع المسلمين من التفكير في إلغاء الآخر بالقوة إذا لم يقم بأي عدوان ضد المسلمين. ويبقى للفكر والحوار في خط الدعوة، أن يأخذا بكل الوسائل الثقافية الموضوعية لإقناع الآخر.

* * *

وقد يكون من مقومات الحوار الموضوعي أن يعرف كل فريق من أطراف الحوار فكر محاوره من مصادره الأصيلة، مما يفرض عليه أن يدرس هذه المصادر ليتفهم مدلولها الفكري على النهج الذي يفهمه أصحاب الفكر الآخر، ثم على النهج العلمي المستقل الذي ينطلق من تجربته الفكرية الخاصة، لأنّ فهم الآخرين خلال منهجه، يمنحك فرصة حركة الفكرة في وجدانه الديني وذهنيته الثقافية، كما أن فهمك لمصادره من خلال تجربتك الفكرية قد يوحي إليك ببعض الأفكار التي قد تكون حجة عليك بحيث تأخذ الحجة لفكرك من خلال مصادره مما يجعله ملزماً ـ من الناحية الفكرية ـ أن يلتقي معك في فكرك من خلال الحجة الدافعة تبعاً لالتزامه بأن مصادره تمثل الحقيقة النهائية الحاسمة.

وفي ضوء ذلك، نجد أن الدراسات المقارنة للإسلام والنصرانية قد تفتح المجال الواسع للقاء الفكري، وللقناعة الذهنية من خلال التأكيد على نقاط اللقاء والخلاف مما يهيىء الجو العلمي للبحث الموضوعي القائم على أساس من وضوح الرؤية وعمق المعرفة.

وقد حاول المسلمون أن يستفيدوا، في دراستهم للإنجيل، الأفكار التي تؤكد عقيدتهم في البشارة بالنبي محمد (ص) من قبل عيسى عليه السلام وفي إبطال التثليث وغير ذلك بحيث تكون الحجة إنجيلية.

كما حاول بعض المسيحيين الاستفادة من القرآن في دعم الخط العقيدي المسيحي في شخصية السيد المسيح الإلهية وفي غير ذلك.

ومن هؤلاء «الأستاذ الحداد»، وهو من علماء النصارى في لبنان، الذي ألّف موسوعة فكرية تتصل بالقرآن وبالإسلام في تجربة للفهم المسيحي للقرآن بحيث يبعد القرآن عن تكفير المسيحية ليصل إلى نتيجة حاسمة، وهي أن القرآن لم يوجه نقده إلى المسيحية لأنه لم يلتق بها في مجتمعه بل التقى «باليعقوبية» التي واجهها في وفد نجران

ومع «جماعة الراهب أبي عامر» ومع «أهل مؤتة وتبوك» فتكفيرات القرآن للمقالات الأربع تقتصر على بدعة يعقوبية مارقة من الدين المسيحي ومطرودة من الكنيسة، لذلك فإن أي خطاب موجه إليها لا يمس المسيحية ولا يعنيها.

ونلاحظ أن غاية الأستاذ الحداد توضحت من وراء دعوته إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي وذلك عندما عرض «إليه الحوار» ورسم «فضاءها الفكري» فهو لا يرى في الإسلام والمسيحية رسالتين سماويتين يقوم بينهما الحوار على أساس من تبادل الإقرار بصدق كلٍّ منهما ثم ينطلقان سويّةً إلى البحث عن القواسم الجامعة وهي: «وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك» و«عن الزوجة والولد» و«حقيقة المعاد وقيام الساعة».

ولكنه يرى رسالة واحدة هي «المسيحية» ويرى الإسلام دعوة نصرانية انشطرت عن المسيحية انشطاراً فرضته السياسة وأحقاد الحروب، لذلك تقع على عاتق الحوار مهمة العودة بهذا الشطر إلى أرومته التي انبثق عنها. وبذلك فقد تتحقق الوحدة التي دعا إليها القرآن تحت راية الدين الواحد و«الشهادة الواحدة لله والمسيح».

وقد إعتمد على القرآن اعتماداً يكاد يكون كليّاً، واستعان في فهم آياته على مراجع من التاريخ والفقه لها موقعها المميز عند المسلمين كافة مثل «الاتقان للسيوطي» و«كتاب المصاحف للسجستاني» و«السيرة لابن هشام» و«تفسير الطبري» و«البيضاوي» و«ابن كثير» و«الرازي» و«الجلالين» و«طبقات ابن سعد».

* * *

ولعلّ من الطبيعي أن يرى المسلمون في هذا النهج الذي يحول أن يجعل من الإسلام بدعة نصرانية، يعمل الحداد على إرجاعها إلى قاعدتها الأصيلة وهي المسيحية الأم «خطورة كبرى على تصورهم للإسلام والتزامهم به لأن المسألة هي استنطاق القرآن فيما يريده الحداد من تأكيد فكرته.

وهذا هو الذي دعا الأستاذ المحامي أحمد عمران إلى مناقشة كتاب الحداد «القرآن والمسيحية» في كتابه هذا «القرآن والمسيحية في الميزان» من أجل نقد علمي وتاريخي مرتكز على القراءة العلمية المتأنية الدقيقة البعيدة عن الانفعال والعاطفة في استقراء دقيق للمفردات التاريخية واللغوية والفقهية في مراجعها الموثوقة عند المسلمين حيث استطاع اكتشاف «اللعبة الفكرية» و«الانحراف بالنص عن معناه بالكثير من

التكلف» بحيث أظهر الوجه الحقيقي للأسلوب الضبابي الذي اعتمده مما يبعد الكتاب عن «الصفة العلمية» والمنهج الموضوعي.

انني أشهد لهذا المؤلف المحقق أنه قد نجح في تأكيد موضوعيته الفكرية وأسلوبه العلمي في النقاش والحوار من خلال قراءتي لبعض نصوص الكتاب، وهو كثير، ورأيت فيه الحجة البالغة والنقد المتزن والنظرة الشاملة، مما أرجو للمسلمين أن يروا فيه الكتاب الذي يكشف حقيقة اللعبة الفكرية في كتابه «القرآن والمسيحية» وطبيعة المنهج الذي اعتمده الحداد في كتبه الأخرى، كما آمل أن يتسع له صدر المفكرين المسيحيين الذين يمكن لهم أن يجعلوا من هذا الكتاب تجربة حوارية وأساساً لحوار علمي موضوعي جديد من خلال النتائج التي وصل إليها وهي أن الإسلام دين مستقل لم ينفصل عن المسيحية في موقع البدعة، ولا يلتقي معها في أفكارها العقيدية التي يعتبرها كفراً وضلالاً في الوقت الذي يدعو فيه المسلمين إلى الكلمة السواء في الخطوط العامة للعقيدة التي ينطلق البحث في التفاصيل من خلال الروحية التي تتحرك منها نحو اللقاء.

ويبقى الحوار الإسلامي ـ المسيحي حاجةً على مستوى الواقع الإنساني كله في مواجهة تحديات المادية التي يرفضها الفريقان والاستكبار العالمي الذي يحارب الدين كله، في الإسلام وفي المسيحية، لتكون تلك المواجهة للتحديات المادية والاستكبارية هي الكلمة السواء.

ويبقى للمؤلف الفاضل أنه كان ناقداً موضوعياً في فكره ومنهجه وأسلوبه، فله منا التحية والتقدير، والدعاء بالنجاح لمؤلفه في الفائدة العامة والانتشار الكبير حيث يجد فيه القرّاء، من مسلمين ومسيحيين، الفائدة الكبيرة في فهم الإسلام والمسيحية بطريقةٍ علمية رائدة.

والحمد لله ربّ العالمين وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بيروت

١٩/٣/١٤١٥هـ

محمد حسين فضل الله

التمهيد

يقع التمهيد في الكتاب ما بين الصفحات ٣ ـ ٧ وقد أراده المؤلف عنواناً معبراً عما سوف يطرحه من الأفكار والمواضيع فبدأه: بأن ثمَّة ظاهرات ثلاث في القرآن ـ أوهمت الناس ـ وخاصة المسلمين ـ بأنها وجهت التكفير إلى المسيحية. في حين أن القرآن بريء من ذلك.

أما الظاهرات الثلاث فهي الآتية:

أولاً : تحدث القرآن عن النَّصارى في عدد من السور. ولكنه لم يتحدث عن المسيحية ولم يشر إليها بكلمة ومع ذلك أجمعت تفاسير المفسرين على أن آيات القرآن تخص جميع أتباع المسيح، دون تفريق. كما أن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين سارت على أساس هذا التفسير.

ثانياً : في القرآن، تتجلى ظاهرة بارزة، هي ظاهرة التخصيص في معرض التعميم ٥/ ٦٥ والتعميم في معرض التخصيص (٣/ ١٩٩ و٣/ ٨٨ ـ ٨٩ ـ ١١٣ ـ ١١٤ و٧/ ١٨٥ و٦١/ ١٤) وهذا ما أوقع الناس في الاستدلال الخاطىء، الذي قادهم إلى المواقف الخاطئة في نظرتهم إلى المسيحية وتعاملهم معها.

ثالثاً : وفي الثالثة تكمن الطامة الكبرى ألا وهي «التكفير الصريح» للمسيحيين كافة (٥/ ١٩ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ١١٦ و٤/ ١٧١) وذلك عن طريق دحض «عقيدة التثليث» و«إلهية المسيح» التي اعتنقتها المسيحية ولا تزال حتى اليوم.

مع أن الجدل القرآني الذي استتبع التكفير، محصور في وفد نجران، الذي كان على «البدعة اليعقوبية» تلك البدعة التي كفرتها الكنيسة وحرّمت مقالتها منذ أوائل القرن الخامس الميلادي.

لذلك:

يقدم الأستاذ الحداد كتابه إلى طلاب الحقيقة ومحبيها. مؤكداً أنه حصيلة جهود استقصائية واستقرائية طويلة مكثفة. وأن غايته من وراء ذلك «نفي الظلم عن القرآن» ورفع «الظلامة» عن المسيحيين. ويضع، سلفاً، مُلفتاتٍ ثلاثاً لنظر القارىء وهي شهادات يمكن الوقوف عليها في القرآن وتاريخ السيرة.

فالشهادة الأولى:

التي تنتهي إليها القراءة المنصفة الواعية للقرآن هي: إنه دعوة نصرانية لا دعوة مسيحية وأن ما أغدقه من الثناء على أهل الكتاب مع تكرار دعوتهم إلى الوحدة في الدين والأمة، هو موجه إلى النصرانية التي كانت شيعة متميزة بشعائرها وعقيدتها وظلت قائمة منتشرة في سوريا وفلسطين والجزيرة ومشارف الشام طيلة الفترة ما بين الإنجيل والقرآن إلى أن ذابت في الإسلام.

والشهادة الثانية:

هي إن الإسلام لم يتَّصِل إلاّ مع اليعقوبية التي واجهها في وفد نجران ومع «جماعة الراهب أبي عامر» ومع «أهل مؤتة وتبوك».

فتكفيرات القرآن للمقالات الأربع تقتصر على: بدعة يعقوبية: مارقة من الدين المسيحي ومطرودة من الكنيسة. لذلك فإن أي خطاب موجه إليها لا يمس المسيحية ولا يعنيها.

والشهادة الثالثة:

إن واقع القرآن والدعوة، وتاريخ السيرة النبوية شهود من الواقع على عدم الاتصال بالمسيحية الرسمية، لذلك خلا القرآن من أي نص مباشر أو غير مباشر،

ضدها، ولم يذكرها إلاّ في موقفٍ إيجابي مرة واحدة. هو في الآية الأولى والثانية من سورة الروم.

على المقولات التي يعتبرها المؤلف ـ ثوابت، يعتمد المؤلف ليقول:

بقراءة القرآن قراءة علمية حيادية، نرى أن حواره مع البدعة اليعقوبية في المناسبات الأربع لا يعني المسيحية ولا ينسحب عليها. وأن ما جاء في الآية ٣١ ـ من سورة (التوبة ـ براءة) إنما هو مقصور ومحصور بتحريض المسلمين على غزوة تبوك لا يتخطاها.

أما الجدل الذي تحول فيما بعد إلى صراع عقائدي كلامي، فقد فرضته ظروف الفتح وعواطف الفاتحين، ولا يعود تاريخياً إلى عام الوفود مع النبي سنة ٦٣١م بل وضع فيما بعد موته، لذلك فهو حوار فاسد في روحه وغايته لأن أهل الإنجيل وأهل القرآن هم أهل الكتاب فلا يصح قيام الحوار بينهم إلاّ على أساس الآية ٢٩/٤٦ ـالعنكبوت وعلى هذا الأساس. يصوغ المؤلف كتابه على شكل «خيوط تحقيقية» يستنطق فيها القرآن لغةً وتفسيراً ومناسبات ليستخرج حقيقة الرؤية القرآنية للمسيحية وكيفية التعامل معها. فيتتبَّع، مسيرة الدعوة الإسلامية منذ أوَّل خطوة، ويتحرك مع مناسبات الآيات وظروفها وأسبابها، ثم يفسر المعاني على مقاس «أهدافه وغاياته».

ويقول في خاتمة التمهيد قولاً، يضعه موضع النتيجة الحاسمة:

«فقد آن لنا أن ننتقل من الجدال في الكلام إلى الحوار في الإيمان لنعرف أن الإسلام والمسيحية هما ملّتان من أمة واحدة على دين واحد، وشهادةٍ لله وللمسيح، مهما اختلف التأويل لحرف التنزيل (الأنبياء ٢١/ ٩١ والمؤمنون ٢٣/ ٥٣).

وبالرغم من أن الأفكار التي طرحها المؤلف في التمهيد، هي التي سوف يصبُّ الكتابُ جميع جهوده في تفصيلها وتحليلها، فلن يفوتنا ونحن في موقع الناقد المحاور هنا، أن نقول فيها كلمات مختصرة، دون أن يمنعنا ذلك من مواجهتها ونقدها فيما سوف يأتي من فصول.

ففي التمهيد، وخاصة في العبارة الأخيرة منه، توضحت غاية المؤلف من

وراء دعوته إلى الحوار الإسلامي المسيحي وذلك عندما عرض «آلية الحوار» ورسم «فضاءها الفكري».

فهو لا يرى في (الإسلام والمسيحية رسالتين سماويتين يقوم بينهما الحوار على أساس من تبادل الإقرار بصدق كل.منهما ثم ينطلقان سوية إلى البحث عن القواسم الجامعة وهي: «وحدانية الله وتنزيهه عن الشريك»، و«عن الزوجة والولد» و«حقيقة المعاد وقيام الساعة).

ولكنه يرى، رسالة واحدة هي «المسيحية» ويرى الإسلام دعوة نصرانية انشطرت عن المسيحية انشطاراً فرضته السياسة، وأحقاد الحروب، لذلك تقع على عاتق الحوار مهمة العودة بهذا الشطر إلى أرومته التي انبثق عنها. وبذلك فقط تتحقق الوحدة التي دعا إليها القرآن تحت راية الدين الواحد «والشهادة الواحدة لله والمسيح». (الأنبياء ٢١/ ٩ والمؤمنون / ٢٣/ ٥٣).

وقد أدرك المؤلف أن هذا طرح شديد وأن الناس عامة والمسلمين خاصة. بعد أن يكتشفوا أبعاده ومراميه سوف يجابهونه بالرفض والاستنكار إن لم يدعَّم بالحجة الباهرة والبينة القاهرة.

لذلك، اعتمد على القرآن، اعتماداً يكاد يكون كلياً. واستعان في فهم آياته على مراجع من التاريخ والفقه لها موقعها المميز عند المسلمين كافة مثل «الاتقان للسيوطي» و«كتاب المصاحف للسجستاني» «والسيرة لابن هشام» و«تفسير الطبري» و«البيضاوي» و«ابن كثير» و«الرازي» و«الجلالين» و«طبقات ابن سعد».

وبذلك حدد المؤلف طريقه وطريقته، كما حدَّد الطريق والطريقة لقارئيه وناقديه، حيث يستطيع القارىء أن يُبقيَ على مطال يده، جميع هذه المراجع، بما فيها القرآن والكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ليضع موضع التمحيص مقولات المؤلف ويستوثق من مدى صحة قراءته للآيات وصدق استدلاله بالمراجع.

والآن: كيف قرأ الآيات واستخرج منها الأحكام والمفاهيم والمعاني التي طرحها في كتابه؟.

أولاً: المسيحية والإسلام هما كلمتان من أمة واحدة على دين واحد وشهادة واحدة هي الله والمسيح:

لقد وضع المؤلف هذه المقولة معتمداً على الآيتين ٩٢ ـ الأنبياء، ٥٢ ـ المؤمنون.

فالآية: **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾**.

والآية ٢٣/ ٥٢: **﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾**.

غير أن قراءة هاتين الآيتين وفهمهما على ضوء موقعهما من السورة يوقفنا على معناهما الحقيقي. فالآية ٢١/ ٩٢ وردت خاتمة وتتمة ونتيجة لآيات بدأت من الآية (٤٨) متحدثة عن النبيين موسى وهارون ثم عن إبراهيم من الآية ٥١ ـ حتى الآية ٧١ ـ إذ نجّاه الله ولوطاً إلى الأرض التي **﴿باركنا فيها للعالمين﴾** ثم عن إسحاق ويعقوب حتى الآية ٨٤ ـ ثم عن إسماعيل وإدريس وذا الكفل حتى الآية ٨٦ ـ ثم عن ذي النون حتى ٨٨ ـ ثم عن زكريا حتى الآية ٩٠ ـ ثم الآية ٩١ ـ عن مريم وابنها عيسى **﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آيةً للعالمين﴾** ثم تأتي الآية ٩٢ ـ التي اعتمدها المؤلف **﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾**.

إن أي قارىء لهذه الآيات، لن يحتاج إلى كتب التفسير ليدرك أن وحدة الأمة في الآية لا تعني «أتباع الدعوة الإسلامية» و«أتباع الدعوة المسيحية» تحت شعار واحد هو شعار المسيحية وشهادة واحدة هي الشهادة للمسيح وحده بل تعني أن الأمة، هنا، هي الدين الواحد الذي جاء به الأنبياء جميعاً، بدءاً من نوح حيث اتخذ صيغته وعنوانه على يد أبي الأنبياء إبراهيم الخليل وهو الإسلام بمعناه الحقيقي الذي هو التسليم لله بالفطرة التي فطر عليها الناس.

وكذلك الآية ٢٣/ ٥٢ ـ المؤمنون.

فقد جاءت في خاتمة عدد من الآيات التي تحدثت عن الأنبياء والرسل. بدءاً من نوح من الآية ٢٣ ـ ٣٠ ثم قصة هود حتى الآية ٤١ ـ ثم الآيات من ٤٢ ـ ٤٤ التي تحدثت عن القرون التي تلت والرسل التي أرسلت ثم قصة موسى وهارون من

الآية ٤٥ ـ ٤٩ ثم عن ابن مريم وأمه في الآية ٥٠ ـ ثم الآية ٥١ ـ التي لخّصت الخطاب وبينت حكم الله إذ توجهت بهذا النداء: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيّبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ ـ ٥١. ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾ ـ ٥٢.

بعد هذا نرى أننا لسنا في حاجة إلى أي جهد آخر لإثبات خطأ استدلال المؤلف بالآيتين ٩٢ و٥٢.

ثانياً: القرآن يذكر النَّصارى تارة بالثناء عليهم وطوراً بالتكفير لهم:

هذه المقولة هي أيضاً إحدى الاستنتاجات التي جاء بها المؤلف أخذاً من الآيات الثلاث (١٤ ـ ٨٥ ـ ٨٨) من سورة المائدة لذلك عدنا إلى الآيات المذكورة فوجدناها كالآتي:

- الآية ٥/ ١٤، ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾.

جاءت هذه الآية بعد الآيتين ١٢ و١٣ اللتين تحدثتا عن بني إسرائيل الذين أخذ الله ميثاقهم وقال لهم إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ولكنهم نقضوا الميثاق وحرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به فلعنهم وجعل قلوبهم قساة، ثم جاءت الآية ١٤ ـ لتتحدث أيضاً عن قسم من النصارى بقولها: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى...﴾ وهي عود بالذاكرة إلى الذين أجابوا عيسى (عليه السلام) بقولهم ﴿نحن أنصار الله﴾.

هؤلاء الذين يدّعون أنهم نصارى بالمعنى المذكور، ولكنهم بنسيانهم الحظ الذي ذكِّروا به، ونقضهم للميثاق استحقوا ما أوقع الله بينهم من العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة.

والحظ الذي نسوه، هو الإيمان بالنبي محمد، كما وضحت الآيتان ١٥ و١٦: ﴿يا

أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا...(١٥) يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سبل السّلام...(١٦)﴾.

ثم ينتهي الحديث معهم إلى الآية (١٧): ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾.

وذلك:

لأن ثمة تفريقاً بين من يقول: ﴿إن الله هو المسيح﴾ وبين من يقول: ﴿إن المسيح هو الله...﴾ فهما ـ أي القولان ـ في عداد الكفار إلاّ أن القول الأول يندرج في مقولة بعض النصارى الذين روَّجوا أن الله تعالى حلَّ في بدن المسيح. منفردين عن الباقين الذين يقولون: «إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام. فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو لا يكون فإن كان ذاتاً فإن ذات الله تكون قد حلت في عيسى واتحدت به فيكون عيسى هو الإله على هذا القول وإن كان الأقنوم صفة فإن انتقال الصفة من ذات إلى ذات بجعل الذات الأولى معطلة منه. وبما أن أقنوم الكلمة هو أقنوم العلم فإن تعطيل ذات الله منه هو نفي للعلم منها. وبذلك يسقط الاحتجاج بألوهية المسيح، (تفسير الرازي).

أما ثناء القرآن على النصارى في سورة المائدة فإنه يقع في الآيات ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ التي جاءت مباشرة بعد الآيات التي تحدثت عن لعن اليهود على لسان داوود وعيسى بما عصوا وكانوا يعتدون، ولا يتناهون عن منكر فعلوه (٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١).

ليصل القرآن بعدها إلى آيات الثناء، ولكنه يبدؤها بالتحذير من اليهود الذين هم أشد الأعداء على الذين آمنوا: ﴿لتجدن أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين (٨٣)...﴾.

ولنلاحظ بإمعان:

ـ ان الآية أوردت اليهود عامة وقدمت عداءهم للمؤمنين على عداء المشركين.

ـ في حين أنها تحدثت عن النصارى بقولها: ﴿الذين قالوا إنّا نصارى﴾ أي ليس جميع النصارى بل الذين جاهروا بهذه الصفة. وهؤلاء: إما أن يكونوا هم الذين جاهروا بنصرة المسيح عندما دعا إلى نصرة الله فلم يبالوا بغضب اليهود وسخطهم. وإما ـ كما هو عليه أغلب أهل التفسير ـ أن يكونوا «النجاشي وأصحابه» الذين بكوا عندما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم.

ـ ان وجه التفاوت بين اليهود والنصارى الآخرين الذين لم يكونوا المعنيين بهذه الآية هو أن كفر اليهود ناجم عن منازعتهم في النبوة (نبوة عيسى ومحمد) في حين أن كفر النصارى ناجم عن منازعتهم في النبوة (نبوة محمد) ومنازعتهم في الألوهية (بقولهم إن المسيح هو الله) لذلك يرى الكثيرون من أهل التفسير أن كفر اليهود هو الأخف.

ولكن الله طردهم وخصهم بالمزيد من اللعن. بسبب حرصهم على الدنيا وإقدامهم على إيصال الشر إلى من يخالفهم في الرأي الديني. أما النصارى فإن الإيذاء والشر محرمان عندهم وهم مأمورون بالإعراض عن الدنيا والإقبال على الله وترك الترفع والتكبر.

وفي الحديث الشريف مثل ما في القرآن إذ قال: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

ثالثاً: التخصيص في معرض التعميم والتعميم في معرض التخصيص:

قال المؤلف: هذه الظاهرة تتكرر في القرآن فيتمسك الغافلون بظاهر الحرف فيتشابه عليهم المعنى ومثال ذلك: التَّعميم الوارد في الآية ٦٥ ـ من سورة المائدة التي يشمل ظاهر لفظها جميع أهل الكتاب ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ في حين إن الآية ١٩٩ ـ من آل عمران تتحدث عن إيمان أهل الكتاب: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله . . .﴾.

وكذلك التعميم الوارد في الآيتين ٩٨ ـ ٩٩ من آل عمران ﴿قل يا أهل الكتاب

لـم تكفـرون بـآيـات الله. . . قـل يـا أهـل الكتـاب لـم تصـدّون عـن سبيـل الله مـن آمن. . .﴾.

الذي تنقضه الآيتان ١١٣ ـ ١١٤: **﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل. . . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . .﴾.**

وهذه الأمة المعنية هي «الأمة الكتابية» التي ورد تعريفها الكامل في الآيتين ١٥٨ ـ من الأعراف و١٤ ـ من الصف.

أقوال المؤلف هذه أخضعت إلى المناقشة التالية:

١ ـ الآية ٥/ ٦٥ ـ المائدة مرتبطة بالآية (٦٦) التي تليها وبقراءتهما سوية يتبيَّن المقصود الحقيقي بكلماتهما وليس ظاهر الألفاظ فقط، كما قال المؤلف:

﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفّرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم(٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون(٦٦)﴾.

فالضمير في «أنهم» يعود إلى أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ولم يتقوا ولم يقيموا التوراة والإنجيل ولا ما أنزل إليهم من ربهم. ولو فعلوا لنالوا الثواب والجزاء الذي وصفته وعددته الآية (٦٦) فالإشارة إلى أن إيمانهم غير مقبول. إلاّ بإقامة الكتابين وما أنزل إليهم. أي إن الذي أنزل بعد الكتابين للناس كافة هو القرآن» تلك الإشارة هي تصريح بوجوب إقامة الكتب الثلاثة والإشارة إلى التوراة والإنجيل بالاسم تصريح بأن «أهل الكتاب في الآية ـ ٦٥» هم اليهود والنصارى الذين يقوم حديث الآية عنهم.

والإقامة تعني الإقرار بصحة الكتب والإيمان بما تضمنه الكتابان من التبشير ببعثة النبي (ص) هذه الصيغة التي وردت عامة:

لا تنفي صحة إيمان من آمن من أهل الكتاب. فالدعوة الإسلامية انتشرت بين الناس كافة فقبلها وآمن بها عدد من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس. لذلك يكون قول المؤلف: باختلاط الرؤية عند قارىء الآية ٥/ ٦٥

ـ المائدة و٣/ ١٩٩ ـ من آل عمران هو قول يندرج في المماحكة الكلامية. لأن أيّ قارىء للآية ١٩٩ ـ لن يشك في أنها تعالج حالة خاصة:

«﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾.

فسواءٌ أفهمها القارىء بتفسير من قال إنها نزلت بعد أن صلّى النبي صلاة الغائب على النجاشي أم إنها في عبد الله بن سلام وأصحابه. أم إنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى عليه السلام وأسلموا أم إنها نزلت ـ كما قال مجاهد ـ في مؤمني أهل الكتاب كلهم».

فهي لا تتناقض ولا تتعارض مع صيغة العموم في الآية (٦٥) لأنها وضعت صفات هذه الفئة من أهل الكتاب وهي «الإيمان بالله» و«الإيمان بما أنزل على النبي ـ القرآن» و«بما أنزل إليهم قبل القرآن وهي التوراة والإنجيل وما تركه الرسل». و«كونهم خاشعين لله» و«أنهم لا يشترون بآياته ثمناً قليلاً».

وغني عن البيان أن التناقض المدعى به، كان يمكن أن يكون. فيما لو جاءت الآية ١٩٩ ـ بصيغة العموم حيث تكون آنذاك آيتان بصيغة واحدة تتحدثان عن أهل الكتاب بوصفين مختلفين.

٢ ـ وكذلك هي الحال في التعميم الوارد في الآيتين ٩٨ و٩٩ المنقوض بالتخصيص الوارد في الآيتين ١١٣ ـ ١١٤ فالآيتان ٩٨ ـ ٩٩ وردتا بعد آيات تحدثت عن المحلل والمحرم من الطعام عند بني إسرائيل وعن حج البيت ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ـ ٩٧﴾.

﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون (٩٨) قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عِوَجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون (٩٩)﴾.

ولقد قيل في تخصيص أهل الكتاب هنا:

إن ما سبق من آيات كانت أدلة عليهم من التوراة والإنجيل، لذلك اقتضى تخصيصهم لاستمرار سياق الكلام في حين أن من يكفر بآيات الله ويصدّ عن سبيله من آمن به ينطبق عليه النص القرآني ولكن التخصيص هنا بأهل الكتاب اقتضته ضرورة السرد القرآني.

بعد ذلك ننتقل إلى الآيتين ١١٣ و١١٤ من آل عمران.
﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون (١١٣) يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين (١١٤)﴾. فقد تعددت حالات الاستدلال هنا عن «أهل الكتاب» و«الأمة القائمة» فقالوا:

قد يكون المراد بأهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه. وقد يكون المراد، الأربعين رجلاً من نجران والثلاثة من الروم والاثنين والثلاثين من الحبشة الذي أسلموا. وقد يكون المقصود كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان، فيكون المسلمون في جملتهم. وهذا أيده ابن مسعود بما رواه عن النبي (ص) أنه أخّر الصلاة وخرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: «أما إنه ليس من أهل الأديان أحدٌ غيركم يذكر الله في هذه الساعة» وقرأ الآية (١١٣). من آل عمران.

أما الأمة القائمة فهي المستقيمة العادلة كقولك «قومت العود فقام أي فاستقام» والقائم بالدين هو المتمسك به والثابت عليه. وقال الفراء «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» أي مواظبة على الدين ثابتة عليه. ومنه الحديث الشريف «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم فإن لم يفعلوا فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم» ـ لسان العرب ـ مادة ـ قَوَمَ».

وقد جاءت أوصاف هذه الأمة بما جعلها تستحق لقب «الأمة القائمة» وهذه الأوصاف هي: «تلاوة آيات الله آناء الليل» و«الصلاة بركوعها وسجودها» و«الإيمان بالله واليوم الآخر» و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«المسارعة إلى أعمال الخير».

وهي بالمدلول القرآني:

تنطبق على كل أمة تحققت فيها هذه الأوصاف، سواء أكانت ﴿من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ ١٥٩/٧ ـ الأعراف أم كانت التي عنتها الآية ٦١/ ١٤ ـ الصف ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾.

بقي أن نقول كلمة في المدلول القرآني للأمة: فهذا التعبير «وإن كان ينبىء عن الكثرة ويقتضيها إلاّ إنها وردت في بعض آيات القرآن مقابلة مع مجموعة مما اقتضى أن تَرِدَ بلفظها، حتى ولو أنبأت عن العدد القليل كقوله تعالى في سورة النحل ١٢٠/١٦ ﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين﴾ وقوله في آل عمران ٣/ ١٠٤ ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ فقد فسر البعض أن «منكم» هي للتبعيض.

بعد هذا نستطيع أن نقول:

لو قرأ المؤلف تلك الآيات قراءة معمقة، ولو نظر فيها نظرة حيادية ـ كما يقتضي العلم ـ لما وجد فيها تناقضاً، ولما كان وجد حالة الالتباس والغموض والتعارض بين العموم والخصوص ـ كما عبر عن ذلك ـ ولكنه مع الأسف، ابتزّ من الآيات معانيَ وأهدافاً ليست منها، وليست فيها، ورأى تشويشاً واضطراباً هي خالية منهما تماماً.

رابعاً: الطامة الكبرى ـ التكفير.

أشار المؤلف إلى أن القرآن بعد أن عرض في الآيات ٥/ ١٧ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ ـ ٧٦ من سورة المائدة مَوْقِفَهُ وتقييمه للنصارى عاد في الآيات ٥/ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥ من ذات السورة فأثنى عليهم ووصفهم بأنهم الأقرب مودة للذين آمنوا. وأن منهم القسيسين والرهبان وأنهم لا يستكبرون. وأن عيونهم تفيض من الدمع إذا ما سمعوا ما أنزل إلى النبي وذلك مما عرفوا من الحق.

ولقد كنا في الفقرة «ثانياً» قرأنا آيات الثناء، وعدنا إلى ظرفها التاريخي وبيّنا أن الرسول (ص) أبلغها إلى الناس مخصوصة ومحصورة في مناسبة خاصة وفئة خاصة من النصارى الذين توافرت فيهم تلك المواصفات ولم يتعامل المسلمون معها

على أنها براءة لجميع عقائد التثليث والإشراك وقد جاءت الآيات متلاحقةً كيلا يقع الناس في الالتباس مثلما حصل مع المؤلف الذي لم يدرك المغزى من تتابع هذه الآيات فقرأها مستقلة، بعضها عن بعض.

ولكي تكون الفكرة أكثر وضوحاً نرى من المفيد أن نقرأها متتابعة بأرقامها:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ (٥/١٧) ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم عليه الله الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار(٥/ ٧٢) ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد. . .﴾ (٥/ ٧٣) ﴿ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون (٥/ ٧٥) قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾ (٥/ ٧٦).

ثم تأتي الآيات ٥/ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ لتعدد الأسباب التي أوجبت لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى وهي إنهم، «عصوا» و«كانوا يعتدون» و«كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه» و**﴿يتولّون الذين كفروا﴾** (٨٠). **﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء، ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾** (٨١).

بعد هذه الآيات جميعها، بدءاً من ٧٢ حتى ٨١. جاءت آيات الثناء، استثناءً مما تقدم، لتصف الذين قالوا إنا نصارى بأنهم عرفوا الحق فاتبعوه، وأنهم انعتقوا من الميراث العقائدي والطقوسي الخاطىء، وتابوا عن الغلوّ في المسيح، وآمنوا به رسولاً قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ويعيشان مثل الناس بين الناس.

فقالت عن هؤلاء: إنهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا.

وهكذا:

- لا نجد في آيات التكفير ما يدلّ على تخصيص النصارى.

- بل نجد كلمة «نصارى» دون تخصيص أو تعريف.

- ونجد التكفير مبنياً على قواعد، لها صفة الدوام، دون أن يختص بها جيل أو عهد أو فئة وهذه القواعد هي تكفير كل من قال «بأن الله هو المسيح» أو «أن الله ثالث ثلاثة» لأن ذلك القول هو عنوان الشرك والدليل على المشركين، وهو لا يلتقي مع التوحيد في صدر واحد. لذلك: يظل قول القرآن قائماً يدفع كل من يقول هذا القول مهما تتالت السنون وأيّاً كان القائل.

- ثم نجد المؤلف وقد سقط في التناقض إذ مادام يؤكد على أن النصارى - سواء أكانوا قليلي العدد أم العكس - ملتزمون بعقائد الإسلام. لأنهم والإسلام أُمّةٌ واحدة لا يتناقضان ولا يتعارضان، ويؤكد على عدم اعتقادهم بألوهية المسيح أو بنوته من الله.

ومادام أن التكفير في القرآن أطلق على من يعتقدون هذا المعتقد. دون غيرهم من النصارى فإن إسقاط المؤلف لآيات التكفير على النصارى، هو فهم خاطىء منه إن لم يكن هذا الفهم مبنياً على قصد غير كريم.

- وأيضاً سواء أكانت الآيات (الطامة) نزلت على أثر الجدال مع وفد نجران أم لا فإنها أوضحت نظرة القرآن إلى كل من يغالي في السيد المسيح أو يجعل مع الله شريكاً في الألوهية أو العبادة. وهي نظرة ثابتة متلازمة مع كل مسلم، بحيث لا يكون مؤمناً - بنظر الإسلام - ما لم يكن مؤمناً بتنزيه الله عن الولد والشريك.

وبذلك يكون الخطاب القرآني، خطاباً عاماً يتجاوز الزمان والمكان ليكون إحدى القواعد الإسلامية الراسخة في العقيدة.

أما قول المؤلف: إن الآيات نزلت، حصراً، في وفد نجران الذي كان على البدعة اليعقوبية والتي كانت الكنيسة قبل القرآن قد كفرتها وطردتها وحرّمت مقالتها، فهو قول «ديماغوجي» أكثر منه علمي، وسوف نلتقي مع المؤلف في أمكنة عديدة من كتابه يكرر هذا الرأي ليلقي ما لديه من سلبيات على اليعقوبية، وليخرج المسيحية من حقل الرماية القرآني.

ونحن وإن كنا سوف نتصدى لفكره، عقائدياً وتاريخياً، نضع في هذا التمهيد مختصراً شديداً من القول عن اليعقوبية، كيلا نترك أقوال المؤلف حرة من الاعتقال ولو إلى حين.

إن الكنيسة لم تختلف مع اليعقوبية حول بُنُوَّة المسيح من الله. إن كلتاهما ترفضان «نبوّته» وتؤمنان «ببنوّته» الطبيعية من الله. ولكن يعقوب البرادعي الذي تبنى آراء الكنيسة المصرية والذي سميت هذه الشيعة باسمه. بسبب قوة حجته. وديناميكية شخصيته. قال: باتحاد الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في المسيح وأن الإيمان المسيحي الحقيقي هو في هذا الاتحاد الذي قام سر تجسده، دون اختلاط أو امتزاج أو تبلبل. وكان من قبله الراهب نسطوريوس، بترك أنطاكية، قال بتكون شخصية المسيح من الطبيعتين معاً. فالله الكلمة، والإنسان يسوع، هما شخصيتان منفصلتان ومستقلتان تماماً ولهذا لا يمكن بحسب رأيه أن يقال: «الله وُلد» بل الذي ولد من مريم هو الإنسان. كما لا يقال «الله صُلب وتألم» بل الإنسان. ونظراً إلى أن القول بالطبيعتين، سواء أكان القول بأسلوب نسطور أم بأسلوب يعقوب ينتهي إلى نكران سر تجسد الله الكلمة، وفداء الجنس البشري بآلام وموت الرب يسوع، فقد قررت الكنيسة طرد وحرمان وتكفير نسطور في مجمع أفسس بعام ٤٣١م ويعقوب في مجمع خلقيدونيا بعام ٤٥١م. (تاريخ الكنيسة المسيحية ـ مترجم عن الروسية بعام ٩٦٤م ص ٢٥٢ ـ وما بعدها لمطران حمص الكسندروس).

فكِلتاهما النسطورية، واليعقوبية لم تكونا على شيء من العقائد التي نسبها المؤلف إلى فئة النصارى التي اعتنقت الإسلام. وخاصة لجهة التوحيد ونبوة عيسى المسيح.

الفصل الأول

القرآن في حوار مع بني إسرائيل من يهود ونصارى

توطئة: الهدف الثاني للقرآن دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام

قال المؤلف: للقرآن هدفان أولهما: دعوة العرب إلى دين الكتاب (٤٢/١٣) الشورى. ودين الكتاب هو الإسلام الذي شهد عليه «الله» و «أولوا العلم»: (٣/١٨ ـ ١٩) آل عمران.

والهدف الثاني: دعوة أهل الكتاب إلى هذا الإسلام ٥/١٩ ـ المائدة لذلك يقول للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد.

وهذا الإسلام قائم قبل دعوة النبي (ص) وتدين به أمة من أهل الكتاب قبل نزول القرآن ٢٨/٥٢ ـ ٥٣ القصص. وهي التي حددها القرآن بالآيتين ٧/١٥٨ ـ الأعراف و ٦١/١٤ ـ الصف.

ويخلص المؤلف إلى النتيجتين التاليتين:

١ ـ إن أهل الكتاب الذين توجه إليهم خطاب القرآن هم «اليهود والنصارى من بني إسرائيل ٢٧/٧٦ ـ النحل.

٢ ـ القرآن هو دعوة لهؤلاء إلى الإسلام الذي يؤمن بالمسيح والإنجيل «على شريعة» من الأمر ـ ٤٥/١٧ الجاثية.

لذلك: بات علينا أن نقسم فقرات المناقشة على المواضيع المطروحة في هذه التوطئة.

أ ـ ليس صحيحاً أن الهدف الأول للقرآن هو دعوة العرب إلى دين الكتاب.

فتلك مغالطة من المؤلف تنفيها شمولية الدعوة الإسلامية.

﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...﴾ ٧/ ١٥٨ ـ الأعراف.

﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم...﴾ ٨/ ٢٤ ـ الأنفال.

﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم...﴾ ٤/ ١٧٠ ـ النساء.

﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين...﴾ ٣٣/ ٤٠ ـ الاحزاب.

والآية التي أعتمد عليها المؤلف هي ١٣ ـ من سورة الشورى ـ لا تفيد تخصيص العرب بدعوة القرآن، خاصة وقد ورد النفي المطلق في الآية ٣٤/ ٢٨ ـ من سورة سبأ: ﴿وما أرسالناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (وهو نفي صريح للتخصيص).

فالآية ١٣ ـ من سورة الشورى: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾.

هي توضيح بأن دين الأنبياء واحد، ولكن شرائعهم هي المختلفة فقط. باختلاف الزمان والمكان ومدارك الإنسان. وفي الحديث الشريف: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن أختلفت الشرائع وتعددت المناهج لقوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ ٥/ ٤٨ ـ المائدة.

ب ـ وليس صحيحاً أيضاً قول المؤلف: «ودين الكتاب هو الإسلام الذي يشهد به أولوا العلم قائما بالقسط... ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ (٣/ ١٨ ـ ١٩ ـ آل عمران).

فإن لم يكن من جدال في القرآن أن الإسلام هو دين كل كتاب سماوي ـ للوحدة الأزلية بين الأنبياء فإن خطأ المؤلف يكمن في ربط: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ بالآية السابقة لها وعرفهما كآية واحدة ليصل من ذلك إلى أن الإسلام الذي دعا إليه النبي(ص) يحتاج دوماً إلى شهادة أولي العلم بحقه وصدقه، وأن شهادة

هؤلاء مقرونة بشهادة الله وملائكته. وأن أهل العلم هم النصارى.

ذلك من المؤلف كان دوراناً بلغ حدَّ الترنّح.

ـ فالآية ١٨ ـ هي آية مستقلة: بدأت بمقدمة وأنتهت بنتيجة. **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾** أي إن الشهادة هي لوحدانية الله العزيز الحكيم.

ـ والآية الثانية ١٩ ـ هي مستقلة أيضاً وفيها ابتدأ الكلام بأن ذات الهمزة المكسورة. لكي توضح أن الإسلام هو الدين عند الله وأنه هو دين أهل الكتاب عامة من يهود ونصارى ومسلمين وأنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينات والعلم.

﴿إن الدين عند الله الاسلام وما أختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ ٣/١٩.

ج ـ أما خطاب القرآن لأهل الكتاب في الآية ٥/١٩ ـ المائدة. فلا يفهم منه أن دعوة الإسلام أستهدفتهم دون سواهم. بل ليوضح لهم أن التحريف والتغيير تطرقا إلى الشرائع خلال الفترة بين الرسل لطول الزمان وبعد العهد. فاختلط الحق بالباطل والصدق بالكذب. (قيل: كانت الفترة بين محمد وعيسى ستماية سنة أو أقل أو أكثر قليلاً. وبين عيسى وموسى ألفاً وسبعماية سنة وألفي نبي وكان بين عيسى ومحمد أربعة أنبياء ثلاثة من بني إسرائيل وواحد من العرب هو خالد بن سنان العبسي ـ تفسير الرازي للآية ١٩ من سورة المائدة).

ولكن ابن كثير ينفي الأنبياء بين عيسى ومحمد بالأستناد إلى حديث رواه أبو هريرة وأثبته البخاري (أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي).

د ـ أما وجه إحتجاج المؤلف بالآية ٢٠/ من آل عمران وقوله: إنها خطاب من القرآن إلى أهل الكتاب جاء بصغية الصراخ ـ كما قال المؤلف ـ فهو إحتجاج مرفوض. أدباً وتفسيراً ومناسبة.

ـ لأنه يبتعد عن أدب الجدال مع القرآن الذي هو أعظم كتاب قرأه الناس. ولأن أسلوب الآية ١٩ ـ وما قبلها وما بعدها هو أسلوب هادىء عميق بعيد عن

الإنفعال ﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن أتبعنِ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتهم فإن أسلموا فقد أهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾.

ـ ولأن المفسرين متفقون على أن هذه الآية تناولت جميع المخالفين والمناهضين لدعوة النبي من يهود ونصارى ومشركين ومجوس وسواهم.

فلا يصح أعتماد هذه الآية دليلاً على تخصيص الدعوة بأهل الكتاب من بني إسرائيل. خاصةً وقد تعددت الآيات في شمولية الدعوة وشمولية القرآن.

﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾٢٥/١.

وقد جاء في مختصر ابن كثير عند تفسير الآية ٣/ ٢٠ ـ آل عمران «في الصحيحين وفي غيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه (ص) بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيِّهم وأمييِّهم أمتثالاً لأمر الله بذلك وقد روي عنه أنه قال «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار ـ رواه مسلم عن أبي هريرة». وقال: «كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ـ أخرجه البخاري وأحمد».

هـ ـ والآيتان ٢٨/ ٥٢ ـ ٥٣ من سورة القصص: نزلتا في وفدٍ من القسيسين أرسلهم النجاشي إلى النبي فقرأ عليهم سورة (يٓس والقرآن الحكيم) فجعلوا يبكون وأسلموا وقالوا: إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أي موحدين خالصين ومستجيبين لله فجاءت الآية ٢٨/ ٥٤ ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ أي إنهم إستحقوا الأجر مرتين لأنهم آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الثاني.

و ـ ولقد أخطأ المؤلف في إستدلاله بالآيتين ٧/ ١٥٩ الأعراف و ٦١/ ١٤ ـ الصف.

فالآيتان تحدثتا عن مناسبتين تستقلان في الزمان والمكان.

وهما لا تبرتبطان بالآيتين ٥٢ ـ ٥٣ من سورة القصص. لذلك أخطأ المؤلف عندما قال: «إن الأمة التي تحدثت عنها آيتا سورة القصص ٥٢ ـ ٥٣ هي الأمة التي

تحدثت عنها وحددتها الآيتان ١٥٩/٧ الأعراف و ٦١/ ١٤ الصف وذلك:

ـ لأن آيتي سورة القصص لا تتحدثانُ بكلمة عن الأمة.

ـ ولأن الآية ١٥٩/٧ الأعراف تحدثت عن أمة من قوم موسى: **﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾**.

ـ ولأن الآية ٦١ ـ ١٤ الصف تحدثت عن الطائفة التي أستجابت إلى دعوة عيسى: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾**.

وللدلالة على أن الأنصار الذين دعاهم النبي محمد (ص) هم غير الأنصار الذين دعاهم المسيح وَرَدَ في الصيغة اللغوية ما يفيد هذا التفريق. فعيسى قال من أنصاري إلى الله وهو قول جاء في صيغة السؤال الذي كان جوابه من الحواريين نحن أنصار الله. أما أنصار الدعوة الإسلامية فقد ورد الإخبار عنهم بصيغة الأمر والوجوب لذلك لم يقتض منهم جواباً.

البحث الأول

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على العموم

قال المؤلف: إن اصطلاح «أهل الكتاب» يشمل اليهود والنصارى على العموم. غير أن تحديد هوية الفريق الذي خاطبه القرآن بهذا المصطلح يعتمد على القرائن اللفظية واللغوية في الاسلوب القرآني.

فأهل الكتاب وإن كانوا فريقين ضمن مصطلح واحد فإن موقف القرآن محدَّد تجاه كل منهما:

ـ فالفريق الأول هم اليهود وصفوا في القرآن بصفات لم يشترك فيها الفريق الثاني: «فهم أول كافر به» ٢/ ٤٠. وهم «الذين نبذوا ما جاءهم من الرسول» ٢/ ١٠١. و«الذين يودون أن يردوا المؤمنين عن إيمانهم» ٢/ ١٠٩ وقد أطلق القرآن عليهم صفة «أولي العلم» ٣/ ٧ و٤/ ١٦١.

ـ أما الفريق الثاني ـ النصارى. فهم الذين ينصرف إليهم كل ثناء يغدقه القرآن على أهل الكتاب ـ ٥/ ٨٥. لا يشترك معهم في هذا الثناء غير العدد القليل الذي أسلم من اليهود[١].

وعبارات الثناء تأتي في عدد من المصطلحات التي خصهم بها: «المحسنين» و«المقسطين» و«المسلمين من قبله» وحيثما وردت كلمة النصارى في آية تذمُّ مواقف أهل الكتاب ـ تكون مدسوسة دسّاً لأن التعريض القرآني لم يقع إلا على اليهود والمشركين العرب. (تلك خلاصة عن أفكار المؤلف).

ويقدم المؤلف مثالاً على أقواله: الآية ٢/ ١٢٠ ـ البقرة التي إذا ما قرئت مع الآية ٢/ ١٢ تبيّن أن كلمة «ولا النصارى» المعطوفة على اليهود مدسوسة في الآية ـ استجابةً لظروف السياسة والحروب التي كانت في عهد جمع القرآن تحت إشراف عثمان قد تحكمت في عواطف الناس ـ لم ينج منها أَحَدٌ حتى أعضاء لجنة جمع الكتاب.

تلك المقولات أطلقها المؤلف على أنها مسلَّمات وأحكام لاتحتاج لأي مرجع. لذلك اعتمد في صياغتها وبناء أحكامه عليها، على فهمه الخاص لآيات القرآن. حتى إنه بالغ في الإعتداد بالذات مبلغاً جعله في أحيان ـ كما سوف يمر معنا ـ لا يتقيد باللغة. ولا بالأصل العربي للكلمة. فهو يشتق منها معاني لغوية. ومفاهيم قرآنية. كما يشاء، لا كما يشاء القرآن وتشاء مراجع اللغة.

لذلك:

وبما أن مسلماته ليس لها جذور مرجعية بات من السهل مناقشتها وبيان الزيف والضلال فيها، خاصة وإن مادة الرأي والرأي المضاد، هي في القرآن وأن القرآن مفتوح الدفتين منذ أربعة عشر قرناً لكل قارىء ومفسر ومدقق ودارس. وتتلخص مناقشتها بالآتي:

---

(١) وعبارات الثناء تأتي في عدد من المصطلحات التي خصهم بها «المحسنين» و«المقسطين» و«المسلمين من قبل».

١ ـ إن أهل الكتاب لم يكونوا فريقين فحسب بل أربعة فرقاء: «اليهود الذين آمنوا بالإسلام» و«اليهود الذين كفروا وعارضوا» و«النصارى الذين كفروا» و«النصارى الذين آمنوا».

ومن المستحيل أن نجرد الذين أسلموا من اليهود والنصارى، من هذه التسمية. لأن القرآن تحدث عنهم في عدد من الآيات ووصفهم بالهدى والإيمان. كما تحدث عن إسلامهم بمعناه الشمولي حتى قبل نزول القرآن ٣/ ٥٢ و٥/ ١١١ و٢٩/ ٤٦ و٢٧/ ٤ و٢٨/ ٥٣.

٢ ـ **﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به﴾** (٢/ ٤١ البقرة).

هذه الآية توجَّهت إلى يهود المدينة محذرةً إياهم من أن يكونوا أول كافر بالقرآن والإسلام. فهي لا تدل على أن اليهود هم فعلاً أول الكفار بالدعوة. خاصة وفي الوقائع التاريخية وفي تسلسل أزمنة النزول ما يدل على أنَّ أول من كفر وعارض وعاند هم المشركون من قريش.

وقد فسَّر القراء «مقاصد ـ أول كافر به» فأتفقوا إلا القليل منهم على أنها تحذير لليهود من أن يكونوا أول الكافرين من أبناء ملّتهم فيقتدي بهم البقية وينتشر الكفر بينهم جميعاً.

ـ و**﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾** ٢/ ١٠١ البقرة.

في هذه الآية وخاصة عبارة «نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب» دليل على أن القرآن لم يطلق صفة الكفر على جميع الذين أوتوا الكتاب من اليهود. وقد أتفق المفسرون على أن هذا الفريق المخصوص بالآية هم طائفة من اليهود كان يتولاهم «لبيد بن الأعصم».

وقد روي أن مالك بن الصيف قال حين بعث رسول الله (ص) فذَّكر اليهود ما أخذ عليهم من الميثاق وما عُهد إليهم في محمد: «والله ما عُهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاق» فأنزل الله: **﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾**.

ونبذه، هنا تعني نقضه، فأصل النبذ هو الطرح والإلقاء. ومنه سمي اللقيط منبوذاً وكذلك التمر والزبيب نبيذاً إذا طرحا في الماء. وقال أبو الأسود الدُّؤلي:

نظـــرت إلـــى عنـــوانـــه فنبـــذتـــه كنبـــذك نعـــلاً أخلقـــت مـــن نعـــالكـــا

ـ **﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً. حسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق. . . .﴾** (٢/ ١٠٩: البقرة).

إن عبارة «كثير من أهل الكتاب» دلت على أن القرآن لم يخصص اليهود كلهم بعبارة «أهل الكتاب» ففي هذه الآية مثل ما في الآية ٢/ ١٠١ ما يدل على أن القرآن لم يعمم صفة الكفر على جميع اليهود بل قصرها على الذين كابروا وعاندوا وظلموا وظلوا على عدائهم للدعوة.

وقد روي عن عبد الله بن عباس قوله: كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود حسداً وكانا جاهدين في ردِّ الناس عن الإسلام ما أستطاعا، كما كان كعب بن الأشرف شاعراً وكان يهجو النبي (ص) فنزلت هذه الآية (ابن كثير).

٣ ـ وفي تخصيص النصارى جميعاً بآيات الثناء ـ كما زعم المؤلف ـ نستعيد قراءة الآيات التي أعتمدها في مقولته لنكتشف مدى الصحة في أقواله:

ـ **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون(٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين(٨٣)﴾** (المائدة٥).

هاتان الآيتان والآيات التالية لهما(٥/ ٨٤ ـ ٨٥) نزلت كما نقل عن ابن عباس ـ في النجاشي وصحبه حيث فاضت عيونهم بالدمع تأثراً وإيماناً عندما تلا عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم.

وفي رواية أخرى أن تلك الآيات نزلت في فئة من النصارى كانت على المنهاج الصحيح للإنجيل، لذلك وصفهم القرآن في آيات عديدة بالرأفة والخشوع

(وجعلنا في قلوب الذين أتبعوه رأفة ورحمة). (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليهم خاشعين لله...).

أي إن هذه الفئة أستحقت وصفها بهذه الأوصاف لأنها آمنت بالله وما أنزل على النبي (ص) القرآن وما أنزل إليهم ـ الإنجيل ـ إيماناً صادقاً خاشعاً لله.

﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ ١٢/٢٢ نزلت في النبي يوسف **﴿إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين﴾** (١٢/٧٨) نزلت في النبي يوسف أيضاً **﴿سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين﴾** (٣٧/ ١٢٠ ـ ١٢١). **﴿سلام على آل ياسين إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين﴾** (٣٧/ ١٣٠ ـ ١٣١). **﴿إن المتقين في جنات وعيون آخذين ما أتاهم ربُّهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾** (٥١/ ١٥ ـ ١٦) أي كانوا في الدنيا محسنين. **﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾** (٤٩/٩) و**﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾** (٥/ ٤٢).

لقد روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله (ص) قال: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش. الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماولوا... أخرجه النسائي وابن أبي حاتم: (ورد هذا الحديث، في مختصر ابن كثير، بتفسير الآيتين ٦٠/٧ ـ ٩).

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ (٢/١٢٨).

وردت هذه الآية على لسان إبراهيم وإسماعيل بدليل الآية ٢/١٢٧: **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم﴾**. **﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني.إن الله أصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾** (٢/ ١٣٢).

وهكذا تبين من شرح الآيات أن الصفات «المسلمين من قبل» و«المحسنين» و«المقسطين» و«آيات الثناء» وردت في القرآن مرتبطة بشروط إيمانية إذا توافرت في أي شخص أو أية فئة نالت ونال هذه الصفات. فهي ليست مخصصة بالنصارى كما

إن إطلاق صفة «الكفر» على جميع أهل الكتاب من اليهود دون أستثناء المؤمنيز منهم فيه تجاوز على القرآن وقصور عن فهمه.

البحث الثاني

القرآن يقصد بأهل الكتاب اليهود والنصارى من بني إسرائيل

تحت هذا العنوان طرح المؤلف الأفكار الآتية:

١ ـ الدعوة التي أطلقها القرآن بصوت صارخ، موجَّهة إلى أهل الكتاب وهم في عرفه «اليهود والنصارى» حصراً. والنصارى هم فئة من بني إسرائيل تَبِعت المسيح لذلك كان المسيحيون الأمميون خارج صراع الدعوة وبعيدين عن أهدافها (٢٧/٧٦ النمل).

٢ ـ طائفة النصارى من بني إسرائيل، هي التي أيدتها الدعوة الإسلامية وقالت بمقالتها وبذلك يكون أنتصار الإسلام هو «الإظهار» الذي كانت قد وعدت به، على الذين كفروا (٦١/ ١٤ الصف).

٣ ـ القرآن، هو دعوة نصرانية، توجهت إلى بني إسرائيل لأنهم أهل الكتاب والحكمة (التوراة والإنجيل) ٤٥/١٦ ـ ١٧ فالبينات والعلم آلا إليهم مع المسيح بالإنجيل، فلما كفروا لعنهم، ثم جاء القرآن فصدق لعنة المسيح على اليهود ٥/ ٧٨.

٤ ـ لقد حدد القرآن مهمة المسيح، وقضاءها الاجتماعي، إذ قال عنه «إنه رسول إلى بني إسرائيل ـ ٣/ ٤٩». وإنه عبد الله ولم يقل عنه إنه مثل للعالمين ٤٣/ ٥٣.

وينتج عن هذا:

ـ أن رسالة المسيح، والقرآن من بعده، لم يستهدفا كل الناس، بل توجها حصراً وقصراً في نطاق بني إسرائيل.

ـ وهدى التوراة، وحكمة الإنجيل، وجدا مجال نشاطهما الديني والأخلاقي

في بني إسرائيل لأن تعبير الحكمة، في المصطلحات القرآنية يعني الإنجيل ٤٠/ ٥٣ و ٤٣/ ٦٣.

ـ وبما أن الكتاب والحكمة، أوتيا بني إسرائيل، لذلك أقتصر حوار القرآن معهم. ووجه إليهم دعوته، دون غيرهم من الطوائف والأمم.

وسوف نفرد هذه المواضيع بالمناقشة التالية:

أولاً: إن «التفريق» بين النصرانية والمسيحية هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها أفكار الكتاب. لأن المؤلف قرأ آيات الثناء على النصارى الذين نصروا المسيح ثم قبلوا دعوة النبي فيما بعد فرفضوا عقيدة التثليث وتوقفوا عن المغالاة بالمسيح وآمنوا بالقرآن وما أنزل قبله.

ثم قرأ أيضاً آيات التنديد والتكفير بمن يشرك بالله ومن ينسب إليه الزوجة والولد. وبدلاً من أن يعود المؤلف إلى أسباب النزول ومناسباته. وأن يستهدي بالمراجع اللغوية والتفسيرية ليفهم كيف صيغت هذه الصياغة البديعة، وكيف صار الجمع في القرآن بين الثناء والتكفير في فئة واحدة هي «فئة النصارى».

نقول: بدلاً من أن يحاول الخروج باليقين من هذا المغلق، اندفع بمواهبه الذاتية المجردة، يقطع ويوصل بعملية معقدة هي أشبه ما تكون «بالقيصرية» ولكنها ـ للأسف ـ لم تستخرج من أحشاء النصوص غير «خديج» (الخديج هو المولود الناقص الخلق).

ونحن إذ نشير دون تفصيل فلأننا سوف نقف وقفة مستفيضة في ما سياتي من فصول الكتاب مع هذا الموضوع وإذ ذاك سوف نستنطق التاريخ ونستعيد ما يمكن استعادته من آيات القرآن والإنجيل، لإبراز الخطأ الجنائي الذي ارتكبه المؤلف.

بعد ذلك سوف نعود إلى فكرة المؤلف التي ملكت عليه فضاءه الفكري، وهي: إن دعوة الإسلام لم تعرض على المسيحيين خارج «الجزيرة» بل أقتصر صوتها الصارخ على اليهود والنصارى ضمن جزيرة العرب.

ـ إن الآية (٧٦) من سورة النمل التي كانت معتمد فكرة المؤلف لا تفيد انحصار الدعوة الإسلامية واقتصارها على فئة أو جهة أو دين: ﴿**إن هذا القرآن يقصّ**

على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ ٢٧/ ٧٦ النمل.

فليس فيها ما يفيد بأن القرآن لم يَحْتَوِ إلا على «خلافات بني إسرائيل» ومن يقرأ القرآن يجد فيه من القصص والأحاديث والأحداث ما يجعل من خلافات بني إسرائيل جزءاً صغيراً وجانباً محدوداً من شمولية القرآن.

لقد ورد الكثير من الآيات وصح الكثير من الأحاديث في أممية الدعوة. وقد كنا ذكرنا بعضاً منها في الفقرة أ ـ من توطئة هذا الفصل وهو قليل من كثير. ويحدثنا التاريخ ويستفيض عن الأوامر الإلهية لبثّ الدعوة في أنحاء الكون المعروف آنذاك التي نهض بها الروّاد الأوائل جهاداً واستشهاداً. وقرضاً حسناً لله باعوا بموجبه أنفسهم إلى الله ﴿بأنّ لهم الجنة يقاتلون في سبيله فيقتُلُون ويُقتَلُون...﴾ ولو تحلّى المؤلف بروح الحياد والموضوعية لما رأى دعوة الإسلام محصورة بين جدران الجزيرة في الوقت الذي تتسامى المآذن وترتفع أصوات القراء فتمتلىء بها بلاد الفرس والروم والغال والصين والهند وأوربا والأمريكتين.

ثانياً: ورد تعبير «النصارى» في الآيات ٢/ ٦٢ ـ ١١١ ـ ١١٣ ـ ١٢٠ ـ ١٣٥ ـ ١٤٠ من سورة البقرة وفي الآيات ٥/ ١٤ ـ ١٨ ـ ٥١ ـ ٦٩ ـ ٨٢ من سورة المائدة وفي الآية ٣٠ ـ من سورة التوبة والآية ١٧ ـ من سورة الحج.

وفي هذه الآيات جميعها يتوجه الخطاب القرآني إلى أتباع المسيح بأنسابهم وطوائفهم كافة دون تخصيص طائفة أو إستثناء طائفة. فأثنى على الأفراد والمجموعات الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية وأسقطوا من عقائدهم فكرة التثليث والبنوة وتأليه الأقنوم الثاني وأمه ـ بالإتحاد والإنفراد ـ كما ندد تنديداً شديداً وكفّر تكفيراً قاطعاً أرباب هذه العقائد دون تخصيص بفئة أو زمان أو مكان وأعتبر الموقف من هؤلاء موقفاً مستمراً مع الزمن غير قابل للتعديل أو الإلغاء.

وإنه لمن عبث القول أن التنديد والتكفير هما خاصان «باليعقوبية» وأتباعها، إذ لم يثبت أن للقرآن وللدعوة بوجه عام موقفين مختلفين في قضية واحدة، فما كان في تكفير من قال بألوهية المسيح أو بنوته وبالتثليث مقتصراً على طائفة ومتسامحاً فيها مع طائفة ثانية.

ولو جاز مثل هذا العبث لكان في مستطاع كاتب يهودي أن ينتضي كتاباً مثل الأستاذ الحداد يقول فيه: إن تكفير القرآن لليهود لم يكن واقعاً إلا على يهود الجزيرة أما اليهود من الأجناس الأخرى فإن خطاب القرآن لم يُعن بهم ولم يتوجه إليهم

وما نطلق على هذه التوجهات صفة «عبث القول» إلا لأنها تتجاوز المعقولات وتعكس البديهيات. فالكتب السماوية التي حملت الأديان إلى بني الإنسان وضعت قواعد الأعتقاد والقيم لكي تترافق مع البشر ما شاء الله لها ذلك فلا تتبدل ثوابتها إلا على يد نَبيٍّ يفوَّض إليه الانتقال بها من مواقع الماضي البعيد إلى مواقع الحاضر والمستقبل مراعاة لتطور الأجيال والظروف.

ثم:

ـ إن تسمية «أنصار المسيح» باسم «النصارى» لها عودٌ تاريخي إلى بداية دعوته (ع) عندما قوبل بالعداء اليهودي الشديد فصرخ من أنصاري إلى الله فأجاب الحواريون نحن أنصار الله.

ـ ونبي الله عيسى عرفته الأناجيل كافة بأنه يسوع الناصري: «متى ٢/ ٢٧ وأتى وسكن مدينة يقال لها الناصرة لكي يتم ما قيل في الأنبياء إنه سيدعى ناصرياً «أي أن تسميته بيسوع الناصري مكتوبة في الأنبياء قبل مجيئه بعدة قرون. وكذلك يوحنا: (١/ ٤٣ ـ ٤٥ و١٨/ ٣ ـ ٨ و١٩/ ١ـ ٢٠) ومتـــى: (٢٦/ ٩ ـ ٧٥ و٢١/ ١٠ ـ ١١) وفي أعمال الرسل (٢/ ٢٢ و٣/ ٦ و٤/ ١٠ و٦/ ١٤ و٢٢/ ٨ و٢٤/ ٥ و٢٦/ ٩).

حتى إن شيعته ظلوا يدعون «شيعة الناصريين» (أعمال الرسل: ٢٤/ ٥).

فلم يطلق على هؤلاء اسم «مسيحيين» إلا في أنطاكية من قبل برنابا وبولس لأول مرة (أعمال الرسل: ١١/ ٢٥ ـ ٢٦. ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب من شَاول (بولس) ولما وجده جاء به إلى أنطاكية. فحدث أنهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة وعلّما جمعاً غفيراً ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً).

فإذا كان شاول لم يعاصر المسيح وهو في الأصل يهودي فِرّيسي من مواليد طرسوس (أعمال ٧/ ٩) وكان شديد العداء والخصام للنصرانية (أتباع يسوع) شديد

التعذيب لهم كما تحدث عن نفسه في رسالته إلى أهل غلاطية[1] وفي أعمال الرسل (٩/ ١ ـ ٢)[2].

فإن التسمية المسيحية لم تكن بطلب من المسيح ولا تمت في حياته.

ـ تبيين من مجمل ما تقدم أن:

ـ كلمات «ناصري» و «ناصريين» و «نصارى» موجودة قبل كلمة «مسيحيين».

ـ هذه التسمية ليسوع وأتباعه لإتمام ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصرياً حتى ٢/ ٢٣). أي إن التسمية الناصرية مكتوبة ومأمور بها من عهد الأنبياء.

ـ إن كلمة «مسيحيين» أطلقت أولاً على التلاميذ الذين أجتمعوا في أنطاكية وقد قام بهذه التسمية بولس وبرنابا بعد أرتفاع المسيح بأكثر من أربعين عاماً.

ـ وفي التاريخ الكنسي: إن أحداث أنطاكية بعام ٤٩ ـ م أبرزت الخلاف بين بولس والحواريين (لم يكن بولس منهم) الذين أعتبروه خائناً ومتواطئاً على دعوة عيسى حتى وصفته وثائقهم «بالخائن العدو».

ـ إن كلمة «المسيحيين» هي تسمية جديدة لم توضع لكي تلغي «النصارى» لأن المسيح هو الأصل الثابت لهذه التسمية ولأنها مكتوبة في الأنبياء، فما كان في تقدير بولس وبرنابا أنهما يلغيانها، ولو كانا قد فكرا بذلك لما أستطاعا لقدسية التسمية وبُعْدِها في الكتاب المقدس.

ـ من هذا تبدو «النصرانية» ذات جذور مقدسة تتصل بالأنبياء في حين أن «المسيحية» جاءت رديفاً لها ومن وضع التابعين وذات صفة محلية[3]:

---

(١) إنكم سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهوْدية إني كنت أضطهد كنيسة الله وأتلفها بإفراط وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثير من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرةً في تقليد آبائي (١/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) أما شاول فكان لا يزال ينفث تهدداً وقتلا على تلاميذ الرب فتقدم إلى رئيس الكهنة وطلب منه رسائل إلى الجماعات حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم ـ ٩/ ٢.

(٣) موريس يوكاي ـ دراسة الكتب المقدسة: ص: ٧٠ وما بعدها.

ثالثاً: الأصل التاريخي للنصارى وإن كان قد أطلق على الطائفة التي قالت للمسيح نحن أنصار الله (الحواريين) فهي ـ في الوقت ذاته ـ الأصل والإمتداد للدعوة المسيحية قاطبة لا فرق بين يهوديٍّ تنصَّر وبين أممي تنصَّر والخلافات التي نشبت بين بولس من جهة وبين يعقوب وبطرس ولوقا ويوحنا وبقية آل البيت المقدس من جهة ثانية كانت تدور حول سر الصلب والناموس.

١ ـ فبولس تبنى فكرة «سفك دم يسوع» كفارة عن خطايا البشر وروَّج لها في رسائله التي بدأ في كتابتها بعد أكثر من خمس عشرة سنة بعد الصلب وقال في رسالته إلى أهل كورنثوس:

«لأني لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم غير يسوع المسيح وإياه مصلوباً ـ ٢/ ٢».

«أعرفكم أيها الإخوة بالإنجيل الذي قبلمتوه فإنني سلمت إليكم في الأول ما قبلته أنا أيضاً أن المسيح مات من أجل خطايانا حسب الكتب» ١٥/ ١ ـ ٣».

وفي رسالته إلى أهل غلاطية يهاجم الناموس وينفي منه البر والعدل فيقول:

«إن كان الناموس بر فالمسيح إذن مات بلا سبب ـ ٢/ ٢١»».

في حين أن متى والباقين ينشرون ما قاله المسيح: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحدٌ أو نقطةٌ واحدة من الناموس حتى يكون الكل... متى ٥/ ١٧ ـ ١٩».

«إن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس... لوقا ١٦/ ١٧».

ويقول مركيون تلميذ بولس المباشر:

«إن إلّه اليهود الذي أعطى الناموس لموسى وخلق العالم كان في الحقيقة إلهاً

شريراً» كما كان يعتقد بأن إله المحبة ظهر في المسيح لمعارضة إلّه موسى خالق العالم[1].

٢ ـ فإلى بولس تعود حركة الإنعطاف الحاد في أتباع عيسى المسيح.

لقد كان مندفعاً في عقيدته حتى الأمّحاء: (أظن أنا أيضاً عندي روح الله ـ كورنثوس ٧/ ٤٠) (كل الأشياء تحل لي. . . كورنثوس ٦/ ١٢ و١٠/ ٢٣).

«المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة من أجلنا لأنه مكتوب ملعون من عُلِّق على خشبة. . .» غلاطية ٣/ ١٣.

٣ ـ ومع أنه ليس من مهمات هذه الفقرة أن تسرد المراحل التاريخية للدعوة النصرانية ولا أن تعرض وجهات النظر المختلفة والعوامل التي أدت إليها وساعدت على تطويرها فإن ما يمكن الجزم به هو أن عقيدة «التأليه» وعقيدة «البُنُوَّة الطبيعية» من الله و«الصلب الجسدي» و«القيامة الجسدية بعد الصلب» لم تصبح ثوابت عقائدية إلا بعد أن سيطرت كنيسة بولس وأتباعه على الكنائس والآراء الأخرى قبيل إنتصاف القرن الثاني الميلادي بقليل.

٤ ـ لذلك أتجهت دعوة القرآن إلى التنديد بهذه الثوابت ونقضها لأنها تتعارض وتتناقض مع فكرة الوحدانية والأزلية والخلق والمصير التي تَفَرَّدَ بها الله جلَّ جلالُه دون شريك.

٥ ـ وإذ يقول المؤلف: «فالبينات والعلم جاءت بني إسرائيل مع المسيح بالإنجيل. فلما كفروا لعنهم المسيح وجاء القرآن يكرر هذه اللعنة عليهم ويؤكدها ويصدقها ٥/ ٧٨المائدة.

فإنه يرتكب الخطأ، في فهم الآية مضموناً ومناسبة.

ـ إنها ترتبط بالآية ٧٧ ـ وتتكاملان في إبراز موقف عقائدي توضحه كلمات الآيتين:

---

(١) كتاب الردّ الجميل على إلهية عيسى بصريح الإنجيل للإمام الغزالي ـ نشر دار الجيل ـ طبعة ٣ ـ سنة ١٩٩٠م.

﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتَّبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾ (٧٧) ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (٧٨).

ـ فالخطاب موجه إلى أهل الكتاب اليهود والنصارى على تعدد طوائفهم.

ـ وفيه نهي عن الغلو في الدين. وهو يعني «غلو اليهود في ذم المسيح وأمه حيث اتهموه بأنه ابن زنا..» و«غلو النصارى في المسيح حيث ادعوا ألوهيته» وكلاهما غلو في الدين بغير الحق.

والغلو هو الخروج عن الحق وهو نقيض التقصير. لأن الحق يقع على طرفي الإفراط والتفريط. والغلو في الدين نوعان: غلو حق وهو المبالغة في التقدير والتأكيد. وغلو باطل وهو عكس الأول. أما ما جاء في الآية ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم...﴾ فهو نهيٌ عن الأهواء التي خلت ثم أضلت:

قال الشعبي: ما ذكر الهوى في القرآن إلا كان مذموماً ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ (ص: ٢٦) ﴿أفرأيت من اتخذ إلَٰهه هواه﴾ (الجاثية: ٢٣). ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم: ٣).

فالهوى ـ كما قال أبو عبيدة ـ لا يوضع موضع الخير، وسمي الهوى بهذا الاسم، لأنه الحالة التي تهوي بصاحبها إلى النار إن كان في الدين بدون حق. قال أحدهم:

إن الهوى لهو الهوان بعينه ... فإذا هويت فقد لقيت هوانا

ـ وفي لعن الذين كفروا من بني إسرائيل:

اتّفق القرّاء على أن المقصود بالآية (٧٨) هم أصحاب السبت الذين لعنهم داوود وهم أهل «أَيَلَةْ» حاضرة بحر القلزم: حيث قال داوود: «اللهم العنهم واجعلهم آية» فمسخوا قردة.

ثم لعن منهم أصحاب المائدة على لسان عيسى ابن مريم عندما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا[1].

---

(١) الإمام الرازي ومختصر ابن كثير.

وهكذا بان خَطَأ المؤلف في قوله: إن اللعن وقع من المسيح على عامة اليهود.

وكان من قبل في كتابه، «القرآن دعوة نصرانية ـ ص ٢٥» أخطأ بقوله مستنداً إلى هذه الآية: «إن القرآن يتفق مع النصرانية على تكفير اليهودية والمسيحية».

٦ ـ يقول المؤلف: إن هدى التوراة وحكمة الإنجيل محصوران في بني إسرائيل وإن الله جعل المسيح مثلاً لبني إسرائيل (٤٠/ ٥٣ غافر و ٤٣/ ٥٧: الزخرف).

ولكن هذا القول يعارضه قولنا كما يلي:

ـ الآية ٤٠/ ٥٣ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وأورثنا بني إسرائيل(٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤)﴾ فهي فضلاً عن أنها تروي تاريخاً يسبق المسيحية والإنجيل بقرون لا تتضمن ما يفيد بأن هدى التوراة وحكمة الإنجيل محصوران ببني إسرائيل.

ـ أما الآتيان ٤٣/ ٥٧ ـ ٦٣ من الزخرف.

﴿ولمَّا ضُرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون (٥٧) وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون (٥٨) إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل (٥٩)﴾ ﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم منه بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون(٦٣)﴾.

فقد فهم المؤلف منها: أن الله جعل من عيسى مثلاً خاصاً لبني إسرائيل وهو لو تتبع المصادر التاريخية وكتب التفسير وقرأ مناسبة نزول هذه الآيات لتجنب الوقوع في الخطأ.

فقد ثبت في المراجع أنه لما نزلت الآية ٢١/ ٩٨ من سورة الأنبياء ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون﴾ حضر عبد الله بن الزِّبعري وهو شاعر من كفار قريش وقال للنبي: «لقد خصمتك» ألست تقول كل ما يُعبد من دون الله هم حصب جهنم مع من عبده؟ قال نعم: قال: نحن نعبد الملائكة والنصارى تعبد المسيح واليهود تعبد عزيرا فهل هؤلاء حصب جهنم؟ فعجب الوليد بن المغيرة

والنضر بن الحارث ومن معهما من قول ابن الزبعري وقالوا: لقد أحتج وخاصم. فنزلت الآية: ﴿إن الذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ (٢١/١٠١: الأنبياء) أي إن عيسى وعزيرا والملائكة وكل من عُبد معهم ممن مضى على طاعة الله فاتخذ من بعدهم أهل الضلالة أرباباً من دون الله هم مبعدون عن جهنم.

ثم ذكر القرآن بعد ذلك أنهم لم يضربوا مثلاً بعيسى إلا من باب المجادلة والمماحكة الكلامية: ولما ضرب ابن مريم مثلاً... إلى آخر الآيات، أي إنهم خَصِمُون محِبُّون للجدل والخصام.

ثم بيَّن أن عيسى هو عبد من عباد الله أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة وجعله «مثلاً» أي حجة وبرهانا لإثبات قدرة الله. فوضع على يديه الآيات يدحضُ بها السحر السائد في عصره.

ـ هذا ولا بد من الإشارة إلى أن القرآن اعتبر الحكمة غير الإنجيل، ففي الآية ٣/٤٨: آل عمران يتحدث عن نعم الله على المسيح فيقول: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ فالمراد بالحكمة هو تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان هو في أن يعرف الحق لذاته والخير من أجل العمل به ومجموعهما يسمى الحكمة، لذلك جاء تعليم التوراة بعد تعليم الكتاب (الخط والكتابة) بما فيها من علوم عقلية وشرعية وأسرار إلهية تتطلب من متعلمها أن يكون مُلِمّاً قبلها بالعلوم التي بموجبها يستطيع استيعابها ثم جاء الإنجيل في المرتبة الرابعة وهي المرتبة العليا في الإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية (الإمام الرازي).

البحث الثالث

أهل الكتاب لا يعني في القرآن غير «اليعقوبية» عندما يخاطب به أتباع المسيح

قال المؤلف: تجدُ في القرآن جدالاً مع أهل الكتاب. ناقَشَهُم في كُتبِهِم وعَقَائدهم.

وتعبيره عنهم بأهل الكتاب، لم يخطىء الناس فيه فيما يتعلق باليهود فهم أهل

الكتاب حقاً. وعقائدهم معروفة مميزة ليس فيها مظنَّة الخطأ.

ولكن ذلك، كان في تحديد «أهل الكتاب» من أتباع المسيح. فهم على مختلف طوائفهم يتبعون الإنجيل لذلك يبدو من ظاهر النصوص أن القرآن يعنيهم جميعاً.

غير أن المؤلف يرى غير ذلك. إذ يلخص مقولته بما يلي:

«إن كل ما جاء في القرآن عن أهل الكتاب من المسيحيين موجه، حصراً، إلى فئة منهم هي الفئة «اليعقوبية» وهي فئة خارجة، حاربتها الكنيسة ووصفتها بأنها بدعة، وحرمت مقالتها وطردتها منذ أوائل القرن الرابع أما المسيحية التي تمثل العقيدة الرسمية لأتباع عيسى فقد كانت بعيدة عن عِنَاية القرآن والدعوة. فلم يعرفاها ولم يواجهاها أو يجادلاها.

١ ـ والجدل القرآني مع هذه البدعة... حصل مرَّتين وبأسلوبين مختلفين هما:

ـ أمام النجاشي. وقد كان على شكل عرض من جانب واحد دون مواجهة، قام به جعفر بن أبي طالب متحدِّياً وفد قريش برئاسة عمرو بن العاص. الذي جاء ليطلب منه طرد أبناء الهجرة الأولى من المسلمين بزعم أن دينهم يدعو إلى إلغاء الاعتقاد المسيحي فكان جواب جعفر أن قرأ أمام النجاشي وصحبه سورة مريم ليوضح رأي المسلمين في مريم وابنها فامتلأ الملك وأصحابه بالخشوع وفاضت عيونهم من الدمع.

ـ ومع وفد نجران في عام الوفود أي قبل وفاة النبي بسنة.

٢ ـ أما المواجهة فكانت مرتين:

الأولى: في غزوة مؤتة الفاشلة.

والثانية: في غزوة تبوك الثأرية الظافرة.

يقول المؤلف: إن قصة الاتصال بالحبشة تتمثل في سورة مريم. وجدال وفد نجران يبدو في سورة النساء بالآيتين ١٧٠ ـ ١٧١ وآل عمران في الآيات من ٣٣

ـ ٦٤ والمائدة بالآيات ١٩ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٩ ـ ٨٠ و١١٧ ـ ١١٨.

«والجدل العقائدي إذ نجده موزعاً على هذه السور. فإن المؤلف يحذرك من أن تخطىء فتحسبه مقابلات متعددة. بل لم يجر غير مرة واحدة مع وفد نجران، ولم يجتمع في ذلك الاجتماع غير جزء من الآيات ولكن ظروف «جمع القرآن» خرجت بهذا الكم الكبير من الآيات ووزعتها على هذه السور.

«والمواجهة التي تمت في معركتين» معركة مؤتة، التي وردت الإشارة إليها في سورة الحديد بالآية ٢٩.

والثانية كانت في معركة تبوك، حيث توسع القرآن في الحديث عنها بسورة التوبة (٢٩ ـ ٣٠ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤) غير أن الثابت الذي لم ينقض ـ برأي المؤلف ـ أن الإسلام لم يحاور غير اليعقوبية من خلال وفد نجران ولم يقابل غير اليعقوبية في الحبشة، ولم يحارب غير اليعقوبية في مؤتة وتبوك.

إنها ـ كما يقول ـ أربع: مُحَاوَرَتان ومجابهتان حَصَلت جميعها مع اليعقوبية. أما المسيحية الرسمية فلم يحصل معها لقاء، لأنها كانت خارج موضوع الدعوة القرآنية (ص ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧).

ويتابع المؤلف: وفي الآية ١ من سورة التوبة وكذلك الآيات التالية لها حتى الآية ٢٩ ـ ما أجمع عليه أهل التفسير أن «أهل الكتاب هنا» هم «أهل تبوك» وأن الغاية من جهادهم ليس الانتقال بهم إلى الإسلام كما هو جهاد المشركين بل من أجل إخضاعهم للجزية ولسلطان المسلمين وفي جميع هذه المواقف القرآنية تتضح النتيجة المطلقة وهي إن الإسلام لم يتصل بالمسيحية الرسمية القائمة في دولة الروم ولم يحاورها ولم يورد اسمها بكلمة في القرآن فمن الكفر به، ومن الظلم للمسيحية الرسمية إطلاق خطاب القرآن لبدعة مسيحية على أنه موقف مع المسيحية الرسمية جمعاء (ص ـ ١٨).

تلك الأفكار قدمها المؤلف كثوابت تاريخية دون أن يدل على أي مرجع تاريخي يدعمها ويؤكد وجودها، لذلك قام لدينا من اليقين العلمي ما يكفي لأن نضع في مواجهة ثوابته عدداً من الثوابت العلمية والتاريخية كالآتي:

ـ لقد وجه النبي (ص) من السنوات الأولى لدعوته رسائل إلى أمم الآفاق. . . إلى هرقل عظيم الروم، والمقوقس ملك مصر وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة بالإضافة إلى غيرهم.

ولا تزال كتب التاريخ تحتفظ بهذه الرسائل ومنها رسالته إلى هرقل التي جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأِدِّيسين[1]» وللكتاب تتمة.

﴿وقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (٣/ ٦٤).

ـ هذه الرسالة التي تعتبر من ثوابت التاريخ هي الأنموزج الذي وجه إلى ملوك النصرانية في ذلك الزمان وهي تدحض قول المؤلف بأن القرآن قصد اليعقوبية بتعبير «أهل الكتاب» ولم يقصد المسيحية بهذا التعبير لأن الإسلام لم يتصل مع المسيحية ولم يعرفها ولم يحاورها.

ـ إن التوجه القرآني نحو أهلِ الكتاب قام على قواعد ومبادىء عقائدية لم تتغير وما كان لها أن تتغير لأنها لم تكُن من صنع البشر. لذلك ظلت ثابتة على مرور الزمان وتعدد الشيع والأحزاب.

لقد ندد القرآن منذ بدء الدعوة «بالغلو في المسيح» و «التثليث» و «الصلب» و«الفداء» و «القيامة بعد الصلب والقبر» ودعا أتباع تلك العقائد «إلى كلمة سواء»

---

(١) الإدِّيس: هو الأكار أي الفلاح، وكان هؤلاء في سواد العراق من مجوس الفرس، الذين يعبدون النار. وفي قول آخر إن الإديس هو كبير القوم الذي به يأتمرون وله يتبعون. لذلك كان مضمون الكتاب تحذيراً لهرقل، الذي هو «إدِّيس الروم» القادر على إهدائهم إلى الإسلام إذا قبل الدعوة وهو الذي يبوء بإثمهم جميعاً إذا رفض. و«الإديس» لفظ مفرد جمعه «إدِّيسون» و «أدادسة» «وأدادس». (لسان العرب).

حددها بوضوح بالغ هي ألا يُعبد غير الله، وألا يُشرك به شيءٌ وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

وبهذا البيان القاطع الجامع تكون الدعوة القرآنية إلى أهل الكتاب من أتباع المسيح دعوة عامة شاملة جميع المسيحيين في كل الطوائف والشيع والأحزاب، دعوة طلبت منهم الإلتقاء على «كلمة السواء».

ـ إن النصرانية بالمعنى المحدد المضغوط الذي قدمه المؤلف، هي شيعة من اليهود قليلة العدد ضعيفة التأثير والانتشار، آمنت بالمسيح نبيّاً من أنبياء بني اسرائيل، ورفضت فكرة الألوهية في شخصه أو بُنُوّته من الله وهذه الفئة لم تكن مجال نشاط الإسلام ولا دعوة القرآن، لأن الخلاف العقائدي بينها وبين القرآن كان ضيقاً مما جعلها تعتنق الإسلام دون حوار أو مواجهة وبالتالي لا يمكن اعتبار الخطاب القرآني موجهاً إليها[1].

ـ الشيعة اليعقوبية هي إحدى الشيع الثلاث التي طرحت فلسفتها في تحليل شخصية السيد المسيح. وهذه الشيع هي: الأريوسية والنسطورية بالإضافة إلى اليعقوبية.

ـ فالأريوسية: تنتسب إلى الكاهن آريوس المصري الجنسية، المولود في ليبيا بعام ٢٥٦ م، بدأ ينشر تعاليمه بأن ابن الله لا يَحُوز صفات الآب، وهو أي (الكلمة، اللوغس، المسيح) وسط بين الله والعالم فقضى المجمع النيقاوي المنعقد في عام ٣٢٥ م بحضور الإمبراطور بإدانته وطرده من الكنيسة.

ـ والنسطورية: أسسها الراهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية بعام ٤٢٨ م على مقولة وجود طبيعتين في الكلمة «اللاهوت والناسوت» منفصلتين انفصالاً كاملاً وذلك بقيام مسيحين «مسيح إلهي» ومسيح بشري «الأول قبل التجسد. والثاني بعد

---

(١) ليس المقصود بهذه الفئة، فئة يعقوب البرادعي، لأن اليعقوبية لم تنطلق من منطلقات يهودية ولأن خلافها مع الكنيسة كان حول طبيعتي المسيح المستقلتين ـ كما سوف نوضحه فيما بعد ـ.

التجسد. ويقوم بينهما اتحاد أدبي بسيط وعذاب الصليب لم ينتصر على المسيح الإله بل انتصر على المسيح البشري.

فاعتبر نسطوريوس هرطوقيا بقرار مجمع أفسس بعام ٤٣١ م وطرد من منصبه ومن الكنيسة ولوحق مع أتباعه من قبل السلطات الدينية والزمنية، فهربوا إلى حدود البلاد التي تحكمها الدولة الساسانية وأسسوا بمساعدتها مدارسهم في «الرَّها» و«نصيبين» و«الحيرة» و«بعض القبائل العربية» في شبه جزيرة العرب و«في بلاد الهند، والتركستان، والتيبت، والصين».

أما اليعقوبية: فقد قامت على يد مؤسسها يعقوب البرادعي المطران النَّاسك الذي تصدى للنسَّطورية وأعلن أن الإيمان الحقيقي يجب أن ينصب حول «سر التجسد» الذي يتمثل في الطبيعة الواحدة، هذه الوحدة في الطبيعة تكونت من اتحاد الطبيعتين الإلهية والإنسانية بدون اختلاط أو امتزاج أو تبلبل. فاجتمع المجلس المسكوني في خلقيدونيا بعام ٤٥١ م وأصدر قراره بطرد «البرادعي» من الكنيسة وحكم عليه وعلى أتباعه بالهرطقة. وهكذا انشقت الكنيسة إلى ثلاث كنائس.

- النسطورية ذات الطبيعتين.

- اليعقوبية ذات الطبيعة الواحدة.

- الملكية أو الملكانية، التي كانت تصدر قرارات الطرد والهرطقة، وسميت بهذا الإسم نسبة إلى الملك.

والفرق الثلاث: ومعها بقايا الأريوسية:

تدين «عقائدياً» بأن المسيح هو ابن الله و«أنه صلب جسديا» و «قام من القبر بعد ثلاثة أيام»، كما تدين بالتثليث الذي اعتُبِر عقيدة رسمية بقانون الإيمان النيقاوي في سنة ٣٢١ وقانون القسطنطينية الذي أضاف إلى الأقنومين أقنوم روح القدس بعام ٣٨١ م.

وهذه العقائد، هي التي وضع القرآن قواعد الجدل معها، وهي التي كانت محور التنديد والتكفير، وأصحابها هم الذين وجه إليهم التنديد بصيغة «أهل الكتاب من النصارى» أينما وجدوا وأنى وجدوا. أما «أهل الكتاب من النصارى» الذين لم

يكونوا على هذه المعتقدات، أو كانوا عليها وآثروا تركها واعتنقوا الإسلام، فلم يكن من المعقول أو المقبول أن يكونوا موضوع تنديد أو تكفير.

ومع هذا: وكيلا تبقى لدى المؤلف شبهة من دليل، سوف نقرأ الآيات التي اعتمدت عليها مقولاته لنقطع الاحتجاج باليقين ونبيِّن أنه كان على خطأ في قراءته وفهمه لها.

١ ـ **﴿لا تَقُم فيه أبداً، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن نقوم فيه. فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾** (٩/ ١٠٨: التوبة).

هذه الآية تتمة للآية ١٠٧ **﴿والذين اتخذوا مسجداً ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبلُ وليحلِفُنَّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾** (٩/ ١٠٧).

فقد نزلت الآيتان في المسجد الذي بناه أبو عامر الراهب والد حنظلة، وأبو عامر كان النبي قد سمَّاه الفاسق، وكان قد تنصَّر في الجاهلية وترهَّب وطلب العلم. فلما خرج رسول الله عاداه وقال له: لا أجد قوماً يُقاتلونك إلا قاتلت معهم. وقاتله في حنين، ولما انهزمَت هوازن خرج إلى الشام وطلب قبل أن يذهب من المنافقين أن يبنوا له مسجداً ريثما يعود بنجدة من قيصر يحارب بها محمداً، ثم بني المسجد وكان أصحابه يحلفون إنهم لم يريدوا إلا الحسنى، أي التوسعة على المسلمين، ولكن الآية ١٠٩ من السورة قابلت بين مسجد أبي عامر الذي بني على الكفر والتفريق بين المسلمين، ورصداً عليهم وبين مسجد النبي الذي أسس على التقوى منذ أول يوم قام فيه. لذلك أطلقت الآية على مسجد أبي عامر الراهب اسم «مسجد الضرار».

﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهدِهِ من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (٩/ ١١١).

نزلت هذه في بيان فضيلة الجهاد فقالت: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...﴾** وقد أوحيت إلى النبي في ليلة العقبة بمكة حيث قال له عبد الله بن

رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال النبي: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون به أنفسكم وأموالكم. قالوا فإن فعلنا فماذا لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نُقِيلُ ولا نستقيل فنزلت هذه الآية: قال مجاهد والحسن ومقاتل: «ثَامنَهم النبي فأغلى ثَمنهم».

٢ ـ قال المؤلف: «نزلت الآيات من ٣٣ ـ ٦٤ آل عمران لسرد وجهة نظر الإسلام وعقيدته في عيسى المسيح. أمام وفد نجران اليعقوبي. فهي لا تمثل الرأي الإسلامي في المسيحية لأنَّها مرهونة بمناسبتها وظرفها».

ولكن هذا القول يأتي من قبيل المغالطة التي تدحضها صراحة الآيات:

ـ فالآية ٣٣: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين..﴾ ثم تستمر الآيات حتى الآية ٣٧ في قصة امرأة عمران «أم مريم» التي نذرت ما في بطنها محرراً... ثم تبتدىء قصة زكريا لتستمر حتى الآية ٤٢ ثم تأتي قصة مريم وحملها وولادتها وولدها حتى الآية ٤٨، ثم تأتي دعوة عيسى ورسالته حتى ٦٤.

ـ فالآيات ليست جميعها في شرح عقيدة الإسلام بعيسى المسيح ومع ذلك يمكن تحديد هذه العقيدة من خلال الآيات الآتية:

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين....﴾ (٤٥) ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل...﴾ (٤٨)... ﴿فلما أحس عيى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنَّا مسلمون﴾ (٥٢)... ﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون...﴾ (٥٥) ﴿إن مثل عيى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(٥٩).

أ ـ فلقد تعددت الآراء في سبب ومعنى تسمية عيسى ابن مريم «بكلمة الله».

فمن قائل: إنه خلق بكلمة من الله «كن» دون واسطة الأب والبذر.

ومن قائل: إن عيسى سمي «بالعلم» لأنه وُهِب منه ما لم يتسنَّ لسواه. والكلمة، كناية عن العلم لأن كلام الله هو علمه.

ب ـ ولكن الآية ٥٩ جاءت بتوضيح أزال الالتباس إذ أفادت بأن عيسى هو من ماء وطين مثل آدم وقد خلقه الله بالكلمة التي خلق بها آدم «كن فيكون» وبذلك زال استبعاد واستغراب تخليق إنسان من غير أب. بدلالة تخليق آدم من الماء والطين. وثبوت أن ذلك من الممكنات الإلّهية.

ج ـ إن وجود «الحكمة» إلى جانب «الكتاب» و «التوراة» و «الإنجيل» في آية واحدة معطوفات على الترادف بواو العطف. يراد الدلالة بها على أن هذه الكلمات تعبر عن مسميات أربعة يستقل كل منها عن الثلاثة في كيانه: وقد قال الإمام الرازي في تفسير الآية (٤٨) والأقرب عندي أن يقال المراد بالكتاب تعليم الخط والكتابة وبالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الاخلاق ومجموعهما والعمل بهما هو المسمى بالحكمة.. وقال ابن كثير في تفسير هذه الكلمة بالآية ٢/١٢٩ من البقرة ﴿**ويعلمهم الكتاب والحكمة**..﴾ أي يعلمهم الخير فيفعلونه والشر فيتقونه ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا معصيته.

د ـ وفي «إني متوفيك» «ورافعك إلي» قيل:

ـ إني متتم عمرك فحينئذ أتوفاك فلا سلطان لهم ليقتلوك.

ـ وقيل إني أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفعه وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى.

ـ وقيل: متوفى عملك، أي مستوف عملك ورافعه إلي كقوله: ﴿**إليه يصعد الكَلِمُ الطيب**﴾ (فاطر: ١٠).

ـ وقيل مرفوع إليه حيا بعد إنزاله إلى الدنيا. وقيل: إنها تفيد التفخيم والتعظيم ولا تفيد الصعود إلى السماء لأن الله ليس له مكان يحده لا في السماء ولا على الأرض كقول إبراهيم ﴿**إني ذاهب إلى ربي**..﴾ (الصافات: ٩٩) وهو ذاهب من العراق إلى الشام. ويقال: ارفعوا الأمر إلى القاضي أو الوالي كذلك يقال لِحجّاج البيت والمجاورين «جيران الله».

فالرفعة هي بالدرجة والمنقبة والفوقية هي بالرفعة لا بالمكان. فهي كلها لا تعني حرفية ألفاظها وإنما يراد بها التوصيف والتعظيم.

هـ ـ وفي وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا:

فكلمة «فوق» تعني الغلبة والتفوق والظهور وهذا لم ينتظر غير ثلاثة قرون حتى كان تفوّق اتباع المسيح على من كفروا به في جميع أنحاء الأرض. حيث لا ترى ملكاً يهودياً بخلاف الممالك والبلدان العديدة التي يسيطر عليها النصارى.

٣ ـ ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم...﴾ (١٧٠: النساء).

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ (٤/ ١٧١ ـ ١٧٢: النساء)(١).

ـ ففي الآية ١٧٠ دعوة إلى كل الناس للإيمان بالرسول الذي جاء بالحق من الله وليس فيها شيء من الجدال مع أتباع المسيح.

ـ أما كلمة «وروح منه» فهي لتقريب الموصوف من مدارك الناس، لأن العادة إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة والصفاء قالوا «إنه روح» وهكذا: لما كان عيسى عليه السلام تكون بدون بذار أبوي ووجد بنفخة جبريل صار وصفه «بالروح» تشريفاً له وتكريماً.

ـ أما ولا تقولوا ثلاثة، أي لا تقولوا بالتثليث، وهو «وحدة الله في الجوهر مع التعدد في الأقانيم». فالأقانيم بمقتضى عقيدة التثليث ليست صفات بل هي ذوات بدليل أن ثالثها ـ الروح القدس ـ أيد المسيح وحل فيه كما حل في التلامذة وامتلأوا

---

(١) مرّ تفسير الكلمة.

به، ثم في تلامذة التلامذة (أعمال الرسل وفيها الآيات العديدة عن الخوارق التي ظهرت على أيدي التلامذة والرسل بقوة الروح القدس) وهذا يعني التجزئة والتعدد لذلك جاء تحذير الآية من التثليث ثم تلا ذلك الاعلان القاطع لوحدانية الله **﴿إنما الله إلّه واحد سبحانه أن يكون له ولد. . .﴾**.

٤ ـ والآيات ١٩ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ١١٧ ـ ١١٨ من سورة المائدة التي ركز المؤلف على أنها المعبر الأوضح عن اقتصار جدال القرآن على «البدعة اليعقوبية» مع وفد نجران.

تلك الآيات ليست أكثر من استكمال بحث الغلو النّصراني وأخطاء العقيدة عندهم وتكرار تحذيرهم من مغبة هذا الكفر.

ـ فالآيات تتحدث عن حقيقة كيان المسيح وجوهر شخصه فتصفه بأنه رسول بشر يأكل الطعام ويعيش مثل الناس(٧٥). وتحذر أتباعه من اتباع أهواء الذين ضلوا وأضلوا من قبل(٧٧). وتستعيد عقوبة اللعن التي أوقعها داوود وعيسى على الذين كفروا من بني إسرائيل(٧٨). وتقارن بين أشد الناس عداوة للذين آمنوا (اليهود) وبين أقربهم مودة (النصارى) (٧٩ ـ ٨٠) وتطرح على عيسى استفهاما استنكاريا: هل هو الذي قال للناس أن يتخذوه وأمه الهين فيجيب بأسلوب التأدب الرفيع **﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾** (١١٦) المائدة، ولم يقل ما قلت إمعاناً في التواضع والخضوع.

٥ ـ وقبل أن أنتقل إلى الآيات التي ألحقها المؤلف بغزوتي «مؤتة» و«تبوك» أحب التأكيد على خطإٍ وقع المؤلف فيه وهو:

إن وفد نجران سألوا النبي (ص) لم تعيب صاحبنا؟ قال ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى: قال: وأي شيء قلت؟ قالوا: تقول أنه عبد الله ورسوله. قال: إنه ليس بعار أن يكون عبد الله. ونزلت الآيات ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ من سورة النساء.

تلك الحادثة الثابتة في كتب التاريخ والتفسير (الإمام الرازي) «تؤكد أمراً» و«تنفي أمراً» فأما الذي تؤكده فهو أن القرآن تحدث عن مقولات النصّارى في المسيح وتنديده بتلك المقولات وعن تكرار دعوتهم إلى التوحيد والإقلاع عن

الشرك والتثليث وذلك قبل جداله مع الوفد بدليل سؤال الوفد للنبي: لم تعيب صاحبنا؟ وتذكيرهم له بالوصف الذي ورد بالقرآن في المسيح من أنه عبد الله ورسوله.

وأما الأمر الذي تنفيه فهو قول المؤلف بأن جدال القرآن في مقالات النصارى بدأ مع وفد نجران لأن هذا الوفد قدم إلى النبي قبل سنة من وفاته (ص) ولأن وصف القرآن للمسيح بأنه عبد الله ورسوله جاء في مريم. وهي سورة مكية نزلت في مكة إلا آيتين منها هما: (٥٨ ـ ٧١) وقد ثبت في كل المراجع أن وفد الهجرة الأولى إلى الحبشة بقيادة جعفر بن أبي طالب قرأ على النجاشي وأصحابه سورة مريم.

٦ ـ أما الآية الأخيرة من سورة الحديد وهي الآية رقم ٢٩ فإنه لا يبدو من ظاهر كلماتها ولا من تفسير المفسرين لها أنها نزلت في غزوة «مؤتة الفاشلة» ـ كما يقول المؤلف ـ.

كما أن المؤلف تجاوز في التفسير وبعد عن المناسبة، أثناء دراسته لآيات سورة التوبة ـ براءة.

ـ فالآية الأولى: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (٩/ ١: التوبة).

ابتدأت بدون بسملة لكي لا يختلط المفهوم من آخر سورة الأنفال مع المفهوم من أول سورة التوبة لأنه في الأنفال ذكر العهود وفي براءة نبذ العهود وقد جاء ختام الأنفال بموالاة المؤمنين بعضهم بعضا في حين إن بداية التوبة ـ براءة إلغاء العقود مع المشركين الذين نقضوها عدة مرات.

﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ (٨/ ٧٥: الأنفال) وهي آخر آية.

لذلك: ولما كان «بسم الله الرحمن الرحيم» هي الأمان وكانت التوبة نزلت بالسيف وإلغاء العقود التي نصت على الأمان فقد اقتضى ألا تبتدىء بالبسملة (الإمام الرازي ـ رواية عن علي بن أبي طالب وسفيان بن عيينة).

غير أن الثابت نصّاً وتفسيراً أن سورة التوبة ليست ـ كما قال المؤلف ـ مقصورة على أهل تبوك، والثابت أيضاً هو أن الدعوة القرآنية إلى نبذ العهود كانت عامة شاملة عهود المشركين الذين جعلوا ينقضونها مع النبي بعد أن خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون وأرجفوا الأراجيف (الرازي).

ولقد روت كتب السيرة والتفسير: أن سورة (التوبة ـ براءة) نزلت في سنة تسع، أي بعد فتح مكة بسنة وفي سنة النزول أمَّر النبي على الموسم، أبا بكر الصديق، فلما نزلت السورة أمر عليا أن يذهب إلى أهل الموسم ليقرأها عليهم، فقيل للنبي (ص) لو بعثت بها إلى أبي بكر فقال: لا يؤدي عني إلا رجل مني. فلما دنا علي وكان راكباً على ناقة النبي سمع أبو بكر الرغاء فقال: هذا رغاء ناقة رسول الله(ص)، فلما لحقه علي سأل أبو بكر: أميرٌ أم مأمور؟ قال: مأمور ثم ساروا فلما كانوا قبل التروية خطب أبو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال: أيها الناس إني رسول رسول الله اليكم فقالوا بماذا؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية ثم قال: أمرت بأربع: أن لا يقرب هذا البيت بعد هذا العام مشرك. ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة وأن يتم إلى كل ذي عهد عهده (الإمام الرازي) و (ابن كثير ـ المختصر).

٧ ـ وكذلك الآيتان ٢٩ ـ ٣٠ من السورة ذاتها، ليستا كما قال المؤلف مخصَّصتين بفئة معينة من النصارى. فالآية ٢٩ حددت الذين أمر الله بقتالهم وهم من لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق.

هؤلاء وإن كانوا من أهل الكتاب، يهوداً أو نصارى، وجب ألا يتوقف القتال عنهم حتى يؤدوا الجزية... والآية ٣٠ قابلت في الكفر بين اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله والنصارى الذين يقولون عيسى ابن الله. وهذه المقابلة شاملة غير مخصصة بفئة من اليهود وفئة من النصارى.

ونحب العودة بالقارىء لتذكيره بأن الفرق النصرانية الملكانية ـ النسطورية ـ اليعقوبية) تبنَّت الأقانيم الثلاثة ولكنها اختلفت فيما بينها وكفرت بعضها فيما يتعلق

بكيفية اجتماع الأقانيم وطبيعة التكوين في شخصية المسيح. وقد كنا ذكرنا ذلك من قبل.

٨ ـ والآيتان ٢٧/ ٧٦ النمل و ٦١/ ١٤ الصف.

لا تؤيدان ما قاله المؤلف من أن حوار القرآن ظل مقصوراً طوال الدعوة على النصارى من بني إسرائيل والانتصار لهم من عدوهم (ص ـ ١٧).

فالآية ٢٧/ ٧٦: النمل ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾.

فبنو اسرائيل هنا: هم حملة التوراة والإنجيل.

واختلافهم: كان في تباين أفكارهم وتبادلهم التكفير.

والآية ١٤ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصارالله فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فاصبحوا ظاهرين﴾ فيها تفصيل عن دعوة عيسى ابن مريم، حيث استجابت له طائفة وكفرت به طائفة. وكانت الطائفة المؤمنة هي الحواريين ومن تبعهم، حيث كانت النواة الأولى للمسيحية، وظلت مستمرة في كفاحها العقائدي ضد باقي اليهود الذي كفروا وعارضوا إلى أن أظهرها الله عليهم في بداية القرن الرابع الميلادي حينما اصبحت ديانة هذه الطائفة ديانة الدولة الرومانية.

الفصل الثاني

إقحام اسم النصارى في غير موضعه من القرآن

توطئة:

يقول المؤلف: ثمة واقعٌ مذهل في القرآن. ففي الوقت الذي يعرض المبادىء الشاهدة على صحة إسلام النصارى يعرض إلى جانبها مبادىء تشكك في إسلامهم وتتهمهم بالكفر والشرك.

فهل يعود هذا التناقض إلى عهد النبي؟ وهل صدر عنه وحياً أم نصيحة؟ أم إن اسم النصارى أقحم في آيات التشريك والتكفير إقحاماً فرضته ظروف جمع القرآن التي تأثرت بحروب الفتوح؟.

هذا الواقع المذهل ـ يقول المؤلف ـ سوف تتكشف أبعاده وحقيقته في الأبحاث الثلاثة الآتية:

البحث الأول

المبادىء الثابتة الشاهدة بصحة إسلام النصارى

وضع المؤلف هذا العنوان للبحث الأول. ثم انتقل إلى تحديد المبادىء فوضعها مع آياتها وفقاً لتسلسل تاريخ نزولها على النبي.

المبدأ الأول: إن الجدال مع النصارى هو جدال بالحسنى وتلك خصوصية لم تكن لغيرهم من أهل الكتاب ٢٩/٤٦ العنكبوت و ٢/٤١ ـ ١٢٤ البقرة و ٦١/١٤ الصف.

المبدأ الثاني: النصارى هم المقصودون في القرآن بـ «أولوا العلم»

و«الراسخون في العلم» و«الذين يهدون بالحق وبه يعدلون» ٣/ ١٨ ـ ١٩ـ ٢١ ـ آل عمران و ٧/ ١٥٨ الأعراف و ٦١/ ١٤ الصف.

المبدأ الثالث: النصارى هم المقصودون بالتعابير القرآنية: «الأمة القائمة» و«خير أمة أخرجت للناس» و«المؤمنون من أهل الكتاب» و«المتقون الذين تابوا مع النبي» و«عباد الرحمن». ٣/ ١١٣ ـ ١١٥ ـ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٢ آل عمران و١٧/ ٧٩ الإسراء و١١/ ١١٣ هود و٢٥/ ٧٤ الفرقان.

المبدأ الرابع: والطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل هي النصارى ٦١/ ١٤ الصف.

المبدأ الخامس: ﴿وأقرب الناس مودة للذين آمنوا هم النصارى﴾ ٥/ ٨٢ ـ ٨٣ المائدة[1].

ويلخص المؤلف رؤيته لهذه الآيات بقوله: تلك المبادىء الخمسة التي تملأ العهد المدني هي الأنوار الكاشفة لذكر النصارى بالصورة المشبوهة كما سوف نعرض في البحث الثاني تحت عنوان «ملابسات جمع القرآن»[2].

لذلك وسيراً مع خطتنا في تتبع هذا المؤلف وتعقُّبه بالنقد فصلاً فصلاً، وفاصلة فاصلة. سوف نتوقف عند كل مبدأ من مبادئه، وقفة متأنّية نعيد الحق إلى نصابه والتائه إلى صوابه.

المبدأ الأول:

يتبين من قراءة الآيات ٢٩/ ٤٦ و٢/ ٤١ و٦١/ ١٤ أن القرآن قسم أهل الكتاب إلى فريقين:

فريق الظالمين: الذي لا حديث معهم بغير السيف.

---

(١) إن من يقرأ أرقام الآيات عند المؤلف يجد أخطاء عديدة. مما اضطرنا إلى وضع الأرقام الصحيحة.

(٢) ص ٢٣ ـ من كتاب المؤلف.

وفريق المحسنين: وهم النَّصارى الذين حضَّ القرآن على التسليم معهم وموالاتهم في الإله والتنزيل والدين.

هذا ما قاله المؤلف: أما نحن فإن لنا قولاً آخر يقومُ على دراسة الآيات لغةً ومناسبة وتفسيراً كالآتي:

١ ـ ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون﴾ (٢/ ٤١).

ففي هذه الآية نداءٌ تحذيري له في القرآن كثير من النظائر، وقد توجه إلى بني اسرائيل الذين كان في الآية (٤٠) قد ذكّرهم بالنعم التي أسبغها عليهم وحذَّرهم من أن يقابلوا تلك النعم بكفرانها وبرفض الدعوة أو أن يكونوا أول الكفار بالكتاب. ففحوى الخطاب القرآني ـ كما هو ثابت في التفسير وواضح من ظاهر اللفظ ـ موجه إلى يهود المدينة (بني النضير وبني قريظة) الذين كانوا أول الكفار من اليهود ثم تتابع الكفر فعم الطائفة كلها تقريباً.

فليس في هذه الآية جدال بالسيف ولا جدال بالحسنى ـ بالمعنى الذي قصده المؤلف ـ.

٢ ـ ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضَّلتكم على العالمين﴾. ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمَّهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ (٢/ ١٢٢ ـ ١٢٤: البقرة).

في هاتين الآيتين تذكير لبني إسرائيل بأن الله أنعم عليهم وفضلهم على العالمين وعود بهم إلى إبراهيم عليه السلام إذ أنبأه ربُّه بجعله إماماً للناس فطلب منه أن تستمر الإمامة في ذريته فقال له هذا عهدي معك لا ينال عهدي الظالمين[١].

فالاستدلال بهما على «الجدال بالسيف وبالحسنى» هو تقصير عن فهمهما.

كما أن حجب الإمامة لم يكن شاملاً لجميع ذرية إبراهيم بل لمن ظلم منهم،

---

(١) يقصد بالامامة القيادة الدينية والسياسية.

والظلم دوماً يحول بين الظالم واستحقاق القيادة في الدين والدنيا، لذلك جاء في القرآن مقروناً بالحرمان عامّاً غير مربوط بشخص أو فئة كما في قوله تعالى: **﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾** (٣١/ ١٣: لقمان).

٣ ـ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (٦١/ ١٤: الصف) «أنصار الله» و«أنصاري إلى الله» و«فآمنت طائفة من بني إسرائيل» و«فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين».

في هذه العبارات التصق اهتمام المؤلف وتسمَّر تفكيره ووجدها[١].

لأنها هي التي كشفت له واقعاً مذهلاً في القرآن ـ كما قال ـ.

فالنصارى هم الطائفة التي آمنت بالمسيح والإسلام بدعوته هذه ليس إلا صورتها وصداها. غير أن شرّاح هذه الآية وقرّاءها في كل مكان اتفقوا على أن الطائفتين، كانتا على عهد المسيح فالأولى هي الطائفة الأم. لم يهد الله قلبها إلى الإيمان برسالة عيسى (ع) وأما الثانية فهي الحواريون الذين استجابوا إلى دعوته فتبعوه واستمروا من بعده ينشرون رسالته بين الأمم متحملين أقسى صنوف العذاب والاضطهاد حتى اظهرهم الله على الطائفة الكافرة فكانت لهم السيادة والقيادة بعد نضال امتدَّ ثلاثة قرون وفيما كان المؤمنون يبسطون نفوذهم الروحي والسياسي على الأمم كان الكافرون يتشرذمون ويتفتتون في كل صقع وأرض فما قامت لهم دولة ولا انبعثت لهم قومية ولا عَظُم لهم كيان بل تفرقوا شراذم في الدول والبلدان متقوقعين لا يندمجون مع الشعوب في لغة أو قومية أو وطنية.

هذه المعاني التي لم يقم حولها خلاف، منذ أن نزلت هذه الآيات، سطا المؤلف عليها وحوَّلها إلى مَتَّجَهٍ آخر مستخرجاً منها مدلولاً ليس منها وليس لها.

---

(١) صرخة أرخميدس المعروفة.

٤ ـ ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون. وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ (٢٩/٤٦ ـ ٤٧ : العنكبوت).

في هاتين الآيتين قال المؤلف:

إنها أوامر القرآن في التفريق بين الظالمين من أهل الكتاب وهم اليهود وبين المحسنين وهم النصارى، فالذين ظلموا لا يجادلون إلا بالسيف، أما المحسنون فيجادلون بالرفق والحسنى.

غير أن التدقيق في الآيتين والعودة بهما إلى آيات أخرى يعين على إدراك مقاصدهما ويوصلنا إلى معرفة المعاني الحقيقية للتعابير التي وردت فيهما:

«فالذين ظلموا» لا يصح اعتمادها قانوناً قرآنيا يشير إلى اليهود فقط، أي لا يصح حصره في اليهود واستبعاده عن غيرهم لأنّ «تأييد الظلم» مثل «تأييد العدل» مفهومان لا يجوز إطلاقهما على وجه العموم، فلا بد من تخصيص الجهة أو الجهات المقصودة بهما.

وغير ذلك مخالف للطبائع.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بتحديد مفهوم «الظلم» حيث فهم المؤلف، بأنه إيقاع الأذى الجسدي بالسيد المسيح وأتباعه، في حين أن الظلم هو ضد العدل على الدوام، فحيثما لا يقوم عدل فإن السيادة تكون لنقيضه الظلم.

والظلم في المدلول القرآني هو الشرك، وهذا ما دلت عليه الآية ٣١/١٣ لقمان **﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾** وقد جاء في تفسيرها وفي تفسير «الذين ظلموا» في الآية ٢٩/٤٦:

«المراد هم الذين أشركوا من أهل الكتاب بإثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة وبذلك ماثلوا بقية المشركين في القول المنكر. فهم الظالمون لأنّ الشرك بالله لظلم عظيم».

وبهذا المعنى ينال تعبير «الذين ظلموا» كل من «يثبت الولد لله» و «يعتقد بالتثليث» مثلما ينال اليهود.

وبهذا المعنى أيضاً، لا يجوز اعتبار مفهوم «الذين آتيناهم الكتاب» محصوراً بالنصارى على الوجه الذي ذكره المؤلف، بل هم «الأنبياء» في المطلق. لأن الكتاب يؤتى به إلى النبي فيقوم بتبليغه إلى المكلفين من الناس.

لقوله تعالى: ﴿وآتينا داوود زبورا﴾ (١٧/ ٥٥: الإسراء) و ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾ (١٩/ ٣٠: مريم) و ﴿لقد آتينا موسى الكتاب﴾ (٣٢/ ٢٣: السجدة) و ﴿كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ (٧/ ٢: الأعراف) و ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة...﴾ (١٩/ ١٢: مريم) و ﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق...﴾ (٣٩/ ٤١: الزمر).

المبدأ الثاني:

ومن الآيات الخمس ٣/ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢١ و ٧/ ١٥٨ و ٦١/ ١٤ استخرج المؤلف موقفاً قرآنيا خاصّاً بالنصارى لا يشاركهم فيه أحد، وهو تخصيصهم بالألقاب العظيمة الفريدة «أهل العلم» «المقسطون» «أولوا العلم قائماً بالقسط».

ونظراً لما لهذا الطرح من أهمية قصوى عدنا إليها آية آية فتبين لنا عدم مصداقية الرؤية عند المؤلف.

وذلك كالآتي:

١ ـ ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (٣/ ١٨: آل عمران) ليس فيها تخصيص النصارى بهذا اللقب «أولوا العلم» كما إنها لم تتحدث عنهم بل تحدثت عن موضوع لا يرتبط بهم هو موضوع وحدانية الله التي شهد بها الله والملائكة وأولوا العلم.

أما أولوا العلم الذين استحقوا أن تقرن شهادتهم إلى جانب شهادة الله بعد الملائكة فهم الذين عرفوا الله وعرفوا وحدانيته بقوة الأدلة القاطعة الدامغة، لأن الإخبار ـ الشهادة ـ المبني على اليقين العلمي هو الشهادة الواجبة الاعتماد وإلى مثل هذا أشار الحديث الشريف عندما حدد شروط اعتماد الشهادة بين الأحياء بقوله

«إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع» وهذه الدرجة الشريفة لا تكون ـ في حقل المعارف الدينية ـ إلا للعلماء أنقياء السريرة الذين قام علمهم على اليقين.

٢ ـ **﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾** (٣/ ١٩: آل عمران).

لم يتفق أهل العلم والتفسير على تحديد المقصودين بتعبير «الذين أوتوا الكتاب» في هذه الآية: غير أنهم مع اختلافهم متفقون على أنها لا تعني النصارى بالمعنى المحدد الذي جاء به المؤلف، إذْ خلت كتب التفسير تماماً منه. أما اختلافهم فيمكن العودة به إلى ثلاثة تعليلات:

فمن قائل: إنما أريد بهم أبناء السبعين شخصاً الذين أئتمنهم موسى قبل وفاته على التوراة.

ومن قائل: هم النصارى الذين اختلفوا في عيسى.

ومن قائل: هم اليهود والنصارى الذين اختلفوا على المقالة في عزير، والمسيح، والتثليث، ويوم المعاد، ونبوة محمد (ص) وكان قولهم في مواجهته: «نحن أحق بالنبوة من قريش لأننا أهل الكتاب وهم أميون».

٣ ـ **﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾** (٣/ ٢١: آل عمران).

فالأمر بالقسط، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهي منزلة تلي منزلة الأنبياء. جعلت الآية قتلة الأنبياء وقتلة الذين يأمرون بالقسط في مرتبة واحدة من مراتب الجزاء والكفر وهي العذاب الأليم. ثم وصفتهم الآية ٣/ ٢٢ وصفاً واحداً دون تفريق بقولها: **﴿أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين﴾** ولقد سئل النبي (ص)، أي الجهاد أفضل؟ قال: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

وهكذا يتبين من المعنى الواسع «للآمرين بالقسط» أنهم قوم غير محصورين، ولا يخلو منهم مكان أو زمان لأنهم على الدوام يمثلون عدل الله في خلقه.

٤ ـ ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (٧/ ١٥٩ : الأعراف).

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (٦١/ ١٤ : الصف).

كنا عند تحليل المبدأ الأول تتبعنا معاني الآية ٦١/ ١٤ فتبين أن الطائفة التي آمنت بالمسيح واستجابت لنصرته هي «النواة» التي نشأت عنها جميع الطوائف والشيع التي اتبعت المسيح فيما بعد والتي كانت في عهد النبي (ص) فرقاً وأحزاباً فآمن بدعوته منها من آمن وبقي منها على موقفه من بقي.

وهذه الطائفة سواء من آمن أم من كفر، هي غير «الأمة» التي مرّ ذكرها في الآية (١٥٩) من الأعراف.

لأن أبناء هذه الأمة، كانوا عند نزول الآية من تابعي موسى، فآمنوا بالحق (أي بالدعوة) واعتدلوا به. وهؤلاء نفر قليل، يكاد أن يتفق المفسرون على أنهم «عبد الله بن سلام اليهودي وأصحابه» الذين أسلموا وحسن إسلامهم. (الامام الرازي).

وكنا من قبل: قلنا: إن إدراج هذه الأسماء القليلة، في تعبير «الأمة» التي تعني العدد الكثير في الغالب، جاء من باب إطلاق الكثير على القليل، بسبب الاختلاف في الدين، الذي جعل من هذه الفئة القليلة طليعة لدعوة سوف تتسع وتزداد. وفي القرآن أمثلة مماثلة كقوله: ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله﴾ (١٦/ ١٢٠ : النحل) و﴿منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعلمون﴾ (٥/ ٦٦ : المائدة) ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف﴾ (٣/ ١٠٤ : آل عمران).

المبدأ الثالث:

وفي سور آل عمران والإسراء وهود والفرقان وردت مفاهيم. قال المؤلف إنها مخصصة بالقصد والتحديد للنصارى، فهم وحدهم المعنيون بها وهي: «الأمة القائمة» و«خير أمة أخرجت للناس» و«المؤمنون من أهل الكتاب» و«المتقون الذين تابوا مع النبي» و«عباد الرحمن» (ص ٢٣ ـ من كتابه).

١ ـ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يضروكم إلاّ أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون (١١١)﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ (١١٣) ﴿وما يفعلون من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ (١١٥) ٣/ ١١٠ ـ ١١١ ـ ١١٣ ـ ١١٥ : آل عمران).

فالخطاب في هذه الآيات وإن جاء في الظاهر على وجه الخصوص إلاّ إنه عامٌّ في كل العهود ونظيره كثير في القرآن كقوله: ﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾ (٢/ ١٨٣ : البقرة) و﴿كتب عليكم القصاص﴾ (٢/ ١٧٨ : البقرة).

فذلك خطاب باللفظ مع الحاضرين ولكن في المعنى عام بحق الجميع.

ويبدو أن الالتباس في فهم الآية لدى المؤلف من كلمة «كنتم» التي فهمها «صيرورة» في الماضي وبذلك لا تنطبق على أمة العرب الذين لم يكونوا في الماضي يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله. بل تنطبق على أمة النصارى التي كانت تتصف بهذه المزايا.

ولكن الناس فهموا هذه الكلمة على غير ما فهمها المؤلف: وكانوا في فهمها فريقين:

فريق فهمها على أنها تامة، فكان معنى الآية لديه «وجدتم خير أمة أو خلقتم خير أمة» متضمنة معنى الحدوث والوقوع.

وفريق فهمها بمعنى صرتم، فكان معنى الآية: صرتم خير أمة أخرجت للناس بسبب ما تأمرون به من معروف وماتنهون عنه من منكر وبما تؤمنون بالله. وهنا تتضمن معنى الصيرورة من حال إلى حال.

وفي كلا المعنيين لا تنصرف هذه الآية إلى أحد من أهل الكتاب لصراحة القسم الثاني منها «ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم...».

أما التفريق بين من آمن ومن هو فاسق من أهل الكتاب.

فالذين آمنوا هم «النجاشي وصحبه من تابعي الإنجيل» و«عبد الله بن سلام

وصحبه من تابعي التوراة» وهؤلاء كانوا الأقلية إلى جانب الأكثرية الفاسقة التي ظلت على مكابرتها فقالت الآية«وأكثرهم الفاسقون» نافية عنهم صفة العدل التي قد تكون موجودة حتى عند بعض الكفار المشركين.

ثم: ازداد الوضوح في الآية ١١٣ وازداد التركيز على الفرق بين هذه الأقلية المؤمنة والأكثرية الفاسقة فكانت جملة «ليسوا سواء» جملة تعيد الذهن إلى ما تقدم وتهيئُه لما سوف يأتي من كلام.

فأوضح به ابتداءً من قوله: ﴿**من أهل الكتاب أمة قائمة...**﴾ مقصوده من الأمة المؤمنة التي أخرجت للناس ومقصوده من الأكثرية الفاسقة دون أن يذكر هذا القسم الأخير مُسْتَغْنِياً عن ذكر الضدِّ الآخر بذكر ضده على مذهب البلاغة العربية السامية. بشكل يفيد العلم بهما كليهما. ومثله ما جاء في قول أبي ذؤيب:

دعـانـي إليهـا القلـب إنـي لامـرؤٌ مطيـعٌ فـلا أدري أرشـدٌ طـلابُهـا.

أي: أرشد طلابها أم غي؟ وقد اكتفى بذكر الرشد لدلالته على المعنى الثاني.

وقد دلَّ ظاهر الآيتين ١١٣ ـ ١١٥ على أن المقصود «بالأمة القائمة التي تتلو آيات الله أناء الليل» هي الأمة الإسلامية التي تميزت عن أمم أهل الكتاب من يهود ونصارى في أنها تؤمن بالله واليوم الآخر. لأن الذي يؤمن بالله يؤمن بأنبيائه جميعاً وهذه صفة لا تتوافر في اليهود الذين لا يؤمنون بالمسيح ولا بمحمد. ولاتتوافر في النصارى الذين لا يؤمنون بمحمد. ولكنها إحدى ركائز العقيدة عند المسلمين الذين يؤمنون بالأنبياء جميعاً.

أما الإيمان باليوم الآخر فهو ما ينكره اليهود إنكاراً نهائياً وليس له فيما بين أيديهم من نصوص ما يشير إليه. كما لا يؤمن النصارى بالبعث الجسدي.

٢ ـ ﴿**أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا(٧٨) ومن الليل فتهجَّد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً(٧٩)**﴾ (الأسراء)[١].

---

(١) دلوك الشمس يعني ميلها وتغير موقعها في حالة الغروب عن سابقه وقيل: هو الزوال عن =

قال المؤلف: إن القيام بالليل للصلاة هي في الأصل عادة نصرانية لا يهودية ولا عربية لذلك كان تخصيص محمد بها دليلاً على نصرانيته.. أمّا غير المؤلف من عاصر نزول الآية وعاش فترة تعامل الرسول معها فقد أجمعوا على الآتي:

- النافلة في اللغة هي الزيادة في الأصل. ومدلولها الشرعي أنه التطوع زيادة على الفرائض.

- وهي نافلة بالنسبة إلى النبي لأن فيها زيادة الدرجات وكثرة الثواب.

أما بالنسبة إلى الأمة فإنها طاعة يحتاجها أبناؤها في تكفير الذنوب والسيئات.

فالطاعات زوائد ونوافل في حق النبي لا في حق غيره.

- والتهجد من فعل «هَجَدَ» وهذا اللفظ هو من الأضداد فيقال «هَجَدَ» لمن نام في الليل ويقال «هَجَدَ» لمن صلى في الليل والهاجد عند العرب هو النائم. وإطلاق كلمة «التهجد» على من صلى في الليل يحمل معناه على أنه ألقى الهجود عن نفسه كما قيل للعابد «متحنث» لأنه ألقى عن نفسه الحَنَث وهو الإثم.

والمؤلف الذي اعتبر التهجد عادة نصرانية لا يدل على مرجع مؤيد لهذا الاعتبار، على أنه وإن كان الأحناف وبعض من أهتدوا من أهل الكتاب قد عرفوا التعبد لله في الليل، فذلك لا يوجب إلغاءها في الإسلام لأنه لم يكافح غير الشرك والعادات السيئة.

٣ - ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير. (١١٢) ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون (١١٣)﴾ (١١/ هود).

ليس في هاتين الآيتين ما يدل على تخصيص صفة «المتقين» بجماعة محمد،

= وسط السماء لذلك اقتضى تحديد مآل الدلوك بقوله إلى غسق الليل، والغسق من الليل سواده وظلمته. وفي قول النضر بن شميل «أتيته غسق الليل» أي حين يختلط ويسد المناظر، ويقال: غسقت العين إذا امتلأت بالدمع، فسمي دخول الظلام غسقاً لأنه يملأ الدنيا سواداً.

كما قال المؤلف، ولا تخصيص جماعة النصارى بصفة «الصالحين» وما ندري كيف قرأ وكيف فسَّر ما قرأه.

﴿فاستقم كما أمرت﴾ هي عبارة جمعت كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال، سواء أكان مصدرها منه أم كان متعلقاً بتبليغ الوحي وبيان الشرائع، وهذا يتطلب جهداً بالغ الصعوبة.

ـ فالاستقامة هي الخط المستقيم الذي يمتد بين الضوء والظل، وهو جزء لا يقبل القسمة في العرض، وهو لدقته وحساسيته يدخل الاشتباه في الحس ببعض الأحيان.

ويدقُّ الأمر عندما يفرغ هذا التفسير على المعاني الدينية التي تتطلب من العبد استقامة قائمة على معرفة الله معرفة تصونه عن التشبيه والتعطيل، كما تتطلب منه الوقوف بثبات بين طرفي الإفراط والتفريط في القوتين الغضبية والشهوانية. لذلك روي عن النبي (ص) أنه قال: «شيبتني هود قبل المشيب» وعندما سئل وبأي آية؟ قال: «فاستقم كما أمرت».

ـ «ومن تاب معك» أي ومن آمن برسالتك واتبع دعوتك.

ولا يمكن أن يستخرج من هذه الجملة أن النبي «تاب عما كان عليه» لأنه معصوم من الذنوب التي تتطلب التوبة. والحكمة المتحصلة تكمن في أن الأمر بالاستقامة موجه إلى النبي والذين تابوا معه وهاجروا وهجروا عقائدهم السابقة، أما أهل الكفر والفاسقون فلا يصح اشتغالهم بالاستقامة قبل توبتهم عن الكفر والخضوع إلى أوامر الله ومناهجه والبقاء على عبوديته.

٤ ـ قال المؤلف: وفي القرآن «عباد الرحمن» هو اسم من الأسماء التي أطلقها القرآن على النصارى مثلما سمى العرب المسلمين «بالمتقين» وجعل الإمامة على المتقين إلى عباد الرحمن لقوله في الآية ٢٥/٧٤: الفرقان ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾.

وهنا تجاوز المؤلف في تفسيره حدود اللغة تجاوزاً كبيراً.

ـ فالآية ٢٥/ ٧٤ من سورة الفرقان جاءت بعد آيات تحدثت عن عباد الرحمن

فاستمرت متتابعة من الآية ٦٤ تصف وتعدد علامات الهدى والتقوى في طبائعهم والسمو في أخلاقهم وتعاملهم مع الناس وصدقهم مع الله ومع أنفسهم، والذين هم مع ذلك كله ﴿إذا ذُكرّوا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صُمّاً وعميانا﴾ (٧٣). أي خروا سجدا وهم واعون لها عارفون بحقيقتها.

بعد ذلك جاءت الآية (٧٤) محدِّدَة طلباتهم من الله وهي «قرة الأعين من الأزواج والاولاد» و «أن يحفظ الله عليهم معارفهم وأخلاقهم وقدرتهم على استمرار الاستقامة» و «أن يجعلهم أئمة أي أمثلة وقدوة في تقواهم لكل من عبد الله واتقاه.

فأين ذلك كله؟ من التفسير المتعرج والاستنتاج الخطأ الذي جاء به المؤلف؟.

المبدأ الرابع:

يقول المؤلف: لقد أوضح القرآن ماهية النصارى فوضع التفسير النهائي لهذا المفهوم في الآية ٦١/ ١٤: الصف هو الآتي: **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عَدُوِّهم فأصبحوا ظاهرين﴾** فالنصارى يقول المؤلف:

هم في مصطلحات القرآن، على التخصيص، الطائفة التي آمنت بالمسيح من بني إسرائيل واستجابت لدعوته، فحملها الحواريون والرسل إلى الأمم وظلت تكابد الأذى والاضطهاد والتصفيات الجسدية حتى أظهرها الله على اعدائها بالاسلام. فما الإسلام إلا انتصار للنصرانية، وما القرآن إلا دعوة إليها. وعلى هذا فإن إسلام النصارى ونصرانية المسلمين من حقائق القرآن التي لا شبهة فيها[١].

هذا التفسير الجريء، جدا والعجيب جدا، الذي يتعارض مع ثوابت العقائد والتاريخ منذ أن ظهر الإسلام حتى الآن، كان يمكن أن نتركه دون تحليل، لأنه لا يقوم على منطق أو دليل ولكن وجدنا من المفيد أن نقول فيه كلمة:

النداء موجه من النبي إلى الذين أسلموا لكي ينصروه مثلما فعل الحواريون مع

---

(١) ص - ٢٣.

المسيح. وما إيراد قصة الحواريين في الآية إلاّ مثل للذين أسلموا كي يزدادوا يقيناً وإيماناً ويجدوا قدوة في أولئك الذين استجابوا وناصروا عندما طلب منهم الرسول ذلك، فقد أكدت الآية أن الفئة التي آمنت كانت مُستضعفة قليلة العدد فتسحلت بالإيمان وقاومت طائفة الكفر مع قوتها وكثرتها وبذلت أقصى وأعظم التضحيات حتى أظهرها الله على الكافرين.

إنها رواية من التاريخ قُصد منها تشجيع المسلمين وتقوية عزائمهم بفتح صحائف الماضي أمامهم وقراءة مالاقاه أصحاب الدعوات الإلّهية من معارضة وإطلاعهم على ما لاقاه أصحاب الدعوات الإلّهية من أهوال ومصاعب ومعارضات كانت تنتهي ـ دوماً ـ بتغلب الحق على الباطل واندحار الشرك أمام الإيمان وهكذا لن يجد أي مدقق في كلمات الآية ما وجده المؤلف:

ـ فلا مقارنة بين الإسلام والنصرانية.

ـ ولا تبعية من الإسلام للنصرانية.

ـ والانتصار الديني والسياسي الذي حققه الإسلام في عهد النبي ومن بعد عهده، هو انتصار للإسلام باعتباره ديناً مستقلاً لا ديناً تابعاً ولا تجديداً لدين أو بعثاً له.

ـ وما قول المؤلف: إن نصرانية الإسلام والقرآن حقيقة لا شبهة فيها سوى الشبهة التي أطلقها خيال المؤلف دون دليل من كتاب أو سنة أو تاريخ.

ـ والغريب في هذه النظرية التي وضعها المؤلف بين الحقائق التي لا يأتيها الباطل. أن ليس لها وجود ولا أمل في وجود على أرض الواقع. فما زالت الطوائف الأخرى تنكر نبوة النبي محمد وترفض الإسلام. فلو كان ما يقوله المؤلف صحيحاً حتى في بعض أجزائه فقط لتبنَّت تلك الطوائف دعوة الإسلام التي ليست في نظر المؤلف غير تجديد لها ودعوة إليها.

وإذا مرت النظرية ـ أية نظرية ـ في زمنين وقامت لديها في كل منْهما أدبيات ونظريات في الأخلاق والفكر والسياسة وطقوس الاعتقاد فإن محاولة التقريب بينهما لا تبدأ من شطب الجديد الذي مثل ويمثل حاجات التطور بل العكس هو المنتظر أن

يكون سيراً مع التوق الأزلي للإنسان إلى بلوغ الكمال الذي ينافي المسير إلى الوراء.

المبدأ الخامس:

وهو يتمثل في شهادة القرآن للنصارى بأنهم «أهل المودة لجماعة محمد» وأن «عيونهم تفيض من الدمع إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول» وذلك بفضل «ما عرفوا من الحق وبفضل قسيسيهم ورهبانهم».

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدَّن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾ (٥/ ٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٥ المائدة).

يقول المؤلف: «النصارى هم أهل المودة لجماعة محمد والقرآن يعلن انضمامهم إلى المسلمين (أمة واحدة) ويرجع الفضل في ذلك إلى قسيسيهم ورهبانهم الذين لا يجوز أن تلقى عليهم شبهة في إسلامهم بعد أن ثبت خشوعهم حتى فاضت به العيون وعبرت عنه الدموع». ص ـ ٢٣.

نرى من المفيد أن نلقي الضوء على بعض الجوانب المتعلقة بآيات سورة المائدة كما يلي:

١ ـ لقد نزلت الآية تلبية لمناسبة خاصة، في ظرف خاص. واجهه المسلمون الأوائل.

كانت مؤامرات اليهود ودسائسهم على الدين الجديد قد بلغت درجاتها القصوى فهم لا يتوقفون عن تكذيب النبي ومعاداته وتأليب الأحزاب ضده وإغراء الشعراء بهجائه، وكانت مقابلة الأحباش في عهد النجاشي لوفد الهجرة الأولى في منتهى الكرم والأخلاق وتقبل الدين وعمق الخشوع فقد روي أن الملك وصحبه لم يملكوا أنفسهم عن البكاء خشوعاً لله. عندما أنصتوا إلى جعفر بن أبي طالب يتلو سورة مريم ثم يتحدث عن الطبائع الكريمة التي يتحلى بها النبي محمد(ص).

كان الموقفان متناقضين متباعدين، فكان في المقارنة بينهما إعلام وتعليم وتحذير وترغيب.

٢ ـ هؤلاء الخاشعون من النصارى الذين «انضموا إلى الإسلام في أمة واحدة» كما أكد المؤلف ذكرهم القرآن في مناسبات أخرى. (ص ـ ٢٣).

ولكن بطريقة المجاز المرسل، أي باعتبار ما كانوا عليه قبل الإسلام، فقال عنهم وعن أشقائهم ممن لم يعتنقوا الإسلام: **﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾** (٥٧/ ٢٧ : الحديد).

ـ فالرهبانية اشتقت من الرهبان ـ جمع راهب ـ وهو لفظ مأخوذ من الرهبة: أي الخوف من الله وهذا الجمع «رهبان» مثل راكب، ركبان، وفارس، فرسان.

ـ أما الابتداع فيها فلأنها لم ترد في أقوال المسيح ولا في أقوال أحد من تلاميذه بل ظهرت لأول مرة في الشرق على يد مؤسسها الناسك «انطونيوس الكبير» المولود في مصر بعام ٢٥١ م من أسرة غنية ورث عنها مالاً كثيراً ولكن نفسه عافت المال وتعلق بقول المسيح في إنجيل متى «إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك ووزعها على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني» ثم انتقلت الرهبانية إلى الغرب بوساطة وصفٍ قام به القديس «أثناسيوس» لحياة الناسك «انطونيوس الكبير».

ـ وأما كونها ابتغاء مرضاة الله فذلك في الأصل ومن حيث المبدأ قامت عليه في البدء.

ـ ولكنهم لم يرعوها حق رعايتها إذ ابتعدوا بها عن غاياتها ومبادئها فامتلكوا الأموال والعقارات وتجملوا بمظاهر الدنيا وبالغوا في بسط سلطانهم الديني وطفقوا يبيعون بيوتاً في الجنة إلى القطيع المؤمن ويستنزفون منه أمواله وجهوده حتى تحولوا من موقع النساك إلى موقع الأمراء (أمراء الكنيسة).

ولم يكتفوا بل صارت مواقعهم الروحية ذات سلطات إلهية يستطيعون

بوساطتها أن يسمعوا الاعترافات بالذنوب وأن يغفروها لمن يشاؤون. ويحجبوها عمن يشاؤون.

لذلك أعادت الآية(٩/ ٣١: التوبة) وصفهم بصيغة الاستنكار والتنديد **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلّها واحداً لا إلّه إلا هو سبحانه عمَّا يشركون﴾**.

فجعلت الأحبار اليهود إلى جانب الرهبان النصارى في مستوى واحد.

لأن الآية ٩/ ٣٠ كانت قد نددت بالطائفتين معاً بقولها: **﴿وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾** (٩/ ٣٠)[١] من ذلك كله نخلص إلى القول:

ـ نزلت آيات سورة المائدة لمناسبة خاصة وفي وصف خاص لفئة خاصة فلا يمكن أن تكونا محددتين تحديداً نهائيا أزليا لعقيدة القرآن في جميع النصارى بكل عصر ومكان.

ـ لم يكن جميع النصارى مثل النجاشي وصحبه ولم يعتنقوا الإسلام جميعهم.

ـ والنَّصارى وإن قامت في قلوبهم رأفة ورحمة وأسَّسوا رهبانيتهم على قواعد من هذه الرحمة فإنهم لم يستمروا فيها على ما بدأوا، بل انحرفوا عن غاياتها فاقتادوا الكثيرين إلى مهاوي الضلال.

ـ والرأفة والرحمة والزهد والتنسك، هذه الصفات التي كانت دستور النصرانية وهويتها في عهودها الأولى، تقلصت وزالت من عالم السلوك لتنزوي في المخطوطات والمكتبات نصوصاً تفرغت من الحرارة والألق والمشاعر، وقامت إلى جانبها مظاهر الحياة، والمادية التي اكتسحت عالم الروح.

تلك: هي الرؤية القرآنية للنصرانية ولمن بقي عليها من أهل الكتاب.

---

(١) يضاهئون قول الذين كفروا من قبل: يشابهون قول المشركين الذين كانوا يقولون: الملائكة بنات الله.

البحث الثاني

ملابسات جمع القرآن وتدوينه

وحصلت ـ كما قال المؤلف ـ إبان جمع القرآن ملابسات اقتحمت حرمة النصوص وأدخلت إليها الكثير مما خلفته المغازي والحروب من أحقاد، فجاء مصحف عثمان مجموعاً آخر يختلف في المباني والمعاني عن قرآن النبي، فلم يراع ترتيب النزول ولا ترتيب الآيات في المواضيع. ووضع فيه مالم يكن في القرآن ورفع منه ما كان ثابتاً فيه، وانعكس ذلك كله انعكاساً سلبياً عقائدياً على علاقة المسلمين بالمسيحيين عامة. ما زال يملأ النفوس حتى الآن.

ولقد طاف المؤلف على جميع ما كتب حول هذا الموضوع. قديماً وحديثاً ـ كما زعم ـ فوجد أن تلك الملابسات أسقطت الموضوعية والمصداقية والنزاهة والحياد فيما رواه وتلاه وجمعه ذلك «الرهط» الذي أوكلت إليه مهمة جمع القرآن في عهد عثمان. فأوجبت على القارىء المدقق والدارس المحقق أن تظل عينه شاخصة إلى الظروف السياسية والعسكرية التي جمع القرآن في ظلها.

وبالرغم من وعورة الطريق فقد أقتحمه المؤلف، وطاف على تلك الملابسات فحددها وعددها ووضع لها العناويين وألحقها بمناسباتها وظروفها فكانت رؤيته لها كالآتي:

- تلك التي ظهرت بسبب القراءات العديدة للقرآن.
- وتلك التي قامت بسبب اختلاف الرأي حول المرجعية في عملية الجمع.
- وتلك التي وجدت مع مراحل وأطوار جمع القرآن.
- وأخيراً تلك التي تأثرت بالعوامل السياسية والعسكرية.

لذلك سوف نخصص كلا من مواضيع البحث بوقفة نقدية. متبعين خطة المؤلف في الترتيب والتقسيم ومتقيدين بالعناوين التي وضعها تقيداً حرفياً وملتزمين معه بقواعد الحوار الذي لا يهدم إلا في سبيل البناء ولا ينفي إلا من أجل الإثبات.

أولاً: الرخص بقراءة القرآن مدى خمس عشرة سنة:

١ ـ قال المؤلف: في الحديث الشريف أُنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ ما لم يختم آية عذاب بآية رحمة أو آية رحمة بآية عذاب.

«وقد اتفق العلماء على أن اختلاف الأحرف هو اختلاف في الألفاظ باتفاق في المعاني» (ص: ٢٤) ولكن المؤلف لا يلبث أن يستخرج من الحديث النتيجة الغريبة التالية:

«ومدى الاتفاق في المعاني يحدده نص الحديث نفسه وهو تبديل آية عذاب بآية رحمة أو آية رحمة بآية عذاب».

فهذه الرخصة تساعد على إقحام كلمة تفسيرية على النص وتابع قوله: «إن الواقع القرآني يشهد على أنه عند تدوينه كان قد انتهى إلى سبعة نصوص وأن العرب كانوا يقرأونه بسائر لغاتهم».

أما نحن: فلنا أن نعود إلى نص الحديث وإلى ما حضر من المراجع لنستخرج الحقائق مباشرة مجردة من التعليق والذي يعبر عن صاحبه أكثر مما يعبر عنها.

أ ـ إن كلمتي «شاف. كاف» في الحديث أفادتا بما أراده النبي (ص) من حديثه وهو إن الشفاء والكفاية في القرآن مرهونان بألا يؤدي اختلاف الأحرف إلى اختلاف الأحكام والمعاني وإلاَّ صار التناقض والتشتت والضياع. وهنا يبدو أول واحد من أخطاء المؤلف. الذي فهم من الحديث إمكان إبدال الآيات المتغيرة الأحكام ناسباً هذا إلى الترخيص من النبي.

ب ـ لقد صحت رواية هذا الحديث عند كثير من الصحابة. عدَّد السيوطي منهم أحد عشر صحابياً، كلهم من ثقات الرواة (الإتقان ـ طبعة رابعة ـ لعام ١٩٧٨ ـ ١/ ٦١).

ج ـ لم يتفق العلماء جميعاً على ما تعنيه كلمة «حرف» في الحديث الشريف. فذهبوا مذاهب شتى في الاستقصاء عن مدلولها:

ـ ففي الإتقان: «الحرف يصدق لغة على حرف الهجاء ـ وعلى الكلمة ـ وعلى

المعنى وعلى الجهة. وقد قال ابن قتيبة: المراد بالأحرف هو الأوجه التي يقع بها التغاير وهي سبعة: أولها ما يتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل: (ولا يضارَّ كاتب) بفتح الشد على الراء وضمه وثانيها ما يتغير بالغعل مثل (بعد وباعد) وثالثها ما يتغير باللفظ مثل (ننشزها ـ ننشرها) ورابعها ما يتغير بابدال حرف قريب المخرج مثل (طلح منضود وطلع منضود) وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل(وجاءت سكرة الموت بالحق. وجاءت سكرة الحق بالموت) وسادسها ما يتغير بزيادة أونقصان مثل (والذكر والأنثى ـ وما خلق الذكر والأنثى) وسابعها ما يتغير بابدال كلمة بأخرى مثل (كالعهن المنفوش ـ كالصوف المنفوش) الإتقان ـ ١/ ٦١.

وقال الشيخ الرازي في اللوائح:

«الاختلاف في الكلام لا يخرج عن أوجه سبعة: الأول هو اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث. والثاني اختلاف تصريف الأفعال من ماض ومضارع وأمر. والثالث اختلاف وجوه الإعراب والرابع الزيادة والنقص. والخامس التقديم والتأخير. والسادس كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإظهار. والسابع اختلاف النطق بالتلاوة من إشباع ومدٍّ وقصرٍ وتشديد وتخفيف وتليين وتحقيق». (المرجع ذاته ـ ص ١/ ٦٢).

وقال ابن عبد البر:

«جاء عن عمر(ر) أن القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذابا وعذاباً مغفرة. وإنما أراد عمر بهذا ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنّها معانٍ متفق مفهومها مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى وضده ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينفيه أو يضادّه كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضدّه».

ثم أُسند عن أبيّ بن أبي كعب أنه كان يقرأ «كلما أضاء لهم مشوا فيه ـ مروا فيه ـ سعوا فيه وكان ابن مسعود يقرأ: للذين آمنوا انظرونا ـ أمهلونا ـ أخرونا (المصدر السابق: ١/ ٦٢ ـ ٦٣).

وقال الطحاوي ملخصاً هذه الظاهرة:

«وإنما كان ذلك رخصة لما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد

لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحفظ ثم نُسِخَ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ ـ ص ١/ ٦١ المرجع ذاته.

د ـ وفي الربع الثالث من هذا القرن قدم الدكتور صبحي الصالح رأياً يوضح هذا الالتباس فقال:

«كان يطلق على اللهجات المختلفة لفظ «لغات» مثل: لغات قبائل مضر وهي «هذيل وكنانة وقيس وضبّة وتيم الرباب ـ وأسد بن جذيمة و قريش. وكان المتعارف عليه أن لغات العرب هي لغاب قريش وهذيل وتميم وأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر. وفي القرآن ألفاظ من لغات شتى تمثلت كلها في لغة قريش وهذا ماذهب إليه أبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن يحيى» ـ ثعلب ـ البرهان ١/ ٢١٧

كما قال الأزهري في التهذيب أنه القول المختار واحتج بقول عثمان (ر) «وما اختلفتم انتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش فإنه أكثر ما نزل بلسانهم» البرهان ١/ ٢١٨.

وقد نبهنا على أن الاختلاف يدور حول الكتابة والرسم لا أي شيء آخر ـ (مباحث في علوم القرآن ص ١٠٥ الشيخ صبحي الصالح).

٢ ـ قال المؤلف:

«أجاز الخلفاء الراشدون وبعض الصحابة كمجاهد وأبي بن كعب قراءة القرآن بالمعنى من دون الحرف وقالوا: ذلك لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (الحجر: ٩) لأن المراد بالحفظ هو مفهوم الألفاظ لا منطوقها. فهذه الرخصة تقود حتما إلى شبهات على صحة حفظ الحرف المنزل وإلى إمكانية إقحام كلمات تفسيرية على الآيات الكريمة وإتلاف عثمان للأحرف الستة بالنار ـ كما سنرى ـ يشهد بأن الإمكانية تحولت إلى واقع (ص ٢٥ ـ ٢٦ من كتاب المؤلف).

إن مقولة القراءة بالمعاني دون التقيد بالألفاظ «هي تحريف لوجهة نظر خطأ صدرت بنية حسنة عن بعض المفسرين الذين رأوا أن المراد من الأحرف السبعة هي سبعة أوجه من اللفظ المختلف ولكن متفق في المعنى نحو «أقبل» فقالوا فيه «هلم ـ تعال ـ عجل ـ أسرع ـ انظر ـ أجز ـ أمهل» ونحوه وكان مستندهم قول النبي لعمر

«يا عمر القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة» ففهموا منه «رخصة بالتجاوز عن حرفية النص شريطة التقيد بالمعنى».

وقد فطن علماء الإسلام إلى فداحة هذا الخطأ وخطورة هذه النظرية على الحياة الإسلامية لأنها تسلِّم النص القرآني إلى أمزِّجة القراء وأهوائهم فيتغير مع ثقافتهم وأفهامهم عمقاً وضحالة. وهذا بطلان وانحراف لأن القرآن وحي يتلازم فيه الثبات والمناعة في حين أن القراءات قد تتغير بتغير القراء من حيث كتبة الحروف أو كيفيتها تخفيفاً أو تثقيلاً أو سواهما.

وفي القرآن الزام جازم بالنص. ففي قوله:

﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا﴾ (١٨/ ٢٧: الكهف).

فسروا: لا مبدل لكلماته: بأنه يمتنع تطرق التبديل والتغيير فيه وانتهوا إلى أن تغيير النص اللفظي بالقياس المعنوي غير جائز. وهذا الحكم القرآني الصريح لا يتعارض مع الناسخ والمنسوخ، لأن المنسوخ كان ثابتاً في وقته وظل متبعاً إلى وقت مجيء الناسخ فكلاهما غاية مستقلة وبالتالي لا يجوز اعتبار أحدهما بديلاً عن الآخر.

وفي قوله: ﴿ما يُبدَّل القول لدي وما أنا بظلاّمٍ للعبيد﴾ (٥٠/ ٢٩: ق) ذهب المفسرون إلى أن قوله لا يمكن تبديله لفظاً أو معنىً ـ تفسير الامام الرازي للآية ٢٧ ـ ق.

ولقد كان النبي (ص) يصرح كل التصريح بأن المراد من الأحرف السبعة هو الأوجه السبعة التي وسَّع الله بها على الأمة فبأي وجه قرأ القارىء أصاب. قال: أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل استعيده حتى انتهى إلى سبعة أحرف ـ البخاري ـ: ٦/ ١٨٥.

وقد جهد المفسرون كثيراً لبيان وتحديد ماهية وكيفية هذه الأحرف فوجدوا أن اللفظ القرآني مهما تعدد أداؤه وتنوعت قراءته لا يخرج التغاير فيه عن الوجوه السبعة الآتية:

ـ الاختلاف في الإعراب حتى لو تغير المعنى مثل: «فتلقى آدمُ من ربه كلمات. . .» فقد قرىء: «فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ».

ـ الاختلاف في الحروف: إما بتغيير المعنى دون الصورة مثل: «يعلمون ـ تعملون» وإما بتغيير الصورة دون المعنى مثل: «الصراط ـ السراط» و «المصيطرون ـ المسيطرون».

ـ الاختلاف في الأسماء إفراداً أو تثنية أو جمعاً مثل: «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ـ والذين هم لأمانتهم. . .» ومثل: «إن البقر تشابَهَ علينا ـ تشابَهُ ـ تتشابه علينا»

ـ الإبدال مثل: «كالعهن المنفوش ـ كالصوف المنفوش» ومثل: «وطلحٍ منضود ـ وطلع منضود».

ـ التقديم والتأخير مثل: «فيقتُلون ويُقتلون ـ فيُقتَلون ويَقتُلون» ومثل: «وجاءت سكرة الموت بالحق ـ وجاءت سكرة الحق بالموت».

ـ الزيادة والنقصان في أدوات العطف والجر مثل: «وأعَّد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ـ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار».

ـ اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والهمز وكسر حروف المضارعة وإشباع ميم الذكور وإتمام بعض الحركات.

ويقول الدكتور صبحي الصالح تعقيباً على هذه المتغيرات:

«والحق إن هذا الوجه الأخير أهم الأوجه السبعة لأنه يبرز الحكمة الكبرى من إنزال القرآن على سبعة أحرف، ففيه تخفيف وتيسير على هذه الأمة التي تعددت قبائلها فاختلفت لهجاتها وطريقة نطقها. ولقد اصطفى القرآن ما شاء منها بعد أن صهره في لغة قريش التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبة (البخاري: ٦/ فضائل القرآن) لا لغات قبائل معينة ينتصر لها بعض العلماء بتعسُّف لا يؤيده دليل عقلي ولا نقلي. ذلك بأن العرب حين استصفوا لغة قريش وجعلوها لغتهم الأدبية المشتركة أثروا فيها مثلما تأثروا بها. فصدق على لهجة قريش مايصدق على اللغات جميعاً من قوانين التأثر والتأثير».

مباحث في علوم القرآن: ص ١١٣ (للشيخ صبحي الصالح).

ثانياً: هل كان الجمع بتوقيف على النبي أم بتوفيق من الصحابة؟:

ثالثاً: قصة جمع القرآن:

رابعاً: التدخل السياسي في القرآن.

هذه العناوين الثلاثة هي الأسس التي يقوم عليها بناء الكتاب مع باقي كتب المؤلف التي أربت على بضعة عشر كتاباً حددت بأسماء مختلفة وتحت عنوان واحد هو : «سلسلة الحوار الإسلامي المسيحي».

والفكرة هي فكرة جذابة، ولكن ذلك في المطلق أما في المضمون فإنها «خضراءُ الدِّمن».

فثمة اعتراضات لا حصر لها تقوم في ذهن أي قارىء لهذه السلسلة وهي في المحصلة تنفي المصداقية من أطروحات المؤلف.

فالمحاور الهادف إلى توحيد الآراء يعرفها من موقع الحياد المطلق. لا إفراط ولا تفريط، يمحو السلبيات أو يهوّن منها تسهيلا لتجاوزها، ويبرز الإيجابيات فيشرح غوامضها ويقربها من المنطق وذلك بتفصيل مجملها وإظهار خبيئها، غير أن كتب الحداد هي في موقع آخر.

إنها فكرة واحدة أو بضعة أفكار تخدم موضوعاً مركزياً واحداً يدور حوله هذا الكتاب كما سوف نرى فكرة مركزية هي الهمُّ الذي يحتل رأس المؤلف ويستقطب عواطفه، تتكرر وتستمر فلا تتوقف ولا تتعب ولا تلهث شأنها شأن البساط الدائر في العمل الذي تتواتر عليه الحركات في مواقعها دون تجاوز زماني أو مكاني.

فالمؤلف يقدم كتبه تحت عنوان الحوار.

ولكنه ما إن يدخل أولى عتباته حتى يهجر الحوار ويخلع جلد المحاور ليتحول إلى مُنَاضِل عقائدي تسمَّرت عواطفه حول قناعات معينة منها الإيجابي المطلق ومنها السلبي المطلق.

فالإيجابية عنده هي دوماً في خط المسيحية، التي يرى فيها الله وشريعته رؤية

العين ويلمسها لمس اليد وهي بكل ما فيها دون مساس، من طقوس وأفكار ومعتقدات عنوان الإيمان والحقيقة.

أما السلبية فهي في الإسلام ومنه وإليه، لأنه أدَّعى نشوءه عن نبوة مدعاة، واقتنص الإنجيل والتوراة، وصادر الطقوس والمعتقدات ونسبها إليه قوة واقتدارا فهو حركة سياسية ليس للسماء فيها علاقة، فكان القرآن آلتها النظرية وكان الغزو والقهر والاحتلال آلتها العسكرية. وفي هذه العناوين الثلاثة يضع القواعد التي يقوم عليها بناء كتابه.

ـ فالقرآن الذي يرى المسلمون فيه دستورهم الروحي ومجدهم الإلٓهي لم تتألف آياته في سورها بعهد النبي ولم تترتب بأمره، فالواقع التاريخي يثبت استحالة ذلك (ص: ٢٦ـ ٢٧).

ـ والأمر ذاته في ترتيب سور القرآن التي واجهت عملية التصحيف العثمانية عدداً كبيراً منها، جمعها ورتبها الحفظة المتعددون كل حسب اجتهاده ـ ص ٢٧.

ـ وجمع القرآن في عهد عثمان هو المرحلة النهائية من مراحل الجمع، فكان للسياسة ولظروف الحرب والاحتلال، أثناء هذه المرحلة تأثير كبير لعله كان الأخطر شأنا بين جميع المؤثرات إذ هو الذي حفر هذا الأخدود العميق الأسود المديد الذي فصل ما بين الإسلام والمسيحية والذي لا يزال فاصلاً حتى اليوم.

* * *

هنا تبدو غاية المؤلف بكل وضوح.

فقرآن المسلمين هو غير مصحف عثمان، لأن قرآن المسلمين لم يهاجم المسيحية ولم يلتق بها ولم يندد بعقائدها.

وقرآن المسلمين امتداد للنصرانية وترجمة عن إنجيلها وقائل بعقيدتها ومجدد لطريقتها.

في حين أن مصحف عثمان يثني على النصرانية حيناً ثم ينقلب عليها فيهاجم معتقداتها ويرميها بالكفر والشرك.

ويعمم المسلمون هذه الأحكام على المسيحية خلافاً للقرآن والإسلام الحقيقيين.

هكذا يتحدث الأستاذ الحداد.

وما على من يقرأون مؤلفاته إلا أن يؤمنوا معه بأن آيات التكفير والجدال العقائدي ألّفها عثمان من عنده ووضعها في القرآن تلبية لرغبات وأحقاد الفاتحين.

أما الأدلة التي تأبطها ليقنع القرآء بصواب نظريته فقد لخصها بالآتي:

١ ـ إن ترتيب الآيات في السور كانت باجتهاد الصحابة ولم تكن بمشورة النبي وأمره، فالترتيب غير معصوم ولا يحمل قداسة العصمة من الخطأ.

٢ ـ وكذلك جمع القرآن الذي تم بعد وفاة النبي، ومن خلال مراحل عدة.

٣ ـ والسياسة التي لم يرتفع في وجهها أي جدار يحول بينها وبين التأثير على الجمع والترتيب ولم تصطدم بالعصمة التي تمنعها من التدخل، تسللت إلى حرم السور المقدسة فاختلطت العواطف البشرية بالآيات الأزلية اختلاطاً استحال معه التمييز بين الإلّهي والبشري.

* * *

إن ما قدمه المؤلف على أنه أدلة وأحكامٌ عادية لم يكن غير عبارات نارية أطلقها بهدوء واطمئنان الواثق، مسقطاً عن عاتقه واجب التوثيق والاعتماد على المصادر، لأن أحكامه مبرمة وآراءه منزهة عن الجدال والنقاش، وقد غاب عن نظره أن المؤلف عندما يستنبىء التاريخ وينسب إليه الوقائع يجدر به أن يعثر على الإسناد الصحيح وإلا تعرضت مصداقيته للإهتزاز عند قرائه.

هذا فضلاً عن أن الأثر الذي خلا من الاسانيد أو اعتمد على الضعيف منها كثر عثاره وسهل حواره لذلك وبثقةٍ تفوق ثقته أضع ملاحظاتي على مقولاته:

١ ـ إن ترتيب الآيات في السور كان وقفاً على إرشادات النبي وأوامره، لذلك سمي في المراجع «عملاً توقيفياً» تمييزاً له عما نسب إلى الصحابة الذين أطلقوا عليه اسم «العمل التوفيقي» وهذا ثابت بالنص وإجماع المجتهدين وعلماء القرآن:

ـ ففي حديث زيد أوضح المقصود من تأليف القرآن من الرقاع بأنه: «ترتيب الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها». لهذا لا يجوز الإبدال ولا التعكيس ولا الرفع ولا الوضع ويُستدل على ذلك بما أخرجه البخاري عن أبي جعفر بن الزبير قال:

قلت لعثمان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً...﴾ (٢/ ٢٣٤: البقرة). قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبُها ولم لا تدعُها؟ قال يا ابن أخي: لا أغير شيئاً من مكانه. (صحيح البخاري: ٦/ ٢٩ والاتقان: ١/ ١٠٥).

أي: إن عثمان لا يجرؤ على إهمالها ولو كانت منسوخة لأنها في مكانها بتوقيف النبي (ص).

ـ وجاء في الاتقان ١/ ٨٠: «أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله (ص) إذ شخص ببصره ثم صوَّبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى...﴾ إلى آخرها...».

ـ وأورد صاحب الاتقان في الصحيفة ذاتها ما أخرجه أحمد وأبو داوود والترمذي والنسائي وابن حيان والحاكم عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموهما في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول الله (ص) تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أوائل ما نزل في المدينة وكانت براءة من أواخر القرآن نزولاً وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها. وقُبض رسول الله (ص) ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال.

ـ وقال القاضي أبو بكر في «الانتصار»: ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقال أيضاً: الذي نذهب إليه

أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو هذا الذي حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه شيء وأن ترتيبه ونظمه ثابتان على ما نظمه الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آي السور لم يقدم من ذلك مؤخر ولا أخر منه مقدم وإن الأمة ضبطت عن النبي (ص) ترتيب آي كل سورة ومواضعها، وعرفت مواقعها كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة (الاتقان: ١/ ٨٢).

ـ وقد جمع الدكتور صبحي الصالح في الفصل الأول من الباب الثاني (مباحث في علوم القرآن) عدداً غير يسير من الأسانيد والأحاديث والوقائع التي تصور الرسول (ص) يملي القرآن على كتّاب الوحي ويوقفهم على ترتيب الآيات منها: (صحيح البخاري ـ كتاب تفسير القرآن ـ الباب الثامن عشر) و(كتاب الأحكام ـ الباب السابع والتسعون) و(مسند ابن حنبل: ٣/ ١٢٠ و ٤/ ٣٨١) و(البرهان للزركشي) و (الدُّرر الكامنة لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي المكنّى بأبي جعفر: ١/ ٨٤ ـ ٨٦)..

٢ ـ أما ترتيب السور في القرآن فسواء أكان توقيفيا أم توفيقياً أم كان على القسمين وفقاً للقول الراجح فقد ثبت بالأدلة والأسانيد التي لا تحصى أن القرآن كله كتب في عهد النبي غير مجموع في مصحف واحد لأن حفظ الصحابة له في صدورهم كما وقفهم عليه رسول الله ونبههم إلى مواضع الآيات بتوقيف من الله أغنى عن الجمع في مجموع واحد ـ الدكتور الصالح ـ ص: ٧٣. وأضاف:

قال الزركشي: وإنما لم يكتب في عهد النبي مصحف لئلا يُفضِيْ إلى تغييره في كل وقت، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزوله بموت النبي (ص) ـ البرهان: ١/ ٢٦٢.

تلك المراجع والأدلة والتواتر المسند، تغافل المؤلف عنها، وهي قليل من كثير، ليقول دون مرجع أو دليل: «إن الواقع التاريخي يشهد باستحالة تأليف الآيات في السورة بالتوقيف على النبي وإن ذلك كان باجتهاد الصحابة ـ ص: ٢٧ من كتابه».

ولكن كيف يطلب من أي قارىء وخاصة القارىء المسلم أن يشطب من كتبه

وينفي من ذاكرته تلك الروايات التي تسلسلت حتى الصحابة والنبي، ليضع مكانها قولاً مرسلاً صادراً عن مؤلف عصري دون دعمٍ مرجعي.. ومحمُولٍ على نيَّاتٍ مشكوك في مصداقيتها؟

٣ ـ تمت عملية جمع القرآن على عهدين: عهد أبي بكر. وعهد عثمان وكان جمعُهُ في كل عهد يلبي حاجة اجتماعية قائمة.

ـ فحرب اليمامة التي استحرَّ فيها القتل بالقرّاء كما قال عمر (ر) واستشهاد سبعين منهم خلالها هو الذي دفع بعمر إلى تقديم المشورة بجمع القرآن واعتقاد عمر أن جمع القرآن هو خير ـ كما أقسم لأبي بكر ـ كيلا يذهب الكثير من القرآن بذهاب الكثيرين من القراء.

ـ واختلاف الناس في القراءة وأداء القرآن بعهد عثمان هو الذي دفع إلى استحضار الصحف التي جمعها أبو بكر والتي كانت انتقلت بعد وفاته إلى عمر ومن عمر بعد وفاته إلى ام المؤمنين حفصة لكي يجمعها في كتاب واحد يكون «مصحفاً إماماً» ليستنسخ منه عدداً يوافي بها الأمصار فتتوحد القراءة ويتفق الأداءُ ويزولُ الخلاف الذي يؤدي إلى الاختلاف.

ـ والقرآن الذي ضم مئة وأربع عشرة سورة تتألف من ستة آلاف وستماية وست عشرة آية التي تتكوّن بدورها من ثلاثماية وثلاثة وعشرين ألفاً وستماية وواحد وسبعين حرفاً.

هذا «المُعجز الضخم» كان خالياً من «النقط» و «الشكل» و «الفواصل» وكان منذ أيام النبي وحتى أيام أبي بكر محفوظاً في صدور الحفظة والقراء أو على صحف مجموعة عند بعض الصحابة. ولقد ذكر ابن النديم أسماءها في «الفهرست» وكذلك ابن أشته في «المصاحف» فقالا: لقد رتّبها جامعوها كلٌّ باجتهاده الشخصي وأضافا إليها هوامش تفسيرية لتوضيح الغامض وتفصيل المجمل. فمن الصحابة ـ كما نقل السيوطي عن ابن الجزري ـ من كان يكتب في مصحفه ما سمع تفسيره وإيضاحه من النبي فقال:

«وربما يدخلون التفسير في القرآن إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه

عن النَّبي (ص) قرآنا فهم آمنون من الالتباس وربما كان بعضهم يكتبه معه أي مع القرآن في المصحف الذي يكتبه لنفسه كمصحف عائشة» ـ الاتقان: ١/ ١٣٤ والدكتور الصالح ـ ص: ٨٥.

ـ لذلك يتزايد قلق الصحابة يوماً بعد يوم فَزَعاً من اختلاف المسلمين في القراءة، ذلك الاختلاف الذي كان يتسع كلما قلّ عدد القراء والحفاظ. والصحابة الذين عاصروا نزول القرآن. وقد أشار ابن جرير الطبري إلى ذلك في تفسيره للآية ٢١/١ من سورة البقرة والسيوطي في ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣ من الاتقان، في خبر عن طريق أيوب بن أبي قلابة جاء فيه:

«لما كان في خلافة عثمان جعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين حتى كفر بعضهم بقراءة بعض فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: «أنتم عندي تختلفون فيه وتلحنون فمن نأى عني من أهل الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحنا. اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً».

٤ ـ ولقد اتفقت جميع المراجع على أن زيداً بن ثابت جمع القرآن من «العسب» و«اللخاف» و«الرقاع» و«قطع الأديم» و«الأكتاف» و«الأقتاب»[١] وأطلق على هذا «المتعدد» اسم «الصحف»[٢] أما تسمية هذا «المتعدد» بعد جمعه باسم «المصحف» فقد تمت في عهد أبي بكر ـ على ما أخرجه ابن أشعث في كتاب المصاحف ـ عن طريق موسى بن عتبة بن شهاب قال: لما جمعوا القرآن فكتبوه على الورق قال أبو بكر التمسوا له اسما فقال بعضهم: «السفر» قال: ذلك تسمية اليهود فكرهوا ذلك وقال بعضهم: المصحف فإن الحبشة يسمون مثله المصحف. فاجتمع

(١) العسب: جمع عسيب وهو جريد النخل، واللخاف جمع لخفة وهي الحجارة والرقاق من صفائح الحجارة. والرقاع جمع رقعة وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والاكتاف جمع كتف عظم كتف البعير أو الشاة. والأقتاب جمع قتب وهو الخشب يوضع على ظهر البعير. والأديم هو الجلد المبشور وجهه ـ أي المدبوغ.

(٢) أطلق هذا الأسم لاول مرة على هذا الجمع قبل ضمه في مصحف وقد قام بعملية الضم والتسمية زيد بن ثابت الذي نسخ القرآن المفرق في صحف، ثم جمعها بجامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء ـ البرهان ١/ ٢٣٨ والاتقان ١/ ١٠١.

رأيهم عليه (الاتقان: ١/ ٨٩ طبعة ١٩٤٠ و ١/ ٧٨ طبعة ١٩٧٨).

٥ ـ وخلافاً لما زعمه المؤلف من قيام المعارضة ضد عثمان فقد ثبت بالإسناد الموثوق أن ما قام به كان على ملأٍ من الجميع وبمباركةٍ منهم. فهذا علي بن أبي طالب يترحم على أبي بكر ويثني على عثمان للعمل الجليل الذي قاما به في جمع القرآن بالصحف .ثم بالمصاحف فيما بعد. فقد اثر عنه قوله: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله. (أخرجه ابن أبي داوود في المصاحف بسند صحيح وأورده السيوطي في الإتقان ص ٧٦ طبعة ١٩٧٨).

كما رَوَى أيضاً سويد بن غفلة قال: «قال علي لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله مافعل الذي فعل في المصاحف إلا على ملأٍ منا» وقال: «لو وليت ما ولي عثمان لعَملت بالمصاحف ما عمل» (الإتقان للسيوطي ص ٧٩ ـ طبعة ١٩٧٨).

وهذا ابن مسعود الذي أبى في البداية أن يحرق مصحفه الخاص لأنه أحد الأربعة الذين أمر رسول الله (ص) بأخذ القرآن عنهم في حديثه المشهور: «خذوا القرآن عن أربعة» يعني (عبد الله بن مسعود) و(سالم مولى أبي حذيفة) و(معاذ بن جبل) و(أُبيّ بن كعب) ـ البخاري ٦/ ١٨٦.

نقول:

هذا ابن مسعود يرجع أخيراً إلى المصحف الإمام الذي اجتمع عليه رأي الأمة كلها وهي حينئذٍ تنشد وحدة الكلمة والقضاء على أسباب النزاع (كتاب المصاحف لابن أبي داوود ـ ص: ١٢ طبعة ١٩٣٧ ـ ليدن ـ نشر آرثر جيفري).

٦ ـ أما زعم المؤلف بأن عثمان قام بتغيير المصاحف. فهو قول مردود بِقُوَّة المنطق وصراحة التاريخ على السواء.

ـ ففي التاريخ: إن الجهة التي جمعت الصحف في مصحف واحد كانت مؤلفة من أربعة هم: زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. ولم يكن عثمان واحداً من أفرادها ثم إن زيداً بن ثابت هو الذي قام بجمع القرآن في الصحف بعهد أبي بكر وظلت تلك الصحف قرآن أبي بكر حتى

وفاته ثم انتقلت إلى عمر حتى وفاته ثم وضعت عند أمّ المؤمنين حفصة حيث استعادها عثمان أمانة عند جمع القرآن بناءً على طلب اللجنة. وزيد حضر العُرضَة الأخيرة كاملة[١].

ـ وفي المنطق يقوم الاعتراض على دعامتين أولاهما: إن عثمان (ر) لم يكن فرداً عادياً يغمز في إيمانه بالدعوة. فقد سار معها على طريق الكفاح منذ البداية وتحمَّل في سبيلها ما تحمله أوائل الصحابة من إرهاب فما تخلى عنها. ولا تخلف عن مسؤلياتها ثم هو ذو النورين وخليفة المسلمين، فكيف يحرّف دستور الأمة التي استخلف عليها وهو الدستور الذي انطبعت آياته في وجدانه كلمة كلمة وحرفا حرفاً.

أما الدعامة الثانية للاعتراض فهي أن عثمان لم يكن وحيد الرأي، وخاصة فيما يتعلق بأمور العقيدة بل كان من حوله وبين يديه صحابة لهم السابقة والفضل، قرأوا الكتاب وحفظوه وجمعوه ومنهم من باعوا أنفسهم وأموالهم لله، فهم أشد ما يكون الحرص على دينه وكتابه حتى ولو تقاضاهم ذلك النفس والمال والولد. فما كان يمكن أن يغير عثمان أو سواه أو يبدِّلوا أو يعدِّلوا نحو الزيادة أو النقصان في كتاب الله.

فالمؤلف الذي يعرف كيف تمَّ جمع التوراة والإنجيل، ويعرف تاريخ كل منهما، وما كابده من معاناة حتى بلغ ما هو عليه الآن مما جعل الشكُّ في الإسْناد والتواتر قائماً في مواجهتها على الدوام. المؤلف الذي يُدْرِك ذلك أتم الإدراك يجاهد كي يضع القرآن على خط مماثل وذلك من أجل زعزعة اليقين في عصمة نصوصه وثباتها ومناعتها وصحة أسانيدها وتواترها.

بعد أن انتهى من بث الإيهام والشكوك في «الأحرف السبعة» التفت إلى عملية جمع القرآن فرأى من خلالها بداية الأخاديد العقائدية التي شققت دعوة الإسلام وجزأتها، فعملية الجمع، هي عملية سياسية خضعت لسلطان الخليفة مثلما خضع

(١) العُرضة هي تلاوة القرآن من قبل الرسول أمام جبرائيل وكانت تتم مرة كل عام. وفي السنة الأخيرة تمت مرتين حضر زيد الأخيرة منهما وقد قال الرسول: ما أظن إلا إنني مدعو إلى ربي.

مجمع نيقيا لسلطان الإمبراطور وعبَّرت عن مقاصده السياسية مثلما عبر المجمع.

وكان أهم وترٍ عَزَفَ عليه هو وتر الخلاف بين السنة والشيعة الذي عاد به إلى تاريخ جمع القرآن فقال:

أ ـ في ترتيب القرآن وتأليفه نزعتان، النزعة الهاشمية عند آل البيت بزعامة علي والنزعة الأموية التي انتصرت وكان ترتيبها على اختلاف شديدٍ مع الأولى (ص: ٢٧).

ب ـ كان للخلفاء مصحفهم ولآل البيت مصحفهم (ص: ٢٩).

ج ـ لمَّا آلت الخلافة مع عثمان إلى جانب بني أمية بدأ آل البيت يستشهدون بالقرآن لتأييد حقهم في الخلافة (ص: ٣٠) وهي أقوال أطلقها المؤلف، دون مؤيد.

فالخلاف الذي أشير إليه لم يكن خلافاً على القرآن بل كان خلافاً على الخلافة، وفي جميع ما قيل أو كتب لم تستشهد الشيعة على تعدد فرقها بآيات من مصحف خاص، ولم تنسب لآل البيت مصحفاً خاصّاً، وإن كان الإمام علي قد حفظ القرآن وجمعه لنفسه فإنه في النتيجة لم يكن في ما جمعه أية زيادة أو نقص في الأحكام عن المصحف «الإمام» ولو وجد شيئاً من الفروق التي تمس سلامة الدين والعقيدة لجاهر علي بهذا ولكان الجهاد في سبيله هو أقدس أنواع الجهاد. ولما كان التاريخ حفظ له مقولته في «الترحم على أبي بكر» والثناء على عثمان.

واحتجاج آل البيت وشيعتهم بالقرآن لم ينقص بعد الجمع العثماني عما كان عليه قبل الجمع، إذ لم يثبت أن المصحف «العثماني» قد حذف أو أضاف أية آيةٍ أو كلمةٍ نزلت في آل البيت أو تحدثت عن احدى فضائلهم، والمصحف الإمام هو المصحف في جميع أصقاع الأرض، قامت له هذه الإمامة منذ أن جمعته اللجنة حتى الآن فلو كان للشيعة مصحف يختلف عن هذا المصحف زيادة أو نقصاناً، لالتمسوا فيه دينهم ودافعوا عنه وتحدوا به سواه، ولكنه هو دستور كل من ينطق بالشهادتين في العالم.

٧ ـ يقول المؤلف: إن القرآن دستور الإسلام ديناً ودولة وثقافة، فكان لا بد للصحابة والأمة من جمعه (ص: ٣١).

ويقول: الشبهة الكبرى تظل عالقة بالجمع العثماني، لأنه أتلف المصحف الذي قام الخليفتان بجمعه على يد زيد بن ثابت وقد كان مودعاً عند حفصة «زوج النبي» منذ وفاة عمر. ويتساءل: لماذا أتلف عثمان هذا المصحف الرسمي؟.

ثم يتابع: إن التهم التي لاحقت عثمان صدرت عن الشيعة لإسقاطه من القرآن ما ينفي وصية الرسول لعلي بالخلافة وكذلك لإسقاطه ما يخصُّ علياً وآل البيت (ص: ٣٢).

ويقول: إن سورة آل عمران نزلت في أول العهد بالمدينة (في زمن غزوة بدر الأولى بعام ٦٢٤ م وغزوة أحد بعام ٦٢٥ م وبدر الثانية بعام ٦٢٦ م. وكان الجدال مع اليهود على أشده، حيث تمت تصفيتهم بعد واقعة الخندق بعام ٦٢٧ م وبعد فتح مكة بعام ٦٣٠ م لم يعد لليهود من كلمة ولم يقم بينهم وبين القرآن أي جدال. أما غزوة تبوك فهي في عام ٦٣٠ م.

وفي ذلك العام المسمى عام الوفود الممتد ما بين آذار ٦٣٠ م حتى الثامن من آذار ٦٣١ حضر وفد نجران المسيحي، الذي قام بينه وبين النبي جدال عقائدي، بينما كانت تتوالى آيات سورة المائدة بالنزول. لذلك كان يجب أن يتمركز موقع الجدال في هذه السورة، ولكن الأمر جرى على خلاف ذلك فنُقِل الجدال إلى سورة آل عمران بالآيات ٣٣ ـ ٦٤ مع أن سورة آل عمران هي سورة جدال مع اليهودية وحدها. ولم يقف الحال عند هذا الحد، بل أقحموا تكفيرات القرآن للنصرانية مع الآيات التي تخصصت للجدال مع اليهود في سورة النساء (١٧٠ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣). وهذا الإقحام ظاهر يمكن رؤيته من ملاحظة انقطاع السياق في الخطاب القرآني بالآية ١٦٩.

وكذلك جاء الإقحام في سورة مريم (٣٤ ـ ٤٠) يدل عليه تغير الرَّويّ والفاصلة عما سبقها من (١٤ ـ ٣٣).

والأمر ذاته في سورة الأعراف حيث تقتحم الآيات (١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧)

مسلسل قصص إبراهيم وبني إسرائيل بطريقة نافرة مكشوفة (ص٣٣ و٣٤ و٣٥).

يضاف إلى كل ما تقدم: يقول المؤلف: «جدال القرآن مع أهل الكتاب في «الأنعام» و«الأعراف» مع أن السورتين توجهتا إلى جدال المشركين من أهل مكة. ومع أن القرآن ـ في غير هاتين السورتين ـ حذَّر من جدال أهل الكتاب إلا بالحكمة والموعظة الحسنة (العنكبوت ٤٦ والنمل ١٢٥) ـ (ص ٣٤ ـ ٣٥).

إننا نلاحظ اهتمام المؤلف في هذا القسم الأخير من الفقرة (٧) بتكرار كلمة «إقحام النصارى» حتى غدت كأنها العنوان الرئيسي لمواضيع هذه الفقرة ناسياً أنه خصص لها «كامل البحث الثالث». لذلك سوف نرجىء مناقشة موضوع «إقحام النصارى» إلى حينه لنكتفي هنا بتدوين ملحوظاتنا على بقية ما ورد من أفكار المؤلف في هذه الفقرة كالآتي:

أ ـ إذا كان القرآن دستور الإسلام ديناً ودولة وثقافة ـ وهذه حقيقة لا ينكرها أحد ـ فإنه من المستحيل أن يغير عثمان أو سواه في نصوصه وأحكامه، زيادة أو نقصاناً أو تعديلاً ـ لأن الدستور في الأمم وخاصة الذي يستمد مناعته وقدسيته ورسوخه من الله ـ يمثل لهذه الأمم أسمى وأرسخ ما عندها من العقائد والقيم وقواعد السلوك. فليس في مقدور عثمان أن يفرض في القرآن تكفير النصارى. أو تسفيه عقيدة الشرك والتثليث، فرضاً من عنده، لأنه يكون بذلك قد تجاوز موقع

الرسول فوضع في القرآن ما لم ينزل به وحي، وهذا غير مسموح به حتى للنبي: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي...﴾ (١٨/١١٠: الكهف). كما أن هذا لم يكن لعثمان أن يدعيه ولا للمسلمين أن يقبلوه.

ب ـ ولقد ثبت في مراجع الحديث والسيرة والتاريخ أنَّ الصُّحُفَ التي جمعها زيد بن ثابت تنفيذاً لتكليف الخليفتين أبي بكر وعمر، ظلت عند أبي بكر حتى وفاته، وعند عمر حتى وفاته، ثم أودعها عند الوفاة إلى ابنته حفصة لأنها أم المؤمنين من جهة ولأنها كانت تحفظ القرآن من جهة ثانية، ولأن المسلمين لم يكونوا قد اتفقوا على خليفة. وقد ظلت هذه الصحف عند حفصة حتى طلبها عثمان فرفضت طلبه إلا إذا عاهدها ليرُدَّنَّها إليها. ولما أعطاها عهده بعثتها إليه فنسخها في المصاحف ثم ردَّها إليها وظلت عندها حتى خلافة مروان الذي طلبها فرفضت طلبه

سنتين قد أمر النبي أن توضع مع آيات سبق نزولها بسنوات؟.

ومادام المؤلف لايشك ولا يشكِّكُ في نزول الآيات وحياً على النبي، ولا يدعي أن ترتيبها كان بتوفيق من الصحابة بل بتوقيف من النبي، فإن التخطئة في الترتيب وتوزيع آيات الجدال العقائدي مع النصارى على سور عدة هو تخطئة للنبي نفسه. وهو تجاوز من المؤلف يخرج به عن حدوده خروجاً كاملاً.

ثم: ودون أن ندَّعي الدفاع عن رسول الله ورسالته ـ فالرسالة دافعت عن نفسها وانتصرت ـ نقول: لم تدرج آيات الجدال مع النصارى إلا في مكان يكون فيه قائماً مع أصحاب العقائد التي ناوأت الرسالة ورفضتها من أهل الكتاب (يهود أو نصارى) أو سواهم.

وسوف: يقضي الأستاذ الحداد عشرات الأعمار مثل عمره، دون أن يملك الوسيلة المقنعة في نقد القرآن «أحكاماً» «وشرائع» و«لغة» و«ترتيباً».

البحث الثالث

إقحام اسم النصارى في سبع آيات مدنية

في هذا البحث يشرح المؤلف كيفية إقحام «اسم النصارى» في سور «البقرة وآل عمران والمائدة» ثم يقدم في خاتمة البحث خلاصة لآثار هذا الإقحام على القرآن وعلى العلاقة التاريخية بين الإسلام والنصارى فيقول:

وهذا الإقحام المكشوف شوّه صحة موقف القرآن من أهل الإنجيل لأنه أعلن منذ البدء التقاءه مع النصارى من بني اسرائيل ومن تنصر معهم من العرب في أمةٍ واحدة جمعتها وحدة العقيدة (١٨ ـ ١٩ من آل عمران) ووحدة الجهاد (١٤ ـ الصف).

غير أن اقتحام السور الثلاث وإدخال النصارى في آياتها على المستوى العدائي ذاته من اليهود خلق تناقضاً في تقويم القرآن ومواقفه وطبع العلاقة بين المسلمين والنصارى بالطابع العدواني ولا يبرر ذلك قول القائل بأن مقصود القرآن كان متجهاً إلى من يؤلِّهون المسيح، لأن القرآن لم يلتق بالمسيحية ولم يتعرف عليها ولم يجادل من بين طوائفها غير الطائفة اليعقوبية من خلال وفد نجران ولمرة واحدة. لذلك فإن

وبقيت محافظة عليها حتى توفيت فأخذها مروان وأحرقها وقال مدافعاً عن موقفه وتصرفه: إنما فعلتُ هذا لأن ما فيها قد كتب وحفظ بالمصحف الإمام فخشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه الصحف مرتاب[١].

ج - ويركز المؤلف اهتمامه على تجييش الخصومة والخصوم ضد القرآن فيستنفر عواطف الشيعة ويتحزَّبُ لهم وينبِّههم إلى ما غفلوا عنه فيزعم أن من أول بواعث التغيير والتبديل لدى عثمان هو حذف وإلغاء كل ما ورد في القرآن عن فضائل آل البيت والنَّص بالخلافة على علي.

مرحى لهذا المؤلف، في هذا الزمن الأخير. وجزاه الله جزاءً عدلاً على حقيقة نِيَّاتِه، فهو عرف - دون سند طبعاً - أكثر مما عرفه علماء الشيعة وفقهاؤها ومؤلفوها على مر الزمان. فجاء - في هذا اليوم - تخنقه عبرات التأثر على آل البيت، يذكّر أحفادهم وأتباعهم بأن القرآن كان زاخراً بالآيات الخاصة بهم. ولكن عثمان بن عفان محاها فلم يبق غير القليل الغامض منها، لكي تبقى الخلافة في بني عمه الأمويين بمنجاةٍ من مطالبات الطالبيين، فلا يجدون بين أيديهم وسيلة داعمة من القرآن.

مرة أخرى: ندعو لهذا المؤلف أن يعامله الله بالعدل، لا بالرحمة[٢].

د - وإذا كان جميع من درسوا وكتبوا وألفوا في «نزول القرآن» و«ترتيب آياته في السور» متَّفقين على أن الترتيب كان وحيا وأن هذا الوحي كان يتلقاه النبي (ص) ويبلغه أوامر الى كتَّاب الوحي فيضعون الآية أو الآيات الموحى بها في السورة التي كانت سبقتها في النزول إلى جانب الآيات أو بين الآيات التي تقوم معها رابطة موضوعية.

فكيف يستغرب المؤلف أن تكون آيات قد نزلت قبل موت النبي بسنة أو

---

(١) كتاب المصاحف لابن أبي داوود - ص ٢٤.

(٢) المعاملة بالعدل هو ما قال الكتاب: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨) أما الرحمة ففي قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾ (٣٩/ ٥٣: الزمر).

إعادة التوازن الموضوعي إلى القرآن وإزالة الغبن التاريخي الذي ألحقه بالنصارى والمسيحيين لا يتم إلا بإسقاط كلمات «النصارى» من الآيات واستبعاد المسيحيين من مفهوم «النصارى» ص ـ ٣٦.

بهذه العبارات حدَّد المؤلف خطته في كتابه، وأوضح الأهداف التي يسعى إليها في جميع مؤلفاته وهي أهداف سهلة في «التصور» ممتنعة في «التنفيذ».

ففي رأي المؤلف أن الأمر لا يتطلب أكثر من اتخاذ خطوة علمانية جريئة تُستدعى فيها جميع المصاحف من المكاتب والمكتبات والمنازل والجيوب وصدور الحفاظ، ثم يحكم بالتسفيه والإعدام على كل ما يعرِّضُ بمعتقدات النصارى من آيات وأجزاء آيات وإبلاغ هذا البحر الكبير من البشر أن عثمان بن عفان تجرأ على كتاب الله. فوضع فيه من عنده مدعياً أنه من عند الله.

وعند ذلك ـ والمؤلف هو الكفيل الضامن ـ بأن الشوائب التي شابت القرآن الحقيقي سوف تسقط وتزول وإذ ذاك ـ يؤكد المؤلف ـ يتحاضن المسلمون والنصارى بملء الاطمئنان العقائدي وينطفىء ذلك الهجران والجفاء اللذان استمرا أربعة عشر قرناً فيحقق اللقاء بينهما قيام الأمة الواحدة التي تجمعها وحدة العقيدة ووحدة الجهاد.

أما عثمان خليفة المسلمين، وأما لجنة جمع القرآن وكلُّهم من الحفظة والقراء والصحابة الذين عاصروا نزول الآيات ودونوها فور النزول على جدران قلوبهم والذين قرأوا مصحف عثمان فلم يعترضوا ولم يعارضوا، فكانوا في سكوتهم على «فعل عثمان» شركاء له في الإثم العظيم.

هؤلاء جميعاً وهم عَدد غير محصور، سوف يسدل ستار من الشك على كل ما أثر عنهم من قيم وفضائل وأقوال وآثار ـ لأنهم في تقييم الأستاذ الحداد ـ أئتُمِنُوا فخانوا، ورووا فحرفوا، وتجرؤوا مع عثمان وجرَّؤوه على كتاب الله فبدّل وغيَّر وأورث العالم الإسلامي هذا الميراث العدائي الكبير، والمؤلف الذي يلقي بيننا بهذه التصورات يُغمض عينيه حتى الانطفاء عن وجوه الاستحالة المانعة من تحققها والتي نلخصها بالآتي:

الأول والأهم: هو إنه يستحيل اقناع إنسان ينطق الشهادتين أن يلغي من ذاكرته تلك الصور الخلابة من الصدق والإيمان والنقاء العقائدي التي كان يتحلى بها الرعيل الأول من رفقاء النبي وصحابته الذين سمعوا منه وتلقوا عنه وكتبوا ما سمعوه وما تلقوه بإملائه ووضعوه في أماكنه من السور بأوامره، هؤلاء هم شهود الوحي الإلّهي حفظوا منه قوله:

﴿لا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه﴾(٢/ ٢٨٣) وقوله: **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾**(٢/ ٧٩) وقوله: **﴿وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾**(٣/ ٧٨).

حفظوا ذلك وهم على يقين من أنها آيات نزلت فيمن افترى الكذب على الله وحرف كتابه من اليهود فهل ينزلونه بأنفسهم إلى هذا الحضيض من الكفر العقائدي؟.

كيف يستطيعون؟ وكيف يمكن بناء نظرية متكاملة على هذا الإفتراض؟.

عثمان الصحابي الجليل، والخليفة الذي يحمي دستور المسلمين ومعه لجنة المصاحف، ومن حوله الصحابة وبين يديه عدد غير محدود من حفظة القرآن، هل يعقل أن يتفق الجميع على تغيير القرآن أو تعديله، وهم الذين علموا قبل غيرهم ما ينتظر مرتكبي هذا الغلط من الإتهام الأبدي بالكذب على الله والوعيد بالويل؟.

في اليقين، لو أدرك المؤلف خطورة أطروحاته واستحالة تصوراته، بدءاً من اجتراحه فكرة الإقحام وانتهاء باقتراحه حكم الاعدام، لما توغل في هذا التيه من العبث.

وثمة وجه آخر من وجوه الاستحالة وهو أن القرون العديدة التي عاشتها هذه الأمة في ظل هذه الثوابت من الآثار الدينية والفكرية، وسيرة ذلك الطراز الجليل من قادة الدين والدنيا ترسخت في تراثها فما يستطاع الفكاك عنها لأن التصاق التراث بالأجيال اللاحقة هو جزء من قَدَرِها الذي لا حيلة لها في محوه وإلغائه.

وبعد: فنحن مع المؤلف في كتابه:

ـ ليس بقادرٍ على التنصل مما كتب.

ـ ولسنا بقادرين على القبول أو السكوت عما كتب.

فالمواجهة فرضتها المواقف التي لا يستطاع العدول عنها.

وإذ أقول المجابهة، فليس ذلك استجابة لعواطف خصامية بل لدقة الطرح وعمقه ومداه وتأثيره على الثوابت الدينية والفلسفية والتاريخية في كلا العالمين الإسلامي والمسيحي.

فالآيات، وإن كانت قليلة العدد، هي قاطعة في تحديد الرؤية العقائدية بين أجيال الطرفين منذ بدء الدعوة وحتى الآن.

والخلاف بين المؤلف ومخالفيه لا يقوم حول الوحي وكيفية التنزيل وتوزيع الآيات على السور بل على ما اكتشفه المؤلف في القرآن وهو أن كلمة «النصارى» تكرر إقحامها في آيات التكفير والجدل العقائدي إقحاماً دل عليه التنافر اللفظي والتخلخل المعنوي الذي يبدو للقارىء المدقق واضحاً أتم الوضوح. كما دل عليه ذلك التناقض القائم بين آيات الثناء على النصارى التي بلغت بهم مرتبة المتقين. وبين آيات الجدال التي انخفضت بهم إلى مستوى الكفّار والمشركين، وكلاهما، التنافر والتناقض لا يمكن أن يكونا ـ أصلاً ـ في القرآن العظيم.

لذلك يرى المؤلف: أن علاج الموقف والعودة بالقرآن إلى التجانس اللفظي والمعنوي لا تتم إلا بإسقاط كلمة «النصارى» من آيات التنديد والتكفير ومحوها من ذاكرة الناس ومن قناعاتهم قراءة وعقيدة.

لقد تتبع المؤلِّف الآيات المشكو منها فوجدها في سور «البقرة وآل عمران» و«المائدة» فعرفها تحت عناوين هذه السور وقام بتحليلها وتفكيك معانيها، مكتفيا بما يملكه من مخزون لغوي وثقافة تاريخية ملتفتا عن المعاجم والمراجع.

أما نحن فلنا أن يظلَّ شكنا في مقولاته قائماً حتى نُخضِعُها إلى اختبار الحقيقة التي لا تتغذى إلا بالصحيح من قواعد اللغة ومعانيها والموثوق من المراجع

التاريخية والدينية وإذ عكفنا عليه قراءة وتحليلاً واستنتاجاً لم نجد غير ما عهدناه، يقرأ فيخطىء ويحلل فيخطىء ويستنتج فيخطىء ويتفنَّن في تنويع الأخطاء التي لم تخطىء لكي تصيب مرة واحدة في طريق صاعدة تدرجت في الجسامة حتى مستوى الارتكاب العلمي.

الإقحام في سورة البقرة

أقحمت «كلمة النصارى» على السورة في المواطن الأربعة الآتية:

أولاً: ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾(البقرة: ٢/ ١٣٥):

قال المؤلف: هذه الآية تشكل مع ما يليها حتى الآية (١٤١) موضوعاً مستقلاً عما قبله وعما بعده من الآيات لأن القرآن كان قد وصف «بالهدى» أمة الكتاب بصيغة عامة أدخلت النصارى في النص فاعترض اليهود على التعميم ـ لأنهم في زعمهم ـ أصحاب الهدى من دون أهل الكتاب وواجهوا صيغة القرآن بطرح شعارهم الخاص، كونوا هوداً تهتدوا، وهو شعار خاص تميز بالجناس اللفظي وبكونه التعبير الحقيقي عن رؤية اليهود إلى غيرهم.

وفي ذلك يقول المؤلف: إن هذه العبارة هي النص الأصْلي المنزّل على النبي، ولكن كلمة «أو نصارى» أدخلت في وسط الآية ففصلت بين الشرط وجوابه، فصلاً ممجوجاً، تاركة معها خللاً واضحاً في الصياغة والتركيب.

ويعلق المؤلف بقوله: إن إقحام هذه الكلمة أفسد النظم والمعنى، وأقام تعارضاً بين التفكير والتعبير، فلا يعقل أن يقبل اليهود بالهداية النصرانية ولا يعقل أن يقبل النصارى بالهداية اليهودية، وهذا هو الوجه الفاضح في الإقحام. بالإضافة إلى أن كلمة «حنيفاً» كان يطلقها المسيحيون في سوريا باللغة الآرامية على النصارى ومعناها «زنادقة» كما كان يطلقها الروم عليهم ومعناها في لغة الرومان «هراطقة» ولكن النصارى اتخذوا هذا الإسم شعاراً لهم معبرين به عن الدين الحق، ثم غالوا

وتكنُّوا بملة ابراهيم تأليفاً للعرب. فكانت دعوتهم إلى النصرانية باسم الحنيفية. والخطأ في هذه المقولات يمكنُ استعراضه في الفقرات الآتية:

أ ـ بدأت الآية (١٣٠) من سورة البقرة في تسفيه من «يرغب» وليس «في من رغب» عن ملة إبراهيم الذي اصطفاه في الدنيا وحشره في الآخرة من الصالحين ثم تحدثت الآية (١٣١) عن ماهية مِلَّة إبراهيم فَبَيَّنت أنه تلقى الإسلام من الله دون وسيط «إذ قال له أسلم قال أسلمت لرب العالمين ـ ١٣١» فكان الاسلام هو الدين الذي اصطفاه الله له ولذرِّيته من بعده فوصّى به أبناءَهُ وكذلك فعل حفيده يعقوب **﴿ووصّى إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾**(١٣٢) وفي الآية «١٣٣» ورد الحديث عن يعقوب إذ حضره الموت فقال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له ملسمون(١٣٢).

فجاءت الآية (١٣٤) لكي تعطي حكماً تقريرياً عاماً.

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾(١٣٤).

ولكن اليهود والنصّارى يعارضون ويعترضون على وصف الدين المصطفى لإبراهيم «بالإسلام» فيزعم كل منهما أنه على الحق والهداية وأن الهدى لا يتحقق إلا باتباعه. فقال اليهود لمن يستمعون إلى الخطاب القرآني «كونوا هوداً تهتدوا» وقال النصارى «كونوا نصارى تهتدوا» ولكن الآية لا تصل إلى خاتمتها حتى يرد الجواب قاطعاً مانعاً على مقولات الفريقين مبتدئاً بالحرف «بل» التي تفيد القطع والإضراب عما سبق لتقرر حكماً مخالفاً له: **﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**.

ففي تحديد ملة إبراهيم ووصفها «بالحنيفية» رد على اليهود. وفي وصفه بأنه لم يكن من «المشركين» رد على من يشرك مع الله إلّهاً آخر، بشراً كان أم حجراً أم غير ذلك.

والمقصود هنا هم «النصارى» الذين يعتقدون بأزلية وأبدية الأقنومين الثاني

والثالث، ولو كان الإدعاء بالهشدى صادراً عن اليهود فقط لجاء وصف إبراهيم في الآية: ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً﴾ ولكن الإدعاء صدر عن النصارى أيضاً لذلك اقتضى الرد عليهم أيضاً مشيراً إلى عقائدهم في «التثليث» و«ادعاء بنوة المسيح من الله» و«أزلية الأقنومين» وغيرها مما ينافي عقيدة التوحيد.

ويستمرُّ الحوار في الآية (١٣٦) حيثُ تسرد بالتفصيل ما يجب على كل من يتبع الدعوة الإسلامية وملة إبراهيم وتأمرهم في أن يعلنوا إيمانهم بجميع ما أنزل على الأنبياء دون تفريق وأن يشهدوا بأنهم مسلمون: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيُّون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ (١٣٦).

وبذلك: اتضح الإيمان الذي تتحقق به الهداية في نظر المسلمين.

فلا يقبل التعايش العقائدي مع من لا يؤمن بهذا الإيمان. بل يقوم مقام ذلك شقاقٌ تعهد الله بالنصر فيه إلى المسلمين.

﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شَقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾(١٣٧) ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً ونحن له عابدون﴾(١٣٨).

وحتَّى هنا لا ينتهي الجدال إلى موقفٍ حاسم فيقول اليهود:

«إن اليهودية هي ملة إبراهيم ودينه وقد تسلسلت منه وتواترت عنه».

ويقول النصارى: «مثل هذا القول بالنسبة إلى النصرانية».

فيرد القرآن رداً حاسماً مستنكراً مقولتيهما ويأمر النبي أن يبلِّغهم حكم الله في ذلك: ﴿قل أتحاجوننا في الله هو ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾(١٣٩) ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أمِ الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾.

ب ـ وفوق هذا رأى المؤلف في الآية(١٣٥) «معاظلة ظاهرة» (ص ٣٩ س ـ ١٣).

من جانبنا نظن أن المؤلف لم يقف على المعنى اللغوي لكلمة «المعاظلة» إذ لو فعل لحال أدب الخطاب دون إيرادها، ونأمل أن يلقى القراء منه اعتذاراً إذا أحلناه إلى مراجع اللغة ليعلم «أن المعاظلة» هي التلازم في السِّفاد من الكلاب والسباع والجراد وغير ذلك مما يتلازم في السِّفاد وينشَب وقد قال أحدهم:

كــلاب تعــاظَــلُ ســودُ الفقــا ح لــم تحــمِ شيئــاً ولــم تصطــدِ

«لسان العرب»

وما نظن أن قارئاً بالعربية يفهم الآية على أنها معاظلة كلامية مثلما فهمها المؤلف:

فهي تخاطب أهل الكتاب في عهد الدعوة الإسلامية وهم آنذاك نوعان: يهود تابعون لموسى (ع) ونصارى تابعون لعيسى (ع) وكل منهما يقول للناس: اتبعونا تهتدوا، فتأتي الآية صارخة بهم: بل الهدى هو في اتباع ملة إبراهيم الذي كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين وهي ملة التوحيد التي يدعو إليها الإسلام.

فما بال المؤلف خلط الحابل بالنابل وأوجد من هذا الخلط استحالة الطرح العقائدي فقال: «لا اليهود توافق على أن الهدى يمكن أن يكون باتباع النصرانية ولا النصارى يوافقون على أن الهدى يمكن أن يكون باتباع اليهودية».

ج ـ وليس من المؤكد بل ليس من المقبول سواء في التاريخ أم في المنطق أن يكون العرب نصارى ثم يتخذوا الحنيفية شعاراً دينياً بديلاً مشيرين إليها أنَّها الدين الحق. وهي ـ في الوقت ذاته ـ ترمز إلى «المسبَّة» و«التحقير»؟ (زنادقة في الفارسية وهراطقة في الرومية).

كما ليس من المقبول أن تكون الحنيفية هي النصرانية منذ المسيح عليه السلام.

إن مقولات المؤلف في هذه الفقرة في حاجة إلى التصويبات الآتية:

١ ـ الحنيفية هي ملة إبراهيم الخليل وهي الجزء التكويني الذي قامت عليه رسالة الإسلام، فهي ليست «يهودية» ولا «نصرانية» بل هي «اعتقادٌ واخلاقٌ

وطقوس» تختلف عن الطائفتين وتستقل عنهما. وقد تحدث عنها القرآن في العديد من آياته:

﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيّماً ملّة إبراهيم حنيفا...﴾(٦/ ١٦١: الأنعام).

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً...﴾(٢/ ١٣٥: البقرة).

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين...﴾(٣/ ٦٧: آل عمران).

فلو كانت النصرانية ـ تعني عند العرب ـ الحنيفية لما ورد في الآيات هذا التفريق القاطع ولكان قوبل بالتخطئة والاحتجاج من اليهود والنصارى. وفي الحديث الشريف: «لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة ـ مسند ابن حنبل».

وهذا تصريح رسولي صريح في أن الحنيفية ليست النصرانية وفي أن دعوة النبي ـ الإسلام ـ هي دعوة الحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام.

٢ ـ وفي التاريخ:

ـ الحنيف من اختتن وحج البيت واستقام على ملة إبراهيم واعتزل الأصنام واغتسل من الجنابة (الطبري)

ـ وامتنع عن ذبائح الأوثان وما أهل لغير الله وتأمل في خلق الكون. (ابن الكلبي).

ـ وكانوا يختتنون أبناءهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون الموتى ـ ويغتسلون من الجنابة ويتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثاً. (معجم البلدان).

ـ والأحناف لم يكونوا طائفة موحدة مجتمعة إنما كانوا نفراً من قبائل متفرقة اتفقت فكرتهم على رفض عبادة الأصنام والدعوة إلى الإصلاح. (جواد علي).

ويقال:

كان من الأحناف: عبيد بن الأبرص ـ والأفوه الأودي ـ وعنترة بن شداد ـ وحاتم الطائي. ودريد بن الصِّمَّة. والمرقِّش. والنابغة الذبياني. وطرفة بن العبد. وعروة بن الورد. وزهير بن أبي سلمى. وزيد بن عمرو بن نفيل. وحنظلة بن صفوان. وسويد بن عامر وعامر بن الظرب العدواني. والملتمس بن أمية الكناني. وغيرهم (مروج الذهب).

ولم يذكر في أي مرجع تاريخي أن أياً ممن ذكرت أسماؤهم كان نصرانياً باستثناء زيد بن عمرو بن نفيل. بل أشار بعض المؤرخين إلى أن معظم من قالت عنهم الأخبار أنهم نصارى، لم يكونوا نصارى بل كانوا أحنافاً.

وللإيضاح وضع الباحثون علامات قاطعة للتفريق بين النصرانية والحنيفية وهي علامات عقائدية راسخة في التكوين الفكري لدى الإنسان وهي:

ـ إن الحنيفية تحرم لحم الخنزير والنصرانية لا تحرمه.

ـ والحنيفية تحرم شرب الخمر والنصرانية لا تحرمها.

ـ والحنيفية تمارس الطلاق والاختتان وتوجب الاغتسال من الجنابة والنصرانية ليست كذلك.

٢ ـ وفي اللغة:

تجد جذور هذه الكلمة واشتقاقاتها وقد ورد استعمالها في القرآن بمعناها العربي فلم يذهب بها إلى لغة الفرس أو الروم ولم يقصد فيها مقاصد المؤلف (الزندقة أو الهرطقة) إذ لو كانت هذه الكلمة تعني ما ذهب إليه «الحداد» لما وصف الإسلام نفسه بها. ولما وصف بها نبي الله إبراهيم الخليل ولما جعلها سِمَةً ودليلاً على كل من وحَّد الله ومال عن الشرك والضلال.

ففي اللغة:

ـ الحنف هو الميلان: وقد أطلق في الأصل على من يشكو ميلانا في قدمه.

ـ وحنف عن الشيء وتحنَّف مال: والحنيف المسلم. هو الذي يتحنف عن الأديان أي يميل إلى الحق.

ـ وقال أبو عبيدة: «قل بل ملة إبراهيم حنيفاً» أي من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب.

ـ وقال الأخفش: بعد الإسلام صار المسلم يسمى حنيفاً، وكان في الجاهلية يقال لمن اختتن وحج البيت حنيفاً، لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت.

ـ وقال الفراء: الحنيف من سُنَّتُهُ الاختتان.

ـ وقال ابن عرفة: قد قيل: الحنف هو الاستقامة وإنما قيل لمائل الرجل «أحنف» تفاؤلاً بالاستقامة. والدين الحنيف هو الإسلام والحنيفية هي ملة الإسلام. وفي الحديث «أحب الأديان إلى الله هي الحنيفية السمحة» (لسان العرب)[1].

نخلُص مما تقدم إلى المرتكزات التالية:

أ ـ الحنيفية هي ملة التوحيدالتي كان يعتنقها إبراهيم الخليل. وعند ظهور الدعوة الإسلامية كانت لا تزال بعض طقوسها تمارس لدى بعض المستنيرين من عرب مكة والحجاز الذين رفضوا عبادة الأوثان وما يذبح على النصب وامتنعوا عن الميسر وحرموا شرب الخمر ولحم الخنزير وكانوا يختتنون ويحجون البيت.

ب ـ وقد أجمع المؤرخون على أن أول من أدخل الحنيفية إلى الحجاز هو عبد المطلب الذي جاء وصفه في الأخبار أنه وحَّد الله وترك الأصنام وحرَّم على نفسه الخمر. وكان أول من أختلى عن الناس متحنثاً في غار حراء متفكراً في عظمة الله وجلاله وكان إذا دخل شهرُ رمضان صعد من خلوته فأطعم المساكين ورفع من موائده للوحش والطير إلى رؤوس الجبال حتى غلب عليه لقب «الفياض» و«مُطِعم الطير والوحش» وقد منع الزنا ونكاح المحارم و«وأد البنات» و«الطواف بالبيت

---

(١) لقد تتبعت هذه الكلمة في المعاجم الكبرى بحثا عنها بين الألفاظ الأجنبية التي تعربت وشاعت بلفظها الأجنبي فلم أجد ما يؤيد رأي المؤلف في العودة بها إلى أصل أجنبي.

عريانا» وهو أول من أمر بقطع يد السارق والوفاء بالنذر (السيرة المكية ١/ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٧٣ والسيرة الحلبية ١/ ٤)

ج ـ ولقد أوغل المؤلف في الخطأ عندما قارن بين الآيتين ١٣٥ ـ ١١٣ من سورة البقرة وهو خطأ مقصود من صاحبه أدرج في مصلحة الفكرة التي يدافع المؤلف عنها وذلك حينما قال:

«وذلك الإقحام المشبوه المفضوح يخلق تناقضاً بين قول القرآن **﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ١٣٥﴾** وبين قوله: **﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ـ ١١٣﴾** وجلَّ إعجاز القرآن ـ كما يقول ـ عن مثل هذا التناقض المفضوح المكشوف ـ ص ٣٩.

مرة أخرى نعلن أسفنا ـ مضطرين ـ على كيفية قراءة المؤلف للآيات وكيفية فَهمها وتحليل معانيها. إذ يأتيها دوماً وقد اثقلته حمولة من الأفكار الموروثة والثوابت السلفية التي تتدخل في صياغة أفكاره فما تنفك عنه إلا وقد انطبعت بطابعها وأخذت نهجها وهو لو تخفف من سلفيته وتحلّى بِرُوحِ الحياد العلمي لظهرت له الحقيقة جلية.

وفي عملية المقارنة كان عليه أن يكون «علمياً» فهو لو استطاع لوجد التقاءً لاتناقضاً وتكاملاً لا تعارضاً، وفكراً يختلف في اللفظ ويتفق في المعنى .

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملةِ إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾(٢/ ١٣٥).

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهودعلى شيء﴾(٢/ ١١٣).

ففي الآية (١٣٥): كان النبي وأصحابه يتلقون الخطاب تارة من اليهود وتارة من النصارى فيزعم أتباع كل من الطائفتين أنه على الهدى وأن الاهتداء لا يكون إلا باتباعه فيؤمر النبي بالتصدي الفوري لهذا الخطاب وذلك بالمواجهة دون مجادلة بل بأسلوب تقريري حازم جازم على أن الهدى لا يكون باتباع أولئك أو هؤلاء بل باتباع ملة إبراهيم.

وقد استخدم الحرف «بل» ليفيد الإضراب والعدول من المعطوف عليه إلى المعطوف مبيناً ماهية المعطوف وهو «ملة إبراهيم، الحنيفية ـ الموحدة ـ المبرأة من الشرك».

أما في الآية (١١٣): فهي تبيِّن تبادل التسفيه والتكفير بين اليهود والنصارى، لتنتهي كل منهما إلى أن الحق عندها والباطل عند الطائفة الأخرى.

فأين وكيف وجد المؤلف تناقضاً مفضوحاً؟ وكيف فهم الآيات؟.

إن الآية ١١٣ حددت بوضوح وقطعية حالة التقاطع بين اليهودية والنصرانية، فما كان لأحد أن يرى تناقضاً أو تعارضاً بين أهدافها وأهداف الآية (١٣٥) إلا إذا كان مصابا «بعِمَاءِ الألوان»[١].

* * *

ثانياً:

قال المؤلف: «في الآيات من ١٣٥ ـ ١٤٠ ورد الإقحام مرتين. الأولى في الآية ١٣٥ والثانية في الآية ١٤٠ والآيتان تشكلان مع الآيات ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨ ـ ١٣٩ موضوعاً مستقلاً متكاملاً لا يتحدث عن النَّصارى، لذلك كان إقحام «أو نصارى» في الآيتين ١٣٥ و١٤٠ هو إقحاماً إكراهياً فضحته ودلت عليه الملامح التالية:

١ ـ إن سياق الآيات هو الرد على اليهود الذين كانوا على قدر كبير من الغطرسة فما كانوا ليقبلوا أن يصدر عنهم ما نسبته الآية إليهم: ﴿**قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا**﴾ لأن حرف العطف «أو» هو للتخيير دون تمييز أو تفريق، واليهود لا يقولون للناس إن الهداية في النصرانية كما هي في اليهودية.

وهذا السياق يبدو مستمراً وعلى أشد حالات الوضوح في الآية (١٤٠) ﴿**أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل**

(١) عماء الألوان هو: مرض يصيب العينين فلا تستطيعان التمييز بين الألوان.

أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغَافلٍ عما تعملون﴾(١٤٠).

هَهنا تتحدث الآية عن اليهود فتخاطبهم بعبارة (أم تقولون) وهؤلاء لا يمكن أن يقولوا بأن أنبياءهم نصارى لسببين جوهريين هما: إنهم لا يؤمنون بالنصرانية وإن عيسى وما جاء به كان في زمن متأخر عن الأنبياء اليهود.

٢ ـ وخصوصية الخطاب القرآني إلى اليهود في هذا الفصل تبدو جلية في العلامات التالية:

ـ استشهاده بالتوراة على مكابرة اليهود وإنكارهم للنبوة فيصفهم بأنهم كتموا شهادتهم المستقاة من التوراة «ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله..»

ـ حديثه عن اليهود كأمة قومية تجمعت بالرابط الديني **﴿تلك أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾** (١٤١) (انتهت أقوال المؤلف)

هذه المقولات التي جاء بها المؤلف ووجهت بالمقولات الآتية:

أ ـ لقد ابتدأ الحديث القرآني من الآية ١٢٤ عن إبراهيم (ع) الذي ابتلاه ربُّه بكلمات فأتمَّهن فقال له: **﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾** فقال له: ومن ذريتي فأجابه الله بأن هذا العهد لا ينال الظالمين منهم ثم يستمر الحديث عن قيامه مع إسماعيل بتطهير البيت وجعله مثابة للناس وأمناً (١٢٥) ثم دعاء إبراهيم إلى ربه كي يجعل بلد البيت آمناً وأن يرزق الذين آمنوا من أهله بالثمرات(١٢٦) ثم بناء البيت ودعاء إبراهيم وإسماعيل أن يتقبل الله منهما وأن يجعلهما مسلمين وأن يُخرج منهما أُمَّةً مسلمة وأن يبعث فيها ومنْها رسولاً يعلّم أبناءها الكتاب والحكمة ويتلو عليهم الآيات (١٢٧ ـ ١٢٨ ـ ١٢٩) حتى هنا:

ـ أوضحت الآيات أن الإسلام بمعنى التسليم لله هو ملة إبراهيم وإسماعيل، وأن دعاءهما كان في مكة وفي البيت الذي أقاماه. وأن طلبهما من الله أن يكثّر ذريتهما، كان هادفاً إسماعيل وذريته التي انتشرت في مكة ـ فاران فكانت أرومة العرب وتأتي من بعدها الآيات من (١٣٠ ـ ١٣٥) مبتدئة بتسفيه من رغب عن ملة

ب ـ لقد فسر المؤلف ما جاء في الآية (١٤٠) ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ فقال:

«إن القرآن يستشهد بالتوراة على بطلان زعم اليهود».

وهو تفسير من عنده خاطىء جداً، لأن المؤلف لم يُحِط بأبعاد الآية:

فهي تستنكر مواقف كل من اليهود والنصارى وترفض ما كان يقوله كل منهما من أن معتقداته هي الحق وما سواها هو الباطل وأن هذه المعتقدات تسلسلت إليهم من الأنبياء. وكأنهم يقولون: إن الأنبياء السابقين كانوا يعتنقون هذه العقائد. وبعد الإستنكار تستمر الآية فتقول: إن الله الذي عنده علم كل شيء ما كان ليكتم انتماء هذه العقائد لو كان ذلك صحيحاً. فكتمان الشهادة من بني الإنسان هو ظلم كبير. لذلك لا يمكن أن ينسب هذا الظلم إلى الله وهو العدل المطلق والحق المطلق.

ج ـ وثمة دليل تاريخي ـ يقول المؤلف ـ على إقحام «أو نصارى» في الآية ١٤٠ وهو أن النصرانية والنصارى وعيسى المسيح لم يكونوا في عهد الأنبياء فكيف يسألهم القرآن عن تساؤلاتهم حول نصرانية هؤلاء الأنبياء؟.

لقد التبس الأمر على المؤلف فلم يربط هذه الآية بما سبقها وبما تلاها من السرد القرآني الذي يتبين منه أن كلاً من اليهود والنصارى كان يزعم بأن عقائده تستمد أصولها ومبادئها من أولئك الأنبياء. فاليهود قالوا إن التوراة هي تدوين لما اعتقده ومارسه أنبياء الله، إبراهيم ومن تلاه. والنصارى يقولون عن معتقداتهم في المسيح والإنجيل مثل ذلك القول، فخاطبهم القرآن خطاباً استنكارياً مستبعداً تلك الأقوال ومتحدياً أن يكون عندهم دليل أو حجة.

* * *

ثالثاً: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (٢/ ١١١) ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء. . .﴾ (٢/ ١١٣):

قال المؤلف: إن إيراد «أو نصارى» في الآية ٢/ ١١١ هو إقحام على الأصل القرآني تؤكده الأدلة الآتية:

إبراهيم، ومؤكدة على أن الإسلام هو الدين الذي اصطفاه الله لإبراهيم على أثر حوار قام بينهما **﴿إذ قال له ربُهُ أسْلِمْ قال أسلمت لله رب العالمين﴾** (١٣١) فأبلغ بنيه كما أبلغ حفيدُه يعقوبُ بنيه بهذا الاصطفاء ليحافظوا على الدين **﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون﴾** (١٣٢) ويكرر يعقوب سؤاله لأبنائه ليزداد تأكُداً ويزيد تأكيداً عمن يعبدون من بعده فأجابوه **﴿نعبد إلَهك وإلَه آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق إلَها واحداً ونحن له مسلمون﴾** (١٣٣).

ـ بعد هذه الجولة في تاريخ الحنيفية ـ الإسلام، يعود القرآن ليخاطب الأجيال القادمة بأن إيمان الأقدمين لا ينفع المتأخرين، وأن كل أمة تثاب على إيمانها **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾**(١٣٤).

ولكن الذين خوطبوا بالآيات وخاصة اليهود والنصارى اعتصموا بموروثاتهم الخاطئة، فرفضوا الخطاب القرآني، وأصرت كل طائفة منهما على أن الهدى لا يأتي إلا باتباعها وأن الحق لا يُطلب إلا عندها فقالوا للناس ـ في مواجهة القرآن ـ **﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾** (١٣٥) فيتصدى الجواب القرآني قاطعاً عليهم الكلام في منتصف الآية **﴿قل بل ملة إبراهيم...﴾** (١٣٥) وتستمر الآيات حتى (١٤٠) في تحديد ماهية الانتماء إلى ملة إبراهيم بأنها الإيمان بما أنزل الله على النبي (ص) وعلى الأنبياء جميعاً بلا تفريق. فإن آمنوا بهذا الإيمان فقد تحققت لهم الهداية وعصموا أنفسهم من المواجهة والشقاق مع المسلمين الذين وعدهم الله بالنصر (١٣٧ ـ ١٣٨) وبدَحْضِ محاججتهم للمسلمين في الله (١٣٩) ومن بعد تأتي الآية(١٤٠) **﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله......﴾** هذه الآيات من ١٢٤ ـ ١٤٠.

هي سرد متسلسل، ليس فيه تخصيص باليهود، ولا استبعاد للنصارى، فالدعوة إلى الإيمان بالإسلام توجهت إلى الجميع دون استثناء. ومواجهتها كانت من كليهما، إلا النفر القليل الذي أسلم منهما، فكان لا بدَّ من أن يتجه الخطاب إليهما وأن يقوم الحوار معهما فلا فصول مستقلة ـ كما قال المؤلف ـ ولا سياق مخصص باليهود ولا استثناء للنصارى. وبالتالي لا يمكن أن يستنتج من قراءة الآيات وتفهمها وجود الإقحام.

في الدليل الأول سياق القول:

ينبغي أن نعود إلى - سياق الكلام - لكي نقف على مقاصد الآية ٢/١١١ من سورة البقرة.

- ففي الآية (١٠٤) توجه الخطاب إلى الذين آمنوا كي لا يقولوا «راعنا» بل ليسمعوا وينظروا، وتعبير «الذين آمنوا» في الآية يستهدف المؤمنين برسالة النبي (ص)[1].

- وفي الآية (١٠٥) أخبر المؤمنين بما يتمناه لهم الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون.

- ولكن النّصر والخذلان والعطاء والحرمان، هما من عند الله **﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾** (١٠٧). فلا تكونوا مثل قوم موسى الذين طلبوا منه أن يُرِيهم الله جهرة (١٠٨).

والنهي هنا، هو استمرار في الخطاب الموجه إلى المؤمنين بالرسالة. فقد ورد في التفسير أن هذه الآية نزلت في لوم من طالب النبي بأن يظهر لهم معجزة كتحويل جبل الصفا وحجارته إلى ذهب وفضة (الرازي).

- وفي الآية (١٠٩) يتحدث القرآن عن حسد أهل الكتاب ورغبتهم في أن يرتد المؤمنون إلى الكفر.

- ولكن تتمة الآية (١٠٩) و الآية (١١٠) تحضّان المؤمنين على مقابلة عواطف القوم بالصفح والمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. لأن مايقدمونه لأنفسهم من خير يجدونه خيراً عند الله.

- بعد هذه الآيات السبع تَصِفُ الآية ١١١ تَبَجُّح اليهود والنصارى باحتكار الجنة وتحدِّي القرآن في أن يقدموا البرهان إن كانوا صادقين.

- ثم تأتي الآية (١١٢) لتختتم هذا المطاف ولتضع الحكم النهائي حول هذه

---

(١) الإيمان هنا يُحقق الأمان من العذاب.

١ ـ سياق القول، الذي يستدل منه أن الآيات السابقة واللاحقة نزلت في الحديث عن اليهود، مما يجعل إيراد «النصارى» دخولاً غريباً على النص، يضاف إلى هذا أن الآية نزلت للرد على ما زعمه اليهود من أن الجنة لهم وحدهم. لذلك لا يعقل أن يصدر عنهم تصريح بقبولهم مشاركة النصارى فيها.

٢ ـ وجواب القرآن على مقولة احتكار اليهود للجنَّة جاء في اتجاهين:

ـ في الأول تحدٍّ لهم ونفي لادعائهم **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**.

ـ وفي الثاني: تأكيده على أن من أهل الجنة النصارى حيث جاءت الآية ١١٢ مباشرة لتقول: **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** ففي التعبير **﴿من أسلم وجهه لله وهو محسن﴾** تعريف للنصرانية والنصارى، لأن اصطلاح المحسنين والمقسطين والمسلمين في القرآن مقصود به النصارى الذي نزل القرآن **﴿هدىً وبشرى لهم﴾** (٤٦/ ١٢ و١٦/ ١٠٢ و٢/ ٢٧ و٢٧/ ٢).

٣ ـ وفي الآية ١١٣ يفتضح التناقض ـ كما يقول المؤلف ـ (ص ـ ٤٢) لأن موقف التكفير المتبادل بين اليهود والنصارى ينفي القبول الذي نُسب إلى اليهود في الآية ١١١ بمشاركتهم الجنة.

وبذلك يبدو« الوضع» و«الإقحام» على أشد ما يكون وضوحاً. وكان القرآن قد رفض ادعاء اليهود في تخصصهم بالجنة وتحداهم في الآيتين ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ البقرة لأن يقدموا دليلاً على صدق اعتقادهم بالدار الآخرة بقوله: **﴿قل إن كانت لكم الدَّار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾** فادعاؤهم بأن الجنة خالصة لهم واعتراف القرآن بثباتهم على هذا الاعتقاد ينفي ما ورد في الآية ١١١ من قبولهم مشاركة النصارى باستيطانها.

تلك هي: الأدلة الثلاثة التي قدمها المؤلف على إقحام «النصارى» في الآية ١١١.

الأقوال جميعها مبتدئة بالحرف «بلى» التي ربطت ما بعدها بما قبلها، فنفت أن يكون لدى اليهود والنصارى برهان في احتكارهم للجنة، عادت فأثبتت فيما بعد أن من «أسلم وجهه لله» و «هو محسن» فإنه من سكان الجنة، له أجره عند ربه ولا خوفٌ عليه ولا هو من المحزونين **﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾** (١١٢).

هذا هو:

ـ سياق الآيات، الذي اعتمد المؤلف عليه ليس فيه تخصيص لليهود ولا استثناء للنصارى وهو من الآية (١٠٤) وحتى (١١٢) ينشر أحكاماً عامة. مستقلّةً تماماً عما سبق من آيات ركزت على قبائح اليهود وأفعالهم. ولم يتعرض لادعاء اليهود والنصارى في احتكار الجنة إلا في معرض الحديث مع المؤمنين الذين كتبت لهم الجنة جزاء وفاقاً على إيمانهم وصدق إسلامهم.

ـ والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين (١٠٥) والذين يودون من أهل الكتاب أن يرتد المؤمنون إلى الكفر (١٠٩) هم من أهل الكتاب والمشركين كافة ولم يكونوا من المشركين فقط.

في الدليل الثاني قصر الادعاء باحتكار الجنة على اليهود:

١ ـ قدمنا في الدليل الأول سرداً للآيات التي سبقت الآية (١١١) من سورة البقرة التي قال المؤلف عنها: «إنها خصصت لمعالجة شبهة من شبهات اليهود فتبين منه أنَّ الخطاب القرآني جاء في صيغة العموم دون تخصيص أو استثناء وأن الذين سعوا لرد المؤمنين إلى الكفر هم من أهل الكتاب والمشركين كافة. والقرآن إذ حض المؤمنين على الثبات في مواقفهم وإقامة شعائر الدين والإحسان، قصد أن يعصمهم من الانزلاق فوعدهم بالجنة وأقنعهم بأن نوالها هو من نصيب كل من أسلم وجهه لله وهو محسن (١١٣) وليس كما زعم المضللون من أهل الكتاب.

لذلك: لا يمكن القبول بفهم الآية (١١١) على أنها إقرار قرآني بادعاء اليهود في خصوصية الجنة أو أن الادعاء بالخصوصية صدر عن اليهود فقط.

بل إن المفهوم الصحيح للآية هو أن الادعاء بهذه الخصوصية صدر عن

النصارى أيضاً لأنهم لم يكونوا أقل من اليهود اقتناعاً بتفردهم في صحة العقيدة وحقهم في الاستئثار بالجنة[1]. فنزلت الآية (١١٣) لتضع قاعدة حقيقية لكسب الجنة غير ما ذهبت إليه الطائفتان. وقررت أن الجنة هي حق لكل من أسلم لله وعمل الخير والإحسان. وهذان شرطان أساسيان لا يقوم الاستحقاق إلاّ بهما مجتمعين ولا تُعفي منهما يهودية اليهودي ولا نصرانية النصراني.

٢ ـ قال المؤلف: إن المقصود في الآية ١٢/٤٦ الأحقاف هم النصارى الذين وصفتهم بقولها «هو هدىً وبشرى للمحسنين» ولكن الآية ليست بهذا اللفظ وليست بهذا القصد.

﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة. وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً. لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾(١٢/٤٦ الأحقاف).

ـ فالقرآن هو: «لإنذار الذين ظلموا» و«بشرى للمحسنين» فلم يرد في الآية «هو هدىً وبشرى للمحسنين».

فمقاصِد الآية تُفْهَمُ من العودة بها إلى سياق القول الذي جاءت فيه.

فهو «حوار» مع الكفار عامة ومشركي قريش خاصة. بدأ في وصف النبي بأنه ليس بدعاً من الرسل. ثم بين لهم عاقبة «إنكارهم للقرآن وتهكمهم على فقراء المسلمين[2] بقولهم: لو كان القرآن خيراً لما استطاعوا أن يسبقونا إليه ولكنه إفك قديم بأسلوب جديد (١٠ ـ ١١) وأوضح في الآية (١٢) أن كتاب موسى نزل من قبل ثم نزل القرآن. مصدقاً لما جاء فيه من توحيد وتبشير بالنبي (ص) ومنذراً للظالمين ومبشراً للمحسنين[3].

ـ وكذلك **﴿هدى وبشرى للمسلمين..﴾** (١٠٢/١٦ النحل) ليست للدلالة

---

(١) إن كل من يقرأ أدبيات الطائفتين يلمس أنهما لم تغيرا موقفيهما فلكل منهما شروط عقائدية لنوال الحياة الأبدية وهي شروط مرفوضة من الطائفة الأخرى حيث تقابلها شروط أخرى.

(٢) وهم: عمّار وصهيب وابن مسعود.

(٣) قال ابن عباس: **﴿لينذر الذين ظلموا﴾** وهم في هذه الآية مشركوا قريش ـ الرازي.

على النصارى ـ كما قال المؤلف ـ بل هي جزء من الآيتين (١٠١ ـ ١٠٢) من هذه السورة نزلتا في التنديد بالمشركين الذين كانوا يتهمون النبي بالافتراء كلما نزلت آية ناسخة فوصفهم القرآن بالجهل وأمر النبي أن يعلن للناس من أن التنزيل هو من الله بالحق قام به الروح القدس وإن إبدال آية بآية هو تحرك تشريعي من جهة وامتحان للمؤمنين من جهة ثانية وتبشير لهم بالثواب وحسن المآب:

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (١٠١). **﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبّت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾** (١٠٢).

ـ ولا يختلف التوجه القرآني في تعبير الآية ٢٧/ ٢ النمل عما سبقها: فهي استمرار للآية ٢٧/ ١ ومقدمة أوضحتها الآية ٢٧/ ٣ والآيات الثلاث نزلت في وصف القرآن ووصف المؤمنين.

فهو هدى وبشرى للمؤمنين (٢٧/ ٢).

والمؤمنون هم الذين وصفتهم الآية (٢٧/ ٣) بقولها: **﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾** سواءٌ أكان الموصوف يهودياً في الأصل أم نصرانياً أم مشركاً لأن تحقق هذه الأوصاف فيه يجعله من المؤمنين.

تلك المصطلحات القرآنية: «المؤمنون» و«المسلمون» و«المحسنون» و«المتقون». هي كما رأينا ليست حكراً على فئة أو طائفة كما أنها ليست حَظْراً على فئة أو طائفة وكل من قرأ القرآن وجد الكثير منها يتكرر في الآيات ويدور في الفلك العام للهداية والإيمان.

١ ـ فالذين يحتسبون الله فلا يقابلون الإساءة بالإساءة، وصفتهم الآية ١٦/ ١٢٨ من سورة النحل بأنهم محسنون **﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾** والإحسان هنا: يعني العفو والتسامح.

والذين ينفقون في سبيل الله على مقدار الاستطاعة، طمأنتهم الآية ٩/ ١٢٠ من سورة التوبة بأنَّ أجرهم محفوظ لهم عند الله **﴿إن الله لايضيعُ أجر المحسنين﴾** والإحسان هنا يعني الإنفاق في سبيل الله.

و﴿سلام على آل إبراهيم إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٣٧/ ١١٠) و﴿سلام على موسى وهارون إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٣٧/ ١٢١). و﴿سلام على على آل ياسين إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٣٧/ ١٣١).

وفي تفسير «كذلك نجزي المحسنين» قيل:

هكذا نصرِفُ عمَّن أطَاعنا مكاره الحياة وشدائدها ونجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً كقوله تعالى: ﴿ومن يَتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (٦٥/ ٢ ـ ٣: الطلاق).

ـ ومصطلح «المسلمين» الذي يتردد في القرآن أكثر من اربعين مرة معظمها في سور «البقرة وآل عمران والمائدة ويونس والنحل والنمل...» نكتفي بالإشارة إليها دون استعادة كتابتها، وجميعها بلا استثناء لاتعدو أن تكون تعريفاً بالدعوة الإسلامية أو تعريفاً بالإسلام بمعناه الإبراهيمي وليس من بينها آية واحدة يستدل فيها من هذا المصطلح على «النصارى».

ـ ولقد أحصينا في القرآن الكريم مئتي آية إلاّ خمساً تضمنت مصطلح «المؤمنون» فلم نجد في أيّة آية ما يفيدُ الدلالة على «النصارى» من هذا المصطلح.

الدليل الثالث ـ التناقض العقائدي:

مرّ معنا في الدليلين السَّابقين بعض ملامح هذا الدليل نعيد القارىء إليها ونضيف الإيضاحات التالية:

يضع المؤلف يده على التناقض في التعبير القرآني من خلال مقارنة أجراها بين الآية ٢/ ١١٣ والآيات ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ١١١ من سورة البقرة.

ـ فالآية ٢/ ١١٣ حددت بشكل صريح قاطع ما تقوله اليهود في النصارى وما تقوله النصارى في اليهود ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء...﴾.

والآيتان ٢/ ٩٤ ـ ٩٥ أوضحتا حقيقة ما يعتقده اليهود حول تميزهم عن الناس بالجنة خالصة لهم. ﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس

فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾.

ففي هذه الآيات تحديد لما يعتقده اليهود بالنصارى وبالناس جميعاً.

ولكن الآية ٢/ ١١١ تبرز ـ كما يقول المؤلف ـ موقفاً مختلفاً إلى درجة التناقض. بالنسبة إلى النصرانية فيه تتسامح معها وترضى أن تشاركها في سكنى الجنة: **﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. . . ﴾**.

فالقول قرأه المؤلف، على أنه صادر عن اليهود وحدهم، ثم فهم منه أن اليهود يعترفون بموجبه أن للجنة طريقين هما طريق اليهودية وطريق النصرانية.

من هنا بدأ خطأ المؤلف.

ثم قام عن الخطأ أخطاء، فكان الاستنتاج نتيجة لازمة لمقدمة خاطئة ملزمة.

إن عدم قدرة المؤلف على متابعة الإعجاز القرآني دفع به إلى مواقع الغلط، ولو تدبر القرآن تفسيراً ومناسبات لوجد أن «اليهود والنصارى» لم يجتمعا في حكم قرآني واحد إلا عندما كانت تقف فيه الطائفتان من الإسلام موقفاً واحداً فكان يأتي الرد عليها معاً في آيةٍ واحدة.

وفي الآية ٢/ ١٣٥ مثال على وحدة الموقف من الاسلام والرد الإسلامي الواحد عليهما. وذلك عندما كانت تحاول كل منْهما إقناع الناس باتباعها ونوال الهدى عن طريقها فَعَرض القرآن محاوَلتهما وعرض الرد عليهما في الآية نفسها: **﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾** (٢/ ١٣٥).

ـ ففي الحرف «بل» إضراب وعدول عن المعطوف عليه الذي هو ابتغاء الهداية عن طريق اليهودية أو النصرانية، وفي «ملة إبراهيم حنيفاً» تأكيد على شمولية الاتجاه التوحيدي ورد على اليهودية التي تحصر عدالة الله الواحد في أبنائها.

وفي «وما كان من المشركين» تكرار للوحدانية ورد على النصرانية التي تقول «بالتثليث».

* * *

رابعاً: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتَّبع ملّتهم﴾ ٢/ ١٢٠ البقرة:

قال المؤلف: إن إقحام «أو النصارى» في الآية تشير إليه الأصابع الست الآتية:

١ ـ المعاظلة التعبيرية في الآية القرآنية.

٢ ـ التناقض مع غاية الفصل القرآني بدءاً من الآية (٢/ ١٠٥ البقرة).

٣ ـ التعارض مع واقع رؤية اليهود للنصارى ورؤية النصارى لليهود.

٤ ـ التفريق الواضح في الآية ٢/ ١٢١ بين النصارى الذين يتلون الكتاب وبين الخاسرين اليهود الذين يكفرون به.

٥ ـ حرص القرآن على تسمية اليهود ببني إسرائيل ٢/ ١٢٢ ـ ١٢٣ فوجود «ولا النصارى» في الآية ٢/ ١٢٠ الخاصة باليهود دليل على الإقحام.

٦ ـ اليهود هم الظالمون الذين لم ينالوا عهد الله لإبراهيم ٢/ ١٢٤ فهم وحدهم المقصودون بالخطاب القرآني كله في الآيات ٢/ ١٢٠ ـ ١٢١ ـ ١٢٢ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤.

وطوى المؤلف أصابعه الست على النتيجة التقريرية التالية:

وبِرَفْعِ ذلك الإقحام المشبوه تزول الصورة المشوهة التي دسوها في التنزيل عند الجمع والتدوين فغيرت معالم موقف القرآن من المسيحية، والخيانة للأمانة في «الذكر الحكيم» تصير جناية لأن تلك الإقحامات الأربعة ترد في أول سورة مدنية فتطبع العهد كله بطابعها، وترد في السورة التي صدروا بها القرآن في ترتيبه الحالي فيشمل ظلها القرآن كله، فكأن القرآن في كل أطوار التنزيل كان على خلاف مع المسيحية، وهذا خلاف الواقع القرآني والتاريخي... (ص ـ ٤٥).

وهكذا: يبدو حلّ الإشكال ـ في نظر المؤلف ـ بسيطاً ولا يتطلب إلا خطوة واحدة تزول الصورة المشوهة التي دسوها في التنزيل عند الجمع والتدوين.

خطوة واحدة فقط، وهي استدعاء جميع مصاحف الأرض لتستمع إلى حكم

الاعدام على هذه الآيات، وطبعاً يجب أن يتزامل الحكم مع ضجّة إعلامية هادفة إلى الثأر من القرون المظلمة الظالمة والانتقام من أولئك الذين أدخلوا هذه الآيات على التنزيل وتمزيق هالة التقديس التي تجيط بهم وإظهارهم للعالم الإسلامي على حقيقتهم التي رآها المؤلف بعينيه، نقرأ: ﴿**كتبوا الكتاب بأيديهم وقالوا هذا من عند الله وما هو من عند الله**﴾.

ـ ولكننا لن نهدر الوقت طويلاً مع هذه الأطروحات «الخذروفية»[1] بل سوف نعود إلى أصابع الإتهام «بالإقحام» التي عددها المؤلف لنرى مدى ما تحمله من عناصر الحقيقة العلمية.

المعاظلة التعبيرية في الآية:

«المعاظلة» هذه الكلمة يعيدها المؤلف هنا. وقد كان ركز عليها وألقى بها على الآية ٢/ ١٣٥ من سورة البقرة. وكنّا بيّنا أثناء بحثنا موضوع «الإقحام في سورة البقرة أولاً» : ما تعنيه هذه الكلمة في اللغة العربية. وقلنا في قناعتنا أن المؤلف لم يحط بمعانيها وإلاّ حَالَ أدبُ الخطاب والكتاب دون استعمالها في معرض دراسة القرآن.

وهنا نكرر ما قلناه ونضيف إليه:

لن يشفع للمؤلف أن اللغة أجازت المجاز في التعبير لأنه ـ حتى في المجاز ـ ثمة خطوط حمراء واجبة المراعاة في الأقوال والأفعال، فالزنا مثلاً الذي هو علاقة جنسية تقوم خلافاً لقواعد الشرع، لا يصح أن يقاس عليه كل قول أو عمل يخالف القوانين ـ أو يسمى باسمه ـ فلا يوصف ما نقرأه مخالفاً للتاريخ أو اللغة أو الفلسفة أو المنطق (وكلها تقوم على قواعد متفق عليها) بأنه «زنى فكري» أو «تاريخي» أو «لغوي» أو «منطقي». . .

لذلك: نكرر أسفنا ـ ونعتقد أن الأستاذ الحداد ـ مدين بالاعتذار إلى القرّاء

---

(١) كناية عن «الخذروف» وهو إحدى لعب الأطفال التي تتميز بخاصية الدوران على محورها وعدم الاستقرار.

على أن هذا كله لن«يُغْفِينَا» من تعقب أخطائه:

فهو عندما قرأ الآية ٢/ ١٢٠ توقف عند آخر العبارة **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتَّبع ملتهم. . .﴾** ثم طفق يتقلب ويَتَنَقَّل في وجوه متعددة من التساؤلات ولكنه ـ في جميعها ـ لم يكن يطلب استيضاح الغموض بل كان همّه هو إشاعة التناقض والفوضى.

لقد اتخذ من تلك العبارة دَرِيئةً للهجوم ثم أطلق تساؤلاته على شكل عيارات ناريّة قائلاً: فما هذا التعبير المتناقض؟ هل يرضى اليهود أن يتبع محمد ملة النصارى؟ أم هل يرضى النصارى أن يتبع محمد ملة اليهود؟ وهل يكون محمد يهودياً ومسيحياً على السواء؟ ليُرضِي الملَّتين؟.

معاظلة التعبير تشهد بإقحام النصارى (المؤلف ص ٤٣).

ولو قرأ الآية بتمامها لما وجد تناقضاً ولا معاظلة في تعابيرها، ولكان اتضح له أن محمداً (ص) لم يكن أبداً غير ما أرادته له الرسالة.

فالآية: **﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتَّى تتبع ملَّتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتَّبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليٍّ ولا نصير﴾**(٢/ ١٢٠).

فالدعوة أبلغت جميع الناس أنها السبيل الوحيد إلى الهداية والإيمان **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**(٣/ ١٩) و**﴿من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**(٣/ ٨٥ آل عمران)، فآمن بها من آمن من المشركين واليهود والنصارى. فتحققت الهداية إلى الذين آمنوا. أما من لم يؤمن فقد قاوم الدعوة وحارب انتشارها وواجه معتقداتها يقينا منه أن لا هدىً إلا باتِّباعه، وقد ظل المشركون على الشعار الذي تحدى به أبو سفيان المسلمين وهو: «لنا العزّى ولا عزّى لكم».

واليهود أصرُّوا على أن الهدى لا يناله إلا من اتبع ملتهم.

وكذلك النصارى، أتباع المسيح، ظلُّوا يؤمنون بأنه ابن الله، وثالث ثلاثة، وأن خشبة الصليب حملت آثام البشرية وأحزانها حتى قيام الساعة.

لذلك: كان من البديهي أن هذه الاتجاهات لن ترضى عن النبي ولا عن أصحابه إلا إذا اتبعوا ملَّتها وانتموا إليها، وكان من البديهي ـ في مقابل ذلك ـ أن يأتي السرد والرد القرآنيان ضد طوائف اليهود والنصارى مجتمعة، وأن يكون الحكم القرآني قاطعاً وجازماً في تحديد المرجع الحقيقي والوحيد للهدى، وهو هدى الله.

فجاءت الآية الواحدة محققة عدداً من الحقائق.

أولها: عرض الهدى اليهودي أو النصراني على النبي.

الثانية: رفض هذا العرض بإعجاز بياني عظيم اختُصِر بحرف واحد هو الحرف «بل» الذي يفيد الرفض والإضراب والعدول في آن واحد.

الثالثة: تحديد المسار الحقيقي للهداية وهو هدى الله.

الرابعة: تحذير النبي وأصحابه من أن يهجروا ما جاءهم من العلم بحقائق الأمور ليتَّبعوا ضلالات تلك الطوائف وأهوائها.

الخامسة: تحديد الجزاء فيما لو حصل مثل هذا الانحراف وهو تخلي الله عن نصرتهم وموالاتهم.

ولقد تعددت آيات القرآن في ترسيخ الاعتقاد بأن الإسلام هو وحده مصدر الهدى حتى جعلت منه قاعدة من قواعد الإيمان الإسلامي.

﴿ذلك هُدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾(٦/ ٨٨: الأنعام) **﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون﴾**(٣/ ٨٣: آل عمران) فالهدى في القرآن هو معرفة الله وتنزيهه عن الشرك.

وعبارة «ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون» أوضحت أن الهدى هو الاعتقاد المضاد للشرك. وهو التوحيد العاصم من الإحباط. وضمير الجمع في فعل «أشركوا» يعود إلى الأنبياء الذين عددتهم الآيات السابقة بدِءاً من إبراهيم وإسحق ويعقوب ونوح من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم. (٦/ ٨٧).

هؤلاء الذين وصَفَتهم خاتمة الآية (٨٧) بقولها: ﴿**واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم**﴾(٦/ ٨٧) ثم استمرت بعدها الآية ٦/ ٨٨ في الوصف فابتدأت باسم الإشارة «ذلك» لتعود بالقارىء إلى الآية السابقة فترتبط لديه الآيتان ارتباط المقدمة بالنتيجة: ﴿**ذلك هدى الله يهدي به من يشاء. . .**﴾.

والقرآن: بهذا التعداد الصريح يخبر بأن الهدى الذي يدعو إليه هو هدى الله الذي كان عليه الأنبياء والذي كان عاصماً لهم من الشرك، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون. والنص هنا وان كانت له خصوصية الإشارة إلى الأنبياء فإن هذه الخصوصية لفظية تنطوي على تكليف عام.

التناقض والتعارض:

قال المؤلف: «أشار القرآن بالكفر إلى «اليهود» ﴿**فهم الذين كفروا من أهل الكتاب**﴾ (الآية: ٢/ ١٠٥) وهم ﴿**أهل الكتاب الذين ودَّ الكثيرون منهم لو يردون المؤمنين من بعد إيمانهم كفاراً. حسداً من عند أنفسهم**﴾ (٢/ ١٠٩) فلم يرد ذكر النصارى. ولم يصفهم القرآن بالكفر.

ويتابع المؤلف: وحيثما ورد تعبير «أهل الكتاب» في القرآن ينصرف إلى اليهود لأن الكتاب هو التوراة واليهود هم أهله.

لذلك: وبما أن الآيات من ٢/ ١٠٥ حتى ٢/ ١٢٠ هي جدال مع اليهود وحدهم فإن إقحام «ولا النصارى» في الآية ٢/ ١٢٠ كان عملاً مشبوهاً ومناقضاً لطبيعة الفصل ص ٤٣ ـ المؤلف.

هذه الأقوال تقتضي منّا مناقشة المقصود القرآني «بالذين كفروا من أهل الكتاب» ثم العودة إلى الآيات من ٢/ ١٠٥ ـ ٢/ ١٢٤ للكشف عما إذا كانت كلمة «ولا النصارى» تتعارض مع طبيعة الفصل وتخرج عن موضوعه، وذلك بالفقرتين التاليتين:

أ ـ ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة**﴾ (٩٨/ ١) البينة.

ـ فالقصد من «منفكين» هو «مبتعدين عن الكفر».

ـ والقصد بتعبير «الذين كفروا من أهل الكتاب» هم فرق اليهود والنصارى، لأنهم أحدثوا في دينهم ما كفَّرهم به، كقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقيام كل منهما بالتحريف والوضع في كتابه. وقد صار الإختلاف حول المجوس، فبعضهم قال: إنهم من أهل الكتاب لقول النبي (ص) «سنوليهم سُنَّة أهل الكتاب».

والبعض أنكر ذلك لأن القرآن عندما ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب روى عنهم حكاية دلت على أنه يقصد بهذا التعبير «اليهود والنصارى» ﴿**أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا**﴾ (٦/ ١٥٦: الأنعام) فالطائفتان هما: اليهود والنصارى.

ـ أما المقصود من تعبير «المشركين» فقد ذهب اكثر القرّاء واللغويون إلى أن «الواو» لا تفيد الترتيب. وان المشركين هنا هو وصف لأهل الكتاب من يهود ونصارى لأن النصارى مثلثة، وعامة اليهود مشبِّهة، وهذا كله شرك.

وفي القرآن آيات كثيرة تتعدد فيها الأوصاف لموصوف واحد مثل قوله: ﴿**الراكعون السّاجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله**﴾ (٩/ ١١٢: التوبة) فهذه أوصاف لطائفة واحدة حيناً يتخللها عطف وحينا تأتي متعاقبة دون عاطف.

ـ أما ذهاب القرآن في «تعبير اهل الكتاب» إلى وصفهم «بالعلماء» و «بذوي العلم» فذلك يرمي إلى واحد من هدفين..

ـ إما للمزيد من التعظيم.

ـ وإما للمزيد من تقبيح كفرهم مع ما عندهم من العلم.

(يرجى بهذا الخصوص مُراجعة كتب التفسير وعلى الخصوص: تفسير الإمام الرازي ومختصر ابن كثير والجلالين).

ب ـ بعد أن وقفنا على المقصود القرآني من «تعبيرالذين كفروا من أهل الكتاب» سنستعرض الآيات التي دل عليها المؤلف من سورة البقرة (٢/١٠٥ ـ ١٢٠) لنتبين إن كانت كلمة «ولا النصارى» في الآية ٢/ ١٢٠ مدسوسة ودخيلة ومتعارضة مع طبيعة الجدال الذي استغرق الآيات المذكورة.

ـ ففي الآية (١٠٥) ورد تعبير «الذين كفروا من أهل الكتاب».

ـ وفي الآية (١٠٩) ورد هذا التعبير: «ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً. . .».

ـ وفي الآية (١٠٨) خطاب إلى المسلمين الذين طالبوا النبي بالمعاجز مثلما طُولِبَ موسى من قبل كما يستدل على ذلك من ظاهر الآية:

﴿**أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل**﴾ (٢/١٠٨).

فعبارة ومن يتبدل الكفر بالإيمان. أكدت أن عائدية الخطاب إلى المسلمين. لأنها لا تصح إلا في حق المؤمنين.

ـ وفي الآية (١١٠) ﴿**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة. . .**﴾ هي دعوة إلى المسلمين وليس إلى اليهود أو النصارى. ـ وفي الآية (١١٢) نفي وتقرير: أما النفي فهو رفض ماقالته اليهود والنصارى من احتكارهم للجنة، وأما التقرير فهو بيان المستحقين لها وهم ﴿**بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن. . .**﴾.

ـ وفي الآيتين (١١٦ ـ ١١٧) سُردت بعض المقولات العقائدية عند النصارى، كما ورد الردعليها باستعمال الحرف «بل» الذي يعني الرفض لهذه المقولة ثم الانتقال إلى تقريرالحكم الصحيح: ﴿**وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون. (١١٦) بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون (١١٧)**﴾.

وفي هذا منتهى الإعجاز في تنزيه الله عن أن يكون له ولد. فهو سبحانه، أي يسبح له كل الوجود، ثم له كل ما في السماوات والأرض قانتون.

والمسيح عليه السلام، سواء أكان «الإنسان» أم «الأقنوم الثاني بالطبيعة غير الإنسانية» هو من القانتين لله لأنه ممَّن في السماوات أو في الأرض. ولو كان ابن الله الأزلي، لصار استثناؤه من القنوت ومن أن يكون ملكاً لله فما من والد يكلف ولده بالقنوت والسجود له وما من والد يعتبر ولده ملكاً من ممتلكاته.

ـ وفي الآية (١١٨) ﴿**وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله. . .**﴾.

قال المفسرون: أولئك هم اليهود والنصارى الذين طلبوا هذا الطلب. أما وصفهم بأنهم لا يعلمون. فالقصد منه أنهم «لا يعلمون التوحيد ولا النبوة مثلما ينبغي».

ـ وفي الآية (١١٩) حديث مع النبي (ص) لكي يصدع برسالته دون اعتبار لما عرض عليه أصحاب الجحيم: ﴿**إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم**﴾.

ـ والآية (١٢٠) التي تأتي في خاتمة ما سمَّاه المؤلف «فصلاً خاصّاً» تنبىء النبي (ص) أنه لن ينال رضى اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم. . ثم تأمره بأن يعلن بأنَّ الهدى هو هدى الله وليس كما عرضته الطائفتان.

تلك هي الآيات، عرضناها بكلماتها ومعانيها على وجه التقريب فلم نلحظ فيها تخصيصاً بالجدال مع اليهود ولا استثناءً للنصّارى من أهل الكتاب، والحديث عن الطائفتين في آية واحدة وإطلاق حكم واحد عليهما لا يتناقض من حقيقة التعارض العقائدي بينهما. ولو تمعن المؤلف في الآية (١٢٠) لوجد أن كلاًّ من الطائفتين تشترط لرضاها على النبي أن يتبع ملَّتها، فيؤمر بأن يعترض على الإثنين معاً. ويرفض رضاهما معاً، وينفي أن يكون الهدى عند أي منهما، ويأتيه تحذير بمثابة التهديد بأنه سوف يخسر ولاية الله ونصره ورضاه إن مال إليهما أو اتبع أهواءهما.

لقد عزونا خطأ المؤلف في تفسير مضامين الآية (١٢٠) وما قبلها إلى سوء

القراءة وسطحية التفسير اللذين لازماه دون فكاك من أول الكتاب.

* * *

الفروق الجوهرية بين اليهود والنصارى تمنع التقاءهما:

في رأي المؤلف:

ـ أن الخلاف العقائدي بين اليهود والنصارى كان من العمق والشدة والتشعب بحيث لم يكن يسمح بالتقائهما على صعيد عقائدي واحد.

ـ وفي رأيه: أن تعبير «أهل الكتاب» في آيات الجدل لا يستهدف غير اليهود وإن وجود النصارى مقروناً إلى اليهود في بعض الآيات هو وضعٌ وإقحام، لأن الاختلاف بين النصرانية والمسيحية كان اختلافاً حول جوهر العقيدة والايمان منذ السنوات الأولى التي تلت انتقال المسيح. وظلت النصرانية ثابتة على عقائدها طوال القرون الستة حتى ظهر الإسلام فوجدت فيه ذاتها عقيدة وكتاباً ونبوة فانتمت إليه وذابت فيه، أما المسيحية فقد كانت بعيدة عنه بُعداً جغرافياً منع قيام اللقاء أو التعارف أو الحوار بينهما، وسوف ينتقل نبي الدعوة إلى الرفيق الأعلى ويتبعه خليفته الأول وينقضي الهزيع الأول من خلافة الثاني حتى يتم هذا الالتقاء المنتظر ولكن الحوار بينهما لم يكن بالكلام بل بالسيوف التي اتخذت مدادها من دماء الصدور.

أما اليهود فقد تجمدوا، إلا قلة منهم، على مواقفهم المتشنجة من الإسلام والمسيحية على السواء فكلتاهما في نظر اليهود ليستا على الحق.... لقد بالغ اليهود في تكفير المسيحية وبالغوا في تحقير الإسلام، فناصبوهما العداء والبغضاء، فنزلت آيات القرآن متتابعة في لعنهم وتكفيرهم وطردهم من رحمة الله والتحذير من مكائدهم.

لذلك: وجد المؤلف أن كلمة «ولا النصارى» وضعت في غير موضعها إذ حُشرت في مكان تخصص للحوار مع اليهود والرد عليهم. وشدة البعد العقائدي بينهما ترفض أن يجتمعا في آية واحدة، على رأي واحد، وثمة قرائن عميت عنها

عيون جامعي القرآن - كما يقول المؤلف - في الآيات التي تلت الآية ٢/ ١٢٠ تؤكد هذه الحقائق.

- ففي الآية ٢/ ١٢١ وصف النصارى بأنهم يتلون الكتاب حق تلاوته ويؤمنون بالنبي. ووصف اليهود بأنهم الذين كفروا به وهم الخاسرون. وفي الآية ٢/ ١٢٢ مناداة اليهود بالاسم الذي يحبونه «يا بني إسرائيل» تذكِّرهم بأن الله فضلهم على العالمين. وفي الآية ٢/ ١٢٤ خطاب الله إلى موسى بقوله: ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ (انظر الهامش)(١).

- فتلك كلها قرائن تقطع بعدم علاقة النصارى بهذا الفصل الذي تخصص جميعه للجدال مع اليهود. (انتهى كلام المؤلف).

* * *

إن هذه المحصلة التي توصل المؤلف إليها لم تدَّعم بأي مرجع، بل هي محصلة قراءة شخصية وفهم شخصي، وتحليل شخصي وهي - بوضعها الشخصي - غير معصومة من الزلل وغير محظورة على النقد.

- فالتلاوة في الآية ٢/ ١٢١ تتطلب التماس معنى من معانيها اللغوية العديدة. بما ينسجم مع غاية الآية فلا يستطاع تفسيرها هنا بمعنى القراءة لما فيه من ضعف واضطراب وفقدان الانسجام مع كلمات الآية، إلا إذا كانت تعنى المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن ويتلونه حق تلاوته.

أما إذا توجهنا بها نحو أهل الكتاب من الطائفتين، فالتلاوة تعني الاتباع فيما أمر والامتناع عما نهى، وهؤلاء فريقان:

فريق الذين يتلون وبه يؤمنون.

وفريق الذين يكفرون به وهم الخاسرون.

---

(١) ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فاولئك هم الخاسرون﴾(٢/ ١٢١) ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾(٢/ ١٢٢). ﴿إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾(٢/ ١٢٤).

ـ والخطاب الإلّهي في الآية ٢/١٢٤ لم يكن موجَّهاً إلى موسى ـ كما قال المؤلف ـ بل إلى إبراهيم كما دلت مقدمة الآية: **﴿وإذا ابتلى إبراهيم ربُّهُ بكلماتٍ فأتمَّهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. .﴾** وهذا خطأ لا يمكن العودة به إلى السهو ولا إلى ضحالة المخزون اللغوي أو العلمي، إنه قَفْزٌ على نصف الآية، وتحويلٌ لاتجاهها تحويلاً غيَّر المقصود منها، وطوى قروناً عديدة من الزمن[١].

والفروق بين إبراهيم وموسى في الزمان والمكان والعقيدة أوسع وأكبر من أن يخطىء فيها باحث فلا يميز أحدهما عن الآخر، ولكنَّنا مرَّة ثانية نميل إلى الاعتقاد بأن إبدال موسى بإبراهيم ـ لدى المؤلف ـ كان مقصوداً به التضليل لكي يشد انتباه القارىء إلى أن القرآن أكد إمامة موسى للناس، وما عليهم جميعاً إلا اتباع الكتاب المنسوب إليه. ولما كان أتباع المسيح قد عرفوا هذه الحقيقة فاتبعوا التوراة، لم يبق غير اتباع النبي محمد لينهجوا النهج ذاته.

أما نحن فإن لنا أن نقرأ الآية كما هي، وأن نفهمها على حقيقتها، فلقد أفادتنا بأن إمامة الناس جعلها الله إلى إبراهيم. ولكن أبناء الأديان من بعده ـ مع تعظيمهم له وتشرفهم بالانتساب إليه ـ لم يتبعوا ملته، بل الإسلام وحده هو الذي دعا إلى دين التوحيد الإبراهيمي والحنيفية الإبراهيمية والإسلام الإبراهيمي.

* * *

---

(١) .البعد الزمني ما بين ابراهيم وموسى هو سبعة عشر قرناً تقريبا.

الإقحام في سورة آل عمران

ويستطيع ـ كما قال المؤلف ـ قارىء «آل عمران» أن يكتشف بنفسه عملية الاقتحام ودس كلمة «النصارى» إلى جانب اليهود، ليكونوا شركاء في الحكم القرآني الواحد.

ففي تحليل الآيات (٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٩) منها.

وفي استعادة قراءة آيات السورة بكاملها ولو على وجه السرعة نلتقي بالدليل يتلو الدليل.

ـ الآيات من ٦٥ ـ ٦٩ موجهة إلى اليهود، لأنهم أهل الكتاب الذين يحاجون في إبراهيم (٦٥) ولأنهم الطائفة من أهل الكتاب (٦٩) لذلك جاءت كلمة «ولا نصرانياً» في الآية (٦٧) نشازاً أحدث انقطاعاً في المعنى العام يتجافى مع السرد ويتعارض مع الآية (٦٨).

ـ والسورة بجملتها هي حلقات متتابعة من الجدال مع اليهود، لا يشذ عنه غير قصة وفد نجران عندما قدم إلى مقابلة النبي في المدينة وقام بينه وبين النبي ذلك الجدال العقائدي الذي سردته الآيات (٣٣ ـ ٦٤) من السورة. . . . لهذا يقول المؤلف:

«فالإقحام ليس في النص بل في زمانه ومكانه، وهذا ما أوجَدَ التشويش في موقف القرآن من المسيحية» (ص ـ ٤٦). تلك هي تحليلات المؤلف.

أما نحن فعلينا أن نتبع خطتنا مع المؤلف فنضع كل مقولة من مقولاته تحت

الاختبار، وسوف نتبع أسلوبه الذي حقق له هذا الكشف، فنحلل الآيات (٦٥ ـ ٦٩) ونستعيد مواضيع «آل عمران» واحداً واحداً.

* * *

تحليل الآيات:

﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون (٦٥). هاأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٦٦). ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (٦٧). إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتَّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين (٦٨). ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون (٦٩). يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون (٧٠).﴾.

١ ـ إن تعبير «أهل الكتاب» وَردت في تسع وعشرين آية من آيات القرآن فانصرف بعضها إلى اليهود وحدهم وإليهم مع النصارى في أكثرها وإلى المسلمين في بعضها الآخر. ولكي نستطيع تحديد المقاصد الحقيقية من كل آية ينبغي قراءة الآيات وتحليل معانيها البعيدة على هدى موقعها من السورة والسباق.

فمثلاً: الآية ٣/ ٦٤ **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾**. تلك دعوة توجهت من النبي إلى «اليهود» و «النصارى» للالتقاء معهم على كلمة السواء التي تعددت أركانها ويمكن اختصارها «بالتوحيد».

وقد جاءت الدعوة إليهم باعتبارهم «أهل الكتاب» في رسائل بعثها النبي إلى ملوك العالم المسيحي في ذلك الزمن وهم: هرقل عظيم الروم والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر.

كما كانت مفتوحة أمام اليهود والمجوس الذين أولاهم الإسلام سنة أهل الكتاب (حديث شريف).

ـ الآية ٣/ ١٩٩ ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله. . .﴾.

هنا: يتجه «القصد» إلى من آمن من أهل الكتاب عامة من «اليهود والنصارى».

وقيل: نزلت في النَّجاشي وأصحابه الذين آمنوا[1].

وقيل: نزلت في أربعين من وقد نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأسلموا.

وقيل: إن تعبير أهل الكتاب عندما يأتي عاما يشمل اليهود والنصارى والصابئة وحتى المجوس لما ثبت عن النبي (ص) أنه قال «سَنُّوا بهم سنة أهل الكتاب».

ـ الآية ٤/ ١٧١ النساء: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إلّه واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾.

إن المقصود بتعبير أهل الكتاب في هذه الآية هم أتباع المسيح الذين يغالون فيه ويقولون على الله غير الحق، فيبتعدون عن التوحيد.

لذلك: ليس صحيحاً ـ ما قاله المؤلف ـ من أن تعبير «أهل الكتاب» أينما وجد في القرآن فهو تعريف لليهود أو نداءٌ لهم، والأصح منه التماس المقصود من التعبير على ضوء موقعه من الآية وموقعها من السياق القرآني.

٢ ـ بعد هذا نعود إلى الآية ٣/ ٦٥ من السورة لتحديد المقصودين «بتعبير أهل الكتاب» وذلك من خلال تحليل موقعه في الآية وموقعها بين الآيات (٦٦ و٦٧ و٦٨ و٦٩ و٧٠).

---

(١) روي عن النبي(ص) أنه عندما سمع بموت النجاشي خرج بأصحابه إلى خارج المدينة وقال: أخ لكم في الحبشة مات فصلوا عليه ثم صلى عليه معهم، صلاة الغائب.

أ ـ من الثابت في التاريخ أن اليهود رفضوا الدعوة الإسلامية بحجة أنهم ورثة إبراهيم الخليل في النسب والدين والكتاب، وأنهم بذلك في غِنىً عن الإسلام والقرآن. لأنهما يخالفان «الخليل والتوراة».

وكذلك جاء احتجاج النصارى بالمسيح والإنجيل مبنيا على أن المسيح يتسلسل من النسب النبوي حتى داود وموسى وابراهيم وأن الإنجيل هو ديانة هؤلاء الأنبياء جميعاً.

هذا الرفض من جانب اليهود والنصارى، الذي بني على أساس تاريخي وكتابي واحد، اقتضى أن يكون الرد عليه واحداً لذلك كان ورود كلمة «الإنجيل» إلى جانب كلمة «التوراة» من لوازم الرد ومن مقتضيات الجدل مع هاتين الطائفتين.

وقد جاء مبنيّاً على قواعد منطقية يقبلها العقل السليم.

ـ فمن قبل التوراة والإنجيل بزمن بعيد وجد إبراهيم الخليل لذلك لا يمكن أن ينسبا إليه ولا أن ينسب إليهما.

ـ وابراهيم، لم يكن بلا دين، بل كان دينه الحنيفية والإسلام، وهو دين التسليم لله وتوحيده. وهذا هو الدين الذي دعا إليه الإسلام ولكن اليهود والنصارى لم يعتنقا ملة إبراهيم، لأن التوراة والإنجيل - في زعمهم - لم يتحدثا عنها، ولم يأمرا بها.

لذلك كان احتجاجهما بإبراهيم، متناقضاً مع موقفهما من ملته التوحيدية.

ـ إن التكليف الذي فرضه الله على الإنسان في العبادات والمعاملات وجد قبل موسى على أيدي الأنبياء الذين سبقوه ثم جاءت شريعة موسى فكان لا بد لها أَزاءَهُ من أن تكون:

ـ إما ناسخة لما قبلها.

ـ وإما مقررة لها مقرة بها.

والنسخ التشريعي، وكذلك الإقرار بالكليات والثوابت السابقة، لا يعترف بها اليهود.

ب ـ ويستمر خطاب القرآن «لأهل الكتاب» مشيراً لليهود والنَّصارى بإشارة واحدة فربط ما بين الآية ٣/ ٦٥ وما بعدها بقوله: ﴿**ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم...**﴾ ٣/ ٦٦.

فالهاء للتنبيه، وأنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وحاججتم جملة مستأنفة تبين ما سبقها[1] وتهيىء الذهن إلى تلقي ما سيأتي بعدها... ﴿**ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجُّون فيما ليس لكم به علم...**﴾٣/ ٦٦.

أي: إن توافر لديكم من العلم ما يمكنكم من ملاحظة الفروق بين التوراة والإنجيل وبين القرآن واستطعتم إثارة الجدل من خلال هذه الفروق فكيف تحاجُّون في اختلاف القرآن عن شرع ابراهيم ودينه وليس لديكم شرح إبراهيم ودينه ولا تقيمون أياً منهما.

ويخلص القرآن إلى النتيجة الحاسمة التالية:

﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾ (٣/ ٦٧).

فالمراد من ذلك كله هو:

أن كل ما يقوله اليهود والنصارى في الانتساب إلى إبراهيم ملة وشريعة وكتاباً هو قول مردود.

ـ لأنه كان حنيفاً مسلماً وفي ذلك توضيح لابتعاد الطائفتين عن ملته.

ـ وأنه لم يكن من المشركين، وفي هذا تعريض بالنصارى الذين اعتبرهم القرآن من المشركين لقولهم بإلّهية المسيح وتعريض بعقيدة اليهود الذين أشركوا عندما قالوا بالتشبيه.

ـ وبعد أن بين القرآن استحالة التقاء اليهود والنصارى مع دين إبراهيم وشريعته

---

(١) ﴿**يا أهل الكتاب لم تحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون**﴾(٣/ ٦٥: آل عمران).

حدَّد من هم «الأَوْلَى» باتباع إبراهيم فقال:

﴿إن أولى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتبعُوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾ (٣/ ٦٨).

ج ـ وفي الآية ٣/ ٦٩ يتخصص التعبير فيُشار «بأهل الكتاب» إلى واقعة تاريخية معينة وهي أن بعض اليهود وجهوا الدعوة إلى معاذ وعمَّار وحذيفة لكي يدخلوا في دينهم. فجاء الإخبار القرآني محدداً بحدوده حيث استخدم حرف «من» لكي يفيد التبعيض والتجزيء واستخدم «لو» لكي يفيد التمني، فأخرج بذلك تعبير «أهل الكتاب» من العموم إلى الخصوص.

﴿ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يُضلُّونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾(٣/ ٦٩).

وبذلك: وضع القرآن وجوب تحديد المقصود من «أهل الكتاب» على ضوء موقعها التنزيلي والتاريخي.

د ـ ثم تتوجه الآية ٣/ ٧٠ إلى أهل الكتاب عامة، مستنكرة منهم الكفر بآيات الله عندما يسألون عنها فيشهدون على أنها ليست من عند الله: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾(٣/ ٧٠).

فأهل الكتاب هنا: هم اليهود والنصارى.

وآيات الله: هي آيات القرآن.

وكلهم كانوا يعلمون أنها من عند الله ولكنهم يشهدون بغير ذلك.

* * *

مواضيع سورة آل عمران:

مهمَّةُ هذا العنوان، ليست تقديم تفسير لسورة آل عمران. بل تقديم عرض لمواضيعها وتحديد توجه هذه المواضيع ووجهتها ومن ثم «امتحان صِحَّة مقولة المؤلف في الصفحة ٤٦ ـ من كتابه وهي: إنه إذا صار رفع قصص آل عمران من الآية ٣٣ حتى الآية ٦٤ المقحم على السورة تظهر السورة، كلها، حلقات متصلة

متتابعة دون فاصل، في جدال اليهود وحدهم».

والمؤلف يهدف ـ كما مرَّ معنا ـ إلى تكثيف الأدلة أمام القارىء لإقناعه بأن القرآن تعرَّض للدس والوضع في هذه السورة وفي غيرها.

١ ـ الآيات من ١ ـ ٢٠ تحدثت عن تنزيل الكتاب على النبي بالحق وعن انزال التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وإنزال الفرقان، ثم تحدثت عن المحكمات والمُتشابهات، وأوضحت أن الكافرين لا يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وتضرب مثلاً آل فرعون الذين كفروا فأخذهم الله بذنوبهم وتستمر الآيات في وصف الكفار وفي مزايا المؤمنين المتقين.

٢ ـ وينتقل الحديث إلى من يكفرون بآيات الله ﴿**ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط**﴾(٢١)[١].

٣ ـ ﴿**الذين أوتوا نصيباً من الكتاب...**﴾ والمقصود بالكتاب هنا هو غير القرآن لأنه أضيف إلى من كفر به من اليهود والنصارى الذين وصفتهم تتمة الآية بالإعراض عنه عندما يدعون إليه.

﴿**والّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون**﴾(٢٣).

ثم تستمر الآيات حتى (٣٠) في تعداد عظمة الله وهيمنته وجبروته وأنه ولي المؤمنين بيده حساب كل نفس وهو الرؤوف بالعباد.

٤ ـ وفي الآيات من ٣١ ـ ٣٤ نداء إلى من يزعمون أنهم أحباء الله من اليهود والنصارى لكي يؤمنوا بالنبي ويتبعوه فينالوا بذلك محبة الله لأن الله اصطفى الأنبياء قبل محمد (ص) فلما بعث بالرسالة انتقل إليه نور النبوة وصار مطلوباً من تابعي الأنبياء السابقين أن يتبعوه لأن الانبياء ـ جميعاً ـ ذرية بعضها من بعض.

---

(١) الكتاب في الفقرة(١) هو القرآن. والكفار الذين كفروا به هم اليهود والنصارى. أما: قتلة الأنبياء في الفقرة (٢) فهم اليهود الذين تواتر أنهم قتلوا مئة وخمسة وخمسين نبياً في يوم واحد. (الرازي ـ في تفسير الآية (٢١) من آل عمران).

٥ ـ أما الآيات من ٣٥ ـ ٦٤ ففيها:

ـ حديث عن امرأة عمران التي نذرت ما في بطنها محرراً لله. فوهبها الله أنثى وأنبتها نباتا حسناً (٣٥ ـ ٣٧).

ـ وعن زكريا ودعائه إلى الله أن يهبه ذرية طيبة وتبشير الملائكة له بيحيى رغم إنه متقدم في السن وأن زوجته عاقر (٣٨ ـ ٤١).

ـ وحديث الملائكة مع مريم وتبشيرهم لها بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم ودهشتها من أن يكون لها ولد دون أن يمسسها بشر. (٤٢ ـ ٥٨).

ـ ثم تقف الآيات وقفة متأنية مع المغالين في عيسى لتقول لهم: إن الله خلق عيسى مثل ما خلق آدم كلاهما دون أب.

فآدم خلقه الله من دون أب ولا أم ولم يوصف بأنه ابن الله تعالى.

وإذا جاز أن يخلق الله آدم من تراب ـ كما اتفق الجميع على ذلك ـ فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دماء مريم؟ بل هنا أقرب إلى العقل لأن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس. (٥٩ ـ ٦٣).

ـ ثم تأتي الآية (٦٤) لتدعو أهل الكتاب كافة ـ يهوداً ونصارى ومجوساً ـ إلى كلمة سواء هي «الاقتصار على عبادة الله دون شريك وألاّ يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله.

٦ ـ أما تعبيرأهل الكتاب الذي تكرر فيما بعد في الآيات من ٦٥ ـ ٨٥ فهو منصرف إلى جميع أهل الكتاب دون تخصيص أو استثناء.

٧ ـ وفي الآيات العشر من (٨٣ ـ ٩٢) تركيز على أن الإسلام هو دين الله الذي كُلِّف به الأنبياء جميعاً.

٨ ـ وفي الآيات من ٩٣ ـ ١٠١ حديث عما حلل الله لبني إسرائيل وما حرم إسرائيل على نفسه. كله قبل نبوة موسى وقبل نزول التوراة، كما تحدثت الآيات عن بناء الكعبة وتشريفها على البيوت كافة.

٩ ـ ثم تأتي الآيات من ١٠٢ ـ ١١١ ـ بخطاب إلى المسلمين الذين كانوا

أعداءً فألف الله بين قلوبهم وجعلهم بنعمته إخواناً وحضَّهم على أن تتكوَّن منهم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ثم تخبرهم بأنهم كانوا خير أمة أخرجت للناس. ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله. . . .﴾(١١٠).

فكلمة «كنتم» في الآية تقرأ تامة وتقرأ ناقصة وتقرأ زائدة. فمن قرأها تامة لم يجدها في حاجة إلى خَبَر (كنتم بمعنى صرتم).

ومن قرأها ناقصة، فسرها على الوجود في الزمن الماضي على سبيل الإيهام دون انقطاع مثل: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفَّارا﴾ (٧١/ ١٠: نوح).

ومن قرأها زائدة، قارنها بغيرها مثل ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا. . .﴾(٧/ ٨٦: الأعراف).

١٠ ـ وقبل أن تنتهي الآية (١١٠) ينْعطف الحديث انعطافاً حاداً إلى أهل الكتاب وبالامعان فيها وفيما تلاها يتبين أن أهل الكتاب هنا هم اليهود لأن ما فيها من وصف ينطبق على اليهود وحدهم.

﴿. . . . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون (١١٠) لن يَضرُّوكم إلاَّ أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لايُنصرون(١١١)﴾.

فاليهود هم الذين لم يقاتلوا المؤمنين إلا ولّوهم الأدبار.

﴿وهم الذين ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباؤوا بغضبٍ من الله وضربت عليهم المسكنة﴾(١١٢).

١١ ـ و «أهل الكتاب» ليسوا سواء منهم أمة قائمة. . . . (١١٣ ـ ١١٤ ـ ١١٥).

فهنا يشمل التعبير كل من أوتي الكتاب بمن فيهم المسلمين بدليل قوله تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾(٣٥/ ٣٢: فاطر).

١٢ ـ والآيات من (١١٦ ـ ١١٨) ليس فيها ذكر «لأهل الكتاب».

أما الآيتان (١١٩ و١٢٠) فهما تتحدثان عن الجهات التي تكيد للمؤمنين وتحسدهم، وحذرنا من اتخاذهم بطانة، وهؤلاء ليسوا اليهود فقط بل جميع الذين كفروا. فقد روي أنه قيل لعمر بن الخطاب (ر) ههنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يُعرف أقوى حِفظاً ولا أحسن خطاً منه فإن رأيت أن تتخذه كاتباً فامتنع عمر وقال: إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين. معتمداً على هذه الآية دليلاً على النهي. (الرازي).

١٣ ـ أما الآيات من (١٢١ ـ ١٧٨) فهي خالية من الحديث عن أهل الكتاب لأنها تركزت على معركتي بدر وأحد. وعلى وضع التوجيهات التربوية والأخلاقية كالامتناع عن الربا وإطاعة الله والرسول والإنفاق في سبيل الله والاستغفار عند ارتكاب الذنوب، وعن ثبات الآجال، وعن حكمة الله في إمهال الكفار لا لخيرهم بل ليزدادوا إثما (١٧٨).

١٤ ـ وتستمر الآيات في إعلام الكُفَّارِ بأنهم لن يضروا الله في كفرهم وأن ما يتنعمون به مما آتاهم الله ليس خيراً لهم بل هي شرور يُطَوَّقُون بها يوم القيامة (١٨٠).

١٥ ـ ولكن أربع آيات تالية تحدثت عن اليهود فقط هي الآيات (١٨١ ـ ١٨٢ ـ ١٨٣ ـ ١٨٤).

ـ فالآية (١٨١) نزلت في يهود بني قينقاع، عندما وجه إليهم النبي كتاباً مع أبي بكر (ر) يدعوهم فيه إلى الإسلام وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال «فنحاص ـ اليهودي» إن الله فقير حتى يسألنا القرض وهو ينهانا عن الربا ثم يعطينا الربا وذلك بمضاعفة القرض أضعافاً مضاعفة. فنزلت الآية: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق**﴾(١٨١).

ـ والآية (١٨٢) نزلت في كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وغيرهم.

ـ وفي الآيتين (١٨٣ ـ ١٨٤) أُخبر النبي أن هؤلاء إن كذبوك فقد كذبت رسُلُ

من قبلك جاؤوا بالبينات والزبر والكتاب المنير.

١٦ ـ وفي الآيتين ١٨٦ ـ ١٨٧ ورد تعبير «الذين أوتوا الكتاب».

ـ ففي الآية (١٨٦) ورد عاماً مع الذين اشركوا أي عام في اليهود والنصارى وغيرهم.

ـ وفي الآية (١٨٧) ورد منفرداً فدل على اليهود والنصارى فقط.

والدلالة على هذه المقاصد تستنتج من ألفاظ الآيتين:

﴿لتُبلوُن في أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً﴾(١٨٦).

فالأذى وقع على المسلمين من اليهود والنصارى والمشركين بوجه عام.

﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيَنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه...﴾(١٨٧).

فالذين أخذ الله ميثاقهم لكي يؤمنوا بالنبي هم الأنبياء ولكن أتباعهم فيما بعد كتموه. لذلك فإن تعبير الذين أوتوا الكتاب في هذه الآية لا يشمل المشركين.

١٧ ـ وتستمر الآيات في التوجيه الديني ووضع قواعد الاخلاق متخذة في التعبير «صيغة العموم» لكي تشمل الناس جميعاً حتى الآية (١٩٥).

أما الآيات التي تلت حتى آخر السورة في الآية (٢٠٠) فقد وردت فيها أحكام متنوعة.

ـ فمتاع الذين كفروا هو **﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾**(١٩٧).

ـ **﴿الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله﴾**(١٩٨).

ـ وتقوى الله تتناول جميع الطاعات فيدخُل فيها الاحتراز والمنهيات وترك المأمورات.

ـ **﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل**

إليهم. . .﴾(١٩٩) فهؤلاء داخلون في عداد الذين اتَّقوا ربهم، بدليل تتمة الآية: ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ (١٩٩).

* * *

هذه هي المواضيع التي تضمنتها آيات آل عمران المئتان، عرضناها باختصار شديد متوخين أن نضع بين يدي القارىء لمحة عنها تمكنه من رفض مقولة المؤلف الذي جعل من سورة آل عمران سورة خاصة باليهود لا يستثنى منها سوى حوار وفد نجران من (٣٣ ـ ٦٤).

فقد تبين أن ما خص اليهود لوحدهم هو عدد محدود جداً من الآيات.

وأن تعابير «أهل الكتاب» و «الذين أوتوا الكتاب» و«الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» ليس مقصوراً على اليهود ولا على النصارى بل هو وصف وتسمية لأهل الكتاب عامة.

وأنه لا يمكن تحديد وجه «المخاطب» بهذا التعبير إلا إذا درسنا موقعه من الآية وموقع الآية من السياق التنزيلي والتاريخي.

التشويش والإقحام في سورة المائدة

قال المؤلف: إن أكبر ظاهرة في سورة المائدة هو اشتمالها على الجدال المستمر مع اليهود والنَّصارى، الذي شوَّش الحقيقة القرآنية وأقحم النصرانية في الآيات إقحاماً إجرامياً تشوَّه به موقف القرآن من أهل الإنجيل وترك تناقضاً في رؤيته إليهم وكان سبب البلاء في تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية ـ (ص ـ ٤٨ ـ ٥٤).

وبعد أن عدَّد المؤلف مظاهر التشوش وحالات الإقحام، قدم نظريته لتصحيح الأوضاع فقال في (ص ـ ٥٥).

«ففي إسقاط اسم النصارى من الآيات السبع تستقيم صحة التنزيل. وإسقاطها لا يطعن في صحة القرآن، إنه تنقيح علمي لعمل غير معصوم، وفي الكشف عن تلك الإقحامات تسقط العقبة الثانية في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي».

تلك هي أقوال المؤلف دون تعديل.

ولكن كيف رأى وأين وجد حالات التشويش على الحقيقة القرآنية؟

وكيف رأى وأين وجد حالات الإقحام الإجرامي الذي كان سبب البلاء التاريخي؟.

* * *

حالات التشويش ومناقشة المؤلف فيها:

التشويش الأول:

قال المؤلف: «بما أن تصفية اليهود في الحجاز تمت قبل تنزيل سورة المائدة، فإن الجدال مع اليهود أقحم على هذه السورة إقحاماً وكان ينبغي إلحاقه بالقسم المماثل المقحم على سورة آل عمران المتمثل في القصص من (٣٣ ـ ٦٤ منها) أما تاريخية تصفية اليهود في الحجاز فقد أثبتها القرآن في الآية ٦١/ ١٤ من سورة الصف، التي أكدت ذلك مما يدفع أي شك ـ (ص ـ ٤٨ ـ المؤلف)».

لذلك: ونظراً إلى أن المؤلف لا يَعتمِدُ مرجعاً علمياً ولا تاريخيا بل يكتفي بالإستناد إلى الآية (١٤) من سورة الصف، فقد قامت لدينا ضد مقولته الملاحظات التالية:

أ ـ لم تكن اليهودية حزباً سياسياً ينقضي بالقضاء على نفوذه، ولكنها دين تغلغل، في التاريخ والجغرافيا، وهو معهما في حضور مستمر، لذلك وَضَع القرآن قواعد الحوار العقائدي ومنحها قوة المواجهة المستمرة كلما دعت الحاجة إلى ذلك. دون تقييد زماني أو مكاني.

ب ـ وآيات القرآن بما فيها من قواعد وأحكام لم تنزل دفعة واحدة بل نزلت منجَّمة ثُمَّ وزعت على السور بأمر النبي وإرشاده، فسواء نزلت هذه الآيات قبل تنقية المدينة من اليهود أم بعدها، فإنَّها تضمنت أحكاماً عامة ومبادىء لا غنى عنها، في مقاومة أي تحرك عقائدي أو فكري مضاد. ودليلنا على صحة هذا الرأي:

هو أننا وبعد أربعة عشر قرناً لا نزال نعتمد في محاجَّة اليهود على الأحكام والمبادىء ذاتها، مما يقطع بأنها نزلت في الكتاب لتكون الدريئة الأبدية للمؤمنين بها.

ج ـ أما الآية (١٤) من سورة الصف (١٦) فلا ندري لماذا اعتمد عليها المؤلف كشاهد قرآني على تصفية اليهود من الحجاز وتحديد تاريخ التصفية قبل تنزيل المائدة.

إن الآية تضمنت دعوة المؤمنين كي يكونوا أنصار الله وأن يستجيبوا لدعوة النبي مثلما استجاب الحواريون إلى نداء عيسى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين﴾ (٦١/ ١٤ : الصف).

- فالآية ابتدأت بخطاب الذين آمنوا بالدعوة كي ينصروها، مثلما نصرها الحواريون.

- وإيراد «الحواريين» في الآية هو عودٌ بالحاضر إلى الماضي جاء بصيغة التمثيل والتشبيه مستخدماً كاف التشبيه في (كما) ليضع المقارنة بين استجابة من دعاهم وبين استجابة من ناصروا المسيح عندما دعاهم.

- وكذلك كان الإخبار عن إظهار الطائفة التي آمنت على عدوهم عوداً بالحادثة إلى زمن سابق حيث ثبت في التاريخ أن الصراع ظل محتدماً بين الطائفتين كابدت فيه الطائفة المؤمنة أقصى وأقسى صور العذاب حتى أظهرها الله على الفئة الكافرة بعد اكثر من ثلاثة قرون.

- ودعوة المسيح كانت في فلسطين، كما إن إظهار المسيحية كان في بداية القرن الرابع الميلادي حيث أعلن الإمبراطور قسطنطين الكبير حمايته للنصرانيَّة وانتماءه إليها.

أي: إن كلا من «الدعوة» «والإظهار» لم يتمّا في زمن الدعوة الإسلامية ولا في مكان انبعاثها.

ذلك كله يجعل من احتجاج المؤلف بالآية ٦١/ ١٤ تضليلاً علمياً وتاريخياً.

التشويش الثاني:

أما التشويش الثاني فقد قال المؤلف: إنه نتيجة لعملية دمج الآيات من (١٥ - ١٩) التي تضمنت جدال النبي مع وفد نجران في الفصل الذي تخصَّصَ جميعُهُ للجدال مع اليهود وهو الذي استغرق الآيات من (١٣ - ٣٥) - (ص - ٤٨).

وإذن: يكون دليل التشويش هو اقتحام الآيات من ١٥ ـ ١٩ على فصل مستقل يقع في الآيات من ١٣ ـ ٣٥ فشتت استقلاليته إذ دسَّ فيه موضوعاً مختلفاً.

أما نحن فلم يبق لدينا من وسيلة غير قراءة آيات هذا الفصل بكامله لنَلتمس عنده اليقين حول التشويش والإستقلالية اللذين وجدهما المؤلف.

١ ـ الآيات من (١ ـ ١٢) وضعت قواعد التحليل وفرائض الصلاة وأصول الطهارة وخاطبت جميع المؤمنين مذكرة بِنعَم الله عليهم. ووعده لهم بالغفران ووعيده بالنَّار للكفار.

٢ ـ الآيتان (١٢ ـ ١٣) تحدثنا عن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل واستحقاقهم لِلَّعن بسبب نقضه وبسبب تحريف الكلام عن مواضعه ونسيانهم حظاً مما ذكِّروا به.

٣ ـ الآية (١٤) ذكرت بعضاً من النصارى الذين نسوا حَظّاً مما ذكِّروا به وكان الميثاق قد أخذ عليهم وقد وردت الآية مبتدئة بالحرف (من) «ومن الذين قالوا إنا نصارى. . .» لكي تفيد أن بعضهم وليس جميعهم قد سلكوا مسلك اليهود في نقض الميثاق مع الله، لأن حرف «من» يفيد التبعيض والتجزيء.

٤ ـ الآية (١٥)توجهت بالنداء إلى أهل الكتاب عامة لتنبئَهم بأن الرسول جاءهم بنورٍ من الله وكتاب منير وقد استدلوا على التعميم في تعبير «أهل الكتاب» بكون الآية جاءت بعد آيات تحدثت عن نقض الميثاق الإلَهي من اليهود وبعض النصارى، وبكون الآية (١٦) تضمنت وصفاً متعدداً للكتاب المنير الذي جاءهم به الرسول، بقولها ﴿**يهدي به الله من اتَّبع رضوانه سُبُلَ السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾ ٥/١٦. فالهداية إلى سبل السلام والإخراج من الظلمات إلى النور والدعوة إلى الصراط المستقيم هي غايات الإسلام وأهدافه التي توجه بها إلى جميع الأمم والأديان.

٥ ـ والآيتان (١٧ و١٨) تضمنَّتا تأكيداً واضحاً على أن المقصود «بأهل الكتاب» في الآية (١٦) هم أهل الكتاب عامة هو الانتقال الفوري من تسفيه ناقضي الميثاق الذين تحدثت عنهم الآيات (١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥) وهم اليهود وبعض

النصارى إلى تكفير من قال بأن الله هو المسيح ابن مريم وتسفيه ادعاء كل من اليهود والنصارى بأنهم وحدهم أحباء الله وأبناؤه، فاجتماع اليهود والنصارى على ادعاء كل منهما وزعمه بأنه حبيب الله وابنه اقتضى أن يأتي تسفيههما والرد عليهما في آية واحدة[1] ﴿**وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحِباؤه...**﴾.

٦ - وفي الآية (١٩) ورد تعبير «أهل الكتاب» عامّاً إذ جاءَ بصيغةِ الإخبار بأن الرسول (ص) جاء على فترة من الرُّسل بشيراً ونذيراً.

هنا نستطيع الوقوف مع المؤلف لنقول له:

هذه هي الآيات من ١٥ - ١٩ قرأناها سوية، فما وجدناها مخصصة للجدال مع وفد نجران ولا تبين أنها محشوة حشواً مزَّق الوحدة الموضوعية للفصل المستقل الذي خصصتَه - كما رَغِبْتَ - لليهود.

بعد ذلك: نعود إلى ما تبقى من الفصل.

- الآيات من (٢٠ - ٢٦) تضمنت حوار موسى مع قومه.

- الآيات من (٢٧ - ٣١) سرد مفصل لنبأ ابني آدم هابيل وقابيل.

- الآيات من (٣٢ - ٣٤) إعلان بأن أول قانون جزائي وضعه الله كان بسبب مقتل هابيل: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً...**﴾(٣٢) ثم جاءت الآيتان (٣٣ - ٣٤) في تحديد جزاء الذين يجادلون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

- أما خاتمة الفصل - كما زعم المؤلف - وهي الآية (٣٥) فإنَّها نداء إلى جميع الذين آمنوا كي يتقوا الله ويبتغوا الوسيلة إليه. ففي يوم القيامة والمعاد لن يقبل الفداء من الكفار ولو بذلوا ما في الأرض جميعا. وفيها أيضاً جزاء السارق والسارقة وأصول التوبة التي يتقبلها الله.

---

(١) يقول اليهود: نحن أحباء الله فضَّلنا على العالمين. ويقول النصارى نحن أبناء الله لأن عيسى قال «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم» يعني ربي وربكم.

وهنا نستطيع الوقوف وقفة ثانية مع المؤلف لنعيد ما قلناه أيضاً:

فالآيات من (١٣ ـ ٣٥) لا تؤلف فصلاً من سورة المائدة اقتصر على اليهود وتخصص للجدال معهم.

التشويش الثالث:

وهو، إطلاق تكفير الآيتين ١٩ و٧٥ من السورة على المسيحية جمعاء مع أنهما نزلتا في تكفير الطائفة اليعقوبية وهي الطائفة التي ألّهت المسيح فكفرتها المسيحية واعتبرتها بدعة وطردتها من الكنيسة، فالشبهة والتشويش وقعا على حقيقة النص القرآني إذ لم يفرق المسلمون بين المسيحيين والنصارى الذين كانت اليعقوبية تنتمي إليهم وتمثل مفاهيمهم العقائدية (ص ـ ٤٩).

هذه الكلمات ـ على ضآلة عددها ـ طرحت مواضيع خطيرة يجب جلاء غموضها.

ـ فالتكفير ورد في الآيات ١٧ و٧٢ و٧٣ وليس في الآيتين ١٩ و٧٥.

ـ وهو يقع على من قال أو يقول: إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم. أو إن الله هو ثالث ثلاثة.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾(٧٢). ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾(٧٣) ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا...﴾(١٧).

ـ فالتكفير في القرآن هو تكفير عقائدي لا يرتبط بالأسماء (أشخاصاً أو جماعات) بل يرتبط بالعقيدة. ففي التوحيد القرآني، أن كل من ينصرف عن التوحيد في الله إلى الإشراك به أو عبادة سواه من دونه فهو كافر لذلك جاءت آياته تكفر العقيدة التي تقوم على تأليه المسيح أو على مقولة أن الله ثالث ثلاثة. ولذلك تتالت

الآيات مؤكدة هذا المبدأ وتعبير الآيات وإن جاء في صيغة الماضي غير أنه حكمٌ ثابت ينال القائلين بهذه الأقوال في كل زمان، وعقيدة ـ التأليه والتثليث ـ هي التي انتهت إليها المسيحية[1] بعد جدال طوائفي مديد وانقسامات عديدة، ومن خلال مؤتمرات ومجامع مسكونية تتالت وتعاقبت حتى إذا كانت دعوة الإسلام وجد المسيحية أوالنصرانية مستقرة على هذه العقيدة استقراراً نهائيا. ولكي نجلو عن الوقائع بعض الغبار الذي استغله المؤلف سوف نستعرض أهم مقررات تلك المجامع معتذرين عن تقديم الباقي، لأنها كثيرة التشعب وقد تخلف عنها جدل غزير، ولأننا لا نبغي غير تقديم الوجه الذي استقرت عليه العقيدة المسيحية في عهد الدعوة الإسلامية.

ـ أهم تلك المجامع وأبعدها أثراً وأعظمها ذكراً هو مجمع «نيقية» المعقود في عام ٣٢٥ م وقد كان لانعقاده سببان عام وخاص.

أما السبب العام:

فهو الاختلافات الشديدة بين الطوائف المسيحية الأولى حول شخصية المسيح، هل هو رسول من عند الله فقط؟ أم إن صلته أكبر من صلة السفارة بين الله وخلقه؟ هل هو ابن الله لأنه ولد من دون أب؟ وهل هو مخلوق أم له صِفَة القدم كَمَا لله؟.

ونظراً إلى أن كثيراً من أفكار الرومان واليونان والمصريين قد دخلت إلى المسيحية مع رؤوس أصحابها فتكوّن من ذلك مزيج غامض غير محدد خاصَّةً وقد حاول الفلاسفة أن يفهموا الدين على ضوء ما اعتنقوه من فلسفة قامت على جذور وثنية.

وبما أن الاضطهاد الروماني كان قاهراً غالباً، فقد كمنت تلك الاختلافات في الصدور واحتجبت عن الظهور. ولكن بعد أن حصل المسيحيون على الأمان وأعلن

---

(١) المسكوني هو تجمع رجال الكنائس المسيحية في كل أنحاء المعمورة، والمليّ هو المختص بطائفة دون غيرها، والإقليمي هو الخاص بإقليم مخصوص (كتاب سوسنة سليمان).

الإمبراطور حمايتهم برزت الاختلافات إلى سطح الحياة لتكون أهمَّ مشاغلها، وتبين أن المسيحيين لم يكونوا متفقين إلا على التعلق بشخص المسيح والانتساب العقائدي إليه دون أن يتفقوا على شيء في حقيقته، لذلك أمر الإمبراطور بعقد مجمع «نيقية».

وأما السبب الخاص:

فكان بدعة آريوس كما سماها تاريخهم، وهو رجل من مصر، داعيةٌ كبير، واسع الحيلة، عميق الثقافة، أخذ على عاتقه مقاومة الاعتقاد بألوهة المسيح، الذي كانت كنيسة الإسكندرية تبثه بين المسيحيين، وقد قال ابن البطريق في بيان مقالة آريوس:

(كان يقول إن الآب وحده هو الله والابن مخلوق مصنوع وقد كان الآب إذ لم يكن الابن).

وقد تبنّى القيصر قسطنطين الكبير مقالة «بولس الشمشاطي ومعه ٣١٨ أسقفاً» وأيد عقيدتهم من بين ٢٠٤٨ أسقفاً كانوا في المجمع، فأعلن عن موقفه دون تحفظ. ويقول ابن البطريق في تاريخه واصفاً ذلك الحدث التاريخي:

«وضع الملك للثلاثماية والثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم: لقد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين. فباركوا الملك وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهِرْ دين النصرانية وذبّ عنه. ووضعوا له أربعين كتاباً وفيها السُّنَنُ والشرائع منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به»[(١)].

أما العقيدة التي وضعها الأساقفة هؤلاء فقد ورد ذكرها في تاريخ الأمة القبطية وتاريخ الكنيسة الأرثوذكسية ونصها: (ص: ٢٢٨).

«إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢٩.

ابن الله موجوداً فيه وأنه لم يوجد قبل أن يولد وأنه ولد من لا شيء أو من يقول إن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير الآب وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوَرَان»[1].

وهكذا: وضع دستور نيقية الشهيرالذي اطلق عليه اسم «قانون الإيمان النيقاوي» والذي حددت فقرته الثانية مساواة ابن الله للآب في الجوهر والأزلية والأبدية، وصار هو الموئل العقائدي. أما ما يخالفه من الكتب والمقالات فقد أمر المجمع بحرقها ومطاردتها في كل مكان، وحث الناس على تحريم قراءتها. ومع أننا لسنا في صدد مناقشة ظروف ذلك المجمع ومقرراته فلا بدَّ من التنبيه إلى نقطة هامة وهي أن انقياد قسطنطين لجماعة المؤلهين وتبنيه لهم لم يكن ناجماً عن تعمقه في علم الدين المسيحي أو إيمانه الشديد به لأنه لم يكن بتاريخه قد اعتنق المسيحية[2] بل لأن في التثليث الإلّهي مشاكلة مع التثليث اليوناني الذي أخذه الاغريق عنهم والذي كان قد لخّصه أفلاطون بقوله: (إن الواحد الواجب الوجود المنزه عن الحركة والتغيُّر من حال إلى حالٍ نجم عنه العقل الأول مثلما ينجم الابن عن الآب وإليه أوكل أمر الخلق ثم نجم عنه روح القدس الذي هو علة الحياة في الأحياء). وبذلك وجد قسطنطين عقيدة بولس الشمشاطي تقترب من مفهومه الوثني أو بعبارة ثانية تقرَّب بولس الشمشاطي من مفهوم قسطنطين لكي يحظى هو وجماعته بحمايته.

٢ ـ وفي عام ٣٥٨ م انعقد مجمع القسطنطينية الأول لبحث طبيعة الروح القدس هل هو إلّه أم مخلوق، لأن مجمع نيقية لم يتعرض إلا للآب والإبن. وبما أن الإسكندرية كانت مهد الأفلاطونية الحديثة التي قالت بأن المسيطر على العالم قِوىً ثلاث مؤثَرة فيه: «قوة المكوِّن الأول، والعقل، الابن. والنفس العامة ـ الروح القدس» فقد انتصر رأي «تيموثاوس» بطريق الإسكندرية وصدر عن المجمع القرار التالي: «ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح الله شيئاً غير حياته،

---

(١) ذات المرجع ص ١٢٩ ـ .

(٢) يقول أوسيبيوس الذي تقدس الكنيسة كلامه وتطلق عليه اسم «سلطان المؤرخين» أن قسطنطين عُمِّدَ حين كان أسير الفراش وإن المؤرخ هو الذي عمده لأنه كان صديقه.

فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به ومن كفر به وجب عليه اللعن»[1].

٣ ـ وبعد تقرير الثالوث رأى نسطور بطريرك القسطنطينية أن في المسيح «أقنوماً» و «طبيعة» فأقنوم الألوهة من الآب وتنسب إليه وطبيعة الإنسان من مريم وتنسب إليها فمريم «هي أم الإنسان لا أم الإله» وهذا من نسطور إنكار صريح لألوهية المسيح.

فانعقد مجمع «أفسس» سنة ٤٣١ م وقرر:

«إن مريم العذراء والدة الله وإن المسيح إلّه حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحد في الأقنوم» ثم قرروا: لعن نسطور وتجريده وطرده.

٤ ـ وحصل أن كنيسة الإسكندرية خرجت برأي جديد عرضه البطريرك ديسقوريوس على ملأٍ من الأساقفة فأقروه عليه وقرروه وهو: «إن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت والناسوت».

وقد صدر هذا القرار عن مجمع أفسس الثاني. الذي رفضه عدد من الكنائس وسموه «مجمع اللصوص». فقررت ملكة الرومان عقد مؤتمر عام للخروج من هذا الخلاف الذي أحدثه مجمع أفسس الثاني. فانعقد تحت إشراف زوج الملكة في خلقيدونيا بعام ٤٥١م وقرر المجتعون:

«إن مريم العذراء ولدت إلّهنا يسوع المسيح الذي هو مع أبيه في الطبيعة الإلّهية ومع الناس في الطبيعة الإنسانية وشهدوا أن المسيح له طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد ولعنوا نسطورس ولعنوا ديسقورس ومن يقول مقالته ونفوه إلى فلسطين كما لعنوا مجمع أفسس الثاني وسموه مجمع اللصوص»[2].

٥ ـ وفي هذه الأثناء ظهر يعقوب البرادعي داعية قوي الشكيمة مؤيداً للمذهب

---

(١) محاضرات في النصرانية نقلا عن ابن البطريق.
(٢) أبو زهرة ص ـ ١٤٢ عن ابن البطريق.

المصري الذي يقول بالطبيعة الواحدة. وأخذ يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية ونظراً لنشاطه الكبير وتأثيره الحاسم أصبح كل من يذهب في الإعتقاد إلى الطبيعة الواحدة هو «يعقوبي» نسبة إليه مع أن هذا المذهب نشأ قبله وهو مذهب الكنيسة القبطية وبطريركها ديسقورس. وقد كان البرادعي تابعاً له.

٦ ـ وفي سنة ٥٥٣ م انعقد المجمع الخامس في القسطنطينية فتبنَّى قرارات المجامع السابقة ومنها مجمع خلقيدونيا وأكد من جديد أن المسيح ذو طبيعتين كما أكّد على إنكار عقيدة الطبيعة الواحدة التي اعتنقتها كنيسة مصر.

٧ ـ وفي سنة ٦٨٠ م انعقد المجمع السادس بالقسطنطينية فقرر:

«لعن وطرد كل من قال ويقول بالطبيعة الواحدة وبالمشيئة الواحدة».

* * *

بعد هذه الجولة في تاريخ المسيحية، نستطيع أن نستعيد ما قاله المؤلف في اليعقوبية وانعكاس مقولته على آيات التكفير في القرآن، كما نستطيع أن نضع تقييماً علمياً لأقوال المؤلف. فقد قال:

«وإجماع المفسرين متفق على أن وفد نجران كان مسيحياً على المذهب اليعقوبي كما يتضح من التكفير المكرر في الآيات ١٧ و٧٢ و٧٣ واليعقوبية لا تمثل المسيحية بل هي بدعة كفرها مجمع ٤٥١م».

أي: إن المؤلف يرى أن تكفير القرآن لم يكن إلا لليعقوبية وأن هذا التكفير يلتقي مع تكفير المسيحية لها، بل هو تأكيد له ومحدِّث عنه. وهذا الإلتقاء بين القرآن والمسيحية يعطي الدليل على اتفاقهما في الإيمان والعقيدة ولكن هذا القول محمول على عدد من الأخطاء هي الآتية:

ـ إنَّ آيات القرآن لم تذكر اسم الطائفة التي ألصق الكفر بها، لأنها وضعت مبدأ عاما لا يحصره زمان ولا مكان حددت بموجبه علامات الكفر فقالت بكل صراحة: «إن كل من قال بأن الله هو المسيح أو بأن الله هو ثالث ثلاثة يقع في الكفر».

ـ ولقد تبين من مقررات المجامع المسكونية أن العقيدة استقرت على التأليه

والتثليث. وأن هذه هي العقيدة التي ندَّد بها القرآن.

ـ وهذا التنديد القرآني هو جزء غير قابل للانفصال عن عقيدة كل مسلم وقناعته الدينية لأنه يرى في المسيح عبداً لله آتاه الكتاب، ويستطيع الله أن يهلكه وأمه ومن في الأرض جميعاً.

لذلك: نختتم مزاعم التشويش التي عددها المؤلف لننتقل إلى الإقحامات. وفي توقعنا أننا لن نجد في مزاعم الإقحام أكثر مما وجدناه في مزاعم التشويش «تلاعبٌ في الألفاظ» و«التواء في المعاني» «ودوران على الآيات والمناسبات» و«استهتار بنا جميعاً حتى في الدلالة على الآيات».

هنا نبدي ملاحظة نرى وجوب إبدائها: وهي إن دلالة المؤلف على الآيات ليست صحيحة دوماً. فهو يطلق الأحكام مستدلا عليها بآيات لا تتضمن شيئاً من مقاصد تلك الأحكام، لذلك: اضطررنا إلى وضع الأرقام الصحيحة.

كيف رأى حالات الإقحام في سورة المائدة؟

إلى جانب التشويش الذي أحدثته تلك الآيات على سورة المائدة وجد المؤلف الآيات ذاتها تنقض فتخترق انسياب السُّورة وتجثم في وسط الكلام محدثةً جفاء بين طبيعة الكلام ومقاصده.

وقد وقع هذا الإقتحام ـ كما يقول ـ على آيات عقائدية حاسمة فأقام بين المسيحية والإسلام جداراً منع التلاقي وفرض المواجهة العقائدية على تاريخها منذ نزول القرآن حتى الآن.

أما الآيات التي اقتُحمت أسوارها فهي: الآيات: ١٥ و١٩ و٢٠ و٧٥ من سورة المائدة.

وللوقوف على حقيقة «المقالة» أفردت لكل آية بحثاً مستقلاً، تناولت فيه حجج المؤلف وأدلّته ثم أخضعتها لاختبار النقد والتمحيص كالآتي:

الآية ١٥: ﴿ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فَنَسوا حظّاً ممَّا ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العَداوَةَ والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا

يصنعون﴾ (١٤) ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوأ عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ (١٥) ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السَّلام ويخرجُهم من الظُّلُمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ (١٦).

قال المؤلف: «إن الخطاب في الفصل جميعه من (١٣ ـ ٣٥) موجه إلى بني إسرائيل، فهو جدال معهم وحدهم يفتح ويختتم بالنداء عليهم باسمهم الصريح: ﴿يا بني اسرائيل﴾ لذلك بدت الآيات ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ غريبة عن المناسبة والموضوع بسبب كونها ـ في الأصل ـ جزءاً من الجدال العقائدي مع وفد نجران المسيحي. كما إن ما في الآيات من تنديد بالنصارى يتعارض مع تصريح القرآن بأنهم أقرب الناس مودَّة للَّذين آمنوا وأنهم لا يستكبرون، وأن الله أثابهم بما قالوا جنات عدن. ٨٢ ـ ٨٦ المائدة».

«وإنَّ ما ورد في الآية (١٤) من نسيانهم بعض ما ذُكِّروا به ينْصرف إلى وفد نجران اليعقوبي لا يتعداه إلى المسيحية الرسمية التي لم يقم بينها وبين الإسلام تعارف أو لقاء أو حوار».

١ ـ لقد استعرضنا تحت عنوان «التشويش الأول» آيات سورة المائدة بدءاً من بدئها حتى الآية ٤٠ وبيّنا أن ما سمَّاه المؤلف فصلاً مستقلاً تخصص لليهود ليس كذلك.

ثم كان من مهمات الدعوة أن تُعلِن إلى الناس عامة وإلى أهل الكتاب منهم بوجه خاص، أن الرسول جاءهم بنور من الله وكتاب منير يهدي به الله من اتَّبع رضوانَه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

وهذا حكم عام لا يُخصص بأحد ولا يستثنى منه أحد ـ بمنطق القرآن ـ.

وفي الآيتين (١٧ ـ ١٨) عَوْدٌ بذهن القارىء إلى ناقضي الميثاق من النصارى ولكنهما لا تُطلِقان الأسماء بل تركزان على المعتقدات.

فكُل قائل بأن المسيح هو الله أَوْ أَنَّ الله هو ثالث ثلاثة يكون كافراً.

٢ ـ في هذه المجموعة (١٣ ـ ٣٥) مواضيع متعددة متنوعة تتجاوز اليهود.

ففي الآيات من ٢٧ ـ ٣١ أنباء عن ابني آدم.

وفي الآيات من ٣٢ ـ ٣٤ تحديد للسبب الذي استوجب وضع أول قانون جزائي للبشر، وتحديد الجزاء على من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

٣ ـ أما خاتمة المجموعة أو الفصل ـ كما سماها المؤلف ـ فهي لم تورد «بني اسرائيل» نصّاً ولا معنى.

وقد كنا في موضوع «التشويش الأول» طفنا على الآيات من ٣٥ ـ ٤٠ فتبين أنها خطاب عام تضمن مجموعة من القيم والأحكام والمواعظ والتشريعات يفيد منها المجتمع كافة بمختلف طوائفه.

٤ ـ إن الآيات ٨٢ ـ ٨٦ التي تحدثت عن موّدة الذين قالوا: «إنّا نصارى» نزلت في مناسبة محددة فهي لا تحوّل نصارى الأرض في كل زمان وكل مكان إلى أشد الناس مودة للنبي والذين آمنوا ولا تطلق الدموع من جميع المآقي التي يُقرَأ أمَامها القرآن مثلما فعل أصحاب النجاشي.

وقد ذكرنا في مناسبة حديثنا عن هذه الآيات أن المراد بها، هم النجاشي وصحبه كما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء والسُّدِّي «أن القرآن لم يُرِدْ جميع النصارى مع ظهور عداوتهم للمسلمين» تفسير الرازي.

بل ذهب آخرون ـ كما جاء في الرازي ـ أن كفر المؤلهة والمثلثة هو أغلظ من كفر اليهود لأنهم ينازعون في الإلّهيات في حين أن اليهود لا ينازعون إلا في النبوات.

٥ ـ والآية (١٤) آية إخبارية ابتدات بالحرف (من) الذي يفيد التبعيض ويفيد التجزيء فلا ينصرف الذهن إلى أن المقصود هم جميع النصارى بل البعض منهم هم الذين نسوا حظاً مما ذكروا به.

لأنه من المعلوم أن الإسلام استقبل الذين آمنوا من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ومشركي العرب. فهؤلاء جميعاً:

تخلوا عن هوياتهم الدينية وانتماءاتهم العقائدية بعد أن انتموا إلى الإسلام فما كان يقبل من أيٍّ منهم أن يكون مسلماً ثم يبقى محتفظاً بيهوديته أو نصرانيته أو مجوسيته أو وثنيته.

والوفد، سواء أكانوا جماعة النجاشي أم غيرهم، عندما قرئت عليهم الآيات من ٨٢ ـ ٨٦ لم يظلوا على نصرانيتهم بل آمنوا بالإسلام وهاجروا من انتمائهم الأول بدليل ما جاء على لسانهم في الآيتين (٨٣ و٨٤) **﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾** و **﴿ما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يُدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾** (٨٤).

فالأوصاف التي أطلقتها الآيات من ٨٥ ـ ٨٦ لا تنال من النصارى من ظل على الألوهة والتثليث والبنوة من الله بل هي من نصيب ذلك الصنف منهم الذي تحدثت عنه آيات القرآن في مناسبات عديدة:

﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله﴾ ٣/ ١٩٩ آل عمران.

﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين﴾(٢٨/ ٥٣ القصص).

لذلك حددت الآية ٥/ ٨٥ من المائدة نوع الجزاء الذي نالوه على هذا الإيمان بقولها: **﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾** وهذا الثواب لا يناله غير المحسنين الذين عرفوا الحق فاتبعوه وانقادوا له حيث كان وأين كان.

الآيتان ١٩ و٧٥: يلخص المؤلف آراءه في آيات التكفير بقوله:

ـ كان التكفير لبدعة اليعقوبية وليس للمسيحية.

ـ إن تكرار التكفير دليل على الإقحام في القرآن.

أما نحن فلنا أن نضع رأينا في مواجهة آرائه كما يلي:

١ ـ لقد سبق أن استعرضنا في بحث «التشويش الثالث» جملة المراحل التي مرت فيها المسيحية والهرطقات التي كان يفرزها العقل المسيحي بين الحين

والحين. فتتصدى لها المجامع المسكونية بالتصحيح حينا وبالطرد واللعن والملاحقة أحياناً. إلى أن استقرت استقراراً عقائدياً متفقا على أسسه وأركانه لدى كل من يتبع المسيح ويؤمن بالإنجيل.

وقد مرَّ معنا أن المذهب اليعقوبي هو مذهب الكنيسة القبطية الذي ابرزه مجمع أفسس الثاني. وأن يعقوب البرادعي تبناه وانتمى إليه، وكانت تسمية المذهب باسمه فيما بعد بسبب شخصيته الفذة وتأثيره الكبير وقوة حجته، حتى قيل إنه رسم ٨٩ أسقفا وآلافاً من الكهنة والقسس[١].

وهذا المذهب يتلخص في أن للمسيح طبيعة واحدة اجتمع فيها الّلاهوت بالناسوت.

ولكن مجمع خلقيدونيا انعقد للبحث في هذا المذهب وأصدر قراره المعروف في شهر اكتوبر من عام ٤٥١م[٢].

ومن مقابلة مقررات «أفسس الثاني» و«خلقيدونيا» يتبين أن الخلاف بينهما، لم يكن على «ألوهية المسيح» بل على «طبيعته». فالبرادعي وجماعته ينطبق عليهم ما ينطبق على جماعة خلقيدونيا الذين يمثلون العقيدة المسيحية ـ كما يقول المؤلف ـ لأنهم يؤمنون بالألوهية من خلال طبيعتين للمسيح فيما اليعاقبة يؤمنون بها من خلال طبيعة واحدة.

وبذلك يكون التكفير القرآني شاملاً للفريقين ـ لأنه استهدف العقيدة ـ دون حصر أو استثناء.

٢ ـ وكنا في بحث «التشويش الثاني» استعرضنا آيتي التكفير رقم ١٧ ـ ١٨ وبينا أوجه الربط القرآني بينهما وبين ماسبقهما وما تلاهما، مما يَنْفِي عنهما شبهة الاقتحام.

---

(١) تاريخ الأمة القبطية.

(٢) أوردنا نص القرار في بحث التشويش الثالث.

٣ ـ أما ورود التكفير «مكرراً» في الآيتين ٧٢ ـ ٧٣ فإن لنا فيه رأيا يخالف رأي المؤلف ويتلخص بالآتي:

بعد أن استقصى القرآن حديثه عن اليهود وأجمل آراءهم في الآية (٧١) **﴿وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصمّوا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصمّوا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾**.

افتتح مقالاً خاصّاً للحديث عن الكفر الذي وقع فيه أتباع المسيح وذلك بدءاً من الآية ٧٢ حتى ٧٧ ليبين أن الكفر لم يتجمَّد على اليهود بل زحف أيضاً حتى شمل النصَّارى الذين يؤلهون المسيح ويجعلونه مع الله شريكاً، لذلك يحضهم القرآن على التوبة والاستغفار (٧٤) ويوضح لهم أنه ليس إلاّ رسولاً قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام (٧٥) فكيف يمكن التوجه بالعبادة إلى البشر؟.

ثم يختتم المقال بنهي يُطلقه بصوت عال **﴿قل ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضَلُّوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾** (٧٧).

٤ ـ وإذا قلنا: إن القرآن استقصى الكلام مع اليهود في الآية (٧١) فذلك لأن السورة امتدت بعدها على مدى خمسين آية تحدثت في مواضع شتى لم يرد فيها أي ذكر لبني إسرائيل تلميحاً أو تصريحاً إلا في الآية (٧٨) التي ذكرت كيف لُعنوا على لسان داوود وعيسى، وفي الآية (٨٢) التي وردت فيها المقابلة بين موقفهم العدائي الشديد من الذين آمنوا وبين الموقف الودود الذي وقفته النَّصارى.

الآية ١٨: وليست الآية ١٩ ـ كما قال المؤلف ـ فيها يستنكر القرآن على اليهود والنصَّارى ادعاءهم خصوصيَّة محبة الله بهم وبنوته لهم دون غيرهم من سائر خلقه. **﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبكُم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾** (٥/١٨).

قال المؤلف: اليهود وحدهم هم الذين يتبجحون بهذا الإدِّعاء وليس

النصارى، لذلك كان إدخال «والنصارى» إقحاماً قُصِد منه تسويتهم باليهود خلافاً وتجاوزاً على حقيقة التنزيل القرآني.

ولكن الواقع التاريخي يتعارض مع قول المؤلف:

أ ـ فاليهود تبجحوا بأنهم أحباء الله وشعبه المختار، ولم يَصِفوا أنفسهم بأنهم أبناؤه.

ب ـ في حين أن النصارى هم الذين قالوا إنهم أبناء الله، لِما رَوَوْا عن المسيح أنه قال: «أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم». ولما يكررون في كل يوم نداءهم إلى الله بالصلاة: أبانا الذي في السماء.

ج ـ أما اعتماد المؤلف على الآية ٥/ ٨١ للتنويه بأن الذين لُعِنوا على لسان داوود وعيسى هم بنو إسرائيل وليس النصارى ولا المسيحين، فهو اعتماد خاطىء.

ـ لأن الذين لعنوا على لسان داوود لم يكونوا كل اليهود بل الذين كفروا منهم وهم أصحاب السبت «أهل قرية أَيَلَة التي كانت حاضرة بحر القلزم» وقد ذكرتهم الآيات ٧/ ١٦٣ و١٦٤ و١٦٥ و١٦٦ من سورة الأعراف وتحدثت عن العقاب الذي وقع عليهم **﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾** (٧/ ١٦٦) وذلك استجابة لدعاء داوود: **﴿اللهم العنهم واجعلهم آية﴾** فمسخوا قردة وخنازير (ابن كثير ـ والرازي).

ـ ولأن الذين لعنوا على لسان عيسى هم «أيضاً» الذين كفروا به من بني إسرائيل حيث تحدوا ربّه إن كان يستطيع أن ينزِّل لهم مائدة من السماء تكون عيداً لأوَّلهم وآخرهم فـ **﴿قال عيسى ابن مريم ٱللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون عيداً لأوّلنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾**(٥/ ١١٤). **﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بَعْدُ منكم فإني أعذِّبُهُ عَذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين﴾**(٥/ ١١٥).

وقد قال أكثر المفسرين: «إن رسالة عيسى بدأت خطواتها الأولى بين اليهود من بني إسرائيل. وإن عيسى نفسه قال: جئت من أجل خراف بني إسرائيل الضَّالة. فهؤلاء تحدوه بالمائدة. فلما نزلت وأكلوا منها ظل قسم منهم على الكفر فقال

عيسى اللهم العنهم كما لعنت أصْحاب السبت. (الرازي).

الآية ٥٤: نود الإشادة إلى خَطأٍ يتكرر باستمرار عند المؤلف، فهو دوماً يضع للآيات أرقاماً مختلفة عن أرقامها الحقيقية إذ يبتعد عن الرقم الحقيقي إما إلى الأمام وإما إلى الوراء لذلك وجب تنبيه قارئه إلى ضرورة التحقق بوساطة القرآن مباشرة.

هنا يقول: «والإقحام الأكبر بل الدس الأكبر على القرآن هو في آية الموالاة. **﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصَّارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾**(٥٤).

غير أن هذا النص هو نص الآية ٥١ ـ من سورة المائدة وليس الآية ٥٤ منها.

لذلك سوف نركز مناقشتنا لأقوال المؤلف انطلاقاً من الآية ٥١ ـ التي شكلت الإقحام الأكبر بل الدس الأكبر وكانت سبب البلاء التاريخي والإجرام الكبير في حق القرآن والمسيحيين مما شوَّه صحة موقف القرآن من النصارى وخلق التناقض في أحكامه. (المؤلف ص ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٤).

غير أننا لا بد من تسجيل تحفظنا على عواطف المْؤلف، وحرصه الشديد على القرآن الذي دوَّن فيه ـ كما قال المؤلف ما ليس منه ـ بعد أن ثبت لنا من خلال الصحائف التي رافقناها في الكتاب أنه لم يتوخَّ الخبر الصادق ولا التفسير الصحيح ولا المناسبة الحقيقية ولا المعاني اللغوية بل كانت همومه تنتقل به من موقع إلى موقع ليتهجم منه على شخصيات تاريخية وقيم وثوابت أخلاقية وعقائدية ترسخت في وجدان أتباع القرآن وكان جُلُّ غاياته يتركز على جدران العقيدة الإسلامية لإحداث الخلخلة والشروُخ والشكوك فيها وفي كتابها.

هذا التحفظ، اضطرتني إليه تلك الدموع التي تترقرق على صفحات كتاب المؤلف أَسَفاً وَحُزْناً على القرآن.

بعد ذلك أعود لأضع العلامات التصحيحية على تفسير المؤلف للآية ٥١ ـ من سورة المائدة.

فهو بعد أن حمَّلها وزرَ البلاءِ التاريخي والدسِّ الإجرامي عاد فبرَّأ القرآن ممَّا جاء فيها بحق النَّصارى وقادتها مع غيرها ثم قام بالتحليل والتركيب حتى أنتهى إلى

أنها موضوعة مقحمة على القرآن، فهو يقول:

ـ بعضهم أولياء بعض: أي إن اليهود أولياء النصارى والنصارى أولياء اليهود.

وهذا ـ في رأيه ـ غير معقول.

ـ والنصارى هم الأحق بالموالاة مع المسلمين كما ذكر القرآن في الآية (٨٢).

ـ والموالاة محظورة على سبيل الحصر مع الجهات التي عددتها الآية (٥٧) وهي: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾**٥/٥٧).

فالذين استهزأوا بالدين واتخذوه هُزُواً ولعِباً هم اليهود فقط وهم الكفار الذين عنتهم الآية.

ـ والفصْل الممتد من الآية ٥٤ ـ ٨٩ كله تحذير من اليهود وحملة على من يوالونهم ولا يوجد فيه ما يخرج عن موضوعه غير آيات الجدال مع وفد نجران من ٧٥ ـ ٨٠.

تلك هي الأدلة التي ساقها المؤلف على الإقحام في الآية. ولنا عليها التصويبات التالية:

١ ـ «أولياء» هي جمع مفردُهُ «ولي» ولها في الشرع معنى وفي اللغة معان.

ـ فالولاية في الشرع حق الاشراف والرعاية من الأب ثم من يليه في «العصب» على نفس القاصر وماله.

ـ وفي اللغة تعني «المناصرة والمحاباة» ومنه الحديث الشريف « من تولأني فليتول عليا»[١] وقوله (ص) جواباً على أسامة عندما قال لعلي لست مولاي إنما مولاي رسول الله فقال النبي (ص) «من كنت مولاه فعلي مولاه»[٢]. وفي تفسير الآية: **﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم أن**

---

(١) لسان العرب.

(٢) لسان العرب.

تولوهم﴾ (٦٠/ ٩: الممتحنة) أي تنصروهم.

والولاء يأتي بمعنى النسب ومنه الحديث «الولاء للكُبْر أي للأعلى فالأعلى»[1].

فالتولي في الآية يعني الاتباع وقبول الأوامر والإرشادات.

والمسلم الذي اتبع الإسلام ديناً، صار ولاؤه للإسلام لأنه صار من المسلمين، له مالهم وعليه ما عليهم فلا يجوز أن ينقل ولاءه إلى اليهود أو النصارى لأنه بذلك يكون قد ربط نفسه بهم وأصبح منهم.

أما احتجاج المؤلف بأن الآية نفسها تنفي «منطقياً» أن تكون كلمة «النصارى» من أهل النص فهو احتجاج مغلوط، لأنه قام على فهم «خاطىء» لكلمات الآية، حيث توافر في ذهنه أن قصد الآية هو «تولي اليهود للنصارى وتولي النصارى لليهود» وهذا الفهم لا تستسيغه ألفاظ الآية لأن المقصود هو: «إن النصارى بعضهم أولياء بعض واليهود بعضهم أولياء بعض» وذلك بسبب الوحدة القائمة في العقيدة والرأي.

٢ ـ أماالآية ٥/ ٨٢ فهي آية المودة وليست آية الموالاة.

والفروق بين المفهومين أكثر من أن يغفلها المؤلف، وأوصاف أهلها ليست بالضرورة قائمة لدى كل نصراني في كل الأمكنة والأزمنة، لأنها نزلت بصدد حادثة خاصة. ووصفت مجموعة معينة، مررنا سابقاً على ذكرها، فهي لا تؤخذ قاعدة أبدية يتسم بها نصارى الأرض قاطبة.

٣ ـ والموالاة جاءت تصريحاً وتلميحاً متتابعة من الآية ٥١ ـ ٥٩ مما ينبغي معه استخراج معانيها وشروطها المتكاملة من الآيات جميعها:

ـ ففي الآية ٥١: نهي مطلق عن موالاة اليهود والنصّارى مادامو يهوداً أو نصارى.

---

(١) لسان العرب.

ـ وفي الآية ٥٢: يصف القرآن من يوالون هؤلاء خشية أن تصيبهم دائرة بأنهم ذوو قلوب مريضة.

ـ وفي الآيتين ٥٥ ـ ٥٦: تأكيد على أن الولاية لله ولرسوله وللذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

ـ وفي الآيتين ٥٧ ـ ٥٨: يحدد مواقيت استهزائهم بالمسلمين ﴿**وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هُزُواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون**﴾(٥/٥٨).

ـ وفي الآية ٥٩ ـ تساؤل عن أسباب نقمة أهل الكتاب على المسلمين وهو تساؤل استنكاري ينطوي على التأنيب لأن نقمتهم لا تقوم على سبب إلا أن المسلمين آمنوا بالله وما أُنزل إليهم وما أُنزل من قبل.

وهو تساؤل يستنكر هذا الموقف المعادي لأنه لا يعتمد على سبب معقول وقد كان القرآن خلص من التحليل إلى أنَّ الحسد هو هذا العداء، ولا سبب سواه فقال في الآية ٢/١٠٩ البقرة: ﴿**ودَّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراًحسداً من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير**﴾.

﴿**وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾(٢/ ١٣٥: البقرة).

لذلك لا يجوز تفسير آية الموالاة على أنها مَحْظُورة مع اليهود فقط، لأن تعبير «أهل الكتاب» في الآية هو لبيان الجنس كقوله ﴿**فاجتنبوا الرجس من الأوثان**﴾ وقوله: ﴿**الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزَّة فإن العزة لله جميعاً**﴾(٤/ ١٣٩: النساء). و﴿**يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا**﴾(٤/ ١٤٤: النساء).

ففي هذه الآيات جميعها: صراحة مطلقة في التحذير من الموالاة لغير الله ورسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة والصلاة والزكاة هما الركنان اللذان وضعتهما شريعة الإسلام.

وبذلك يخرج من هذا التَّعريف، اليهودي والنصراني، اللذان ظلاَّ على طقوسهما ولم يتَّبعا الإسلام.

٤ ـ أما قول المؤلف بأن الآيات من ٥٤ ـ ٨٩ تشكل فصلاً كاملاً مخصصاً للحملة على اليهُود ومن يوالونهم فلا يخرج عن هذا الموضوع غير آيات الجدال مع وفد نجران وهي الآيات من ٧٥ ـ ٨٠.

هو قول غير ملائم مع واقع الآيات:

ـ ففي الآية ٦٥: أنبَّ القرآن أهل الكتاب لأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل.

ـ وفي الآية ٦٧: نداء إلى الرسول كي يبلغ ما أنزل إليه والله يعصمه من الناس.

ـ والآية ٦٨: تأكيد على أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل.

ـ والآية ٦٩: طمأنة لِلَّذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر وعملوا الاعمال الصالحة، بأنه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

ـ وفي الآيات ٧٢ ـ ٧٧: تكفير لمن ألَّه المسيح وغالى في دينه غير الحق.

ـ وفي الآيات ٨٢ ـ ٨٦: مقارنة بين عداوة اليهود ومودة الذين آمنوا من النصارى.

ـ وفي الآيتين ٨٧ ـ ٨٨: دعوة إلى عدم تحريم الطيبات التي أحلَّها الله.

هنا لا بد من ذكر سبب المناسبة: وهو أن بعض المسلمين ممن بلغ إيمانهم درجاته القصوى، ظنوا أنهم بالترهب أو بإخصاء أنفسهم يستطيعون التفرغ إلى العبادة والتخلص من مغريات الدنيا وموبقاتها فنهاهم الرسول (ص) ونزلت هذه الآية لتذكيرهم بأن ما حلله الله لا يحرمه الإنسان.

* * *

تلك آيات الفصل، نود من القارىء أن يستعيد قراءتها في القرآن مباشرة ليتبين

مقدار الشطط والغلط في أحكام المؤلف ومقولاته.

إذ سوف يجد أنها لم تخصص للحديث عن اليهود بكاملها بل حتى القليل منها الذي تحدث عن الموالاة لم يتفرد باليهود بل أطلق أحكاماً عامة شملت أهل الكتاب جميعاً.

الفصل الثالث

المسيحية ضحية تعبير «أهل الكتاب» في القرآن

توطئة: «أهل الكتاب» تعبير يعني اليهود والنصارى والمسيحيين.

بحث أوّل: «أهل الكتاب» في القرآن المكّي.

بحث ثان: «أهل الكتاب» في القرآن المدني.

خاتمة: تعبير «أهل الكتاب» لا يقصد المسيحية الرسمية مطلقاً.

* * *

توطئة:

وضع المؤلف في التوطئة عنواناً يلخص خطته ورأيه في الفصل كله.

وهذا العنوان هو: «أهل الكتاب تعبير يعني اليهود والنصّارى والمسيحيين».

وقال: «والمعروف: أن التعبير القرآني «أهل الكتاب» يشمل اليهود والنصارى ولكننا سوف نرى في استقراء الآيات التي ورد فيها هذا التعبير أنه لم يقصد المسيحية الرسمية على الإطلاق، ولذلك تكون النتيجة الحاسمة لهذا الواقع القرآني أن المسيحية تذهب ضحية تعبير «أهل الكتاب» في القرآن وفي تكفيراته لأهل الكتاب ص ٥٧ من المؤلف.

أما نحن: فلن نضع النتيجة قبل المقدمة مثلما فعل المؤلف. بل سوف نتعقب مقولاته حتى آخر هذا الفصل وبعدها نقول كلمتنا بإطمئنان.

البحث الأول

«أهل الكتاب» في القرآن المكي

قال المؤلف: «ورد تعبير أهل الكتاب ومترادفاته عشرين مرة في عشر سور مكية. وها نحن نستقرئها لنعرف معناها».... ثم قام باستقرائها وتحليل كلماتها ووضع بعد ذلك نتائج ما قام به.

لذلك سوف نتتبع استقراءاته ونستعيد تحليلاته لبيان أوجه الخطأ والتضليل فيها.

١ ـ قال: توجد في سورة المدثر آية مدنية تفسر آية مكية هي: ﴿**وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون**﴾(٧٤/ ٣١).

ثم أوضح مفهومه من هذه الآية بالآتي:

«هنا يظهر أهل الكتاب والمسلمون في موقف واحد من التصديق بالقرآن وسنرى أنه موقف يعني النصّارى» ص ٥٨.

فتفسير الآية عند المؤلف هو توحيد الموقف من القرآن بين النصارى والمسلمين، كلاهما مصدِّقٌ فيه مؤمن به، فأهل الكتاب هنا ـ باجتماعهم مع المسلمين على القرآن ـ هم النصّارى حصراً.

أما نحن: فإن لنا قولاً على أقواله نلخصه بالآتي:

ـ إن سورة المدثر هي سورة مكية وآياتها دون استثناء نزلت في الزمن المكي، فكيف يقال في هذه السورة آية مدنية تفسر آية مكية؟ وأين الآية المدنية؟ مادام المؤلف لم يشر إلا إلى الآية (٣١)؟ من السورة؟ وهل هي المكية والمدنية في آن واحد؟.

لسنا على انتظار الجواب منه.

ـ المؤلف انفرد من بين المفسرين والقرّاء بمقولته تلك. فلم يفهم أحد ممن

قرأ هذه الآية أو كتب فيها، أنها أوجدت توافقاً وتصادقاً في موقف المسلمين وأهل الكتاب من القرآن.

لقد نزلت الآية تعقيباً على عدد الزبانية التسعة عشر في الآية (٣٠) فقالت: إن الله جعلهم ملائكة دحضاً ورداً لأبي جهل وشركائه من المشركين عندما استهزأوا من هذا العدد الذي لا يمكن أن تكون لديه استطاعة قيادة جهنم وتعذيب جميع أبنائها، وخاصة ما روي عن «أبي الأشد بن أسيدة بن كلدة الجمحي» الذي كان شديد البأس عندما قال: اكفوني منهم اثنين وأنا بالباقي. فأعلنت الآية أن هؤلاء ليسوا بشراً بل ملائكة، وقوتهم لا تقاس بها قوة البشر وقدرتهم. وعندئذٍ قال المسلمون: «ويحكم لا تقاس الملائكة بالحدادين، إشارة إلى أن أبا الأشد كان حداداً فذهب هذا القول مثلا بين الناس.

أما استيقان أهل الكتاب ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾: فلأن هذا العدد موجود في كتبهم، فإذا سمعوه من القرآن تيقنوا. وقيل: كذلك أتباع النبي المؤمنون عندما يسمعون منه هذا العدد دون تعليم أو مرجع آخر يؤمنون بأنه وحي من الله فيزدادون يقينا وإيماناً أما أهل الكتاب الذين يرجعون إلى حقيقة كتبهم فإن ارتيابهم بصحة الرسالة وصدقها يزول. (تفسير الرازي. وابن كثير ـ لهذه الآية).

هنا يدخل تعبير: «أهل الكتاب» في التعميم، ليشمل اليهود والنصارى، ويبتعد عن التخصيص بالنصارى، الذي دفعه المؤلف إليه.

٢ ـ وفي الأنعام دل المؤلف على آيات، ثم دلَّل بها كما يريد لها أن تكون لا كما هي كائنة بالفعل. وهي الآيات (٢٠، ٩٠، ١١٤، ١٥٦، ١٥٧).

لقد فسَّرها وأوَّلها ووظفها لمصلحة أغراضه ولم يجد من حاجة إلى الاستعانة بأي مرجع تفسيري أو لغوي أو تاريخي. بل اعتمد على ما في صدره من ذخائر اللُّغة والعلوم. مع ما في ذلك من اعتداد يرفُضُه منطق التأليف.

أ ـ **﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعْرِفُون أبناءهم الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾** (٦/ ٢٠).

قال المؤلف: «الضمير في «آتيناهم» و«يعرفونه» و«أبناءهم» يعود عودا واحداً

على أهل الكتاب. فهذه المعرفة العميقة للكتاب يتفق عليها ويشترك بها المسلمون والنصارى، وهي دليل الوحدة المصدرية للمعرفة بينهما».

ولو أن المؤلف تتبَّع أسباب النزول، وقرأ الآية مع ما قبلها، لوقع على معناها الحقيقي. فقد نزل الأمر إلى النبي في الآية ٦/١٩ أن يقول **﴿قل أي شيء أكبر شهادة قُلِ الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بَلَغَ، أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إلّه واحد وإنني بريء مما تشركون﴾**.

وذلك عندما جاء رؤساء مكة إلى النبي وقالوا له يا محمد ما وجد الله غيرك رسولاً وما نرى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنَّصارى فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم، فأرنا من يشهد لك بالنبوة. فأنزل الله هذه الآية قائلاً له قل: **﴿أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد...﴾**.

ثم نزلت الآية (٢٠) استطراداً وتأكيداً عندما سُئِل بعضُ علماء اليهود والنصارى فأجابوا أنهم يعرفونه ويعرفون نُبُوَّته كما يعرفون أبناءهم.

وقد صحَّ في كتب التفسير والسيرة أن عمر (ر) سأل عبد الله بن سلام اليهودي الذي أسلم قائلاً: «أنزل الله هذه الآية على نبيه، فكيف هذه المعرفة؟» فقال: «يا عمر، لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني، ولأَنَا أشدُّ معرفةً بمحمد مني بابني لأني لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنه حق من الله». (اقتباس عن تفسير الرازي).

ب ـ **﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة﴾** (٨٩) **﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**(٦/ ٩٠). فعلى النبي أن يقتدي بهدى أهل الكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل (ص ـ ٥٨ المؤلف).

هذان السطران بحرفيتهما أثبتناهما من قول المؤلف لكي نحاسبه عليهما.

ـ فلقد جمع «ضَغثا» من الآية (٨٩) وهو القسم الأول إلى «ضَغث» من الآية

(٩٠) وقدمهما إلى القراء على أنهما يشكلان الآية ٩٠ من الأنعام[١] فأضاع بذلك معنى الآيتين.

وفي الحقيقة لا يستطيع قارىء القرآن أن يعرف عائدية الضمير في «آتيناهم» و«بهداهم اقتده» ما لم يرجع بالقراءة إلى الآيات السابقة بدْءاً من ٧٥ التي تشكل سرداً متواصلاً متكاملاً لموضوع واحد هو الآتي:

ـ لقد تحدث القرآن عما جرى لإبراهيم مع قومه وكيف توجَّه بالفطرة والإلهام الإلّهي إلى من فطر السماوات والأرض حنيفا. (الآيات من ٧٥ ـ ٨٢).

ثم لخصَّت الآية (٨٣) نتيجة ما جرى بقولها: ﴿**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾.

ـ وبعدها من الآية ٨٤ وحتى ٨٨ سردت الآيات نِعمَ الله على إبراهيم إذ وهبه اسحق ويعقوب الذين رزقهما الله بالهداية. ونوحاً من قبلهم، منحه الله هدايته وأنعم عليه بذرية من الأنبياء وهم داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع.ويونس ولوط. حيث تنتهي الآية ٨٦ من تعدادهم وتقول ﴿**وكلاً فضَّلنا على العالمين**﴾ هؤلاء الذين اجتباهم الله وهداهم إلى صراطٍ مستقيم (٨٧).

بعد تعداد الأنبياء، والتأكيد على تفضيلهم على العالمين. أجملت الآية (٨٩) ماهية تفضيلهم وعلاماته بقولها: ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكْفُرْ بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين**﴾(٨٩).

ـ فأولئك إشارة إلى من سبق ذكرهم من الأنبياء.

ـ والكتاب يعني الكتب المنزلة، وقد يكون مقصودها «أن الله أعطاهم العلم الكثير».

ـ والحكم أي النفوذ والسلطان على النَّاس وتوجيههم.

---

(١) الضَّغث: هو التباس الشيء بعضه ببعض والضغث من الأمر ما كان مختلطاً. وضَغَثَ الحديث إذا خلطه: وسميت «أضغاث أحلام» لأنها مختلطة فدخل بعضُها في بعض.

ـ والنبوة، وهي الدرجة الرفيعة الثالثة التي يتفرع عنها حصول المرتبتين والعطيتين السابقتين.

ثم ختم هذه الآيات المتتالية المتكاملة المعاني بالآية (٩٠) التي جاءت بالأمر الإلّهي إلى الرسول كي يقتدي بأولئك الأنبياء ويهتدي بهديهم: **﴿أُولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾**(٦/ ٩٠).

بعد هذا ألا نستطيع التساؤل: كيف قرأ المؤلف الآية (٩٠) على هذه الصورة؟ أليس من المثير أن يستغفلنا جميعاً فيُسبِغُ معاني القرآن وأحكامه على من يشاء من عباد الله؟ وكيف أباح لنفسه أن يصادر الهداية من الأنبياء ليخلعها على النصارى؟ ثم كيف أحال المقصود من «الكتاب والحكمة في الآية ٨٩» إلى التوراة والإنجيل وهما أي هذان الكتابان متأخران جداً عن زمن الأنبياء الذين عددتهم الآية. و«الكتاب والحكمة فيها» من عطايا الله لأنبيائه الوارد ذكرهم؟.

تساءلنا هذه التساؤلات ثم عدنا إلى طبيعة المؤلف وغاية التأليف هذا فلم نجد جواباً غير أنَّ الغاية لديه تبرر له من الوسائط مالا يبرره العلم والحقيقة.

ج ـ **﴿وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾** (٦/ ١١٤).

لقد عرض المؤلف هذه الآية وعرض أوجه الاستدلال بها كالآتي:

«فأهل الكتاب الذين يشهدون للقرآن هم النصارى وحدهم. ويختم بقوله ـ أي القرآن ـ **﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا، لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾**(١٥٦ ـ ١٥٧: الأنعام)».

فهاتان الطائفتان هما اليهود والنصارى من بني إسرائيل.

فلا يذكر القرآن المسيحيين بمكة على الإطلاق **﴿إنّ هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾** (٢٧/ ٧٦: النمل).

«وما اختلف بنو إسرائيل إلى يهود ونصارى إلا في المسيح. والقرآن ينتصر

للنصارى من بني اسرائيل على اليهود بالدعوة لله والمسيح ـ (٦١/ ١٤) الانعام)».

تلك كانت أقوال الاستاذ الحداد بحرفيتها.

وهذه ملاحظاتنا عليها:

ـ وكعادته دوماً، اقتطع المؤلف ما يريده من الآية، وأهمل مالا يفيده.

فالآية **﴿أفغير الله أبتغي حكماً وهوَ الذّي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزّل من ربك بالحقّ فلا تكونن من الممترين﴾** (٦/ ١١٤ الأنعام) فقد حذف من أولها ومن آخرها ما لا يمكن فهم الآية من دونهما.

فالآية هي جزءٌ من سرد قرآني لمعاناة النبي مع الكفار والمعارضين الذين أقسموا أنهم سوف يؤمنون إن ظهرت لهم آية من النبي، ولكنَّ القرآن يُعلن عدم الثقة بايمانهم فتقول الآية ٦/ ١١١. **﴿ولو أننا نزَّلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾**.

ثم جاءت الآية ٦/ ١١٤ بصيغة الاستفهام الاستنكاري لتؤكد على أن النبي لا يبتغي حكما بينه وبينهم إلا الله، فهو الذي أنزل الكتاب (القرآن) على نبيه مفصلاً مشتملاً على العلوم والعقائد والشرائع. والذين أوتوا الكتاب من قبله (التوراة والإنجيل). يعلمون مما في كتبهم أنَّه القرآن منزل بالله والحق.

وقد أوردت الآية تعبير «الحكم» بدلاً من «الحاكم» للتفريق والدلالة على أن الحكم أكمل من الحاكم لأنه لا يحكم إلا بالحق لذلك تلتمس من عنده الشهادة وعنه يصدر القرار.

فأين هذه المضامين التي اكتشفها المفسرون في الآية ١١٤ من قول المؤلف «إنها تعني النَّصارى وحدهم الذين يشهدون للقرآن».

ـ أما الآيتان (٦/ ١٥٦ ـ ١٥٧) فما ندري سبب استدلال المؤلف بهما، وهما تعالجان موضوعاً مختلفاً لقد خوطب بهما أهل مكة كيلا يقولوا: «أنزل الكتاب من

قبلنا على طائفتين[1] وقد غفلنا عن دراسته لاختلاف لغتنا. فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن بلغتهم».

ـ كما ربط المؤلف ربطاً غير محكم ولا حكيم بين الآيتين ٢٧/ ٧٦ النمل و ٦١/ ١٤ الصف. بقوله:

«فلا يذكر القرآن المكي «المسيحيين» على الإطلاق لأن ﴿**هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون**﴾ ٢٧/ ٧٦. وما اختلف بنو اسرائيل إلى يهود ونصارى إلاَّ في المسيح. والقرآن ينتصر للنصّارى من بني إسرائيل على اليهود بالدعوة لله والمسيح. ٦١/ ١٤».

فالمؤلف يقرأ كما يشاء ويفسر كما يشاء ويتجاوز باستهانة واستهتار كل من كتب في القرآن والتفسير، لذلك تخرج أحكامه غير محكمة ونتائجه غير منتجة.

وهو لو عاد إلى سورة النمل وإلى سورة الصف، عوداً علمياً نزيهاً لما فاتته حقائق تنزيل آياتهما، وَلَمّا كان تورَّطَ في هذه النتائج الخاطئة.

ففي سورة النمل:

ـ ابتدأت بآيات ست، أعلنت إلى النبي أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم.

ـ ثم تلتها آيات القصص والأخبار مبتدئة «بإذ» على أنها منصوبة بمضمر محذوف تقديره «اذكر» ﴿**إذ قال موسى لإهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون**﴾الآية: ٧.

ـ ولا تنتهي قصة موسى مع قومه ومع الوحي الذي كلمه حتى تبدأ قصة سليمان وملكه وكيف حشر الله له جنوده من الجن والإنس والطير، الآية ١٧، وقصة الهدهد وبلقيس ملكة اليمن ثم قصة صالح مع ثمود، الآية ٤٥، التي تستمر حتى الآية ٥٣، لتأتي قصة لوط التي تنتهي في الآية ٥٨.

ـ ثم تتفرغ الآيات من ٥٩ ـ ٦٦ وحتى ٧٥ للحديث عن ملكوت الله وملكه

---

(١) المراد بالكتاب من قبل: التوراة والإنجيل والمراد بالطائفتين: اليهود والنصارى.

وبدء الخلق ومعاده وتصريف شؤون المخلوقات. وعلم الله الذي أحاط بكل شيء. بعد ذلك تأتي الآية (٧٦) لتقول: **﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾**.

أي: كان بنو اسرائيل يختلفون في رواياتهم عن الأنبياء، لعدم وجود مرجع يقيني ثابت موحد فجاء القرآن بالسرد الحقيقي والتاريخ الصحيح لهم، مزيلاً كل لبس وايهام.

وتأتي بعدها الآية (٧٧) لتقول عن القرآن **﴿وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين﴾**.

تلك هي الأبعاد الحقيقية للآية (٧٦) من سورة النمل. ما كان يمكن إدراكها دون مقارنتها وقراءتها مع الآيات التي ترتبط بها.

ـ أما الآية ٦١/١٤: الصف. فليس بينها وبين الآية (٧٦) ارتباط، إن في الموضوع أم في المناسبة:

ـ لأن الآية (٧٦) جاءت خاتمة لقصص وحوادث وقعت قبل ظهور النصرانية.

ـ ولأن الآية (١٤) الصف تحدثت عن الحواريين الذين أعلنوا مناصرتهم للمسيح عندما قال للحواريين **﴿من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوِّهم فأصبحوا ظاهرين﴾**.

ـ وتأييد المؤمنين وإظهارهم على الكافرين، لم يتم على أيدي الحواريين وفي زمنهم بل في زمن تأخر أكثر من ثلاثة قرون وبالتحديد لم يكن الإظهار قائماً بمعناه الكامل إلا بعد أن أعلن الإمبراطور حمايته لهم وأوضح موقفه الحازم في مجمع نيقية بعام ٣٢٥ م.

ـ على أن ذلك كله تم قبل بعث الإسلام مما ينفي ما ذهب إليه المؤلف في قوله بأن الإسلام هو الإظهار النصراني على بني اسرائيل.

د ـ وقبل الانتهاء من هذه الفقرة نودُّ التنبيه إلى أن المؤلف استغْفَلَ قُرَّاءَهُ عندما قال إن الآيتين ٢٠ و ١١٤ من سورة الأنعام هما آيتان مكيتان مع أنهما مدنيتان

بالإضافة إلى غيرهما مثل الآيات: ٢٠، ٢٣، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣) الجلالين ـ وابن كثير.

* * *

٣ ـ وفي سورة الأعراف اكتشف الأستاذ الحدَّاد أن القرآن خاطب اليهود والمشركين بالتعبير الإنجيلي الشهير عن الغني والفقير فقال في الآية ٧/ ٣٩[1] ﴿**إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِيَاط وكذلك نجزي المجرمين**﴾ ثم أردف قائلاً:

إن تخصيص اليهود والمشركين بهذا الخطاب، الذي هو إنجيلي في الأصل، دليل على أن الإنجيل هو مصدر القرآن ودليل على أن أهل القرآن هم النصارى وهم خارج عقاب المنع من دخول الجنة لأنهم ليسوا من الكافرين بآيات الله ولا المستكبرين عليها، ويؤيد هذا الاستثناء الآيتان: ٧/ ١٥٨ و ٧/ ١٦٨.

فالأولى نصت على أن النصارى هم الذين ورثوا الكتاب وأقاموا أحكامه، وأن الذين بدلوه وخالفوه هم اليهود.

والثانية نصت على أن النصارى هم الأمة التي تهدي بالحق وبه تعدل.

أما نقاشنا لأقوال المؤلف فيتلخص في الفقرات الآتية:

أ ـ اعتمد القرآن في عملية «الإيصال» على أساليب متعددة منها: «سرد القصص» و«الأمثال» وذلك لتمكين قواعد التهذيب في النفوس وتركيز القناعات الأخلاقية في الضمائر.

وقد اتخذ من اللغة العربية وعاءً للمعلومات وأداةً لإيصالها. كما استعاد الكثير من المشاهد والمواضيع والقصص والأمثال والمفردات المتداولة بين النَّاس منها مالَهُ أصل في زوايا الكتب السابقة الباقية، ومنها ما هو مبثوث في الثقافة العامة للمجتمع. والمتتبع المختص بالتاريخ والألسُنِيَّات يستطيع اكتشاف العديد من المفردات الآرامية والسريانية والفارسية وغيرها في القرآن.

---

(١) الآية: هي ٧/ ٤٠.

هذه الظاهرة التي تلازم كل أثر ديني أو ثقافي، هي التعبير العملي عن الأصالة في تواريخ الشعوب حيث تجد في النصوص المتأخرة التفاتاً إلى الوراء على الدوام. ولكن هذا لا يحط من قيمة الجديد ولا يَصِمُهُ بالمحاكاة والتقليد.

ولقد حاول المستشرقون ـ ومازالوا ـ أن يفسروا هذه الظاهرة في القرآن، فأبرزوا وجوه الاستعارات ذات الأصول التوراتية أو الانجيلية مشفوعة بشروح تخفف من قوة الإبداع القرآني وتبجِّلُ التوراة والإنجيل بصفتهما النبع الذي تتحدَّر منه الجداول إلى القرآن.

ولكن هذه الطريقة هجرت بعد أن اعتمد العلماء طريقة الأصالة التراثية التي أثبتت أنه ما من نص إلا سبقته نصوص وأن الأجيال اللاحقة تنمو على جذور الأجيال السابقة في الأفكار والمعتقدات ولا تكون إلا بمعيار الفروق بين جذور الأشجار وسوقها وفروعها.

إذا قرأنا القرآن تحت ضوء هذا المنظور العلمي نجد فيه ظاهرة إرث واستيلاء على الخطاب الإجتماعي الذي كان سائداً في عصره، والذي يعود في أصوله إلى أبنية فكرية وعقائدية تداعت وآلت إلى التفتت، فأقام من تلك الأنقاض وفي مكانها بناءً جديداً يلبي حاجات المجتمع في العقيدة والسياسة والفكر والتشريع دون أن يهمل الملامح القديمة التي كانت قد حفرت لها أخاديد في ذاكرة الشعوب لذلك يرى قارىء القرآن عناصر ومتفرقات شتى من الكتب المقدسة وحكايات الشعوب والأمثال المأثورة البيئية، عُصرت جميعها وصُهرت حتى خرجت شيئاً آخر استطاع أن يكون إبداعاً خَاصّاً سما عن التقليد والمحاكاة.

وهذه السمة الذاتية أو هذه الخصوصية في القرآن هي التي رافقته مع الخلود، فتربع على كرسي الدهر، ولو كان اقتباساً أو تقليداً كما يريد المؤلف، لفقد أهميته، وخبا ضياؤه، وانزوى في كهوف المكتبات، وفي زوايا المساجد والتَّكايا، وبَطَلَ أن يكون رفيق النَّاس وجليسهم وأنيسهم في كل مكان وفي أي زمان.

ب ـ بعد هذه الإشارة العابرة، وعلى ضوئها صار تفسير الالتقاء بين بعض الكلمات في آيتين من القرآن والإنجيل سهلاً واضح القاعدة.

فالآية الإنجيلية: ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله (٢٤) فتحيّر التلاميذ من كلام يسوع فقال: يا بني ما أعسر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله (٢٥) مرور جمل من ثقب أبرة أيسر أن يدخل غني في ملكوت الله ـ مرقس الإصحاح ١٠ ـ.

والآية القرآنية: ﴿**إن الذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخِيَاط وكذلك نجزي المجرمين**﴾ (٧/ ٤٠: الأعراف).

وإذ يقوم بين الآيتين وجه واحد للتشابه، فإن أوجها عديدة من الخلاف تقوم أيضاً.

أما وجه التشابه الوحيد فهو في الصورة المجازية التي شبَّهتا بها «استحالة دخول أصحاب الأموال إلى الجنة باستحالة دخول الجمل في سم الخياط» (ثقب الإبرة) وهي صورة عبَّرت عن الاستحالة المطلقة. ولكن أوجه الخلاف المتعددة يمكن الدلالة على بعضها كالآتي:

ـ في عصر السيد المسيح كانت مفاسد المجتمع وشروره ومخازيه مصدرها الثراء الفاحش الذي كان يتمتع به الأمراء وقادة الجيوش، لذلك ركزت المسيحية على المال والثروة فحضت على نبذهما، وتنمية المناقبية الإنسانية وإحلالها في أسمى مواقع النفس. ومن يقرأ الإنجيل يلمس كيف كان المسيح يدعو قائلاً: «دعوا ما لقيصر لقيصر» و«مجاناً أخذتم مجانا اعطوا» «لا تقتنوا فضة ولا ذهباً» ويقول لمن سأله ماذا يفعل لكي يصير من أتباعه: «بع كل ما لديك ووزعه وتعال اتبعني» لذلك جاءت الآيات ٢٤ ـ ٢٥ من إنجيل مرقس معبرة تعبيراً حاسماً عن موقفه من الغنى والأغنياء وقاطعاً كل التقاء بينه وبينهم إن في هذه الدنيا أم في ملكوت الله.

أما في عهد النبي فلم يكن الثراء قد انحط بالذات الإنسانية إلى هذا الدرك. وكان الفقراء في حاجة إلى أموال الأغنياء، فكان الغني مقبولاً بين المؤمنين إذا حسن استخدامه للمال فالمؤمن الغني يستطيع أن ينال الكثير من الثواب إذا عرف كيف يتصدق على الفقراء ويؤتي الزكاة وينفق في سبيل الله. لذلك لم يكن في

الاسلام استحالة دخول الغني في الجنة بشكل مطلق. ولكن استحالة الدخول كانت محتمة على من يكذب بآيات الله ويستكبر عنها. ولا يعذب الغني في النار على غناه. ولكن يعذب إذا اكتنز الذهب والفضة دون أن ينفقها في سبيل الله: ﴿**والذين يكنزون الذَّهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾(٣٤ ـ ٣٥: التوبة).

ـ في عهد المسيح كانت طبقات المجتمع التي تضاربت مصالحها. مبنية على النظم الماليَّة الفاسدة التي تترك الحرية أمام الغني حتى درجة الانفجار من الغنى، وتهمل الفقير حتى الانسحاق تحت سنابك الفقر.

أما في عهد النبي فإن تعدد العقائد، والعبادات، والتوزع على الأصنام، كان مصدر البلاء الأعظم الذي يعانيه المجتمع، ويحول بينه وبين إيجاد ذاته وجوداً كريماً.

فكان شعار المسيحية هو الكفاح ضد الغني.

وكان شعار الإسلام هو الكفاح ضد الكفر والشرك بالله.

ـ وعند المسيح نجد أن الاستحالة القائمة في وجه الغني هي بالدخول إلى ملكوت الله بالتحديد الذي سمي أيضاً الحياة الأبدية، وهما مفهومان معنويان ليس لهما تصوُّرٌ مادي لأن «ملكوت الله» يرد حينا مع كلمة «إنجيل» وحيناً مع كلمة «يسوع المسيح». فقد جاء في الإصحاح الرابع من انجيل متى «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفي كل مرض وكل ضعفٍ في الشعب».

وفي الإصحاح الأول من إنجيل مرقس «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فُتوبوا وآمنوا بالإنجيل.

أما حياة الأبدية، فقد تحدد معناها في الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا. «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الأب قد أتت الساعة،

مجِّد ابنك ليمجدك ابنك أيضا. إذا أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته».

وإذا كان هذا هو المفهوم الإنجيلي لملكوت الله فإن معاجم اللغة تعطينا مفهوماً لغويا يؤكد المعنوية فيه دون المادية. ففي لسان العرب: «ملكوت الله سلطانه وعظمته. والملكوت من الملك كالرهبوت من الرهبة. وقوله تعالى: ﴿**فسبحان من بيده ملكوت كل شيء**﴾ معناه تنزيهه عن أن يوصف بغير القدرة.

ولكن الجنة في القرآن هي وجودان خالدان، مادي ومعنوي، يحيا فيها الأبرار بأجسادهم حياةً في أقصى كمال الحاجات، ويسعدون سعادةً لا يكدرها مرض ولا شيخوخة ولا خوف ولا أذى ولا توقع موت. ففيها تلغى الأعمار ويزول الزمن وينتهي كل وقت، ويختفي كل محدَّد، وهي عند الله، عرضها كعرض السَّماوات والأرض وقد ورد ذكرها وصفاً وترغيباً وجزاءً ومآباً بالمفرد والمثنى والجمع في أكثر من مئتي آية من آيات القرآن.

فهي لذلك: تختلف اختلافاً شديداً متنوعا عن ملكوت الله في الإنجيل. وترفض: أن تكون قد استقت مصدرها من الإنجيل ـ كما زعم المؤلف ـ.

ج ـ أما قول المؤلف: إن الآية ٧/ ٤٠ توجهت إلى اليهود والمشركين بخطابها واستثنت النصَّارى لأنهم بمقتضى التعبيرين الإنجيلي والقرآني خارجون عن عقاب المنع من دخول الجنة. فهو قول لا يستطاع التماسه من الآيات القرآنية والإنجيلية على السواء. لأن كلا منهما حددت شرائط الدخول وموانعه دون التعرض للأشخاص والفئات، فصار بمقتضاها كل من توفرت فيه تلك الشروط من أهل الجنة، وكل من تخلفت عنه استحال ذلك عليه، نصرانيا كان أم مسلماً أم يهودياً أم من أي اتجاه دينيٍّ آخر.

* * *

٤ ـ أما قراءة المؤلف للآية ٤٠/ ٥٣ من سورة غافر، فقد كانت قراءة خاطئة أدت إلى فهم خاطىء. إذ قال: «إن القرآن لم يخاطب في مكة من أهل الكتاب إلا بني إسرائيل من يهود ونصارى».

ـ فالمؤلف كان في أكثر من مكان في كتابه صرح بوجود اليهود والمسيحيين في مكة إلى جانب المعارضة مع المشركين «كما قامت نظريته» على خلو مكة من اليهود، مما أجل الجدال القرآني معهم إلى الزمن المدني، حيث كانوا يتمركزون في الطائف ومن حولها.

وهذه النظرية ترددت في اكثر كتبه[1].

ـ والآية (٥٣) مرتبطة بالآيتين (٥١ ـ ٥٢) حيث جاء فيهما: إن الله ينصر رسله والذين آمنوا معهم. ثم أعطت الآية (٥٣) مثالاً على هذا النصر «في موسى» إذ آتاه الله الهدى وأورث بني إسرائيل الكتاب. فالهدى الذي أعطي إلى موسى هو تزويده بالمعجزات والدلائل القاهرة. وأما ميراث بني إسرائيل للكتاب فهو الإرث العلمي والكتابي الذي تركه الأنبياء السابقون.

ـ وبعد ذلك يتم هذا التسلسل الإخباري بالآية (٥٥) التي خاطبت النبي، ناصحة بالصبر وانتظار وعد الله، الحق الذي لا بد ناصره مثلما نصر سواه من الأنبياء **﴿فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾** (٤٠/ ٥٥).

٥ ـ ويستمر خطأ المؤلف، وهو يقرأ ويفسر الآيتين ٤٥/ ١٦ ـ ١٨ من سورة الجاثية. **﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة﴾**. **﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتَّبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾**.

فقد فسر الكتاب بالتوراة.

وفسر الحكم بالحكمة والحكمة بالإنجيل.

وخرج من ذلك بنتيجة مفادها: «إن هذه الآية وجهت إلى اليهود والنصارى». وأن المقصود بتعبير «ثم جعلناك على شريعة من الأمر» هو «أمر إلى النبي محمد أن يتبع شريعة النصارى» لأن «النصارى هم الراسخون بالعلم» و«أولوا العلم»[2]

---

(١) أنظر القرآن دعوة نصرانية للمؤلف ص ٢٧٥ وما بعدها.
(٢) ص ٦٠ من المؤلف.

وتتمثل أخطاء المؤلف في الآتي:

أ ـ لقد وردت كلمة «الحكمة» في عشرين آية من آيات القرآن.

«ثمان منها مقرونة بالكتاب، الكتاب والحكمة»، و«ثلاث مع الكتاب والتوراة والإنجيل»، و«واحدة مع الملك وآتاه الله الملك والحكمة»، و«ست مرات لوحدها» و«واحدة مع الموعظة الحسنة»، و«واحدة مع آيات الله وفصل الخطاب».

وفي جميع تلك الآيات لم ينصرف معناها إلى «الإنجيل» حتى لقد ورد تفسير معناها «بالسنة» في الآيات ٢/١٢٩ و١٥١ و٢٣١ و٢٦٩ من سورة البقرة وورد معناها «بالخشية من الله» في الحديث الشريف «رأس الحكمة مخافة الله».

وثمة تفريق قرآني واضح بين «الحكمة والإنجيل» وهو يقطع في الدلالة على أن كلاً من «التعبيرين» يعني مفهوماً مختلفا عن الآخر.

﴿آتينا لقمان الحكمة﴾(٣١/ ١٢) فلا يعقل أن يكون لقمان أوتي الإنجيل.

﴿ولقد آتينا إبراهيم الكتاب والحكمة﴾(١/ ٥١).

ففي الآية الأولى وفي الثانية: جاءت الحكمة بمعنى «العلم والفهم والقدرة على التعبير» وفي الحديث عن المسيح قال القرآن: ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾(٣/ ٤٨) فالعطف القائم بين هذه المسمَّيات الأربعة هو عطف مغايرة لا عطف مشاكلة، مما يدل على أن الإنجيل الذي أنزل على عيسى هو غير الحكمة التي علمه الله إياها.

ب ـ ولا يختلف تعبير «الحكم» في الآية ٤٥/١٦ الجاثية وفي سواها من الآيات التي ورد فيها وهي تزيد على عشرين آية. التمس المفسرون لها معاني مختلفة ولكنهم لم يجدوا معنى «الإنجيل» في أي منها فقد قال الرازي وابن كثير: قد تكون بمعنى «العلم والحكمة» وقد تكون بمعنى «العلم بالأحكام بين الناس» وقد تكون «علم أحكام الله ـ الفقه».

ج ـ أما خطاب الآية إلى النبي ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتّبعها ولا تّتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾(٤٥/١٨ : الجاثية).

فإن المقصود هو: الشريعة التي أنزلت عليه، والتي أمر باتباعها وليس شريعة النصارى أو سواهم الذين وصفتهم تتمة الآية بأنهم «ذوو أهواء» وأنهم «لا يعلمون» وقد اكملت الآية (١٩) ما قبلها في التحذير من شرائع الغير بقولها: **﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين﴾**.

وكان القرآن قد حذّر النبي مثل هذا التحذير وبين له أن الشرائع التي نزلت على الأنبياء هي الواجبة الاتباع حتى تنسخ بشريعة أخرى، وأن لكل نبي شرعة شرعهاالله، لا يجوز له العدول عنها إلى سواها: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾**(٥/ ٤٨: المائدة).

ذلك كله: أغفله المؤلف، وهو يتضمن الرد الكافي على أقواله في «الحكمة والحكم والشريعة» وفي تخصيص اليهود واستثناء النصارى.

٦ ـ قال المؤلف:

أ ـ إن «أهل الذكر» هم النصارى على وجه الحصر والتحديد في القرآن، وقد بلغت صراحة القرآن قمتها بالتخصيص في الآيتين(١٦/ ٤٣: النحل و ٢١/ ٧: الانبياء) وهما بلفظ واحد: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. . .﴾**.

أما نحن: فقد استعرضنا جميع الآيات التي ورد فيها تعبير «أهل الذكر» وكلمة «الذكر» فلم نجد في أيٍّ منها تخصيصاً بالنصارى.

ـ ففي الآيات: (١٥/ ٦ ـ ٩ و١٦/ ٤٤ و٢٥/ ٢٩ و٣٦/ ١١ ـ ٦٩ و٣٨/ ١ ـ ٨ و٤١/ ٤١ و٤٣/ ٥ و٥٤/ ٢٢ ـ ٣٢) وردت كلمة الذكر للدلالة على القرآن (الرازي ـ وابن كثير).

ـ وفي الآيات (١٢/ ١٠٤ و٢٥/ ٨ و١٦/ ٤٣) وردت بمعنى الكتب الماضية.

ـ وفي الآية (٢١/ ١٠٥) وردت بمعنى التوراة.

ـ أما في الآيتين المعتمدتين من المؤلف:

ـ فالآية ١٦/٤٣ ـ النحل: **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إنْ كنتم لا تعلمون﴾** هنا توجه القرآن بالخطاب إلى الذين انكروا نبوة محمد، بداعِّي أن الأنبياء لا ينبغي أن يكونوا إلا ملائكة. فقال لهم اسألوا أهل الكتب السابقة «الصحف والزبور والتوراة والإنجيل» عن طبيعة الرسل والأنبياء، فهم ينبئونكم ـ إن بقيتم على شكوككم ـ بأن الأنبياء كانوا رجالاً ولم يكونوا ملائكة.

ـ ولا تختلف الآية ٢١/٧: الأنبياء عن الآية (٤٣) نصّاً ومعنىً ودلالةً.

ـ وفي الآية ٢١/ ١٠٥ ـ الأنبياء برهان شديد على خطأ مقولة المؤلف: **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثُها عبادي الصالحون﴾**.

فالزبور هو الكتاب الذي نزل على داود.

وقد أطلق القرآن تعبير الذكر على مانزل قبله أي قبل الزَّبور. وهذا يعني انصراف الدَّلالة على التوراة والصحف. من دون الإنجيل والنصَّارى لتأخرهم في الزمان.

ب ـ وقد أوردالمؤلف الآية (٩٤) من سورة يونس واستخرج منها شهادةً قرآنية على أن النبي ينتمي إلى عقيدة النصَّارى، وبالأخص إلى أستاذِه النصراني ورقة بن نوفل ص ٦٠ ـ المؤلف.

أما الآية فهي: **﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾**(١٠/ ٩٤).

وفي تفسيرها اتفاق تام لم يشذ عنه غير المؤلف أبداً، وهو يتلخص:

ـ في أن الخطاب موجه إلى النبي.

ـ وأنه إن راوده تردد في مصدر ما أنزل إليه من الوحي القرآني فليسأل أهل الكتب السابقة الذين يجدون في كتبهم الآيات الدالة على صدق رسالته وصدق مصدرها، وبذلك يزداد يقيناً.

ولقد صحّ بالتواتر عن النبي (ص) أنه قال عند نزول هذه الآية «رب لا أشك

ولا أطلب الحجة من قول أهل الكتاب بل يكفيني ما أنزلته إلي من الدلائل الظاهرة».

ـ بل لقد توسع بعض المفسرين فقالوا: إن الله تعالى يعلم أن النبي لن يشك في ذلك وأنّها نزلت لكي يصدر عنه هذا التصريح ومثال ذلك ونظيره قوله تعالى للملائكة: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ (٣٤/ ٤٠: سبأ) ليصرحوا ما صرحوا به في الآية التي تليها (٤١) ﴿**سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن**﴾ ومثل قوله لعيسى ابن مريم: ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾(٥/ ١١٦: المائدة) لكي يصرح عيسى بقوله متبرءاً من ذلك. (الرازي).

لهذا: ينبغي طرح أقوال المؤلف جانبا وعدم الأخذ بها بسبب تناقضها الصارخ مع جميع المراجع وبعدها السحيق عن معاني الكلمات.

٧ ـ قال المؤلف: القرآن هو دعوة للإيمان بالكتاب النصراني. لذلك كان اليهود «في شك منه مريب» ولذلك صرحت آياته بأنه هو «شرع موسى وعيسى» في كتابيهما، وأن مهمته هي العمل على توحيدهما في دين واحد.

كيف تيسّر هذا الأكتشاف للمؤلف؟ هو يجيب: إنّهما الآيتان ٤٢/ ١٣ ـ ١٥ من سورة الشورى. اللتان أوضحتا هذه الغايات الجليلة. مثلما أكدتا أيضاً على أن القرآن المكي لم يخاطب المسيحية مطلقاً.

أما الآيتان فهما: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب**﴾(١٣). ﴿**وماتفرقوا إلاَّ من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقُضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب**﴾(١٤) ﴿**فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير**﴾(١٥).

وأما ما يستفاد من معانيهما فهو:

ـ تحدثت الآية: (١٣) عما شرعه الله ووصّى به الأنبياء بدءاً من نوح وهو أن يقيموا الدين وأن لايتفرقوا فيه. وأن دعوة التوحيد كانت دوماً «كبيرة» على المشركين ولكن الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب.

ـ والدين الواحد الذي تطابقت عليه الأنبياء هو الإيمان بالكليات ـ الثوابت ـ. (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر).

أما الشرائع والأحكام، أي التكاليف فإنّها ليست من المتطابقات، إذ جعل الله لكل من الأنبياء شرعةً ومنهاجاً يتلاءمان مع طبيعة الإنسان وتطوره في الزمان والمكان ﴿**لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً**﴾ (٥/٤٨: المائدة).

ـ فالدين الذي دعت إليه الآيات ليس ما تبقى بين يدي اليهود والنصارى من مخلفات القرون، بل ما هو ثابت تواتره عن الأنبياء جميعاً بدءا من نوح فيما يتعلق بالكليات.

ـ وأوامر القرآن إلى النبي هي في الثبات على ما أنزله الله إليه. والابتعاد عن أهواء الآخرين، ففي ذلك ضلالة عن الطريق التي رسمت له، وأن يقابل محاولاتهم بقوله: «آمنت بأي كتاب صحّ نزوله عن الله» وأن يدعوهم إلى التوحيد. فإن أبوا فهو مأمور بأن بعلن القطيعة العقائدية معهم ويقول: ﴿**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجَّة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا(يوم القيامة) وإليه المصير**﴾.

هذه هي مجمل المعاني التي يمكن استخراجها من الآيات.

أما ما استخرجه المؤلف فلم يكن منها ولا يمت بصلة لها بل هو وليد الخيال والهوى والإرث العاطفي الذي ساهم في تكوين آرائه.

٨ ـ أورد المؤلف الآيات: ٣٥/٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ من سورة فاطر وقال: إنها تشكل فصلاً مستقلا لا يستقيم معناه إلا بدلالة الآية (٢٨) التي فيها ﴿**... كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**﴾.

ثم تأسّف على أسلوب الذين فهموا كلمة «العلماء» هنا بالمعنى اللغوي، أو الذين ذهبوا بها إلى أمة محمد التي قالت الآية (٢٨) أنها اصطفيت من الله لميراث الكتاب: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا).

فالعلماء في رأي المؤلف. سواءٌ في الآية (٢٨) أم من سواها من الآيات هم النصارى ـ بالدليل القرآني ـ لأنهم «المقسطون» و «المحسنون» و«الذين يخشون الله» و«الذين أورثوا العلم» وهم الذين تكررت أوامر القرآن في أن يلجأَ النبي إليهم لكي يتعلم منهم ما يشكل عليه ويسألهم ما يغيب عنه.

وأهل العلم النصَّارى، هم نقيض أهل العلم اليهود الظالمين وأول من كفر به. وأشد الناس عداوة للنبي والذين آمنوا.

هذا الطرح الخطير بصراحته، والصريح بخطورته. استوجب منا تقديم تحليل لآيات سورة فاطر كي نكتشف المقصود من «العلماء» وعما إذا كانت لَصِيقَةً بالنصَّارى أو جامدة على زمن، أم إنها مفهوم يتحرك على الدوام مع الإنسان على طريق التقدم والتطور.

أـ بدأت السورة بتوجيه الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة(١) ثم ذكَّرت بنعمة الله الذي خلق الخلائق وخلق رزقها من السماء والأرض (٣) فإن كُذِّبَ الرسول الذي يبلِّغ هذه الآيات فقد كُذِّبت من قبله الرسُلُ ووعد الله حق فلا يأخذ الناس الغرور(٤ ـ ٥) والله أرسل الرياح فأثارت السحاب وساقته إلى بلدٍ ميت فأحيا به الأرض بعد موتها فله العزة جميعاً وإليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعملُ الصالحُ يرفعُه (٩ ـ ١٠) وهو الذي خلق الناس من تراب ثم من نطفة ثم جعلهم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر معمر ولا ينقصى من عمره إلا في كتاب كان ذلك على الله يسير (١١) والبحار ليست على السواء. فهذا بحر خلقه الله عذب فرات وهذا ملح أجاج ومن كلٍّ خلق للناس لحماً طرياً وحلياً للزينة والله هو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو الذي سخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى (١٢ ـ ١٣) فيا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد(١٤) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (١٥) هذه المجموعة الرائعة من الآيات. التي تحدثت في شتى المواضيع التي لها ارتباط بكينونة الإنسان وبقائه ونعم الله عليه. اختتمت بالآية النتيجة وهي فقر الإنسان وحاجته إلى الله في كل شيء، وجبروت الله وغناه عن كل شيء مرتبطة «بالفاء» التي تفيد «العطف التعقيبي» الذي يربط ما قبله بما بعده ربطاً

محكماً يجعل من الأول بمنزلة المقدمة ومن الثاني نتيجة لازمة.

ب ـ ويبدأ بالآية (١٨) نسق جديد من الكلام، هو الحديث مع النبي عن خشية الله، والذي يستمر حتى الآية (٢٨) موضحاً أن الخشية تترافق مع العلم، فهي عميقة بمقداره، وضحلةٌ بمقداره، فما يستوي الأعمى والبصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظل ولا الحرور(٢١) وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور (٢٢) إن أنت إلا نذير (٢٣) إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإنْ من أمة إلا خلا فيها نذير (٢٤) وإن يكذبوك فقد كذّب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزّبر وبالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير (٢٦) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيضٍ وحُمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنمّا يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور(٢٨).

جاءت هذه الآيات متتابعة متكاملة، فالأولى منها وجهت النبي إلى إنذار من يخشون الذي تبوأوا من مراكز العلوم ما جعلهم يختلفون عن المتخلفين بمقدار ما يختلف الأعمى عن البصير والظُّلمات عن النور والظل عن الحرور والأحياء عن الأموات. فالعلم بالنسبة إليهم هو الحياة والجهل في سواهم بمنزلة الموت. . . فإن لم يسمعوك فإن ساكني القبور لا يسمعون، وإن كذبوك فقد كذب الذين قبلهم رسل الله وأعرضوا عن البينات والزبر والكتاب المنير.

ج ـ ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن عظمة الله وتفرده وجبروته، معيدة ذهن القارىء إلى الآيات الأولى من ١ ـ ١٧، متوجهة إلى النبي، مستخدمة صيغة التخصيص في خطابه، وهي في الوقت ذاته تخاطب كل ذي بصر وبصيرة، ليتفكر في خلق الله ومخلوقاته من جماد ونبات وحيوان وإنسان.

د ـ وبعد هذا التعداد لعظمة الله ونِعَمِه، جاءت نهاية الآية (٢٨) لكي تختتم جميع الآيات وتشكل النتيجة المنتظرة لتلك المقدمة الواعدة.

فالخشية هي بمقدار معرفة «المختشي» والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه،

والعلم أعلى في الدرجة من العبادة لأن العلم مناط بالتقوى ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾(٤٩/ ١٣: الحجرات).

والعالم يعرف أكثر من سواه أن الله عزيز ذو انتقام فمعرفته بتفرد الله بالعزة تخلق الخوف في نفسه، ومعرفته أن لا مغفرة إلا منه تخلق الرجاء لديه.

لذلك انتهت الآية بقولها: ﴿**إن الله عزيز غفور**﴾لأنّه لن يفقه معاني عزَّة الله وغفرانه غير العلماء فكانوا بهذا أصحاب الخشية والاستغفار والرجاء.

٩ ـ وفي الآيات ٢٦/ ٢٧ ـ ٤٦ ـ ٤٨ ـ ٤٩ من سورة العنكبوت استخرج المؤلف موقف القرآن من أهل الكتاب في الزمن المكي. وهو موقف وصفه المؤلف بأنه «قول فصل» فقال: إن الله جعل «وراثة الكتاب» في ذرية إبراهيم دون غيرهم، وفي ذرية إسحق ويعقوب منْهم على سبيل الحصر والقصر.

ـ هؤلاء هم «أهل العلم» أتى القرآن على ذكرهم كفريقين.

الظالمون منهم وهم اليهود.

والمحسنون المقسطون المتقون وهم النصّارى.

ـ والنصارى هم الذين آمنوا بالدعوة القرآنية لذلك أَوجب أن يكون الجدال معهم بالتي هي أحسن وأَمَر بالالتقاء والتسليم معهم بأن الله واحد والتنزيل واحد بينهم وبين جماعة محمد (ص ـ ٦٣ ـ ٦٤).

قبل أن نختبر مقولات المؤلف، ندّون الآيات التي اعتمدتها مقولاته تسهيلا على القارىء في تقصيه عن الحقيقة وعوناً له على محاسبة المؤلف.

﴿**فآمن له لوط وقال إني مهاجرٌ إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم(٢٦) ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين (٢٧) ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلّهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون(٤٦) وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون(٤٧) وما كنت تتلو من قبله من**

كتاب ولا تخطّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون (٤٨) بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون(٤٩)﴾ (العنكبوت).

* * *

وراثة الكتاب:

من الواضح أن المؤلف يركز على القرآن ليستخرج منه أحكامه، فهو لا يعتمد على سواه لأن مهمته محصورة فيه، إنه يسعى لاصطياد قناعة المسلمين قبل غيرهم، وفي ظنه أنهم كانوا منذ أن كانوا حتى الآن ضحية فهم خاطىءٍ وتاريخ مزوَّر لنصوص القرآن ومناسباته، لذلك يتصدى لتصحيح ما تواطأ عليه المسلمون في فهم ميراث إبراهيم من الكتاب والدين.

يجزم المؤلف بأن الإرث الإبراهيمي انتقل منه مباشرة إلى ذرية إسحق ويعقوب.

ودليله القرآني طوع إشارته، إذ سرعان مايستدعي الآية (٢٦) ليقرأها بصوت مرتفع **﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾**.

وهو لو تبصر بالآية لأبصر فيها أكثر مما أعطى.

ـ فالحديث عن هبة الله لإبراهيم إسحق ويعقوب جاء مسبوقاً بحرف العطف (الواو) لكي يتحقق الارتباط والاستمرار مع ما سبق.

ـ وهو لم ينف وجود إسماعيل، لأن «هبة» إسحق كانت بعد أن اجتاز إبراهيم المحنة التي ورد الإخبار عنها في الآيتين ٢٤ و ٢٥ وكان إسماعيل فتى عند أبيه.

ـ والآية لم تقل أن الله جعل النبوة والكتاب في ذرية إسحق ويعقوب، إذ لوكانا هما المقصودين بذلك لوردت بصيغة المثنى «ذريتهما» ولكن ورودها بصيغة المفرد «ذريته» عاد بالضمير إلى إبراهيم، وامتدت كلمة الذرية لتشمل أبناء إبراهيم وذراريه، ومنهم الإبن الأكبر إسماعيل.

ـ وما دام المؤلف لا يتحرك إلا بين آيات القرآن وبالإستناد إليها فإن تفنيد أقواله وتشتيتها لن يكون إلاَّ من آيات القرآن وبالاستناد إليها.

ففي الآية (٢٦) قال إبراهيم: ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾.

وفي الآية (٢٧) قال الله: ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فلم يرد فيها ذكر لإسماعيل لأنها نزلت في الاخبار عن مجيء إسحق الذي تَلا مجيء إسماعيل بسَنوات كما اتضح من تسلسل الأحداث في الآيات من ٩٩ ـ ١١٢ الصافات، التي بينت أن إسماعيل كان الذبيح ﴿إني ذاهب إلى ربي سيهدين﴾ (٩٩) و﴿رب هب لي من الصالحين﴾ (١٠٠) ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ (١٠١) ﴿فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ (١٠٢) ﴿فلما أسلما وتَلّه للجبين﴾ (١٠٣) ﴿ونادنياه أن يا إبراهيم﴾ (١٠٤) ﴿قد صدّقت الرّؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ (١٠٥) ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾ (١٠٧) ﴿سلام على إبراهيم﴾ (١٠٩) ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ (١١١) ﴿وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين﴾ (١١٢).

ضمن سياق هذا التسلسل يتبين أن اسماعيل هو الولد البكر، وهو الذبيحة التي نذرها إبراهيم على نفسه لأنه لم يبشر بإسحق إلابعد النذر والفداء، أي إن الشروع في وفاء النذر والذبح كان على ابن لإبراهيم غير إسحق، نظراً إلى أن إسحق لم يكن قد ولد بعد.

ولقد أجمعت الكتب السماوية وكتب التاريخ على أن إسماعيل هو ابن إبراهيم من هاجر، وأن هاجر كانت أَمَةً مصرية عند زوجته سارة فقدمتها إلى إبراهيم ليتزوجها عسى أن يرزق منها بعقِبٍ بعد أن يئست هي من الإنجاب بسبب عقمها وشيخوختها، فولد إسماعيل من هاجر، ولكن الغيرة بدأت تدب في صدر سارة عندما شاهدت إسماعيل يشب ويترعرع، وحينما بلغ الثالثة عشر من العمر وكانت سارة قد رزقت بإسحق فعزمت على إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها[١].

ولقد أوضح القرآن أن إسماعيل شارك أباه في بناء الكعبة.

---

(١) عندما طردت هاجر وابنها كان إسحق رضيعاً بين يدي أمه سارة.

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود﴾ (٢/ ١٢٥ : البقرة).

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة. . . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك. . ﴾ (٢/ ١٢٧ و١٢٨ و١٢٩ البقرة).

وإسماعيل الذي هو بكر إبراهيم وأول ذريته كان من الأنبياء الذين تلقوا الوحي مبشرين ومنذرين ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾(٤/ ١٦٣ ـ ١٦٤ : النساء).

ففي الترتيب: ورد إسماعيل قبل إسحق.

وسواء أكان تقديمه للتمييز أم لفارق السن فإنه بكر ذرية إبراهيم ورفيقه في بناء الكعبة، وهو أول من اختتن فكان بذلك أوَّلَ من نُفِّذت فيه هذه السُّنة الإلَهية التي تذكر بعهد الله[1].

وهو أحد الرسل الذين أوحى إليهم الله بعد إبراهيم.

ولكن المؤلف: أسقطه من الحساب نِهَائيا، فقد أغفله من الذرية وأهمله من الانتساب إلى إبراهيم.

وذلك خدمة للفكرة التي امتلأ بها، وهي أن الإرث النبوي المنحدر من إبراهيم حلَّ في اسحق وحده، باعتباره هو رأس الذرية ثم انحدر في أصلاب الأبناء والأحفاد حتى عيسى عليه السلام، وأن السماء ـ بعد عيسى ـ توقفت عن إرسال الرسل وإنزال الكتب.

وبذلك، يصل المؤلف إلى نهاية الشوط ليقرر النتيجة، وهي أن السماء لا

---

(١) أول من أختتن كان اسماعيل وهو بعمر ثلاث عشرة سنة حيث قام أبوه بختانه ثم ختن جميع الذكور من الخدم وكان عمر ابراهيم تجاوز التسعين.

تعرف شيئاً عن محمد (ص) ولا عن القرآن ولم تكن لها بهما أية علاقة.

ولو تقدم المؤلف بأفكاره على شكل آراء شخصية لقلنا: هذا شأنه فهو حرٌّ في تفكيره وتعبيره. والقراء أحرار في القبول والرفض. ولكنه نسب فكره إلى القرآن، فكان من حق كل إنسان أن يتقصى ويتتبع الحقائق من مصادرها ليقول فيها كلمته.

أهل العلم:

هذا العنوان، بمضامينه وغاياته، أفرد المؤلف له الفقرة (٨) من هذا البحث فقدَّم آياتٍ من سورة فاطر مصراً بالاستناد إليها على أن القرآن كان على الدوام يحصر ويقصر الوصف «بالعلم والعلماء» و«أولي العلم» و«الذين أوتوا العلم» باليهودالظالمين وبالنصارى المحسنين المقسطين.

وكنا: فيما سبق من فقرات بيَّنَّا أوجه الخطأ في هذه المفاهيم.

وذلك بعد أن قمنا بتحليل الآيات التي اعتمد عليها وتحليل غيرها من آيات السورة، وقدمنا الأدلة على أن تقويم القرآن للعلم والعلماء يرتفع عن مستوى الانغلاق والالتصاق بفئة أو شعب أو زمان أو مكان أو كتاب أو دين لأن العلم ـ في رؤية القرآن ـ هو أفضل ما أنعم الله به على الإنسان وإن العلوم وإن كانت كلها شريفة وكريمة ـ في المبدأ والمطلق ـ إلا أن العلوم الإلَهية التي تبحث عن سنن الكون والخلق والخالق والموجد والموجودات هي أشرفها وأكرمها وأن خشية الله تكون أعمق وأصدق في نفس العالم.

لذلك نكتفي بالإشارة إلى ما تقدم من الرأي والرأي المضاد ويبقى الحكم إلى القارىء.

غير أن تفسير المؤلف للآيتين ٤٢/ ١٤ الشورى و ٢٩/ ٤٩ العنكبوت، أوجب أن لا يَعْبُرَ دون تفتيش وتدقيق بسبب تركيزه على أنهما نزلتا في النصارى بالتخصيص.

فهما: لم تقدما دليلاً على أن مفهوم «الذين أوتوا العلم» هو الوصف الذي تخصصت به طائفة النصارى وتجردت منه جميع الطوائف الأخرى.

فالآيتان: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ (٢٩/٤٨).

﴿وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقضي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾(٤٢/ ١٤).

ـ ففي الآية ٢٩/ ٤٩ ينصرف تعبير «الذين أوتوا العلم» إلى من حفظوا آيات القرآن البينات في صدورهم، لأن الضمير «هو» يعود إلى الكتاب الذي أنزله الله على النبي والذي كانت قد أفصحت عنه الآيتان السابقتان: ﴿وكذلك أنزلنا اليك الكتاب. . . (٤٧) . . . وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك. . . . (٤٨) . . . بل هو آيات بينات. . . (٤٩)﴾.

فالآية(٤٩) مؤكدة على أن القرآن هو آيات بينات في صدور الحفاظ والذين أوتوا العلم وهم الذين آمنوا به واتبعوه وهي نتيجة حتمية لتفسير الآيات متكاملة تبتعد كثيراً عن مقولة المؤلف.

ولقد تأكد هذا التفسير بما أورده صحيح مسلم عن النبي (ص): يقول الله تعالى «إني مبتليك ومبتلٍ بك ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرأه نائماً ويقظاً لأنه محفوظ في الصدور ميسَّر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظاً ومعنى.

ولذلك جاء في الكتب المتقدمة: «أنا جيل المسلمين محفوظة في صدورهم».

ـ أما الآية ٤٢/ ١٤ فإن الذين «أورثوا العلم من بعدهم» هم الأجيال التالية من اليهود والنصارى الذين وصفتهم الآية بقولها: ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي من كتابهم وليس من القرآن، لأنهم لم يكونوا شاكين في القرآن بل كانوا رافضين له. فالضمير يعود إلى الكتاب الذي أورثوه مِمَّن كان قبلهم.

لذلك: يمكننا القول بأننا لم نر وجهاً للمقابلة بين الآيتين ١٤ و٤٨ كما رأى المؤلف في خاتمة الصحيفة ٦٤ من كتابه.

البحث الثاني

أهل الكتاب في القرآن المدني

قال المؤلف: ورد اسم أهل الكتاب في القرآن المدني مقروناً بالثناء حيناً ومقروناً بالتنديد والتكفير حيناً آخر. ومن الطبيعي أنه لم يقصد في كليهما فئة واحدة فكان لا بد من الاعتماد على القرائن لتحديد المقصد القرآني في كل آية (ص ٦٥ من المؤلف).

ويتابع: «أمَّا السُّور المدنية التي وَرَد فيها هذا التعبير فهي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والحشر، والبينة، والحديد، والمائدة.

* * *

أولاً: في سورة البقرة:

دلَّ المؤلف على الآيات: ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٧ ـ ٤٩ ـ ٨٥ ـ ١٠١ ـ ١٠٥ ـ ١٠٩ ـ ١٢١ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ ١٧٦ من هذه السورة وقال:

ورد تعبير «أهل الكتاب» و«مترادفاته» في هذه الآيات:

وفي جميعها: ـ يكون الخطاب متوجها إلى اليهود عندما يكون في الآية تكفيرٌ أو تنديد.

ـ ويكون متوجِّهاً إلى النصَّارى عندما يكون فيها الرضى والثناء.

أما المسيحيون فلا دخل لهم في هذه الآيات ولا في سورة البقرة كافة (ص ٦٥ ـ ٦٦ من المؤلف).

ونحن: قبل أن نقف عند كل آية وقوفاً مستقلا نقدم ملاحظات عامة على أقوال المؤلف بصورة عامة، هي الآتية:

أ ـ ما فتىء المؤلف يركز على الفروق العقائدية بين النصرانية والمسيحية، فهما في رأيه فئتان من أتباع المسيح آمنت به كل منهما إيماناً خاصاً بها يختلف عن الأخرى.

وأن «النصَّرانيَّةَ» هي الإسلام الذي جاء ليدعو بدعوتها ويؤمن بإيمانها ويعتَقِدُ بمعتقداتها، وقد ذابت فيه ذوباناً مطلقاً فأصبح هو تعبيرها الديني.

أما المسيحية فلم تغير موقفها من المسيح والإسلام وهي على ما قامت عليه منذ العهود المسيحية الأولى حتى الوقت الحاضر.

ولكن هذا التفريق يرفضه التاريخ ويرفضه المنطق على السواء.

ـ أما في التاريخ فيكفي العودة إلى مجمع نيقية الذي انعقد في ٣٢٥ م. فقد أورد ابن البطريق في تاريخه ما قاله أساقفة المجمع الذين وضعوا قانون الإيمان النيقاوي أمام الامبراطور عندما وضع سيفه وخاتمه وقضيبه أمامهم وقال: سلطتكم على مملكتي لتصنعوا ما تشاؤون. فقالوا بصوت واحد: «أظهر دين النصرانية وذبَّ عنه». . . . » «أظهر دين النصرانية» ولم يقولوا أظهر دين المسيحية. وما ذلك إلا لأن «النصرانية» تعبر عن المسيحية بالمعنى العام. . . وقولهم هذا ـ في مطلق الأحوال ـ يجب أن يحمل على عدم الفرق بين المفهومين وإلا كان ذلك ظهر من الأساقفة.

هذا مع التنويه بأن قانون الإيمان النيقاوي انعقد للرد على بدعة آريوس التي كانت تقول بوحدانية الله، وبِكَوْنِ الابن مخلوقاً غير أزلي وغير أبدي.

أي إن النصرانية ـ بالمعنى الذي ألصقه المؤلف بها ـ هي ذات جذور أريوسية. فلو كانت «النصرانية» غير المسيحية أو لو كانت المقولات الأريوسية هي النصرانية لجاء التفريق على لسان الأساقفة.

ـ أما من ناحية المنطق فإن التنديد بالنصارى والنصرانية صريح في آيات القرآن. وهذا يعني أنه استهدف عقيدة قائمة تتمثل في فئة بشرية لها وجود مادي وهي على معارضة ومواجهة مع الدين الإسلامي أوجب وبرَّر التَّنديد بها في القرآن.

وهذا الافتراض المنطقي والواقعي يتعارض مع قول المؤلف في قيام وحدة المعتقد بين النصرانية والإسلام وفي ذوبان النصرانية بالإسلام.

إذ لو كان ذلك صحيحاً في الواقع لكان التنديد القرآني هو عبثاً كلامياً لا يرمي إلى غاية ولا يستهدف أحداً.

ثم كيف يندد القرآن بفئة تبنَّته وآمنت به وانضمت إليه وذابت فيه؟.

ب ـ وتضطرب قواعد المنطق عندما يقول المؤلف:

إن الإسلام حمل عقائد النصرانية وتبناها ودعا بها وترجم إنجيلها إلى العربية فكان القرآن، لأنَّ الأمر لو كان صحيحاً لذاب الإسلام فيها ورفع اسمها واتخذ شعائرها وطقوسها. ولما كان العكس هو الذي تحقق.

إذ لا يعقل بمنطق الأمور أن تسود النصرانية عقيدةً وطقوسها وكتاباً ورسولاً. ثم ينطوي ذلك كله ويذوب وينتهي ويكون تابعاً لمن أخذ عنه كل ذلك.

ج ـ إن الذين أسلموا من أهل الكتاب يهوداً أم نصارى لم يُشِر إليهم القرآن بتعبير «أهل الكتاب» إلا مع الفارق عن سواهم، وهذا الفارق هو الإسلام أو الأيمان، فهم لا يردون في القرآن إلا ضمن الصيغ: «الذين آمنوا من أهل الكتاب» «الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به» أي بالقرآن.

أما تعبير «أهل الكتاب» مجرداً عن هذه الإشارة فقد ظل ملاحقاً لمن ظل على كتابه من اليهود والنصارى ورفض الإسلام والقرآن.

* * *

على ضوء ما تقدم نستطيع أن نضع ملاحظاتنا على ما استخلصه المؤلف من آيات سورة البقرة كالآتي:

١ ـ إن الآيات من ٤٠ ـ ٦١ تضمنت وصايا الله لليهود وتذكيرهم بالنعم التي أغدقها عليهم، فقد أخرجهم من أرض مصر ونجاهم من آل فرعون، ولكنهم قابلوا ذلك بالكفران واتخاذ العجل إلَها، ثم تاب عليهم وغفر لهم ومع ذلك لم يلبثوا أن عادوا إلى ما كانوا عليه من كفرٍ وتردُّدٍ وتشكيكٍ وطرح المطاليب التعجيزية على موسى.

في هذه الآيات وردت كلمة الكتاب مرتين، مرة في الآية ٤٤ ومرة في الآية ٥٣ وفي كلتيهما لم يخطىء أحد بأن المقصود هو التوراة ولم ينصرف هذا القصد عند أحد إلى الإنجيل.

٢ ـ أما هذا التعبير «أهل الكتاب» فقد أطلق على اليهود فيما تبقى من الآيات باستثناء إحدى عشرة آية، يجب الوقوف عندها لتحديد العائدية والمقصود.

الآية ٩١ **﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم﴾**.

فهذا القول يقع فيمن بقي على معارضته وكفره بالقرآن من اليهود الذين تمسكوا بالتوراة والنصارى الذين تمسكوا بالإنجيل.

الآية ١٠٥ **﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خيرٍ من ربكم﴾** . . . هنا التعبير جاء عاما من تابعي التوراة وتابعي الإنجيل الذين ظلوا على مواقفهم.

ـ الآيات ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣ تضمنت تبادل الاتهام والتكفير بين اليهود والنصارى وهم يتلون التوراة والإنجيل، أي كل منهم يتلو كتابه.

ـ الآية ١٢١ **﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾**.

فالكتاب هنا ـ باتفاق أكثر المفسرين ـ هو القرآن. والذين يتلونه هم المسلمون ومن يكفر به هم الرافضون له من اليهود والنصارى وسواهم.

ولا يستساغ أن ينصرف القصد إلى الذين آمنوا من النصَّارى فقط، لأن في اليهود فئة آمنت أيضاً وكذلك المسلمون وجميع هؤلاء يتلونه حق تلاوته. لذلك كان لابد من اتجاه القصد إلى كل من آمن به ويتلوه حق تلاوته دون تحديد ولا قصر على فئة.

ـ الآيتان ١٤٤ ـ ١٤٥ **﴿إن الذين أوتوا الكتاب﴾** في الآيتين هم: أحبار اليهود وعلماء النصارى، لأنهم في الأولى وصفوا بالعلم وفي الثانية وصفوا بالتشدد العقائدي. وهاتان الصفتان لاتتوافران إلا في العلماء وهم في العادة عدد قليل.

ـ وكذلك الآية ١٤٦ التي أضافت المعرفة إلى **﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾** وهم علماء اليهود والنصارى الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وذلك بدليل الآية

١٥٧ من سورة الأعراف ﴿يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ والآية ٦ ـ من سورة الصف ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.

ـ والآية ١٧٦ ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾.

فالاختلاف:

ـ إما في القرآن فيكون في «كونه حقاً منزَّلاً من الله» أم لا.

ـ وإما في التوراة والإنجيل فيكون في «التحريف وكتمان ما اشتمل عليه من البشارة بالنبي».

وفي الحالين: يكون الذين اختلفوا في الكتاب هم اليهود والنصارى.

هذه هي الآيات: التي ورد فيها تعبير «أهل الكتاب» و«مترادفاته» لم يخطىء أحد في فهمها غير المؤلف. وكل من يقرأ القرآن أو يتتبع كتب التفسير يرى أن كلا منها أخذت معناها من مناسبتها ووجه الخطاب فيها، لذلك: تغدو دعوة المؤلف إلى رفع الظلم القرآني عن غير اليهود دعوة في الهواء (ص ـ ٦٦).

* * *

ثانيا: في سورة آل عمران:

قال المؤلف: إن التعميم الذي يبدو للقارىء من ظاهر «تعبير أهل الكتاب» ينبغي أن لا يقيد الباحث الذي يلتمس الحقيقة التي تكمن في الغالب وراء المنظور، لذلك فهو ملزم بالاستقراء وتفحُّص القرائن ما قَرُبَ منها وما بَعُدُ. وإذ ذاك سوف يبدو لديه جليا:

أن أول خطوة على طريق الجناية التي ارتكبت في حق القرآن كانت في إقحام قصص آل عمران (٣٣ ـ ٦٤) على السورة التي عقدت بكاملها على الجدال مع اليهود مما أوهم الناس بأن تعبير «أهل الكتاب» في آياتها هو شامل للأمم الكتابية من يهود ونصارى ومسيحيين، مع أن القرآن صرَّحَ بغير ذلك في العديد من آياته حتى في السورة ذاتها وصف الأمة النصرانية بأنها الأمة المثالية (الآيتان ٣/ ١١٣ ـ ١٩٩) وكذلك عندما فصل فصلاً حاسماً بين النصارى واليهود من جهة وبين المسيحيين من جهة ثانية في الآية ٣/ ١١٠»، ص ٦٩ ـ ٧٠ من المؤلف.

أ ـ كنا ناقشنا مقولات الإقحام على آل عمران، ووضعنا تحليلاً للآيات المدَّعى إقحامها، وبيَّنا مدى ارتباطها وتكاملها مع ماسبقها وما تلاها مما يؤكد على أنها لم تكن دخيلة على السورة ولا ممكنة الاستقلال عنها وذلك في الموضوع: (ثانيا ـ الاقحام في سورة آل عمران) وقد تتبعنا آنذاك مواضيع السورة بكاملها بدءاً من بدئها وحتى آخر آية منها. واستعنا على فهمها بالمدلول اللغوي الموثوق، والتفسير الذي رصد المناسبات رصداً حكيماً مسنداً، فتبين بعد تلك الجولة، أن جدال القرآن مع اليهود لم يستغرق كامل السورة، ولا أكثر من اليسير منها، أما ما تبقى فهو المواضيع المتعددة حول العقائد والشرائع وحوار الآخرين.

ب ـ و «أهل العلم» و «الراسخون في العلم» و«أولوا العلم قائماً بالقسط».

يقول المؤلف: هي تعابير مرادفة لتعبير «أهل الكتاب» ومؤدية إليه.

وهؤلاء فريقان في نظر القرآن: الظالمون بِعِلْمِهِمْ وهم اليهود، والمقسطون بعلمهم وهم النصارى من بني إسرائيل، ومن تنصر معهم من العرب مثل ورقة بن نوفل. لذلك ينصرف كل إعلان في القرآن عن إيمان أهل الكتاب إلى هؤلاء النصارى، وكل تكفير لأهل الكتاب يعني اليهود وحدهم.

أما المسيحيون فلا يتطرق الكتاب إليهم. وقد بدا ذلك بوضوح في الآيتين ٣/ ١٨ ـ ١٩ (ص ـ ٦٧ ـ ٦٨ من كتاب المؤلف).

كان المؤلف في مقدمة هذه الفقرة «ثانياً» توَّضح كثيراً من التعميم في فهم «أهل الكتاب» وأوجب على كل باحث أن يلتمس الحقيقة فيما وراء الظاهر.

ولكن هنا اتبع عكس خَطِّه، فاستخدم التعميم في حكمه.

ـ فهو يرى أن كل إيمان منسوب إلى أهل الكتاب يعني النصارى (هنا تخصيص الإيمان بهم وتعميم الكفر على سواهم).

ـ ويرى أن كل كفرٍ منسوب إلى أهل الكتاب يعني اليهود (هنا تخصيص الكفر بهم وتعميم الإيمان على سواهم).

ـ ويرى أن المسيحية لم يجادلها القرآن لأنه لم يكن معنياً بها ولا معنية به(هنا تعميم غْير مقيد) ولقد كنا في الفقرة (٩) من البحث الأول ومن خلال دراستنا لآيات

سورة العنكبوت أفردنا عنواناً «لأهل العلم» تعرضنا فيه إلى الرؤية الخاطئة التي يعانيها المؤلف.

ـ فلا تعبير «المقسطين» محصورٌ بالنصارى من بني إسرائيل.

ـ ولا تعبير «الظالمين» محصورٌ باليهود.

وكل من التعبيرين لا يطلق ولا يلصق إلا إذا توفرت مقوماته وأسبابه ولم يحل أي حائل دون إلحاقه بمن يستحقه.

﴿قل أمر ربي بالقسط﴾(٧/ ٢٩) و**﴿ياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾**(١١/ ٨٥) و**﴿أقيموا الوزن بالقسط ولا تُخسِرُوا الميزان﴾**(٥٥/ ٩) و**﴿فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾**(٤٩/ ٩) و**﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين﴾**(٥/ ٤٢).

فالقسط: هو الحق والعدل، وهو ليس مقصوراً على النصارى أو غيرهم.

وكذلك الظلم: هو البعد عن الحق في القول أو في العمل. وتلك صفة قد يتوافر وجودها في غير اليهودي أيضاً، وقد جاءت في القرآن منسوبة إلى فئات وأشخاص دون تحديد فئوي أو طائفي **﴿إني إريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾**(٥/ ٢٩) **﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كَذِباً وكذَّب بآياته إنه لا يفلح الظالمون﴾**(٦/ ٢١).

ج ـ ولقد عكف المؤلف على المقارنة بين الآيات ليستخرج الخصوص من العموم والعموم من الخصوص كي يصل بالقارىء إلى أنه عندما تقع عيناه في القرآن على تعبير «أولي العلم» أو «أهل الكتاب» أو «الذين أوتوا الكتاب» فلا يتردد ولا يخالجه شك في أن المقصود هم النصارى.

كما أن اليهود هم المقصودون بتعابير الظلم والظالمين.

أما الآيات التي اعتمد عليها وقارَنَ فيما بينها لاستخراج هذا الحكم القرآني فهي:

ـ الآيتان ٣/ ١٨ ـ ١٩ ـ آل عمران.

ـ الآيات ٣/ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣ ـ آل عمران.

ـ الآيات ٣/ ٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ آل عمران.

ـ الآيات ٣/ ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ آل عمران.

ـ الآيتان ٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ آل عمران[1].

وإننا في هذه الفقرة: سوف نتتبع تلك المقارنات متخذين من تقسيماته مساراً متشابها:

١ ـ الآيتان ـ ٣/١٨ ـ ١٩:

كل من الآيتين قرّرت حكم القرآن في موضوع معين، وكل من الحكمين لا يقترب ولا يلتقي مع مقولة المؤلف:

ـ ففي الآية (١٨) شهادة بأن لا إلّه إلا الله صادرة عن الله والملائكة وأولي العلم. هنا: أولوا العلم كافة دون انحصار ولا استثناء، وفي ذلك تعظيم للعلماء إذ قرن شهادتهم بشهادة الله والملائكة.

٢ ـ الآيات ٣/ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٣:

﴿فإن حَاجُّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ وقل للذين أوتوا الكتاب والأُميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد(٢٠) إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط..(٢١) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون (٢٣)﴾

قال المؤلف: إن الآية (٢٠) لم تحدد المقصود «بأهل الكتاب» مما أوهم بأن الخطاب موجه إلى أهل الكتاب عامة لذلك بادرت الآيتان ٢١ و ٢٣ إلى إبعاد الوهم والإشارة إلى أن اليهود هم المقصودون.

---

(١) الآيات موضوع المقارنة من سورة واحدة، ولكن المؤلف درسها منفردة ضمن خمس فقرات

ـ فهم من أهل الكتاب الذين قتلوا ويقتلون النبيين.

ـ وهم الذين يُدْعَوْن إلى كتاب الله ثم يتولون عنه وهم معرضون.

ولكن قول المؤلف عدا عن أنه غير مدعومٍ بأيِّ مرجعٍ يخالف جميع من قرأ القرآن.

فقد اتفقوا:

ـ على آن آيات الله الواردة في الآية (٢١) مقصودٌ بها آيات القرآن.

ـ وأن الذين كفروا بها ويكفرون هم جميع الذين عارضوها ويعارضون.

أما الذين يقتلون النبيين فهم اليهود في السابق وكل من يأتي ويقوم بقتل النبيين، والآمرين بالقسط.

ـ وأن الذين أُوتوا نصيبا من الكتاب واحتكموا إلى النبي ليحكم بينهم بكتاب الله ثم تولوا فهم قومٌ من اليهود ـ وليس الجميع ـ نزلت هذه الآية فيهم لمعالجة حالة خاصة وهي: إن هؤلاء جاؤوا إلى النبي ليجدوا عنده رُخْصَةً في ترك الرجم للمُتزانيين فحكم الرسول بالرَّجم فأنكروا عليه ذلك، فطلب النبيُّ منهم أن يجلبوا التوراة ويرجعوا إليها في حدِّ الزنى.

* * *

٣ ـ الآيات ٣/٦٥ ـ ٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣:

لقد ظهر الارتباك على المؤلف وهو يقرأ الآية(٦٥)، فها هي تخاطب أهل الكتاب كافة منلِّدة في احتجاجهم بإبراهيم وادعائهم أن التوراة والإنجيل هما دين إبراهيم وشرعه: **﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾**.

ثم ازداد ارتباكه وهو يقرأ الآيتين ٦٦ و٦٧.

فالأولى نفت أن يكون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا.

والثانية أكدَّت على أن النبي والذين آمنوا معه هم أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى. لقد وجد المؤلف في هذه الآيات ما ينفي تفسيراته ومقولاته فأكبَّ عليها محاوِلاً تفتيت مضامينها وتحويرَ معانيها عن طريق مقابلتها بالآيات (٦٩ ـ ٧٠ ـ ٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣).

ولكن محاولته اعترضتها الموانع الآتية:

ـ إن الفكرة التي أُفرغت في الآيات من ٦٥ ـ ٦٨ تكاملت واستقرَّت معانيها واستقلت بتمام هذه الآية، لينتقل بعدها الخطاب القرآني إلى أفكار جديدة.

ـ فكانت الآية (٦٩) من أجل مناسبة خاصة لذلك سبقت بحرف «من» ليفيد التبعيض والتجزئة: ﴿**ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم**﴾ فقد نزلت في جماعة من اليهود تمنوًا إضْلَالَ «معاذ بن جبل» «وعمار بن ياسر» عن دينهما وقد صار استخدام فعل «ودَّ» والحرف «لو» للدلالة بهما على الرغبة والتمني.

ـ ثم جاء تحديد هوية «أهل الكتاب» في الآية (٧٠): ﴿**يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**﴾ فدلَّت على أنهم فئات من اليهود والنصارى التي تشهد بأنّ آيات القرآن هي آيات معجزات، ولكنها تظل على كفرانها بها ومعارضتها لها.

ـ ومثل الآية (٧٠) وصفت الآية (٧١) تلك الفئات بأنها تُلْبِسُ الحقَّ بالباطل وتكتم الحق وهي على تمام العلم به.

ـ وفي الآية (٧٢) ورد الإخبار عن بعض أهل الكتاب من اليهود والنصَّارى الذين كانوا يتظاهرون بالإيمان أمام المسلمين حتى اذا خَلَوْا إلى أنفسهم عادُوا إلى الكفر وعاد الكفر إليهم. وهنا وَرَد الخطابُ بصيغة التجزئة «طائفةٌ من أهل الكتاب»

ـ وكذلك القسم الأول من الآية ٧٣ ـ ﴿**ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم**﴾ فقد اتفق المفسرون على أنه تتمة للآيتين السَّابقتين.

* * *

ومن ذلك يتضح أن صراحة الآيات وقطعيتها لا ينال منها استنتاج المؤلف من

الآيات الأخرى وإن القرائن التي استخرجها لا تنسجم مع مضامين النص ولا تتفق مع غاياته.

* * *

٤ ـ الآيات: ٩٨ ـ ٩٩ ـ ١٠٠ ـ ١٠١:

وفي الآيتين (٩٨ و٩٩) ـ كما قال المؤلف ـ تعميم، ولكن الآية (١٠٠) تبادر فتقيِّدُه وتردُّهُ إلى التخصيص باليهودية (ص ـ ٦٩ ـ من المؤلف).

﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله... (٩٨) قل ياأهل الكتاب لم تصدُّون عن سبيل الله... (٩٩) يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين.. (١٠٠) وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هُدي إلى صراط مستقيم (١٠١)﴾.

إن التعميم في الآيتين (٩٨ و ٩٩) لا يتناقض مع التخصيص في الآيتين (١٠٠ ـ ١٠١).

ففي الآيتين ٩٨ و ٩٩ تحذير عام لأهل الكتاب من الكفر بآيات الله ومن إضلال الكافرين لهم. وفي الآية (١٠٠) تحذير للمؤمنين من أن يقعوا في إضلال هذا الفريق المضلّل من اهل الكتاب، ثم تأتي الآية (١٠١) بصيغة التعجب الاستفهامي (وكيف تكفرون؟) وهي صيغة يراد بها المنع والتغليظ لأنَّ صدور الكفر عنهم غير ممكن الحصول مادامت تتلى عليهم آيات الله وبينَهُمْ رسُولَهُ (ص) الَّذي يُزِيلُ وُجُودُه كلَّ شُبْهَةٍ وَيُقَّرِرُ كلَّ حُجَّةٍ.

٥ ـ الآيات ١٨٦ ـ ١٨٧ من آل عمران و١ ـ من البينة و٨٥ من المائدة:

وكذلك يقول المؤلف: إن صيغة العموم في الآيتين ١٨٦ ـ ١٨٧ التي تشير إلى أهل الكتاب كافَّة تحددها وتُوضِّحها صِيغَةُ الآيتين (١ ـ البينة) و (٨٥ ـ المائدة) ص ٦٩ ـ من المؤلف.

ـ في الآية ١٨٦ خطابٌ مُوجَّهٌ إلى الرَّسُول والمؤمنين يخبرهم عما ينتظرهم من المواجهة والاضطهاد والأذى من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

ـ وفي الآية ١٨٧ ـ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ألاَّ ينبذُوه ولا يكتموه.

وقال: مال البعض إلى توسيع مساحة العموم في الآية الثانية ليشمل الجميع حتى المسلمين، لأنهم أيضاً من حملة الكتاب الذين أخذ الله منهم الميثاق بألايكتموه. ويروون في صحة هذا الرأي حادثة وقَعَتْ لِلْحَسَن عندما سأله الوالي ما الذي بلغني عنك فقال ما كلُّ الذي بلغك عني قلته ولا كلُّ ما قلته بلغك عني: قال: أنت قلت إن النفاق كان مقموعاً فاصْبَح قد تعمَّم وتقلَّد سيفاً؟ قال نعم. قال ما الذي حملك على هذا ونحن نكرهه؟ قال: لأنَّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه.

وقال قتادة: مَثَلُ عِلْمٍ لا يُقال كَمَثَلِ كَنْزٍ لا يُنْفَقُ منه ومثل حكمة لا تخرج كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب.

وروي عن علي (ع) ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتَّى أخذ على أهل العلم أن يُعلِّموا.

ـ أما الآية (١) من سورة البيِّنة فإن موضوعها يختلف عن موضوع الآيتين ١٨٦ ـ ١٨٧. وليس من مقاصدها تخصيص العموم الوارد فيهما أو تحديده.

فهما إذ تتحدثان عن الأذى المنتظر وقُوعُهُ على المسلمين من قبل «الذين أوتوا الكتاب ومن الذين أشركوا، تتحدث الآية (١) من البينة عن «الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أنهم لن ينفكُّوا حتى تأتيهم البينة أما البينة فهي الرسول الذي يتلو صُحفاً مطهرة (٢) فيها كتبٌ قيمة(٣) وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءتهم البينة(٤).

قيل: وكيف صحَّ أنهم سوف يضلّون حتى تأتيهم البينة؟ أي إن انفكاكهم عن الكفر حاصل بمجيء البينة التي هي النبي محمد (ص)؟.

قالوا: إن أهل الكتاب من يهود ونصارى وكذلك المشركين كانوا يقولون قبل البعثة لن ننفك عما نحن عليه حتى يأتي النبي الموعود المكتوب في التوراة والإنجيل، فلما جاء لم ينفكوا بل ازدادوا تصلبا وامتناعاً (الرازي).

ـ أما الآية ٨٥ ـ من سورة المائدة، فلا علاقة لها بالموضوع الذي طرحه المؤلف.

بل هي وصف للثواب الذي لقيه النصارى، الذين فاضت عيونهم من الدمع عندما تليت عليهم سورة مريم وهم ـ في الأسناد الراجح ـ النجاشي وصحبه، كما مرَّ معنا.

ثالثاً: في سورة النساء:

أورد المؤلف مجموعتين من آيات هذه السورة وقال: إن كلاًّ منهما عالجت موضوعاً معيناً مستقلاً.

ـ فالمجموعة الأولى التي تكونت من تلازم الآيات (٤/ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦) خاطبت أهل الكتاب بصيغة العموم مع أنها تقصد منهم اليهود بالتخصيص مما خلق شبهة في شمول الصيغة لأهل الكتاب كافة من يهود ونصارى.

ـ وفي الآيات (٤/ ٥٠ ـ ٥٣ ـ ٥٤) وردت صيغة «الذين أوتوا الكتاب» في الآية (٥٠) مما أوهم أنها شاملة لجميع أهل الكتاب، فبادرت الآيتان ٥٣ ـ ٥٤ إلى إزالة الوهم والتوضيح بأن خطاب الآية (٥٠) مخصوص به آل إبراهيم الذين أوتوا الكتاب والحكمة، أي التوراة والإنجيل.

ـ غير أن مضامين الآيات، في المجموعتين لا يلتقي مع حاجات المؤلف وأطروحاته.

أ ـ فالآيتان (٤/ ٤٤ ـ ٤٥) لا تُقْرآن مستقلتين عما قبلهما وخاصة الآية (٤٣) لأن الآيات الثلاث تتكامل وتلتقي حول موضوع واحد.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكَارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جُنُباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم الغائط أو لامستم النساء فلَمْ تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيبا فامسَحوا بُوجُوهكم وأيديكم إن الله كان عَفُوّا غفورا(٤٣) ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب

يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل (٤٤) والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً(٤٥)﴾.

ـ ففي الآية (٤٣) بيان عن أحكام الطهارة والتحذير من السكرعند الصلاة.

ـ وفي الآيتين (٤٤ ـ ٤٥) بيان عن أن الذين «أوتوا نصيباً من الكتاب» اشتروا الضلالة وأرادوُا أن يُضِلُّوا المؤمنين عن الفروض المفروضة والواجبات المكتوبة والله هو الأعلم بأعداء المسلمين وكفى به وليًّا ونصيرا.

ـ ومن المفيد أن نُمْعِنَ في تعبير «الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» لنلمس الفروق المعنوية بينه وبين تعبير «الذين أوتوا علم الكتاب».

ففي التعبير الأوَّل خُصُوصِيَّةٌ وتجزيءٌ، وفي الثاني تعميمٌ دون تحديد.

وقد ثَبَت بالتَّواترأنَّ الآيتين ٤٤ و ٤٥ نزلتا في حِبْرَيْنْ من أحبار اليهود كانا يأتيان رأس المنافقين «عبد الله بن أُبَي» ورهطة فيثبطونهم عن الإسلام.

ب ـ على هذا الأساس يمكن فَهمُ الخصوصِيَّة في صيغة «الذين أوتوا نصيباً من الكتاب» في الآية (٥١) حيث نزلت في «حُيَيّ بن أخطب» و«كعب بن الأشرف» اليهوديين الذين يؤمنان بالجبت والطاغوت. وقد اختلفوا في معنى «الجبت الطاغوت» فبعضهم قال «الجبس» ثم أبدلت السين بالتاء وهو كل رديء. و«الطاغوت» من الطغيان وهو الإسراف في المعصية. وقال صاحب الكشاف: الجبت هو الأصنام وكل ما عُبِدَ من دُون الله، والطاغوت هو الشيطان. وقال الكلبي: الجبت والطاغوت في هذه الآية هما حُيَيّ بن الأخطب وكعب بن الأشرف اللّذان كانا مرجِعاً لليهود، فأطلق القرآن عليهما هذين الإسمين لإضلالهما الناس.

* * *

رابعاً: في سورة الحشر:

من المتفق عليه بين المفسرين والمؤرخين أن هذه السورة سُمِّيت باسمها لأنَّها أوَّلُ حشرٍ «لأهل الكتاب» وقع على يهود المدينة، فقد حُشروا وأخرجوا من جزيرة العرب بِذُلٍّ لم يقع عليهم مثلُه من قبل، وقد كانوا أهل عزٍّ ومَنَعةٍ.

وسبب الحشر والإخراج هو أن بني النضير منهم كانوا قد تعاهدوا مع النبي على أن لا يكونوا معه أو عليه، ولكنهم نقضوا عهدهم بعد معركة «أُحُد» فاجتمع منهم أربعون راكباً بقيادة كعب بن الأشرف وخرجوا إلى مكة وحالفوا أبا سفيان عند الكعبة فهدر النبي دم كعب فقتله أخوه من الرضاعة وهو محمد بن مسلمة الأنصاري. ثم جاءهم النبي بالكتائب وأمرهم بالخروج من المدينة فقالوا: الموت أحبُّ إلينا ثم استمهلوه عشرة أيام ليتدبَّروا الرأي ولكنهم أجمعوا على الحرب وأقاموا التحصينات. وكان المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَيّ يحثونهم على البقاء والمقاومة ويَعِدُونهم بالقتال معهم. وبعد واحدٍ وعشرين يوماً من الحصار طلبوا الصلح بعد أن يئسوا من معونة المنافقين ووقعوا فريسة للرعب. فتم جلاؤهم عن المدينة على أن يحمل البعير الواحد لكل ثلاثة أبيات مايشاؤون من متاع.

وقد نزلت الآيات (٥٩/ ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢) متحدثة عنهم.

﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾(٥٩/ ٢).

إن تعبير «الذين كفروا من أهل الكتاب» فيه تحديد وتبعيض. وهو هنا لا يشمل جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى كما لايشمل جميع اليهود بل يعني الذين شملهم حكم الجلاء عن المدينة.

أما النصرانية: فلم تكن معنيَّة بهذه الآيات لخصوصيتها في بني النضير.

* * *

خامساً: من سورة البينة:

لقد استخرج المؤلف من سورة البينة معاني عديدة لكل منها خطر وشأن فقال:

١ ـ فالذين كفروا هم اليهود والمشركون. (٦٨/ ٦: البينة و٥/ ٨٥: المائدة).

٢ ـ الصُّحف المطهرة التي احتوت على الكتب القيمة هي أسفار الكتاب المقدس (٩٨/ ٣ ـ ٤) البينة.

٣ ـ والمفسرون أخطأوا إذ قالوا:

ـ إن القرآن وهم «أهل الكتاب» بالكفر.

ـ وإن الصحف المطهرة والكتب القيمة هي «القرآن بِسُوَره وآياته».

٤ ـ إن البينة التي أتى بها النبي بناءً على طلب الكفار والمشركين تشكل الشهادة القرآنية المحكمة بأنه تلا عليهم الكتاب المقدس بأسفاره كلها.

٥ ـ إن آيتي **﴿رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة(٣) فيها كتبٌ قيِّمة(٤)﴾** تقضيان على أسطورة أميّة محمد.

تلك المعاني الخمسة استخلصها المؤلف من الآيات الأولى من سورة البينة فاحتلت الصحيفتين ٧٣ و ٧٤ من كتابه لم يشارك أحداً في رأيه ولم يعتمد على مؤيد.

أما نحن فإن لنا عليها تحفظات واعتراضات تتلخص بالآتي:

أ ـ إنه وإن كان عدد من العلماء ومن بينهم الواحدي في كتابه البسيط، قالوا: إن الآية (١) من سورة البينة هي من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً، فإن أيا من العلماء لم يقل بأن القرآن حصر الكفر في اليهود والمشركين بالمعنى المحدد المضغوط لمفهوم المشركين عند المؤلف.

بل اتفقوا على أن الكفار جنسان: **أحدهما**: الذين كفروا من (فرق اليهود وفرق النصّارى) لأنهم أحدثوا في الدين أحداثاً غريبة عنه، كاعتقاد اليهود بأن عزيراً ابن الله واعتقاد النصارى بأن المسيح ابن الله... والثاني هم المشركون الذين لم يكونوا ينسبون إلى كتاب فجاء ذكر الجنسين في القرآن بصيغة الإجمال (الذين كفروا) ثم أردف الإجمال بالتفصيل (من أهل الكتاب والمشركين) وقد دخل على الآية حرف «من» لالكي تفيد التبعيض الذي هو من طبيعة الحرف ولكن لتفيد «التبيين» هنا لأنه إن صحَّ شرعاً وواقعاً أن ليس جميع أهل الكتاب كفاراً أو صحت

التجزئة بالنسبة إليهم فذلك لا يصح في المشركين الذين لا ينتسبون إلى كتاب.

جميع ذلك كما قلنا: إذا اعتبرنا أن أهل الكتاب جنس والمشركين جنس آخر في هذه الآية.

أما إذا اعتبرنا أن كلمة «المشركين» هي وصف ثان لمن كفر من أهل الكتاب فإن الحرف «و» يكون حرفاً لعطف الصفات المتعددة في الموصوف الواحد. وفي القرآن أمثلة كثيرة على هذا الأسلوب البياني مثلما ورد في الآية ٩/ ١١٢ من سورة التوبة ﴿**الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ٱلحافظون لحدود الله**﴾ ويكون وصفهم «بالمشركين» محمولاً على أن ما في عقيدتهم لا يخرج عن الشرك لأن النصارى مثلثة واليهود مشبهة وهذا كله شرك بالله.

لذلك:

ـ أمكن القول: إن المؤلف أخطأ فهم القرآن إذ نسب إليه حصر الكفر وتحديد «حزبه» باليهود والمشركين العرب وحدهم.

ـ وأخطأ إذ وجد تكاملاً والتقاءً بين آية البينة والآية ٨٥ من المائدة لأن النصارى الذين قالت آية المائدة إن عيونهم فاضت من الدمع عندما سمعوا القرآن كانوا على الخصوص والتحديد جماعة معينة. وكان ما جرى لهم حادثة معينة فهم لم يكونوا قاعدة لتعم كل النصارى أينما وجدوا وأنى وجدوا وهي لم تكن قاعدة لتعبر عمليا عن رد الفعل عند كل نصراني عندما يقرأ عليه القرآن. على أنه إذا بقينا على نسبة هذه الحادثة إلى «النجاشي وأصحابه» فإنها تكون قد حصلت قبل القرآن المدني بسنوات.

ب ـ ليس من المستساغ في أيِّ معيار أن تكون أسفار التوراة هي البينة التي طلبها المشركون والذين كفروا وليس من المقبول في أي منطق أن يربط هؤلاء انْفكَاكهم عن كتابهم وعقيدتهم ليتبعوا كتاب محمد وعقيدته بمجرد أن يتلو عليهم أسفاراً من كتابهم.

فالتوراة بين أيديهم، يتلونها ويمارسون شريعتها، من قبل مجيء محمد بألفي

عام فلا يُعقَل أن يجدوا في تلاوَتهِ إياها عليهم سببا لانفكاكهم عنها، واتباعهم لسواها.

بل العكس المفترض، قد يكون الأصح، فتلاوته لها على أنها البينة المطلوبة تدعم حجَّتهم بها وتعلقهم فيها وليس انفكاكهم عنها.

غير أن الصحيح كان غير ذلك تماماً.

فقد تحدَّوه أن يأتي «ببينة» أي «بمعجزة» تَضَعُه في مصافِّ الأنبياء ليؤمنوا به، فجاءته البينة«صُحُفاً تطهرت من الناقص والقبيح، و«كتبا قيمة» مستقيمة تبين الحق من الباطل، وهي القرآن بآياته. لذلك اتجه رأي أكثرية العلماء في فهم الآيتين (٢ ـ ٣) ﴿رسول من الله يتلو صُحُفاً مطَّهرة. فيها كتب قيمة﴾ على أنهما بمجموعهما في محل بدل إجمالي للتعبير الوارد في الآية الأولى حتى تأتيهم البينة.

ج ـ وعلى هذا الأساس فالكفر الذي ورد ذكره في الآية (١) من السورة لا يعم جميع أهل الكتاب بل يلحق بمن ثبت كُفرُه منهم، وقد اجتهد بعض العُلماء فألحقوا المجوس بأهل الكتاب، أَخْذاً من قوله عليه السلام: «سَنُوليهم سُنَّة أهل الكتاب».

د ـ بعد ما تقدم لم تعد من حاجة إلى التنبيه مجَّدداً على خَطَأِ المؤلف إذ قال: فالإعلان بأن البينة المطلوبة أتاهم بها محمد هو شهادة قرآنية مُحَكّمَةٌ على أن محمداً تلا الكتاب المقدس بأسفاره كلِّها ص ٧٤ من كتابه.

لأنه ـ على أساس هذا الفهم ـ لن يبقى للآيات معنى ولا هدف.

* * *

سادساً: في سورة الحديد:

وسورة الحديد غير متفق على مكان نزولها، فهي في «ابن كثير» مدنية وفي الإمام الرازي «مكية» وعند الجلالين «مكية ومدنية».

لذلك لن نحاسب المؤلف على إلحاقها بالسور المدنية. بل سوف نعارضه في استنتاجاته التي استخرجها من الآيات ٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ منها.

ـ فقَدْ فَهِمَ من الآية ٢٦ أنها تصريحٌ قرآني صريح في حصر النبوة والكتاب بذرية إبراهيم من حفيده يعقوب.

ـ وفهم من الآية ٢٧ أن الذين آمنوا هم النصارى من أمة عيسى وأن الذين فسقوا هم اليهود الذين وصفتهم الآية ١٦ بقولها ﴿**ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾.

ـ وهؤلاء هم الذين تردد ذكرهم في الآية (٢٩) بأنهم أهل الكتاب حيث وردت صيغة التعميم في موطن التخصيص.

تلك المفاهيم، التي استخرجها المؤلف من سورة الحديد (ص ـ ٧٤ ـ من كتابه) فأين أوجه الخطأ فيها؟ سوف نلقي على تلك المفاهيم بعض الضوء لبيان ما اعتورها من أخطاء:

أ ـ إن النبوة والكتاب جعلت في ذرية نوح وإبراهم. لم يستثن القرآن ولم يخصص بل نصَّ على أن «الجَعْلَ» في الذرية كان عاما يختار الله منها من يشاء لحمل الرسالة وتَلَقِّي الكتاب وفي الآية ٢٦/٥٧ نفسها تصريح في هذا التعميم:

﴿**ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون**﴾ كما إن الوضوح يبلغُ أقصاه في بعض الآيات الأخرى مثل الآيات من ٨٤ ـ ٨٩ من سورة الأنعام ﴿**ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدَيْنا ونوحاً هدينا من قبلُ ومن ذريَّته داوودُ وسليمان وأيوبُ ويوسفُ وموسى وهارونُ وكذلك نجزي المحسنين(٨٥) وزكريَّا ويحيى وعيسى وإلياس كلٌّ من الصالحين(٨٥) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلا فضلنا على العالمين (٨٦)**﴾ ﴿**أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين(٨٩)**﴾.

من هنا: يبدو فشل المؤلف ـ إذ أراد ـ بالاستناد إلى القرآن أن يستبعد إسماعيل عن شَرف النبوة، لينفي وينكر ظهورها في أحد أبنائه وهو محمد (ص) لذلك حرص على جَعْلِ النبوّة والكتاب في ذرِّيَة إبراهيم من ولَدِه إسحق وحفيده يعقوب حصراً دون ولده إسماعيل أو واحدٍ من ذراريه.

ب ـ ربط المؤلف بين الآيتين ٢٦ و ٢٩ وقال:

ـ ﴿إن الذين آمنوا وأوتوا أجرهم. . .(٢٩)﴾ هم النصارى.

ـ ﴿وإن الذين فَسَقوا. . .﴾ (الآية ذاتها) هم المسيحيون اليعاقبة.

ـ وإن الآية ٢٩ ـ نزلت بلهجة استعلاءٍ على المسيحيين، تعبيراً عن تعويض المسلمين بفتح مكة عن فشلهم في غزوة مؤتة. «فأهل الكتاب» في هذه الآية هم اليعاقبة بصيغة عامة. ولكن المدقِّق في الآيتين والمتتبع لهما في مراجع التفسير ينتهي إلى غير تخيلات المؤلف.

١ ـ فهو لو قرأ الآية كاملة لوجد أن القسم الذي استبعده منها أحدث بعده خللاً في توازُن المعنى.

فالآية: ﴿ثمَّ قفينا على آثارهم﴾ (نوح وإبراهيم وذريتهما) ﴿برُسُلنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقَّ رِعايتها فآتَيْنا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ (٢٧) فالرهبانية لم تكتب إلا للتوسُّل بها لاكتسابِ مرضاة الله. ولكنهم ضمُّوا إليها التثليث والاتحاد وطلب الدنيا وعندما أدركوا النَبي آمن به من آمن فأوتوا أجرهم.

ويدُلُّ على هذه المعاني ما رُوِي عن النبي (ص) قال: من آمن بي وصدَّقني واتَّبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون ـ (الرازي).

فالخطاب في الآية شامل جميع من اتبع عيسى ابن مريم والذين آمنوا منهم بالإسلام لم يكونوا قبل إسلامهم يختلفون عن الجميع، لذلك يكون التركيز على تسميتهم «نصارى» تفريقاً لهم عن المسيحيين، يتعارض مع معاني الآية.

٢ ـ و«اليعاقبة» لم يكونوا وحدهم الفاسقين ولم يخصص الفسق بهم.

لأن هذه الصفة أطلقت على جميع من ترك أوامر الله عز وجل بدءاً من إبليس الذي كان أول الفاسقين ﴿وفسق عن أمر ربه﴾ أي مال عن طاعته. وعلى هذا جاء تعبير الآية: ﴿وكثير منهم فاسقون﴾ ليدل على جميع من لم يؤمن بالرسالة ممن

ذكرتهم الآية: ﴿**الذين اتبعوا عيسى ابن مريم**﴾.

٣ ـ أما الآستعلاء الذي اكتشفه المؤلف من الآية ٢٩ وعلل سببه، بأنه إظهار التباهي بالتعويض الذي ناله المسلمون في فتح مكة عن فشلهم في غزوة مؤتة.

فما ندري من أين وكيف استقى هذه المعلومات؟.

فهو ـ بارك الله فيه ـ لا يجد في نفسه حاجة إلى اعتماد أي مرجع تاريخي أو فقهي أو تفسيري.

أما نحن، الذين نفتقد هذه الثقة العمياء ترانا مضطرين على الدوام إلى سؤال المراجع الموثوقة والأسانيد المسندة احتراماً منّا لوقت القارىء وعلمه.

لذلك عدنا إلى «الإمام الرازي» و «ابن كثير» و «الجلالين» وتواريخ السيرة بحثاً عن مزاعم الاستعلاء أو التباهي بالتعويض عن فشل مؤتة فما وجدنا شيئاً على الإطلاق.

كل ما وجدناه في هذا الخصوص هو ما يلي:

ـ جاء في الجلالين أن الآية السابقة من سورة الحديد ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه**﴾ (٥٧/٧) نزلت في غزوة العَسْرة وهي غزوة تبوك حيث أشارت نهاية الآية: ﴿**فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير**﴾ إلى عثمان الذي شارك مشاركة فعالة في تجهيز الغزوة من أمواله.

ـ إن الآية ٢٩ صرّحت بأن أهل الكتاب كافة هم على خطأ في ادعائهم التخصيص الإلّهي لهم بالنبوة والكتاب والفضل. وأفهمتهم أنهم لا يقدرون على شيءٍ من فضل الله وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقد فسر العلماء كلمة «لئلاّ» التي ابتدأت بها الآية. بأنها زائدة على الفعل يمكن أن يفهم مقصود الآية من دونها: ﴿**لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدِرون على شيءٍ من فضل الله وأن الفَضْل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾ (٥٧/٢٩).

* * *

سابعاً: في سورة المائدة:

في سورة المائدة وطوال الصفحات ٧٥ و٧٦ و٧٧ و٧٨ من كتابه طفق المؤلف يجترح الأخطاء دون توقف.

ـ فهو يرى أنَّ سلسلةً من آيات الجدال مع اليهود توضعت في هذه السورة مع أن تصفيتهم من الحجاز كانت قد تمت منذ نزول سورة الصف حيث جاء ذكر ذلك في الآية ١٤ من تلك السورة.

لذلك: كان لا يوجد تفسير مقبول لإقحام النَّصارى ضمن آيات اليهود غيرَ محاولة إيهام النَّاس أن الجدال القرآني استمر مع وفد نجران مثلما استمر مع اليهود.

ـ ويرى أن الآية (٥) أقامت الوحدة الدينية بين المسلمين وأهل الكتاب (النصارى).

ـ وإن «أهل الكتاب» في الآيات (١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١) هم اليهود فقط بدليل افتتاحية الفصل بالنداء إلى بني إسرائيل(الآية ١٣) واختتامه بقصة موسى من (٢٢ ـ ٢٩):

ـ إن منع الموالاة للذين أوتوا الكتاب والكفار في الآية ٦٠ مقصور على اليهود والكفار العرب وذلك بدلالة الآيات من (٦٣ ـ ٦٧) التي كشفت حقيقة العلاقة بينهم وبين المسلمين.

ـ والآيات ٦٨ و٦٩ و٧١ وإن كان ظاهر التعبير فيها شاملاً لأهل الكتاب كافة فإنها خاصة باليهود لأن الفصل جميعه ردَ على اليهود بدءاً من الآية ٦٦ ـ حتى الآية ٧٣.

ـ في الآية ٦٦ ـ يبدو انتماء الإسلام إلى النصرانية واضحاً جداً إذ يدعو اليهود دعوة صريحة إلى اتباع التوراة والإنجيل وإقامتهما ديناً واحداً، وهذه هي العقيدة النصرانية بلحمها ودمها.

تلك خلاصة عن مقولات المؤلف نوجز مناقشتها بالآتي:

١ ـ مع أن إخراج اليهود ورد ذِكْرُهُ في سورة الحشر ـ كما مرَّ معنا ـ ومع أنه

لم يثبت تاريخياً أن الآية ١٤ من سورة الصف نزلت إعلاناً عن تصفيتهم في الحجاز لأنها ركزت على قصة دعوة المسيح واستجابة الحواريين لنصرته وهي قصة تعود في التاريخ إلى ما قبل نزول آية الصف بأكثر من ستة قرون كما أن إظهار الذين آمنوا بالمسيح على الذين كفروا فيه. ثم في القرن الرابع الميلادي منذ أن أعلن قانون الإيمان النيقاوي بعام ٣٢٥ م.

مع ذلك كله: لا نرى أن الخوض في تاريخية جلاء اليهود عن الحجاز يمكن أن يفيد هذا البحث.

٢ ـ أما الوحدة التي وجدها المؤلف في الآية ٥ من هذه السورة بين المسلمين والنصارى من أهل الكتاب، فهي غير موجودة إلا في خيال المؤلف.

فالوحدة «بِعُرف المؤلِّف ومفهومه» كانت اندماج الدَّعوة الإسلامية نبيّاً وكتاباً ورسالةً بالنصرانية. فهل قام شيء من ذلك؟.

هل انضم الإسلام أو انضوى تحت دعوة النَّصرانية؟ أم إن الذين آمنوا به نصارى ويهود ومجوس ومشركين وصابئة وسواهم هم الذين انضموا إليه وآمنوا به وأقاموا شعائره وحفظوا كتابه وتَبِعُوا نبيه؟.

القول بغير ذلك: هو عبثٌ في التاريخ والأديان وعلم الإجتماع.

إذ متى حصل في التاريح، أنَّ فئة أو جماعةً تبنَّت دستور فئةٍ أو جماعة أُخرى، فعبَّرت عن ذلك بأن طوتها، بشرياً وفكرياً وعقائديا تحت يمينها؟.

وهل يُعقَل في أي منطق أن يكون هدف الإسلام هو النصَّرانية بكتابها وطقوسها فيعبِّر عن ذلك بأنه هيمن على كتابها وطقوسها وألزمها بكتابه وشعائره؟.

إن الذي يسير على يديه، هو الذي يستسيغ هذا الافتراض.

ومع هذا فلا ضير في أن نلقي نظرة على الآية ٥ من سورة المائدة.

ـ هذه الآية لها ارتباط وثيق بالآيتين (٣ و ٤) كما لها العلاقة الموضوعية ذاتها بالآية (٦)، ففي الآية (٣) أعلن القرآن أن الإسلام أصبح له من القوّة في السلطان والرسوخ في الروح ما بعث الاطمئنان في نفوس أبنائه. فما عادوا يخشون عليه من

خصومه الذين أدركهم اليأس من أن ينالوا منه. هذه المرحلة هي مرحلة كمال الدين وإتمام النعمة.

﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ اليوم أكملت لكُم دينكم واتممتُ عليكم نعمتي ورضِيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ (٥/ ٣: المائدة).

- وفي الآيتين ٤ و٥ اتصال بالآية ٣ وعود إليها.

فبعد كمال الدِّين وإتمام النعمة بالإسلام، أتم الله نعم الدُّنيا في المآكل والتزاوج.

﴿يسألونك ماذا أحلَّ لهم قل أحلَّ لكم الطيِّبات وما علَّمتم من الجوارح مكلبِّين...﴾ (٥/ ٤) **﴿اليوم أحلَّ لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم والمحصَنات من المؤمنات والمحصَناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورَهن محصنين[1] غير مسافحين[2] ولا متخذي أخدان[3]...﴾**(٥/ ٥).

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جُنُباً فاطَّهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أولامَستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن ليطهركم وليتم نعمتَه عليكم لعلكُم تشكُرون﴾(٥/ ٦).

فالآيات ٤ - ٥ - ٦ وما بعدها من سورة المائدة: لم تتحدث - كما قال المؤلف - عن قيام الوحدة الدينية بين الإسلام والنصرانية.

بل تحدثت:

- عن أمور الدنيا.

---

(١) المحصن هو المتزوج الذي أحصنه الزواج.
(٢) المسافح: من السفاح والمسافحة والتسافح أي الزنا والفجور.
(٣) الأخدان جمع خدن وهو الصاحب.

وإن كان الإسلام حلَّل طعام أهل الكتاب وذبائحهم فلأنهم يذكرون عليه اسم الله.

ـ والزواج منهم مشروط بأن يكون زواج المحصن، لا زواج المسافح ولا الخدِين.

ـ أما فروضُ الصَّلاة وأحكام الوضوء والطهارة والتيمم فهي قواعد إسلامية ليس لها مقابل في النصرانية.

وذلك كله يدحض ادعاء المؤلِّف بانتماء الإسلام إلى النصرانية واتحاده معها ودعوته بدعوتها.

٣ ـ أما استدلال المؤلف على خصوصية تعبير أهل الكتاب بالآيتين ١٦ و٢١ في اليهود اعتماداً منه على أَنَّ الفصل الممتد من الآية ١٣ ـ ٢٩ ابتدأ ببني إسرائيل واختتم بقِصَّة موسى:

هذا الرأي يحملُ الأخطاء التالية:

أ ـ إن تعبير «أهل الكتاب» موجودٌ في الآيتين (١٥ و١٩) وليس كما قال المؤلف.

ب ـ ورد هذا التعبير في الآية (١٥) بعد أن كانت الآية (١٤) تحدثت عن النَّصارى بشيء من التفصيل:

﴿ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظّاً مما ذُكِّروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئُهم الله بما كانوا يصنعون﴾ (٥/ ١٤).

ـ فتعبيرُ «الذين قالوا إنا نصارى» يشمل أتباع المسيح كافةً. فلا يمكن قصرُه على الذين آمنوا منهم بالإسلام. لأنهم ـ كما تقول الآية ـ «نسوا حظا مما ذُكروا به وهو ميثاقهم مع الله في أن يُقِرُّوا بِنُبوَّة النبي محمد.

ـ ولأنهم ظلوا كتلةً دينيةً غيرَ مرتبطة بالإسلام، حيث ألصقت بهم العداوةَ والبغضاء إلى يوم القيامة.

ج ـ بعد هذه الآية جاءَت الآية (١٥) منادية «أهل الكتاب» بأنَّ الله أرسل إليهم

الرسول ليبين لهم الكثير مما يخفون من الكتاب ويعفو عن الكثير وأنه قد جاءهم من الله نورٌ وكتابٌ مبين.

لذلك، كان تجاوزاً من المؤلف ـ وتجنياً ـ أن يَرَى في هذه الآية، نداءً خاصّاً باليهود دون باقي أهل الكتاب.

د ـ أما الآية التي افتتحت بهذا التعبير فقد جاءت تتمة وخاتمة للآيتين ١٧ و١٨. حيث أعلنت الأولى عن تكفير من قال إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم. واستنكرت الثانية تبجج كل من اليهود والنصارى بقوله: نحن أبناء الله وأحباؤه.

فبعد هاتين الآيتين جاءت الآية (١٩) بنداءٍ إلى أهل الكتاب، أي الذين سبق الحديث عنهم في الآيات السابقة: ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل...**﴾(٥/ ١٩).

هـ ـ أما قول المؤلف، أن الفصل كله مخصص لليهود لأنه بدأ «ببني إسرائيل» وانتهى «بقصة موسى» فهو قولٌ باطل:

ـ لأن الآية ١٤ تحدثت عن النصارى حتى يوم القيامة.

ـ ولأن الآية ١٥ استمرار في الحديث عنهم وعن اليهود.

ـ ولأن الآية ١٦ جاءت عامة في الهداية.

ـ ولأن الآية ١٧ تحدثت عن تكفير من ألّه المسيح.

ـ ولأن الآية ١٨ تحدثت عن تبجح اليهود والنصارى.

ـ ولأن الآية ١٩ تحدثت عن أهل الكتاب كافة.

ـ ولأن قصة موسى تبتدىء من الآية ٢٠ ـ ٢٦ فتشكل كتلة إخبارية مستقلة عما سبقها وخالية من تعبير «أهل الكتاب» ومنفصلة عما تلاها من الآيات ٢٧ ـ ٣١ التي تلت نبأ ابني آدم بالحق[1].

---

(١) يرجى العودة إلى الآيات للتأكد.

و ـ أما الموالاة:

ـ فقد تحددت في الآية ٥٥، أنها لله ولرسوله والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

ـ وهي محظورة مع الذين اتخذوا دين المسلمين هُزُواً ولعبا والذين يسخرون من صلاتهم (٥٧ ـ ٥٨) وهو تحظير شامل لكل المستهزئين من أهل الكتاب والكفار.

ومن المفيد أن نفهم «الواو» هنا أنها للعطف الوصفي حيث جاء وصف أهل الكتاب بالكفر. لأن الآراء متفقة على أن صفة الكُفر أطلقت على اليهود مثلما أطلقت على الذين قالوا إن الله هو المسيح.

ز ـ ولا يوجد مع المؤلف أيُّ دليلٍ على أن اليهود وحدهم هم الذين أوقع الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة (٥/ ١٤).

فعدا عما اتفقت عليه كتُبُ التفسير، نجد في التاريخ صُنُوفَ العداوة والبغضاء بلا حصر بين طوائف النصارى أكثر مما هي بين طوائف اليهود وما زالت هذه البغضاء قائمة حتى اليوم.

ح ـ أما الآيتان: ٦٨ و٦٩ فهما غير مُخصصتين باليهود:

ـ فالأولى: ﴿**قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتَّى تُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم...**﴾ (٦٨) فالنداء إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى.

ـ والثانية: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنَّصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون**﴾ (٦٩).

هي أيضاً واضحة في التعميم وعدم التخصيص.

ط ـ ولقد وجد المؤلف ما يبحث عنه في الآية ٦٨، فقال إنها دعوة واضحة من القرآن موجَّهة إلى اليهود كي يتَّبعوا التَّوراة والإنجيل ديناً واحداً هو دين النصرانية التي انتمى إليها الإسلام.

وفي الحقيقة: لم يقبض المؤلف غير الباطل والريح، كما جاء في «الجامعة».

فالآية نفسها: توجهت بالنداء إلى أهل الكتاب كافة طالبة ممن هم على اليهودية أن يقيموا التوراة على حقيقتها، وممن هم على النصرانية أن يقيموا الإنجيل على حقيقته.

وطالبةً منهم جميعاً أن يقيموا أيضاً ما أنزل إليهم وهو القرآن، إذ لا يعقل أن يكون ما قصدته الآية بكلمة «وما أنزل إليكم» هو التوراة والإنجيل، لأنَّ الحديث عنهما سبق في الآية ذاتها مما يجعل من تكرار العودة إليها في الآية نفسها عيباً يَجِلُّ القرآن عن الوقوع فيه ومن يقرأ السورة من أولها متحركاً مع آياتها يجد:

أن الخطاب توجه إلى أهل الكتاب تارة بالرمز وتارة بالبيان اللفظي (يهود ونصارى) حتى ساوت بينهما آية الموالاة ٥١، ثم جمعتهما الآية ٦٦ بضمير الجمع الذي عاد إلى أهل الكتاب عامة في الآية ٦٥.

﴿ولوأن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم... ﴾(٦٦).

وبعد: نستطيع ـ في خاتمة هذا البحث ـ أن نبدي دهشتنا من المؤلف، الذي فهم من هذه الآية أنها دعوة من القرآن إلى اليهود لاتباع النصرانية من خلال دمج توراتهم بالإنجيل ليتكون من الدمج، الدين الواحد الذي نادت به النصرانية منذ أيام عيسى، ثم تبناه الإسلام ودعا إليه وآمن به.

الفصل الرابع

القرآن ينتسب انتساباً مطلقاً إلى الإنجيل
وأهله في «أمة واحدة»

توطئة: انتساب القرآن إلى الكتاب والإنجيل.

بحث أول: انتساب القرآن إلى الكتاب وأهله على العموم.

بحث ثان: انتساب القرآن إلى الإنجيل وأهله على الخصوص.

بحث ثالث: انتساب القرآن إلى «النصرانية» تلك «الأمة الوسط» بين اليهودية والمسيحية.

خاتمة: الإسلام دين انجيلي مبني على الشهادة لله وللمسيح.

توطئة

انتساب القرآن إلى الكتاب والإنجيل

«ليس من نبوّة جديدة ولا من كتاب جديد ولم يأت القرآن بدعوة مستقلة بل هو دعوة كتابية «نبوّتها وقرآنها» يقومان على تبليغ العرب دين ابراهيم وموسى وعيسى ويفرضان على أمة محمد «متابعة أهل الكتاب» و«التسليم معهم» بأن الإله واحد والتنزيل واحد والاسلام واحد، وإقامة الدين الواحد تحت شعائرهم» ـ المؤلف ص ٨٠ ـ ٨١ ـ.

* * *

تقدّمت التوطِئَةُ أبحاث الفصل الرابع من الكتاب واعتمدت في أطروحاتها، على آيات من سور «يونس» و«الأنعام» و«الأحقاف» و«النمل» و«الشورى» و«البقرة» و«آل عمران» و«العنكبوت».

وهي وإن كانت تمهيداً للبحوث القادمة، وتنبيهاً إليها فقد طرحت عناوين على شكل مسلّمات قرآنية مبثوثة في سور الكتاب وسوف تكون مهمة الفصول القادمة إخراجها من مكامنها وعرضها على حقيقة مقاصدها أمام الأبصار والبصائر التي عميت عنها منذ أن استقرت في القرآن.

لقد قفز المؤلف من فوق مئتين وخمسين صحيفة ليضع بين يدي القارىء نتيجة طازجة وكأنه يقول له: لم تعُد بك من حاجة إلى الوقت والجهد في قراءة الكتاب وتكوين فكرتك الخاصة عنه، فها هي النتيجة سعت إليك بقدميها وعرضت نفسها عليك مطواعة.

إن هذه الطريقة في الكتابة والتأليف تخرج عن المألوف في الكتابة والتأليف لأنها تصادر حق القارىء في حرية الرأي والاختيار، وهي إن أمكن اعتمادها في النادر من الحالات لا يمكن أن تغتفر في «الحوار».

فمما لا يجوز قبوله من كاتب أو مؤلف أن يضع نتيجة الحوار بين «فكرين» قبل أن يبدأ الحوار، وإن كان الأستاذ الحداد يقدم بمؤلفاته تمهيداً وجذباً لإقامة الحوار الإسلامي المسيحي فقد كان جديراً به أن يترك لأصحاب الحوار (طرفيه) حق اختيار المواضيع والأسلوب وتحديد الزمان والمكان، وأن يقتصر هو ـ كوسيط حيادي ـ على إبراز القواسم المشتركة بعيداً عن الإثارة والنيل من جانب لمصلحة جانب آخر.

إن كان المؤلف مقتنعاً تماماً بأن القرآن لم يأت بنبوة جديدة. ولا بكتاب جديد فهذه قناعة تصل به إلى نفي الدين الإسلامي من بين الإديان، وهذا بدوره ينطوي على اتهام مليار من الناس بالتيّه والضلال وفقدان الحجة.

هؤلاء يعتنقونه ديناً عكفت السماء ربع قرن من الزمان على صياغته لكي يظل صالحاً لأبناء الأرض مادامت الأرض، ولكي يحملهم جيلا بعد جيل إلى جنة الخلد وملك لا يبلى.

إن كانت تلك قناعات الأستاذ الحداد فأي حوار يدعو إليه؟ وهل يسمى حواراً ذلك الطرح التقريري الذي يقوم على فكر واحد معترف به. أما الفكر الآخر فيراه

دخيلاً متسلطاً ينبغي شطبه من ذاكرة التاريخ.

لقد أفصحت هذه التوطئة عن طوية الأستاذ الحداد وأظهرته رهين الفكر السلفي الذي يفْتقد العدل والرحمة ويقوم على التشنج وردود الفعل.

إنه يفكر بذهنية القرون الغابرة التي لم تعد وسيلة صحيحة للتقويم والنقد.

كيف نفى، جديد النبوة وجديد الكتاب في الإسلام، وقد التفت من حولهما خلائق لا حصر لها، تقديساً وتمجيداً وترديداً، وفيهم الجم الغفير من أهل العلم والفكر والسياسة والشعر والفلسفة والتاريخ وشتى أنواع المعارف على طول الدنيا وعرضها؟.

فإن لم يكن ذلك كله ديناً مستقلاً وكتابا مستقلا فلماذا يقيم المؤلف معه حواراً؟.

وإن كان الإسلام ـ كما قال ـ تجمعاً بشريا ضلَّ طريقه النصراني الحقيقي، وأن عليه أن يعود أدراجه فيتلمس الهدى بعد الضلال الطويل، فإن الأستاذ الحداد ابتعد عن أن يكون محاوراً واصبح منذراً ومبشراً.

وفي هذه الحالة ماهو مصير دعوته؟.

لقد التمس الأستاذ هذه الدعوة في القرآن فأخبر بها المسلمين مؤكداً لهم أن قرآنهم منذ وجوده على هذه الأرض دعاهم إلى اتباع أهل الكتاب اتباعاً حذافيرياً في طريقة الاعتقاد بالله والتنزيل والشريعة.

ولكن!! كيف استخرج من القرآن هذه الاحكام؟ وأين وجد فيه هذا الإلزام؟.

إن الدعوة إلى التوحيد في الله والتنزيل والدين هي العقيدة التي قام عليها الإسلام ودعا إليها، وكانت بالنسبة إليه ـ دوماً ـ غاية الجهاد ومبرر الاستشهاد.

فمنذ الأيام الأولى للرسالة، عندما كان النبي واتباعه لا يتجاوزن عدد الأصابع مرتين، وكانوا ضيئلي الخطر والأثر، توجهت رسائله إلى ملوك الأرض تقول:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا

نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾(٣/ ٦٤).

فالكلمة السواء التي قامت عليها الدعوة: هي توحيد الله في العبادة، وعدم الشرك به، وعدم اتخاذ الأرباب من دونه.

فمن قبل الدعوة كان مسلماً، ومن تولى عنها قامت بينه وبين المسلمين فواصل العقيدة.

إن اليهود، وإن كانوا في المبدأ يقبلون بوحدانية الله فإنهم لا يقبلون بعيسى ولا بمحمد ولا يقولون بشرعية كتابيهما، لذلك لا يمكن اعتبارهم من أنصار الدين الواحد.

والنصارى الذين كانوا لا يزالون يقولون بأن الله هو المسيح، ولا يقرون بشرعية محمد وكتابه، لا يمكن اعتبارهم من أنصار الدين الواحد.

أما المسلمون فهم الذين لا يُقبل الإسلام عند أحد منهم. ما لم يعتقد بالوحدانية وتنزيه الله عن الشريك والولد، وأن الدعوة إلى التوحيد والايمان بالله واليوم الآخر هي الدين الذي جاءت به الرسالات جميعا، والذي أمر به جميع الأنبياء دون تفريق.

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾(٩٨/ ٥)

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾(٢١/ ٢٥).

فكيف تحوَّلت المواقع وانقلبت المواقف عند المؤلف؟.

كيف جعل من الإسلام الداعي إلى الوحدة في الله والدين، مَدْعُواً مُشَاكِساً مازال على مشاكسته منذ أربعة عشر قرناً؟.

ونحن الآن في هذا الزمان وقد مرت القرون الطوال على اليهودية والمسيحية والإسلام، يمكننا أن نتساءل؟.

أين تقع معوقات التجمع على دين واحد يؤمن بوحدانية الله ووحدانية مصدر كتبه ورسله؟.

وهل يوجد في الكتب الأخرى ما يوجد في القرآن من صراحة الدعوة إلى الوحدانية وربطها بصدق العقيدة؟.

وبعد: نسأل الاستاذ الحداد، إن كان شخصاً طبيعيا أم أن اسمه يعبِّر عن شخصية معنوية، هل تؤمن أنت ومؤسستك بالكلمة السواء التي دعا إليها الإسلام؟.

هل يعترف حوارك بالوجود الفكري والعقائدي للإسلام؟ رسالةً ونبوةً وكتاباً؟.

وإن كنت لا تعترف فكيف تدعو إلى حوار يتلاقى فيه الموجود مع من لا وجود له؟.

ألا ينبغي، أن يقوم اعتراف مسبق بالوجود المستقل لكل من المتحاورين قبل عملية الحوار؟.

وقبل الاجتهاد لإيجاد القواسم المشتركة التي يمكن أن تكون أساساً للإلتقاء؟.

* * *

سوف لا نستمر في هذه التساؤلات التي تنهمر على الأستاذ الحداد، فما يستطيع لها دفعاً، لكي نعود إلى الفصل بأبحاثه الثلاثة وخاتمته.

بحث أول

انتساب القرآن إلى الكتاب وأهله على العموم

تحت هذا العنوان أثار المؤلف عدداً من الأفكار والمواضيع يمكن بحثها ومناقشتها تحت العناوين التالية:

١ ـ القرآن هو الكتاب المفصل والتفصيل هو التعريب وينطوي على بحثين هما:

ـ ماهية القرآن و«مصادره»

ـ التنزيل والتفصيل.

٢ ـ إيمان القرآن هو إيمان الكتاب.

٣ ـ إسلام القرآن هو إسلام الكتاب.

أولاً: القرآن هو الكتاب المفصل والتفصيل هو التعريب:

قال المؤلف:

١ ـ ماهية القرآن هي إنه الكتاب مفصلاً أي هو الكتاب السابق ولكنه جاء بصيغة مفصلة، وقد أوضحت هذه الماهية الآيتان ١١٤ ـ ١١٥ من سورة الأنعام و ٣٧ ـ من سورة يونس.

٢ ـ مصادر القرآن بدلالة الإعلانات في السور (الشعراء ـ العنكبوت ـ الأعلى ـ النجم ـ البينة).

٣ ـ القرآن هو تنزيل من التنزيل السابق وليس تنزيلاً من السماء، لأن الله أورث الكتاب السماوي لذرية إبراهيم من يعقوب، فلا نبوة ولا كتاب خارج بني إسرائيل إلا بالنسخ عن كتابهم وتفصيله، فالتنزيل هو تعريب الكتاب الإمام (الزمر ٣٩/ ١ والجاثية ٤٥/ ٢ والأحقاف ٤٦/ ٢ ـ ١١ وغافر ٤٠/ ٥٣).

٤ ـ التفصيل هو اصطلاح قرآني معناه التعريب، فالقرآن باعتباره «المفصل» هو النسخة المترجمة إلى العربية من الأصل الأعجمي.

* * *

١ ـ ماهية القرآن:

اعتمد المؤلف على الآيتين ٦/ ١١٤ ـ ١١٥ من سورة الأنعام وعلى الآية ١٠/ ٣٧ من سورة يونس في إثبات انتساب القرآن إلى كتاب سابق أساس، وأن ذلك الكتاب الأساس هو الذي قيل عنه لمحمد: «إنه منزل من ربك بالحق» وهو الذي «لا تغيير لكلماته، وهو الذي ينتسب إليه قرآن محمد لا ريب فيه».

إن هذا الطرح الشديد حتَّم قراءة هذه الآيات واستقراءها للوقوف على مدى الصحة والموضوعية في أقوال المؤلف لأن من شأن تلك الأقوال ـ لو كانت صحيحة ـ أن تقلب موازين الفهم والعقيدة والتراث عند المسلمين.

هذه هي آيات سورة الأنعام:

﴿أفغير الله أبتغي حَكَماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصَّلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزَّلٌ من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم(١١٥)﴾.

لن نتوقف عند معنى «مفصلاً» نظراً إلى أن المؤلف خصص له فقرة مستقلة لاحقة لذلك أرجأنا تحليل هذا المفهوم إلى حينه.

وسوف نتعرف هنا على معاني الكلمات «حكماً» و «كتاب» و «منزل» و «الممترين» في الآية ١١٥ وعلى المعنى الإجمالي لهذه الآية مع الآية (١١٤) وذلك كما يلي:

أ ـ إن «الحَكَمَ» هو الله.

والآية هي آية إخبارية وتقريرية، في الوقت ذاته يخبر النبيُّ فيها ويقرر بأنه لا ينبغي أن يكون الحَكَم غير الله. وذلك رداً على المشركين الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم لئن جاءتهم آية ليومِنُنَّ بها... (٦/ ١٠٩) فقال لهم النبي مستنكراً: أفغير الله أبتغي حكماً؟ أي هل يجوز أن يطلب حكماً غير الله؟ وها هو الله تعالى أعطى حكمه وشهادته بالقرآن الذي يشكل الآية العظمى التي لا تماثلها آية؟.

ب ـ إن «الكتاب الذي أنزل مفصلاً...» هو القرآن. وضمير الجمع المخاطب «إليكم» في الآية يعود إلى الجماعات التي خاطبها النبي (ص).

ج ـ إن كلمة «أنزل» من النزول، وهو مصدر ينبثق عنه العديد من المعاني منها الحلول كقوله تعالى: **﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلا﴾** ومنها «الانحدار من الأعلى» ومنها «التنزيل ـ أي الترتيب».

بعد وضع هذه المعاني بعضها إلى جانب بعض نستطيع إدراك المعنى في قوله: الكتاب مفصَّلاً:

ـ فالضمير «هو» يعود إلى لفظ الجلالة في أول الآية.

وبذلك يكون المعنى: «إن الله الذي هو أحكم الحاكمين قد أنزل القرآن للناس مفصَّلاً. . .» وهذه عبارة إخبارية تقريرية كُلِّف النبي بإيصالها إلى الناس.

د ـ أما كلمة «الكتاب» التي وردت في الآية «والذين آتيناهم الكتاب» فهي تعني كتاباً غير القرآن بدليل نسبته إلى من أوتوا ذلك الكتاب. وهؤلاء بالطبع هم غير الذين خوطبوا في بداية الآية لأن مضمون الآية يستشهد بما توافر عندهم من علوم كانوا أدركوها من كتابهم وهي: إن القرآن منزل من ربك (يا محمد) بالحق.

هـ ـ كلمة «الممترين» تعني الشاكين وهنا شرط لا يقتضي وقوعه لهذا صحَّ عن الرسول (ص) أنه قال عند نزول هذه الآية «لاأشك ولا أسأل ـ ابن كثير».

و ـ ثم جاءت الآية ١١٥ ـ تماماً وكمالاً للآية ١١٤.

فبعد أن بينت الآية السابقة أن القرآن نزل بالحق من الله نزولاً معجزاً بتفصيله فكان الآية العظمى التي دلت على صدق النبوة، جاءت هذه الآية لتعلن أن كلمات الله ـ أي القرآن ـ قد تمت صدقاً وعدلاً لأن كلمات الله صدقٌ مطلق وعدلٌ مطلق.

وقد وردت في بعض القراءات «كلمة» بالمفرد وقالوا: إن الكلمة يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم: قال زهير قصيدته وقال قس خطبته وكذلك مجموع القرآن كلمة واحدة في كونه حقاً وصدقاً وعدلاً معجزاً.

بعدما تقدم: نستطيع التماس المعنى العام من الآية كالآتي:

«إن الله أنزل القرآن كأعظم شهادة على صدق النبوة وإن الذين أوتوا التوراة والإنجيل يعلمون من كتبهم أن القرآن منزَّلٌ من الله بالحق دون ريب.

كما نستطيع القول: إن المؤلف أطلق أفكاره واستنتاجاته متأثِّراً بالموروث السلفي الذي استقر في جوانب نفسه.

وهذا من حيث المبدأ ـ شأنه ـ وما كان ينبغي أن نُخْضِعَ دخيلَته إلى النقد لو

لم تنعكس على كلمات الآية، والآية بريئة منها لغة ومضموناً.

ز ـ وهذه هي الآية ١٠/ ٣٧ من سورة يونس والآيتان ٣٨ و٣٩ بعدها.

﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨) بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين(٣٩)﴾ هذه الآية تشكل جزءاً موضوعياً من آيات يقارب عددها العشرين تناولت شبهات القوم ومطاليبهم وجدالهم في هذه الشبهات والمطاليب، فقد ذكرت الآية (٢٠) أقوالهم **﴿لولا أنزل عليه آية من ربه. . .﴾** فتتالت آيات القرآن مجيبة على هذا التحدي مذكِّرةً إياهم بما لا يحصى من آيات الله سيرهم في البر والبحر والفلك والموج الذي أحاط من كل مكان واستجابة الله لدعواهم. . .(٢٢) وتمثيل الحياة الدنيا كمثل الماء الذي أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام. .(٢٤) و**﴿يوم نحشرهم جميعاً. . .(٢٨)﴾** و**﴿هناك تبلو كل نفس ما أسلفت. . .(٣٠)﴾** و**﴿من يرزقكم من السماء والأرض أمَّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي. . .(٣١)﴾**

ثم يتحداهم القرآن بقوله: **﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده. . .(٣٤)﴾**.

بعد هذه الأجوبة على الشبهات التي أطلقها القوم أتت الآية (٣٧) مختتمة ما تقدم في عبارات تقريرية حاسمة بقولها: إن ما ورد في القرآن هو من عند الله فلا يستطيع أحد أن يفتري فيه على الله أو أن يدعي أنه من عنده، وأردفت ذلك بتحدٍّ جبروتي قاطع:

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين(٣٨) بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمَّا يأتهم تأويله كذلك كذّب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين(٣٩)﴾ فأفصح القرآن أنه لو كان تعريباً أو نسخاً بشرياً من مصدر آخر لكان في مقدور البشر من المكابرين أو سواهم أن يأتوا بسورة مثل سوره، ولكنهم عاجزون عن ذلك، وما تعنّتَهُم غير صورة من

صور التكذيب التي واجهها الأنبياء السابقون من الأمم الجاحدة السابقة.

وعند بعض كلمات الآية: **﴿أنْ - لا - يُفْتَرَى من دون الله ولكن تصديق الذين بين يديه﴾** توقَّفَ المؤلِّفُ طويلاً فيما كان خياله يجوب الآفاق حتى عاد إليه محمّلاً بنظرية تتجافى مع منطق الآية في المبنى وفي المعنى، فقد قال في تفسيرها:

إنَّها شهادة من القرآن على أنه ينتسب إلى الكتاب الإمام الذي أنزله الله على حفيد إبراهيم من يعقوب وهو «موسى». لقد كان هذا الإمام بين يدي النبي فعكف على دراسته وتفهمه واستيعابه ثم قام بترجمته إلى العربية تحت اسم جديد هو «القرآن».

ليس هذا التفسير قفزة شعرية تخطى بها الحداد حواجز الفكر واللغة والتاريخ ولكنه اعتقاد قام على تراكمات طويلة مديدة من موروثات غير منصفة.

وإن كان هنا ينسب التعريب إلى النبي ويعتبر الأمية المنسوبة إليه أسطورة، فقد كان له زميل اسمه «أبو موسى الحريري» نسب العلم القديم والجديد والتعريب والترتيب، والترتيل والتفصيل إلى «ورقة بن نوفل» الذي جعل منه «أبو موسى» قسَّ الجزيرة العربية وسيِّد قريش وزعيمها وقائد قادتها ومعلم العرب وملهمهم، وإلى ورقة - كما قال أبو موسى - انتهت جميع العلوم...

فنحن الآن، تقوم لدينا مدرستان، أو مؤسستان.

- **إحداهما:** مدرسة الأستاذ الحداد.

والثانية: مدرسة «أبو موسى». ولكن من هما؟ الله وحده يعلم الجواب. وأين هما؟ وهل هما شخصان أم مؤسستان اختبأتا تحت وهمٍ من الأسماء؟.

الأولى أنجبت ثلاثة عشر كتاباً. والثانية أنجبت عشرين ونيِّفاً. وهذه الأعداد من الكتب تركزت من حول موضوع واحد لا تحيد عنه ولا تملُّ منه.

جميعها تستعيد قراءة القرآن وكتب السيرة، فتفسرها تفسيراً يبعدها عن القداسة ويقطع صلة السماء بها نهائيا ويعود بها إلى صناعة البشر.

جميعها امتلأت بهاجسٍ واحد هو ذلك الرجل «محمد» الذي لا يزال في

التاريخ أعظم الرجال. فهي جاهدة دائبة على النزول به عن سدة النبوة ووضعه بين البشر يحمل طبائعهم وطموحهم ووسائلهم، فيسطو على كتب السماء ليأخذ منها كتابه ويقتنص سِيَر الأنبياء ليصنع منها سيرته.

فأنت أيها القارىء الكريم، إن قرأت كتاباً واحداً فقط من كل سلسلة، تتكون لديك فكرة واضحة عن فكرها وأسلوبها، ومادة النقاش عندها، وتلمس بيديك روح التحيز والتحدي والاستعلاء الأجوف.

إنني منذ أشهر دفعت إلى الطباعة كتاباً بعنوان «الحقيقة الصعبة ـ في الميزان ـ رقم١» درست كتاب أبي موسى الحريري «قس ونبي» دراسة متبصرة، فتتبعته فصلاً فصلاً وفاصلة فاصلة وكشفت ما خفي من أساليبه وأوضحت ما كمن من نيّاتِه وأهدافه، وأظهرت خبيثه إلى القراء، خبيثاً بعيداً عن الموضوعية والعلم والحياد، ومهاجراً عن الاستقراء الصحيح والاستنتاج الرصين.

إن تعبير تصديق الذي بين يديه» كان له في كتاب «أبو موسى» حظ وافر من التعليق مثلما هو في كتاب الأستاذ الحداد. لأنهما يتناسخان العواطف والأفكار وأساليب الحوار.

وقد كان لنا على هذا التعبير حظٌّ وافرٌ من القول واجهنا مقولات أبي موسى.

لذلك أضع بين يدي القارىء بعض ما كنت رددت به على مقولات أبي موسى لأنه يصلح أن يكون رداً على الأستاذ الحداد: كما يلي:

﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه. . .﴾(٦/ ٩٢: الأنعام).

﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هُدىً للناس وأنزل الفرقان﴾(٣/ ٣ ـ ٤: آل عمران).

﴿نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهُدىً وبشرى للمؤمنين﴾(٢/ ٩٧: البقرة).

﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير﴾(٣٥/ ٣١: فاطر).

وفي القرآن آيات عديدة أخرى وردت فيها عبارة «التصديق» بصيغٍ مختلفة مثل:

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ و﴿تصديق الذي بين يديه﴾ و﴿مصدق لما معهم﴾ و﴿مصدق لما معكم﴾ و﴿مصدِّق لما بين يديه من الكتاب﴾.

على هذه الصيغ اعتمد المؤلفان «الحداد والحريري» في العودة بالقرآن إلى أصلٍ نشأ عنه وهو «التوراة والإنجيل»، وقالا:

إن كون القرآن تصديقاً لهما يعني أنه نسخةٌ عنهما، وأن لا كينونة له ولا مهمة لديه غير التبشير بهما والدعوة إليهما. فلا يُقبل منه الإدعاء بكينونة رسوليةٍ أو شرعيّة مستقلة لأن ذلك يخرجه عن الفلك الذي وضع عليه.

ولكن علماء المسلمين من فقهاء ومفسرين ومن محدثين تواترت أسانيدهم حتى أيام النبوة الأولى حينما كان الرسول على رأس المسلمين يسألونه عن شوارد المعاني وعن غوامض الأمور فيجيب بما تستقر له النفوس وتهدأ عنده العقول.

هؤلاء عندهم لهذه الصيغ القرآنية معانٍ غير ما عنياه الحريري والحداد. فـ «تصديق الذي بين يديه» يعني: أن القرآن مصدق لما نزل في الكتابين من الحقائق الإلَهية، ولكن هذا التصديق لا يعني أن الله لم يبق بين يديه سواهما عندما أنزل القرآن، ولا يعني أن تلك الحقائق التي تضمنها الكتابان غطت حاجات الإنسان إلى آخر الزمان.

ذلك تصوُّرٌ مستحيل، لأن الله خلق الإنسان نزَّاعاً إلى التطور، محتاجاً إلى العناية الإلَهية على الدوام لكي تمده بأسباب الكشف عن أسرار حقائق الكون فكانت تفرج له منْها بمقدار استطاعته على التلقي والاستيعاب، فالتوراة والإنجيل نزلا من قبلُ هُدىً للناس، أما بعد توالي القرون وتغير الظروف وتنامي العقول فإن الهداية احتاجت إلى المزيد والجديد، فكان القرآن الذي لبَّى جميع متطلبات الإنسان وأجاب على جميع تساؤلاته.

وحادثة النبي مع اليهود معروفة ومشهودة حينما سألوه عن الرُّوح ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (١٧/ ٨٥: الإسراء)

فقالوا له: لقد أوتينا التوراة ومن أُوتيها أوتي العلم الغزير والحكمة البالغة، فنزلت آية قاطعة في رفض مقولتهم وادعائهم العلم. وتأمر النبي أن يعلن لهم أن علم التوراة هو علم قليل إلى جانب علم الله: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولوجئنا بمثله مددا﴾** (١٨/ ١٠٩: الكهف).

فالله يفرج عن أسرار العلوم والحقائق ويوحي بالأحكام والفرائض والأخلاق والشرائع بمقدار ما تتطلبه حاجة الإنسان.

لذلك: صدَّق القرآن على الثابت من الكتابين ورفض التحريف والتبديل ودعا اليهود والنصارى وجميع الأمم إلى وحي الله الذي ضَمَّ بين دفتي القرآن جميع الثوابت والأوامر الإلهية فيما سبق من العصور مضافاً إليه متطلبات الإنسان مهما امتدّ الزمان.

والتصديق: هو عكس التكذيب، وهو الموافقة على رأي مطروح أو قول مبثوث فإذا صدَّقت زيداً في رأي من آرائه أو خبر من أخباره فلا يعني ذلك أنه أُحيط بك وأصبحت نسخة منه لا تتحرك ولا تحيد عنه.

إن تصديق القرآن للكتب السماوية وإيمانه بالرسل والأنبياء دون تفريق هي أوامر الله للدلالة على وحدة الدين الذي جاء به الأنبياء جميعاً. وهو وحدانية الله وعبادته، منزَّهاً، عن الشريك والزوجة والولد والإيمان باليوم الآخر.

﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين، نزل به الرّوح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (٢٦/ ١٩٢ـ ١٩٤).

فالكتاب هو القرآن الذي نزل بصيغة الخطاب التوجيهي إلى النبي. وهو تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين، أي الوحي الإلهي على قلب النبي ليكون من المنذرين.

وفي هذا نفيٌ قرآني صريح قاطع لمقولة الترجمة والعمل الإنساني في القرآن، وهو نفيٌ تميَّز بالأسلوب الإلهي الجبروتي الخارق الذي لا يستطاع رده.

لقد كان «أبو موسى الحريري» من قبل «الأستاذ حداد» قد تسمَّر عند الآية القرآنية رقم ١٢/ ١١١ من سورة يوسف التي جاءت بألفاظ مماثلة لألفاظ الآية: ٣٧ ـ من سورة يونس:

﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهُدىً ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (١٢/ ١١١).

وقد كان جديراً به أن يقرأها مع ما سبقها لكي يعرف عائدية الضمير في «الكينونة» وما هو الحديث الذي لم يكن مفترى. بل كان تصديقاً وتفصيلاً وهدى ورحمة للقوم المؤمنين؟.

لأن الآيتين ١٠٩ و١١٠ تسردان الحديث المذكور كالآتي:

﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولَدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾(١٠٩) ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرُنا فنُجيِّ من نشاء ولا يُردّ بأسنا عن القوم المجرمين﴾(١١٠) ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق. . . .﴾(١١١).

فالقصص التي قصَّها القرآن. والتي أكد على أنها ليست حديثاً يفترى، هي قصص الأنبياء والرسل وما لاقوه في سبيل رسالاتهم من الأمم الجاحدة. وهذه القصص مصدقة لما ورد بشأنها في الكتب السابقة. لذلك جاء القرآن مثبتاً ومصدقاً ما بقي منها ثابتاً وصادقاً. وفي الوقت ذاته، رافضاً لما تحرف وتبدل. ثم فَصَّلَ كل شيء فيما يتعلق بالتحريم والتحليل والواجبات والطاعات. وعما هو في باطن الغيوب المقبلة. وتنزيه الله عن مماثلة المخلوقات وتفرده بالأسماء والصفات.

فالقرآن هدى ورحمة لقوم يؤمنون ويعقلون.

وهو بمقتضى هذه الآيات وسواها «كينونة» وهيْمَنَةً واحتواءٌ لثوابت الكون فلا هو تابعٌ ولا مقلِّدٌ ولا منسوخ. وكل فهم له بغير هذا الفهم. وكل تعامل معه بغير هذه الثوابت فيه ضغطٌ لحجمه وقصورٌ عن فهمه. وظلمٌ وافتئاتٌ على علمه.

* * *

ولقد تعامل الناس عامَّةً. والمسلمون خاصَّةً مع القرآن بهذا الفهم. والحادثة التي رواها الإمام أحمد ما يوضح موقف النبي والمسلمين من الكتب السابقة. ويؤكد استقلالية الدين الإسلامي رسالةً، ونبياً، وكتاباً، عما سبقه من الكتب والرسالات لا إنكاراً لها، ولكن تجاوزاً عنها وفيضاً عليها.

فقد حدث جابر بن عبد الله أن عمر (ر) أتى النبي بكتاب أصابه من أهل

الكتاب فقرأه على النبي فغضب النبي وقال: أمتهوِّكون[1] يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيجيبوكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً، ما وَسِعَه إلاّ أن يتبعني.

وقال عندما جاءه بنو قريظة بجوامع من التوراة: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم[2]: هذه الأقوال تنفي أن تكون دعوة النبي تبشيراً بدعوة اليهود أو النصارى.

٢ ـ مصادر القرآن بدلالة الإعلانات القرآنية:

الإعلانات:

قال المؤلف: ثمة إعلانات أربعة في القرآن بيَّنت أن محمداً كان يعرف الكتاب المقدس بأسفاره، وأن تلك الأسفار هي الصحف المطهرة والكتب القيمة التي كان يتلوها وهذه الإعلانات هي الآتية:

أ ـ في الآيات: ٢٦/١٩٣ ـ ١٩٧ من سورة الشعراء.

ب ـ في الآيات: ٢٠/١٣٣ ـ طَه و٢٩/٥٠ العنكبوت.

ج ـ في الآيات: ٨٧/١٨ ـ ١٩ الأعلى و٥٣/٣٦ ـ ٣٧ النجم.

د ـ في الآيات: ٩٨/١ ـ ٧ البينة.

في سورة الشعراء:

أورد المؤلف آيات من هذه السورة بإسلوب وترتيب يخدمان غايته فقال: يعلن القرآن عن نفسه بأنه:

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين...﴾ ﴿وإنه لفي زبر الأولين...﴾ ﴿أولم يكن لهم آيةٌ أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل..﴾

---

(١) من هَوَكَ أي احتار وتردد.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وأورده ابن كثير في تفسير الآية ١٢/٣ يوسف.

وأضاف: «فتنزيل رب العالمين في القرآن هو مما في زبر الأولين أيْ كتبهم كالتوراة، والإنجيل ـ الجلالان ـ (المؤلف ص: ٨٢ ـ ٨٣)».

ولكن الآيات هي بغير الترتيب والأسلوب والمقاصد التي طلع بها الحداد فقد جاءت بالترتيب الآتي:

﴿وإنه لتنزيل رب العالمين(١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين (١٩٤) بلسان عربي مبين (١٩٥) وإنه لفي زبر الأولين (١٩٦) أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل (١٩٧) ولو نزّلناه على بعض الأعجمين (١٩٨) فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين (١٩٩)﴾.

وحملت معها معاني ومقاصد يمكن الإشارة إليها بما يلي:

١ ـ إن «الجلالين» لا يقول إن القرآن موجود في كتب الأولين (التوراة والإنجيل) بل قال بالحرف: إن ذكر القرآن المنزل على محمد موجود في كتب الأولين أي الإخبار عنه والتبشير به والتنبيه إليه ولكن المؤلف تصرف باللفظ وبالمعنى تصرفاً أبعَدَ الآيات عن مقاصدها الحقيقية. وحرَّف على الجلالين فنسب اليهما ما لم يقولاه وحمَّلهما ما لا يمكن أن يحملاه.

٢ ـ «وإنه لتنزيل رب العالمين»:

فالضمير يعود إلى القرآن، وبذلك يكون القرآن هو التنزيل من رب العالمين. وليس نسخاً عن كتب الأولين ولا تعريباً لها. والتنزيل في اللغة يعني الإنحدار من الأعلى. وهنا رمزٌ إلى النزول والتنزيل من السماء إلى الأرض حيث النبي والناس، وبذلك تخرج عملية النسخ والتعريب عن معاني التنزيل خروجاً مطلقاً لأن التوراة والإنجيل موجودان على الأرض بين أيدي الناس وليسا في مكان لا يرقى إليه ولا يستطاع الالتقاء به إلا بانحداره ونزوله من الأعلى.

٣ ـ تنزيل من التنزيل:

وعملية التنزيل لم يكن فيها يدٌ للنبي بل قام بها الروح الأمين الذي نزل بها من السماء.

وهذا استبعاد آخر للتوراة والإنجيل من دائرة التأثير في القرآن.

٤ ـ «على قلبك لتكون من المنذرين».

والوحي كان شفوياً، نزل من شفاه الروح الأمين على قلب النبي. ولم ينزل خطاً مكتوباً على قرطاس أو تعريبا من كتاب إلى كتاب.

وكان ذلك، ليجعل من النبي الذي تلقى الوحي واحداً من الأنبياء المكلَّفين بالإنذار والدعوة والتبشير ولو كانت مهمته مقتصرة على النقل والترجمة لما جعله القرآن في عداد المنذرين.

٥ ـ «وإنه لفي زبر الأولين».

وقد ذكرنا تفسير الجلالين لهذه الآية، ونفيد بأن هذا التفسير متفق عليه (الرازي ـ وابن كثير).

والزُّبُرُ هنا هي الكتب، والمفرد منها زبور، وقد سمي كتاب داوود زبوراً: ﴿وآتينا داود زبورا﴾ ـ ٤/ ١٦٣ ـ النساء.

٦ ـ «أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل».

وردت هذه الآية بعد الآية ﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ التي أكدت بشكل تقريري أن القرآن منوَّه عنه ومبشر به في زبر الأولين. وقد كان يكفي علماء بني إسرائيل علمهم بذكره والتبشير به من كتبهم، لتقوم لديهم الآية ـ أي الدليل على صحته وصدقه.

٧ ـ «ولو نزَّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين».

وهي عودٌ من القرآن. بصيغة تقريرية حاسمة إلى تأكيد استحالة إيمانهم وشدة كفرهم. فهو لو نزل ببيانه وفصاحته على أعجمي فقرأه عليهم بالعربية التي لايعرف منها شيئاً في الأصل ما كانو ليجدوا في ذلك شيئاً مُعجِزاً ولا آيةً تدفع بهم إلى الإيمان.

* * *

في سورة طَه والعنكبوت:

أورد المؤلف الآية ٢٠/ ١٣٣ من سورة طَه و ٢٩/ ٥٠ من سورة العنكبوت وبيَّن ما أراده من ذلك بقوله:

«إن القرآن ليس إلا بيِّنَةً عمّا في صُحُف الكتاب المنزلة من قبله من إبراهيم إلى موسى إلى عيسى. المؤلف ـ ص ٨٣».

أما الآيتان فهما:

﴿وقالو لولا يأتينا بآية من ربِّه أولم تأتهم بيِّنَةُ ما في الصُحُف الأولى﴾(٢٠/ ١٣٣: طه).

﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾(٢٩/ ٥٠: العنكبوت).

وأما تفسيرهما لمعرفة حقيقة المقصود منهما فهو:

ـ في الآية: ١٣٣ من سورة طَه إخبارٌ عن القوم الذين طلبوا من النبي أن يأتيهم بآية من ربه وقد ورد الإخبار بصيغة الغائب فأجابتهم تتمة الآية بالصيغة نفسها مستنكرة منهم جهلهم أو تجاهلهم ما حلَّ بالأمم الغابرة التي لُعِنت وأُهلكت عندما سألوا الآيات وكفروا بها.

وفي ذلك إشارة إلى «أصحاب السبت» و «أصحاب المائدة» وسواهم من الأمم التي عوجلت بالعقوبة عندما علقت الإيمان بالأنبياء على نزول الآيات المعجزات.

ـ وفي الآية: ٥٠ من سورة العنكبوت، كان جواب الآية على مطاليبهم إنزال معجزة من الله. أن الآية ليست من شروط الرسالة، فالرسول يدعو إلى الله فإذا توقَّف الخلق عن القبول وأراد الله بهم رحمة بين رسالته بآية وهذا من شأنه وإرادته.

ومع ذلك فقد كانت تتمة الكلام في الآية ٥١ من السورة **﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنَّ في ذلك لرحمةً وذكرى لقوم يؤمنون﴾**.

فدلَّ بهذا على أن القرآن هو الآية العظمى التي منَّ الله بها على الخلق وهو

فوق كل معجزة لأنه باقٍ وخالد ومستمر في تحدِّي الخلق أن يضاهوه أو أن يأتوا بسورة من سوره في حين أن معجزة «انقلاب العصا إلى حية» و«إخراج اليد من الجيب بيضاء» و«إبراء المريض» و«إحياء الميت» إنما كانت معاجز آنية لم يبق منها إلا الذكرى وهي ـ وإن كانت قد أدخلت مهابة الإيمان في نفوس أبناء ذلك الزمان ـ فإن الأجيال التالية تقرأ عنها ولا تراها، أما القرآن الذي يتلى بتفوقه وإعجازه من ملايين الحناجر في كل يوم هو لا يزال معجزة مثلما كان في عهوده الأولى.

* * *

في آيات الأعلى والنجم:

الآيتان: ١٨/٨٧ ـ ١٩ ـ من الأعلى. و٣٦/٥٣ ـ ٣٧ ـ من النجم.

لا تقرأ المزدوجة منها لوحدها ولا تفهم مقاصدها ما لم تُتْلَ وتفسر مع سابقها ولاحقها من الآيات.

ففي الأعلى: **﴿سبح اسم ربك الأعلى (١) الذي خلق فسوّى (٢) والذي قدَّر فهدى (٣) والذي أخرج المرعى (٤) فجعله غُثاءً أحوى (٥) سنقرئك فلا تنسى (٦) إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى (٧) ونيسرك لليسرى (٨) فذكِّر إن نفعت الذكرى (٩) سيذَّكَّر من يخشى (١٠) ويَتَجَنَّبُهَا الأشقى (١١) الذي يصلى النار الكبرى (١٢) ثم لا يموت فيها ولا يحيا (١٣) قد أفلح من تزكَّى (١٤) وذكر اسم ربه فصلَّى (١٥) بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خيرٌ وأبقى (١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)﴾.**

فالآيتان ١٨ و١٩: لا تُقرآن وحدهما مستقلتين عن الآيات السابقة. وبالقراءَة الإجمالية للسورة يتبيَّن: أن اسم الاشارة «هذا» في الآية (١٨) لا يعني ما عناه المؤلف. بل يعود إلى الحقائق الإلهية التي وردت في الآيات السابقة وهي توحيد الله وتسبيحه وتفرّده بالخلق والحياة، ثم تكليفه للنبي أن يوضح للناس هذه الحقائق التي لا ينساها غير الأشقى. الذي مصيره النار الكبرى. وأما من تزكى وذكر اسم ربه فصلى فهو الذي كتب له الفلاح والنجاح.

تلك كلها احكامٌ إلَهية لا يتغير إعلانها ولا الإخبار عنها والتكليف بها مَعَ تغيرُّ

الزمان والكتب بل هي مثلما كلّفت بها الصُّحُف الأولى كَلَّف بها القرآن.

وقد اختار هذا التفسير أكثر العلماء أمثال ابن جرير وابن زيد وقتادة، (تفسير ابن كثير).

ـ ولا يختلف الأمر في سورة النجم عما ورد في سورة الأعلى من حيث المبدأ:

فقد أخطأ المؤلف في قراءة الآيتين (٥٣/ ٣٦ ـ ٣٧)منفردتين ومستقلتين عن الآيات التي ترتبطان بهما.

﴿أم لم ينبَّأ بما في صحف موسى (٣٦) وإبراهيم الذي وفى (٣٧)﴾.

وقال: تعقيباً عليهما في الصحيفة ٨٣ ـ من كتابه: **﴿إن القرآن لهو في الصحف الأولى﴾**(الأعلى: ١٨) التي ترتقي إلى **﴿صحف موسى وإبراهيم الذي وفَّى﴾** (النجم: ٣٦ ـ ٣٧).

لقد كان على المؤلف أن يُمْعن في طبيعة التساؤل الوارد في الآية (٣٦) من النجم. ومن ثم عليه أن يبحث فيما إذا كان الكلام قد انتهى أو انقطعت صلته بسواه. أم إنه قدَّم في الآية (٣٦) كسؤال ليأتي جوابه متعدد العناصر.

فخطابه ليس بقصد تعيين المخاطَب بل بقصد التعليم والهداية فيقول:

إن لم تكن قد نبئت بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى (٣٦ ـ ٣٧) فاعلم:

﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى(٣٨) وأن ليس للإنسان إلا ما سعى(٣٩) وأن سعيه سوف يرى(٤٠) ثم يجزاه الجزاء الأوفى(٤١) وإن إلى ربك المنتهى(٤٢) وأنه هو أضحك وأبكى (٤٣) وأنه هو أمات وأحيا (٤٤) وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى (٤٥) من نطفة إذا تمنى (٤٦) وأن عليه النشأة الأخرى (٤٧) وأنه هو أغنى وأقنى (٤٨) وأنه هو رب الشعرى (٤٩) وأنه أهلك عاداً الأولى (٥٠) وثموداً فما أبقى (٥١) وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلمَ وأطغى(٥٣) فبأيِّ آلاء ربك تتمارى (٥٥) هذا نذير من النذر الأولى(٥٦)﴾.

وكما كانت الآيات من ٣٨ ـ ٥٦ إخباراً عن الأحكام الإلّهية التي لم تتغير منذ الصحف الأولى. كذلك كانت الآيات السابقة للايتين ٣٦ ـ ٣٧ تمهيداً لهما وتوصيلاً إليهما. وما يليهما من آيات اخبارية تربوية.

﴿أفرأيت الذي تولى(٣٣) وأعطى قليلاً واكدى(٣٤) أعنده علم الغيب فهو يرى(٣٥)﴾؟.

لذلك كانت قراءة الآيات مجتمعة متكاملة. هي الوسيلة الوحيدة لفهمها، ومعرفة مقاصدها أما القراءة المقطعة، المجزوءة المنهوبة، التي تقدم بها المؤلف، فقد بَعُدت بالآيات عن حقيقة بيانها، بعداً شاسعاً.

* * *

في آيات البينة:

كان المؤلف في البحث الثاني، أثناء تعريفه لأهل الكتاب، في القرآن المدني أتى على ذكر الآيات من ١ ـ ٤ من هذه السورة وقال حينذاك مثل ما يقوله هنا وهو:

«إن الصحف المطهرة والكتُبَ القيمة، التي تلاها النبي، كانت البيّنة التي طلبها المشركون والكفّار لينفكوا عن عقائدهم، فكانت تلاوة النبي لأسفار الكتاب المقدس هي البينة التي قدمها إليهم. والقرآن بذلك يقدم الشهادة المحكمة أنه ينتسب إلى تلك الأسفار ولقد كنا ناقشنا هذه الأقوال في حينها تحت العنوان: خامساً من سورة البينة. نكتفي بإحالة القارىء إليها منعاً للتكرار.

* * *

المصادر:

بعد أن انتهى المؤلّف من الإعلانات الثلاثة قال:

«فتلك التصاريح الصريحة تبيِّن معاني تعابيره الثلاثة عن مصادر القرآن.

﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ (١٥/ ٢١ ـ ٢٢ ـ البروج.

﴿إنّه لَقُرآنٌ كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين﴾ (٥٦/ ٧٧ ـ ٨٠ ـ الواقعة).

﴿حم والكتاب المبين إنَّا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أُمِّ الكتاب لدينا لَعَليٌّ حكيم﴾(٤٣/ ١ ـ ٤ ـ الزخرف).

واستطرد مُفَسِّراً تلك الآيات ومستخرجاً منها المعاني الآتية:

ـ فالقرآن العربي مصدره الكتاب المكنون، في اللوح المحفوظ، اسمه أم الكتاب.

ـ وهو قائم على الأرض ومنها نشأ لا من السماء يدُل على ذلك قولُهُ عن نفسه: ﴿فمن شاء ذكره في صحفٍ مكرَّمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة﴾ (٨٠/ ١٢ ـ ١٦ ـ عبس).

فالسَّفرة هم كتَبَةُ الكتاب، والكتاب هو، صُحُف مكرَّمة، مرفوعةٌ مطهرة عن مس المشركين فلا تعني الملائكة على الإطلاق، لأن الملائكة لا أجساد لها تحتاج إلى الطهارة.

ـ والكتاب لم يعد في السماء. بل أنزله الله بواسطة أنبيائه ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة: ٢/ ٢١٣). وهو ميراث بني إسرائيل دون غيرهم ﴿وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ (٤٠/ ٥٣: غافر)».

هذا هو كلام المؤلف: ص ٨٣ ـ ٨٤).

فما مدى الصواب والخطأ في هذا التحليل؟.

لمعرفة ذلك يكون من المفيد أن نقف أولاً على معاني المفردات القرآنية التي تتمحور من حولها هذه الآيات. وهي:

«قرآن، مجيد، لوح محفوظ، كريم، كتاب، مكنون، المطهرون، الكتاب المبين، وجعلناه قرآنا عربيا، وأم الكتاب لدينا، وعلي حكيم».

لأن المؤلف تصرَّف في معانيها بدون إمعان فصدرت عنه أحكام وتفسيرات خاطئة.

ـ **القرآن**: هو كلام الله نزل به الوحي على رسوله، وسمي قرآنا، لأنه مقرون

بعضه ببعض أو لأنه يُقرأ باستمرار بعضُه في الدنيا وبعضه في الآخرة.

ـ مجيد: هي صفة من صفات القرآن بمعنى أنه مصونٌ عن التبدُّل والتغيُّر فإذا ما حكم بسعادة قوم وشقاوة آخرين امتنع تبدُّله وقُرِىء بالإضافة «على الجر» حملاً على المضاف المحذوف تقديره «بل هو قرآن رب مجيد».

ـ ومحفوظ: وقد قرىء «محفوظٌ» أي إنه محفوظ في اللوح، ويعني في الملإ الأعلى. محفوظ عن أن يجري عليه التغير وقد فسر ابن كثير هذه الكلمة بقوله: إنه محفوظ في الملأ الأعلى من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل.

ـ كريم: أي لايهون مهما تكررت قراءته، ولا يمل منه السامعون، فهو على قِدَمِهِ يسمعه السامعون وكأنه كلام الساعة.

ـ في كتاب: أي هو مظروف في كتاب، والكتاب هنا هو اللُّوح المحفوظ الذي حفظ فيه القرآن، فالكتاب هنا غير الكتابة وغير القراطيس التي يكتب عليها، بل هو المكان الذي تجتمع فيه الكتابة وهي هنا بالنسبة إلى القرآن، اللوح المحفوظ، مثل كلمة «اللثام» ليس هو المتلثم ولا عملية التلثم، ولكن ما يُتلثم به.

ـ المطهرون: هنا: تعني الملائكة لأن الله طهرهم وأبقاهم على الطهارة، وهذه الصيغة لا تطلق على طهارة الأجساد البشرية لحاجة هذه الأجساد إلى التطهير المستمر، فيقال: «المتطهرون» بالنسبة إلى البشر ولا يقال المُطَّهرون الذين طهرهم الله بخلاف الطَّهارة في البشر يقومون بها هم.

ـ المبين: الموضِّح إلى الطريق، وهذه صفةٌ مجازيَّةٌ للقرآن، لأن المبين هو الله تعالى وقد وُصف بها القرآن مَجَازاً وتوسعاً لأنَّ البيان حَصَل عنده.

ـ جعلناه: أنزلناه وصيرناه، وجعل بمعنى خلق وصيَّر: كقول القائل: جَعَلت الطين خزَفاً. وتأتي بمعنى عمل وهيَّأ. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربيا﴾ أي قلناه أو بيَّناه أو نزلناه. وقوله: ﴿وجعلني نبيا﴾ و﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ و﴿جعلوا لله شركاء﴾. لاتخرج جميعها عن هذه المعاني.

ـ وأم الكتاب: اللوح المحفوظ على قول الكثيرين: ﴿إنه في أم الكتاب لدينا﴾ و﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾ و﴿بل هو قرآن مجيد في لوح

محفوظ﴾. كما إن أم الكتاب يشار بها إلى الآيات المحكمات في القرآن.

وعن المفسرين من يقول: إنها الفاتحة. ومنهم من يقول: إنها السبع الطوال. (سور المئين) وأصلُ كل شيء أُمُّه. فالقرآن مثبت في الأصل ثم نقل إلى سماء الدنيا.

ـ وعليٌّ: أي إنه سما فوق الكتب لأنه مُعْجِزٌ على الدهر.

ـ وحكيم: أي مُحْكَمٌ وذو حكمة بالغة.

* * *

بعد أن وقفنا على المعاني الحقيقية للمفرادت القرآنية. أصبح في مقدورنا تحديد المعاني العامة التي تنطوي عليها هذه الآيات. كالآتي:

أ ـ ﴿بل هو قرآن مجيد. في لوح محفوظ﴾ (٢١ ـ ٢٢) ـ البروج.

ليس ثمة حاجة إلى البحث بعيداً عن عائدية الضمير «هو» ولا عن عائدية «اللوح المحفوظ» فكلاهما يعودان إلى القرآن بصراحة. وليس إلى «معادٍ» آخر.

وقد وصف بالمجد والتشريف في حفظه وصيانته بالملأ الأعلى (اللوح المحفوظ) وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩).

ب ـ ﴿إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون. تنزيل من رب العالمين﴾(٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠: سورة الواقعة).

فكونه في الكتاب، وكون الكتاب مكنوناً، وتحظير مسه إلا من المطهرين ـ الملائكة، وتنزيل من رب العالمين: هي صفات متتالية للقرآن الكريم في الآية (٧٧).

والتصريح للمرة الثانية:

ـ أنه في اللوح المحفوظ. ولا يمسه في الملأ الأعلى إلا المطهرون. وإنه منزل من الله، ينفي عنه شبهة النقل أو الترجمة ويجافي فكرة نشوئه من الأرض بإنشاء بشري.

ج ـ ﴿حم، والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآناً عربياً..﴾.

إن «حٓم» هي آية فسرت على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هذه حٓم» أي سورة حٓم. وعاد بها كثيرون إلى موضوع «الحروف» التي تبدأ بها السور فَتَقُومُ بها الآية كاملة. ويدخل بعضها في تشكيل الآية فتكون جزءاً منها.

وإضافة فعل «الجَعْل» الذي هو «الخَلْقُ» و«الصيرورة» إلى الله ينفي أن يكون القرآن مجعولاً من بشر سواء أكان ذلك عن طريق النسخ أم الترجمة.

وصياغته باللغة العربية هي من الله بدليل تماسك الآية وترابطها (إنا جعلناه قرآنا عربياً. . .) ثم إن كونه في الأصل موجودٌ منذ الأزل وإلى الأبد في أم الكتاب، دليلٌ آخر على مصدره الإلٓهي، لا سيما وقد أُضيفت كلمة «لدينا» وهي حرفٌ يؤكد الظَّرفية المكانية. أي إن القرآن في أمِّ الكتاب عند الله في مكان علي حكيم.

* * *

بقي علينا أن نُحدد أخطاءَ المؤلف في تفسيره للآيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ من سورة عبس رقم (٨٠) وهي: ﴿فمن شاء ذكره، في صحف مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهرة، بأيدي سفرة، كرامٍ بررة﴾.

فهو يقول: «إن الكتاب مُيَسَّر، فمن شاءَ استطاع أن يذكره. لأنه في صُحُفٍ مكرَّمة، مرفوعةٍ مطهرة بأيدي الكتّاب الذين كتبوه فالسفرة هم الكتّاب الذين كانوا يكتبونه عند النبي».

ويقول: «إن الكتاب واحدٌ لا يتعدد، وهو مع النبوّة ميراثُ بني إسرائيل من أبيهم يعقوب (غافر ـ ٤٠/٥٣) فلا التماس لنبوة أو كتاب خارجين عن التوراة وذرّية إسرائيل».

وفي تصويب أقوال المؤلف هذه نقول:

ـ لكي نعرف «معاد الآيتين ١٢ ـ ١٣ ﴿فمن شاء ذكره في صحف مكرمة﴾. يقتضي أن نعود إلى الآية ١١ ـ من السورة ذاتها ﴿كلا إنها تذكرة﴾ ليتضح لنا أن الآيتين (١٢ ـ ١٣) هما وصفان للتذكرة. والتذكرة تنطوي على ضمير المؤنث السابق لها في «إنها» كما أن الضمير في كلمة «ذكَرَه» هو ضمير المذكر وكلاهما يعودان إلى شيء واحد. هو باتفاق المفسرين والقراء «القرآن».

ـ أما السفرة فقد قيل في فهمها أقوال: منها: أنها تعني الكتبة من الملائكة لأن الكاتب هو سافر يبين بكتابته عن الشيء الغامض. ومنها: إنها تعني الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله وأنشدوا:

وما أدَعُ السفارة بين قومي ... وما أمشي بغشٍ إن مشيت

فالكاتب والسفير كلاهما كاشفان ومبينان للعلم والهداية.

وبعضهم قال: إنهم القراء. وإنهم أصحاب رسول الله (ص).

ـ ولكن لم يَدُرْ في خَلَدِ أحَد، ولم يجر على لسان قارىء. ما جرى على لسان المؤلف من أن هذه الآيات تشكل دليلاً من القرآن على أنه لم ينزل به وحيٌ من السماء. وأن التنزيل الذي يصف نفسه به هو تعريبه وقراءَتُه باللغة العربية عن «المِثْل» النصراني. ص ٨٤ ـ ٨٥ من المؤلف.

أما ميراث:

ـ النبوة.

ـ والكتاب، في ذرّيّة إبراهيم من حفيده يعقوب. وأنه لا التماس لنبوّة أو كتاب. إلا مِنَ التوراة ومن ذرية يعقوب.

فإن مجال بحثه: في الموضوع الثالث القادم المخصص «للتنزيل».

٣ ـ القرآن تنزيل من التنزيل:

التنزيل والتفصيل:

قال المؤلف: إنَّ تنزيل القرآن هو تعريب التنزيل للكتاب ـ ص ٨٥.

وأوضح مقالته، بتقديم دراسةٍ أفرغها في الموضوعين التاليين:

أ ـ تعريف التنزيل.

ب ـ القرآن وروح القدس.

وسوف نستعرض «دراسةَ المؤلف» ونُخْضِعُها للمناقَشة كالآتي.

تعريف التنزيل:

اعتمد المؤلف على الآيات ٢٦/ ١٩٣ ـ ١٩٤ من سورة الشعراء و٢٧/ ٤٤ من سورة النحل و٣٩/ ١ من سورة الزمر و٤٠/ ٥٣ من سورة غافر و٤٥/ ٢ من سورة الجاثية و٤٦/ ٢ من سورة الأحقاف.

وذلك كله لإثبات شهادة القرآن على نفسه أنه ليس من عند الله.

ـ فالآيتان (١٩٣ ـ ١٩٤) من سورة الشعراء، كان المؤلف قد تقدم بهما من قبلُ دليلاً على بشرية القرآن، وكنَّا ناقشناه ووضعنا أوجه الاعتراض عليه في جملة ما ورد تحت عنوان «مصادر القرآن بدلالة الإعلانات» وبيَّنا خطأ المؤلف في فهمه لهاتين الآيتين اللتين شكلتا دليلاً معاكساً لأقواله، بصراحتهما اللفظية ودلالتهما المعنوية، حيث قامت فيهما الحجة على أن التنزيل هو من رب العالمين، نزل به الرُّوح الأمين على قلب النبي ليكون من المنذرين.

فنكتفي بالإحالة إلى ذلك الموضوع.

ـ والآية (٤٤) من سورة النحل، لا يمكن أن يفهم منها ما يؤيد زعم المؤلف فهي تخاطب النبي لكي يفهم الآخرون أن الرسل السابقين لم يكونوا ملائكة ولا أطيافاً بل كانوا رجالاً بشراً تلقوا الوحي الإلّهي بالرسالة فصدعوا بها... ثم تهيب الآية بمن يشكون في هذه الحقيقة ويرفضون دعوة النبي لأنه ليس ملاكاً، أن يسألوا أهل الذكر، فسوف لا يستطيعون إنكار بشرية الرجال الذين أُرسلوا.

والذكر هنا قد يعني جميعَ الكتب الإلّهية التي أُطلق عليها هذا الأسم. لأنها تذكرة للإنسان في معتقداته وحياته وقد يعني: التوراة لما جاء في الآية ١٠٥ من الأنبياء ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر**﴾.

فالآية بمفهومها الظاهري ومضمونها التعليمي تخاطب شخص «محمد» على أنه نبي، وأنه لا يختلف عن الأنبياء، وأن الكتب السابقة وأصحابها يعرفون أن لا فرق بين الأنبياء، وأن جميع الأنبياء كانوا رجالاً بشراً ولم يكونوا نساء ولا ملائكة.

ـ أما الآيات: ٣٩/ ١ الزمر و٤٠/ ١ غافر و٤٥/ ٢ الجاثية و٢٦/ ٢ الأحقاف. التي ابتدأت بها كل سورة من هذه السور فهي «حَم» وقد سميت «الحواميم» لأنها

ابتدأت بها ﴿حم. تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾(١ ـ ٢) وهما آيتان ابتدأت بهما السور (غافر والجاثية والأحقاف).

أما الزمر فقد بدأت بالآية ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾.

هذه الآيات: فيها صراحة قرآنية لا مجال إلى وقوع الخطأ في فهمها وهي: إن القرآن هو تنزيل من عند الله وليس من عند سواه. فلماذا تجاوز عنها المؤلف؟.

ـ والآيات: ٤١/ ٢ ـ ٣ من سورة فصلت و١١/ ١ من سورة هود وهي:

﴿حَم. تنزيل من الرحمن الرحيم كتابٌ فُصِّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾(فصلت).

﴿الَر. كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾(هود).

هذه الآيات لا تعود إلى التنزيل بمقدار ما تعود إلى التفصيل. وهما معنيان مختلفان، لا يتداخلان، ولا يتناوبان المواقع. وهما وإن كانا من الله صاحب التنزيل والتفصيل، فإنهما يختلفان في الماهية. (على خلاف ما رأى المؤلف).

فالتنزيل ورد شرحه عند شرح الآيتين ١٩٣ ـ ١٩٤ من سورة الشعراء.

أما التفسير فسوف نتتبّع المؤلف فيه. مستبقين مثلما فعل. الفقرة التي خصّصها له فيما بعد ونقول:

جاء في كتاب المؤلف:

«إن الكتاب مفصلاً، يعني أن القرآن، هو نفسه الكتاب الإمام مُعرَّباً إلى العربية. فالتفصيل هو التعريب وفقاً لما يستفاد من الآية ١ ـ من سورة هود والآيتين ٢ ـ ٣ من فصلت والآيتين ٢ ـ ٣ من الزخرف».

لذلك عدنا إلى الآيات، نفسها، ودرسنا ما قاله علماء اللغة والتفسير في معنى التفصيل، فتحصلت لدينا النتائج التالية:

ـ ففي التفسير: التفصيل والتصريف كلمتان تؤدِّيان إلى معنى واحد. هو التبيين والتوضيح.

ففي جميع الآيات التي وردت فيها هاتان الكلمتان انصرف المعنى إلى الصراحة والوضوح والبيان والتبيين بشكلٍ خالٍ من الخطأ والشك والريب.

﴿أفغير الله أبتغي حَكَماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونَنَّ من الممترين﴾(١١٤ ـ الأنعام).

فالكتاب المفصل هو القرآن بوضوح مقاصده وصراحته وصدقه. والذين آتيناهم الكتاب مقصود بهم اليهود والنصارى الذين جاءهم كتاب من قبل.

هؤلاء يعلمون أنه منزل من الله بالحق وليس منسُوخاً عن كتاب أو مترجماً عنه. إذ لو كان منقولا أو مترجما لما وصف بأنه منزل من الله بالحق. فالله يوحي كتبه إلى أنبيائه ولا يكلفهم بأن ينسخ المتأخر منهم عن المتقدم.

فالقرآن منزل من الله. مفصلاً بالعربية. وكان تصريفه وتفصيلُه منذ نزوله إيضاحاً لما وعد الله به المؤمنين وتوعد الكافرين. ولو كان مترجماً لجاء وصْفُهُ بصفته الحقيقية.

ولقد أوضح المفسرون ماهية «التبيين» و «التوضيح» في التفصيل القرآني فقالوا: «لقد فُرِّقت آياته وجعلت تفاصيل في معانٍ مختلفة فبعضها في وصف ذات الله تعالى وشرح صفات التنزيه والتقديس وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته وعجائب أحوال خلقه السماوات والأرض والكواكب وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان. وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ونحو الجوارح وبعضها في الوعد والوعيد والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار وبعضها في المواعظ والنصائح. وبعضها في تهذيب الأخلاق ورياضة النفس وقصص الأولين وتواريخ الماضين. (الإمام الرازي ـ في شرح الآيات ١ ـ ٨ من فصلت).

أما لماذا جاء في وصف القرآن بأنه «قرآنٌ عربيٌ» فذلك مصداقٌ لقوله تعالى **﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾**(٤ : ابراهيم).

* * *

هذا هو معنى التفصيل والتَّصريف عند أهل التفسير. وهو لا يخرج في المطلق المعنوي عن المفهوم اللغوي.

* * *

ـ فالتفصيل في اللغة: هو التبيين والتوضيح بالتجزيء والتفريد وفك التشابك بين المعاني. وعلى هذا الأساس اللغوي فسروا عبارة «كتاب فصلناه» أي بيّنا وفصّلنا ما بين آياته بالفواصل. وفسروا «آيات مفصلات» بأنها تعني وجود فاصل بين الآيتين. تمضي هذه وتأتي هذه، أي بين كل آيتين مهلة. ومنه قولهم: «القصّاب فصّل الشاة أي عضّاها» و «فصّلت الوشاح إذا نظمته مفصّلاً (مرجانة بين لؤلؤتين).

والتصريف هو التبيين أيضاً:

ومعنى «صرّفنا الآيات» بيناها، والصرّف هو الخالص من كل شيء ومنه شرابٌ صِرْفٌ أي لم يمزج، والصريف من اللبن هو الذي ينصرف من الضرع حاراً إذا حُلب، فإذا سكنت رغوته أصبح صريحا. وقيل الصرف هو القيمة وهو الوزن وقيل هو التوبة. (لسان العرب).

ـ أما الآية ٤٠/٥٣ من سورة غافر التي اعتمدها المؤلف كشاهد من القرآن يعترف فيها أنَّ الكتاب والنبوة هما الميراث الأَبَديُّ لذرية إبراهيم من حفيده يعقوب، وأنه لا نبوة ولا كتاب خارج بني إسرائيل وكتابهم. إلا أن يكون منسوخاً أو مترجماً ص ٨٤.

فإنها لا تنطوي على المعنى المتصلِّب الشديد الذي استخرجه المؤلف منها، فهي بحرفيتها:

﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب. . .﴾.

فأي كتاب ورثه بنو إسرائيل؟ وهل يرث الوارث ميراثاً لم يظهر؟.

إن بني إسرائيل وجدوا بين أيديهم ما تركه موسى، فكان هذا هو إرثهم عنه. أما القرآن فقد أنزل بعد موسى بعد أكثر من عشرين قرناً، فكيف يقال إنه داخل في ميراث بني إسرائيل؟.

إن المنطق يقضي باقتصار الإرث على ما كان قائماً في عهد موسى، وكان يتضمن الهداية، ومن بعده خلفه بنو إسرائيل. إذ لا يُعقل أن يكون «الميراث» متجهاً إلى تركة، لم تنشأ ولم يخلق صاحبها. فالإرث هو حق الوارث فيما تركه المورث. والمورث والإرث لا يعتبران علمياً وواقعيا إلا بعد وفاة المورث.

وإن كان هذا هو حكم المنطق فإن حكم الحياة هكذا.

لأنه توجد أعداد من الكتب المنزلة أُطلق عليها اسم «الكتاب» و«الذكر» تحديداً لموقعها من الآية.

فالإنجيل كتاب لا يقبل أتباعه ـ ومنهم المؤلف حتماً ـ أن يرفض وجوده ككتاب إلهي بمقولة أنه محاذٍ للتوراة وتابع لها ومكمل لما فيها.

وكذلك صحف إبراهيم وزبور داوود.

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾(٣/ ٢ ـ ٣ ـ ٤ آل عمران).

فالكتاب هنا: هو القرآن. وقد أُفرد بالإنزال الإلهي المباشر. مثلما أنزل الكتابان من قبله. ومثلما أنزل الفرقان من قبلهما.

فحرف العطف «الواو» الذي يتكرر بين هذه الكتب الأربعة، يعني التتابع مع التغاير والتفريق ولا يقبل من أي قارىء أن يحمل ما في هذه الآية على أن الكتاب فيها «يعني التوراة أو هو نسخة عنها، إذ بذلك تحتمل الآية الصيغة التالية.

﴿نزل عليك التوراة بالحق. مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة. . . ﴾.

وهي صيغة مرفوضة في المبنى والمعنى.

ـ ففي المبنى: توقع القرآن الكريم في عيب التكرار.

ـ وفي المعنى: تنقل الخطاب الموجه إلى النبي محمد للنبي موسى. وهذا تعترض عليه الآية بجملتها والآيات السابقة لها.

ثم لو كان المقصود بالكتاب في الآية هو «التوراة» فإنّ عبارة «مصدِّقاً لما بين يديه: تقع في حرج واضطراب. إذ ماذا كان بين يدي التوراة لكي تصدقه؟.

لذلك: ينبغي أن نعود إلى مجموعة الآيات التي ترافقت وتواكبت مع الآية (٥٣) من سورة غافر ليتبين أن الخطاب كان موجها إلى النبي حيث أوضح له أن الله لم يخذل رُسُله والذين آمنوا معه بل كان ينصرهم على الدوام نصراً يجدون عواقبه يوم لا ينفع الظالمين ظلمهم، وقدم له أحد الأنبياء مثالاً على الذين أوتوا الهدى والإيمان وأورثوا الكتاب ثم دعاه إلى الصبر وانتظار تحقيق وعد الله. **﴿إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد(٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار(٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب(٥٣) هُدىً وذكرى لأولي الألباب(٥٤) فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار(٥٥)﴾** (سورة غافر).

تُرى؟؟. هل يمكن التماس مخاطب بهذه الآيات غير النبي محمد؟. وهل كان يمكن أن يخاطب بها لو كان القرآن معرباً عن التوراة؟. والحديث معه، وحضه على الصبر مثلما صبر الأنبياء؟ وانتظار وعد الله الحق بنصره كما نصر رسله والذين آمنوا. هل كان يوجه إليه بهذا الإسلوب وبهذه الصيغة لو لم يكن صاحب رسالة ومكلفا بإبلاغ كتاب؟ ولو كان القرآن مترجماً عن التوراة أو عن سواها فهل كان ليصف نفسه أنه متفوق ومهيمنٌ عليها وعلى جميع الكتب الأخرى:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بما أنزل الله ولا تتَّبع أهواءهم عما جاءك من الحق. لكلٍّ جعَلنا منكم شَرْعَةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة. . .﴾(٥/٤٨: المائدة).

فآية الهيمنة جاءت بعد آية أوردت «التوراة والإنجيل» ككتابين مستقلين كل منهما فيه هُدىً ونور وتشريع وموعظة لأهل زمانه.

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظة للمتقين(٤٦)

وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون(٤٧)﴾.

ثم جاءت الآية ٤٨ ﴿**وأنزلنا اليك الكتاب...**﴾ مؤكدة استمرار عملية التنزيل الإلهي بالكتاب ـ القرآن الذي، هو آخرها، واصِفةً إياه بأنه لم يأت ليدحض الكتب السابقة بل ليصدقها ولكن في المطلق أي في «وحدة الدين» و«وحدة التنزيل» ومؤكدة في الوقت ذاته أنَّ القرآن ـ في الوقت الذي يصدق الكتب ـ يهيمن عليها بما تضمنه من أحكام إلّهية واجبة الاتباع، ولو خالفت أهواء أهل الكتب المذكورة، فلكل وضع الله شرعة يسير عليها في زمانه إلى أن تنسخها الشريعة التالية لها. ولو شاء الله لجعل الناس جميعهم على شريعة واحدة.

٤ ـ القرآن وروح القدس:

قال المؤلف: لقد قامت شبهة لدى أتباع القرآن في فهمهم «للروح القدس».

فقد قرأوا الآية ٢/٩٧: البقرة و١٦/١٠٢: النحل ففهموا منهما أن روح القدس نزَّل القرآن بالحق على قلب النبي بإذن الله. وقد فاتهم أن روح القدس ـ جبريل. لم ينزل بالكتاب على محمد. بل أنزل عليه «الإيمان بالكتاب» و«ضرورة الدعوة إليه» أي الإيمان بالتوراة والدعوة إليها وذلك صريح في الآيات ٤٢/٥١ ـ ٥٢: الشورى و ٤٤/٣: الدخان و ٩٧/١: القدر. في حين أن القرآن هو غير الكتاب، بل هو تأييد له ودعوة إليه وترجمة عنه، ولم ينزل دفعة واحدة مثلما نزل الكتاب، بل نزل مفصلاً على مدى عشرين سنة ونيف، وقد صرح عن نفسه بأنه ليس الكتاب بل هو «بيِّناتٌ من الهدى أي الكتاب» و«فرقان» ٢/ ١٨٥: البقرة.

هذه أقوال المؤلف حافظنا عليها بالكلمة ص ٨٦ ـ ٨٧.

ومن أجل تسهيل المناقشة وتبويبها. أضع أولاً بين يدي القارىء «كلمات الآيات التي انصرف بها المؤلف إلى التوراة». ثم انتقل إلى الآيات التي أدخلت الشبهة إلى عقول تابعي القرآن في فهم وظيفة الروح القدس ودَوْرِهِ في القرآن والدعوة الإسلامية.

﴿فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت. ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله

من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجَّة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ (٤٢/ ١٥). ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (٥٢/٤٢ : الشورى).

﴿حٰم(١) والكتاب المبين(٢) إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين(٣)﴾ (الدخان).

﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾(٩٧/ ١ : القدر).

هذه هي الآيات التي استخرج المؤلف منها أن الكتاب والوحي ليسا القرآن بل التوراة. فكيف وصل إلى هذه النتيجة؟ وهو لم يقدم تحليلاً لغويا يعتمد عليه. ولا تفسيراً قرآنياً يسعف حجته. ولا مرجعاً تاريخياً يفيد بأن الناس الذين اتبعوا محمد، اتبعوه كداعية لليهودية والذين آمنوا بالقرآن آمنوا به على أنَّه ترجمةٌ للتوراة أو الإنجيل.

فقط يستمد فهم هذا المؤلف. من عواطفه وأحاسيسه المنحازة التي جانبت الحق والإنصاف وإلا كيف يمكن أن تبقى تلك الحقيقة القرآنية خافيةً على الناس طوال أربعة عشر قرناً فلا تتكشف إلا في خواتيم هذا القرن. في مؤلفات «الحداد» و«الحريري»؟؟.

والآن: هذه هي الآيات بحروفها كاملة:

١ ـ الآية (١٥) من سورة الشورى: تخاطب النبي (ص) بصيغة الأمر للقيام بعمل لا بدَّ منه. كَنتيجة لما سبق من بيان. فقالت:

﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت﴾ أي الأوامر بالدعوة والاستقامة هي نتيجةٌ لمبررات سابقةٍ لها، وتفسيرُ (لذلك) هو (من أجل ذلك).

فما هي المبررات السابقة لها؟.

جاء في الآية (٢). ﴿كذلك يوحىَ إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ ثم تذكر الآيات التالية جبروت الله الذي له ملك السماوات والأرض

والملائكة يسبحون بحمد ربهم، أما الذين اتخذوا من دونه أولياء فليس النبي عليهم بوكيل (٤ ـ ٥ ـ ٦).

ثم تكرر الخِطاب إلى النبي في الآية (٧) موضحاً مأمورية الوحي الذي أنبأ عنه في الآية (٣)، فقالت: **﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾**.

فالوحي هو القرآن العربي.

والمهمة هي الإنذار والتبشير.

ثم بعد ذلك جاء توضيح أبعاد ذلك التبشير في الآيتين (١٣ و ١٤) بأن الله شرع لمحمد وأتباعه ما شرعه للأنبياء السابقين بدءاً من نوح إلى إبراهيم وموسى وعيسى، وهو أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه.

وهذا الدين الذي أمر به النبي هو الذي أوضحته الآية ٣/ ٦٤ من سورة آل عمران:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. ﴾.

بعد هذا كله. وكنتيجة منطقية لما تقدم جاءت الآية (١٥) مبتدئة بكلمة «فلذلك» وموضحة أن مهمة النبي هي الدعوة إلى الدين الواحد والاستقامة على الكلمة السواء.

ثم أردفت: **﴿ولا تتبع أهواءهم...﴾** أي أهواء أهل الكتاب. سواءٌ الذين يقولون: عزيرٌ ابن الله. أمْ الذين يقولون: المسيح ابنُ الله. وتبرَّأت من أقوالهم براءَةً قاطعة تاركةً حسابهم إلى الله الذي يجمعكم يوم القيامة فلا حجة بينكم وبينهم. لكم أعمالكم ولهم أعمالهم.

٢ ـ وكذلك الآية ٤٢/ ٥٢ من سورة الشورى تكاملت في المعنى مع الآية (٥١) منها.

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه مايشاء إنه عليّ حكيم(٥١) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم(٥٢)﴾.

ففي الآية الأولى:

حكم عام: تضمن أن الله لايكلم بشراً إلا على أحد ثلاثة أوجه:

ـ إما بالوحي وهو الإلهام، أي القذف في القلب أو في المنام كما أوحى إلى أم موسى، وإبراهيم عليه السلام في ذبح ولده.

ـ وإما أن يُسمِعَهُ كلامه من غير واسطة مبلّغ. بدليل تكليمه موسى وتسمية ذلك التكليم وحياً بقوله مخاطباً موسى «فاستمع لما يوحى».

ـ وإما إن يرسل إليه رسولا من الملائكة فيبلغ الوحي إلى الرسول البشري.

ولما بيّنت الآية أقسام الوحي إلى الأنبياء جاءت الآية (٥٢):

بحكم خاص: وهو توجيه الخطاب إلى النبي محمد بقولها: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا...﴾ أي إن طريقة التخاطب معك هي واحدة من الطرق الثلاثة التي يصل بها كلام الله. والمراد بتعبير «روحاً من أمرنا» هو القرآن الذي يفيد الحياة في مقابل الجهل والكفر اللذين يفيدان الموت.

وأما ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به﴾ فذلك مقصودٌ به فترة ما قبل النبوة والوحي والقرآن.

فالكتاب هنا هو القرآن.

والإيمان هنا هو الصلاة لقوله تعالى في الآية: ١٤٣/٢: البقرة ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي صلاتكم.

٣ ـ أما الآيتان (٢ ـ ٣) من سورة الدخان.

فقد وجد فيهما المؤلف شبهة، ثم نسب الشبهة إلى أتباع القرآن.

فالكتاب ـ كما يقول المؤلف ـ نزل في ليلة مباركة (٣) في حين أن القرآن نزل على مدى عشرين سنة ونيف مما يدل على أن «الكتاب» هو غير «القرآن» وأن مأمورية القرآن هي أن يكون «بينات» من «الهدى وفرقانه» أي من التوراة كما صرحت بذلك الآية ٢/ ١٨٥ من سورة البقرة. . . انتهى كلام المؤلف.

غير أن المقابلة بين الآية ٣ ـ من سورة الدخان والآية ١٨٥ ـ من سورة البقرة توضح أن الكتاب هو القرآن وليس سواه.

فالليلة المباركة في الآية ٣ ـ هي ليلة القدر وهذه الليلة هي من ليالي شهر رمضان الذي أنزل فيه الفرقان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وهي أيضاً ليلة القدر المذكورة في الآية الأولى من سورة القدر: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ (٩٧/ ١: القدر) ولا يحمل على التناقض ما جاء في آيتي الدخان والقدر «من أنه نزل في ليلة واحدة وما جاء في آية البقرة وسواها من أنه نزل منجما، مُبَعّضا على مدى ثلاثة وعشرين سنة. كما لا يقبل على هذا التخرص لاعتبار أن القرآن هو غير الكتاب الذي أخبرت الآيات أنه نزل وحياً من الله.

وذلك:

ـ لأن الفقهاء والقراء والمفسرين أجمعوا منذ عهد النبي على أن الكتاب في هذه الآيات هو القرآن وذلك تأسيساً على ما سمعوه من النبي ورووه عنه، وظل مرتبطاً بقناعاتهم طوال حياته ثم استمر من بعده.

ـ ولأن تنزيله في ليلة مباركة التي هي ليلة القدر، ثبت بحديث صحيح عن النبي (ص) قوله: (نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لسِتٍ مضين، والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين) «رواه الإمام أحمد عن وائلة بن الأسقع ـ تفسير ابن كثير».

ـ ولأنَّ الإجماع بين المفسرين على أن إنزال القرآن تم دفعة واحدة من اللوح المحفوظ ليلة القدر إلى السماء الدنيا ثم أنزل منجّماً على النبي حتى آخر عمره بمقدار ما كان يحتاجه هو وأمته.

ـ ثم وبعد ذلك كله:

هذا هو ما يؤمن به مليارُ إنسان أو يزيدون. بينهم الملايين من الفلاسفة والعلماء والأدباء والفقهاء والباحثين والمؤرخين. وعلماء اللغات والألسنيات كلهم تداولوا إيمانهم بتسلسل علمي وتاريخي وإسنادٍ مستمر لم تقطعه الكوارث بل ظل يتردد من مئات ملايين الحناجر والأقلام في كل يوم.

هؤلاء جميعهم لايستطيعون أن يسقطوا من قناعاتهم، أن القرآن كتابٌ أنزله الله باللسان العربي إنزالا مباشرا على قلب النبي، لا يستطيعون أبداً، إنسياقاً وراء هذا الشتات من الأوهام والعواطف التي زج بها «الحداد» في كتابه مجردة من أي دليل، فقيرة إلى أي إسناد.

بل وفوق هذا: يظل من حق هذه الكتلة البشرية الضخمة أن تضع عشرات من علامات الشك والارتياب في نيات هذا المؤلف وغاياته.

ثانياً: إيمان القرآن هو إيمان الكتاب نفسه:

صار من الواضح لدينا أن المؤلف عندما يجمع في مكان واحد بين تعبيري «القرآن» و«الكتاب» فهو يقصد بالكتاب التوراة انطلاقا من نظريته التي تقوم على مقولة «أنه لم ينزل من السماء غير كتاب واحد هو «التوراة» أما ما عداه، وخاصة القرآن فهو تعريب عنه واقتباس منه وهو هنا في الصحيفتين ٨٨ ـ ٨٩ يسعى إلى إثبات أن لا إيمان في القرآن غير ما جاء في الكتاب ويقسم مهمته إلى موضوعين هما:

١ ـ هذا هو إيمان القرآن يعلنه مراراً.

٢ ـ وحدة الإيمان تقتضي وحدة الكتاب.

ففي الموضوع الأول ـ هذا هو إيمان القرآن يعلنه مراراً:

يبني المؤلف نظريته على الآيات ٢/ ١٣٦ ـ ١٧٧ ـ ٢٨٥ من سورة البقرة.

وعلى الآيات ٣/ ٨٤ ـ ٨٥ من سورة آل عمران.

فلنستعرض هذه الآيات تحت سمعه وبصره لنرى فيما إذا كانت معانيها وأهدافها تلتقي مع معانيه وأهدافه.

آيات سورة البقرة:

١ ـ ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين(٢/ ١٣٥ : البقرة). **﴿قولوا آمنا بالله ومآأنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾** (٢/ ١٣٦ : البقرة).

في الآية ١٣٥، أجاب القرآن على مقولة اليهود والنصارى جواباً حاسماً عندما قال اليهود كونوا هودا تهتدوا وقالت النصارى بل كونوا نصارى تهتدوا فقطعت الآية عليهم مسير القول بالحرف «بل» الذي يفيد الإضراب عما قبله والعدول عنه للانتقال إلى نقيضه وهو «ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» فعند هذه الملة تلتَمس الهداية. وليس عند اليهود أو النصارى. ثم انتقل الحديث القرآني إلى الآية ١٣٦ ليخاطب الذين آمنوا بالدعوة عامة. أن يعلنوا إيمانهم بالرسل والأنبياء دون تفريق في تسلسل هادفٍ هو الإيمان أولاً بما أنزل إليهم وهو القرآن وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل....

وهكذا تتعدد الإنزالات الإلّهية في الآية ليتضح أن كل واحد من الأنبياء أنزلت عليه تكاليف خاصة به. وبذلك يسقط القول بأن القرآن لا يعترف بأي إنزال إلهي لغير التوراة. ولو أن المؤلف أمعن النظر وأعمل الفكر بعض الوقت بتجرُّدٍ علمي، لوجد أن الآية تطلب الإيمان «بما أنزل إلينا» أي بالقرآن أولاً، وقبل أي مصدر آخر، ثم يتسلسل الإيمان بما أنزله الله على الأنبياء تسلسلاً مربوطاً «بواو العطف» وهذا الحرف وإن كان هنا يفيد الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه في «حكم الإيمان» فإنه ـ في الوقت ذاته ـ يفيدُ أن كلا منهما مستقل في ذاته وكينونته عن الآخر.

ثم جاءت خاتمة الآية **﴿لا نفرق بين أحَدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾** لتدل على أن الإيمان الذي يدعو إليه القرآن يختلف عن إيمان أهل التوراة الذين لا يؤمنون إلا بها، وعن إيمان أهل الإنجيل الذين لا يؤمنون إلا بهما. أما إيمان أهل القرآن فهو على ملة إبراهيم وحدانية مطلقة وتسليم مطلق لله. وتنزيه له عن الشريك والشبيه والولد.

٢ ـ أما الآية ٢/ ١٧٧ فينبغي الوقوف عندها لسببين:

أولهما: إن المؤلف لاحظ إشارتها إلى الإيمان بالكتاب. فَنَسب إليها أنها تعني «التوراة» فقال: لاحظ التعريف المطلق في قوله «الكتاب».

والثاني: إن الآية وضعت قواعد للإيمان لا تزال حتى الآن مرفوضة من اليهود والنصّارى لأنها ـ كما يقولون ـ مستقلة عما عندهم.

ـ فالآية: **﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾**.

تلك المجموعة من المعطوفات بحرف «الواو» تمثل في رأي القرآن أوصاف الذين آمنوا بصدق، وهي مشروطة بتمامها، فإذا تخلف واحد منها لا يمكن أن يوصف بالبر ولا بصاحب الإيمان الصادق ولا بأنّه من المتَّقين.

ـ والآية: تخاطب اليهود الذين يتوجهون في صلاتهم نحو المغرب والنصارى الذين يولون وجوههم قبل المشرق، فتقول لهم: ليس في خصوصية التوجه دليل على توافر صفات البِّر في من توجَّه. **﴿ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر...﴾**.

والبرُّ: هو ضد الإثم وهو هنا «اسم عام» يطلق على جميع الطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى. **﴿وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾**(٥/ ٢: المائدة).

ـ ثم انتقلت من دَحض مقولة اليهود والنصارى في تميزهم بنوال البر إلى تعداد الأوصاف الواجب توافرها في الإنسان حتى يكون براً صادق الإيمان. وهي ثماني عشرة صفة.

لو استعرضناها واحدةً واحدة، وجدنا أنها بمجموعها تشكل الإيمان الذي دعا إليه القرآن وأن اليهود والنصارى لا تتوفر فيهم جميع عناصره مثل:

ـ الإيمان بالله الواحد: فاليهود يقولون: إن عزيراً ابنُ الله والنصارى يقولون إن المسيح ابنُ الله.

ـ والإيمان باليوم الآخر: فاليهود يقولون لن يدخل الجنة إلا من كان هودا والنصارى أنكروا المعاد الجسماني.

ـ والإيمان بالملائكة: اليهود أظهروا عداوتهم لجبريل.

ـ والإيمان بالنبيين: اليهود قتلوا النبيين وطعنوا في نبوة محمد مع النصارى.

ـ والوفاء بالعهد: اليهود نقضوا عهدهم مع الله ﴿**وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم**﴾ (٢/ ٤٠).

فلا يقبل بعد هذا التحديد الوصفي للإيمان في القرآن، أن يقال إنه هو ذات الإيمان الذي دعت إليه التوراة.

٣ ـ والآية ٢/ ٢٨٥ من سورة البقرة: قال المؤلف فيها: إنها بدعوتها إلى عدم التفريق بين الأنبياء تعطي الدليل على أن «إيمان القرآن» هو إيمان الكتاب (التوراة) والإنجيل. وهو يلخص الدعوة إلى النصرانية. (ص ـ ٨٨).

ولكن القراءة الممعنة للآية تعطي عكس ما قاله المؤلف: ﴿**آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾(٢/ ٢٨٥).

فالآية ـ ذات طبيعة تقريرية قاطعة. تحدد عدداً من الأمور هي:

أ ـ إن النبي محمد (ص) آمن بما أنزل إليه (وهو القرآن) أما ما أنزل إلى غيره من الأنبياء فقد جاء حكمها. مستقلا بعد فاصلة واحدةُ من الآية.

ب ـ وإن ما أنزل إلى الرسول هو من عند ربه وليس تعليما من سواه أو نقلاً عن غيره.

ج ـ والمؤمنون، معطوفة على الرسول في تعداد جهات الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله دون تفريق بين الرسل.

د ـ وإنما صار تخصيص الرسول في بداية الآية لأن الوحي ينزل عليه برسالته أولاً فكان الإيمان فيما أُنزل إليه أولاً. هو أولى وأكمل.

وكان قد مر في الآية ٢/ ١٧٧ أن عناصر الإيمان وشروطه في القرآن لا تنطبق على عناصر الإيمان وشروطه لدى اليهود والنصارى. وكلتا الطائفتين استمدت عناصر إيمانها من كتابها. مما ينفي أن يكون الإيمان في القرآن منقولاً عن الإيمان في التوراة والإنجيل.

٤ ـ والآيتان ٣/ ٨٤ ـ ٨٥ من آل عمران.

فالآية (٨٤) لا تختلف في لفظها ومعناها عن الآية ٢/ ١٣٦ التي مرت معنا، مما يغني عن استجلاب ألفاظها ومعانيها مرة ثانية.

ولكن الآية (٨٥) صريحة جداً في تحديد الموقف من الأديان.

فالذي يدعو إليه القرآن هو الإسلام ولا يدعو إلى سواه. «يهودية أو نصرانية» لأن الإسلام جمع أركان الدين الذي يوحد الأمم على وحدانية الله وتنزيهه والإيمان باليوم الآخر.

﴿ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٣/ ٨٥: آل عمران).

أي: إنه مع الإيمان بالرسل والكتب المعددة في الآية السابقة (٨٤) لا يقبل غير الإسلام ديناً ينتسب المؤمن إليه. ومن ينتسب إلى سواه يكون في الآخرة من الخاسرين. والخسران في الآخرة هو حرمان الثواب واستحقاق العقاب.

* * *

وفي الموضوع الثاني وحدة الإيمان تقتضي وحدة الكتاب:

بعد أن تهيأ للمؤلف أنه قدم الدليل الكافي على أن شروط الإيمان في القرآن مستمدة ومأخوذة عن الإيمان التوراتي. انتقل إلى هذا الموضوع. ليبين أن وحدة الإيمان تقتضي وحدة الكتاب. أي إن القرآن لا يستطيع أن يكون كتابا أساساً أو إماماً، بل هو منسوخ عن الكتاب الإمام بما يجعله ناشئاً عنه ومستمدا منه.

وعلى طريقته دوماً، لا يطرح الأستاذ الحداد طرحاً. ولا يطلق فكرة. إلا والدليل القرآني بين يديه حاضراً ماثلاً فهو يقول:

ـ في الآية ٤/ ١٣٥ من النساء تصريح بوحدة الكتابين لأن القرآن تفصيل للتوراة أي تعريب له.

ـ والآيتان ٢/ ١ ـ ٥ من البقرة تبينان أن التوراة «فيها هدى للمتقين العرب» وأن القرآن تبنّى هذا الهدى واتَّبعه.

ـ والآية ٥/ ٤٩ من المائدة، وصفت الإنجيل بأنه مثل التوراة. فيه هُدىً ونور لجماعة محمد، فكل ما في القرآن من النور والهدى. هو نور التوراة والإنجيل وهداهما. نُقِلاَ نَقْلاً إلى العرب بلغتهم.

لذلك يوجه المؤلف «أمة محمد» في خاتمة موضوعة قائلاً:

«لذلك على أمة محمد أن يؤمنوا بالكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل لأن الاقتصار على الإيمان بالقرآن وحده هو خيانة للقرآن نفسه، ص ٨٩ من المؤلف».

ونحن: قبل أن نستعيد قراءة الآيات لنتبين مقدار ما فيها من المعاني التي استخرجها المؤلف، نبادر إلى «موضوعته الأخيرة» لنقول:

إن القرآن الذي هو دستور أمة محمد، قام على الإيمان بما أنزل الله من الكتب على أنبيائه دون تفريق. ولا يمكن أن يكون مسلماً من كَفَر بواحدٍ من هذه الكتب. ولكنَّه نبَّه ـ في الوقت ذاته ـ إلى أن التوراة والإنجيل اللذين أنزلهما الله حُرِّفا وزُوِّرا، فَفُقِد الأصلُ أو أكثرُه ولم يبق في التداول غيرُ ما تمت صياغَته وجمعه تحت تأثير الظروف التاريخية التي مرَّ فيها كل منهما. وسوف نقدِّم في خاتمة هذا البحث نبذة تاريخية مختصرة عن مراحل التدوين التي اجتازها كل من التوراة والإنجيل، ولكن؟؟؟.

مادام أهل الكتاب من يهود ونصارى ينظرون إلى القرآن مثلما ينظر الأب إلى ابنه لأنه ـ كما يقول المؤلف ـ هو نسخةٌ معرّبة عن كتابيهما، فلماذا ناصبوه العداء وعارضوه ونبذوه، ومازالوا على مواقفهم منه حتى الآن؟ حتى العرب منهم الذين

خُلِقوا ونشأوا على العربية، لماذا رفضوا هذه النسخة عن كتابهم وقد أفرغت في لسانهم الأصلي؟.

أليس من الأجدر أن يستنكر المؤلفُ منهم مثلما استنكر من أمة محمد ويقول لهم: إن الاقتصار على الكتابين دون الكتاب العربي فيه خيانة للكتابين.

والآن: إلى قراءة الآيات واحدة واحدة:

١ ـ ٤/ ١٣٦ ـ النساء: ﴿**يا أيها الذين آمنُوا آمِنُوا بالله ورسوله. والكتاب الذي نَزَّل على رسوله. والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائِكتِه وكُتُبه ورَسُلِه واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً**﴾.

وكنا في دراستنا لعناصر الإيمان القرآني من خلال الآية ٢/ ١٧٧ البقرة بينا أن هذه العناصر لا تتوفر جميعها في الإيمان اليهودي والإيمان النصراني.

٢ ـ ٢/ ١ ـ ٥ البقرة: ﴿**الّم(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين(٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(٤) أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون(٥)**﴾.

أ ـ الآية الأولى (الّم) هي من الأحرف المقطعة في أوائل السور وقد اختلفوا في تفسيرها من حيث ماهيتها. ولكنهم اتفقوا جميعا على أنها لم تفتتح فيها سورة إلا وردت بعدها آية فيها انتصار للقرآن وبيانٌ عن إعجازه ﴿**الّم. ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾ ﴿**الّم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق**﴾ ﴿**الّمص كتاب أنزل اليك**﴾ ﴿**الّم تنزيل الكتاب لا ريب فيه**﴾ ﴿**حَم تنزيل من الرحمن الرحيم**﴾.

ـ والكتاب الذي لا ريب فيه ولا شك في صحته هو «القرآن».

واسم الإشارة «ذلك» فيه إشارة إلى ما كان قد نزل من سور القرآن وآياته قبل هذه الآية. وقد وردت آيات فيه تسمّي بعضه قرآناً. دون الإشتراط بأن لا يطلق هذا التعبير إلا على القرآن كاملاً: مثل قوله في حكايته عن الجن: ﴿**إنا سمعنا قرآناً**

عجبا﴾ (١ ـ الجن)، وقوله: ﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا...﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

ولقد وردت في القرآن أسماء له أحصاها المفسرون فبلغت واحداً وثلاثين اسماً. أحدها «الكتاب» الذي جاء بصيغة المصدر من كتب مثل: الصيام والقيام. وعندما يرد هذا الاسم في آية من الآيات. فهو للدلالة على أحد المعاني والغايات الآتية:

١ ـ الفرض: ﴿كتب عليكم القصاص...﴾ (البقرة: ١٧٨)، ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا﴾(النساء: ١٠٣).

٢ ـ البرهان: ﴿فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾(الصافات: ١٥٧).

٣ ـ الأجل: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ (الحجر: ٤).

٤ ـ المكاتبة: على تحرير الرق: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم﴾(النور: ٣٣).

وقد سمي القرآن كتابا تشبيها وتمثيلا بالكتيبة. حيث اجتمعت فيه جوامع العلوم منسقة مثلما يجتمع الجنود بتنسيق وتنظيم. (تفسير الرازي).

ـ والهدى هو الدلالة الموصلة إلى الغاية.

ـ والمتقين: اسم فاعل بصيغة جمع المذكر السالم، من فعل «وقَوى» من الوقاية: قال الشاعر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كفٌّ ومعصم

والمقصود بالتقوى القرآنية: هو وقاية النفس وصيانتها من ذنوب الدنيا، وقد حضَّ عليها الأنبياء جميعا ورأوا فيها التماس خشية الله من العقاب على الذنوب.

ففي أول سورة النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ (٤/ ١)، وفي الشعراء: ﴿إذ قال لهم أخوهم نوحٌ ألا تتقون﴾ (٢٦/ ١٠٦)، وفي العنكبوت: ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾(٢٩/ ١٦).

والخطاب هنا في هذه الآية: ليس إلى العرب فقط بل إلى الناس أجمعين، فالقرآن إذ وصف نفسه فيها، بأنه هُدىً للمتقين، وَصَف شمولَ هذا الهدى جميعَ

الناس الذين ينبغي لهم خشية الله دوماً. ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس**﴾(البقرة: ٢/ ١٨٥).

ب ـ الآية ٥ تدل على الذين توفرت فيهم الصفات التي عددتها الآيتان ٣ ـ ٤ بقولها: ﴿**أولئك على هُدىً من ربِّهم وأولئك هم المفلحون**﴾(٥).

فمن هم هؤلاء؟ هم: ﴿**الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾(٣). ﴿**والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون**﴾(٤).

فهي إذن: صفات ست. ينبغي توافرها فيمن يستحق أن يوصف بأنه على هدى من ربه وأنه من الذين أفلحوا. وهي كلها أوصاف «المتقين» التي تعددت في الآية (٢). ومن بينها: الذين يؤمنون بما أنزل إلى النبي ﴿**بما أنزل إليك**﴾.

فالهدى والفلاح لا يتوافران «بالمنطق القرآني» إلا للمتقين الذين تكاملت فيهم تلك الصفات. وهي صفات استقل بها القرآن عن الكتب المتداولة بين أيدي الناس.

فكلاهما ـ اليهود والنصارى ـ لديهما شبهة فيما يتعلق في الإيمان بالآخرة ـ كما سبق القول ـ وكلاهما، لا يؤمنان بما أنزل إلى النبي محمد، ومن لا يؤمن بما أنزل إليه لن ينالَ هذا الإيمان ولن ينال الهدى والفلاح.

ج ـ أما الآية ٥/ ٤٩ المائدة فقد بدا أن المؤلف أخطأ في «رَقَمِها» لأن الآية التي تصف الإنجيل بأن فيه «هدى ونور» هي الآية (٥/ ٤٦) وليس (٤٩).

ونظراً إلى أن المؤلف خصَّ الإنجيل بقوله: إن الإنجيل وحده هو هدىً وموعظة للمتقين من العرب الآية(٤٩) المائدة. فمن المفيد للبحث أن نقرأ هذه الآية مع مجموعة الآيات التي ترتبط معها بسرد موضوعي واحد.

﴿**وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هُدىً ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظة للمتقين(٤٦) وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون(٤٧) وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا**

منكم شرعة ومنهاجاً. . (٤٨) وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون(٤٩)﴾.

ـ في الآيتين ٤٦ ـ ٤٧ وضوح قاطع في المفهوم القرآني لتعبير «مصدقاً لما بين يديه» فقد تكرر التعبير في الآية ٤٦:

ـ مرة ليصف عيسى بأنه «مصدق لما بين يديه من التوراة».

ـ ومرة يصف الإنجيل بأنه«مصدق لما بين يديه من التوراة».

ولكن شريعة عيسى غايرت شريعة موسى عليهما السلام.

لذلك حضت الآية (٤٧) أهل الإنجيل على أن يحكموا بما أنزل الله فيه. وليس بما أنزل الله في التوراة. ووصفت من لايحكم منهم بما أنزل الله في الإنجيل بأنه من الفاسقين.

فكيف يمكن فهم هذه الآية؟ وهل يمكن أن يقع القرآن في أحكام عقائدية كهذه؟.

لقد ناقشنا ـ فيما سبق ـ معنى التصديق. وهنا تأييد ما ألمحنا إليه. من أن التصديق بالتوراة هو الإقرار بأنه كتاب منَّزلٌ من الله، وأنه كان حقا واجب العمل به قبل نزول النسخ، وأنه كان مرجع الهُدى حتى نزول الإنجيل فحلت عليه هذه المكرمة حتى نزل القرآن.

ـ بعد ذلك نستطيع الوقوف على معاني الآيات اللاحقة: فقد أنزل القرآن على النبي مقراً بأن الله أنزل التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الأنبياء، ومهيمنا على الجميع، متضمنا وسائل الهدى والشريعة والتقوى، لذلك جاء الأمر إلى النبي أن يحكم بما أنزل إليه وذلك مع إقراره بصدق الكتب مثلما أُمِر عيسى وأهلُ الإنجيل بأن يحكموا بما أنزل الله فيه مَعَ إقرارهم بالتوراة. وقد جاء وصف أهل الإنجيل الذين لا يحكمون بموجبه. أنهم فاسقون، كذلك جاء التحذير إلى النبي محمد ألاَّ يتبع أهواءهم كيلا يضلوه ويفتنوه.

* * *

ثالثاً: إسلام القرآن هو إسلام الكتاب نفسه:

«وليس في القرآن إسلام غير إسلام أهل الكتاب ـ التوراة والإنجيل ـ وأهله.

ـ فالجدال معهم محظورٌ على المسلمين إلا بالحسنى (بالتي هي أحسن ـ العنكبوت: ٢٩/٤٦).

ـ وأهل الكتاب هم المسلمون الحقيقيون:

ـ قبل الإسلام ـ القصص: ٢٨/ ٥٣).

ـ وأوَّل الأوامر في الغار إلى النبي كانت أن ينضمَّ إليهم.(النمل: ٢٧/ ٩٠ ـ ٩١). (وفصلت: ٤١/ ٣٣).

ـ وأمة الإسلام، هو الاسم الذي أطْلَقَهُ القرآن على المسلمين السابقين له.

ـ وهم أهلُ العلم الذين يشهدون للإسلام مع الله والملائكة أن لا دين عند الله غيره (آل عمران: ٣/ ١٨ ـ ١٩).

ـ فإسلام القرآن هو إسلام الكتاب (التوراة والإنجيل) (آل عمران: ٣/ ٨٤). وهذا الإسلام الكتابي هو الذي ارتضاه القرآن لأمته يوم حِجَّة الوداع (٥/ ٣: المائدة).

تلك هي: أقوال المؤلف في الصفحات ٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩١ من كتابه. وقد اختتمها بعبارات توجيهية إرشادية تقريرية قال فيها:

«فهذا الواقع القرآني يحتم على أمة محمد، كما على أُمَّة عيسى، المباشَرَة بالحِوار الإسلامي المسيحي ليتحققوا أو يحققوا، أنهم أمة واحدة على دين واحد وإن افترقوا إلى فرعين. اسلام.ومسيحية ـ ص ـ ٩١».

تلك العبارة: صيغت باسلوب الفقرات «الحكمية» التي لا تصدر ـ في العادة عن مجلس القضاء إلا بعد تمحيص الحجج والأدلة كافة. فقامت لديه قناعة مبنية على ما طرح أمامه من البينات. جعلته يُصدِر قراره هذا. وقد كان المؤلف في الصحيفة ٨٩ ـ من كتابه أوجب على أمة محمد، أن تعترف بعدم علاقة السماء

بالقرآن وان تلتف من حول الكتاب الإمام ـ التوراة. لأنه وحده الكتاب المنزل.

إن الحوار الإسلامي المسيحي ليس بدعاً، أبدعه المؤلف، بل هو الأساس الذي قامت عليه دعوة الإسلام منذ أيامها الأولى. فقد وضع القرآن أسسه التي تشكل القواسم المشتركة بين الكتب السماوية ولخَّصها «بالكلمة السواء» التي تقوم على «عبادة الله» و «عدم الشرك به» و «ألا يتخذ بعض الناس بعضهم أرباباً من دون الله».

وهي دعوة لاتزال قائمة حتى اليوم، ولا تزال أبواب الإسلام مُشْرَعَةً لكل كتابي موحِّدٍ ينزِّه الله ويوحِّدُه ويؤمن بيوم المعاد والحساب. والعقاب ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغي، أمَّا التشريع والأحكام التي تتعلق بأمور الدنيا. فإنها تساير مسيرة الإنسان. في الزمان والمكان **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾**.

تلك هي الأسس الوحدوية التوحيدية التي أطلقها الإسلام وأثبتها دستوره الأبدي ـ القرآن ـ وتوجَّه بها النبي إلى قادة الأمم والأديان في ذلك الزَّمان[1] وهي لا تزال تحتل مكانها الوجوبي المقدس في القرآن وفي نفس كل مسلم وقناعاته الدينية.

لذلك نرى: أنه كان على المؤلف ألا ينطلق إلى الحوار مع المسلمين من شرط إعلانهم المسبق بأن محمداً لم يكن نبياً، ولا صدع برسالة من الله، وأن قرآنه هو مجهوده الشخصي عَرَّبَهُ عن التوراة والإنجيل.

فتلك الشروط فضلاً عن أنها تَعَسُّفٌ في العلم واغتيالٌ للحقيقة، لا يمكن أن تقوم، لأن قيامها كلاً أو جزءاً يلغي الحوار ويسقط الحاجة إليه. إذ لن يبقى غير طرف واحد، لا يستطيع أن يقيم حواراً مع نفسه.

بعد هذا أعود إلى الآيات التي اعتمدها المؤلف:

١ ـ **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم**

---

(١) رسائل النبي إلى هرقل والمقوقس والنجاشي.

وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾(٢٩/ ٤٦: العنكبوت).

هذه الآية لم تمنع على المسلمين جدال أهل الكتاب كما قال المؤلف. بل بيّنت طريقة الجدال معهم لإرشادهم إلى الإسلام فالجدال «بالأخشن» يكون مع المشركين الذين جاؤوا بالمنكر وقام اليأس من هدايتهم وإرشادهم لأن ﴿لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾(الأعراف: ١٧٩) وهم: ﴿صمٌ بكمٌ عميٌ...﴾ (البقرة: ١٨).

أما أهل الكتاب، وليس بينهم وبين أهل القرآن غير الاعتراف بالنبي، فلا يجادلون بالأخشن ولا يُستخف بآرائهم ولا ينسب إليهم الضلال منذ البداية، بخلاف الذين ظلموا منهم فهم في مرتبة المشركين.

وقد بين القرآن من هم «الذين ظلموا من أهل الكتاب» فقال:

﴿إن الشرك، لَظُلمٌ عظيم﴾ ـ (٣١/ ١٣: لقمان). ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾(٥/ ٤٥: المائدة).

فالذين أشركوا في الله وتجرؤوا على وحدانيته لا يقلّون ظُلْماً وإيغالاً في قول المنكر عن المشركين، لذلك فالجدال معهم لا يكون بالتي هي أحسن.

٢ ـ ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين...﴾(٢٨/ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤: القصص).

فالذين آتيناهم الكتاب من قبله هم «الأنبياء الذين أوتوا الكتب السابقة للقرآن» لقوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ وقوله: ﴿وآتينا داوود زبورا﴾ (الأسراء: ١٣/ ٥٥) وقوله: ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبيا﴾ (١٩/ ٣٠: مريم) فالذين اتبعوا هذه الكتب اتباعاً صحيحاً، يؤمنون بالقرآن مثلما آمن الذين أوتوا الكتاب من قبله (من الأنبياء).

ولقد قيل: هذه الآيات (٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤) نزلت في سبعين من القسيسين بعث بهم النجاشي، فلما قدموا على النبي قرأ عليهم سورة ﴿يٓس والقرآن الحكيم﴾ حتى

ختمها فجعلوا يكون وأسلموا، وهي تعني أنهم كانوا قبل سماعهم للقرآن مسلمين. أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له. فهؤلاء يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا على اتباع الحق ضد اعدائه.

وفي هذا الخصوص أخرج الإمام أحمد عن القاسم بن أبي أمامة، حديثاً عن رسول الله (ص) قال: «من أسلم من أهل الكتاب فَلَهُ أَجْرُه مرتين وله مالنا وعليه ما علينا».

٣ ـ ﴿إنما أُمرتُ أن أعبُدَ ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها وله كل شيء وأُمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلوَ القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل... ﴾(٢٧/ ٩١ ـ ٩٢ ـ من سورة النمل).

في الآيات السابقة لهاتين الآيتين بيَّن القرآن حقائق «المبدأ والمعاد» «والنبوّة» ومقدمات القيامة وصفات أهلها. ثم ختم الكلام بهاتين الآيتين معلناً فيهما أوامر الله إلى النبي بأن يعبد الله الذي لا شريك له. وقد أضيف اسم الجلالة إلى «هذه البلدة ـ مكة» لتكريمها وتعظيمها فهي التي حرمها الله من قبل الإسلام، حيث كانت فيها بمواسم الحج «أمور» وكان من يدخلها آمنا، ولا ينتهك حرمتها إلاّ ظالم، ولا يُعْضَدُ شجَرُها ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا[1]. وأن يكون من الذين أسلموا لله مخلصين تابعاً للإسلام الإبراهيمي وأن يتلوا القرآن.

تلك هي الأوامر التي تلقاها النبي ومن بينها تلاوة القرآن واعتبار المهتدي هو من اهتدى به، والضال هو الذي ضل عنه. أما تلاوة النبي له فليست لفرضه بالقوة والاكراه لأنه من المنذرين.

٤ ـ ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ (٤١/ ٣٣: فصلت).

ليس في هذه الآية شيء مما ألمح إليه المؤلف. بل جاءت بياناً ختاميا للآيات التي سبقتها والتي تحدثت فيها السورة عمَّا جُوبِه به النبي من معارضات المشركين

---

(١) الامام الرازي.

مثل: ﴿قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه﴾(٥). وقولهم لبعضهم ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾(٢٦).

فبينت أن أحسن ما يقوله الإنسان ويدعو إليه هو الدعوة إلى الله والعمل الصالح واتباع الإسلام اتباعاً حقيقياً(٤١/٣٣).

ومفهوم الإسلام في القرآن لا يلتقي مع مفهوم المؤلف فالإسلام في القرآن ينتمي إلى ابراهيم الخليل عليه السلام الذي يصفه القرآن بأنه الأب الروحي العقائدي لكل مسلم. وإسلام إبراهيم لم يأخذه من كتاب ولم يَصِلْه من ملقِّن بل اهتدى إليه بصفاء الفطرة حيث قال: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾(٦/ ٧٩: الأنعام).

وإبراهيم في إسلامه لا يلتقي مع المشبِّهة اليهود ولا مع المثلثة النصارى. كما يقول القرآن ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾(٣/ ٦٧: آل عمران).

﴿وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل مِلّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾(٢/ ١٣٥: البقرة).

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾(الحج/ ٧٨).

لذلك يمكن القول بثقةٍ علميةٍ مطلقة:

«إن استنباط المؤلف تلك المعاني من الآيات، كان استنباطاً خاطئاً لا يمثل حقيقية المفهوم القرآني للإسلام والمسلمين».

٥ ـ ولا يختلف الأمر في الآيتين: ٣/ ٨٣ من سورة آل عمران و ٥/ ٣ ـ من المائدة. عما تقدم:

﴿أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وإليه يرجعون﴾(٣/ ٨٣: آل عمران).

﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا﴾(٥/ ٣: المائدة).

فهو الإسلام القرآني في الواضح القائم على التوحيد والحنيفية الإبراهيمية.

وقد روي في أسباب نزول الآية (٨٣ ـ آل عمران) أن فريقين من أهل الكتاب اختصموا إلى رسول الله (ص) فيما اختلفوا فيه عن دين إبراهيم عليه السلام. وكل واحد منهم ادعى أنه أولى به من سواه، فقال النبي: «كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم. فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك».

وكذلك آية المائدة (٣) التي فرقت:

ـ بين الإسلام الذي ارتضاه الله لتابعي القرآن وجعله تمام نعمته عليهم.

ـ وبين الكفار الذين يئسوا من إمكانية القضاء على الدين الإسلامي والوقوف دون انتشاره.

وإذا كان متفقاً عليه أن الذين حُظُوا بتمام النعمة وكمال الدين هم الذين تبعوا دعوة الإسلام.

فإن الذين لم يتبعوها هم الذين كفروا، فقالت الآية الكريمة: ﴿لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيحُ ابن مريم﴾(٥/ ٧٢).

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلا إلّه واحد﴾(٥/ ٧٣).

﴿لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بماعصوا وكانوا يعتدون﴾(٥/ ٧٨).

* * *

بعد هذه الصراحة القرآنية:

أصبح من السهولة بمكان أن نقول: لقد أخطأ المؤلف خطأً علمياً غير قابل لتصحيح أو الغفران عندما قال: «إن الإسلام القرآني هو معتقدات ـ أهل الكتاب عامة ـ الذين هم أصل الإسلام وأساسه قبل الإسلام».

بحث ثان

انتساب القرآن إلى الإنجيل وأهله على الخصوص

هدف الدعوة القرآنية ثنائي:

قال المؤلف:

١ ـ إنَّ التوحيد الكتابي فرض على العرب بصورته «النصرانية» التي توحد بين دين «موسى» ودين «عيسى» ديناً واحداً، وبين التوراة والإنجيل «كتاباً واحداً»، واعتمد في نظريته على الآية ١٣ من سورة الشورى والآية ٧١ من سورة المائدة.

٢ ـ هذه الصورة النصرانية للتوحيد الديني والكتابي التي فرضت على العرب تجعل محور التعليم والجهاد في القرآن «الدعوة إلى المسيح والإنجيل».

واعتمد في هذه المقولة على الآية (١٤) من سورة الصف والآية (٧٦) من سورة النمل.

ويختتم المؤلف: بأن الدعوة القرآنية بصيغتها التوحيدية المسيحية الإنجيلية تشكل الظاهرة القرآنية الكبرى الثانية(ص ـ ٩٢).

وقد كان المؤلف خصص «البحث الأول» لأول ظاهرة قرآنية كبرى وهي انتسابه إلى «الكتاب وأهله عموماً ص ٨١».

* * *

وضع المؤلف هذه المقدمة لكي يهيء القارىء نفسياً إلى تلقي ما سوف يفرغه من أفكار في مواضيع البحث الثاني، وكيلا يأخذه الاضطراب والمفاجأة مما سوف تنطوي عليه الصحائف المقبلة لذلك وحتى لا تتاح له فرصة الفرار دون عقاب علمي على كل ارتكاب في حينه وضعتُ هذه المقدمة تحت المجهر ذاته الذي كشف عيوب وتضليل ما تقدم من كتاب المؤلف فكانت لديَّ هذه النتيجة التي تجزأت إلى الفقرات الآتية:

أ ـ الاستدلال بالشورى:

﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وماوصيّنا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب(١٣). وما تفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لقضي بينهم وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب(١٤). فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير(١٥)﴾.

إن تحليل هذه الآيات أخذاً من «مدلولها اللغوي» و «موقعها في سياق السورة» ومن «مناسبة نزولها» يوصلنا إلى حقيقة معانيها، كالآتي:

ـ إن الدين الذي شرع للنبي وأصحابه هو الدين الذي تطابق عليه كبار الأنبياء وهم الخمسة «نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد» لأنهم أصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، وهذا الدين الذي شرع لهم جميعا هو غير التكاليف والأحكام التي تختلف وتتفاوت من عصر إلى عصر. **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾**(٤٨: المائدة).

مثل الإيمان بالله وتنزيهه عن الشريك والزوجة والولد، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وبوجوب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي إلى مكارم الأخلاق.

هذه هي عناصر الدين الذي شرع للأنبياء جميعا وهو الذي أُمروا بألاَّ يتفرقوا فيه.

ـ الخطاب موجه إلى النبي وأصحابه، فبعد أن أوضح له مفهوم الدين الذي بُعِث به الأنبياء. أخبره في الآية (١٤) أن أهل الكتب السَّابقة تفرقوا بعد أن أخذوا العلم الكامل بوحدة الدين فكان تفرقهم بغياً وضلالة. وطلباً للسيادة والرئاسة.

ـ والقرآن يكرر التنديد بهم في أكثر من مكان **﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب**

إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾(٣/١٩ : آل عمران). **﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾**(٤ ـ البينة).

ـ لذلك جاء الأمر إلى النبي بألاّ يتبعهم. وأن يدعو ويستقيم كما أمره الله في الكتاب الذي أنزل عليه، لأنه يمثل الدين الحقيقي الذي أرسل الله به الأنبياء جميعا وأن يبتعد عن أهوائهم وأن يقول لهم: لا حجة بيننا وبينكم، يجمع الله بيننا وبينكم يوم القيامة، كل بحسب أعماله.

ب ـ الاستدلال بالمائدة:

أورد المؤلف رقم الآية (٧١) من سورة المائدة فيما هو يقصد الآية (٦٨) لأن الآية ٧١ خالية تماماً من موضوع البحث.

أما الآية ٥/٦٨ فهي: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين(٦٨) إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٩)﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم. . .(٧٢) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلّه إلا إلّه واحد(٧٣)﴾**.

واضحٌ من بداية الآية (٦٨) أنها أوامر وتعليمات خوطب بها النبي:

ـ أولها: أن يبلغ أهل الكتاب بلاغاً بمثابة الإنذار التحذيري أنهم ليسوا على شيء من صحّة العقيدة والايمان حتى يقيموا التوراة والإنجيل اللذين كانا قد بشّرا برسالة النبي وقرآنه.

ـ ثم، التفت الخطاب القرآني إلى النبي ليخبره بأن هؤلاء لن يتراجعوا عن مواقفهم الخاطئة. وسوف لن يزيدهم ما أنزل إليك من آيات إلا طغياناً وكفراً. فلا تأس عليهم لأنهم قوم ظالمون وهؤلاء كان يكفي لكي ينالوا رحمة الله ورضوانه أن يؤمنوا به إيماناً صحيحاً منزها. وأن يؤمنوا بالعمل الصالح وباليوم الآخر.

ـ ثم جاءت الآيات فيما بعد محددة هوية أهل الكفر وأسباب تكفيرهم وأسباب تسميتهم بالظالمين:

ـ فالذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم.

ـ والذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: هم من الكافرين.

ـ والذين كفروا من بني إسرائيل لُعِنوا على لسان داوود وعيسى وهم أصحاب السبت وأصحاب المائدة(٧٨).

ـ ثم، تتوجه الآية (٧٧) بنصيحة تحذيرية عامة إلى أهل الكتاب: **﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾**.

* * *

تلك: آيات سورة الشورى وآيات سورة المائدة. لا يمكن لأي قارىء لها مهما تجرد من قواعد اللغة والمنطق وضمير القول، أن يستنتج منها أوامر القرآن إلى النبي وأصحابه أن يتبعوا التوراة والإنجيل ككتاب موحد. ودين موسى وعيسى كدين موحد.

ولقد حفلت سورة آل عمران بالمواجهات الجدالية الاحتجاجية التي قوبلت بها دعوة النبي من قبل أهل الكتابين هؤلاء، وتتالت النصائح إلى النبي لكي يمتنع عن مجادلتهم ويقطع علاقته بهم ويترك مصيرهم إلى الله.

﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾(٣/ ١٩: آل عمران).

﴿فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾(٣/ ٢٠: آل عمران).

من هاتين الآيتين يتضح أن دعوة القرآن كانت إلى الإسلام، وأنها لم تقتصر على العرب الأميين كما يقول المؤلف. بل على أهل الكتاب والناس عامة. وأنه لم يقبل منهم لتحقيق الهداية إلاّ الإسلام دون أي شرع أو دين آخر. فإن تولوا، فليس للرسول أن يتراجع عن رسالته أو يضعف فيها أو يتخلى عن شيء منها بل يبلِّغُ ويترك مصيرهم إلى الله.

مواضيع البحث الثاني

مقدمة:

يدور هذا البحث حول فكرة واحدة تستقطبه كما تستقطب الكتاب جميعه بل تستقطب كتب الاستاذ الحداد كافة. فهي هاجس واحد تضخم حتى التهم جميع ما يسكن ذلك الإنسان من القيم. فلا يختلف كتاب عن كتاب إلا في الأسلوب الذي يتخذ من اللغة لبوساً يتخلع منه ويبدله مع المناسبات.

لقد اختتم المؤلف مواضيع بحثه «العشرة» بخلاصة معبرة عن هاجسه «المقيم» فقال: «تلك أبواب عشرة تشهد شهادة جامعةً قاطعة على أن القرآن ينتسب في إيمانه ودعوته وجهاده إلى المسيح وإلى الإنجيل وأهله ـ ص ١٠٥».

فالاستاذ الحداد يتَّجه بكتبه ـ التي أربت على العشرين كتابا ـ إلى محبِّي الحقيقة أينما كانوا وكيفما كانوا وخاصة إلى المسلمين. الذين قرؤوا خطأ وورثوا مسلَّمات عقائدية خاطئة، ممسكاً بأيديهم في مسيرة استقصائية استقرائية تحت ظلال القرآن. ليقرؤوا من جديد فيستخرجوا من قاع الآيات أنهم كانوا فريسة الأهواء والأخطاء.

ونحن: في تتبعنا للأستاذ الحداد. وتفتيت كتابه حجراً حجراً لم نكن نرمي إلاَّ لإظهار ما يكمن وراء هذا البناء الفكري من سموم الضلال والتضليل، ونحن في كل ما نكتب لا نتهم ولا نختلق بل نهدم لنبني وننقد لِنُصَحِّح، ولولا ما أخذ الله علينا من الميثاق أن ندفع بالتي هي أحسن، لدفعنا السوء بالسوء وفتحنا أمام ناظريه دفتي الكتابين، وأريناه العجب العجاب. من الوضع والرفع والتحريف والتزييف على الله ورسله. وولكننا لن نخرق الميثاق. ولن نحيد عن المنطق ونكتفي بقوله تعالى: ﴿لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾.

أولا: كمال النبوة والكتاب بالمسيح والإنجيل:

هذا العنوان يتناقض مع الخاتمة التي وضعها المؤلف لأبواب البحث[1] فهو

---

(١) ذكرناها في بداية موضوع: هدف الدعوة القرآنية ثنائي.

هنا يعترف بأن القرآن «كتاب» وأن محمداً «نبي» في حين أنه كان حتى هذه الصحيفة من كتابه ينفي عنهما هاتين المكرمتين. ولكن؟. كيف يمكن أن تبحث نبوة وكتاب سابقان؟ وهل عُرف في تاريخ النبوات والكتب السماوية أن أرسل الله رسالة ناقصة أو أنزل كتاب لا يجد قوامه إلا في كتاب سابق؟.

نحن لم يصل إلى علمنا شيء من هذا. بل وصل إلينا أن ماتأخر من النبوات والكتب هو الذي يكمل ما تقدم منها ويفيض عليه. ولنا في المسيح عليه السلام أكرم مثال وقدوة في قوله: «ما جئت لأنقض بل جئت لأتمم».

ومثله قول النبي (ص) «جئت لأتمم مكارم الأخلاق».

والآن: أيها الأستاذ الحداد. دع المنطق يسترح قليلاً بعد أن ناصبته العداء منذ أول كتابك. ولنقف وإياك عند عتبات الآيات القرآنية. حيث تقول: إنك وجدت فيها شاهداً لا يُدحض وهو تصريحها الصريح بأن نبوة محمد وكتابه موسومان بالنقص والفشل إن لم يلتمسا كمالهما في المسيح والإنجيل وأهل الإنجيل أيضاً.

قلت: «إن المسيح وإنجيله هما خاتمة أنبياء الله وكتبه. وأن دليل ذلك موجود في القرآن ضمن مفهوم كلمة «التَّقْفيَة» في سلسلة الأنبياء التي ختمت بالمسيح وكتابه. فهو الذي قفَّى الله به على الأنبياء، ولم تذكر من بعده تَقْفِيَةٌ لنبي (٢/ ٨٧ ـ ٨٩ ـ البقرة. و ٥/ ٤٧ ـ ٤٩ ـ المائدة).

وقلت: «في التوراة هدىً ونور، ولكن الإنجيل وحده فيه أيضاً هدىً وموعظةً للمتقين» أي للعرب. فهداية العرب هي في الإنجيل لذلك قام القرآن بهذه المهمة. (٥/ ٤٧ ـ ٤٩ ـ المائدة) و(٢/ ٢: البقرة).

وقلت: «إن تعبير «المهتدون» في القرآن يعني جماعة النصارى، وتعبير «الفاسقون» يعني اليهود. ٥٧/ ٢٦ ـ ٢٨: الحديد).

وقلت: «إن دور القرآن ونبيه محمد، هو التفصيل والتنزيل، أي التعريب والتصديق للإنجيل ونبوة عيسى: ١٠/ ٣٧: يونس و ٤٦/ ١٠: الأحقاف»[1].

* * *

(١) الصحائف: ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤ من المؤلف تضمنت تفصيلاً لمقولاته الأربع.

تلك كانت حججك، وتلك الآيات كانت مؤيداتك، فلنقرأها سوية لنختبر مصداقية الرؤية لديك:

أ ـ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفَّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾(٨٧). ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾(٨٩: من سورة البقرة).

«قفينا من بعده بالرسل» أي اتبعناه بالرسل.

وفي المأثور المتفق عليه أن الرسل من بعد موسى كانت تتواتر ويظهر بعضهم في إثر بعض ولكن على شريعة موسى التي كانت متَّبَعَةً منهم جميعاً حتى مجيء عيسى عليه السلام بشريعة فيها الكثير من الإكمال والتطوير فاستدلوا بذلك.

ـ على أن التقفية هي الاتباع.

ـ وأن أنبياء بني اسرائيل كانوا يتوالون متبعين شريعة موسى.

ـ وأن آخرهم هو المسيح، وقد أنبأ عن نفسه صراحةً بأنه ملتزم بما بين يديه من التوراة ومقتفٍ إياه ومَجَدِّدٌ ومُطَوِّرٌ في ذات الوقت.

أما النبي محمد، فليس من بني اسرائيل، وقد أتى بشريعة متكاملة، جامعة، مستقلة غير تابعة، لا منسوخة ولا مترجمة، لذلك لم يكن من المقبول وصفه ووصف كتابه بالتقفية ـ الإتباع.

وفي اللغة: القفو هو الاتِّباع، قال تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا﴾(١٧/ ٣٦: الإسراء).

أي لا تتبع ما لا تعلم. وفي حديث عمر عن الاستسقاء: «اللهم إنا نتقرب اليك بعَمِّ نبيِّك وقَفِيَّةِ آبائه وَكُبْرِ رجاله» يعني العباس. ويقال: قفيُّ الأشياخ وقَفِيَّتُهم إذا كان الخَلَفَ منهم» وهو مأخوذ من «قَفَوْتُ الرجلَ ـ أي تَبِعْتُه» (لسان العرب).

فالمؤلف: الذي جرد النبي محمداً وجرد القرآن. من صفة النبوة والكتاب،

لأنه لم يكن «قفيَّ» المسيح ولا تابعاً له وللإنجيل جانَبَ النزاهة والعدالة. وارتكب خطيئة قاده إليها سوء فهمه لآيات القرآن ومعرفة كيفية تدبُّرها.

هذا بالإضافة إلى أنه أشاح ببصره وبصيرته عن مئات الآيات التي خاطبت محمداً بصفته نبياً مُكَلفاً برسالةٍ سماويَّة. بشيراً ونذيراً إلى الناس كافة. أبيضهم وأحمرهم وأصفرهم وأسودهم. ﴿**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**﴾(٧/ ١٥٨ : الأعراف).

ووصفت القرآن بأنه تنزيل من الله باللسان العربي. وأنه المجيد المحفوظ ﴿**ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾ (٥٩/ ٢١: الحشر). ﴿**إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا...**﴾ (٧٦/ ٢٣: الإنسان). ﴿**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ..**﴾ (٨٥/ ٢١ و٢٢ البروج).

نقول: مئات الآيات التي أفصحت عن حقيقة النبوة والكتاب أهدرها المؤلف، وظلَّ مُتَجِّمداً عند تعبير «قفَّى» لا يرى سواه. وهو في ذات الوقت يراه رؤية مبنية على خطأ في اللغة وفي التفسير. مع أن عدم وجوب تقفية المسيح يهدم ما بناه المؤلف حول النبي محمد هدماً كاملاً، لأن التقفية كتبت على أنبياء بني اسرائيل. الذين كان المسيح خاتمتهم، ولم تكتب على غير بني إسرائيل وخاصة النبي محمد. الذي لم يوجب القرآن عليه ذلك، بل تحدث عنه وخاطبه باستقلال نبوي وكتابي كاملين.

وتلك الصفحات العديدة من كتاب المؤلف. وباقي كتبه التي أربت على العشرين لهثت طويلاً وسوف تستمر في اللهاث مابقيت لها الأنفاس فلن تستطيع أن تقدم من القرآن دليلاً واحداً على أن النبي محمدً كان تابعاً للمسيح أو أن القرآن مأخوذ من إنجيله.

٢ ـ أما قول المؤلف:

ـ إن هدى المتقين وموعظتهم توجدان في الإنجيل فقط.

ـ وإن القرآن يعني «بالمتقين» العرب الأميين الذين آمنوا.

فهو قول عليه قول، يمكن تلخيصه بالآتي:

أ ـ كان التوراة والإنجيل من قبلُ هدىً للناس.

أما بعد نزول القرآن ومجيء الإسلام فلا هدى إلا منه ولا دين سواه مقبولٌ عند الله: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** (٣/ ١٩ ـ ٨٥: آل عمران).

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم. نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للنّاس وأنزل الفرقان﴾ (٣/ ٢ ـ ٣ ـ ٤: آل عمران).

﴿هو الذي أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق لِيُظْهِرَهُ على الدين كله...﴾ (٦١/ ٩: الصف).

﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾ (١٦/ ٨٩: النحل).

ب ـ وتعبير «المتقون» في الآيتين ٢/ ٢ و٥/ ٤٧ ـ ٤٩ لا ينحصر في العرب كما زعم المؤلف. و«المتقي» في اللغة اسم فاعل من قولهم «وقَاه فاتقى» و«الوقاية» هي فرط الصيانة وقد ذكر الله المتقين في الآيتين بمعرض المدح للدلالة على حذرهم من غضب الله واتقائهم ذلك بالإيمان به وطاعته وترك المعاصي والالتزام بما وضعه من فرائض وأحكام. وقد وردت في آيات القرآن بمناسبات عديدة مثل:

﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ (الشعراء: ١٠٦). وفي العنكبوت قال إبراهيم لقومه: **﴿اعبدوا الله واتقوه﴾** (٢٩/ ١٦). وفي البقرة توجهت النصيحة للتزوُّد بالتقوى إلى جميع الخلق **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾** (٢/ ١٩٧).

ولو تابعنا إيراد الآيات التي وردت فيها «كلمة التقوى» و «المتقين» لضاق المجال لذلك: اكتفينا بالقليل منها لندفع به مقولة المؤلف بأن القرآن خص بهذا التعبير المؤمنين العرب وحدهم وجعل اكتسابهم للتقوى. عن طريق الإنجيل وحده.

٣ ـ والخيال عند المؤلف له أجنحة قوية تطير به إلى عوالم فكرية عجيبة.

«فالمهتدون» هم النصارى في القرآن. والفاسقون هم اليهود. فأينما عثرت

أيها القارىء على هذين التعبيرين في أيّة آية من آيات القرآن، فإن الأستاذ الحداد يقرئك السلام ويضع التفسير الصحيح بين يديك، فاحذر من الجهل فيهما ولا تظلم نفسك بتعميمهما.

وحتى حينما اقتصر على الآيتين ٥٧/ ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الحديد مركزاً عليهما لإثبات التخصيص في مفهومي «المهتدون» و«الفاسقون». فقد ظل حكمه خيالاً بعيداً عن فهم الآيتين **﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون(٢٦) ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمةً ورهبانيَّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقَّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون(٢٧)﴾**.

ـ ففي الآية ٢٦ ورد مفهوما الهداية والفسوق منذ الأجيال الأولى لذرية نوح وإبراهيم أي قبل العهدين اليهودي والنصراني بزمنٍ بعيد.

ـ وفي الثانية، وجد مفهوم الفسوق حتى في الكثيرين من أتباع المسيح.

٤ ـ و«التفصيل» و«التنزيل» كان المؤلف قد قال عنهما: إنهما يعنيان في القرآن تعريبه عن الإنجيل. وقد ناقشنا قوله هذا نقاشاً مطولاً في «البحث الأول» تحت عنوان (٣ ـ القرآن تنزيلٌ من التنزيل ـ التنزيل والتفصيل) فيرجى العودة إليه لأنه تضمن القول والرد بشكل موسع.

* * *

ثانياً: لا توحيد ولا إسلام بدون المسيح والإنجيل:

تحت هذا العنوان وضع المؤلف آيات من القرآن «كشواهد» على أن التوحيد الذي دعا إليه هو التوحيد الذي يجد قمته في المسيح والإنجيل.

ـ فالآيات ٣/ ١٨ ـ ٦٤ ـ ٨٠ ـ ٨٤ ـ ٨٥ من آل عمران و٤٢/ ١٣ من الشورى و٩/ ٣١ من التوبة التي تضع موقفاً محّدداً شديد الحرفية من مفهوم «التوحيد».

ـ قد أمحت خصوصيتها ومحدوديتها وشدتها وزالت بالآيات ٥٧/ ٢٧ من

الحديد و٣/ ٥١ ـ ٥٢ من آل عمران و٥/ ٤٦ ـ ٤٩ من المائدة و٦١/ ١٤ من الصف و٤٦/ ١٠ من الأحقاف.

يقول المؤلف: تلك الآيات السبعة رَسَّخت الحقائق القرآنية التالية:

ـ التوحيد القرآني المنزل قمَّتُهُ الإنجيل والمسيح.

ـ الهدى والموعظة للمتقين مَكْرُمَتَان اختص بهما الإنجيل و«المتقون هم العرب الأميون الذين قبلوا الدعوة» (ص ٩٤ ـ ٩٥ من المؤلف).

تلك الأطروحات وأمثالها، مافتيء يطلقها المؤلف دون حذر أو تدبير، وهي ـ دوماً ـ تتَّسم بالشدة والعنف والإحراج العقائدي، ووجه الخطورة فيها أن صاحبها ينسبها إلى القرآن ويلتمسُها فيه. ثم إنها صيغت بأسلوب مسرحي يجذب القارىء ويستهويه ويستغفل ثقافته وقناعته، أمَّا المدقق المتتبِّع فإنه في جهد كبير وتدقيق عسير حتى يكشف عناصر الزَّغَل وسموم الغاية في تلك الأطروحات.

وإن كان القرآن ـ كما يقول المؤلف ـ ينفي عن نفسه وعن محمد صفة الكتاب والرسول، ومهمتهما، لينطويا تحت جناح نبي وبين دفتي كتاب آخر. يعرِّبان عنهما ويأخذان منهما ويتكلان عليهما ويجدان الخلاص لديهما. فلماذا تكررت الآيات بالمئات تصف القرآن بأنه المهيمن على جميع الكتب؟ **﴿وأن الدين عند الله هو الإسلام﴾ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**(٣/ ١٩ ـ ٨٤ آل عمران) **﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾**(٤/ ١٦٣: النساء).

فالوحي في منطق القرآن متماثل عند الأنبياء دون تخصيص أو استثناء.

وصاحب الوحي الذي يتكلم بضمير المتكلم ـ نحن، إنَّا، أوحينا ـ هو الله تعالى.

و«كما» هي لفظ يفيد التماثل ويدل على التشابه في الطريقة، وقد جاءت في وسط الآية(١٦٣) لتدل على التشابه بين عمليتي الوحي في شطري الآية.

و«النبيين» هم جميع الأنبياء، بدءاً من نوح حتى عيسى ومحمد.

و«محمد» صاحب الرسالة يقول القرآن عنه: **﴿ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾**(٣٣/ ٤٠: الأحزاب).

«رسول الله وخاتم النبيين تعبير قرآني يصك القلب قبل السمع، فكيف لم يسمع به المؤلف؟ وكيف رأى محمداً تابعاً ـ مترجماً ـ متسلطاً على كنوز الكتاب السابق ومدَّعياً لنفسه ذلك ادعاءً؟؟.

* * *

بعد هذا التمهيد العام:

نعود إلى المؤلف، لنرى كيف استخرج من الآيات السبع تلك المعاني الشديدة.

﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ (٣/ ٨٤) ﴿ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (٣/ ٨٥). ﴿شهد الله أنه لا إله إلاَّ هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (٣/١٨). ﴿إن الدين عند الله الإسلام...﴾ (٣/١٩). ﴿شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبرُ على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ (٤٢/ ١٣: الشورى).

قال المؤلف: «إن التوحيد الذي يدعو إليه ال(قرآنُ هو التوحيد الكتابي المنَّزل فليس فيه من توحيد سواه» (آل عمران: ٨٤ ـ ٨٥). «هذا هو الدين الذي يشرعه للعرب» (الشورى: ١٣). «وهذا هو الإسلام الذي يشهد له» (آل عمران: ١٨).

لقد أثبتنا كلمات الآيات تيسيراً لوقت القارىء وتسهيلاً له في محاكمة المؤلف والحكم على أقواله: وبالتالي نستطيع أن نتساءل باستنكار واستغراب:

هل يُفهم من «الآيتين» ٨٤ ـ ٨٥ ـ آل عمران والآية ١٣ الشورى. أن الدين الذي شرعه القرآن هو للعرب فقط؟.

لن نستدعي الآيات العديدة التي تنادي بصوت مرتفع **﴿يا أيها النَّاس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾** بل سوف نبقى مع كلمات الآيات موضوع هذه الفقرة لنجد فيها تركيزاً عقائديا شديداً على أن ما أنزله الله على النبي (القرآن) وما أنزله على الأنبياء، هو مناط الإسلام الذي دعا إليه وإن ما أنزله الله لم يكن غَير الإسلام المتمثل في الآية ٣/ ٦٤ : آل عمران التي قالت: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نعبدَ إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** فكل من عبد الله منزهاً عن الشريك والزوجة والولد، وعَزف عن عبادة غيره، هو المسلم في عقيدة القرآن، وهذا الإسلام هو مناط دعوة النبي إلى الناس كافة. وفي مقدمتهم «أهل الكتاب ـ من يهود ونصارى» وهذا تصريح من القرآن، بأنَّ أهل الكتاب من بعد ما عمل الزمان والأهواء عملهما في كتبهم، لم يبق لديهم ما يجعلهم مسلمين حقيقيين لذلك كانت مهمة النبي وتكليفه أن يدعو أهل الكتاب إلى التوحيد الذي هو الإسلام الحقيقي المتمثل في الكلمة السواء فإن تولوا وأعرضوا يجب تركهم وإشهادهم على أن النبي وصحبه هو المسلمون.

* * *

تلك الآيات وما جرى مجراها وصفها المؤلف «بالآيات السلبية» والسلبية فيها هي أنها تدحض مقولاته وتبدد تفسيراته بصراحتها المطلقة. ومع ذلك يطلب المؤلف منا أن نقرأ الآيات الإيجابية التي نَفَت ومحت سلبية الآيات السابقة ووضعتنا وجهاً لوجه أمام الحقائق التي يقوم عليها دين الإسلام وهي:

ـ التوحيد القرآني يجد قمته في المسيح والإنجيل.

ـ الإنجيل هو الذي أنيط به الهدى والموعظة للمتقين العرب.

ـ المتقون هم العرب الأميون الذين آمنوا.

ـ محمد كرر دعوة المسيح إلى الحواريين. (ص ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ من المؤلف).

* * *

أ ـ التوحيد المنزَّل قمته المسيح والإنجيل:

تعتمد هذه المقولة على الآية ٥٧/ ٢٧ : الحديد.

كنَّا درسنا هذه الآية مع الآيات ٢٦ ـ ٢٨ ـ ٢٩ من ذات السورة في بحث «أهل الكتاب في القرآن المدني ـ تحت عنوان سادساً ـ في سورة الحديد». وذلك ضمن جدال مع المؤلف حول مقولته بحصر الكتابي والنبوي في بني اسرائيل، وأنه لا نبوة ولا كتاب من خارج بني اسرائيل وكتابهم إلا أن يكون تابعاً أو منسوخاً عنهما (يرجى العودة إلى ذلك البحث).

أما هنا فقد أخرج المؤلف من الآية (٢٧) معنى جديداً وألقى عليها مهمة إضافية وهي:

«إن قمة التوحيد القرآني هي في المسيح والإنجيل» فهل تتضمن هذا المعنى بالفعل؟.

هذا ما يمكن الجواب عليه من قراءة تلك الآية مع السابقة لها.

﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون(٢٦) ثم قفَّينا على أثارهم برسلنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمةً ورهبانيَّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقَّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون(٢٧)﴾.

لقد استدعيت ما في مكتبتي من مراجع اللغة والتفسير والتاريخ ودققت الآيات تدقيقاً مباشراً، فلم أجد فيها هذا المعنى الذي نسبه المؤلف إليها.

فقط تتحدث هاتان الآيتان عن المعاني والأفكار البارزة الآتية:

ـ إن النبوة والكتاب جُعلا في ذرية نوح وإبراهيم. وقد كنا ناقشنا هذا «المعنى» مثلما ناقشنا معنى «الجَعْل» في القرآن واللغة.

ـ ما هي الحكمة من استخدام مفهوم «قفَّينا» في الآية؟ ولماذا توقفت التقفية في المسيح؟ ولم تطلق على نبوة محمد وكتابه؟.

هذان الموضوعان درسناهما بما يغني عن التكرار فيهما وذلك تحت عنوان: «أولاً: كمال النبوة والكتاب بالمسيح والإنجيل».

ـ ما هي الرهبانية؟ ومن أمر بها؟ فهي موضوع نوليه التوضيح الآتي:

اشتقت الرهبانية من فعل «رهب» أي خاف وخشي من الله. لم ترد في أقوال المسيح ولا في أقوال الرسل. ولكنها ظهرت لأول مرة في الشرق على يد مؤسسها الناسك انطونيوس الكبير الذي ولد في مصر بعام ٢٥١ ـ م من عائلة غنية ورث عنها مالاً كثيراً ولكن نفسه عافت المال وتعلق بقول المسيح في إنجيل متى: «إذا أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك ووزعها على الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني ـ متى ١٩/ ٢١».

فقبل الناسك التقي، وكان دون العشرين من عمره، هذه الآية كَدَعْوةٍ إلَهية إلى حياة إنكار الذات وعمل بمنطوقها. فباع أملاكه ووزع ثمنها على الفقراء وابتعد لاجئاً إلى ناسك شيخ يقطن بالقرب من موطنه وبإرشاده استسلم لحياة النسك. ولما كان يرغب في الانفراد العام ترك الشيخ بسرعة وسكن أولاً في مغارة (قبر فارغ) ثم خرائب برج قديم على الشاطىء الشرقي للنيل حيث لم يكن ساكنٌ بشري فعاش عشرين عاماً في الانفراد التام مجاهدا بالصوم والصلاة وضروب الحرمان. ويروي تاريخ الكنيسة أنه تعرَّض لأمور كثيرة كلها رعب وخوف، وأنه صرخ مرة في غمرة اليأس العميق من قلب الأميال الجوفاء المديدة الجرداء التي حاصرته بعيداً عن العالم «يارب ماذا أعمل؟ أريد أن أخلص ولكن الأفكار تعيقني».

بعد هذه الصيحة رأى الناسك إنساناً كان يشتغل ثم يبدأ بالصلاة وبعد الصلاة يرجع إلى العمل ففهم القديس من هذه الرؤية أن التعب والصلاة الدائبين بلا انقطاع هما الوسيلة الفضلى لتهدئة النفس وتنقية القلب فتعدلت حياته بعدها وترافق العمل مع الصلاة عنده حتَّى مات. وقد أراد بعض البررة أن يعيشوا بقربه حياةً نسكية، فوافق على أن يكون هو موجه هذه الحياة. وتكونت في ظله أول جمعية رهبانية في سنة ٣٠٥ م وكان القديس يحدد بطريقة إجمالية مطاليبه من تلاميذه لكي يدركوا الكمال الأدبي السامي ومنها: «رفض كل الخيرات الأرضية رفضاً تاماً». و«الاستسلام لأرادة الله» و«التفكير على انفراد بالله والعالم الروحي» وبعد سبع

سنوات أي في عام ٣١٢ م قلق القديس من كثرة الزوار فغادر البرج إلى الصحراء الداخلية على مسافة سفر ثلاثة أيام شرقاً وسكن في مغارة جبلية، وفي مدى حياته التي استمرت مئة وخمس سنين قضى منها في الصحراء خمساً وثمانين سنة لم يظهر في العالم بعد تنسكه إلا مرتين الأولى في عام ٣١١ م والثانية في ٣٥١ م وكلتاهما كانتا في الإسكندرية لتعزية وتقوية المضطهدين من المسيحيين، وكانت وفاته في عام ٣٥٦ م.

وقد انتقلت الرهبنة من الشرق إلى الغرب على يد القديس أثناسيوس بوساطة وصفٍ قام به لحياة وكرامات القديس أنطونيوس الكبير. (تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ وما بعدهما).

بعد هذه النبذة التاريخية: صار يمكن فهم المغزى البعيد للآية القرآنية **﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾** فالابتداع واضح لأنها قامت باجتهاد شخصي دون تكليف من المسيح أو التلامذة.

وأما إنها كانت ابتغاء رضوان الله فهذا مما لا شك فيه، وحياة القديس انطونيوس الكبير وأبناء جماعته الأولى دليل على ذلك.

وأما إنهم لم يرعوها حق رعايتها فذلك تدل عليه الحال التي آلت إليه فيما بعد حيث بعُدت عن مبادئها السامية، وحرص أبناؤها على تشييد الأبنية العظيمة مكاناً للتنسك واقتنوا الأموال والدواجن والعقارات، وتنعموا بالحياة الدنيا مما جعل من حياتهم الرهبانية شيئاً مختلفاً عن الأسس التي قامت عليها.

ولم يكتفوا، بل تحولت مواقعهم الروحية إلى مواقع السلطة الإلَهية فصاروا يسمعون الإعترافات ويغفرون الذنوب لمن يريدون.. وهذا محصور بالله وحده. لذلك وصفتهم الآية ٩/٣١ ـ من سورة التوبة بقولها: **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلَهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾**(٩/ ٣١).

وقد روى الإمام أحمد والترمذي عن عدي بن حاتم الطائي، أنه لما بلغته دعوة رسول الله (ص) فرَّ إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسِرَتْ أُخْتُهُ

وجماعةٌ من قومه فأسلمت أختُه ورجعت إلى أخيها فرغَّبته في الرجوع إلى الرسول والإسلام، فقدم وكان رئيساً لقومه من بني طيء، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على الرسول وفي عنقه يتدلى صليب من الفضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله**﴾ قال عدي، فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال الرسول: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتَّبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» وقال: «ياعدي أيضرك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم أكبر من الله؟ أيضرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل تعلم غير الله إلَها؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم»[1].

* * *

ب ـ الإنجيل هو الذي أنيط به الهدى، والموعظة للمتقين:

قال المؤلف: الإنجيل وحده هو الهدى، والموعظة للمتقين من العرب، وبسبب الإنجيل كان ﴿**ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين**﴾(٢/٢: البقرة). وقد اعتمد على الآيتين ٤٦ و٤٩ من سورة المائدة.

ولكن خطأ المؤلف في قراءَتِهِ وفهْمه للآيات يتمثَّلُ في زعمه بأنَّ الهدَى والموعظة محصوران بالإنجيل وفي زعمه بأن نفي الريب عن القرآن ووصفَه بالهُدى في الآية الثانية من سورة البقرة كان بسبب الإنجيل. ولإيضاح هذا الخطأ نقول:

١ ـ لقد وُصِف القرآن بأنه هدىً وموعِظَةٌ للمتقين وللنَّاس أجمعين في آيات عديدة منه وليس فقط في الآية (٢) من سورة البقرة: ففي الآية ١٣٨/٣ من آل عمران ﴿**هذا بيانٌ للنَّاس وهدىً وموعظة للمتقين**﴾ وفي الآية ٣٤/٢٤ من النور. ﴿**ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين**﴾.

فالبيان والهدى للناس، هو إعلانهم بالأمور على جليَّتِها مع الأمم السابقة.

والموعظة هي الزاجر عن المحارم والمآثم.

٢ ـ والآية ٢/٢ من سورة البقرة ﴿**ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين**﴾.

---

(١) ابن كثير في شرح الآية ٣١/٩.

فالكتاب هو القرآن.

واسم الإشارة «ذلك» وإن كان يستعمل في اللغة للبعيد فإن اللغة لا تعارض في استعماله للقريب. وقد قال ابن عباس: من قال بأن المراد «بذلك» الإشارة إلى التوراة والإنجيل فقد أبعد النَّجْعة وأغرق في النَّزْعِ وتكلَّف مالا علم له به[1].

فليس في الآية ما يدل على أن سبب وصف القرآن «بأنه هدى للمتقين» هو الإنجيل. ومانعلم كيف ومن أين أتى المؤلف بهذا التفسير؟ وكيف أخرج هذا الإخراج.

٣ ـ أما خطأ الفهم الذي قاد إلى خطأ الحكم عند المؤلف، فهو في تعبير «قفينا»، وتعبير «المتقين» إذ بنى على الأولى مقولة «توقف النبوة والكتاب» عند المسيح، وبنى على الثانية مقولة اعتبار العرب الأميين هم المقصودين بالإرشاد والهدى.

ولقد كنا ناقشنا هذين التعبيرين في البحث: «أولاً: كمال النبوة والكتاب بالمسيح والإنجيل» وبيَّنا أخطاء المؤلف في فهمه لهما.

* * *

ثالثاً: الإيمان في القرآن هو الإيمان بالله وبالمسيح كلمة الله:

قال المؤلف: في القرآن دلالاتٌ واضحة وعلاماتٌ بارزة على إثبات هذه الحقيقة العقائدية، ويمكن إدراجها تحت العناوين الأربعة الآتية:

١ ـ ميزة القرآن هي أنه جعل الله وكلمته موضوع إيمانه. (٧/ ١٥٧ ـ ١٥٨: الأعراف).

٢ ـ لولا اتِّباع محمد للمسيح وأمه لما عاداه اليهود وقاوموه وهددوا من يؤمن به بالتهجير من ديارهم (٢٨/ ٥٧: القصص).

---

(١) ابن كثير.

٣ ـ المسيح وأمه في القرآن هما آية للنَّاس، وهما يشكلان الأمة الواحدة (٢١/ ٩١ ـ ٩٢: الدُّخان).

٤ ـ تنزيل الكتاب على محمد هو للتصديق. (٣/ ١ ـ ٣: آل عمران). أما هدى الله فهو في الإنجيل.[1].

لذلك: وضعنا كلاًّ من العناوين المذكورة في فقرة اختبارية مستقلة كالآتي:

١ ـ الفقرة الأولى:

﴿قال عذابي أُصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ (٧/ ١٥٦).

فمن هم المؤمنون بآيات الله الذين يستحقون رحمته؟.

أجابت الآية (١٥٧) على هذا التساؤل، محددة إياهم ودالة عليهم بقولها:

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾.

«فالمؤمنون بآيات الله» هم الذين عدَّدتهم الآية وأوضحت صفاتهم التي جاء أولها: «اتباع الرسول النبي الأمي» أي محمد (ص) الذي جاءهم بدين تكاملت فيه قواعد التشريع والعبادة والتحليل والتحريم. كما جاء فيه تحريرهم من الشرائع الضيقة التي كانت تقيد الأمم السَّابقة.

ثم تنتهي الآية بأن أصحاب هذه الصفات الذين آمنوا به ونصروه وعزَّروه واتَّبعوا النور الذي أنزل عليه هم الذين تحقق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

ثم تأتي الآية ٧/ ١٥٨ ملخصة ما تقدم بنداءٍ مُوجَّهٍ إلى جميع الناس من العقائد والأجناس: **﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات**

---

(١) ص ٩٦ ـ من المؤلف.

والأرض لا إله إلا هو يُحْيِي ويمُيِت فآمنوا بالله ورسوله النبي الإمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾.

فالرسول، يؤمن بالله وكلماته، أي بكتبه التي نزلت على الأنبياء، وقد يكون المقصود «بالكلمات» هي المعجزات، لأن كلمات الله هي الخوارق، وقد وصفت بهذا الوصف لأنها تخرق المعتاد وتتجاوز قدرات الإنسان، وقد حاول المؤلف قراءتها بالمفرد «وكلمته» ليستدل بها على أن النبي مأمور بالإيمان بالمسيح وحده، لأنه كلمة الله. غير أن هذه المحاولة ووجهت من قبلنا بالردود التالية:

ـ إن ما بين يدي من المصاحف، غير المفسرة، هو ثلاثة، وعندي من المفسَّر «لابن كثير» و«الامام الرازي» و«الجلالين» وجميعها وردت فيها هذه الكلمة بصيغة الجمع «كلماته» كما ورد في تفسيرها «ما نزل من الله على الأنبياء والرسل».

ـ حتى لو قرئت بالمفرد «وكلمته» وفسرها المؤلف وأمثاله «بالمسيح» فإن النبي مأمور من الله في أن يؤمن بالله وملائكته وجميع كتبه وجميع رسله دون تخصيص ولا استثناء، ولم يقتصر إيمان النبي على المسيح، ولن يجد المؤلف آية في القرآن تحصر إيمان النبي وأصحابه بنبي واحد.

ـ إن كلمة الله تتطلب المزيد من التفضيل.

وهذا ما سوف نتركه إلى الفصل الثامن من الكتاب عند مناقشتنا للموضوع ٢ ـ من «ميِّزات المسيح الخاصة الذاتية».

* * *

٢ ـ الفقرة الثانية:

﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أَعْلَمُ بالمهتدين وقالوا إن نتَّبع الهدى معك نُتَخَطَّفْ من أرضنا أولم نمكِّن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لَدُنَّا ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ (٢٨/ ٥٦ ـ ٥٧: القصص).

لقد طلع المؤلف من الآية بالتفسير الآتي:

«إن العرب لم يمنَعْهم عن اتِّباع دعوة محمد لهم إلى التوحيد غير خوفهم من أن يهجرهم اليهود ويخطفوهم من أرضهم، لأن دعوة التوحيد المحمدية كانت دعوة إلى المسيح، وهذا لا يرضى اليهود عنه، ولكن، كيف توصَّل إلى هذا التفسير؟.

ـ فالآيتان، لا تعطيان هذه المعاني.

واليهود لم يكن لهم سلطان يستطيع تهجير القبائل إذا اتبعت الهدى النبوي.

ـ والثابت في التاريخ أن النبي ووجه بالأذى الأول والأشد من مشركي قريش والقبائل. وإن التحالفات العسكرية ضده كانت تقوم بين هذه القبائل، وان اليهود لم يكونوا على جانب من التوسع والقوة بما يؤهلهم لقيادة الحملات العسكرية ضد النبي، فاتجه نشاطهم العدواني إلى دس الدسائس عليه، وتأليب القلوب والقبائل، ودعم حركات المقاومة بالمال والمؤن والسلاح.

لذلك: فهم الناس جميعاً منذ نزول هذه الآية، أن المقصود بها هي القبائل العربية المشتركة التي كانت تتوعد وتتهدد من يدخل الى الدين الجديد، بجميع أنواع الأذى بما فيها التهجير، وكانت قريش وأحلافها على رأس تلك القبائل.

* * *

٣ ـ الفقرة الثالثة:

المسيح وأمه «آيةٌ للنّاس» وهما يشكلان «أمة واحدة» وحدهما ـ (٢١/ ٩١ ـ ٩٢: الأنبياء).

أما الآية: فهي المعجزة والعجيبة والعبرة، وجميعها ظواهر خلاف المألوف. ولما كانت قصة المسيح وأمه تشكل قصة واحدة، سميت «آية للعالمين» ولم تسَّم آيتين.

وهذا المفهوم «بالآية» لم ينفرد فيه المسيح وأمه بالقرآن بل تردد وجوده في أكثر من أربعماية مكان من الكتاب، وللمثال التشخيصي نورد الإشارة إلى بضع منْها: ﴿وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس﴾ (٢/ ٢٥٩: البقرة)[1]. ﴿فاليومَ

---

(١) هي جزء من الآية ﴿أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه =

نتجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ (١٠/ ٩٢)[1]. ﴿هذه ناقة الله لكم آية فذروها تـأكـل فـي أرض الله﴾ (٧/ ٧٣: الأعـراف). ﴿والقُمَّـل والضفـادع والـدم آيـات مفصلات﴾ (٧/ ١٣٣: الأعراف). ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ (١٢/ ٧: يوسف). ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ (١٨/ ٩: الكهف).

والقرآن سمي قرآناً ـ كما قال بعضهم ـ لأنه قرن الآيات وجمعها.

والآية سواء أكانت تعني «المسيح وأمه» أم غيرهما هي من صنع الله الذي أتقن كل شيء وإذ وردت نتيجة لفعل الجعل: ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾(٩١). فالجاعل هو الله، والآية هي مجعولة ومن صنعه.

والله الذي أوجد المسيح وكوَّنه في رحم أمه بالكلمة، هو الذي أوجد آدم من التراب. وتكوُّن الإنسان من التراب الجامد هو أكثر عجائبية، وأبْيَنُ آية من خلق إنسان في رحم أمِّهِ لقيام التماثل في الدم والدم وفقدان التماثل بين الدم والتراب.

ولم يقف خطأ المؤلف عند قراءة الآية (٩١) بل امتد إلى الآية (٩٢) إذ فهم منها أن النبي محمداً لم يكن من الممكن أن يكون من أمَّة الأنبياء إلا لأنه آمن بأن

= الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال: كم لبثت قال: لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾. وقد روي عن علي والحسن وابن عباس أن المقصود هو عزيرٌ الذي مرَّ على القدس بعد تخريبها من قِبَل بختنصر فقال: من يستطيع أن يعيدها إلى الحياة فأماته الله وأعاده بعد مئة عام وكانت قد عمرت فظن أنه لم يغادِرْها إلاَّ منذ يوم أو بعض يوم فأخبره الوحي أنه بقي مئة عام ومع ذلك بقي طعامُه الذي كان معه لايزال على حاله. وكذلك حمارُهُ وفي ذلك دليلٌ وآيةٌ على «المعاد».

(١) الفرعون: الذي طارد موسى، وغرق في البحر خرجت جثَّته من دون جيشه الذي أكلته وحوش البحر أما هو فقد أخرجه الله ليتعرف الناس عليه ويكون عبرة ولا يزال محنطاً بين مومياءات مصر حتى الآن.

المسيح وأمه، وحدهما «آية للعالمين» (ص ـ ٩٦ ـ من المؤلف) ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**﴾(٢١/ ٩٢).

ـ فاسم الإشارة «هذه» يعود إلى «أمتكم» والأمة المقصودة في هذه الآية هي مجموعة الأنبياء الذين جرى تعدادهم من الآية ٤٨ ـ ٩١ من هذه السورة.

ـ وكان الخطاب في «أمتكم» مع ميم الجمع تعودان إلى المخاطبين من قبل الدعوة الإسلامية.

ـ والأمة الواحدة هي الدين الواحد الذي اتفق عليه الأنبياء جميعا وهي الممثلة بوحدانية الله.

ـ وبالجملة ليس في الآيتين شيء مما اكتشفه المؤلف، فالنبي محمد مع الأنبياء السابقين بمن فيهم المسيح يشكلون الدين الواحد، الأمة الواحدة.

وهذه الوحدة التي جُعل النبي محمد منها قائمةٌ بقوة وحدة الدين ووجوده فيها يعود إلى أن دعوته إلى الكلمة السواء هي قمة الدعوة إلى الدين الواحد وليس مردُّه إلى اتباعه لنهج المسيح وإيمانه بأنه وأمه آية للعالمين.

فالايمان بالمسيح ومعجزاته والإيمان بالأنبياء ومعجزاتهم، كذلك الإيمان بالكتب جميعها هو أساس الإيمان القرآني الذي لا يقوم إيمان المسلم بغيره.

ولا يكفي ـ في نظر القرآن ـ أن تؤمن ببعض الأنبياء حتى لو كان المسيح ممن آمنت بهم، فإن الإيمان يكون ناقصاً لا يتممه غير تمام الإعتقاد بالأنبياء جميعاً.

* * *

٤ ـ الفقرة الرابعة:

أمَّا قَصْرُ مَهَمَّة التنزيل القرآني على «تصديق» التوراة والإنجيل وحصر الهدى والإرشاد بالإنجيل فهو قول لا تسعفه الآيات.

لقد أورد المؤلف لتأييد رأيه هذا الآيات الأولى من آل عمران(١ ـ ٣).

ونظراً إلى أن هذا المفهوم وهذا الفهم كان موضوع جدل بيننا وبين المؤلف في الفقرة «أ ـ من البند ثانيا: لا توحيد ولا إسلام بدون المسيح والإنجيل».

كما أن المعاني التي يوجه إليها تعبير «تصديق الذي بين يديه» كان قد نوقش (في البحث الأول ـ ماهية القرآن ـ ١).

لذلك: نلتمس العودة إليها. معتذرين عن التكرار وإطالة البحث.

* * *

رابعاً: فلا إسلام بدون الإيمان بالمسيح والإنجيل:

قال المؤلف: الدين الذي يشرعه القرآن للعرب هو دين موسى وعيسى ديناً واحداً.

﴿شرع لكم من الدين مَا وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾(٤٢/ ١٣: الشورى).

«وهذا هو الدين الذي يتحدى به أيضاً أهل الكتاب: **﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ـ اليهود ـ ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين﴾**(٥/ ٦٨: المائدة)».

ويضيف المؤلف: فإقامة التوراة والإنجيل شرعاً واحداً هو الدين، فلا يقوم دين، بحسب القرآن، بدون الإيمان بالمسيح والإنجيل ـ ص ـ ٩٧ ـ من المؤلف.

ولكن كيف استخرج المؤلف هذه النتائج؟ مع أن الآيات حتى لفظها الظاهر يناقض مفهوم المؤلف ويرفضه.

ـ فالآية (١٣) خاطبت أبناء الدعوة الإسلامية من عرب وسواهم، ولم تقتصر على العرب.

ـ وجعلت الدعوة التي جاء بها الأنبياء واحدة بدءاً من نوح.

ـ وأوردت دعوة النبي محمد بين «ما وصّى به الله نوحاً» و «ما وصّى به براهيم» حيث جاءت في الوسط بعبارة «والذي أوحينا اليك» فكيف لم يُشاهدها مؤلف؟ وكيف لم ير في الآية غير ما أُوصيَ به موسى وعيسى؟ وكيف فهم أنَّ الآية

تتمحورُ حول دعوةِ موسى وعيسى ديناً واحداً دون غيرهما؟.

ـ بَقِيَتْ عبارة «وما أنزل إليكم من ربكم».

هذه العبارة، مرَّ المؤلف من جانبها، دون الوقوف عندها. وهي عبارة حاسمة تؤكد أن أهل الكتاب، ليسوا على شيء حتى يقيموا ما أنزل إليهم من ربهم.

فما هو هذا الذي أنزل إليهم من ربهم، وهو من الأهمِّيَّة بحيْث لا يكونُ لدىَ أهل الكتاب شيءٌ من صحة الاعتقاد والإيمان إن لم يقيموه؟.

من الطبيعي أنه، هنا ليس التوراة والإنجيل، لأن هذين الكتابين وردا قبل هذه العبارة في الآية ذاتها.

لذلك: إذا علمنا بأن خطاب القرآن توجَّه في هذه الآية إلى أهل الكتاب، وأنه قرن الإيمان بثبوت القيام بأحكام التوراة والإنجيل وما أنزل من الله.

فإن القصد لا يمكن أن يكون غير القرآن، لأنه هو الكتاب الثالث المنزل عندما نزلت الآية. وفي ذلك دليلٌ قرآني يدحض قول المؤلف ويؤكد على استقلالية الدعوة الإسلامية.

ـ كما إن تتمة الآية وجهت التأكيد على أن القرآن هو المقصود.

عندما تحولت إلى مخاطبة النبي وإخباره بأن ما أنزل إليه (القرآن) سوف لا يتقبله الكثيرون ومنهم أهل الكتاب، وسوف لا يجدونه متفقاً مع كتبهم فيزدادُون طغياناً وكفراً.

هنا نجد جرأة المؤلف تفوق كل تصوُّر. فهو يدخل على الآية كلمات من عنده ليدعم رأيه، وليغير بها المعنى الذي تحمله كلماتها: مثل «وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا فوضع كلمة «اليهود» ضمن هذا المقطع من الآية فاصبحت «وليزيدن كثيراً منهم (اليهود) ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا فلا تأس على ا لقوم الكافرين». وذلك للدلالة على أن الذين قاوموا القرآن وازدادوا بنزوله طغيانا وكفراً هم «اليهود» فقط لذلك فهم الكافرون من اهل الكتاب الذين نُصِحَ النبي بألا يأسف ولا يأسى عليهم. وهذا الاسلوب من التصرف بالنص والمعنى يجرد الكاتب من طبائع أهل العلم ومزاياهم، إذ إن نظرة عابرة إلى الآية توضح

للناظر أنَّ تعبير أهل الكتاب يشمل جميع اليهود والنصارى، ثم ازداد اليقين والتأكيد بايراد «التوراة والإنجيل» مما ينفي نفياً قاطعاً أن يكون التعبير مخصصاً باليهود ومسُتثنيا للنصارى، كما تكرر التأكيد في ضمير الجمع (منهم) المربُوط بحرف «التبعيض، من» للإشارة مرة ثانية إلى من سبقت الإشارة إليهم من أهل الكتاب في بداية الآية.

والكافرين جمع كافر، تلتصق فيمن توافرت صفاتها وعناصرها عنده سواءً أكان يهوديا أم نصرانيا أم مجوسياً أم مشركاً أم سواهم.

فالكفر هو نقيض الإيمان، وهو أيضاً نقيض «الشكر» وهو «العقوق».

وقد قال أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء:

ـ كفر إنكار وهو أن لا يعرف الله أولا يعترف به أصلاً.

ـ وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق. فمن لقي ربه بشيء من ذلك لم يغفر له ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

وقال سعيد بن جبير: الكفر على وجوه. فكفر هو شرك يتخذ مع الله إلّها آخر. وكفر بكتاب الله ورسوله وكفر بادعاء ولد لله. وكفر مدعي الإسلام.

وسمي الكافر كافراً لأنّ الكفر غطّى قلبه، فالكفر في اللُّغة هو التغطية.

والذي دعي إلى الإيمان ثم رفض كان كافراً بنعمة الإيمان التي غطّاها بإبائه عنها. والزارع يقال عنه كافر لأنه يستر البذار بتراب الأرض **﴿كمثل غيث اعجب الكفار نباته﴾**(٥٧/ ٢٠ الحديد).

وبذلك: تكون كلمة «كافرين» في الآية متجهة إلى عموم أهل الكفر، وتكون محاولة المؤلف في إلصاقها باليهود ومحوها عن الآخرين بالرغم من قيام شروطها عندهم، محاولة مرفوضة علميا ولغويا.

بعد هذا: نترك بيدي القارىء مهمّة محاسبة المؤلف على تجاوزاته اللغوية قرآنية، كما نترك إليه تقييم قوله في خاتمة تفسيره للآيتين (١٣ ـ من الشورى

ـ و ٧١ من المائدة). «فلا يقوم دين بحسب القرآن بدون الإيمان بالمسيح والإنجيل».

* * *

خامساً: ولا إسلام بدون الإيمان بالمسيح والإنجيل:

قال المؤلف في الصحيفتين ٩٧ ـ ٩٨ كثيراً من الأقوال نوجزها ضمن المفاهيم العامة الآتية:

«إن الإسلام الذي يشهد له القرآن هو إسلام النصارى» «فهم أولو العلم» و «أهله» و «أهل الذكر» و «المقسطون» وحيثما وردت هذه الأوصاف فهي موجهة إلى النصارى من أهل الكتاب لأن يهود أهل الكتاب موسومون بصفات الكافرين والظالمين وشر البرية.

«أما النصارى، فهم أولوا العلم قائماً بالقسط الذين يشهدون مع الله وملائكته أن الدين عند الله الإسلام. لذلك دان القرآن بدينهم ومسيحهم وإنجيلهم، وكان هذا الدين الإنجيلي المسيحي موضوع دين القرآن وإيمانه وإسلامه، ولذلك امتنع جدالهم، وفرض إعلان الوحدة معهم في الدين والكتاب والتنزيل». انتهت أقوال المؤلف.

* * *

كان المؤلف استعرض كثيراً من التعابير والمفاهيم التي تردَّدت في القرآن حيث خصص صفحات الفصل الثالث بكاملها «لأهل الكتاب» وخاصة «النصارى منهم» وتحدث عن تبعية القرآن لكتابهم وانتمائه إليهم وصدور الإسلام عنهم.

وكنا خصَّصنا فصلاً ثالثاً يقابل فصله أدرجنا فيه المواضيع والعناوين بالتسمية ذاتها، وقدمنا ما أمكن من المؤيدات والأسانيد اللغوية والقرآنية على نواحي الخطأ التي وقع فيها المؤلف في فهم هذه الآيات وتحليلها وتفسيرها.

لذلك نلفت إليها الإنتباه، ونلتمس من القارىء أن يعود إلى الفصل الثالث ليقرأ القول ونقيضه ثم يستخرج الحكم الصحيح بنفسه.

* * *

سادساً: «الأمة الواحدة» لا تقوم إلا بالإيمان المسيحي:

وفي الصحيفتين ٩٨ ـ ٩٩ قال المؤلف:

ـ إن إسلام القرآن يفخر بأن يجعل من المسيح وأمه آية للعالمين، فيعلن عن قيام «الأمة الواحدة» بينه وبينهما، الآيات (٢١/ ٩١ ـ ٩٢: الأنبياء) و(٢٣/ ٥١ ـ ٥٢: المؤمنون).

ـ وهذه الأمة هي: الأمة الوسط «بين اليهودية والمسيحية» الآية (٢/ ١٤٣: البقرة).

ـ وهي «الأمة المثالية» الموصوفة في ٣/ ١١٣ ـ ١١٤ من آل عمران، التي اتضح أنّها اوصاف رهبان عيسى وحدهم من دون العالمين، فهم الذين جعلهم الله «للمتقين إماما» (٢٥/ ٧٤: الفرقان).

ثم ختم تحليله بعبارة صاغها على أنّها «لازمة ونتيجة حتمية منطقية لبحثه» وهي: «فلا قيام لأمة القرآن إلا بالإيمان بالمسيح والإنجيل»... انتهى كلام المؤلف.

* * *

من المرهق جداً أن تضرب نطاقاً حول أفكار المؤلف أو أن تجده مستقراً في مدرسة فكرية محددة فهو لايكاد يحط حتى يفرش جناحيه ويطير لأنّ حَذَره من أن يلقى عليه القبض متلبساً بأخطائه يحرمه من الإستقرار على صعيد واحد.

إنه ليعرف حقا أن القرآن حضَّ على الإيمان بالله وكتبه ورسله دون تفريق. ودعا إلى إحياء الدين الواحد الذي كلف به جميع الأنبياء.

ومع ذلك: فقد عرض الآيات بأهداف محرّفة، وأبرزها على أنها دعوة إلى التوراة والإنجيل بصيغتهما الحالية، وتغافل عن تحذيرات القرآن العديدة من عمليات «التحريف» و«التبديل» و«الرفع» التي جرت عليها طوال القرون الخوالي.

إن المؤلف ليعرف حقاً، أن القرآن، دعا إلى الكلمة السواء، ورفض أهواء الذين ضلوا وأضلُّوا وتفرقوا، وآمن بالصحيح من مضامين الكتب، وتبنَّى الصحيح

من الأخبار والآثار: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً﴾ (٥/ ٧٧ ـ المائدة).

ومع ذلك: فهو يسلك مع القرآن سلوكاً غير كريم. إذ يتظاهر بالتشبث بالآية القرآنية استدراجاً لقناعة القارىء ولكنه ينْحرف بمعناها عن حقيقته خدمة لغاية ليست من القرآن وليست إليه.

نحن لا نقول ذلك جُزافاً بل لدينا في هذا البحث الذي كتبه المؤلف أقرب الأدلة.

١ ـ فالآيتان ٢١/ ٩١ ـ ٩٢ من سورة الإنبياء بعيدتان جدا عن تفسير المؤلف لهما.

ـ إن الآية (٩١) تحدثت عن مريم التي أحصنت فرجها فنفخ فيها من روحه وجعلها وابنها آية للناس.

ـ والآية (٩٢) خاطبت الناس كافة بقولها ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة. وأنا ربكم فاعبدون﴾. فأين هي الأمة التي تحدثت عنها الآية؟ وإلى من يعود اسم الإشارة هذا. إن الإلمام البسيط بالقراءة يوضح أن عائدية الآية (٩٢) هي إلىَ الأنبياء الذين عددتهم الآيات السابقة من نوح، حتى مريم وابنها، مبتدئة من الآية (٥١) من هذه السورة ومستمرة بالتتالي حتى الآية (٩٢) التي جاءت خاتمة لهذا السرد القرآني.

فالأمة الواحدة هي الدين الواحد الذي دعا إليه هؤلاء الأنبياء جميعاً، وكذلك أيضاً الآيات ٢٣/ ٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ من سورة المؤمنون. فالآية الأولى تحدثت عن «الآية للعالمين» وتوجهت الثانية بالنداء إلى جميع الرسل. أما الثالثة فقد أخبرت الرسل. بأن هذه أمتكم أمة واحدة.

﴿ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم(٥١) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون(٥٢)﴾.

٢ ـ أما الآية ٢/ ١٤٣ من البقرة فقد خاطبت المسلمين بقولها ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

«فالعطف» «واسم الإشارة البعيد» يفيدان الارتباط بسابقٍ لهما، مما يقتضي أن نعود إلى سياق هذه الآية من السورة.

ـ ففي الآية (١٣١) ورد الحديث عن ملة إبراهيم ﴿إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾.

ـ فوصَّى بهذه الملَّة بنيه وأخبرهم بأن ﴿الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلاّ وانتم مسلمون﴾ (١٣٢).

ونفذها يعقوب في بنيه ووصَّى بها أبناءه (١٣٣).

ـ ولكنهم حادوا فيما بعد غير أنهم لم يضرُّوا غير أنفسهم ﴿أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾(١٣٤).

ـ وقال الذين حادوا وتفرقوا للمسلمين ﴿كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ فكان جواب القرآن فورياً وفي ذات الآية مستخدماً حرف العطف «بل» ليفيد الإضراب عن سابقها والتوجيه إلى ما يليها وهو ﴿بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ (١٣٥) فبيَّنت بصراحة أنَّ ملة إبراهيم في القرآن هي غير اليهودية والنصرانية.

ـ ثم بعد ذلك توجه الخطاب إلى من آمن بالدعوة كي لا يتجزأ إيمانه ولا يفرق بين الرسل: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون(١٣٦) فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم(١٣٧)﴾.

«فإن آمنوا». . . ـ أي إن آمن جميع من وجهت إليهم الدعوة من أهل الكتاب وغيرهم ـ فقد اهتدوا، وإن تولوا فسوف يظلون على النزاع والخلاف والشقاق.

وهنا: يضع القرآن قاعدة فاصلة توضح الفروق بين الإيمان الإسلامي وغيره.

وعلى ضوئها: يمكن تحديد الفئات والأفراد الذين يلتقون مع المسلمين في «أمة واحدة» وقد سمي هذا الإيمان بأنه ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾(١٣٨).

أي: هي الفطرة الطاهرة التي اختارها الله.

ـ بعد ذلك دخلت الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٠ ـ ١٤١ ـ ١٤٢ في جدال مع اليهود والنصارى الذين كانوا يحاجُّون في إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، ويزعمون أنهم جذور اليهودية والنصرانية وأجدادهما العقائديون فتقول لهم تلك الآيات: كيف يصح قولكم؟ وكيف يستقيم؟ وما وجدت اليهودية والنصرانية إلا من بعدهم جميعاً؟.

ـ بعد تلك الجولة الطويلة، في تاريخ الأنبياء، والعقائد، توجهت الآية (١٤٣) إلى المسلمين على وجه التخصيص والتحديد لتقول لهم «أن الله جعلهم أمة وسطاً بين الأمم» أي ديناً وسطاً بين الأديان القائمة.

والوسط من كل شيء هو خياره، بمعنى أن ماكرمهم به الله من الدين حوى الفضائل التي أوحيت في الديانات السابقة، فأوضح العقيدة والعبادة والشريعة والنظام والتنظيم بما جعله مهيمناً على ما سبقه.

* * *

على ضوء ما تقدم نستطيع الإمساك بخطأ المؤلف في مقولته بأن «الدعوة الإسلامية استقرت في موقع وسط بين اليهودية والمسيحية» بعدما تبين من تحليل معنى «الوسط» الذي وصفت به «أمة الدعوة» فدِينُها ـ في منطق القرآن ـ خير الأديان، وهو الدين عند الله، ومن يبتغ غيره دينا فهو في الآخرة من الخاسرين. ولو كان المؤلف على ما ينبغي أن يكون من النزاهة والإخلاص للحق ـ وهو يقرأ آية الأمة الوسط ـ لتطَّلع إلى سباقها، وقرأ الآيات مترابطة آخذاً بعضُها ببعض حتى جاءت الآية (١٤٣) لتعلن أن الأمة الوسط هي الدين الإسلامي الموحد المنزه الذي فتح أبواب الوحدة الدينية لكل من يؤمن بالله والملائكة والكتب والرسل دون استثناء أو تفريق أو شرك أو إلحاد.

وهو منطق قام مع الدعوة منذ قيامها، ولن يطوى من عقيدتها حتى يطويه مع غيره قيام الساعة.

٣ ـ ولقد بالغ المؤلف وتجاوز كثيراً في قوله:

«إن الأوصاف التي وردت في الآيتين ٣/ ١١٣ ـ ١١٤ هي أوصاف رهبان عيسى وحدهم من دون العالمين عباد الرحمن الذين يتلون آيات الله آناء الليل ويبيتون لربهم سجداً وقياما، وهم الذين أقامهم الله للمتقين إماما». (ص ـ ٩٩ من الكتاب).

لقد عمد المؤلف إلى الآيتين ٣/ ١١٣ ـ ١١٤ من آل عمران والآية ٢٥/ ٧٤ من الفرقان فأخذ منها على هواه وفسرها على مبتغاه وأخرج معاني لا تلتقي مع المباني ولا تتفق مع الفهم الأصيل للقرآن. ومع ثوابت التاريخ واللغة والبيان.

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾(٣/ ١١٣ ـ ١١٤).

أ ـ فممَّا لا جدال فيه أن أهل الكتاب لم يكونوا على سوية عقائدية وأخلاقية واحدة.

فالقرآن بعد أن تحدث عنهم بصيغة العموم في الآيتين ٩٨ و٩٩ منددًا في كفرهم بآيات الله. وصدهم عن سبيله ومُحَذِّراً الذين آمنوا من الانقياد لهم كيلا يردوهم كفاراً من بعد الإيمان.

في الآيتين (١٠٠ ـ ١٠١) وبعد أن وجَّه نصائحه إلى هؤلاء المؤمنين لكي يتقوا الله حق تقاته وأن يعتصموا بحبله وألا يتفرقوا (١٠٢ ـ ١٠٣) مؤكداً أن أهل الكتاب لن يستطيعوا لهم ضرراً ولن ينتصروا عليهم في قتال(١١١). لأنهم باؤوا بغضب الله فضرب عليهم الذلة أينما ثُقفوا إلا بِحَبْلٍ من الله وحَبْلٍ من الناس وضُربت عليهم المسكنة بما عصوا وكانوا يعتدون. بعد ذلك جاءت الآيتان (١١٣ ـ ١١٤) لتخرجا من تلك الصيغة العامة، تلك الفئة من أهل الكتاب التي نجت بنفسها من الكفر، فهي قائمة في الصلاة تتلوا آيات القرآن آناء الليل آمنت إيماناً صادقاً بالله واليوم الآخر واتبعت سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فاكتسبت صفات الصَّالحين.

ب ـ والأمة هنا هي الفئة وفي البيان القرآني قد يعبر بها عن القليل: **﴿إن**

إبراهيم كان أمة. . .﴾ وعندما يتحدث عن فريقي الكفر والإيمان من أهل الكتاب، فإن الفريق الأكثر هم الفاسقون، والفريق الأقل هم المؤمنون.

﴿فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون﴾ (٥٧/ ٢٧ : الحديد). **﴿فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثيرٌ منهم فاسقون﴾** (٥٧/ ٢٦ : الحديد). **﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾** (٣/ ١١٠ : آل عمران).

ج ـ وقد اتفق اكثر المفسرين على أن الآيتين (١١٣ ـ ١١٤) نزلتا فيمن أسلم وحَسُنَ إسلامه وآمن وصدق إيمانُه من اهل الكتاب من يهود ونصارى، ومن المفسرين من خصّص المناسبة، فقال: أنزلتا في أربعين من اهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم، كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد وأسلموا (الامام الرازي في التفسير).

د ـ أما قول المؤلف إنها نزلت في رهبان عيسى دون غيرهم من العالمين، لأنهم هم الذين اعتادوا على التهجُّد وقيام الليل. فقد فاته أن الآية توجهت توجها صريحاً إلى القائمين من المسلمين. لأنها أضافت قيام الليل إلى «الإيمان بالله واليوم الآخر». فمن يؤمن بالله يؤمن بجميع أنبيائه. وهذه صفة لا تتوافر إلا في المسلمين، كما إن اليهود لا يؤمنون باليوم الآخر ولا يذكرون عنه كلمة، وإيمان النصارى باليوم الآخر يقوم على الحشر الروحاني دون الايمان بحشر الاجساد.

ونحن هنا إذ نذكر ذلك، فهو للتحقيق وليس للنقد أو المفاضلة بين هذه الصُّور من الإيمان، والقصد هو بيان أن الآية كانت تَصِفُ أهل التقوى من المسلمين الذين يقومون في الليل يتهجدون، ولم تكن موجَّهة إلى رهبان عيسى أو متصوفة اليهود.

هـ ـ أما تتويج النصارى بإمامة المتقين فقد كان من المؤلف اعتداءً وارتكَاباً بحق القرآن. لأن الآية ٢٥/ ٧٤ من الفرقان جاءت خاتمة للآيات التي بدأت من الآية ٦٣ ثم استمرت في تعداد صفات عباد الرحمن حتى انتهت بالآية ٧٤ وذلك بصيغة العموم البعيد عن شبهة التخصيص.

ـ فالرحمن هو إله الرحمة والعذاب وهو وحده رَبُّ الجميع.

ـ والناس جميعهم عِبَادُه.

ـ ولكنَّ الذين اتصفوا بهذه الصفات العقائدية والأخلاقية الخارقة استحقوا أن يميّزوا على غيرهم وأن يطلبوا من الله أن يجعلهم أئمة للمتقين.

سابعاً: القرآن نفسه هو تعليم الكتاب والحكمة ـ أي التوراة والإنجيل ـ للعرب:

حشد المؤلف عدداً من الآيات واستلَّ منها المفاهيم التالية:

١ ـ الحكمة هي: «الإنجيل» والكتاب هو «التوراة» ٤٣/٦٣ الزخرف. و ٣/٤٨: آل عمران و ٥/١١٣: المائدة.

٢ ـ غاية القرآن هي تعليم العرب «الكتاب والحكمة» أي التوراة والإنجيل. ففي تلاوة آيات القرآن يعلمهم الله «التوراة والإنجيل» ٢/١٥١: البقرة و٣/١٦٤: آل عمران. وهذه عقيدة يرددها التنزيل ٦٢/٢: الجمعة.

٣ ـ القرآن هو نسخة عن «مِثْلِهِ» النصراني ٤٦/١٠ ـ ١٣: الأحقاف. فالقرآن هو نصراني في دعوته ومن قبله كتاب موسى «إماماً ورحمة» وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً. فكتاب موسى هو الإمام البعيد، أمَّا «المِثْلُ النَصراني» فهو النسخة «الأصلية للقرآن» فالإنجيل هو القرآن قبل أن يعرَّب، والقرآن هو الإنجيل بعد التعريب، وبهذا يكون القرآن «تعليم الإنجيل» بالعربية لأبنائها (أقوال المؤلف التي وردت بتوسع في ص ٩٩ ـ ١٠٠ ـ من كتابه).

والمؤلف في جميع هذه الأقوال: يغلط ويغالط ويغفل ويتغافل. لقد بَعُد عن الصَّواب حتى غاب عن النظر.

عفواً. واعتذاراً من قواعد المنطق، فقد غمرتني سحابةٌ من خيبة الأمل وأنا أتعرف فقرة فقرة على الانحياز واللاَّمسؤولية العلمية التي بنيت عليها أفكار هذا المؤلف الأديب.

كيف نسب إلى القرآن تعريف «الحكمة» بأنها الإنجيل والكتاب بأنه «التوارة»؟ كيف استخرج من القرآن شهادته على نفسه بأن غايته ليست نشر دينٍ جديد ولا شريعة جديدة بل هي تعلبم التوراة والإنجيل باللغة العربية؟.

أ ـ لقد تتبَّعت آيات القرآن بحثاً عن كل آية ورد فيها «مفهوم الحكمة» و «مفهوم الكتاب» فلم أجد آيةٌ واحدة تعني ما عناه المؤلف وماذهب إليه.

﴿فقد آتيناآل إبراهيهم الكتاب والحكمة﴾(٤/ ٥٤ : النساء).

﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾(٢/ ١٢٩ : البقرة).

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾(٣/ ٤٨ : آل عمران).

﴿وَقَتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمَّه مما يشاء﴾(٢/ ٢٥١ : البقرة).

﴿وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾(٥/ ١١٠ : المائدة).

في هذه الآيات وفي جميع الآيات التي ورد فيها «مفهوم الكتاب» توجُّهٌ عامٌ أَطلَقَهُ القرآن على الكتب المنزلة.

فالآية ٤/ ٥٤ : النساء، ذكرت أن الكتاب والحكمة أُنْعِم بهما على ابراهيم أي أنهما موجودان من قبل التوراة والإنجيل بزمنٍ بعيد.

وفي الآية ٢/ ١٢٩ : البقرة، نداء من إبراهيم إلى ربه لكي يعلِّم ذريته الكتاب والحكمة.

والآية ٢/ ٢٥١ : البقرة، أخبرت أن داوود أوتِي الحكمة مع الملك والعلم.

والآية ١٩/ ١٢ : مريم، خاطبت يحيى بقولها: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا﴾.

والآيتان ٣/ ٤٨ : آل عمران و ٥/ ١١٠ : المائدة، ذكرتا أن الله علَّم المسيح «الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل».

وفي هذا وضوح قرآني قاطع في أن مفهومي الكتاب والحكمة، هما غيرالتوراة والإنجيل إذ لا يعقل أن يكون الأمر غير ذلك وإلا وقع القرآن في عيب التكرار الشديد.

ب ـ والحكمة في اللغة:

هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. والحكيم الذي له الحكم في المطلق هو الله سبحانه وتعالى. ومن أسمائه الحسنى «الحَكَم» بمعنى الحاكم أي القاضي الذي يحكم الأشياء وينصفها. والحُكْم هو العلم والفقه والقضاء بالعدل. وفي الحديث الشريف في وصف القرآن «الذكر الحكيم» أي الحاكم لكم وعليكم. أو هو المحكم الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب. وفي قوله تعالى: ﴿كتابٌ أُحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدُنْ حكيمٍ خبير﴾(١١/١: هود) أي أحكمت آياته بالأمر والنهي والحلال والحرام ثم فصلتْ بالوعد والوعيد وقيل: إن آياته أحكمت وفصلت بجميع ما يحتاج إليه من الدلالة على توحيد الله وتثبيت نبوة الأنبياء وشرائع الإسلام. وفي الحديث الشريف «الخلافة في قريش والحكم في الأنصار» (لسان العرب).

والحكمة في التفسير:

هي الإصابة في القول والعمل ولا يسمى حكيما إلا من اجتمع له الأمران، وقيل أصلها من أَحْكَمْتُ الشيء أي رددته إلى الحق. فكأن الحكمة هي التي تَرُدُّ عن الجهل والخطأ. بوضع الشيء في موضعه، وقد فَهِمَ العلماء من معاني هذه الكلمة في القرآن: أنها الفصل بين الحق والباطل ولا يتأتّى ذلك إلا بمعرفة السُّنَة وفهم القرآن (اقتباس من تفسير الإمام الرازي).

على ضوء ما تقدم يمكن أن نقدِّر مَدى تجاوُزِ المؤلف على القُرآن واللغة. فكلٌّ من «الكتاب» و«الحكمة» تردَّد في القرآن بمعانٍ ودلالاتٍ متعددة. ولكن المقطوع فيه أن «الكتاب» لم تقْتصِرْ الدلالةُ به على التوراة أو الإنجيل أو كليهما. وأن «الحكمة» لم تخصص للتعبير عن الإنجيل.

ج ـ ولم يتوقف سطو المؤلف على ما يخُصُّ القرآن من آياتٍ تضمنت «تعبير الكتاب» وتحويلها إلى الإنجيل، بل سطا على الآيات المشابهة التي نَزَلت في القرآن عن التوراة.

فقد قرأ الآيتين ٤٦/ ١٠ ـ ١٢ من سورة الأحقاف على الشكل التّالي:

﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على

مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾(١٠). ﴿ومِن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتابٌ مصدِّقٌ لساناً عربيا لينذرَ الذين ظَلمُوا وبشرى للمحسنين﴾(١٢).

قال: «إن للقرآن «مِثْلاً نصرانيا» تمَّت الشهادةُ عليه فهو نصرانيٌّ في دعوته وتعليم العرب الإيمان بالمسيح والإنجيل. وكتاب موسى هو الإمام البعيد للقرآن أمَّا الإنْجيل فهو المِثْلُ النصراني للقرآن لأنه الأصل الذي لا يختلف عن مثيله إلا بلغةِ الإيصال التي توجهت إلى العرب بلغتهم» (خلاصة أفكار المؤلف ـ كما سبق).

هذه الأفكار التي طرحهاالمؤلف في ص (١٠٠) وما بعدها: هي بالرغم من تخبطها في الأداء والإيصال، وعدم وضوحها في رأس المؤلف، لا يمكن أن تكون تفسيراً للآيتين... فالآيتان نزلتا في مناسبة خاصة ذكرتها أكثر كُتُبِ التفسير وهي «إن الشاهد هو عبد الله بن سلام وقد حضر إلى عند النبي وأسلم بعد أن سأله عن ثلاث: ١ ـ اشراط الساعة. ٢ ـ أول طعام يأكله أهل الجنة. ٣ ـ هل ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه.

فقال النبي: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت. وأمَّا الولد فإن سبق ماء الرجل نزع إلى أبيه وإن سبق ماء المرأة نزع إلى أمه».

فأسلم عبد الله بن سلام وقال: يا رسول الله: إن اليهود قوم بهت، فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك. فجاءت اليهود فقال لهم النبي أي رجل فيكم عبد الله؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا. فقال: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: فقالوا شرنا وابن شرنا. وانتقصوه. فقال: هذا ما كنت أخاف يا رسول الله.

وقد روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: ماسمعت رسول الله يقول لأحد يمشي على الأرض أنه من أهل الجنة إلا عبد الله بن سلام، وقد نزلت فيه الآية: **﴿وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله﴾.**

وأما الآية: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾.

فالمقصود «الكتاب الذي نزل قبل القرآن وهو التوراة كتاب موسى» وقد تمحورت التوراة حول شهادة عبد الله بن سلام في القرآن. فالتوراة كان «إماماً ورحمة» حتى نسخ الإنجيل بعض شرائعه ونزل الأمر إلى أهله أن يحكموا بما أنزل فيه. ثم جاء القرآن فصارت الإمامة اليه والرحمة منه.

والإمامة تعني القدوة، فالإمام يؤتم به في الدين والشريعة، فمن اقتدى به تحققت له الرحمة. وفي الآية نفسها توضح الخاتمة أن القرآن صار مرجع الاقتداء والرحمة بقولها: ﴿وهذا كتاب مصدق لساناً عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين﴾ فهو: تصديق لكتاب موسى الذي أنزل من قبل هدى للناس (٣/ ٢ ـ ٣ آل عمران) وفيه الانذار للظالمين والبشرى للمحسنين.

ثامناً: الإنجيل كمال الوحي والتنزيل:

تحدث المؤلف في الصحيفتين ١٠١ ـ ١٠٢ من كتابه عن المواضيع الآتية:

ـ كمال الوحي والتنزيل هما في المسيح والإنجيل وذلك ماثل في لغة التقفية التي توقفت بعدهما.

ـ القرآن أقر مبدأ التفضيل بين الرسل وصرح بتفضيل المسيح عليهم جميعاً.

ـ لقد استجمع الله الوحي كله في الإنجيل.

في الموضوع الأول:

قال المؤلف: إن «التقفية» بين الرسل انقطعت بعد المسيح مما يدل على أن لا نبي بعده ولا كتاب بعد كتابه. ﴿ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل﴾ (٥٧/ ٢٧: الحديد). لقد كنا درسنا ما تعني كلمة «قفينا» في التفسير وما تعنيه في اللغة وذلك في الموضوع الأول (كمال النبوة والكتاب بالمسيح والإنجيل) ومن معطيات تلك الدراسة تبين أن «التقفية» عبَّرت في القرآن عن التسلسل النبوي بين أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا يتتالون «تقفيةً» وقد أُشير إلى ذلك في أول الآية: ﴿ثم قفينا على أثرهم برسلنا. . .﴾ أي على آثار الأنبياء الذين وردت

أسماؤهم وقصصهم في الآيات السابقة وهم (نوح وإبراهيم وموسى) ثم أكملت الآية خبر التقفية فقالت «وقفينا بعيسى ابن مريم».

ويبدو أن سبب الإختلاط في الفهم والتمييز عند المؤلف، هو أن الآية ذكرت عيسى بالاسم دون سواه فتحقق له في ذلك - برأي المؤلف - فضل السبق والتجاوز ولو أمعن في عبارة «وآتيناه الإنجيل» لتبين له أن ذكر المسيح وكتابه بالاسم هو لإعلان الفرق بينه وبين من سبقه من الأنبياء بعد موسى الذين لم يزودوا بكتب بل جاؤوا خلفاء لموسى في كتابه وشريعته، أما المسيح فقد جاء بالإنجيل وفيه شريعة نسخت الكثير من أحكام التوراة[1] لذلك وللتمييز بين تقفيته وتقفية من سبقه ذكر هو وكتابه بالاسم ولم يُقتصر على الاكتفاء بالتقفية، مثل غيره.

وفي الموضوع الثاني:

قال: «أقر القرآن مبدأ المُفاضلة بين الرسل. ثم صرَّح بتفضيل المسيح على جميع الرسل بما أوتي من بينات وبتأييده من روح القدس: الآيات ١٧/ ٥٥ الإسراء و ٢/ ٢٥٣: البقرة و ٥/ ١١٣: المائدة.

ومن محصِّلة تفضيل المسيح على الأنبياء والرسل. تفضيل الإنجيل على الكتب.

هذه الأقوال تتطلب الإمعان في المفاهيم الآتية: «التفضيل» و«البينات» و«الروح القدس».

فالتفضيل:

بين الأنبياء مبني على أن من أوتي منهم الكتاب وكلف بالرسالة والشريعة هو أعلى مرتبة ممن لم يؤت ذلك والنصَّ في التفضيل ورد بصيغة العموم. حيث خلا من «التسمية» وخلا من تحديد درجات التمييز.

﴿وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض

---

(١) نرجو أن يفهم المعنى القرآني للنسخ على أنه تحرك تشريعي تبقى معه للنص السابق قدسيته واعتباره ويظل موضع الإيمان على أنه كان هدىً في زمانه.

وآتينا داوود زبورا﴾ (١٧/ ٥٥: الإسراء).

فالعموم الذي صيغت به الآية يوقفنا عند حد ثابت ويمنعنا من الاجتهاد على حساب القرآن فالتحديد والتسمية عائدان إلى علم الله أما المكلفون فقد أمروا أن يؤمنوا دون تفريق بين الرسل:

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربَّنا وإليك المصير﴾ (٢/ ٢٨٥: البقرة).

ومثلما وردت نصوص التفضيل في صيغة العموم وردت نكرة دون تعريف.

﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس﴾ (٢/ ٢٥٣: البقرة).

إن ابتداء الآية بعبارة «تلك الرسل» هو إشارة إلى أن المفاضلة من حيث موقعها وأشخاصها هي فيما سبق من آيات.

أي: إن المسيح لم يكن بين هؤلاء لأن اسمه جاء مستقلا ومتأخراً عنهم.

وإذ ابتدأت الآية بالإشارة العامة لم تلبث أن فصَّلت ووصفت فقالت: **﴿منهم من كلم الله﴾**[(١)]. **﴿ورفع بعضهم درجات﴾**[(٢)] كما أن استخدام جمع القلَّة «درجات» يفيد ضيق الفروق بين الأنبياء.

والبينات:

التي أوتيها الأنبياء والرسل بمن فيهم المسيح. لم تكن دليل تفضيل لأحدٍ منهم على سواه. فالبينة هي «الآية ـ المعجزة» التي تعبر عن مظهر عجيب غير مألوف يعجز الناس عن تعليله وتبسيطه. وكانت تمنح إلى الأنبياء لتمثل الحجة

---

(١) مثل موسى.

(٢) مثل إبراهيم الذي نال خلّة الله وجعله للناس اماماً؛ مثل داوود الذي اجتمع له الملك والنبوة وألان له الحديد بين يديه؛ ومثل سليمان الذي سخر له الإنس والجن والطير والريح.

القاطعة والدليل الدامغ على صدق الرسول، حيث يسجل الرسول فيها سبقاً وتفوقاً على مستوى التقدم الذي وصل إليه عصره.

لذلك جاءت بيّنات موسى متفوقة على السحر الذي برع فيه المصريون.

وجاءت بينات عيسى متفوقة على الطب الذي برع فيه عصره.

ولذلك: جاء القرآن «بيّنة دائمة» تفوقت على البلاغة، وجميع أنواع العلوم، التي برع فيها الناس في ذلك الزمن، ومازالت على تفوقها حتى الآن. ولا يبدو أنها مزمعة على التخلي عن موقعها المتفوق.

والاختلاف في البينات من حيث «النوع والماهية والشكل» ينبغي ألا يحجّم بغير حجمه أو بأكبر من حجمه بل يجب أن يفهم على أنه استجابة، لا بديل لها، لحاجات الزمان والمكان وتطور الانسان. وهذه الحاجات تختلف من عصر إلى عصر مما اقتضى اختلاف البينات وفقاً لذلك.

والتأييد بروح القدس:

تتألف هذه العبارة من مفهومين يجب شرحهما وتوضيح حقيقة معناهما. وهما: «التأييد» و«روح القدس».

«فالتأييد» الذي توهمه المؤلف «تفصيلا» ليس كذلك في معناه. فهو في اللغة يعني التقوية والمناصرة، وفي القرآن: ﴿**والسماء بنيناها بأَيْدٍ وإنا لموسعون**﴾ (٥١/٤٧ : الذاريات). فالأيد هو القوة. وقد اشتق من أيَدَ وكذلك الفعل أيَّد.

وفي الحديث الشريف قال النبي لحسان بن ثابت «اهجُهم وروح القدس يؤيدك» أي ينصرك. فالتأييد كان يغدقه الله على جميع الأنبياء ولولاه لما انتشرت رسالة ولا انتصرت دعوة.

أما الروح القدس:

فهو وسيلة الاتصال بين الله والرسول يتلقى التعاليم والآيات فيحملها ويلقيها على الرسول ليقوم بالتبشير والدعوة. ولو تتبع المؤلف سير الأنبياء في القرآن لإطّلع على هذه الوسيلة يلقيها الله على من يشاء من رسله فلم تقتصر على شخص المسيح.

﴿وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزِّل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (١٦/ ١٠١ : النحل).

﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق﴾ (٤٠/ ١٥ : غافر).

﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين﴾ (١٦/ ١٠٢ : النحل).

﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (٢٦/ ١٩٣ : ـ ١٩٤ الشعراء).

﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ (٤٢/ ٥٢ : الشورى).

وقال في الموضوع الثالث:

١ ـ «إن وحي الله قد تجمع في المسيح والإنجيل». ولا يستطيع أحد أن يفهم ما قَصَده المؤلف بهذه العبارة القاطعة. فهل قصد أن الله فرغت يداه بعد المسيح والإنجيل واصبحتا خاويتين من الوحي؟ أم هل قصد أن الإنجيل أجاب على ما سأله الناس وما احتاجوه، وعلى ما سوف يسألون عنه ويحتاجون في العقائد والعلوم والشرائع مادام الإنسان موجوداً في الزمان؟ إن كان هذا هو القصد فإنه قلَّةُ تبصُّر وقصورٌ عن فهم طبيعة الحياة وتجميدٌ لعناية الله في ثلاَّجة من ضلال الرأي. كما إنه في الموقف ذاته تقويل الإنجيل ما لم يقل. إن عملية الخلق مستمرة بلا انقطاع وعناية الله ترعاها وتوجِّه تطورها وتزودها على الدوام بوسائل خلاصها الروحي وسعادتها الدنيوية فتلقي إليها ما تحتاجه من عقائد وعلوم وتشريع دون تخلف أو تجاوز للزمان والمكان وتطور الإنسان.

٢ ـ وقال: «إن إفراغ وحي الله في الإنجيل والمسيح ثابتٌ بلسان القرآن».

أ ـ فقد علمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل (٣/ ٤٨ : آل عمران و٥/ ١١٠ : المائدة).

ب ـ ورفع رسالته على جميع الرسالات إذ أيده بروح القدس (٥/ ١١٠: المائدة).

ج ـ وكلمه الله مباشرة وعياناً دون حجاب (١٦/ ١٠٢: النحل).

د ـ وأشار إلى الإنجيل بأنه الكتاب المنير وحده. (٣٥/ ٢٥: فاطر و٣/ ١٨٤: آل عمران).

هـ ـ ولا نجد بحق محمد والقرآن مثل هذه المزايا ولا بحق موسى أيضاً، لأنها مزايا وميزات المسيح والإنجيل وحدهما.

* * *

ـ لقد درسنا الفقرة أ ـ في الموضوع سابعاً.

غير أنه تجدر الإشارة إلى التغيُّر الشديد الذي طَرَأَ على تفكير المؤلف. وهو إنه حتى إيراده للآيتين ٤٨ ـ من آل عمران و١١٠ من المائدة ظل يقول: «إن تعبيري الكتاب والحكمة يعنيان التوراة والإنجيل في مفهوم القرآن ولكنه هنا يضعَهُما منفصلين عن التوراة والإنجيل بواو العطف التي تعني «التتابع مع التغاير» وتقتصر على جمع المعطوف والمعطوف عليه في الحكم والإعراب دون الترتيب أو التعقيب.

ـ وكذلك درسنا الفقرة ب ـ تحت عنوان التأييد بروح القدس.

ـ أما الآية ١٦/١٠٢ من سورة النحل فقد صادرها المؤلف وحمّلها معاني ليست منها ولا لها عندما قال: إنها الدليل على أن الله خاطب عيسى مباشرة وعياناً دون حجاب. ولكن الواقع غير ذلك تماماً. فالآية متوسطة بين آيات تحدثت جميعها عن القرآن، بدءاً من الآية (٩٨).

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم(٩٨) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون(٩٩) إنمّا سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون(١٠٠) وإذا بدّلنا آيةً مكان آية والله أعلم بما ينزِّل قالوا إنما أنت مفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون(١٠١) قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبِّت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين(١٠٢) ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمّه بشَرٌ لسان الذي

يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين(١٠٣)﴾ (سورة النحل رقم: ١٦).

فالخطاب يتحدث عن القرآن مع النبي محمد، لذلك قلنا: إن المؤلف صادرها وغَيَّر جهتها.

والآية ١٠٢ لا تفيد أن الله كلم المسيح مباشرة وعياناً، بل تقتصر على أن روح القدس نزَّل القرآن من ربك بالحق (كاف الخطاب تعني النبي محمد).

ـ وأورد المؤلف الآيتين ٣/ ١٨٤ من آل عمران و ٣٥/ ٢٥ من فاطر. دليلاً متعدداً على أن القرآن ميز الإنجيل بوصفه إياه بـ «الكتاب المنير» تخصيصاً وتمييزاً عن سائر الكتب.

وبدلاً من أن يقدم شرحاً موثَّقاً لهذا الرأي اكتفى بإيراد الآية ٢٥ من سورة فاطر مُدخلاً رأيه في كلماتها بأسلوب التحشية الممجوجة فكتبها على الشكل التالي:

«وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات (موسى) وبالزبر (داوود) وبالكتاب المنير (الإنجيل)».

وهذا أسلوب غير كريم في التعامل مع الكتب الكريمة.

فالبينات هي المعجزات التي أيَّد الله بها رسله وأنبياءه. لم يخصص بها موسى ولم يحرم منها داوود والمسيح وسواهما من الأنبياء، كما إن بينات موسى لم تلغ الكتاب الذي أنزل عليه وهو «التوراة» بل كانت العجائب تترافق مع التوراة وظلت مرافقة لها حتى تحقق التفوق المعجز لرسالة موسى. وقد وصف القرآن تلك البينات بأنها «بصائر» أي يبصرها الناس.

والكتاب المنير، هو الصفة التي وصف بها القرآن كتب الأنبياء، فالنور يرمز إلى الوضوح والثقة والاقتناع. وقد أغدق القرآن هذا الوصف على الكتب السماوية كافة.

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾(٥/ ٤٤: المائدة). **﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس﴾** (٦/ ٩١: الانعام). **﴿وآتيناه الإنجيل فيه هُدىً ونور﴾** (٥/ ٤٦: المائدة). **﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا﴾** (٦٤/ ٨:

التغابن). ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾(٤/ ١٧٤ : النساء).

ومن الواضح أن النور الذي أنزله الله في آية التغابن والنور المبين في آية النساء مقصود به القرآن لأن الخطاب يتناول دعوة النبي (ص) وكتابه.

ـ أما قول المؤلف، ولا نجد في القرآن بحق محمد وبحق موسى مثل هذه الميزات لأنها ميزات المسيح والإنجيل وحدهما.

فهو قول:

ـ إن استطاع تبرئة نفسه من حساسية التحيز المفرطة.

ـ فلن يستطيع تبرئتها من التقصير عن فهم القرآن وقراءته. لأن ما نزل فيه بحق محمد يفوق ما نزل بحق الأنبياء جميعاً.

فهو «رحمة للعالمين» (الأنبياء: ١٠٧). و«رفع الله ذكره»(الشرح: ٤)[1]. و«طاعته مقرونة بطاعة الله» (النساء: ٨٠) و«رضاه برضاه» (التوبة: ٦٢). و«عزته بعزته» (المنافقون: ٨). و«دينه أفضل الأديان ومن يحب الله يجب أن يحبه» (آل عمران: ٣١). و«أنه أرسل إلى الناس كافة» (سبأ: ٢٨). و«أن الله خاطب الأنبياء جميعاً بأسمائهم من آدم حتى عيسى» إلا النبي محمد خاطبه بـ﴿يا أيها النبي﴾ (الأنفال: ٦٤). و﴿ياأيها الرسول﴾ (المائدة: ٤١).

تاسعاً: الإنجيل نور وهُدىً للمتقين:

وفي الصفحتين ١٠٣ ـ ١٠٤ من المؤلف عالج المواضيع الثلاثة الآتية:

١ ـ تحدثت الآيات ٢/٢ ـ ٤ من البقرة عن الكتاب على وجه العموم أي عن «التوراة والإنجيل والقرآن» بدليل التفصيل عن هذه الكتب في الآيتين ٥/٤٧ ـ ٤٩ من المائدة.

ففي التوراة «هدىً ونور» ولكن لليهود وحدهم.

---

(١) فهو يذكر مع الله دوماً في الأذان والإقامة والصلاة.

وفي الإنجيل «هدىً ونور» ثم هو «هدىً وموعظة للمتقين العرب» فالإنجيل بموجب النص القرآني القاطع هو «هُدىً وموعظة للمسلمين» وليسوا مسلمين إن لم يهتدوا ويتعظوا به».

٢ ـ مهمة القرآن هي تعليم الكتاب والحكمة «أي التوراة والإنجيل» وعلى النبي أن يقتدي بهدي من يؤمنون بهما. (٦/ ٨٩ ـ ٩٠: الانعام).

٣ ـ والقرآن يعتبر أهل الإنجيل وخصوصاً رهبانهم إماماً للمتقين من العرب فهم عباد الرحمن وهم الذين التزموا وحدهم بقيام الليل الذي لم يكلف «به نافِلةً» إلا النبي محمد. (الفرقان: ٢٥/ ٦٣ ـ ٦٤ ـ ٧٤) و(١٧/ ٧٩: الإسراء).

أ ـ ففي الفكرة الأولى:

﴿آلم(١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين(٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٣) والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(٤) أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون(٥)﴾ (البقرة).

«فالكتاب» في هذه الآيات هو «القرآن على وجه الخصوص» ولم يرد هنا للدلالة على الكتب الأخرى لأنه وُصف بصفات متعددة متتابعة «لا ريب فيه» «هدى للمتقين».

ثم جاء تعريف المتقين على الفور وبدون آية فاصلة بأنهم المهتدون به المؤمنون بالغيب المقيمون الصلاة المنفقون مما رزقهم الله، المؤمنون بما أنزل على النبي وما أنزل من قبل، والموقنون بالآخرة. وهذا التعريف مخصَّص بأتباع النبي محمد.

ـ فهم يؤمنون بما أنزل إليه وما أنزل على من قبله، وبذلك يخرج اليهود الذين لا يؤمنون بالمسيح ولا بمحمد ويخرج النصارى الذين لا يؤمنون بمحمد، وكلاهما لا يؤمنان بالقرآن على أنه كتاب منزل.

ـ وهم يوقنون بالآخرة في حين أن اليهود لا يوقنون بغير هذه الدنيا، والنصارى لا يوقنون بحشر الاجساد..

«والكتاب»... هو مصدر مثل «القيام» و«الصيام». وهو واحدٌ من أسماء التنزيل على النبي محمد، التي بلغت في القرآن اثنين وثلاثين اسما منها «الكتاب» و«القرآن» و«المبارك» و«المهيمن» و«النور» و«الهادي» و«الحق» و«البرهان» و«المثاني» و«الفصل» و«الصراط المستقيم» و«الرحمة» و«الذكر» و«الفرقان» و«التنزيل» و«الشفاء».

أما اسم الإشارة «ذلك» الذي التبس به الأمر على المؤلف ووجَّه فكره إلى تعميم لفظة «الكتاب». فهو لايدل على البعيد دوماً لأنه يتكون في الأصل من اسم الاشارة «ذا» ثم أُضيفت الكاف للخطاب واللام لتأكيد معنى الإشارة، فكاف المتكلم بالغ في التنبيه لتأخر المشار إليه عنه.

وفي القرآن أمثلة عديدة على هذا الاستعمال غير البعيد مثل **﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾** (ق: ١٩). **﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لَعِبرة لمن يخشى﴾** (٧٩/ ٢٥ ـ ٢٦: النازعات).

ـ ولعل المؤلف أو أي قائل غيره يتساءل: كيف يشير «بذلك الكتاب» إلى القرآن في أول سورة البقرة التي هي أول سورة من سور القرآن؟.

وفي توضيح الأمر للسائل نقول:

ـ إن البقرة هي سورة مدنية وقد سبقها في النزول جميع القرآن المكي الذي كان قد استقر في صدور النَّاس عندما نزلت هذه السورة، وهو يمثِّل سبع وثمانين من مجموع سور القرآن البالغ مئة وأربع عشرة سورة. لذلك كانت الإشارة في الآية ٢ ـ عائدة إلى ما بين أيدي النَّاس من القرآن.

ـ كما إن تسمية بعض القرآن قرآناً هي أسلوب يتكرر في القرآن كقوله: **﴿وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له﴾** (٧/ ٢٠٤: الأعراف). **﴿إنَّا سمعنَا قرآنا عجبا﴾** (٧٢/ ١: الجن).

لذلك: يبقى كل فهم قاصراً عن إدراك المقاصد القرآنية في تلك الآيات إن هو توجه إلى غير القرآن. ولا يُسعِفُ حجة المؤلف قوله إذ قال: «إن الآيتين ٤٧ و ٤٩

من المائدة فكَّت «تعميم الكتاب» الذي ورد في الآية ٢/٢ وفصَّلت المهمات التي أُنيطت بكل كتاب سماوي.

- فالتوراة كُلِّفت بالهدى والنور.
- والإنجيل كُلِّف أيضاً بالهدى والنور ولكنه «هدى وموعظة للعرب المتقين».
- أما القرآن في الآلية العربية فهو لتنفيذ مهمات الإنجيل «يعلم الكتاب والحكمة ـ أي التوراة والإنجيل[١].

ففي إيضاح وجهة نظرنا نبدي ما يلي:

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما أستُحفِظُوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا ومن لم يحكم با أنزل الله فاولئك هم الكافرون﴾ (٤٤) ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظة للمتقين﴾ (٤٦: المائدة).

فالآيتان هما: ٤٤ ـ ٤٦ من المائدة وليس ٤٧ و ٤٩ كما قال المؤلف[٢].

وهما: ليستا تفكيكا لمفهوم العموم في «كلمة الكتاب» بالآية ٢/٢ من البقرة.

وهما: لا تتضمنان شيئاً من ذلك ولا تشيران إليه.

ثم: إنَّ الآية (٤٤) نزلت في التوراة على وجه الخصوص. فنصت على أن فيها هدى ونور[٣].

وأنها كانت مرجع الحكم للنبيين من بعد موسى حتى عيسى، يحكم بها هؤلاء الأنبياء الذين وصفوا بأنهم «الذين أسلموا[٤] للذين هادوا. كما يحكم بها الربانيون[٥] والأحبار[٦].

---

(١) ص ١٠٣.

(٢) لقد تعودنا منه على الإيراد الخاطىء للآيات.

(٣) الهدى محمول على بيان الشرائع والنور محمول على بيان التوحيد والنبوة والمعاد.

(٤) أي الذين انقادوا.

(٥) الربانيون هم العلماء العبَّاد.

(٦) الأحبار هم الفقهاء والمفرد، حبر.

وتقديم الربانيين على الأحبار دليل على فرق المرتبة فالربانيون مثل المجتهدين والأحبار مثل العلماء بالشريعة. ولقد ثبت في التاريخ القرآني أن هذه الآية نزلت في مسألة الرجم حينما جاء بعض اليهود إلى النبي ليحكم على اثنين ثبت عليهما الزنا، وكانوا ينكرون وجوب الرجم، فنزلت الآية تنبيهاً لهم وترغيباً في أن يكونوا كمتقدميهم من مسلمي أحبارهم وأنبيائهم.

وفي الآية (٤٦) وصف الإنجيل بصفات خمس:

١ ـ فيه هدى. ٢ ـ وفيه نور. ٣ ـ ومصدِّقٌ لما بين يديه من التوراة. ٤ ـ وفيه هدى (مكرر). ٥ ـ وفيه موعظة للمتقين.

ـ فالهدى هو بيان الشرائع، منها ما عاد به الإنجيل إلى التوراة ومنها ما حكم فيها بما أنزل إليه بدليل الآية ٥/٤٧. **﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾**.

ـ والنور هو بيان النبوة والتوحيد.

ـ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة أي متبعاً لها غير مخالف إلا في التعليل مما كان يختلف فيه بنو إسرائيل. **﴿ولأُحلَّ لكم بعض الذي حُرّم عليكم...﴾**(٣/ ٥٠: آل عمران).

لذلك كان من المشهور عند العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة.

ـ أما تكرار الهدى للمرة الثانية فهو لبيان أن الإنجيل يتضمن الدلالة على مقدم النبي والقرآن والهداية إليهما.

ـ وأما موعظة المتقين فذلك للنصح والزجر والموعظة عن ارتكاب المعاصي، وهو موجه إلى من يتقي الله ويخشاه.

ب ـ وفي الفكرة الثانية:

نقول:

ـ كنا بحثنا المعاني القرآنية «لمفهومي الكتاب والحكمة» في البند (سابعاً: القرآن هو تعليم الكتاب والحكمة ـ أي التوراة والإنجيل). ووصل بنا البحث إلى أن

«الكتاب» هو أحد أسماء القرآن، كما إن هذا اللفظ أطلقه القرآن على الكتب السماوية، ويمكن تحديد المقصود منه في كل آية على ضوء موقعها من سياق القول. كما تبيَّن أن «الحكمة» ليست اسماً خاصاً بالإنجيل أو مقصوراً عليه ـ بل هي «وصف عام» يطلق على «العارف بأفضل الأشياء والعلوم» وبذلك يمكن وصف الإنجيل بالحكمة مثلما يوصف بها القرآن وسواه من كتب السماء.

ـ ومثلما أخطأ المؤلف في فهم ومعاني «الكتاب والحكمة» أخطأ في الآية ٦/ ٩٠: من سورة الانعام عندما وجد فيها أوامر إلى النبي لكي يقتدي بهدي أهل الإنجيل.

وهو لو تطلع إلى ما قبل هذه الآية لوجد سرداً تاريخيا لقصص الأنبياء وما لاقوه في دعواتهم من المكابرة والمجابهة وما تحملوه من الأذى بدءاً من إبراهيم في الآيات من (٧٤ ـ ٨٣) ثم الأنبياء من بعده «اسحق ويعقوب ومن قبلهم نوح ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وزكريا ويحيى وإلياس وإسماعيل وإليسع ويونس ولوطا». هؤلاء جميعاً ذكروا في الآيات من (٨٤ ـ ٨٨) ثم جاءت الآيتان ٨٩ ـ ٩٠ بإخبارٍ وخطابٍ مُوجَّهين إلى النبي: **﴿أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإنْ يكفر بها هؤلاء فقد وكَّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين(٨٩) أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين(٩٠)﴾**.

بعد ذلك نستطيع أن نستنكر على المؤلف فهمه للآيتين ونتهم نيَّته في تفسيرهما.

* * *

ج ـ أما في الفكرة الثالثة:

فلم يكن المؤلف أوفر فهما وأكثر نزاهة علمية، لأنه ـ على خلاف غيره قاطبة ـ حصر مفهوم التقوى «في أهل الإنجيل» وخاصة في جماعة الرهبان منهم، فهم المتقون وحدهم من بين سائر الخلق[1] وهم عباد الرحمن الذين جسدوا على

---

(١) لابد من العودة بالقارىء إلى بعض ما سبق من أبحاث حصر المؤلف فيها مفهوم «المتقين»=

الأرض قِيَمَ الدِّين والدُّنيا وكلُّ صلاح عند غيرهم يقتبس عنهم ويستضيء بهم ويسير على هديهم.

لقد أطلق المؤلف هذه الأحكام الصلبة القاطعة، معتمداً على آيات من سورة الفرقان وآيتين من سورة الإسراء. ولكن كيف قرأ؟ وكيف حلَّل؟ وكيف قامت عنده هذه النتائج؟.

هذه هي الآيات:

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خَاطبهم الجاهلون قالوا سلاما(٦٣) والذين يبيتون لربهم سجَّداً وقياما(٦٤) والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما(٦٥) إنها ساءت مستقراً ومقاما(٦٦) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما(٦٧) والذين لا يدعون مع الله إلّها آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعلِ ذلك يلق أثاما(٦٨) يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا(٦٩) إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما(٧٠) ومن تاب وعمل صالحاً فإنَّه يتوب إلى الله متابا(٧١) والذين لا يشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو مروا كراما(٧٢) والذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمّاً وعميانا(٧٣) والذين يقولون ربَّنا هَبْ لنَا مِنْ أزواجنا وذرِّياتنا قُرَّةَ أعْيُنٍ واجعلنا للمتقين إماما(٧٤)﴾ (الفرقان: ٢٥/ من ٦٣ ـ ٧٤).

فهل يقبل من أي قارىء لها أو مستمع إليها أن ينصرف بها إلى دين دون دين؟ أو طائفة دون طائفة؟ أليست هي الصفات التسع التي إذا ما توفرت في شخص أو جماعة كان أفرادها هم عباد الرحمن الذين يسألون الله أن يجعلهم للمتقين إماما؟ آملين ألا يُلمس في طلبهم شيء من الغُرور أو المبالغة أو التعالي. فالرئاسة في الدين والإمامة في التقوى من الأمور التي يُرغَبُ فيها وتُطلب، وفي النبي إبراهيم الخليل عليه السلام أسوةٌ وقدوةٌ عندما طلب من الله قائلاً: **﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾** (٢٦/ ٨٤: الشعراء).

= بالعرب الذين قبلوا الدعوة. (الفكرة الأولى من تاسعاً).

أما قول المؤلف: «إن قيام الليل للسجود وتلاوة الآيات هي عادة «رهبانية» لا يهودية ولا عربية ولا قرآنية، إنما نزلت في القرآن «نافلة» مخصوصة بالنَّبي وحده(الإسراء: ٧٩/١٧) ص ١٠٣ ـ من المؤلف.

فإنه قول غريب. ومصدر الغرابة فيه ذلك التغافل الذي بلغ حدَّ التعامي عن القرآن الذي تضمن العديد من الآيات في وصف الساجدين آناء الليل، القائمين إلى الصلاة. الذين يتلون آيات الله بلا انقطاع. وجميعها تحدثت عن رجال مسلمين صالحين وليس عن رهبان لا وجود لهم في الفضاء الإسلامي.

﴿أمَّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنمَّا يتذكر أولوا الألباب﴾ (٩/٣٩: الزمر).

يقول ابن كثير في تفسيرها: «القانت هو المطيع لله عز وجل وآناء الليل أوَّله وأوْسَطُه وآخِرُه، ويحذَرُ الآخرة أي هو خائفٌ راجٍ مدى الحياة».

وقيل: إن عثمان (ر) كان كثير الصلاة والقراءة بالليل حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة واحدة. حتى قال فيه الشاعر: يقطِّع الليل تسبيحاً وقرآناً».

﴿ومن الليل فسبِّحه وأدبار السجود﴾ (٥٠/ ٤٠: ق).

﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ (٣/ ١١٣: آل عمران).

وقد نزلت فيمن أسلم وحسن إسلامه من أحبار أهل الكتاب (اليهود) مثل «عبد الله بن سلام» و «أسد بن عبيد» و «ثعلبة بن شعبة» وغيرهم.

أما الآية ٧٩/١٧ من سورة الإسراء. التي وجد المؤلف فيها أن شخص النبي وحده يمكن أن يعد في منزلة «رهبان أهل الانجيل» لأن قيام الليل الذي هو من فرائض التعبد عندهم لم يكتب على سواهم. غير محمد (المؤلف ص ١٠٣).

فإن لنا على فهم المؤلف لهذه الآية اعتراضاً ومعارضة هي كالآتي:

﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إنّ قرآن الفجر كان

مشهودا(٧٨) ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا(٧٩)﴾ (الإسراء).

فمن الواضح أن المخاطب هو النبي. ولكن من الواضح أيضاً أن إقامة الصلاة وقراءة القرآن فجراً وتهجداً في الليل، من ممارسات العبادة التي يتقرب بها كل مسلم، أما كلمة «لك» فلا تنصرف إلى أن تلك الممارسات مكتوبة على النبي وساقطة عن المسلمين لأن الصلاة والقراءة في القرآن فجراً وتهجد الليل وردت دون تخصيص ولأن التهجد المشار به إلى النبي وصف أنه نافلة بالنسبة إليه، وليس نافلة بالنسبة إلى سواه. والفرق بين الحكمين توضحه الشريعة وهو أنه عليه الصلاة والسلام مغفور له ما تقدم مِن ذنبه وما تأخر، أما غيره فإنما يكفِّر بالنوافل عن الذنوب التي عليه[1].

ويضيف الإمام الرازي على ابن كثير: «كل طاعة غير المكتوبة يأتي بها النبي لا يكون لها تأثير في الذنوب لأنها مغفورة له بل في زيادة الدرجات وكثرة الثواب بخلاف الأمة، فإن لهم ذنوبا محتاجة إلى الكفارات. «فنافلة لك» في الآية تعني أنها زوائد ونوافل في حق النبي لا في حق غيره»[2].

* * *

عاشراً: جهاد القرآن كله هو في سبيل المسيح:

لا نصفه، ولا ثلثه، ولا بعضه، بل كله.

كل الجهاد العقائدي والتشريعي والأخلاقي والسياسي في القرآن لم يكن من أجل نَشْرِ دينٍ خاص ولا في سبيل دعوةٍ جديدة. بل كان من أجل المسيح وفي سبيل دعوته.

قال المؤلف هذا القول ثم مدَّ نصف ذراعه ليختطف آيات من القرآن، عبث

---

(١) ابن كثير.
(٢) الإمام الرازي.

فيها اقتطاعاً وقراءة وفهماً. فكان لديه هذا المفهوم العجيب وهذه الرؤية المسطحة لأعظم كتاب رآه البشر.

ـ كان المؤلف في (البحث الثاني من الفصل الرابع) تحت عنوان (هدف الدعوة القرآنية ثنائي). اعتمد على الآيات ٤٢/١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ من سورة الشورى للدلالة على أن القرآن ينتسب إلى الإنجيل وأهله على وجه الخصوص. وأن ما دعا إليه من دين ليس غير الدين المسيحي والكتاب المسيحي. وكنا تحت عنوان مماثل عارضنا أطروحته وحللنا جملة المعاني التي تنطوي عليها تلك الآيات، فتبين أنها بعيدة جدا عن المعاني التي ألحقها المؤلف بها.

ـ كما كان قد طرح الاعتماد على هذه الآيات ذاتها (في البحث الأول) من (الفصل الثالث) تحت عنوان (أهل الكتاب في القرآن المكي ـ فقرة ـ ٧). فاعترضنا على مقولته ووقفنا عند كلمات الآية (١٥) منها لصراحتها في استقلال الإسلام «كتاباً وديناً ونبيا» حيث أُمِر نبي الإسلام أن يعلن دعوته كما أمر ألا يتبع أهواءهم وأن يعلن عدم الالتقاء معهم إلا عندما يجمعهم الله عنده يوم الفصل والمصير.

ـ ثم انتقل المؤلف إلى قول جديد: هو أن النبي الذي أعلن إيمانه بما أنزل الله من كتاب في الآية ١٥ ـ من الشورى، يقتصر إيمانه على «كل الكتاب المسيحي» كما دلت على ذلك الآية ٣/١١٩ من آل عمران التي قالت: **﴿ها أنتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾**.

فالذي يستوقفنا مع المؤلف منها عبارة «وتؤمنون بالكتاب كله...» كيف فسَّر السابقون وكيف يمكن أن نفسر كلمة «الكتاب كله» بما يوصلنا إلى غاية القرآن؟ لقد فسرها المؤلف تفسيراً انطلق من موروثاته العقائدية والفكرية مستبعداً عن اهتمامه مراجع التفسير وعلوم المناسبة ومراجع اللغة والتاريخ. لذلك جاء تفسيره معبراً عن عواطفه فقط. وجاءت عواطفه من موروثاته العقائدية غير الحيادية دون أن يقيم اعتباراً لحقيقة المقاصد التي رمى إليها الكتاب الإسلامي.

أما نحن فتفسيرنا يظل على صلة واقتراب من المناسبة وعلى علاقة بالفهم الذي تكوّن لدى عرب ذلك الزمان الذين ألقيت على مسامعهم من النبي مباشرة

وعاشوها في الحياة، وكانوا الأقدر والأجدر على فهم الكلمة العربية ومعرفة أبعادها المعنوية.

أولئك فهموا من عبارة «الكتاب كله» جميع الكتب المنزلة التي تعددت الآيات في الحض على الايمان بها، وفهموا من «الايمان والتصديق» أنه الإقرار بإلّهية مرجعها وصدق رسالتها، دون أن يمسَّ شيئاً من قناعتهم بأن ما بقي من تلك الكتب متداولاً بين معتنقيها لا يمثل حقيقة التنزيل بِسَبَب ما خالطه من الوضع وما أصابه من الحذف والرفع.

لذلك جاء القرآن مهيمنا على الكتب، وداعياً إلى الدين الواحد الذي أمر الله به الأنبياء كافة.

* * *

بحث ثالث

انتساب القرآن إلى النصرانية «الأمة الوسط» «بين اليهودية والنصرانية»

هذا البحث الذي استغرق من كتاب المؤلف خمس صفحات، ليس ـ في المحصلة ـ أكثر من تكرار لبعض ما كان قد طرحه من أفكار صيغت بأسلوب مختصر اتخذ طابع الخلاصات التي تعود بالقارىء إلى العناوين الرئيسية التي كانت قد عرضت مع الشرح والتفصيل وفيها يقول المؤلف بأسلوب مسرحي وغير مسؤول:

إن سرَّ القرآن لم يعد خَفِياً، لقد أحيط به من كل جانب وأميط عنه اللثام الكثيف.

عرفنا سره من جهاده الذي كشفته الآيات ٦١/ ١٤: الصف و ٩/ ٣٠ ـ ٣٥ براءة.

وعرفناه من (إسلامه) بالآيات ٢٧/ ٩١ ـ ٧٦ النمل و٢/ ٤١ البقرة و٣/ ١٨ ـ ١٩ آل عمران.

وعرفناه من الأمة الوسط التي دعا إليها بالآيات ٥٨/ ١١: المجادلة و٤/ ١٦١ النساء.

وعرفناه من الدين الذي شرعه بالآيات ٤٢/ ١٣ ـ ١٥ الشورى و٣/ ٢٠ ـ آل عمران.

وعرفناه من الشريعة التي ينتهجها بالآيات ٤/ ٢٥ ـ ٢٧: النساء و٣/ ٨٤ ـ ٨٥ آل عمران.

وعرفناه من إيمانه الذي أمر به بالآيات ٢/ ١٣٦ البقرة و٣/ ٨٤ ـ ٨٥ آل عمران.

وعرفناه من عقيدته في المسيح بالآيات ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١ النساء و ٣/ ٤٥ آل عمران و ٩/ ٣١ براءة.

بعد هذه المعرفة التي أحاطت بالقرآن من كل جانب وتغلغلت إلى أعماق معانيه وأدركت أبعاد أهدافه ـ كما خيِّل للمؤلف ـ أدركته طمأنينة العالم العارف. إلى صحة استنتاجاته واستقراءاته فلخصها بالعبارات التالية:

«وهكذا يثبت لنا بايجاز أن القرآن في أركانه السبعة في عقيدته وشريعته ودينه وإيمانه وإسلامه وأُمَّتِهِ وجهاده هو دعوة «نصرانية».

فالإسلام في القرآن هو النصرانية عينها قام محمد بالدعوة إليها باسم الإسلام مع النصارى أنفسهم بصفة كونه أول المسلمين (الأنعام ـ ١٦٣). أي رئيس النصارى في الحجاز والجزيرة. فقد ﴿**أمرت أن أكون أول المسلمين**﴾ (٢٧/ ٩٠: النمل). و﴿**أمرت لأن أكون أول المسلمين**﴾ (٣٩/ ١٢: الزمر). و﴿**بذلك أمرت وأنا أول المسلمين**﴾ (٦/ ١٦٣: الانعام).

فالإسلام هو النصرانية عينها، تلك الأمة الوسط بين اليهودية والمسيحية بزعامة النبي العربي، ثم ذابت في الإسلام. ﴿**ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين**﴾ (٥/ ٨٦: المائدة). (المؤلف: ص ـ ١٠٦ ـ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩ ـ ١١٠)».

في أقوال المؤلف هذه:

ـ مفاهيم ينبغي ألا تمر بدون عقاب علمي.

ـ وتكرارٌ لأطروحات سبق أن طرحها، يجب التنبيه إليها والدلالة عليها.

والآن: فلنبدأ بالمفاهيم.

بما أنْ المؤلف استخرج مفاهيمه من القرآن بطريقة التفسير المباشر دون الاعتماد على أي مرجع آخر فمن الإنصاف أن يقوم الجدال معه بالإستناد إلى القرآن.

غير أنه ثمَّة أمرٌ لا بد من إيضاحه وهو أن القرآن نزل باللسان العربي في اسمى وأبلغ ما عرفه هذا اللسان في المباني والمعاني، وقد نزل في عصر تميز أبناؤه بالفهم العميق لأسرار وآلية اللغة العربية، كما إنهم تلقوه من صاحب الدعوة وكانوا معه على حضور قرآني دائم. فكان ـ على الدوام ـ وضح ما غمض منه ويشرح ما نزل مجملاً وعاشوا تلك النصوص قراءة وتطبيقاً واختزاناً في الصدور مع صاحب الدعوة مدة تربو على العشرين عاماً. حتى إذا قبضه الله إليه. كانت نصوص القرآن وما قام إلى جانبها من سُنَّة نبوية «قولاً وعملاً» قد ترسخت في العقول رسوخ الجبال.

تلك وقائع من أمهات التاريخ التي لا يقبل المؤرخون فيها جدلاً.

وكونها كذلك يفرض علينا أن نكون على حذر شديد من المبالغة في الادعاء بأننا نفهم أبعاد الحرف القرآني أكثر مما فهموه، وعاشوه، فإذا تعارض فهمنا مع فهمهم وعلمنا مع علمهم في هذا الباب يجب أن نستعيد القراءة والتمعن مرة ومرة ومرة وأكثر قبل أن ننقضَّ على مقولاتهم وننقضها.

وليس في حذرنا هذا دعوة إلى التجمّد ولا مظنّة الببّغاوية ولكنه حق الحقيقة على رُوّادها والعلم على طلابه.

١ ـ الأمة الوسط:

قال المؤلف: إن الإسلام دعوة إلى النصرانية التي أطلق عليها القرآن اسم «الأمة الوسط» أخذاً من عقيدتها التي توسطت بين «اليهودية» التي ظَلمت المسيح و«المسيحية» التي غالت فيه غير أن النزعات الفكرية العقائدية التي نشأت فكانت في موقع متوسط بين «ظلم المسيح» و«الغلو فيه» لم تكن واحدة بل كانت تيَّارات ومدارس فكرية متعددة، وهي في مجموعها الذي أربى على السبعين فئة وطائفة

يجمعها جامع واحد هو أن المسيح ابن الله ولم يعرف عن أيٍّ منها أنه كان يسمى «الأمة الوسط».

كما إن نواحي الخلاف العقائدي فيما بين تلك المدارس وبين الكنيسة المركزية التي كانت تصدر قرارات الحرمان والهرطقة والطرد. تدور كلها حول طبيعة السيد المسيح وفلسفة الوحدانية التي تجمع الأقانيم الثلاثة في الجوهر ومصدر التثليث ومداه وألوهية الأقنومين الثاني والثالث.

وكنا ـ فيما سبق من فصول الكتاب ـ قد تعرضْنا لهذا البحث وطفنا على مراجع التاريخ وبالأخص تاريخ الكنيسة، وقدمنا مقتبساً عن تكُّون هذه الفرق ونقاط الاختلاف الجوهرية، وأشرنا إلى مكان نشوئها وانتشارها ومصيرها.

ونظراً إلى أن المؤلف يستخرج من «الوسط العقائدي» بين اليهودية والمسيحية مفهوماً هو «الأمة الوسط» ويرى أن هذا التعبير ورد في القرآن بذات المدلول. وأن الإسلام تبنى هذا المفهوم فلَبِسَه عقيدة وكتاباً ودعا إليه والتحق به، ومادام المؤلف لا يذهب بعيداً بل يجد دليله في القرآن وبالأخص في التعابير المبثوثة في الآيات التي تكرر فيها مفهوم «الأمة الوسط» فقد بات من حق القارىء أن نناقش أمامه هذا المفهوم القرآني لنرى فيما إذا كان يحمل المعنى الذي ألقاه المؤلف عليه أم لا؟ وسوف يكون نقاشناً من نواحٍ ثلاث: من حيث المدلول اللغوي ومن حيث المدلول القرآني ومن حيث المدلول العقائدي.

ـ فمن حيث المدلول اللغوي:

«الوسط» بتحريك السين هو اسم لما بين طرفي الشيء وقد يأتي صفة من جهة أن أوسط الشيء أفضله. كوسط المرعى خير من طرفيه وكوسط الدابة خير للركوب من طرفيها، ومنه الحديث الشريف خيار الأمور أوساطها، ومنه قوله تعالى: **﴿ومن النَّاس من يعبد الله على حَرْفٍ﴾** أي على شك فهو على طرفٍ من دينه غير متمكن منه ولا متوسط فيه (الحج: ٢٢/١١).

أما إذا كانت سين «الوسط» ساكنة فهو ظرف مثل: جلست وسطكم على وزن مثيله «بَيْنَ» ومنه قول سوَّار بن المضرِّب:

إنـي كـأنـي أرى مـن لا حيـاء بـه ولا أمانة ـ وسْط الناس ـ عُريانا

وفي الصحاح: واسطة القلادة هي «الجوهرة» في وسطها وهي أجودها.

وقال علي: خير الناس هذا النمَّط الأوسط يلحق بهم التالي ويرجع إليهم الغالي.

وقال ابن الأثير في هذا الحديث: كل خصلة محمودة لها طرفان مذمومان: فالسخاء وسط بين البخل والتبذير والشجاعة وسط بين الجبن والتهور. وأبعد الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما وهو غاية البعد عنهما، والفرق بين الوَسَطِ والوَسْطِ هو: إنه ما كان يبين جزء من جزء فهو الوَسْط، وما كان مُصْمَتاً لا يبين جزء من جزء فهو وَسَطٌ.

«اقتباس عن لسان العرب»

ـ أما من المدلول القرآني:

ورد تعبير «الأمة الوسط» كطريقة للمدح: **﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على النَّاس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾** (١٤٣/٢: البقرة). لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى وصفاً يجعله علَّةً وسبباً ثم يعطف عليه الرسول تكليفاً له إلا إذا كان الوصف مدحاً. والعلة هنا هي «شهادتهم على الناس» و«شهادة الرسول عليهم» وبما أن هذا المدح ورد في القرآن فإنه يحمل المعنى الديني وبالتالي يكون تعبير «الأمة الوسط» في القرآن من باب المدح الديني لهذه الأمة.

والحكمة هنا: هي أنَّ الله جعلهم أمة وسطاً لكي يكرمهم بأن يكونوا شهداء على الناس وقد نزلت هذه الآية مع آيات القبلة التي نبَّهت إلى ما سوف يقوله السفهاء وتحدثت عن طمأنة الله للمسلمين:

﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم(١٤٢). وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلاَّ على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم(١٤٣) قد

نرى تقلب وجهك في السماء فلنولّيَنّكَ قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون(١٤٤) ولئن أتيت الذين أواتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابعٍ قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتّبَعْتَ أهواءهم من بعدما جاءك من العلمِ إنك إذاً لمن الظالمين(١٤٥)﴾.

ـ فالوسط هو الخيار والأجود.

ـ والقبلة التي ولأها الله إلى النبي هي الكعبة «قبلة إبراهيم» وبيته.

ـ والمقصود «بالذين أوتوا الكتاب» اليهود والنصّارى عامة. إذ كل منهم كان وما يزال يتبع قبلة خَاصة غير «قبلة الكعبة» فتخصيص المسلمين بالكعبة ووصفهم بالأمة الوسط دليل قرآني صريح على أن هذا الوصف لا ينصرف عنهم إلى سواهم.

وفي تعليل منحهم هذا اللقب: قال القرآن: لكي يكونوا شهداء على الناس حيث انيطت بهم هذه المهمة يوم القيامة فذلك يعني أن ما خصهم به الله من دين هو خير الأديان وأقومها وأكملها وأوضحها، وقد تكررت الآيات التي تحمل طابع التمييز والتفصيل: مثل: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس....﴾ (٢٢/٧٨: الحج).

وعن النبي (ص) قال: «أنا وأمتي على كُوْم، يوم القيامة، مشرفين على الخلائق ما من النّاس أحدٌ إلا ودَّ أنه منا، وما من نبيٍّ كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل»(١).

ـ أما في المدلول العقائدي:

إن كانت النصرانية تمثل وجهة نظر عقائدية وسطى بين اليهودية والمسيحية أي إن كانت ذات استقلال عقائدي استطاع أن يزدرد الإسلام ويحتويه، فقد وجب أن يكون عندها فروض وحدود وعبادات وطقوس وتشريع، يختلف ويستقل ويميز بما

(١) ورد الحديث في تفسير الرازي وتفسير ابن كثير نقلا عن مراجع الحديث.

يمكنه من مهمة احتواء الاسلام واستيعابه ولكن لم يقم شيء من هذا.

والمؤلف لم يجد بين يديه أي مأثور في الدين أو العلوم أو المعارف أو فلسفة البعث والنشور أو الجنة والنار يمكن أن يُنسب نسبةً خاصة إلى هذا «الوسط النصراني». وما ذلك إلا لأن تاريخ الجدال الكنسي الذي لم ينقطع طوال العشرين قرنا. خلا نهائياً من كيان وسط بين اليهودية والمسيحية أي كيان مستقل بعقيدته وفكره وفلسفته وطقوسه.(١).

في حين أن الإسلام بقرآنه وسنته دين مستقل متكامل مهيمن على اليهودية والمسيحية بما أتى به من علوم ومناهج وشرائع وشعائر. بالإضافة إلى أهدافه البعيدة وهي إحياء الدين الإبراهيمي الذي جاء به الأنبياء على التوالي والذي كان ـ عند مجيء الإسلام ـ قد تشوه وتهافت وغابت صورته الحقيقية عن مدارك الناس.

إن إلحاق الإسلام بالنصرانية واعتباره تحركاً بشرياً قام به محمد دون وحي أو تكليف سماوي فضلاً عن إنه مجرد عن أي دليل من التاريخ وكتب الأديان والأحافير فيه ظلم واستهتار وهدر لثوابت الفكر والعقيدة والعلوم لدى مليار من النَّاس. وفوق ذلك يقف هذا الطرح اللامسؤول جداراً من الفولاذ ضد «فكرة الحوار الإسلامي المسيحي» الذي يزعم المؤلف أنه يدعو إليه، لأ نه إن لم يكن الإسلام دينا ولم يكن القرآن كتابا منزلاً ولم يكن محمد نبيا، فكيف يقوم الحوار؟ وبين من ومن؟ وهل يعقل أن يقوم حوار بهدف الإتحاد والتلاقي بين دين سماوي (هو المسيحية) وبين حركة «سطو بشرية مدَّعية»؟ هي حركة النبي محمد ـ كما يقول المؤلف ـ؟! وإن كانت جميع مقدسات المسلمين وعقائدهم تعريباً عن الكتاب «المسيحي» وحَذْواً له؟ فلماذا يبذل المؤلف تلك الجهود المضنية ويضع ذلك الجم الغفير من الكتب في ما سماه محاورة بين القرآن والإنجيل ومحاولة إيجاد القواسم المشتركة بينهما؟!.

يقيناً:

إن المؤلف لم يتجشم هذا الصعب إلا في غفلةٍ عن العدالة والصواب.

---

(١) ولقد مرَّ معنا أن أكثر الخلافات، كانت تدور حول طبيعة المسيح.

٢ - إن محمداً هو رئيس النصارى في الحجاز والجزيرة وذلك بمدلول الآيات:

(٦/ ١٦٣ : الأنعام) و٢٧/ ٩٠ : النمل و٢٩/ ٣٢: الزمر. . . هذا ما يقوله المؤلف.

ولكن كيف صار الإسلام هو النصرانية؟ والاسلام هو ملة إبراهيم ومن جاء بعده من الأنبياء. والآية ١٦٣ مع الآيتين السابقتين من سورة الأنعام أوضحت هذه الحقيقة بما ينفي الجهالة. ﴿**قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم. دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين**(١٦١) **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين** (١٦٢) **لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** (١٦٣)﴾.

- فالإسلام الذي هُدِي إليه محمد ليس دين النصرانية ولكن ملة إبراهيم.

- وإبراهيم كان حنيفاً موحداً وما كان ممن يشرك بالله أو يؤمن بأنه اتخذ زوجة أو ولداً.

- وأول المسلمين تعني في هذه الآية من الأمة.

- فنوحٌ قال من قبل: ﴿**فإن تولَّيتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون أول المسلمين**﴾ (١٠/ ٧٢ : يونس).

- ويوسف قال: ﴿**أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين**﴾ (١٢/ ١١٠ : يوسف).

وموسى قال: ﴿**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**﴾ (١٠/ ٨٤: يونس).

وعن التوراة قال الله في القرآن: ﴿**إنا أنزلنا التوراة فيها هُدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا. . .**﴾(٥/ ٤٤ : المائدة). هذا هو الإسلام كما وصفه القرآن:

- الذي كان النبي محمد أول واحد فيه.

- والذي أمر أن يكون منه.

- وأن يدعو إليه جميع الناس بمن فيهم «أهل الكتاب - يهوداً ونصارى».

فأين هذه الحقائق القرآنية من أقوال المؤلف ورئاسة النصرانية في الحجاز. لا قرَّت أعين المفْترين.

أما ما سبق طرحه وجاء مكرراً في هذا البحث:

فهو ما سماه المؤلف أركاناً سبعة في القرآن هي العقيدة والشريعة والدين والإيمان والإسلام والأمة والجهاد فقد سبق تفصيل القول في الأخطاء التي انحدر إليها المؤلف فيما كان يحرِّف الآيات ويعبث في غاياتها ويستخرج منها معاني وأحكاماً لا تمت إليها بصلة.

نكتفي بالإحالة إلى الأبحاث السابقة ضناً بوقت القارىء ودَرءاً من الملل.

محطّة استراحة وفك ارتباط

مقدمة:

بعد هذا الجدال الذي سار على مدى مئة صحيفةٍ ونيّف، من صحائف الكتاب، وخاض في أربعةٍ وثمانين موضوعا من مواضيعه. وجدت من المفيد أن أضع ملحقاً تابعاً لما سبق من فصول يتضمن الأجوبة الواضحة على الأسئلة الاستفزازية التي ما فتئت تندلع اندلاع الحرائق في كل فصلٍ وبحثٍ وموضوعٍ فلا تكاد تنجو منها صحيفةٌ واحدةٌ من صحائف الكتاب.

الكاتب الأستاذ الحداد:

يعاني مع القرآن إحدى أشدِّ حالات «البَهْت» فهو كما قال تعالى: ﴿فبُهِت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٢/٢٥٨: البقرة)[1] ومردُّ ذلك لديه أنه قرأ فيه آياتٍ تضمنت أحكاماً وأوامِرَ وتشريعات، فقصَّرَتْ إمكانياتُه الذّاتية عن فهم حقيقة مقاصدها وأمسكت به عواطفه عن الاستعانة بمراجع اللغة والتّاريخ والتفسير فبقيت جاثِمَةً فوق صدره تَقُضُّ مضاجع فكره وتدفع به إلى مواقع الانفعال والغلط.

ففي كلِّ بحث وفي كل موضوع يركِّزُ الحداد على تناقض المواقف في القرآن، وذلك فيما يتعلق «بالنصرانية» و«الرهبانية» و«المسيح وأمه» و«التوراة والإنجيل وأهلهما».

ويستعرض هذا التناقض بالأساليب الخصامية العدوانية حينا بصيغة الاستفهام

---

[1]) البهت معناه الانقطاع والتحير والبغتة.

الاستنكاري الذي يكمُن جوابُهُ إلى جانبه. وحينا بصيغة اللوم والتنديد وأحياناً بأسلوب مبهمٍ لا يبتغي غير التضليل.

في القرآن ـ كما يقول ـ ثناءٌ على النصرانية بلغ درجة التقديس وفيه تكفيرٌ لها. فيه ثناءٌ على إيمان الرهبان وطهارتهم وفيه تنديدٌ بهم. فيه تسامٍ بالمسيح ووصفٌ له بأنه كلمة الله الأزلية وفيه أنه عبد من عباد الله، فيه أوامر الإيمانِ بالكتاب وأهله وفيه أنه هيمن على ذلك الكتاب وأصبح هو حجة الإيمان ومحجته، ولكلٍّ من هذه الأقوال وما يناقضها آيات من القرآن، وضع المؤلف، كلا منها في مواجهة نقيضه ثم قام بالتركيب والتحليل كما يشتهي لا كما ينبغي.

وهذه نماذج مما تقدم بها.

١ ـ الآيات ٥/ ٨٢ ـ ٨٥ من سورة المائدة تحدثت عن النصارى بأسلوب بلغ حدَّ القداسة فقالت: **﴿. . . ولتجدنَّ أقربهم مودة لِلَّذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأنّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون(٨٢) وإذا سمعوا ما أُنزِل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممَّا عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين(٨٣) وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين(٨٤) فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين(٨٥)﴾**.

ولكن الآيتين ٥/٥١ ـ ٥٢ من السورة ذاتها تتحدث عن النصارى بأسلوب مختلف تماماً حتى لكأنها تتحدث عن سواهم حين قالت:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين(٥١) فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين(٥٢)﴾[١].

فكيف يمكن التماس الانسجام ووحدة الأحكام في هذه الآيات وهي تتحدث

---

(١) تعني الموالاة، الاستغناء بالتودد إليهم عن سواهم.

عن قوم معينين؟ النصارى في الآيات ٥/ ٨٢ ـ ٨٥ هم أقرب الناس مودة للمسلمين. فخشيتهم من الله ومما يعرفون من الحق فجَّرت دموعهم حتى فاضت بها العيون فجزاهم الله بما قالوا وعرفوا جنات تجري من تحتها الأنهار وكذلك جزاء المحسنين.

ولكن النصارى في وضع مختلف في الآيتين ٥/ ٥١ ـ ٥٢ وفي مقام مختلف.

هنا يؤمر المسلمون بالابتعاد عن موالاتهم أمراً اقترن بالتغليظ والتشديد: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ وذلك على غرار قوله تعالى: ﴿ومن لم يَطعَمْهُ فإنه مني﴾(٢/ ٢٤٩: البقرة). ثم تدرَّج التشديد إلى موقع الحكم الحاسم ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

ثم تابعت الآية (٥٢) على خط الآية (٥١) معيدةً حالة التشديد فقالت: ﴿إن الذين في قلوبهم مرض﴾ أي المنافقين، هم الذين يسارعون في اليهود والنصارى أي يسارعون إلى مودتهم وموالاتهم.

٢ ـ كيف يمكن تفسير ثناء القرآن على «النصارى» في قوله: ﴿ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾(٨٢). وقوله عنهم: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها﴾ (٥٧/ ٢٧: الحديد). وقوله: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾(٩/ ٣١). وقوله: ﴿إن كثيراً من الرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل﴾ (٩/ ٢٤: التوبة).

٣ ـ كيف يمكن تضميد «الخلخلة» و «الاضطراب» في الآيتين ٣/ ٨٤ ـ ٨٥ من آل عمران: ﴿قل آمنا بالله وما أُنزل علينا وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ (٣/ ٨٤). ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾(٣/ ١٩). ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾(٣/ ٨٥).

في الآية ٨٤ يؤمر النبي بإعلان الإيمان بما أنزل على الأنبياء وبما أوتي موسى وعيسى والنبيون دون تفريق بين أحد منهم. ومعلوم أن ما أنزل على موسى هو

التوراة وما أُنزل على عيسى هو الإنجيل وإن ما أوتي كل منهما هو البينات المعجزات.

لذلك لا يمكن أن تنصرف أوامر القرآن إلا إلى كتابي التوراة والانجيل اللذين ينبغي على النبي أن يكون إيمانه بهما في مستوى الايمان ذاته بما أنزل عليه وهو القرآن.

وهذا يعني أن القرآن دعا إلى الإيمان بالدين اليهودي والدين المسيحي لأن الكتابين ـ التوراة والإنجيل ـ هما الدستوران اللذان قامت عليهما الديانتان المذكورتان.

ـ ولكن!! لا تلبث الآية (٨٥) أن تَنْقُضَ الأحكام السَّابقة بنصٍّ قاطع لا يقبل التعديل. ﴿**ومن يبتغِ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾. مؤكدة على تفرد الإسلام بنوال رضى الله وقبوله، ومعيدة ما كانت الآية (١٩) من ذات السورة قد طرحته على شكل «ثابتة أزلية» ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ وكل من يلتمس سواه دينا يكونُ نصيبه الخسران في الآخرة. والخسران في الآخرة. هو الطرد من رحمة الله. موقفان صريحان متناقضان فهل يمكن التماس التوافق والإنسجام بينهما؟. وكيف يستساغ التصور أن التناقض يكتنف أحكام الله في كتابه؟.

٤ ـ والمسلمون الذين وجدوا في القرآن وفي مسيرة الدعوة ما يبرر موقفهم العدائي من اليهود لأنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا (٥/ ٨٢) و﴿**أول كافر به**﴾ أي بالقرآن والنبي (٢/ ٢٤١: البقرة). و«لأنهم حرَّفوا الكلم عن مواضعه» (٤/ ٤٦ و٥/ ١٣ ـ ٤١).

فما هو تبريرهم للموقف من النصارى؟ والمسيحية؟ وهم لم يحرِّفوا ولم ينحرفوا؟ لماذا هذا التكفير؟.

ـ ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح...**﴾ (٥/ ١٧).

ـ ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح...**﴾ (٥/ ٧٢).

ـ ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة...**﴾ (٥/ ٧٣).

٥ ـ والمسلمون في جميع ديار الإسلام يعتقدون بأن كتابي التوراة والإنجيل

بَشَّرا بالنبي محمد ووضعا لأبناء البشر علامات ظهوره، وهو اعتقادٌ راسخٌ في العقيدة الإسلامية، تحدثت عنه آيات القرآن ونوّه به الكتابان السابقان.

فإلى أي مدى يؤمن المسلم بالتوراة والإنجيل المتداولين الآن؟.

وهل ثمة من آيات فيهما يمكن الاستدلال منها على النبي محمد ودعوة الإسلام؟.

* * *

تلك التساؤلات التي ألحّت عليها بحوثُ الأستاذ الحداد. ليس فيما تقدم من الكتاب بل فيما تأخر أيضاً وفيما سبقه وما تلاه من كتب. وقد اقتضته الكثير من الوقت والجهود حتى إذا بوّبها وفصّلها وتزيد فيها على حساب الحقيقة وكساها زينتها من منمنمات الألفاظ أطلقها تسعى بين الناس «سواهي» زاهية المنظر سيئة المخبر مثلها مثل خضراء الدمن[1].

تساؤلات:

يقدمُ هذا الملحق أجوبتها باختصار يتلاءم مع موضوع الكتاب وهي هنا ليست بدعاً من الأجوبة نطلقها دون سابقة من العلماء والمؤرخين، بل هي خلاصات مدعمة بأسانيدها التاريخية واللغوية والكتابية، فإن كان لها من فضل وإيجابية فهي إنها تريح المتسائل من مشقة التنقيب في أمهات الكتب والآثار، وصياغة المتفرقات من الأحكام في قالب واحد نضعه بين يدي القارىء بكل تواضع.

* * *

بحث أول: مقابلة بين الآيات ٨٢ ـ ٨٥ المائدة و٥١ ـ ٥٢ منها:

سوف نقابل في هذا البحث بين:

ـ الآيات ٥/ ٨٢ ـ ٨٥ ـ المائدة.

---

١) قال النبي (ص) احذروا خضراء الدمن قالوا: وما خضراء الدمن قال: الحسناء في منبت السوء.

ـ والآيتين ٥/ ٥١ ـ ٥٢ ـ منها.

لأن ظاهر الألفاظ يثير لدى القارىء تساؤلاً عما إذا كان حكم القرآن في النصَّارى متناقضاً:

ـ ففي الآيات (٨٢ ـ ٨٣ ـ ٨٤ ـ ٨٥) ترتّب للنصارى جزاءُ المحسنين وهو جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار.

ـ وفي الآيتين (٥١ ـ ٥٢) أوامر صارمة في الابتعاد عن موالاتهم أو التقرب منهم وتشديدٌ في ذلك بلغ حدود التغليظ وتوعُّدٌ للذين يتولُّونهم بخسران رحمة الله ورضوانه.

وفي تدبُّر هذا الالتباس: نضع بين يدي القارىء الأفكار الآتية:

١ ـ إن الآيات الخمس من سورة المائدة (٨٢ ـ ٨٥) نزلت في وصف حادثة معينة مع قوم معينين قُرىء القرآن على مسامعهم فغمرهم الخشوع والتأثر حتى بكوا وفاضت عيونهم بالدموع[١].

فالحديث عن تلك المناسبة. ليس حكماً قرآنياً يناله جميع النصارى في جميع الأزمنة والأمكنة بل هو حديثٌ مرتبط بزمانه ومكانه فما كان ليقع ولا يمكن أن يتكرر إلا فيمن يغمرهم الخشوع والإيمان عندما يستمعون إلى القرآن.

في حين أن وصف اليهود في صدر الآية: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا﴾**(٨٢). هو وصف يعتقد المسلمون أنه يتلاءم مع اليهود حتى قيام الساعة.

---

(١) قال ابن عباس نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم أثناء الهجرة الأولى فبكوا حتى اخضلت لحالهم. وروى النسائي ذلك عن عبد الله بن الزبير وعن ابن عباس في قوله: «فاكتبنا مع الشاهدين» أي مع محمد وأمته. وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: **﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليهم خاشعين لله﴾** (٣/ ١٩٩: آل عمران). وهم الذين قال فيهم: **﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنّا كنا من قبله مسلمين﴾** (٢٨/ ٥٣: القصص). (تفسير الرازي وابن كثير).

وما ذلك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس، لهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء وهمُّوا بقتل النبي أكثر من مرة ودسُّوا له السم في الطعام وألبّوا عليه الأحزاب من المشركين. وقد صحَّ عن النبي (ص) قوله: «ما خلا يهودي بمسلم قط إلا همَّ بقتله»[1].

والآية ذاتها:

ـ لم تتعرض للدين والعقيدة.

ـ بل أعلنت عن التفاوت بين اليهود والنَّصارى في تعاملهم مع المسلمين.

فالتفاوت موصوف في اتجاهين:

أولهما: في اختلاف موقفيهما من النبي والإسلام من حيث درجة العداء وشدة المعارضة والعناد.

والثاني: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا. وهذا منشأ الذم في خلقهم، أما النصَّارى فأتقياؤهم معرضون عن الدنيا، مقبلون على العبادة، مبتعدون عن التكبر وطلب الرياسة قَنَاعةً منهم، وإيماناً بقول عيسى «اتركوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . مجاناً أخذتم مجانا أعطوا» لذلك كانت فيهم سهولة الانقياد إلى الحق ولذلك آمن بالإسلام عدد كبير منهم.

وقد أُثِر عمّن صدقوا في عقيدتهم، أنهم لم يكونوا يقابلون الإساءة بمثلها عملاً بقول المسيح: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن سخرك ميلا فامشِ معه ميلين.

هذا مع أن الكفر عند اليهود والنصارى ـ حسب ما جاء في القرآن ـ مختلفٌ في النوع: فاليهود ينازعون في النبوات دون التوحيد[2]. (نبوة عيسى ومحمد). والنصَّارى ينازعون في الإلّهيات (التوحيد) وفي النبوات (نبوة محمد). ولكن

---

(١) رواه الحافظ بن مردويه.

(٢) اليهود يؤمنون بوحدانية الخالق. ولكنهم ينسبون إليه تخصيصهم بالانتساب إليه دون سائر الخلق.

حرص اليهود على الدنيا هو الذي سبب طردهم وتخصيصهم بالمزيد من اللعن في القرآن. ففي الحديث الشريف مثلما في القرآن «حب الدنيا رأس كل خطيئة» (حديث شريف).

٢ ـ أما الآيتان ٥/ ٥١ ـ ٥٢ من المائدة، فإنهما تضعان قاعدة من قواعد العقيدة هي قاعدة المودَّة والموالاة. فبعد أن جاء التحذير القرآني قاطعاً مانعاً في الآيتين المذكورتين من موالاة اليهود والنصَّارى، وصف من يسارعون من المؤمنين إلى موالاتهم بأنهم **﴿حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾** (٥٣). ثم وضع قاعدة الموالاة في الإسلام بالآيتين ٥/ ٥٥ ـ ٥٦:

﴿إنما وليكم الله ورسوله والَّذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون(٥٥) ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون(٥٦)﴾.

ووجه العموم التشريعي في الآيات ٥١ ـ ٥٥ يتمثل في اتجاهين:

ـ **الأول**: إن الموالاة محظورة مع اليهود والنصَّارى.

ـ **الثاني**: إنها على سبيل الحصر والقصر مع الله ورسوله والذين آمنوا.

فالموالاة لله ورسوله دون قيد.

أما موالاة الذين آمنوا فقد جاءت على التخصيص، إذ وصفتهم الآية بأنهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. وهذا يعني أنهم ليسوا جميع الذين آمنوا بل فئة منهم وهي التي تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة في أي وقت لا يحول بينها وبين إيتائها حائل، ولا تمنع منها حتى الصلاة. بل حتى حالة الركوع فيها عندما يكون المؤمن في أقصى حالات الخضوع إلى الله والقرب منه.

وقد أجمع المفسرون على أن هذا الوصف نزل لأول مرة في علي بن أبي طالب وفقاً لما رواه أبو ذرّ الغفاري(ر) قال: صليت مع رسول الله (ص) صلاة الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد شيئاً وعلي عليه السلام راكع فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان فيها خاتم فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى من النبي فقال: «اللهم إن أخي موسى سألك: **﴿رب اشرح لي صدري﴾** (طه: ٢٥) إلى قوله: **﴿وأشركه في أمري﴾** (طه: ٣٢). فأنزلت قرآنا ناطقا: **﴿سنشد عضدك**

باخيك ونجعل لكما سلطانا﴾ (القصص: ٣٥) اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل وزيراً من أهلي عليا اشدد به ظهري. قال أبو ذر فوالله ما أتم رسول الله هذه الكلمة حتى نزل جبريل فقال: إقرأ يا محمد: إنمّا وليّكم الله ورسوله[١].

لذلك: وبما أن إيمان بعض النصارى وشدة خشوعهم. ونوالهم على ما قالوا جزاء المحسنين لا يغيِّر من وضع البقية الأكثرية منهم التي نازعت في التوحيد ونازعت في النبوة فاستحقت التحذير من موالاتها والتردد إليها والاستغناء بها مثلما استحق اليهود فإن هذه الآيات لا تنطوي على مواقف متناقضة وأحكام متعارضة[٢].

بحث ثان: مقابلة بين الثناء على النصارى وتكفيرهم:

نقابل في هذا البحث بين: ثناء القرآن على النصارى ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون (٥/ ٨٢) والتنديد بهم بالآيات: (٥٧/ ٢٧ و٩/ ٣١ و٩/ ٤١).

لقد كنا قدمنا نبذة تاريخية عن الرهبنة والرهبان وعلى ضوئها استعدنا قراءة هذه الآيات وتفسيرها وبينا وجه المنطق الشرعي فيها جميعا.

وذلك في البحث الثاني من الفصل الرابع تحت عنوان: «ثانيا ـ لا توحيد ولا إسلام بدون المسيح والإنجيل ـ فقرة أ ـ التوحيد المنَّزل قمته المسيح والإنجيل ـ فيرجى العودة إليها.

بحث ثالث: الخلخلة والتناقض بين الآيات ٨٤ و١٩ و٨٥ من آل عمران:

قال المؤلف: وتلك الخلخلة في الأحكام التي اجتاحت آيتين متتاليتين من سورة آل عمران، كيف يمكن رأب تصدعها وتضميد جراحها؟.

ـ إن الآية ٣/ ٨٤ أمرت النبي بأن يعلن إلى الناس أن إيمانه بالله وبما أنزل عليه لا يزيد غلى إيمانه بما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط

---

(١) تفسير الإمام الرازي وابن كثير والجلالين.
(٢) يرجى العودة إلى موضوع الاقحام في سورة المائدة عنوان الآية (٥٤).

وما أوتي موسى وعيسى والنبيون. . . إيمان على مستوى واحد دون تفريق. ولكن القرآن لا يلبث أن ينقض هذا الموقف العقائدي في مكان آخر من السورة. وفي الآية التالية.

ففي الآية ٣/ ١٩ قال بصريح العبارة وبشكل قاطع: **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** (١٩).

وفي الآية ٣/ ٨٥ قال تتمة وتكملة وتوضيحاً: **﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**.

لقد مرَّ معنا في أكثر من مكان أن الإسلام ينظر إلى مفهوم الدين نظرة موَّحدة بين جميع الدعوات التي دعا إليها الرسل والأنبياء، وهو: توحيد الله وتنزيهه عن الشريك والزوجة والولد وعن الحد والعدد والتماثل وأنه فاطر السماوات والأرض وما بينهما ومن فيهن، وأن الموت حق والبعث والنشور حق والجنة والنَّار حق.

هذا هو الدين الذي أمر الأنبياء بإبلاغه إلى النَّاس ودعوتهم إليه:

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلّها واحداً﴾ (٩/ ٣١: التوبة).

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (٩٨/ ٥: البينة).

ولقد أطلق عليه اسم «الإسلام» على لسان جميع الأنبياء تعبيراً منهم عن التسليم إلى الله أُسوة بأبي الإسلام إبراهيم الخليل.

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾(٤/ ١٢٥: النساء).

﴿إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (٢/ ١٣٢: البقرة).

﴿قالوا نعبد إلّهك وإلّه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلّهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ (٢/ ١٣٣: البقرة).

ـ وعند مجيء الإسلام كانت الصورة الحقيقية للدين ترزح تحت ركام من التحريف والتشويه والرفع والوَضْع في كتب الله المنزلة على أنبيائه حتى أوشكت ملامحها الأساسية أن تمحى:

ـ فالوثنية لها انتشار واتساع يعبدون بها ما لا يضر ولا ينفع.

ـ واليهودية حجّمت عدالة الله، وحجبتها عن خلقه، وصادرتها لنفسها وأنكرت يوم المعاد.

ـ والمسيحية واجهت وحدانية الله بفلسفة وثنية مصرية سَّربت إليها مبادىء التثليث، محرفة دعوة المسيح إلى عبادة الله وحده.

لذلك تركزت الدعوة الإسلامية على رفض مزاعم الاختلاف بين أهداف الأنبياء ومهمَّاتهم الإلّهية والعودة بالناس كل الناس إلى الإسلام الذي اصطفاه الله لإبراهيم وذريته من بعده والبشر أجمعين، وعلى هذا الأساس الفلسفي العقائدي يقوم إيمان المسلم وفهمه «للإسلام».

وبالاستناد إليه آمن المسلم بما أنزل على النبيين وما أوتوه من ربهم دون تفريق.

فذلك ـ في عقيدة الإسلام ـ هو دين التوحيد الحق الذي جاء به جميع الأنبياء ودعت إليه جميع كتب السماء. وهو الدين الذي لا دين سواه عند الله، وكل من يخالفه أو يعارضه يكون في الآخرة من الخاسرين. وبهذا الفهم وهذا الاعتقاد يقرأ المسلم آيتي سورة آل عمران (٨٤ ـ ٨٥) فيؤمن بهما كليهما دون شعور بالضيق أو الحرج ودون أن يلمس فيهما تلك الجراح التي عجِزَ المؤلف عن تضميدها.

* * *

بحث رابع: أنواع الكفر وتحليل معانيه:

والآن!!؟.

إذا كان اليهود قد حرفوا التوراة. وانحرفوا في مسيرة الدين، وكانوا أشدَّ النَّاس عَدَاوةً وإيذاءً للإسلام والنبي، وظلُّوا ينقضون معه المواثيق ويؤلبون عليه الأحزاب من القبائل، ويشعلون ضده الحروب، ويبذلون المحاولات لاغتياله بالسم وبغيره فاستحقُّوا منه عقاب الطرد والتهجير واستحقوا من الله اللعن والتكفير.

فما بال النصارى؟ وهم لم يحرفوا ولم ينحرفوا، ولم ينقضوا ميثاقاً ولا ألبوا

أحزاباً ولا أشعلوا حربا ولا حاولوا اغتيالا، ومنهم القسّيسون والرهبان وأنهم لا يستكبرون؟.

لماذا اقترن اسمهم مع اليهود، في الكثير من آيات التحذير؟ ولماذا تكرر تكفيرهم في سورة واحدة بثلاث آيات، منها اثنتان متتاليتان (٥/١٧ و٥/٧٢ ـ ٧٣)؟.

يقول المؤلف: «إن أخذ النصارى مع اليهود بمعيار واحد ـ على ما بينهما من الفروق الجوهرية ـ يرجح لدى المنصفين من الدّارسين أن اسم النصارى قد أقحم على تلك الآيات القرآنية استجابة لعواطف الفاتحين دون أن يكون له أصل في التنزيل وإلا وقع القرآن في عيب التناقض واختلال ميزان العدل. وهو منزه عن هذه العيوب».

وفي العودة بالمؤلف إلى جادة الصواب: نقول:

ـ كان ألمؤلف في الفصول السابقة قد طرح موضوع الإقحام ودل عليه في سورة البقرة وآل عمران والمائدة وعاد بأسبابه إلى السياسة التي سايرت عواطف الفاتحين عند جمع القرآن، فأقحم اسم النصارى في آيات التكفير والموالاة إلى جانب اليهود وعلى مستوى مماثل من التكفير والجفوة والجفاء. في حين أن ذلك لم يكن له أصل في التنزيل.

وقد ناقشنا أقوال المؤلف نقاشاً مطوّلاً وشرحنا الآيات شرحاً مفصّلاً مسنداً إلى مراجع اللغة والتفسير والتاريخ وذلك في الفقرات «أولاً» و«ثانياً» و«ثالثاً» من البحث الثالث من الفصل الثاني. مما يسمح لنا بطلب العودة إليها بدلاً من التكرار فيها.

ـ أما لماذا صار تكفير النصارى في القرآن على قدم المساواة مع اليهود؟.

فذلك جوابه ودليله كالآتي:

«الكفر» هو صفةٌ يُعَرّفُ بها نوعٌ معيَّن من الأقوال والأعمال التي إذا ماصدرت عن شخص صيغ له من مصدر فعل «كَفَرَ» اسم فاعل «كافر» وإذا صدرت عن فئة اشتق لها اسم «بصيغةٍ» تسايرها في التركيب «كافرون» و«كافرة» و«كفرة» و«كفار».

«والكفر» هو نقيض الإيمان، لذلك يقال لأهل «دار الحرب»: إنهم قوم قد كفروا أي عصوا وامتنعوا.

«والكفر» هو الجحود أيضاً. فالكفر بنعمة الله هو الجاحد لها.

«والكفر» على أربعة وجوه:

«كفر إنكار، وهو الذي لا يَعْرِفُ صاحبُهُ الله ولا يعترف به».

و«كفر جحود، وهو المعرفة بالقلب والنكران باللسان».

و«كفر معاندة، وهو معرفة الله بالقلب والإقرار باللسان ولكنه لايدين حسداً وبغياً».

«وكفر نفاق، وهو الكفر باللسان وعدم الإقرار بالقلب».

كما ورد عن سعيد بن جبير تعريفٌ للكفر، بعث به جوابا لسؤال وجهه عبد الملك بن مروان قال فيه: «الكفر على وجوه، فكفر شرك، وهو أن يتخذ مع الله إلَهاً آخر، وكفرٌ بكتاب الله ورسوله، وكفرٌ بادعاءِ ولدِ وزوجةٍ لله».

وأصل الكفر هو تغطية الشيء تغطية تستهلكه فيقال للكافر كافراً لأن الكفر غطّى قلبه كله. والزرّاع الذي يستر الحب بالتراب يطلق عليه اسم كافر كقوله تعالى: ﴿**كمثل غيث أعجب الكفار نباته...**﴾ أي أعجب الزّراع. والكفّارة ما كُفِّرَ به من صدقةٍ أو صومٍ أو نحْوَ ذلك.

ففي حديث قضاءِ الصلاة: كفَّارتها أن تصليها إذا ذكرتها. فالكفَّارةَ تغطي الخطيئة أي تمحوها. والتكفير لأهل الكتاب أن يطأطىء أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا. والتكفير هو أن يضع يده على صدره كقول جرير يخاطب الأخطل ويذكر ما فعلت قيس بتغلب.

وإذا سمعت بحرب قيس بعدها ... فضعوا السلاح وكفروا تكفيرا[1]

---

(١) عن لسان العرب.

والمتتبِّع لكلمة «كفر» في القرآن يجد أنها استعملت بشتَّى معانيها بما يغطي حاجة النص. ففي الآية ٥/ ١٢ : المائدة:

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله: إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم بِرسلي وعزَّزتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأُكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأُدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾.

فالتكفير ورد في هذه الآية بمعنيين، كل منهما يختلف عن الآخر.

ـ تكفير السيئات عنهم. هنا يعني محوها إذا نَفَّذوا ما فرض الله عليهم من التكاليف.

ـ والكفر بعد محوا السيئات واستحقاق الجنة ـ يعني الجحود بنعم الله.

ـ وفي الآية ٥/ ١٧ ـ من سورة المائدة:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ فالكفر هنا: هو كفر شرك وادعاء.

ـ وفي الآيتين ٥/ ٧٢ ـ ٧٣ من سورة المائدة ورد هذا التعبير ثلاث مرات كل منها بمعنى يختلف عن سواه. ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النَّار وما للظالمين من أنصار(٧٢) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إلَه واحد وإن لم ينتهوأ عما يقولون ليمَّسَّن الذين كفروا منهم عذاب اليم(٧٣)﴾.

ـ فالكفر في بداية الآية (٧٢) هو كفر تغطية وإغفال وإخفاء لحقيقة ما قاله المسيح عن نفسه وما وصَّاهم به.

ـ والكفر في بداية الآية (٧٣) هو كفر شرك، لأنهم جعلوا مع الله الواحد شركاء في الألوهية.

ـ والكفر في خاتمة الآية (٧٣) هو كُفْرٌ عمٌّ الحالتين السابقتين في الآيتين كليهما.

وهكذا: يجب على قارىء القرآن أن يتعمق المعاني والغايات في الآيات والكلمات. وإذ ذاك سوف يكتشف أن القرآن لم يستخدم كلماته إلا في الحدود الدقيقة الشديدة لمعانيها اللغوية بحيث يعبر اللفظ دوماً عن حقيقة المعنى.

ومثلما وجدنا دلالاتٍ عديدة المعاني في كلمة «كفر» ضمن آيات النصارى. فإن القارىء يجد مثل ذلك في الآيات التي ورد فيها «كفر اليهود» حيث يتم استدعاء هذا اللفظ من قبل المعنى الذي تتمحور من حوله الآية ليحتل مكانه فيها دون ضيق أو اتساع أو إفراط أو تفريط أو ترادف أو مجاز. مما ينفي عن القرآن عيوب «التناقض» و«اختلال ميزان العدل» و «تهافت الأفكار».

* * *

بحث خامس:

١ ـ إلى أي مدى يؤمن المسلم بالتوراة والإنجيل؟:

٢ ـ هل يمكن الدلالة على النصوص التي بشرت بالنبي والإسلام في هذين الكتابين؟:

* * *

أولاً: الإيمان بالتوراة والإنجيل:

في القرآن فقط يوجد الجواب الصحيح لأنه الدستور الذي يُعلّم المسلم ويتعلم منه ـ على الدوام ـ قواعد الإيمان بالله والملائكة والأنبياء والكتب المنزلة. ففي المفهوم الإسلامي: إن القرآن هو الحق المطلق فما وافقه فهو حق وما خالفه فهو باطل لأن الله نزله وتعهد بحفظه حتى قيام الساعة، مُعْجِزاً مُبايِناً لكلام البشر. فقال: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (١٥/٩: الحجر).

لذلك عجز الناس عن الإضافة إليه أو النقصان منه. ولو استطاعوا وفعلوا

لتغيَّر نظْمُه وَبَانَ ذلك لكل ذي عقل. وبهذا كان ـ ومايزال ـ كينونة مُعجِزة.

ويقول الرازي في تفسير هذه الآية: «واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف. والتغيير إمَّا في الكثير منه أو في القليل. وبقاءُ هذا الكتاب مصوناً عن جميع جهات التحريف هو أعظم المعجزات مع أن الدواعي لدى الملحدة والكفار متوافرة على إبطاله وإفساده.

لهذا: سوف نتحاور مع المسلمين من كتاب المسلمين. ومنه سوف نجيب على ما يلي:

ـ ما هو المقصود بالإيمان؟.

ـ أين يضع القرآن نفسه بالنسبة إلى ما قبله من الكتب؟.

أ ـ ما هو المقصود بالإيمان:

«الإيمان» هو الإعتقاد أي التصديق بالقلب والضمير وقد اشتق من الأمانة لأن الله تعالى تولى علم السرائر وجعل التصديق أمانة ائتمن عليها الإنسان فمن صدَّق بقلبه ما أظهر بلسانه فقد أدى الأمانة.

والإيمان، يختلف عن الإسلام في المعنى.

فالإسلام اشتق من التسليم والاستسلام أي الانقياد والخضوع. ولكنه عندما يدخل في الدلالات الشرعية يعبِّر به عن الخضوع لأحكام الشريعة والالتزام بما أمر به النبي، فإن كان مجَّرداً عن الإيمان فغايته حقن الدم ودفع المكروه. وإن اتحد معه عبَّرا عن ذاتٍ عقائدية كاملة هي الذات الإسلامية المقبولة عند الله. ﴿**إن الدين عند الله الإسلام...**﴾ (١٩/٣) ﴿**... ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين..**﴾ (٣/ ٨٥).

وبهذا المعيار نتعرف إلى مقاصد الآية (١٤/٤٩: الحجرات): ﴿**قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم**﴾ فقد تحدد الفرق بكل وضوح بين الإيمان والإسلام.

وعندما نقرأ الآيتين ١٩/٣ و ١٤/٤٩ ونقابل بينهما على ضوء ما تقدم:

ـ ﴿إن الدين عند الله الإسلام. . . ﴾(٣/ ١٩).

ـ ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا. . . ﴾ (٤٩/ ١٤).

نجد أن المقصود بتعبير «الإسلام» في الآية ١٩/٣ هو المقصود الشرعي الكامل الذي يتحد فيه الإسلام مع الإيمان فيعبر اللسان عن مكنونات القلب والضمير.

في حين أنه في الآية ٤٩/ ١٤ ورد بمعناه اللغوي الذي هو الاستسلام واتِّباع الشريعة في الظاهر لتوقِّي المكروه وحقن الدم.

وبغير هذا الفهم للفروق بين التعبيرين لا نستطيع إيجاد الانسجام وعدم التعارض بين الآيتين.

ب ـ أين يضع الكتاب الإسلامي نفسه بالنسبة إلى بقية الكتب؟!؟:

لقد وضعت الآيتان ٥/ ٤٨ ـ ٤٩ من سورة المائدة جواباً صريحاً على هذا التساؤل بقولهما:

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون(٤٨) وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك. . . (٤٩)﴾.

ـ فالخطاب الإلَهي موجه إلى النبي، والكتاب الذي أنزله الله إليه هو «القرآن» وقد نزل بالحق أي بالصدق لا ريب فيه.

ـ وهو مصدق للكتب المتقدمة أي التي سبقت وهي (الصحف، والزبور، والتوراة، والإنجيل).

ـ وهو في الوقت ذاته «مهيمن» على تلك الكتب. أي حاكم على كل كتاب قبله لأنه آخر الكتب وخاتمتها، وأشملها، وأكملها، وقد جمع الله فيه محاسن ما

قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره.

ـ وهو مرجع الحكم الذي أمر النبي أن يحكم بينهم بموجب أحكامه، دون الالتفات إلى تعارض ذلك مع أهواء أهل الكتب السابقة التي اصطلحوا عليها وتركوا ما أمر به الله وحرَّفوه.

ـ وشريعة القرآن هي الواجبة الاتباع. لأنها ناسخة لما قبلها من الشرائع التي نزلت مراعية ظروف الزمان والمكان وتطور الإنسان، فلِكلٍّ من الأنبياء والرسل جعل الله له منهاجاً يتقبله أبناء عصره: **﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾** هذا هو موضع القرآن بالنسبة إلى الكتب التي أنزلت قبله. وكونه حاكماً وشهيداً ومهيمناً عليها لا يلغي تصديقه لها أي إقراره بمصدرها الإلهي. وأن كلاًّ منها كان في حينه مرجع الهداية والتشريع وظل كذلك حتى نسخه ما جاء بعده من كتاب تلبية لحاجات قانون التطور الذي فطر عليه الإنسان.

﴿آلم(١) الله لا إلَه إلا هو الحي القيوم(٢) نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل(٣) من قبل هُدىً للنَّاس وأنزل الفرقان(٤)﴾ (آل عمران).

فالتوراة والإنجيل من قبل القرآن كانا هدى للناس في زمانهما.

أما بعد القرآن الذي نزل بالحق فقد صار هو الموئل الوحيد الكافي لبيان الحق من الباطل والتفريق بين الهدى والضلال.

وعلى هذا الأساس: نستطيع قراءة الآيات العديدة التي تحدثت عن الإيمان بما أنزل الله على الأنبياء دون تفريق ونستطيع فهم حدود هذا الإيمان و «بُعْدَه» في الزمان والمكان وبذلك نستطيع أن ندرك مغزى ذلك التفاوت في مراتب الإيمان الذي حرصت تلك الآيات عليه دوماً.

ـ فالإيمان بالله أولاً.

ـ ثم بما أنزل الله على النبي محمد ثانيا.

ـ ثم بما أنزل الله على الأنبياء دون تفريق بين أحدٍ منهم ثالثاً.

﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾ (٢/ ١٣٦ : البقرة).

ولقد ظل القرآن يحض الناس على التصديق بما سبق والعمل بما نزل من بعد حتى ليشمل هذا الحكم رسالةَ المسيح وإنجيله على ما فيهما من التزام بموسى والتوراة حيث وردت الآيات العديدة التي حددَّت العلاقة بين الكتابين والرسالتين.

وللمثال فقط نشد الانتباه إلى الآيتين ٥/ ٤٦ ـ ٤٧ ـ من سورة المائدة.

ففي الآية (٤٦) تكرر التأكيد على وجوب التصديق بالتوراة، فالمسيح في دعوته مصدق لها والإنجيل بالإضافة إلى ما أنزل الله فيه من هدى ونور مصدقٌ لها أيضاً.

ومع هذا تأتي الآية (٤٧) بدون فاصل. لتأمر أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه. ولِتَصِفَ الذين يخالفون هذا الأمر بأنهم فاسقون:

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظةً للمتقين(٤٦) وَلْيَحْكُمْ أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون(٤٧)﴾.

فالفاسق: «هو الخارج عن طاعة الله. التَّارك للحق. المائل إلى الباطل».

ومن بعد هاتين الآيتين: وردت الآية (٤٨) متحدثة بالإسلوب ذاته عن القرآن فقالت:

ـ إنه منَّزل من الله بالحق.

ـ ومصدِّقٌ لما بين يديه من الكتب.

ـ ولكنه مهيمنٌ عليها.

ـ لذلك نزل الأمر إلى النبي لأن يحكم بما أنزل الله في القرآن.

ـ ووصف «أتباعَ غيره» و «الحكم بسواه» بأنه اتِّباع للأهواء يقود إلى الفتنة والضلال.

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق. . (٤٨) واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك. . . (٤٩)﴾ (المائدة).

* * *

ج ـ والآن ما هي حدود تصديق القرآن للتوراة والإنجيل؟:

تساؤل أمكن التعبير عنه بكلمات ولكنه في محصِّلة التحليل واسعُ المساحة. بعيدُ الأبعاد.

لأن الجواب عليه يطرح تساؤلات عديدة هي بمثابة السُّلَّمِ الذي لا يرقى بدونه.

هل التصديق بالتوراة يشمل ما بين دفتي العهد القديم البالغ ألفاً وثلاثماية وستين صحيفة، والذي يحتوي على تسعة وثلاثين سفرا بلغ مجموع إصحاحاتها تسعماية وتسعة وعشرين إصحاحاً؟.

وهل يشمل التصديق كامل العهد الجديد البالغ أربعماية واثنتين وعشرين صفحة المحتوية على سبعة وعشرين سفراً مجموع إصحاحاتها مئتان وستون؟.

وإن كان التصديق لا يشمل كامل العهدين فأين البعض الذي يشمله منهما؟.

وإن كان يَشُكُّ في القليل أو الكثير منهما فما هي أسباب الشك وما هي مبرراته؟.

سوف نحاول: من خلال دراستنا لمفهوم «مصدقاً لما معهم» والقيام بجولة تاريخية تحليلية لمسيرة الكتابين (التوراة والانجيل) عبر الزمن أن نقدم الجواب الممكن على تلك التساؤلات.

* * *

ثانيا: مصدِّقاً لما معهم:

و«مصدقاً لما معكم» و «مصدق الذي بين يديه» و «مصدقاً لما بين يديه من الكتاب» وردت هذه التعابير في سور (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة ويونس ويوسف وفاطر والأحقاف والصف). وذلك: بستٍّ عشرة آية كوصفٍ للقرآن.

وقد اتفق المفسرون على أن تصديق القرآن للكتب المنزلة ليس دعوة إلى اعتناقها وأمراً بانتهاجها في العقيدة والشريعة بل هو الإقرار بصدقها في الأصل من حيث «وحدة الدَّيان» و «وحدة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبغي» ونظراً إلى سقوط الكثير من حقائقها بتحريفها أو الانحراف عنها أو تأثرها بتقلب السياسة والنوازع الإنسانية فقد نزل القرآن كاملاً شاملاً جامعاً لما فقد من الحقائق الدينية. مضيفاً إلى ذلك ما تحتاجه مسيرة الإنسان حتى آخر الزمان.

لذلك يجد قارىء القرآن آيات التصديق بالكتب وآيات التنديد بمن يتبعها فلا يزول استغرابه إلا إذا أظهر على أسباب التنديد الذي تتطلبه مواجهة غلوهم في الدين ونسيانهم حَظّاً ممّا ذُكِّروا به بالإضافة إلى معارضتهم للنبي وتسفيهه. مع أن الله أخذ ميثاق أنبيائهم ليبينوا ويبشروا بالإسلام والنبي والقرآن فحرفوا كلامه وانحرفوا عن أحكامه.

ولقد اتضح في القرآن موقفان عقائديان:

الأول: هو أن وحدانية الله حق. ووحدة الدين مع اختلاف الشرائع حق. والوحي والنبوة وكتب السماء ويوم المعاد حق.

وفي فلك هذه الثوابت يدور تصديق القرآن للكتب وما فيها.

الثاني: إن أهل الكتابين حرفوا كلام الله وتنزيله. فأشركوا في وحدانيته وكفروا في ربوبيته وغلوا في أنبيائه وأنكروا البعث والمعاد.

وفي فلك التكفير القرآني لهم والتنديد بهم والتحذير من موالاتهم.

وفيما يلي نقدم أمثلة من الآيات حول الموقفين المذكورين.

أ- ﴿قالوا يا قومنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه

يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ (٤٦/ ٣٠ ـ ٣١: الأحقاف). ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾(٦/ ٩٢: الأنعام).

ب ـ ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمًّى لَقُضِي بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمِرتُ لأعدِلَ بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ (٤٢/ ١٤ ـ ١٥: الشورى).

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ (٥/ ٧٢: المائدة).

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة..﴾ (٥/ ٧٣: المائدة).

﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (٥/ ٧٨: المائدة).

﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق...﴾(٥/ ٧٧: المائدة).

* * *

أما الكتابان ـ التوراة والإنجيل:

فإن القرآن لا يتحدث عنهما إلا بصفتهما كتابين سماويين قامت بهما رسالتان لاثنين من أنبياء الله ورُسُلِه هما: موسى وعيسى. (عليهما السلام) ولكنهما تعرضَا في أثناء مسيرتهما التَّاريخية الطويلة إلى ظروف أفقدتهما جوهر الدَّعوة وأساسها وتركتهما بصيغٍ متعددة ولغاتٍ شتى. محكومين بالأهواء السياسية والنوازع الإنسانية.

لذلك: دعا القرآن أَتْبَاعَهُمَا إلى الإيمان به واتِّباعه واعتبر أن ذلك وحده هو طريق الخلاص.

وسوف يقول الأستاذ الحداد: ولكن كيف يقوم أبناء كتاب سماوي وتابعوه.

بتحريفه والانحراف عنه وهو لديهم طريق الخلاص الوحيد؟ وكيف يبدّلون في عقيدة نزلت عليهم من السماء ولماذا وفي سبيل من؟.

وسوف يقول أيضاً: إن للعقائد وكتب الأديان دوراً بارزاً في تكوين الفكر والعاطفة عند الإنسان وقد ثبت في التاريخ أنه ما من دين أو عقيدة تخلت عن موقعها إلا بعد مواجهات وحروب تقاضتها الكثير من دماء أبنائها وحصدت الكثير من الشهداء، فكيف تخلّى اليهود والنصارى عن مقدساتهم؟. وكيف سمحوا لأيادي التحريف والتزييف أن تعبث بِكُتُبهم؟.

هذه التساؤلات لم توضع لكي تتلقى الجواب، بل وضعت في باب النفي والتحدي لمقولات التحريف والانحراف.

أما نحن: فلن نقدم الجواب على مسؤليتنا ولن نضعه اجتهاداً من عندنا بل نترك ذلك إلى من تخصصوا في دارسة الكتابين وتتبعوا مسيرتهما في التاريخ وحلّلوا نصوصهما بشتى المعايير العلمية الاستقرائية، وسجلوا بعد ذلك نتائج لن نستبق القارىء إليها بل نضعه على مرمى الذراع منها بعد أن ننشر بين يديه خلاصةً عن تاريخ الكتابين كالآتي:

التوراة في التاريخ:

١ ـ يقول وول ديورانت في قصة الحضارة:

كيف كتبت أسفار التوراة؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال بريء لا ضير فيه. ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد. وسوف نفرغ منه، هنا في فَقَرة واحدة لنتركه بعدها من غير جواب[1] ولقد خصص المؤلف ثلاثة فصول من كتابه هي (الخامس والسادس والسابع) سرد فيها باختصار شديد مسيرة التوراة في التاريخ، نقتبس منها هذه الفقرات:

أ ـ بعد أن شاعت عبادة الآلهة الأجنبية في الشعب اليهودي، وتراخت روابطهم مع «يهوه»، فكر الكهنة بأن يقوموا بعمل تنظيمي يوقف هذا التدهور،

---

(١) قصة الحضارة ـ مجلد ١ ـ ٢ ص ٣٦٧.

فانتحلوا رسالة إلى الشعب نسبوها إلى الله، وقدموها في صورة سنن إلّهية تبعث المشاعر الدينية والخلقية من جديد. وقد انضم الملك «يوشيا» إلى هذه الدعوة حيث أبلغه الكاهن «حلقيا» في السنة الثامنة عشرة من حكمه أنه وجد في سجلات الهيكل مِلَفّاً عجيبا قضى فيه موسى بنفسه في جميع المشكلات التاريخية والخلقية التي كانت مثار جدل وخلافٍ بين الكهنة والأنبياء. فدعا «يوشيا» إلى اجتماع حضره كبارهم مع الآلاف من الشعب وتلا عليهم «سفر الشريعة» الذي أبلغه إياه «حلقيا» وأقسم على طاعة هذا السفر بما فيه، فتأثر الشعب وجاشت عواطفه، فاغتنم «يوشيا» هذه السانحة واستعان بها لتحطيم مذابح الآلهة المنافسة «ليهوه» وأخرج من الهيكل الآنية المصنوعة للبعل، وأقصى كهنة الأصنام الذين يوقدون للبعل والشمس والقمر وأجناد السماء. ونجّس توفة[1] لكيلا يقدم أحدٌ ابنه أو ابنته إلى النار تقربا للإلّه مولك، وحطم المذابح التي أقامها سليمان «لكموش» و «ملكوم» و «عشتروت».

ب ـ وبعد العودة من الأسر البابلي وجد الكهنة حاجة ماسة إلى وضع تنظيم إداري يقيم كيان الوحدة بين الشعب ويفرض النظام ويعترف بسيادة الفرس، فأصدروا قواعد حكم ديني اعتمد على التقاليد الموروثة وأقوال الكهنة المتواترة، وقام الكاهن «عزرا» في عام ٤٤٤ ق.م. بالدعوة إلى اجتماع خطير شرع هو وزملاؤه اللاويون يقرأون في سفر «شريعة موسى» سبعة أيام، ولما فرغوا أقسم الكهنةُ والشعب على أن يَتَّخِذوا هذه الشرائع دستوراً لهم.

تُرى ماذا كان في الكتاب الذي قرأه «عزرا»؟ ليس في مقدور أحد ان يجيب. على أنه بالتأكيد ليس السفر الذي قرأه «يوشيا» من قبل. لأن يوشيا قرأه مرتين في يوم واحد في حين أن «عزرا» ظل وزملاؤه سبعة أيام يقرأون. غير أن كلمة «تورة» عرفت النور مع اجتماع عزرا. إذ منذ ذلك الوقت سميت الأسفار. «تورة»[٢] وسميت فيما بعد باللغة اليونانية «البنتاتوش» أي «الأسفار الخمسة»[٣].

---

(١) توفه: هي مرتفعات بنيت في وادي ابن هنوم لحرق القرابين البشرية للإلّه مولك ـ (سفر أرميا ٧/ ٣١ ـ ٣٣).

(٢) الهدى والإرشاد.

(٣) الملفات الخمسة.

ج ـ ولقد لفت نظر العلماء أن سفر التكوين تضمن قصَّتين للخلق.

إحداهما سمي الإلّه فيها «يهوه» وفي الثانية سمي «إلوهيم» وتوصلوا باستقراء النُّصوص إلى أنَّ أقدم ما كتب عن «يهوه» كتب في «يهوذا» وأقدم ما كتب عن «إلوهيم» كتب في إفرايم، ولم يجتمع النصّان إلا بعد سقوط السامرة[1]، وقد اتفقوا على أن سفر التكوين بفصوله وسفر التثنية والفصول التي أضافَها الكهنة، هي التي تكون منها الجزء الأكبر من سفر الشريعة الذي قرأه «عزرا» ولم تتخذ هذه الأسفار والفصول شكلها مجتمعة إلا في حلول القرن الثالث قبل الميلاد. وقد قامت الحياة اليهودية على هذه القوانين التي وضعها «يوشيا» ثم «عزرا» فكانت ـ كما قال سارتن ـ أكبر محاولة لاتخاذ الدين قاعدة لسياسة الأمم، وكانت من الشدة والحدِّيَّة والتضييق بما عبر به عنه رينان أبلغ تعبير بقوله: «لقد صارت تلك الشريعة أضيق رداءٍ شُدَّ على جسم الحياة الانسانية حيث أدخلت كل شيء في فروض الهداية الإلّهية».

د ـ أما أسفار «القضاة» و«صموئيل» و«الملوك» و«القصص الغرامية الساحرة» و«الأناشيد» و«المزامير» و«الأمثال» وغيرها.

فقد وضعت جميعها فيما بعد. وكانت أساطير الجزيرة الغنية الحافلة الممتدة في الزمن السحيق مسافة تربو على ثلاثين قرنا هي المعين الذي لا ينضب لإرواء حاجات التوراة التي لا تنتهي.

٢ ـ ويقول موريس بوكاي في كتابه «دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة»:

أـ يتكون العهد القديم من مجموعة أسفار لاتتساوى في الطول ولا تتَّفق في النَّوع كُتِبت بلُغات مختلفة على مدى تسعة قرون اعتماداً على تراث شفوي جرى تصحيحه واستكماله مرات عديدة متأثّراً بالأحداث والضرورات المتباعدة في الزمن ـ (ص ـ ٢٣).

---

(١) القصتان في سفر التكوين متشابهتان في الصيغة والعقائدية ومتشابهتان الإلّهية والتاريخ.

فقبل أنْ يصبح العهد القديم أسفاراً كان تراثاً يُغَنَّى، لا سَنَد له غير الذاكرة، كشأن التراث دوماً عند الشعوب جميعاً.

فالكتابة لم تستخدم لحفظ التراث اليهودي إلا بعد استقرارهم في أرض كنعان. في القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

ب ـ وهناك من الأسباب التاريخية والاستقرائية ما يسمح بالقول: إن ما يرويه العهد القديم لا يتفق مع المجرى التاريخي للأحداث.

ج ـ وفي القرن العاشر قبل الميلاد تشكلت البنية الأولى للأسفار الخمسة التي عرفت «بأسفار موسى الخمسة». حيث عالجت الفترة التكوينية للكون منذ بدء الخلق حتى موت يعقوب. وبعد قرون وُضِع نصٌّ آخر يروي قصة التكوين عن الفترة ذاتها ولكن بأسلوب وصيغة ووقائع مختلفة وانتساب إلى إلهين بإسمين مختلفين (في القصة الأولى كان اسم الإلّه (يهوه) وفي الثانية «إلوهيم»). وبعد قرون تالية أضيفت قصة ثالثة هي «القصة الكهنوتية».

د ـ وفي عصر الأنبياء (عموس وهوشع في إسرائيل وأشعياء وميخا في الجنوب) تم الاتحاد والتجمع بين النصَّين (اليهوي والإلوهيمي) فكانت بذلك أول محاولة لتأسيس التوراة[1].

هـ ـ ثم تتالت الأسفار والأناشيد والكتابات والرسائل.

ـ سفر إرميا في القرن السابع قبل الميلاد.

ـ رسائل صفنيا وناحوم وحبقوق في أواخر القرن السادس قبل الميلاد.

ـ حزقيال نبي المنفى لم يُدوَّن كتابُه إلاَّ بعد موته.

ـ وفي القرن السادس قبل الميلاد قامت جماعةٌ من الكَتَبَةِ بوضع سفر حزقيال على شكل رواية جديدة للتكوين من بدء الخلق حتى موت يعقوب وقد أطلق عليها اسم «الرواية الكهنوتية».

---

(١) في القرن الثامن قبل الميلاد.

ـ وبعد العودة من النفي أي منذ أواخر القرن السادس استؤنف نشاط الأنبياء (حِجّاي، وزكريا، وأشعيا الثالث، وملاخي، ودانيال، وباراك).

كما دونت الأمثال وسفر أيوب في القرن الخامس. وفي القرن الثالث كتب نشيد الإنشاد وكتابا (أخبار الأيام ـ وعزرا ونحميا).

أما كتاب «بن سيراخ» فقد ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد وسفر الحكمة الذي لسليمان وكذلك سفر المكابيين، فقد وضعت قبل مجيء المسيح بقرن تقريبا وباقي الأسفار يصعب تحديد تاريخ تقريبي لها.

ويضيف بوكاي: «ان جميع هذه المعلومات معطاة تحت تحفظات التعديلات اللاحقة. لأن كتب العهد القديم لم تتخذ هيئتها الأولى إلا قبل قرون قليلة من ميلاد المسيح، ولم تكتسب شكلها النهائي إلا في القرن الأول بعد المسيح كما يرى الكثيرون ـ ص ـ ٢٤ ـ ٢٥».

٣ ـ تعليق وملاحظات:

أ ـ إن عمليات الوضع والتعديل والتأليف الشخصي جعلت من التوراة خليطاً لايمكن تحديد الوحي فيه، وفصله عن سواه من هذا التراث ولا تملك البشرية وسيلة تمكنها من ذلك حتى الآن. لأن الذين جمعوا والذين وضعوا والذين ألّفوا تحكمت بهم الظروف التي واجهوها والضرورات التي عاشوها مما يبرر لدارس التوراة أن يكون على حذر شديد وهو يتحرك بين أسفارها وأنا شيدها ورسائلها وأمثالها. وليتذكر دوماً أن عمليات التعديل مرت على جميع النصوص أكثر من مرة[١].

وقد جاء في المقدمة التي وضعها الأب ديفو[٢] لترجمة الأسفار الخمسة:

«إن التراث اليهودي الذي امتثل إليه عيسى والرسل ظل مقبولاً حتى القرون الوسطى. ومن أبرز مسلماته أن موسى هو الذي كتب الأسفار الخمسة. ولكن هذه

(١) الأسفار الخمسة التي هي اساس التوراة مرّ التعديل عليها خمس مرات.
(٢) مدير مدرسة الكتاب المقدس في القدس.

المقولة سقطت منذ القرن السادس عشر بعد أن خضعت التوراة للنقد فوجد العلماء كثيراً مما يناقض المنطق مثل: (استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات ـ (التثنية ـ الإصحاح ٣١/ ٥/ ١٢)».

ب ـ إن مما لايمكن تبريره بمنطق «التنزيل الإلّهي» أن يكون الوحي قد أبلغ موسى قصة الخلق بتكليف من الإله «يهوه» ثم قام هو أو وحي آخر بتبليغه القصة نفسها ولكن بوقائع واسلوب مختلفين وذلك بتكليف من الإلّه «إلوهيم» وفي سفر واحد[١].

ج ـ إن الوقائع التاريخية والآراء العلمية الواردة في التوراة تتناقض مع علم التاريخ والآثار لأن الكتّاب التزموا بالوضع الديني فلم يولوا اهتماماً للتاريخ، والعلم. ثم عمدوا إلى فرض ما يناقض الحقيقة على أنه حقيقة مطلقة معصومة.

ولقد قدم الأب «ديفو» في المقدمة العامة للأسفار الخمسة (ص ١٣ ـ وما بعدها) أمثلة على تناقضات المعلومات التوراتية مع العلم الحديث، استعرض فيها كثيراً من التناقضات أهمها المواضيع الجوهرية الثلاثة:

١ ـ خلق العالم. ٢ ـ تاريخ خلق العالم وظهور الإنسان. ٣ ـ رواية الطوفان.

وبيّن أن مما يرفضه العلم رفضاً قاطعاً أن يبقى على تحديد التوراة لعمر الكون بأربعين قرناً قبل الميلاد وأن يكون الطوفان الذي عاصر نوحاً عليه السلام، قد أباد المخلوقات جميعها وشمل جميع الكرة الأرضية.

ملاحظة استطرادية: في القرآن ما يفيد بأن الطوفان كان محليا: ﴿**وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية**﴾(٢٥/٣٧: الفرقان). ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون**﴾(٢٩/ ١٤: العنكبوت).

د ـ إن المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني، الذي حضره ٢٣٥٠ ـ رجلاً من آباء الكنيسة استمرت مناقشاته ثلاثة سنوات من ٩٦٢ ـ ٩٦٥ م حتى أدرك استحالة

---

(١) سفر التكوين.

التوافق بين ما جاء في التوراة وبين المعارف الحديثة، ولكنه رفض الشدة والتصلب في الموقف فصاغ قراره بأسلوب رقيق ولكنه مع رقته جرَّد النصوص من العصمة الإلّهية ووضعها موضع الشك إذ عاد بها إلى التعديلات البشرية وقد صدر القرار بأكثرية ٢٣٤٤ صوتاً ضد ستة أصوات فقط وبالصيغة التالية:

«بالنظر إلى الوَضْع الإنساني السَّابق على الخلاص الذي وضعَهُ المسيحُ. تسْمَح أسفارُ العهدِ القديم للكُلِّ بمعرفةٍ من هو الله ومن هو الإنسان. بما لا يَقلُّ عن الطريقة التي يتصَّرف بها الله في عَدْله ورحْمته مع الإنسان غير أنَّ هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البُطلان ومع ذلك ففيها شهادةُ تعليم إلهي».

هـ ـ إن الفقرات التي اقتبسنا معلوماتها «اقتباساً» من «ديورانت» و «يوكاي» هي قليل من الكثير الذي توصلت إليه دراسات العلماء في الغرب والشرق للعهد القديم. حيث أجمعت على أنه في صيغته التي كانت بوضعها النهائي في عهد الدعوة الإسلامية والتي لم تتغير حتى الآن. لا يمكن أن تكون لسان حال الوحي الإلّهي. لأنه ما من شخص يستطيع أن يعزل الفكر البشري فيها عن الفكر الإلّهي.

د ـ والمدقق في التوراة عندما يقارنها بالمراجع التاريخية ويقابل بينهما يلمس الروح العنصرية تنبض في كل نص من نصوصها. فيتضح لديه أن حاجة اليهود إلى تجميع الشتات تحت عنوان واحد كان الدافع الشديد إلى وضع تلك النصوص التي قدمت إلى الشعب على أنها كلام الله وأوامره لضمان قوتها الإلزامية.

لذلك لم تحفل بالتاريخ ولا بالمنطق العلمي بل انصرفت إلى رَكمْ المعلومات والأخبار وتضخيم الروايات خدمة للهدف القومي ودعماً له.

* * *

ثالثاً: الإنجيل في التاريخ:

تمهيد:

لم تعرف البشرية كتابا تركَّز عليه اهتمام الناس مثلما تركز على الانجيل، ولئن كان قد كُتِبَ عن التوراة خمسون ألف مجلد ـ كما قال ديورانت ـ فإن مثل هذا العدد يكتب عن الإنجيل ويصدر «كتباً ونشرات ودراسات» في سنة واحدة بالإضافة إلى

المحاضرات المسموعة والمرئية في كل يوم.

لذلك لن يكون في مقدور هذا المختصر ولا من شأنه تقديم تحليل كامل أو دراسة نقدية مفصَّلة لأنها مرهونة بغايتها وهي إعطاء لمحة عن مبررات الإسلام الذي اكتفى بتصديق الإنجيل في المطلق ومن حيث المبدأ ورفض اعتناقه مرجعاً دينيا وتشريعيا للإسلام.

أول ما يستوقفنا في الإنجيل هو تصريحه المتكرر أنه نزل مصدقاً للتوراة، باعثاً لشريعتها، مؤيداً للصحيح من أحكامها، غير أنه بسبب تداخل النصوص التنزيلية مع الكتابات البشرية واستحالة التمييز بين الأصيل منها والدخيل عليها، أُمر أهل الإنجيل بالاقتصار على تصديق التوراة في المبدأ والاستقلال عنها في الشريعة والطقوس وحتى العبادة **﴿ولْيَحْكُمْ أهْلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾** (٥/ ٤٧: المائدة).

فالإنجيل هو عماد الدين المسيحي وقُطْبُه، وهو ـ وإن جُمِعَ مع التوراة في مجلد واحد ـ فإنه بكتبه الأربعة وأعمال الرسل ورؤيا يوحنا يظل التعبير الروحي عن عقائد المسيحيين الذين يلتفُّون من حوله ويعتقدون أنه موئلُهُم المستقل عن التوراة وأنه السبيل الوحيد للخلاص وذلك منذ أن استقر على وضعه النهائي المربع[1] في أواخر القرن الرابع الميلادي وحتى آخر الزمان.

ونحن هنا في هذا المختصر من البحث سوف نقدم بعض الملامح البارزة في مسيرة هذا الكتاب منذ أيامه الأولى وحتى اعتماد صيغته النهائية في القرن الرابع وذلك من خلال العناوين التالية:

١ ـ التعريف بالإنجيل لغةً وكتاباً.

٢ ـ مراحل التحرك الإنجيلي منذ البدايات حتى الاستقرار.

٣ ـ رؤية المسيح ومحمد في الكتب الثلاثة.

---

(١) إشارة إلى تشكله من الأناجيل الأربعة. وهذا التعبير ورد في الوثيقة الصادرة عن المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني المنعقد خلال الأعوام ٩٦٢ ـ ٩٦٥ م.

٤ ـ منشأ التثليث وتبريره الفلسفي.

٥ ـ جولة خاطفة في إنجيل برنابا.

* * *

ـ التعريف بالإنجيل:

في اللغة: كلمة الإنجيل تؤنث وتذكر. فمن أنَّث أراد الصحيفة. ومن ذكَّر أراد الكتاب.

وفي صفة الصحابة (ر): «معه قوم صدورهم أناجيلهم». والإنجيل جمعها أناجيل. وهو كتاب الله المنَّزل على عيسى عليه السلام. وهو اسم عبراني أو سرياني. وقيل هو عربي يريد: إنهم يقرؤون كتاب الله عن ظهر قلوبهم ويجمعونه في صدورهم حفظاً. وكان أهل الكتاب إنما يقرأون كُتبهم في الصحف ولا يكاد أحدهم يجمعها حفظاً إلا القليل.

وفي رواية: وأناجيلهم في صدورهم أي إن كتبهم محفوظة فيها. والإنجيل مثل الإكليل والإخريط وقيل: إن اشتقاقه من النَّجْلِ الذي هو الأصل فيقال: كريم النجل أي الأصل والطبع.

ـ وفي التعريف به ككتاب: هو مجموع الأخبار عن شخصية المسيح وعمَّن حوله. منذ أن كان جنيناً في رحم أمه إلى ما بعد صلبه وقيامته وارتفاعه إلى السماء. جميعها تدور حول موضوع واحد فتسرد أخباراً وتصِف أعمالاً صدرت عن شخص واحد وكل قول أو عمل مرهون بظرفه الزماني أو المكاني. وقد رويت من رواةٍ أربعة كل منهم جمع روايته في مجموع خاص سماه الإنجيل، وميزه عن سواه بنسبته إليه. والرواة هم بالترتيب الإنجيلي: متى ومرقس ولوقا ويوحنا. فهؤلاء الذين اعترفت الكنائس بأناجيلهم دون سواهم من الأناجيل العديدة التي استبعدت جميعها وتم تحريمُها وتحريقُها.

هذه الأناجيل لم تنزل من الله على المسيح، ولم يُمْلِها على الرُّواة، ولم يأمر بكتابتها. ولكنها كتبت من بعده ـ كما سيأتي ـ فتحدثت عن زكريا وعن يحيى بن زكريا (يوحنا المعمدان) وكيف كان يعمد الناس في البرية ويكْرِز بمعموديَّة التوبة

لمعرفة الخطايا ويقول: يأتي بعدي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أنحني وأحلَّ سيور حذائه. أنا عمدتكم بالماء وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس[1]. ثم عن المسيح وولادته العجائبية، وأعماله الخارقة، وما جرى بينه وبين اليهود وسواهم، وما صدر عنه من حكم وأمثال ومواعظ، ثم تآمر اليهود عليه ومحاكمته وصلبه، وقيامته واجتماعه مع التلاميذ والمريدين، وبقائه مع البشر أربعين يوماً ثم صعوده إلى السماء.

والإنجيل بكلمة عامة: هو ضمير المسيحية ومعناها، وفيه النواة الأولى لعقيدة المسيحيين في المسيح وتأليههم له. ومعنى هذه الكلمة باليونانية «أخبار سارة» أو «أنباء طيبة» أخذاً من إنجيل مرقس «ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيء طريقك قدامك. صوت صارخ في التربة أعدوًّا طريق الرب. اجعلوا سبله مستقيمة»[2].

وتهجئة الانجيل بالانكليزية GOSPELوفي اليونانية EUANGELION.

ـ التحرك الإنجيلي من البدايات حتى الاستقرار.

أ ـ وقال لهم: «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها من آمن واعتمد خَلُصَ ومن لم يؤمن يُدَنْ. ثم إن الرب بعد ما كلمهم ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله. وأما هم فخرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات التابعة[3]».

تعتقد غالبية المؤمنين أن ما جاء في الأناجيل الأربعة هي رواياتٌ عِيَانِيّة مباشرة رواها كتَّاب الإنجيل مثلما سمعوها من المسيح وشاهدوها عِياناً. حتى لقد كان البعض يطلق عليها اسم «مذكرات الرسل» أي إنها ذكريات شخصية للحواريين الأحد عشر الذين صدر إليهم الأمر بالذهاب إلى العالم أجمع لكي يكرزوا بالإنجيل.

---

(١) إنجيل مرقس ١/ ٤ ـ ٧.
(٢) مرقس ١/ ٢ ـ ٣.
(٣) مرقس ١٦/ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٩ ـ ٢٠.

ولكن الأمر غير ذلك تماماً: فعندما قال لهم المسيح أن يذهبوا ويكرزوا بالإنجيل كان يوجد «إنجيل» ولكنه غير هذه الأناجيل الأربعة التي لم تكن حينها موجودة والتي لم توضع إلا بعد الصلب بمدد متفاوتة أقلها نصف قرن تقريبا كما لم توضع في وقت واحد وفي لغة واحدة بل في أزمنة ولغات متعددة.

ـ فالإنجيل هو كتاب الله الذي كان يبشر به عيسى قبل الرسل. وبعدما أَسْلمَ يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله»[1] ويقول: «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل»[2].

ـ وكتَّاب الأناجيل لم يقدموا أناجيلهم على أنها وحي من الله، بل على أنها إخبار عما جرى مع المسيح وما صدر عنه. فـ «لوقا» يوجِّهُ إنجيله بصيغة الرسالة إلى «ثاوفيلس» قائلاً له «رأيت أيضاً أنا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب إليك على التوالي أيها العزيز ثاوفيلس»[3]، لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمتَ به ـ لوقا ـ ١/ ٣ ـ ٤».

ـ وهم لم يقولوا عن أنفسهم أنهم من الحواريين أو إن أوامر المسيح الأخيرة وجهت إليهم. واحد منهم فقط هو «متى» يقول عن نفسه إنه أحد التلاميذ الأثني عشر. حيث يذكر في إنجيله «وفيما يسوع مجتازٌ من هناك رأى إنساناً جالساً عند مكان الجباية اسمه «متى» فقال له اتبعني فقام وتبعه ـ متى ٩/ ٩».

ومع ذلك رأى بعض مفسري الإنجيل هذا، أن الشخص الذي ذكره الإنجيل هو غير مؤلف الإنجيل. ففي مرقس (٢/ ١٣) وردت هذه الحادثة بالصيغة التالية: «وفيما هو مجتازٌ رأى لاوي بن حلفى جالساً عند مكان الجباية فقال له: اتبعني فقام وتبعه».

يقول «فنتون» مفسر إنجيل متى: «لقد حدث هنا تغيير هام فبدلاً من قول

---

١) متى ٥/ ٢٣.
٢) مرقس: ١/ ١٤ ـ ١٥.
٣) يقول ابن البطريق إن ثاوفيلمس هو أحد عظماء الروم وجه إليه لوقا إنجيله كما كتب له أخبار التلاميذ (الإبركسيس ـ باليونانية).

مرقس: «رأى لاوي بن حلفى» غيَّره متى فقال: «رأى إنساناً جالساً اسمه متى» إن اسم لاوي لم يذكر في إنجيل مرقس مرة أخرى كما إنه لم يرد في قائمة الإثني عشر تلميذاً الذين ذكرهم الإنجيل (٣/١٦ ـ ١٩) وقد ذكر بينهم اسم متى: إننا لا نجد أي دليل على أن اسم متى هو الاسم النصراني للاوي، وبذلك يحتمل أن يكون المؤلف هو غير التلميذ متى. ولكنه ربطه به توقيراً له وضمانةً للتأليف. (راجع كتاب الرد الجميل لإلٓهية عيسى ـ الغزالي ـ تعليق الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٩٠ ص ـ ٧٣ ـ ٧٤. كذلك كتاب بوكاي: دراسة الكتب المقدسة: ص ـ ٨٠ ـ ٨١).

أما مرقس فلم يكن من الحواريين الأثني عشر الذين تتلمذوا للمسيح[1] ولكنه يعد من بين السبعين الذين نزل عليهم الروح القدس وأُلهموا بالتبشير. وهو ابن أخت برنابا. ويشير المؤرخون إلى أن يسوع كان يتردد إلى بيته، كما كان الرسل يجتمعون عنده بعد صعود المسيح. وقد لازم خاله وبولس في رحلتهما إلى أنطاكية، ولكنه تركهما بعد ذلك. واستقر في مصر، وظل فيها حتى أئتمر به الوثنيون فقتلوه في عام ٥٢ م بعد أن سجنوه وعذبوه.

وكذلك لوقا: الطبيب المثقف الذي لم يقم علمٌ يقيني عن مولده وعما إذا كان هو كاتب الإنجيل بالفعل، فمن قائل إنه ولد في أنطاكية، ومنهم من قال إنه من مواليد روما. وبعضهم وصفه كطبيب، وغيرهم قالوا: إنه مصور. ولكنهم يتفقون جميعاً على أنه لم يكن من تلاميذ المسيح. بل من تلاميذ بولس ورفقائه[2].

أما يوحنا: فما يقوله النَّصارى هو أنه: «يوحنَّا الحواري ابن زبدى الصياد» الذي كان يحبه المسيح فاستودعه والدته وهو فوق الصليب.

ولكنَّ علماء المسيحيين في القرن الثاني أنكروا أن يكون هو كاتب الإنجيل. ومن بين هؤلاء «أرينيوس» تلميذ «بوليكارب» الذي كان تلميذاً مباشراً ليوحنا.

كما إن دائرة المعارف البريطانية التي اشترك في تأليفها خمسماية من علماء

---

(١) محاضرات في النصرانية للإمام محمد أبي زهرة ص ـ ٤٧.
(٢) محاضرات في النصرانية ص ـ ٤٧.

المسيحية، قالت عن إنجيل يوحنا ما نصه: «أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتابٌ مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما القديسان «يوحنا» و «متى» وقد ادعى هذا الكاتب الممرور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري. ووضعت اسمه على الكتاب نصّاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كُتُب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نُسبت إليه. وإنّا لنرأفُ ونشفقُ على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الفلسفي الذي ألّف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا صياد الجليل. فإن أعمالهم تضيع عليهم سُدًى لخبطهم على غير هدى[1] وقد ردَّ بعض علماء المسيحيين على هذا القول واتهموا أصحابه بالكفر. ثم استدلوا على صحة نسبة الإنجيل إلى يوحنا بورود آيات منه استشهد بها بطرس في رسائل المؤرخين[2] وهم نصارى يقولون: «وأخذ بطرس لنادون قيصر فصلبه منكّسا رأسه لأنه قال له: إن أردت أن تصلبني فاصلبني منكّسا لئلا أتشبه بسيدي المسيح فإنه صلب قائماً». وعاش بطرس بعد المسيح اثنتين وثلاثين سنة إذ قُتل لذلك. وبما أن إنجيل يوحنا ـ على ما يؤكد الدكتور بوست وآخرون غيره[3] ـ كُتِبَ في سنة ٩٥ أو ٩٨ ميلادية أي بعد موت بطرس بثلث قرن فإن الشك يعتورُ تلك المقولة وذلك الاستدلال.

ب ـ وقد ظل الإنجيل تراثاً شفوياً حتى ظهرت الأناجيل التي وُضع أقدمها بعد ارتحال المسيح بثلث قرن:

ـ لأن المسيح كان يكرز بإنجيله (كما ذكر متى ومرقس).

ـ ولأنه أمر التلامذة بأن يكرزوا بين جميع الأمم.

ـ ولأنه لم يُملِ عليهم ولم يأمرهم بالتدوين... وذلك على خلاف القرآن الذي كان يُدوَّن آية آية عند نزولها. ثم توضع كل آيةٍ في مكانها من السورة تبعاً

---

(١) المرجع ذاته ص ـ ٤٩.
(٢) نفس المرجع ص ـ ٥.
(٣) ابن البطريق وسواه.

لأوامر النبي وإرشاداته، فالإنجيل المربع مع الأعمال والرسائل والرؤيا لم يتخذ وضعه الحالي إلا بعد مسيرة طويلة استغرقت قرنين من الزمن تقريبا ومن خلال مراحل تميزت كل منها بظروفها الفكرية والنضالية. وفيما يلي مختصر عن الملامح البارزة لتلك المراحل:

ج ـ بولس الرسول:

بولس الرسول هو رسول المسيحية إلى الأمم، وإليه تُنسب أكثر مما تُنْسَب إلى أحدٍ سواه. فقد كان لنشاطه الدؤوب، ونفسه القوية، وشخصيته الفذَّة، وديناميكية تحركه من بلد إلى بلد ما جعله قطب المسيحية ومحور دَعْوتها، وقد عرَّف بنفسه هويته وحدد مولده فقال: «بأنه يهودي فرِّيسي»[1] وقال: «أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس بكيليكية، ولكن ربيت في هذه المدينة يقصد أورشليم[2] وفي موقف ثالث أنقذ نفسه من الجلد بقوله لقائد المئة «إنه روماني»[3]. وكان يسمى شاول قبل أن يتنصَّر. وكان شديد العداء والأذى للنصرانية أثناء كفره[4] ولكنه استطاع بفضل ما تمتع به من ذكاء وألمعية وقوة حجة أن يحوز على ثقة الناس وأن يُنسِيَهم ماضيه ويلتفوا من حول، آرائه التي اعتنقوها ديناً موحى به من السماء ورسالةً استمدت إلهامها من روح القدس. ويتحدث سفر أعمال الرسل عن تنصره الفريد بعد عدائه الشديد على أثر تدخل مباشر من المسيح الذي ظهر له فيما كان قادماً إلى دمشق في رحلةٍ عدوانية ضد النصرانية، فتحدث معه من خلال برقٍ أنار السماء والأرض، ولكنه خطف بصره قائلاً له: أنا المسيح فلماذا تضطهدني يا شاول؟ ثم ألقى عليه توجيهاته لكي ينفذها وينفذ ما يقال له في دمشق. وظل أعمى حتى صدع «حنانيا» بأمر المسيح ووضع يده على عينيه باسمه فابصر وامتلأ بالروح القدس[5]. وقد تكفَّله «برنابا» الذي كان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الإيمان والروح

---

(١) أعمال الرسل ٢٣/٧ ـ ٩.
(٢) أعمال الرسل ٢٢/٣.
(٣) أعمال الرسل ٢٢/٢٦ ـ ٢٩.
(٤) رسالته إلى أهل غلاطية.
(٥) اعمال الرسل الاصحاح ٩.

القدس[١]، حيث أخذه وأحضره إلى الرسل وشهد له عندهم[٢]، ثم ترافق معه في أول رحلة تبشيرية سموها في الأعمال: «رحلة القديس بولس التبشيرية الأولى» دون إشارة إلى برنابا استخفافاً به فأبحرا إلى قبرص ثم إلى أنطاكية في «بسيديا» ثم إلى «لسترا» ثم إلى دربي: ثم «برجا» ومنها إلى «أنطاكية» بسوريا[٣]، ثم اختلفا على أسلوب التبشير وعلى صحبة مرقس لهما[٤] فانفصلا حيث اتجه برنابا إلى قبرص وانقطعت أخباره أما بولس فقد قام بمسيرته الثانية مصطحباً تلميذه «تيموثاوس» مبتدءاً مسيرته من «لسترا» إلى آسيا الصغرى. حتى وصلا إلى الاسكندرية ومنها إلى «ترواس» وهناك تعرفا على «لوقا» ثم سافرا إلى «مقدونية» و«فيلبي» و«تسالونيكي» حيث أسس بولس كنيسة لأتباعه. وفي أثينا ألفى نفسه وحيداً مع تلميذه في قلب الديانة الوثنية وعلومها وفلسفتها فحاول بإيمانٍ لم يعرف التاريخ أجرأ منه، أن يوفق بين الفلسفة المسيحية والفلسفة اليونانية. ولكنه أخفق فلم يستجب لدعوته غير عدد قليل فغادرها إلى «كورنثة» وظل فيها ثمانية عشر شهراً ثم انتقل إلى اورشليم في عام ٥٣م. ولم يلبث طويلاً حتى بدأ رحلته الثالثة إلى أنطاكية وآسيا الصغرى وفي «فيلبي» و «سالونيكي» و «بيريه» أمضى بضعة أشهر ثم توجه إلى «كورنثة» وترامى إليه وهو فيها أن «جماعة المختتنين» قد نقضوا العهد في أورشليم وطفقوا يطلبون من الناس في غلاطية أن يطيعوا الشريعة اليهودية إطاعة كاملة، فكتب رسالته إلى أهلها وهي رسالة امتلأت بالغضب وفيها دعا إلى الانفصال عن «اليهودية المسيحية» وأعلن بشكل نهائي أن الإيمان القوي بالمسيح هو الذي ينجي الإنسان وليس الشريعة[٥]. ثم سافر إلى أورشليم بعام ٥٧م فنَصَحهُ إخوانه أن يتظاهر في التمسك بالشريعة خوفاً عليه من أن يقتله اليهود، فوافق على ذلك وتطَّهر وأنفق حسب الشريعة ثم طلب اليهود من الوالي أن يحاكمه ولكن بولس ادعى الجنسية الرومانية فسيَّره الوالي ليحاكم في روما. وهناك التقى ببطرس وكتب عَشْراً من رسائله أملاها

---

(١) الأعمال ١١/٢٤.
(٢) الأعمال ٩/٢٦ـ ٢٧.
(٣) أعمال (١٣) وقصة الحضارة مجلد ١١ ـ ١٢ ص ٢٥٤.
(٤) مرقس هو ابن أخت برنابا.
(٥) من كلماته المأثورة: إن الحرف يميت والإيمان يحيي

إملاءً. ومع أنه لم يراجع ما فيها من غموض وتكرار وأخطاء فإنها تفيض بالإخلاص القوي والشعورالعميق مما جعلها من أقوى وأبلغ ما كتب من الرسائل في أدب العالم[1] حتى ليبدو ما في أدب شيشرون من سحر وبلاغة ضئيلاً تجاهها. ويروي ترتليان أن بولس وبطرس استشهدا بوقت واحد بعد حريق روما في عهد نيرون عام ٦٤ م ولكنهما صُلبا منفردين وتشير إحدى القصص المؤثرة أنهما التقيا فيما هما على طريق الموت. بعد بِعادٍ وتنافس شديدين طويلين فبدت روابطهما العميقة أقوى من الخصام والموت، ونظر كل منهما إلى أخيه نظرة الحب والحنان والوداع الأخير.

تلك: هي شخصية بولس مؤسس المسيحية وبطركها الأكبر. قدمناها في سطور وهي التي لا تحيط بأبعاد مواهبها ومزاياها وجهادها مئات المجلدات، فكيف نُسبت إليه المسيحية؟ وكيف كان يمكن أن تكون لولاه؟.

للإجابة على هذا السؤال ينبغي استحضار مئة عام من الخصام العقائدي التي انتهت بانتصار «المسيحية البولسية» على «المسيحية اليهودية» ولكن بشكل بطيء التدرج لا يمكن الإحاطة به إلا إذا درسناه تحت عنوانه البارز وهو المسيحية البوليسية والمسيحية اليهودية وهي تشكل الفقرة ـ د.

د ـ المسيحية البولسية والمسيحية اليهودية:

ما إن انتقل المسيح من الدنيا حتى قامت بين تلامذته وتابعيه معركة فكرية عقائدية امتدت على مدى قرن وربع القرن كان المنطق الخصامي خلالها شديداً بين اتجاهين: اتجاه مسيحي ذي أصول وانتماءات يهودية يؤمن بأن الناموس هو عماد الحياة وبه خلاص الإنسان.

ـ واتجاه يدعو إلى استقلالية المسيحية عن اليهودية يؤمن بأنه بعد مجيء المسيح وصلبه أصبح هو خشبة الخلاص للإنسان وقد وضع الدكتور موريس بوكاي خلاصة عن هذا الجدل العقائدي اقتبسه عن مقال الكاردينال دانيللو كانت مجلة الأزمنة Etudes قد نشرته في عدد ديسمبر عام ٩٦٧ نقتبس منها هذه الفقرات:

---

(١) قصة الحضارة.

«بعد المسيح كونت مجموعة الحواريين طائفة من المؤمنين التي يجب عليها ممارسة ديانة المعبد وحفظ التعاليم اليهودية فكان بمقتضى ذلك على الذين آمنوا من الوثنيين أن يمروا بطقوس الطهارة اليهودية وأن يختتنوا لكي يقبلوا، «فالطهارة ومراعاة راحة السبت وديانة المعبد والاختتان ومحرمات الأطعمة والأشربة» هي الأصول الدينية لهذه المجموعة.

ولكن بولس الذي كان مبعوث الكنيسة الكبرى بأورشليم إلى الأمم الوثنية رفض هذا الاتجاه، وعاد من مواطن نشاطه في آسيا الصغرى واليونان إلى أورشليم حيث عقد أول مجمع مسكوني في عام ٤٩ ـ م[(١)] مع الإخوة الرسل والقادة الذين كان من بينهم (جاك ـ يعقوب) و (بطرس) و (يوحنا) فقرروا بعد جدال طويل تبني اتجاه بولس وعدم التمسك بالختان وبشريعة التوراة بوجه عام وما وليها من سائر أسفار العهد القديم المقدس فيما يتعلق بالتحريم والتحليل إلا أكل المخنوق. وذبيحة الأوثان. والزنى، وهذا المجمع الذي وصفه الإصحاح الخامس عشر من سفر أعمال الرسل هو أول سابقةٍ أورثها التلاميذ والشيوخ لمن سيأتي من الأجيال في كيفية مناقشة الخلافات في العقيدة والشريعة.

ولكن «اليهود المسيحيين» ظلُّوا يهوداً مخلصين، ووصَفوا بولس بأنه «خائن المسيحية» و «العدو» وظلت هذه الطائفة حتى عام ٧٠ ـ م تمثل غالبية الكنيسة واستطاعت أن تعزل بولس.

لقد كان (جاك ـ يعقوب) عمود المسيحية وعمادها وقائد آل بيت المسيح والتلاميذ. وقد انتشرت عقائد تلك الطائفة في كل مكان (فلسطين ـ الساحل السوري ـ غلاطية ـ كورنثة ـ انطاكية ـ روما ـ غزة). كما تشهد بذلك أعمال الرسل ورسائل بولس إلى الغلاطيين والكولوسيين وأهل اليونان، أما النصوص التي نملكها اليوم فلم تر النور قبل عام ٧٠ م بعد تعديلات وتجاوزات في المصادر والإسناد. مسايرة للظروف الخصامية والسياسية التي كانت تسيطر على الصراع العقائدي.

---

(١) المجامع المسكونية ـ كما يقول علماؤها ـ هي جماعات شورية لإعطاء القرار الإلزامي حول ما يطرأ من انحرافات عقائدية وفكرية منافية للروح المسيحي.

بعد «حرب السبعين وسقوط القدس» تضاءل النفوذ اليهودي ونبذ اليهود وتشتتوا في أنحاء الإمبراطورية وتحولت حركة الانفصال النهائي التام عن اليهودية إلى هدف جدي نشط فيه أتباع بولس نشاطاً منقطع النظير في كل مدينة وكنيسة فما أطل عام ١٤٠ م وهو عام التمرد اليهودي الخطير حتى كان الانفصال سياسياً واجتماعيا وعقائديا حقيقة مادية تعبر عن وضع عام تضاءلت فيه اليهودية وسيطرت المسيحية البوليسية سيطرة تامة. ومن ثم اختفت اليهودية المسيحية كطائفة ذات نفوذ وذابت في الغرب إلا نفراً قليلا. يمكن اقتفاء آثارهم في فلسطين والجزيرة العربية ما بين أواخر القرن الثالث وأواخر القرن الرابع الميلادي.

هـ ـ المراحل التي مرَّ فيها العهد الجديد:

العهد الجديد هو الكتاب الذي يمثل مرجع اللاَّهوت المسيحي على اختلاف الطوائف، ويتألف من الأناجيل الأربعة وسفر أعمال الرسل. ورسائل بولس الأربع عشرة ورسالة يعقوب ورسالتي بطرس ورسائل يوحنا الثلاث ورسالة يهوذا ورؤيا يوحنا اللاهوتي.

ـ فالمسيح بدأ بالإنجيل بعدما أُسْلِمَ يوحنا المعدان إلى الحاكم أي قبل هذه الأناجيل بمدة طويلة (متى: ٥/ ٢٣ ومرقس ١/ ١٤ ـ ١٥).

ـ ولم يرد في أي من هذه النُّصوص أن المسيح أمر بكتابتها أو أملاها على أحد.

ـ وإن الأقدم منها جميعاً هو رسائل بولس، وهو ليس من التلامذة ولا من الحواريين.

ـ وفي التاريخ إجماع من المؤرخين على أنه وجب انتظار عام ١٧٠ م حتى اكتسبت هذه الأناجيل صفة الأدب المعترف به كنائسيا.

ـ وفي طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة التي وضعها ودققها وفسرها «لابين بينوا» و«بواسمار» الأستاذان في معهد الكتاب المقدس بالقدس (١٩٧٢ ـ ١٩٧٣) أدلة مدعَّمة بالنصوص الثابتة على أن الذين نقلوا إلينا أخباراً وأقوالاً عن المسيح، لم ينقلوها مثلما صدرت عن مصدرها بل أجروا عليها لمسات وتعديلات تعددت

وتنوعت وتطورت مع الظروف حتى استوطنت قالبها النهائي الذي نراها فيه اليوم.

وقد أشار الأب «بينوا» إلى أربع وثائق تمثل المصادر الأساسية للأناجيل.

ـ فالوثيقة الأولى: نبعت من أوساط يهودية ـ مسيحية فالهمت «متى ومرقس».

ـ والوثيقة الثانية: هي تفسير للأولى. استخدمتها الكنائس الوثنية ـ المسيحية. وقد ألهمت كل المبشرين ما عدا «متى».

ـ والوثيقة الثالثة: ألهمت «مرقس ولوقا ويوحنا».

ـ والوثيقة الرابعة: هي الوثيقة المشتركة في نظرية المصدرين المشار إليهما أعلاه[١].

إن تعدد المصادر الذي قاد إلى الاختلافات ليس في الصيغ الإخبارية فقط بل في الوقائع من حيث الزمان والمكان وجوهر الخطاب.

وسوف نخصص الفقرة التالية للدلالة على مواطن هذه الاختلافات. على أننا قبل الانتقال من الوثائق الأربع: استطلعنا تاريخ النصوص فوجدنا أن أيّاً من تلك الوثائق لم تؤد إلى التحرير النهائي للنصوص بل امتد بينها وبينه فاصلٌ زمني قامت فيه مؤلفات كان دور الوثائق فيها هو دور المرجع والملهم الذي تربعت فيه الجذور. ففي تلك العصور كانت تنتشر بين النّاس كتابات كثيرة عن المسيح تعتمِدُ على التراث الشفوي المتداول فاشتد الخلاف بين الطوائف. وكان يدور حول:

ـ شخص المسيح أهو رسول فقط. ليس له غير شرف السفارة الرسولية؟ أم له بالله صلة؟ هي صلة الإبن بالأب؟ لأنه ولد من غير أب بيولوجي؟.

ـ وإن كان ابن الله فهل هو مخلوق أم إنه مولود؟ بمعنى موجود مع الآب في قدمه لأن الخلق صفة من صفات المخلوقين؟.

وقد ازدادت حدة الفكر وتصلبه بعد أن اعتنقت المسيحية طوائف الوثنيين من

---

(١) بوكاي ص ٩٦.

اليونان والرومان والمصريين قدموا إليها حاملين موروثاتهم الفلسفية العريقة المغرقة في القدم فكان لذلك أثره الكبير في الانقسامات المسيحية. ولكن تلك الانقسامات بقيت كامنة في الظل لا تستطيع المجاهرة طيلة ظروف الاضطهاد الروماني. فقد كان أتباع المسيح طيلة تلك العهود لا يتفقون إلا في الانتماء إلى المسيح. ويختلفون في جميع ما سوى ذلك وبالأخص حول «حقيقة شخصه» و«موقعه من الله» و«من الرسل».

ورسل المسيح كانت تتجاذبهم وتتقاذفهم ثقافات وفلسفات الأمم. وبعض النصوص من أسفار التوراة. ولكن...؟ ما إن اطمأن المسيحيون على موقعهم العقائدي وثبات دعوتهم بعد أن منحهم الإمبراطور قسطنطين حرية الاعتقاد وممارسة الطقوس وأعلن انضمامه إليهم وحمايته لهم حتى برزت الخلافات لتتصدر النشاط الفكري في كل مكان. وظهرت البدعة الأريوسية كأول محرض أوجب إحياء فكرة المجمع المسكوني الذي مرَّ عليه قرابة ثلاثة قرون منذ أن انعقد بين بولس والتلامذة في أورشليم بعام ٤٩ ـ م. فانعقد مجمع نيقيا في عام ٣٢٥ م تحت إشراف الإمبراطور، وقد دعي إليه رؤساء المسيحية في العالم آنذاك فبلغ عدد الأساقفة الذين شاركوا فيه ٢٠٤٨ ـ أسقفاً. يختلفون في المذاهب والآراء:

ـ فمنهم من كان يقول: بألوهية المسيح وأمه وهم المريميون[١].

ـ ومنهم من يقول: إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت عن شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها[٢].

ـ ومنهم من يقول: إن مريم لم تحبل بالمسيح تسعة أشهر بل مرَّ في بطنها كما يمر الماء من الميزاب لأن الكلمة دخلت أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد[٣].

ـ ومنهم من يقول: إن الله جوهر واحد قديم وأقنوم واحد ويسمونه بثلاثة

---

(١) ويسمون البربرانيون.
(٢) سابيلوس وشيعته.
(٣) مقالة إليان وشيعته.

أسماء ولكن لا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس[1].

- ومنهم من يقول: إنهم ثلاثة آلهة «صالح» و«طالح» و«عدل بينهما»[2].

- ومنهم من يقول: بألوهية المسيح اتباعاً لإنجيل بولس[3].

ومن بين تلك المقالات جميعها تبنى الإمبراطور «المقالة الأخيرة» التي اتفق عليها ٣١٨ أسقفا من بين المجتمعين كلهم. ويقول ابن البطريق واصفاً نتيجة المجمع: وضع الملك للثلاثماية وثمانية عشر أسقفاً مجلساً خاصّاً عظيما، وجلس في وسطهم وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه ووضعها بين أيديهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين. فباركوا الملك وقلدوه سيفه وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذُبَّ عنه، ووضعوا له أربعين كتابا فيها الشرائع والسنن منها ما يصلح للملك أن يعلمه ويعمل به ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا به: (محاضرات في النصرانية).

وحول المعتقد الذي تبنَّاه الامبراطور يمكن أن ندرج الملاحظات الآتية:

أ- صدر لأول مرة «قانون للإيمان» ينص على أنه يلخص جوهر الدين المسيحي وقد سمي «الإيمان النيقاوي» أو «دستور نيقية المشهور» الذي تحددت في فقرته الثانية مساواة ابن الله للآب في الجوهر. وفي ختام هذا الدستور أضاف آباء المجمع العبارة الصارمة التالية: «القائلون بأنه كان وقت عندما لم يكن الابن أو إنه لم يكن موجوداً قبل الولادة أو صدر عن غير الموجود والذين يؤكدون بأن ابن الله له كيان من كائن آخر أو جوهر آخر أو أنه مخلوق أو متغير أو أمثال هؤلاء تسلمهم الكنيسة الرسولية الجامعة للفرز[4].

ب - واصبحت العقيدة مفروضة من السلطان وتنتشر تحت حمايته.

---

(١) بولس الشمشاطي بترك أنطاكية.

(٢) مقالة مرقيون الذي زعم أتباعه أنه رئيس الحواريين وأنكروا بطرس.

(٣) مقالة البوليسيين و ٣١٨ اسقفا.(هذه التعاريف من محاضرات في النصرانية للامام «أبو زهرة: ص ١٢٨).

(٤) تاريخ الكنيسة ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

ج ـ والجماعة التي فرضها قسطنطين زودها بصلاحية تحريق الكتب التي خالفت «الدستور» وملاحقتها في كل مكان ومن المفارقات التي أبرزتها هذه الصلاحية المحمية من السلطة:

١ ـ إن التحريم والتحريق التاليين لمجمع نيقية عم فقضى فيما قضى على «رسالة بولس إلى العبرانيين» و«الرسالة الثانية لبطرس» و«الرسالتين الثانية والثالثة ليوحنا» و«رسالة يعقوب» و«رسالة يهوذا» و«مشاهدات يوحنا».

٢ ـ إن قسطنطين تدخل ذلك التدخل الحاسم وهو لم يكن قد تنصَّر. فقد ثبت عن «أبوسيبوس» الذي تقدس الكنيسة كلامه وتسميه «سلطان المؤرخين» أن قسطنطسن عمِّد حين كان أسير فراشه للمرة الأخيرة قبل موته، وأن الذي عمَّده هو المؤرخ نفسه الذي كان صديقا له» فقسطنطين ظل دون عماد أي خارج الانتماء المسيحي حتى قبيل وفاته.

٣ ـ إن من يتصدى إلى دراسة العصرالذي كان يعيش فيه قسطنطين يتلمَّس فيه غلبة الوثنية على فكر العالم المعروف وفلسفته. وهذا يفسر لماذا ظل الإمبراطور يستخدم ألفاظاً توحيدية يستطيع أن يقبلها كل وثني. ويفسر لماذا استخدم في تدشين القسطنطينية شعائر وثنية ومسيحية معاً، ولماذا استعمل الرقى السحرية لحماية المحاصيل وشفاء الأمراض.

وفي كتاب الإمبراطور إلى آريوس ويوسيبوس تصريح بأن هدفه من تبني المسيحية فيما بعد هو الاستفادة منها في تدعيم الحكم ومما جاء في الرسالة:

«لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس في الله إلى صورة واحد لأقوي الاعتقاد بأني إذا استطعت أن أوحد آراءهم في هذا الموضوع سهل علي كثيراً تصريف الشؤون العامة».

ذلك كله وكثير غيره مما لايتسع له المجال هنا يبين مدى الأثر الكبير الذي حفرته الوثنية في المسيحية[١].

(١) يبدو هذا الأثر في فلسفة التثليث المكونة من الشعائر الوثنية والمسيحية (قصة الحضارة ص ٣٨٩).

د ـ يقول بوكاي في كتابه الآنف ذكره:

«في أواخر القرن الثاني كانت لا تزال تنتشر بين النَّاس كتابات كثيرة عن المسيح، مما حمل الكنيسة على استبعادها جميعا تقريبا فيما عدا ما أثبتته في قائمة رسمية من الكتابات التي شكلت الكتب المعترف بها»[1].

ولقد كان من بين ما حذف وألغي واستُبعد أكثر من مئة إنجيل منها:

«أناجيل الناصريين» و«أناجيل العبرانيين» و«أناجيل المصريين» و«إنجيل توما» و«إنجيل برنابا».

وعندما وُضعَت القائمة الأولى لأول مرة بمناسبة محاكمة «مرسيون» كان فيها الأناجيل الأربعة الحالية ورسائل بولس وأعمال الرسل. ولقد ظلت القائمة عرضة للتردد والوضع والرفع. حتى مجمع هيبون بعام ٣٩٣ م وقرطاجة بعام ٣٩٧ م. إلا أن الأناجيل الأربعة ظلت تتصدر القائمة منذ أواخر القرن الثاني.

و ـ الإشارة إلى بعض الاختلافات في الأناجيل:

لقد أجاز دارسو العهد الجديد لأنفسهم أن يعلنوا عن وجود اختلافات في النصوص لا يمكن تسويتها وتترك الكثير من الحرج والارتباك عند المؤمنين، وقد بنيت جرأتهم تلك على تجريد أصحاب تلك النصوص من العصمة وإسقاط قابلية الخطأ على أقوالهم وأفكارهم.

فالامتلاء بالروح القدس لا يقتضي أن يكون كل ما ينطق به المتكلم وحيا من الله، ولا أن جميع ما يفعله إنما يفعله بيد الله التي لا تخطىء، كما إنَّه لم ينعقد إجماعٌ عند مفكري المسيحية وفلاسفتها على أن الرسل كانوا ينطلقون من الإلهام في جميع ما كتبوا وما صنعوا وتحدثوا.

فمنهم من قال:

---

(١) بوكاي ـ ص ٩٩.

أ ـ إن إنجيل متى كتب في الأصل بالعبرانية ـ ولكنه فقد ـ ولم يثبت أن أحداً قرأه إلا مترجماً إلى اللغات الأخرى. والترجمات تنفي العصمة والإلهام لأن الترجمة هي لغة المترجم وصياغته وأسلوبه وذلك كله خاج حدود الإلهام.

ب ـ لو سألنا على سبيل التحقيق والاستفهام: أي الأجزاء من العهد الجديد تعتقدونها إلهاماً؟ لجاءنا الجواب: هي التي تبحث في الأحكام وتتنبأ بالحوادث الآتية وتتحدث عن مسائل المصير، لأنها أصل المسيحية، أما الاجزاء الأخرى فقد كان حفظ الحواريين لها كافياً لدعمها وبيانها. وهكذا نخرج بنتيجة هي: إن في «العهد الجديد» ماهو إلهامي وما هو غير إلهامي.

ج ـ ولكن لو قابلنا بين مارواه «متى» في الآيات ١٨ ـ ٢٢ من الإصحاح ١٠ وما رواه مرقس في الآيات ١٠ ـ ١٢ من الإصحاح ١٣ وبين موقف بولس أمام حنانيا الذي جاء وصفه في الإصحاح ٢٣ من أعمال الرسل لوجدنا أن تصرفات بولس وأقواله لا تتفق مع أقوال المسيح:

«ينبغي أن يكرز بالإنجيل أولاً في جميع الأمم. فمتى ساقوكم ليسلموكم فلا تعتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا» (مرقس ١٣/١٠ ـ ١١ ـ ١٢). و(متى ١٠/١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠)».

«فأمر حنانيا رئيس الكهنة الواقفين عنده أن يضربوه على فمه، حينئذ قال بولس سيضربك الله أيها الحائط المبيَّض، أفأنت جالس تحكم على حسب النَّاموس وأنت تأمر بضربي مخالفاً للناموس. فقال الواقفون: أتشْتُمْ رئيس كهنة الله. فقال بولس، لم أكن أعرف أيها الإخوة أنه رئيس كهنة لأنه مكتوب رئيس شعبك لا تقل فيه سوءاً، أعمال الرسل ٢٣/ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥».

ومن السهل على قارىء أقوال بولس وتصرفاته أن يكتشف محاولته للتخلص من الضرب فهو قد نفى معرفته أن يكون «حنانيا» رئيس كهنة، مع أنه ماثل بين يديه للمحاكمة، وأعلن أن رئيس الشعب لا يقال فيه السوء مع أن المسيح كان قد ندَّد برؤساء الكهنة وهاجمهم ولم يهادن أيّاً منهم حينما كان يلمس فيه الانحراف عن الحق.

د ـ ومع أن الأناجيل لا تؤمن بأب بيولوجي للمسيح، فإن «متى» ينسبه بدءاً من يوسف «خطيب مريم» متسلسلاً من يعقوب حتى داوود الملك عن طريق سليمان مروراً بثلاثين شخصاً ثم يستمر بأربعة عشر اسماً من داوود إلى ولده «يَسَّى» حتى تنتهي شجرة النسب بإبراهيم الخليل (١/١ ـ ١٦ متى). أما في «لوقا» فإن النسب يصل إلى داوود عن طريق أبناء ولده «ناثان» مروراً بستة وثلاثين اسماً ليستمر أربعة عشر اسماً حتى يصل إلى إبراهيم (٣/ ٢٣ ـ ٢٨ لوقا). والخلاف بين النسبين ليس في اسم أو اسمين أو ثلاثة بل في جميع الأسماء، لأن الشجرة النسبية التي تفرعت عن سليمان من داوود هي غير الشجرة النسبية التي تفرعت عن ناثان بن داوود.

هـ ـ إن تسليم المسيح للمحاكمة كان بعد العشاء الأخير مع الحواريين، وهو عشاء الفصح، كما ورد في الإصحاح ٢٦ ـ من متى والإصحاح ٢٤ ـ من مرقس والإصحاح ٢٢ ـ من لوقا. أما «يوحنا» فهو يذكر أن التسليم كان قبل الفصح حيث يقول: «وكان استعداد الفصح... ١٤/١٩». ومعلوم أن العشاء كان قبل تسليمه ومثوله للمحاكمة أمام بيلاطس أي إنه سُلِّم ومَثُل أمام المحاكم قبل «استعداد الفصح». فهذا التضارب يصعب تعليله والبحث عن عناصر الإنسجام فيه نظراً لما كان يحمله أبناء ذلك الزمان من أهمية لعيد الفصح، فلا يمكن أن يُنسى موعِدَ العشاء مع الحواريين بحيث يختلط التحديد بين أن يكون قبل العيد أم بعده خاصة وقد ورد وصف ذلك اليوم في الأناجيل الثلاثة بآيات صريحة دلت على أنه اليوم الأول من الفطير حيث كانوا يذبحون الفصح وقال المسيح لبطرس ويوحنا: «اذهبا وأعدَّا لنا الفصح لنأكل (لوقا ٢٢/ ٧ ـ ٨)».

و ـ إن المرأة التي طلبت من المسيح شفاء ابنتها المجنونة وصفها «متى» في الإصحاح ١٥ بأنها كنعانية. ولكن مرقس قال: «إنها أممية أي غير يهودية» وقال إن جنسيتها فينيقية، الإصحاح ٨ ـ مرقس.

ز ـ وفي «متى» إن يهوذا هو الذي دل على المسيح بتقبيله إياه أمام الجند ومناداته «بيا سيدي ـ الاصحاح ٢٦». ولكن لا يرد في «يوحنا» ذكر ليهوذا بل يوجد فيه أن المسيح هوالذي قدم نفسه إلى الجند ـ (يوحنا الإصحاح ١٨).

وفي «متى»: «وإذ واحدٌ من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد

رئيس الكهنة فقطع أذنه فقال له يسوع: رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون ـ ٢٦/ ٥١ ـ ٥٢».

وفي يوحنا: «ثم إن سمعان ـ بطرس كان معه سيف فاستله وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى وكان اسم العبد «مَلْخُس» فقال يسوع لبطرس اجعل سيفك في الغمد الكأس التي أعطاني الرب ألا أشربها؟ ١٨/ ١٠ ـ ١١».

ح ـ وفي الاصحاح ٣٨/ ٥٠ ـ ٥٥ من إنجيل متى وصفٌ لردة الفعل التي صدرت عن الطبيعة والكون يوم صلب المسيح:

«فصرخ يسوعُ أيضاً بصوتٍ عظيم وأسلم الروح وإذا «حِجَابُ» الهيكل قد انشق إلى اثنين من فوق إلى اسفل والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين وأما قائد المئة ومن معه يحرسون يسوع، فلما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا: حقا كان هذا ابن الله».

ط ـ وفي الإصحاح ٢٣/ ٤٤ ـ ٤٧ من إنجيل لوقا: «وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة. وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل في وسطه ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يدك استودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروح. فلما رأى قائد المئة ما كان من مجد الله، قال: بالحقيقة كان هذا الإنسان بارا».

ي ـ وفي الاصحاح ١٥/ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ من إنجيل مرقس:

«ولما كانت الساعة السادسة كانت ظلمة على الأرض كلها حتى الساعة التاسعة وفي الساعة التاسعة صرخ بصوت عظيم قائلا إلوي إلوي لماذا شبقتني. وصرخ بصوت عظيم وأسلم الروح وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى أسفل. ولما رأى قائد المئة الواقف مقابله قال: حقا كان هذا الإنسان ابن الله».

ك ـ وفي الإصحاح ١٩/ ٢٩ ـ ٣٠ من إنجيل يوحنا:

«وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاًّ فملأوا اسفنجة من الخل ووضعوها على زوفا

وقدموها إلى فمه[1] فلما أخذ يسوع الخل قال: قد أكمل ونكَّس رأسه وأسلم الروح».

تلك روايات أربع لحادثة واحدة رواها أربعة شهود «عيان» كما هو الاعتقاد السائد. ليست فقط غير متفقة بل تتناقض تناقضاً لا يمكن تفسيره أوالعودة به إلى النسيان وتفاوت مدارك الرواة واستيعابهم.

ـ فيوحنا لا يذكر شيئاً عن ظواهر الطبيعة الخارقة التي وردت في إنجيل متى ولا يروي شيئاً عن قائد المئة.

ـ والظلمة التي عمت الأرض من السادسة حتى التاسعة وردت في مرقس ولوقا ولم ترد في متى ويوحنا.

ـ وزلزال الأرض وتشقق الصخور وقيام القديسين من القبور ودخولهم إلى المدينة المقدسة وظهورهم إلى الناس، لم ترد إلا في إنجيل متى.

ثم: إن هذه الخوارق كان من شأنها ـ لو وقعت فعلاً ـ أن تدحض معارضة اليهود وتدفع الناس ـ كل الناس ـ إلى الإيمان بالمسيح.

وقد علق العلامة المسيحي «نورتن» على هذه الحكاية تعليقا نرى من المفيد إيراده:

«هذه الحكاية كاذبة والغالب أن أمثالها كان رائجا في اليهود بعد خراب أورشليم، فلعلَّ أحداً كتب هذه الحكاية في النسخة العبرانية ـ وأدخلها في متن الكتاب ـ وهذا المتن في يد المترجم الذي ترجمها مثلما وجدها دون تحقيق. وإن كان الأمر كذلك، فكيف يكون هذا الكتاب وأشباهه مصدراً لاعتقاد جازم وإيمان بدين؟ وكيف يزعم زاعم أن هذا الكتاب بحواشيه الدخيلة غيرالمعلومة عن متنه الأصيل هي بإلهام من الله العلي القدير.

ل ـ وخطبة الوداع: وهي تغطي واقعة من أكثر الوقائع التصاقاً وتأثيراً في

---

(١) ليس لكلمة زوفا أصل عربي ولكن فهم أنها تعنى القصبة بلغة الإنجيل حيث وردت «قصبة» في متى: ٢٧/ ٤٥ ـ ٤٩.

الوجدان المسيحي، وهي مفردة لم تتكرر، وقد تمت أو من المفروض أن تكون قد تمت أمام جميع التلامذة والمريدين، لأنها اللقاء الأخير مع المعلم، تلك الخطبة ورد الإخبار عنها في الأناجيل الأربعة بشكل مضطرب:

ـ فعند يوحنا: استغرقت مئة وخمساً وخمسين آية أفرغت في الإصحاحات (١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٧). وشكلت أطول خطب الإنجيل التي أودع المسيح فيها نصائحه ووصاياه ومواعظه وألقاها بين أيدي التلاميذ لكي تكون دستور هداية لهم وللأمم[1].

ـ ولكننا:

ـ لا نجدها في لوقا.

ـ وفي مرقس لا تتجاوز العشرين آية من الإصحاح ١٣. حتى إن هذه الآيات لم تقتصر على المواعظ والوصايا والإرشاد بل تخللتها آيات إخبارية تنبيئية عما سوف يحدث في المستقبل.

ـ وفي متّى بالرغم من أنها قاربت المئة آية واستغرقت كامل الإصحاحين ٢٤ و ٢٥ فقد تخللتها آيات إخبارية وأنباءٌ.

ومع هذا فلا نجد أي توافق بينها وبين ما في إنجيل يوحنا سواء لجهة الأفكار أم لجهة المواعظ والقارىء لهما كليهما يخرج بنتيجة أن كلا منهما قيل في مكان آخر وفي زمان آخر.

تلك الفقرات من (أ ـ ل) لا تروي غير القليل من المتناقضات التي حفلت بها الكتب الأربعة وتوابعها من العهد الجديد. قدمناها كأمثلة على موضوع فرعي من مواضيع «هذا الكتاب» ولقد كان الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق» قد تتبَّع الكثير منها حتى زادَ على المئة من المتناقضات نكتفي بالإشارة إليه لكي يجد فيه البغية من أراد التوسع والازدياد من المعارف.

* * *

بعد أن قدمنا دراسة تحت العناوين:

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٩١.

ـ ما هوالمقصود بالإيمان؟.

ـ وأين يضع الكتاب الإسلامي نفسه بالنسبة إلى بقية الكتب؟.

ـ وما هي حدود تصديق القرآن للتوراة والإنجيل؟.

ـ وماذا تعني كلمة «مصدقاً لما بين يديه» في المفهوم القرآني؟

ـ ومسيرة التوراة والانجيل عبر الزمن والأمم.

صار في الإمكان مواجهة الموضوع الرئيس. وتقديم الجواب عليه: وهو: تحديد الأسباب التي منعت، المسلم أن يؤمن بالتوراة والإنجيل الحاليين إيماناً عقائديا فيتخذهما مرجعاً في العبادة والتشريع من دون القرآن.

تلك الأسباب يمكن استنتاجها من الأبحاث التي سبقت دراستها وهي:

ـ لقد جمع الله في القرآن كل ما أنزله في الكتابين من الحقائق وزاده فوق ذلك من الكمالات والحقائق ما أغناه عنهما وعن غيرهما. وجعله كفاءً لكل حاجات الإنسان الفكرية والعقائدية والتشريعية لذلك صار الإيمان به مَناطَ التكليف الإلّهي ومن يبتغ الهداية عن طريق غيره فهو في الآخرة من الخاسرين.

ـ والكتابان لا يتصلان بسندهما الرسولي بل يقطعهما عنه فراغ طويل. فالتوراة لم يبدأ في كتابة أول سفر من أسفارها إلا بعد ما يزيد على ستة قرون من وفاة موسى ولم تنته الاضافة إليها حتى القرن الثالث الميلادي.

أما الأناجيل الأربعة فلم تعرف معرفة كاملة قبل المجمع المسكوني في «نيقية» بعام ٣٢١ م. ففي الزمن السابق لذلك المجمع كان ثمة ركامٌ من الكتابات والأناجيل والشفويات السائرة، لا تضبطها وحدة موضوعية ولا كتابية ثم صار اصطفاؤها فيما بعد وتحريق ما استبعد منها. ولما كان الاصطفاء تحت عناية الإمبراطور وتحقيقا لمصلحة الحكم. صار الإختيار والاستبعاد بالإضافة إلى أن التراث الذي اختير روعي فيه التقاءه مع الجذور الثقافية والفلسفية التي كانت لدى الامبراطور[1].

---

(١) سوف يرد في فصول قادمة مدى تأثر الفلسفة المسيحية بالفلسفة الوثنية.

ـ والتناقضات التي استعرضنا اليسير منها، لا يمكن أن نعود في تعليلها إلى اختلاف الطبائع البشرية وتفاوت إمكانيات الاستيعاب والتذكر والسرد عند الأفراد. خاصةً لأن فيها مواضيع لا يستطيع أن ينساها من جَرت أمامه. فإن كانت الحوادث والمعجزات الخارقة قد صدرت عن المسيح، كل منها في مناسبتها وزمانها، وكان الرواة لها تلامذة حاضرين قيامها، فإن اختلافهم في روايتها اختلافاً أساسيا لا يمكن تفسيره إلا بأحد تعليلين: إما إنها ليست من الإلهام الإلّهي. مما مكّن من روايتها روايات مختلفة متناقضة. وإما إنها موضوعة ومدسوسة على الرُّواة تأثُّراً بالظروف السياسية والعقائدية وسواهما.

* * *

وعلى ضوء ما تقدم، نستطيع أن نلخص الموقف الإسلامي من الكتابين بالكلمات الآتية:

إذا كان تابعوا الكتابين اعتقدوا أنهما إلهام من الله دون الالتفات إلى غيرهما من الكتب والكتابات والرسائل التي بلغت المئات وتحدثت حول السيد المسيح والتي حكم عليها «حكماً بشريا» بالإعدام حرقاً وحكم على مكتنزيها بالكفر والهرطقة والتصفية الجسدية. فإن هؤلاء ظلوا معذورين فيما كانوا يعتقدون حتى نزول الفرقان، أما بعد تنزيله واحتوائه على قواعد التفريق بين الحق والباطل والإيمان والكفر ودعوة أهل الكتاب إلى الكلمة السواء التي تلتقي عندها الأديان كافة فقد زال عذرهم وبطلت حجتهم ولا يرفع عنهم صفة الكفر بقاؤهم على نصوص ترفض الخضوع لقواعد العلم والموضوعية والتمحيص والاستقراء

إن حذر المسلم من الكتابين بصيغتهما المتداولة وعدم ثقته بنسبهما الرسولي لا يقل عن إيمانه بأنهما كتابان أُنزلا في الأصل من السماء ولكن نصوصهما التنزيلية عبثت فيها أيدي الزمان وعواطف الإنسان فلم تعد مرجعاً مأموناً للعقيدة والشريعة والقيم.

* * *

رابعاً: رؤية المسيح ومحمد في الكتب الثلاثة:

تمهيد:

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديَّ من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ (٦١/٦ : الصف).

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. . .﴾ (١٥٧/٧ : الأعراف).

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين﴾ (١٥/٥ : المائدة).

﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّنَّاه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (١٥٩/٢ : البقرة).

بهذه الآيات وأمثالها أوحي إلى النبي أن كتب السماء بشرت بمجيئه. فعيسى سماه باسمه (٦١/٦) وفي التوراة والإنجيل كتابة عنه وعن مهمته وهي إنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم الآصار والأغلال (١٥٧/٧) ويبين ما يخفون من الكتاب (١٥/٥) ويلعن ويستكثر من اللعن على من يكتمون ما أنزله الله من البينات (١٥٩/٢).

نعم: هذه من ثوابت القرآن التي هي عند المسلمين من ثوابت الإيمان.

ولكن: لماذا لم يضع القرآن أدلةً يُهتَدى بها على الآيات التي بَشَّرت بالنبي محمد في التوراة والإنجيل؟ وهل يمكن الاهتداء إليها عن طريق التفسير والتحليل والقياس؟ ولماذا رُفِعت تلك النصوص من الكتاب المقدس؟ (العهد القديم والعهد الجديد)؟.

في الإجابة على هذه الأسئلة تغطية للسؤال العام الذي وضع عنواناً للفقرة «ثالثاً» لذلك سوف نبذل المحاولة الممكنة كالآتي:

١ ـ عندما أنزل القرآن كان كل من التوراة والإنجيل قد بلغ نهاية مسيرته النصوصية والتاريخية واستقر على وضعه الحالي.

فالتوراة ـ كما مرَّ معنا، بما أضيف إليها وتراكم عليها وفقد منها ـ لم تعد قادرة على بيان ما هو منزل منها على موسى وما هو موضوع خلال ثلاثة وعشرين قرناً.

والإنجيل الذي نجا من الحريق من بين ما يزيد على مئة إنجيل تقرر تحريقها، عدا الكتابات والرسائل لا يصف نفسه بأنه الكتاب الذي نزل به الوحي على عيسى. بل هو روايات أربع رواها أشخاص لم يقم الدليل اليقيني على أنهم هم الذين توجه إليهم المسيح بخطابه الأخير وأرسلهم إلى الأمم. بالإضافة إلى هذا كله: فإن الأصل الأول، لكلا الكتابين، غير معروف من أحد. ولم يثبت في تاريخ أي منهما أنه كان متداولاً بنصه الأصلي في يوم من الأيام. وإن أقدم تداول لهما كان في الصيغ المترجمة إلى اللغات الأجنبية. حتى ليبدو من المستحيل تقريباً العثور أو الاستدلال على الترجمة الأولى للكتابين.

ـ فالتوراة دونت لأول مرة باللغة العبرانية ثم ترجمت إلى الآرامية ثم منها إلى اليونانية فاللاتينية فاللغات الأخرى.

ـ والأناجيل لم تكتب في الأصل بلغةٍ واحدة.

ـ فإنجيل متى كتب بالعبرانية أولاً، ثم ترجم إلى الآرامية ثم منها إلى اليونانية. وفي القرن الثالث الميلادي كان التدوين العبراني والآرامي مفقودين منها ولم يكن متداولاً غير النص اليوناني[١].

ـ وإنجيل مرقس كتب لأول مرة في اليونانية[٢].

ـ وكذلك إنجيل لوقا[٣].

---

(١) محاضرات في النصرانية ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق ص ٤٧.

(٣) المرجع السابق ص ٥٠.

ـ أما إنجيل يوحنا فليس هناك محرر لتدوين إنجيله كما إنه ليس هناك بيان خالص من الشك بحقيقة كاتبه. ومع ذلك ففي القرن الرابع لم يكن معروفاً إلا في اليونانية[١].

لذلك ـ في رأينا ـ لم يَدُلَّ القرآن على نصوص التبشير المنزلة بالكتابين.

٢ ـ على أن اكتفاء القرآن بالإخبار عما كان في الكتابين من نصوص تبشيرية بالرسالة وعدم إيراده لتلك النُّصوص لم يمنع العلماء من أن يعكفوا على دراسة التوراة والإنجيل الحاليين وأن يعودوا بهما إلى الأصول القديمة للعثور على تلك النصوص التي عبثت بها أيادي الظروف والأهواء. فلم تبق منها غير الأطلال. ولقد كانت مهمة عسيرةً جدا، إذ لم يكن واضحاً ومؤكداً كيف وبأية لغةٍ نزل الكتابان. وتساءلوا: هل؟ ما ترجم منهما إلى الآرامية فاللاتينية والإغريقية والرومانية والإفرنسية والإنكليزية ثم مؤخراً إلى العربية يعبِّر عن الأصل التنزيلي؟. ذلك لأن المخطوطات القديمة العهد بالأصل قد أحرقت وغابت عن الوجود. ولم يبق غير ما خلَّفه الأحبار والرُّهبان والقسيسون والنساخ من المؤلفات التي اختلفت باختلاف الانتماء فأورثت العداوة والبغضاء وأثقلت هذا الكم الكبير من التراث بالشك في صحة انتسابها إلى الأصل التنزيلي. ومع ذلك فإن علماء التاريخ والألسن والمنطق والأديان المقارنة لم يستسلموا بل استمروا منكبين على القياس والتمحيص والاستقراء فصلاً فصلاً وآية آية وكلمة كلمة عوداً بها ما أمكن إلى الجذور التاريخية والتنزيلية. فتتالت مؤلفاتهم ولكنها ظلت محدودة الانتشار لصعوبة الطباعة وفقدان وسائل النشر والإيصال وفرض منع التجول على الرأي فلم تتيَّسر لها أسباب الذيوع والعلنية إلا منذ مطلع هذا القرن الذي شاهد إحياءً للتراث الجدلي القديم وتحريضا للفكر النقدي الاستقصائي الحديث. وبدأت المؤلفات القديمة والحديثة مشفوعة بالدراسات النقدية ترد تباعاً إلى المكتبات وتحتل مواقعها البارزة في صدورها[٢].

---

(١) المرجع السابق ص ٥٤.

(٢) من هذه الكتب: «المُهتَدَى إلى الإسلام من اليهودية» للاسكندراني نشر في عام ١٩٠٣: و«تاريخ الحضَارة الاسلامية ـ القاهرة ٩٥٢» و«الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة لبوكاي نشر في القاهرة بعام ١٩٧٨» و«شفاء الغليل في الرد على من بدل التوراة والإنجيل =

٣ ـ وإننا فيما يلي نضع بين يدي القارىء يسيراً مما حفلت به تلك المؤلفات:

في التوراة:

نقدم في هذه الفقرة أمثلة بمنزلة «الارشادات» من نسخة التوراة المصححة التي ترجمت عن اللغات الأصلية «العبرانية» و«الكلدانية» و«اليونانية» كانت قد نشرتها باللغة العربية جمعية التوراة الأميركانية:

أ ـ قال موسى مباركاً رجل الله:

«جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعةٍ لهم» (تثنية ٣٣/ ١/ ٢).

ب ـ «كان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس. وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من مصر». (تكوين: ٢١/ ٢٠ ـ ٢١).

ج ـ «أقيمُ لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه أما النبي الذي يطغى فيتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي». (تثنية: ١٨/١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠).

د ـ «وحي من جهة بلاد العرب، في الوعر، في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدَّدانيين ويا سكان أرض تيماء، وَافُوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ومن أمام القوس المشدودة. ومن أمام شدة الحرب فإنه هكذا قال لي السيد

= ـ نشرة الرئاسة العامة للبحوث العلمية بالرياض ١٤٠٣ هـ» و«محاضرات في النصرانية لأبي زهرة» و«النشاط الجدلي لعلماء المسلمين ضد اليهودية والنصرانية ـ محاضرة ألقاها السامرَّائي في الرياض بعام ١٤٠٢ هـ» و«التثليث ـ الاختلاف بين اليهود والنصارى مواضع الاختلاف بين المسلمين والنصارى» و«التثليث والتشبيه ونبوءة محمد وتمثيل الأب والابن وروح القدس بالعقل والعاقل والمعقول لإسحق بن زرعة المنطقي من كبار علماء اليعقوبية توفي في ١٠٠٧ م».

في مدة سنة كسنة الإجير يفنى كل مجدِ قيدار وبقية الأقواس من أبطال بني قيدار تضمحل». (إشعياء: ٢١/ ١٣ ـ ١٧).

هـ ـ «لترفع البريّةُ ومُدُنُها صَوْتَها الديارُ التي سكنها قيدار، ليَترنَّمْ سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا الرب كالجبار يخرج ويثيرُ حميَّة كرجُلِ حرب ويهتف ويصرُخُ ويقوى على أعدائه». (أشعياء: ٤٢/ ١١ ـ ١٢).»

و ـ «الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران». (حبقوق: ٣/ ٣).»

ز ـ «وأزلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً». (حجِّي: ٢/ ٧)».

«مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول وفي هذا المكان أعطي السلام». (حجِّي: ٢/ ٨ ـ ٩).»

ح ـ «يهوذا «جَرْوُ» أسد جثا وربض كأسد وكلبوة لا يزول قضيب من يهوذا ومُشْتَرَعٌ من بين رجليه حتى يأتي «شيلون» وله يكون خضوع الشعوب». (تكوين: ١٩/ ٩ ـ ١٠ ـ ١١).»

ط ـ «فأخذ يعقوب حجراً وأوقفه عمودا. وقال يعقوب لإخوته التقطوا حجارة، فأخذوا حجارة وعملوا رجمة فدعاها يعقوب جلعيد. وقال لابان: هذه الرجمة هي شاهدة بيني وبينك اليوم لذلكَ دعي اسمها«جلعيد» و«المصفاة». لأنه قال: ليراقب الرب بيني وبينك حينما نتوارى بعضُنا عن بعض». (تكوين: ٣١/ ٤٥ ـ ٤٩)».

ونحن في هذا المختصر: لن نستطيع الطواف بالقارىء على جميع المؤلفات التي أشرنا إليها في الهامش لذلك نكتفي بوضع بعض الملامح التي نقتبسها من كتاب البروفسور عبد الأحد داوود «محمد في الكتاب المقدس» طبعة ثانية ١٩٨٥[1].

---

(١) هو عالم كلداني لاهوتي متبحر أسلم وكان اسمه قبل الاسلام «القسيس داڤيد بنجامين» كاثوليكي المذهب كان قسيساً لطائفة الكلدانيين الموحدة ولد بعام ١٨٦٧ م في أورميا =

١ ـ في النبوة الواردة في الفقرة أ ـ (تثنية ـ ٣٣/ ١ ـ ٢):

«نور الله أشرق من ساعير[١] وتلألأ من جبل فاران وعن يمينه نار شريعة. . .».

هذه المواصفات لم تتوافر إلا في النبي محمد. حفيد إسماعيل الذي تجول مع والدته من بير سبع بسيناء وسكن في فاران[٢] ثم جاء حفيده محمد بشريعةٍ لا تنطفىء.

٢ ـ في الفقرة ـ ب ـ التي تحدثت عن اسماعيل وأمه هاجر اللذين استقرا في فاران وقد أنجب اسماعيل ابنه قيدار وهو عدنان جد العرب المستعربة التي ينتمي إليها ويتسلسل منها حفيده محمد: كما يتكرر مضمون هذه الفقرة في صلاة النبي حبقوق:

«الله جاء من تيمان ـ والقدوس من جبل فَاران جلالُه غطَّى السماوات وله من يده شعاع. نظر فرَجَفَ الأمم ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القِدم». (حبقوق: ٣/ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦).

٣ ـ وفي الفقرة ـ و ـ (التثنية ـ ١٨/ ١٨، ١٩، ٢٠):

«أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه».

هذه الكلمات لا يمكن أن تجد موصوفها وضالَّتها إلا في النبي محمد. لأنها كلمات خاطب الله بها موسى متحدثاً عن المستقبل. فالضمير في «لهم» و«إخوتهم» يعود إلى بني إسرائيل وقيام النبي سيكون من إخوتهم وليس منهم.

= بفارس وتلقى دراسة اللاهوت في روما ورسم كاهنا بعام ١٨٩٥ م وقد تساءل بنفسه عما إذا كانت المسيحية بتعدد كتبها وألوانها هي ديانة الله؟ وبعد أن عزل نفسه مدة شهر للتأمل استقال من منصبه الروحي وشرح أسباب الاستقالة وبعد ذلك انضم بعام ١٩٠٤ م إلى الجماعة الموحدة وصار اسمه عبد الأحد داوود.

(١) ساعير هي بير سبع في سيناء.

(٢) فاران هي مكة وبطاحها.

وهذا يعني استبعاد أن يكون المسيح[1] هو المقصود لأنه منهم (من بني اسرائيل) وليس من إخوتهم كما يعني أن النبي المبشر به سوف يكون «نبي شريعة» مثل موسى.

وهذا يستبعد فكرة احتمال أن يكون المقصود هو المجيء الثاني للمسيح. الذي ينتظره المسيحيون لأنه ـ كما يعتقدون ـ لن يأتي قاضياً وحاكما. في حين أن النبي المبشَّر به سوف يأتي قاضياً وحاكماً: «يأتي ومن يده اليمنى تشع الشريعة النارية».

والمجيء هو «من فاران» وليس من القدس أو سواها. وقد تكرر التأكيد على أن «ساعير وفاران» هما مصد الإشعاع النبوي: (الفقرة أ ـ).

٤ ـ وفي نبوءة إشعياء التي مرَّ ذكرها في الفقرة د ـ إشارة إلى السيف المسلول والقوس المشدودة والفرسان الزاحفين من فاران. فتتلاشى أمامها بقية الأقواس من أبطال قيدار ويضمحلُّ مجد بنيه في مدة سنة كسنة الإجير.

٥ ـ وإذ ذاك ترفع البرية والمدن التي سكنها قيدار صوتها ويترنَّم سكان سالع من رؤوس الجبال سروراً بانتصار رَجُل الحرب. (فقرة ـ هـ).

٦ ـ ويتكرر في الفقرتين (و ـ ز) التبشير بالأنوار الساطعة من فاران وقدوم «مشتهى الأمم» و «غايتها» مزلزلاً جميع الأمم ومالئاً بيت الله الأخير بمجد أعظم من مجد بيته الأول ومنه وفيه يستقر السلام.

تُرى؟!؟. هل هنالك بيتٌ لله قصد إليه سفر النبي حجِّي غير البيت الذي أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل في برية فاران مكة المكرمة؟ وهل يفسر هذا التأكيد والتكرار على النَّار الساطعة وامتلاء بيتها بالمجد العظيم والنصر على الأمم ونشر الشرائع بينها إلا على أنه تبشير بالرسالة الإلّهية التي تنطلق جحافلها من مكة المكرمة؟.

٧ ـ وفي فقرة ح ـ تتضح الأمور وتأخذ الكلمة موقعها المكاني، فيهوذا هو

---

(١) المسيح من نسل داوود.

جروُ الأسد الرابض، لن يزول مجده. ولن تتجمد شريعته حتى يأتي «شيلون» وتخضع له كل الشعوب.

من هو شيلون؟ وما معنى هذه الكلمة؟ وهل تحققت نبوءة التكوين؟.

في الإصحاح الأول من صموئيل الآية ٣ وردت هذه الكلمة ولكن بصيغةٍ ومعنىً مختلفين فالتهجئة مختلفة، والدلالة في صموئيل دلالة مكانية، بينما في التكوين تدل على شخص معين[١].

إن الكلمة عبرية احتفظت لها الترجمة بأصلها. وقد فسرها «البروفسور عبد الأحد داوود» بأنها تعني المرسل أو النبي أو الرسول[٢].

ـ فإذا استبعدنا موسى صاحب الشريعة منذ البدء.

ـ واستبعدنا داوود وسليمان اللذين استمر بهما مجد الملك في يهوذا، فإن الشيلون المنتظر الذي خضعت له الشعوب ونسخ الشرائع وأخذ صولجان يهوذا ليس غير النبي محمد. الذي تحققت فيه وفي دعوته جميع الصفات والآثار التي وردت في النبوءة.

ـ ولا يمكن التصور أنه قد يعني المسيح. لأن المسيح رفض الملك والحكم ولم يترك شريعة مكتوبة. ولأنه دعا أن يترك قيصر وشأنه وأن تقام شريعة موسى. ولأنه نفى مقولة اليهود في أن يكون المسيح إبناً لداوود، فداوود دعاه بالروح ربّاً كما جاء (في متى ٢٢/٤٣) قال داوود: قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك)[٣].

وبذلك يكون هذا النفي المؤيد بأقوال داوود نفياً ثانيا لفكرة اليهود القائلة بأن المسيح الذي ينتظرونه هو من نسل داوود. وقد أقام البروفسور عبد الأحد داوود

---

(١) شيلون هي البلدة التي فيها تابوت العهد أو خيمة الهيكل المتنقل. والآية ٣ ـ من الاصحاح الأول من صموئيل هي: «وكان الرجل يصعد من مدينته من سنة إلى سنة يسجد ويذبح لرب الجنود في «شِيلُوَه».

(٢) ص ٨٠ من كتابه.

(٣) وكذلك وردت ذات العبارة في مرقس ١٢/ ٣٥ ـ ٣٧.

تفسيره لهذه الكلمة على إفتراض أنها تحرفت خطأ أثناء عمليات النسخ والترجمات عن أصلها العبري «شيلواه» إلى وضعها الحالي «شيلون» فكلمة «شيلواه» تعني بالضبط «المبعوث أو الرسول» و «شيلواح إلوهيم» تعني «رسول الله».

ـ بعد هذا نقول من خلال النص التوراتي:

ـ إن لم يكن موسى هو الشيلون لأنه مورث الشريعة والصولجان إلى يهوذا.

ـ وإن لم يكن هو المسيح بسبب اختلاف طبيعة وأهداف المسيح عن طبيعة وأهداف «شيلون» في التوراة.

ـ وإن كان اليهود مصرين على أن «شيلون» لم يأت حتى الآن.

فهذا يعني في منطق التوراة أن الصولجان والمجد والشريعة مازالت بين رجلي يهوذا وهذا يخالف الواقع:

(نلفت الانتباه إلى أن بعض ما في هذه الفقرة مقتبس من مؤلف عبد الأحد داوود).

* * *

في الإنجيل:

ومقصودنا هنا هو الإنجيل، الذي أطلق عليه اسم «العهد الجديد» في الكتاب المقدس، أما ماسواه من الأناجيل والكتب فلن تكون موضوعاً لاهتمامنا ما عدا «إنجيل برنابا» الذي سوف نختصر ما فيه من علامات النبوة المحمدية، ونقدم لمحة سريعة عنه وذلك تحت عنوان مستقل، والبحث في العهد الجديد عن علامات التبشير بالنبي محمد هو مهمة شاقة، لأن هذا العهد ليس الكتاب الذي نزل على المسيح بل هو استذكارٌ واستدعاء لما بقي في الحافظة من أخبار المسيح بالإضافة إلى أنه لم يجمع كل شيء عن صاحب الإنجيل. لأن ذلك الجم الغفير من الأناجيل والكتب والرسائل التي «حُرِّمت» و «حُرِّقت» و «لوحق تابعوها» لا بد من أن يكون في بعضها ما يخالف بعض ما في العهد الجديد. مخالفات جدية أوجبت إعدامها وتصفيتها مع معتنقيها أي إنها مخالفات عقائدية جوهرية تتعلق بالظاهرة المسيحية على المستويين الروحي والمادي.

ومع ذلك: سوف نستمر في بحثنا استقراءً وقياساً، وتفسيراً، لبعض النصوص الإنجيلية والتوراتية. محاولين كشف الغموض عنها بأسلوب استنباط التساؤلات وإيجاد الأجوبة عليها كالآتي:

١ ـ ماهو معنى كلمة «الإسلام»؟. وما هو جذرها التاريخي؟.

٢ ـ ما هو المقصود «بالبارقليط» الوارد في الإنجيل وما هو معنى هذا التعبير؟.

٣ ـ ماهو مدى تعبير «الأبوة» في الإنجيل؟ وما هو مدلوله وعمقه العقائدي؟.

٤ ـ ماهي الألفَاظ والعبادات التي دلت على محمد في التوراة؟.

٥ ـ من هو «المعزِّي» في مراسي إرمياء ١/ ١٠ و«مشتهى كل الأمم» في سفر النبي حجي ـ ٢/ ٧؟. وما هو المقصود من هذين التعبيرين؟ وهل يقصدان شخصاً أم جهة معينة؟.

٦ ـ من هو الذي مهد يوحنَّا له الطريق؟ وما هو الفرق بين المعمودية بالماء والمعمودية بالروح والنار؟.

٧ ـ ما هو الأصل التاريخي والفلسفي للتثليث؟ وكيف حلَّ محلَّ التوحيد في المسيحية؟.

١ ـ معنى الإسلام:

الإسلام يعني إعلان عجز المخلوق واستسلامه إلى مشيئة الخالق. عبر عنه النبي إبراهيم الخليل تعبيراً منبثقاً عن فطرته الصافية. بعد أن أخفقت ظواهر الطبيعية في إقناعه. فقال: **﴿ياقوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾** (٦/ ٧٨ ـ ٧٩). فالإسلام هو دين الأنبياء جميعاً بلا إستثناء، ولكنه لم يتم ويتكامل ويترسخ بنيانه العظيم ويتخذ الشكل الكامل لمملكة الله الخالصة إلا على يد محمد بن عبد الله(ص).

إن إسلام السابقين كان ذا طبيعة مختلفة، لأن مباحاته ومحظوراته لم تأخذ حدودها القصوى إلا في شريعة النبي ودعوته. فلم يكن يتنافى مع حنيفية السابقين

أن يتعاملوا مع الرموز المادية بالتقديس. كالنُّصُبِ والتماثيل.

ـ ففي سفر التكوين تمت المباركة وتسليم الأعشار بين إبراهيم وملك القدس (١٤/١٨ ـ ١٩).

ـ و«راحيل» ابنة «لابان» وزوجة يعقوب التي سرقت أصنام والدها ووضعتها في حداجة الجمل وجلست عليها فكادت الحرب أن تقع بينهما. وكان احتجاج «لابان» عليها: «لماذا سرقت آلهتي؟» (التكوين: ٣١/٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٤). مع أنهما كليهما «لابان ويعقوب» نبيّان مسلمان على دين ابراهيم؟.

لذلك: لم يكن إسلام ما قبل الإسلام مستحقاً لحقيقة هذا الاسم على المستوى الشعبي. فهو لم يكن مؤسساً على طاعة الله والاستسلام إلى مشيئته، وهذا ما أسرع بالشعوب التي عرفته في القديم كشعب إسرائيل والشعوب العربية القديمة إلى إهماله ونسيانه وإحلال الممارسات الوثنية محله.

ولنا في اليهود أوضح مثال:

فلقد تلقوه دون أن يتلقوا معه فكرةً حقيقيةً واضحةً عن الله والدين، فَهم منه وإليه في السرَّاء عندما كان ينتقل بهم من نصر إلى نصر ومن كسب إلى كسب، وهم ضده والخارجون عليه عندما تنزل بهم البأساء فيتَّبعون آلهة الأمم الغالبة.

ألم يطلق اليهود اسم المسيح على «كورش» ملك الفرس الذي انتصر على البابليين وأعاد السبي اليهودي إلى أرضه؟.

ألم تنتشر عبادة الآلهة المحلية بين أسباط إسرائيل؟ وكان ذلك سببا في أول عملية جمع يهودي على أساس النصوص؟.

ألم يضطر الملك يوشيا إلى هدم بيوت القرابين وهياكل العبادة التي كان النبي سليمان قد بناها لآلهة الشعوب التي منها زوجاته؟ وهدم النصب التي أقيمت لبعل وكموش ومردوخ وعشتروت؟.

تلك من الثوابت التي اتفق عليها المؤرخون.

والمتتَبع لتاريخ «مفهوم الإسلام» منذ تكونه في صدر إبراهيم الخليل. مروراً

بالموحدين من الرسل والأنبياء وانتهاءً واكتفاءً برسالة النبي محمد. يلمس أنه لم يكتسب «كمال الكينونة» و «ثبات الصيغة» إلاّ باتحاد الدين والدولة في مجتمع تسلَّح بالإيمان وانتضى السيف للدفاع عن إيمانه واعتبر خلاصه الأكيد الوحيد هو في الإعتقاد بوحدانية الخالق.

* * *

٢ ـ ماهو معنى البارقليط ومن هوالمقصود بهذا التعبير؟:

في إنجيل يوحنا، تحدث المسيح في خطبته الوداعية مطوَّلاً عن مستقبل البشر وأعطى الإرشادات إلى التلاميذ لكي ينقلوها إلى الأمم محدداً فيها من سيأتي بعده ليرفع مشعل الهداية الإنسانية، وقد أورد الإنجيل اسم القادم باللغة اليونانية «پاركليتوس» التي أصبحت في الإفرنسية «پاركليت» ومعناها في العربية «المرشد» وقد جاءت في الترجمة العربية لجمعية التوراة الأمريكانية «المعزي» وهذه هي الآيات:

ـ «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم» «معزِّياً آخر» ليمكث معكم إلى الأبد. «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله...» (١٤/١٦ ـ ١٧).

ـ «وأما «المعزِّي». «الروح القدس» الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (١٤/٢٦)[١].

ـ «ومتى جاء المعزي الذي سأرسله إليكم من الآب، روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي» (١٥/٢٦).

ـ «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم ومتى جاء ذاك يبكتّ العالم على خطيَّة وعلى بر وعلى دينونة. إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا

---

(١) وقد ورد تذكيرهم في القرآن بما أخذه الله عليهم من الميثاق: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به﴾ (٥/١٤)، ﴿كتاب أنزلناه مبارك ليدَّبَّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ (٣٨/٢٩)، ﴿ولقد صرَّفنا في هذا القرآن ليذَّكروا﴾ (١٧/٤١).

الآن. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم عن نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية» (١٦/ ٧ ـ ٨ ـ ١٣ ـ ٤).

تلك هي بعض الآيات التي رمزت فيها خطبة الوداع إلى المعزي. يمكن أن نقتبس منها النتائج والتعليقات الآتية:

أ ـ بما أن المسيح كان يتكلم بالآرامية، وبما أن النسخة العربية للأناجيل هي ترجمة عن الإنكليزية المترجمة بدورها «عن اللاتينية» والتي كانت قد ترجمت عن «اليونانية» التي تلقت ترجمتها الأولى عن «الآرامية» أو «العبرانية».

لذلك: ينبغي دراسة وتوضيح ما يقابل «المعزي» في لغة المسيح الأصلية. وتتبُّع هذه الكلمة لمعرفة حقيقة ما تعنيه ولمعرفة ما إذا كانت كلمة «المعزي» تعبر حقيقة عن مقصود الكلمة الآرامية.

إنَّ كلمة «المعزي» وضَعت ترجمة لكلمة «برقليطوس ـ Periglytos» ولكن المتتبعين لأصل الآية ١٤/ ١٦ ـ ١٧ من يوحنا. لمسوا فيها خطأً وتزيُّداً.

ـ **فالتزيُّد**: هو في إضافة كلمة «آخر» مما يحمل على الاعتقاد بوجود عدد من «المعزين» أو على الأقل اعتبار المسيح معزيا أولاً، ثم يرسل الآب معزياً آخر. والأصل اليوناني خال من كلمة «آخر»، يضاف إلى ذلك «تزيُّدٌ» آخر وهو عبارة «أطلب من الآب أو أسأل الآب. . .» فالآب يرسل المعزي الذي يحتاجه البشر دون حاجة إلى طلب أو تنبيه أو توسط. فإذا استبعد التزيد وقُرأت الآية قراءة صحيحة معبّرة بالعربية عن حقيقة النص اليوناني تكون لدينا الصيغة التالية: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا ذاهب إلى الآب وسوف يرسل إليكم معزيا يمكث معكم إلى الأبد ـ ١٤/ ١٥ ـ ١٦».

ـ **أما الخطأ**: فهو في ترجمة «بركليتوس» بكلمة «معزي».

ـ لأن هذه الكلمة مشتقة من التعزية أو التخفيف من الألم والتفجع. وهذا يستلزم قيام حالةٍ من الندب والبكاء. كما يتعارض مع الغاية التي سوف يسعى المعزي إلى تحقيقها وهي: «إقامة مملكة الله على الأرض».

إن دم المسيح الذي سفك فداءً عن الخطايا أنهى بالمنظور المسيحي حالة

التفجع والنواح البشري، فلم يعد البشر في حاجة إلى العزاء بل إلى الهداية والإرشاد.

ومملكة الله ـ أو ملكوت الله ـ لم تدخل في مهمات المسيح. لأنه أقرَّ بقيصر ودفع إليه الجزية وخاطب الناس بقوله: «اتركوا ما لقيصر لقيصر». لذلك كان إعلانه عن «المنتظر» ينبىء عن أن مهمة ذلك المبعوث ليست التعزية بل: «إقامة مملكة الله».

ـ إن كلمة «بركليتوس» تعني في اليونانية «الأشْهَر، الأمجد، الأحق بالمديح» وهي تتألف من مقطعين (Peri) و(Kleotis) ليتشكل منها اسم مشتق من المجد والثناء[١].

وهذه هي المعاني التي يعبر عنها اسم «أحمد» و«محمد» اللذين يمثلان صيغتين من صيغ أفعل التفضيل بالنسبة إلى مفهوم الحمد والثناء.

ب ـ إن «بركليوتس» المنتظر هو «روح الحق» أي الذي تنبثق منه الحقيقة، والذي يبرز وجهها الطهور النقي ويغسل عنه الترَّهات والآثام والأباطيل.

ولم يعرف أحد في التاريخ قام بهذه المهمة على طول المدى الإنساني في الزمان والمكان مثل «محمد». فالنبوات السابقة لنبوته كانت ذات طابع محلي، ولم يكن لها شمول أممي.

فالغيتو اليهودي نشأ منذ البدايات على أسس عقائدية حتى لتكاد تلمسه في كل سفر من أسفار التوراة.

وما أثر عن المسيح من أقوال وأفعال منثورة في الأناجيل. يشير إلى أنه بُعِث إلى خراف إسرائيل الضالة. ولا يتعارض مع هذه الحقيقة تمدُّد المسيحية وانتشارها من بعده. وانتقالها من الأوساط اليهودية إلى الأمم.

في حين أن رسالة محمد توجهت إلى الناس كافة، وخاطبت العالم أجمع منذ أول خطاب لها، فكانت رسائل النبي إلى كسرى الفرس. وقيصر الروم. ومقوقس

---

(١) القاموس الإغريقي اليوناني ـ كلمة الإسكندر.

مصر. ونجاشي الحبشة في زمن لم يَكُنْ عدد المؤمنين يبلغ المئة. ولكن الهدف الرسولي كان واضح الأبعاد منذ يومه الأول. فلم يطرأ عليه تعديل ولم يخضع إلى تراجع أو تطوير. بل ظل ـ على الدوام ـ متجها إلى العالم أجمع. مبشراً «بحقيقة وجود الله ووحدانيته».

﴿قل يا أيها النَّاس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إلّه إلا هو يحي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ (١٥٨/٧: سورة الأعراف).

ج ـ و«بركليوتس» المنتظر أخبر عنه المسيح في خطبة الوداع فوصفه بأنه «متى جاء يبكِّتُ العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة» وإنه متى جاء: «يرشد إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمعه يتكلم به». وإنه: «يخبر بالأمور الآتية ـ أي يتنبأ ـ يوحنا: ١٦/٨ ـ ١٤».

فالتبكيت: يعني في اللغة «التقريع والتعنيف». ويكون بالضرب أحياناً بوساطة العصا، أو بالسيف ونحوه.

وفي الحديث: أتِيَ بشارب فقال النبي بكِّتوه أي وبِّخوه وقرعوه، فيقال له مثلاً: يا فاسق أما استحيت. وبكتَّه بالحجة أي غلبه. وقيل في تفسير الآية: **﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾**؟. إنمَّا تُسأل تبكيتا لوائدها.

فهل وجد في السابقين من بكَّت العالم على وثنيته وشركه وضلاله مثلما بكَّت محمد؟. وهل كان تبكيتُ غيره جهاراً قائماً مدى الدهر على طول الدنيا وعرضها، ينتقل من الأولاد إلى الأحفاد كما كان في دعوة محمد؟ من حيث الحجم والمدى والقيومية.

إن إشارة المسيح وأقواله لا تجد ملتقاها إلا في النبي محمد.

ثم: تمعنوا في كلمة المسيح: «إنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمعه يتكلم به». وعودوا إلى رسالة النبي لتجدوا أنه الوحيد بين أصحاب الكتب من الأنبياء لم يتكلم من نفسه بل بما سمعه. فقد بلَّغ إلى الناس ما تلقاه من الله. أما التوراة فقد كتبها الناس بعد موسى بعشرة قرون. وخضعت إلى عدد من الترجمات، والأناجيل

صار اصطفاؤها من بين ما يزيد على مئة إنجيل. كلها بما فيها المصطفى منها. صيغت بأقلام بشرية وعبرت عن تفكير بشري. أما محمد فقد ظل منذ أول حرف في القرآن إلى آخر حرف: على ما وصفته الآيتان: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إلّه واحد﴾ (١٨/ ١١٠: الكهف). ﴿إن أتّبع إلا ما يوحى إليَّ وما أنا إلا نذيرٌ مبين﴾ (٤٦/ ٩: الأحقاف).

* * *

٣ ـ كيف ينبغي أن نفهم كلمتي «الأبوة» و«البنوة» في الإنجيل؟:

قال أبو حامد الغزالي في كتابه «الرد الجميل لإلّهية عيسى بصريح الإنجيل» تحقيق الشرقاوي ـ طبعة ثالثة ـ سنة ١٩٩٠ م:

«أما ما تعلقوا به من إطلاق «الأبوة» على الله عز وجل و «البنوة» على نفسه ظانّين بأن ذلك يحقق غرضاً أو يثبت خصوصية يقع بها الإمتياز فليس الأمر كذلك. ص ١٤٤».

ويتبين وجه الصحة في أقوال أبي حامد من تتبع الآيات التوراتية والإنجيلية التي جاءت فيها كلمتا «الأبوة» و«البنوة» بمعان مجازية تستخرج من سياق اللفظ في كل آية، ومن سياق الآية في كل موضوع، وهي جميعها بعيدة عن المعنى المادي البيولوجي. وهذه بعض الأمثلة:

أ ـ «ابني بكري إسرائيل ـ توراة»

«أنتم أولاد الرب إلهكم ـ توراة»

«قل لفرعون إن لم ترسل ابني بكري ليعبدني في البرية وإلا قتلت ابنك بكرك ـ يريد بعبارة ابني بكري ـ بني اسرائيل. توراة».

«قلت إنكم آلهة. وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون ـ مزامير ٨٢/ ٦ ـ ٧».

ب ـ «إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم ـ يوحنا ٢٠/ ١٧».

«بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون اجركم

عظيما وتكونون بني العلي فإنه منعِمٌ على غير الشاكرين والأشرار فكونوا رحماء كما إن أباكم أيضاً رحيم ـ لوقا ٦/ ٣٥ ـ ٣٦».

«أنا الكرمة الحقيقية وأنا الكرّام ـ يوحنا ـ ١٥/ ١».

«أبانا الذي في السماء ليتقدَّس اسمك ـ الصلاة التي يرددها كل مسيحي».

«باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات ـ متى ٦/ ٤٤ ـ ٤٥».

«كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد ولد من الله ـ رسالة يوحنا الأولى ـ ٥/ ١».

* * *

إن أيَّ مُمعِنٍ في هذه الآيات وأمثالها تتحصل لديه المعاني التالية:

١ ـ إنَّ وصف «إسرائيل ـ يعقوب» بأنه ابن الله البكر ـ وكذلك وصف شعب إسرائيل بأنهم «أبناء العلي كلهم» وخطاب داوود لهم بقوله: «يا أبناء الله قدموا للرب مجداً وعزاً». لا تعني جميعها غير التعبير الرمزي عن عمق العلاقة بين المؤمن وربه. فالرب منه بمنْزلة الأب الحنون الحاني الحافظ المعين القادر، وهو منه بمنزلة الابن البار المؤمن المطيع. حتى لتزداد العلاقة متانة فتصل إلى امحّاء الإبن في الأب.

«لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحدٌ الذي في السماء ـ متى ـ ٢٣/ ٩».

ـ إطلاق كلمة الرب. ليس وقفاً على الله، بل كانت ولا تزال تطلق أيضاً على المالك فيقال: «رب البيت» و«رب المتاع».

٢ ـ وكذلك لفظ الإلّه. يطلق على كل عظيم. ففي التوراة:

«قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم لكن مثل الناس تموتون ـ مزامير ٨٢/ ٦».

«قد جعلتك إلّها لفرعون وأخاك هٓرون رسولك ـ خروج ـ ٧/ ١».

فالإلّه يطلق على كل معبود. حقاً كان أم باطلاً.

ولقد جاء في رسالة يوحنا الأولى إلى أهل كورنثوس «وأن ليس إلّه آخر إلا واحداً لأنه وإن وجد ما يسمى آلهة سواء في السماء أم على الأرض. كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون. لكن لنا إلّه واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له. ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به. (بولس) أهل كورنثوس ـ ٨/ ٤ ـ ٥ ـ ٦». فبولس الرسول يفَرق بين الله والرب:

ـ الله منه جميع الأشياء وإليه تعود ـ أي هو الخالق المبدع.

ـ والرب الذي هو مالك الأشياء بعد خلقها من الله. لم يُثبت له يد الخالق بل أثبت له يد المالك.

٣ ـ عندما يلتقي إيمان العبد المؤمن (الإبن) مع قبول الله الخالق (الآب) يتحد الإيمان مع القبول حتى درجة الحلول:

«إن أحبَّ بعضُنا بعضاً فالله يثبت فينا. ومحبته قد تكملت فينا. أعطانا الله من روحه ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا. الله محبة. ومن يثبت في المحبة يثبت في الله والله فيه. «رسالة يوحنا الأولى ١٢/ ١٧».

«من التصق بالرب فهو والرب روح واحد ـ رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس إصحاح ٦».

٤ ـ والصلاة اليومية التي يرددها أتباع المسيح كافة. مبتدئين فيها نداءهم الإلهي بقولهم: «أبانا الذي في السماء..» هي الدليل الذي لا يقبل النقض على أن معنى «الأبوة» و«البنوة» في عمق العقيدة المسيحية هو معنى مجازي. فالله تنزه عن الزوجة والولد والشريك. ومعرفة المسيح عليه السلام بذاته وبذات الله تنفي أن يكون قد دعا بهذه الدعوة أو ادَّعى هذا الادعاء. وهو الذي كان على الدوام يعلن خضوعه لله مثل جميع الأشياء، ويؤكد على أن في مقدور كل من يؤمن مثل إيمانه أن يعمل مثل أعماله. «فحينئذٍ يخضع الإبن للذي أُخضِع له كل شيء ـ بولس في وصف القيامة». «الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها لأني ماضٍ إلى أبي ـ يوحنا ـ ١٤/ ١٢ ـ ١٣».

* * *

لقد ترك تلامذة يوحنّا وبولس كثيراً من هذه النصوص التي تنفي الخصوصية المذهبية في مفهومي «الأبوة والبنوة» فكتبوا وألفوا في ذلك الكثير. ولا تزال دور النشر والمكتبات تتلقى كل يوم في جميع اللغات دراسات في خصوصية هذين المفهومين كلما تعلق الكلام بالمسيح. ولعل فيما ندونه من تفسير «القس ابراهيم سعيد» لمعنى «ابن العلي» و«ابن الله» ما يوضح شيئاً من الجهود المضنية التي تبذل في هذا السبيل.

يليق بنا أن نوضح بكلمات موجزة حقيقة المعنى المراد «بابن العلي» أو «ابن الله» فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله وإلا لقيل «ولد الله» ولم يقصد بها ما يقال عادة عن المؤمنين جميعاً أنهم أبناء الله. لأن نسبة المسيح لله هي غير نسبة المؤمنين عامَّةً لله. ولم يقصد بها تفرقة في المقام من حيث الكبر والصغر، ولا الزمنية والجوهر، لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرِّية التي بين المسيح والله. وهي محبة متبادلة. وما المحبة التي بين الأب والأبن الطبيعيين سوى أثر من آثارها وشعاع ضئيل من بهاء أنوارها. ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذي حاز رضا الله وأطاع وصاياه فقبل الموت ـ موت الصليب.

لذلك يقول الله فيه: «هذا ابني الحبيب به سررت له اسمعوا». ولذلك قال المسيح عن نفسه: «من رآني فقد رأى الآب. أنا والآب واحد». فالمسيح هو الوارث لكل شيء الذي منهُ وبه وله كل الأشياء».

هذا التفسير الذي يعبِّر عن وجهة النظر العقائدية الرسمية يتعارض مع النصوص العديدة:

ـ التي أكد المسيح فيها خضوعه لله لا فرق بينه وبين الأشياء ـ (بولس ـ في وصف يوم القيامة).

ـ وأن من يؤمن إيمانه يعمل أعماله ـ يوحنا ـ ١٤/ ١٢ـ ١٣.

ـ وأن الوحدة مع الله حالة يوفرها الإيمان الحقيقي العميق لكل مؤمن. (رسالة يوحنا الأولى ١٢/ ١٧ ورسالة بولس الأولى إلى كورنثوس ٦).

وليست مذاهب التصوف وطرائق النساك عند متصوفة اليهود والمسيحية

والمسلمين وأتباع بوذا وكمفوشيوس وكرشنا وسواهم إلا مظاهر وصورا لحالات الإمحاء في الله والتوحد فيه.

(ومن الله وإليه جميع الأشياء أما المسيح فيه جميع الأشياء. (رسالة بولس الأولى إلى كورنثوس ـ ٨/ ٤ ـ ٦).

وقد مرَّ التفريق بين المفهومين.

* * *

٤ ـ ماهي الصيغة اللفظية التي دلت على محمد في التوراة؟:

«وحيٌ من جهةِ بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الدَّدانيين. هاتوا ماءً لملاقاة العطشان يا سكان تيماء. وافوا الهارب بخبزه. فإنَّهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد. في مدة سنةٍ كسنة الأجير يَفنى مجدُ قيدار وبقية عدد قسِّي أبطال بني قيدار تُقَلُّ لأن ا لرب إلَه إسرائيل قد تكلَّم ـ سفر إشعياء ـ ٢١/ ١٣ ـ ١٧».

«يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون».

«أقِم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ـ تثنية ـ ١٨/ ١٦ ـ ١٨».

«جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم ـ تثنية ـ ٣٣/ ٢».

«وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس ـ وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر ـ تكوين ٢١/ ٢٠ ـ ٣١».

«أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر. ولا تسبيحي للمنحوتات. هوذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مُخْبِرٌ عنها قبل أن تنبت أعلمكم بها. لترفع البريّة ومدنُها صَوْتَها، الديار التي سكنها قيدار لِتترنَّمْ. سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه. الربُّ كالجبَّار يخرج كرجل حروب

يُنْهِضُ غَيْرَتَه. يهتف ويَصرُخ ويقوى على أعدائه ـ إشعياء ٤٢/ ١٠ ـ ١٣».

«قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجدُ الرب أشرق عليك. تتحول إليك ثروة البحر ويأتي إليك غنى الأمم. تغطيك كثرة الجمال تحملُ ذهباً ولباناً وتبشِّر بتسابيح الرب. كل غنم قيدار تجتمع إليك. سفر إشعياء ـ ٦٠/ ١ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧».

«الله جاء من تيمان ـ والقدوس من جبل فَاران. جَلالُهُ غطَّى السماوات والأرض امتلأت من تسبيحه. نظر فرجف الأمم ودُكَّت الجبال الدهرية وخُسِفت آكام القدم ـ مسالك الأزل له ـ حبقوق ٣/ ٣ ـ ٥ ـ ٦».

«هي مرَّةٌ. بعد قليل فأزلزل السماوات والأرض والبحر واليابسة وأزلزل كل الأمم ويأتي مُشتَهَىَ كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود. مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول. وفي هذا المكان أعطي السلام ـ يقول رب الجنود ـ حجِّي ٢/ ٦ ـ ٧ ـ ٩».

ومن تحليل هذه النصوص واستقراء أبعادها تتحصل النتائج التالية:

ـ إن إسماعيل بن إبراهيم كبر وسكن في برِّية فاران، وهي برية مكة وبطاحها. حيث وضعه أبوه مع والدته هاجر. وقد تزوج وكان من أبنائه «قيدار» وهو «عدنان» جد العرب المستعربة وجد النبي محمد (ص) ومن اسماعيل ونسله انتشرت وتكاثرت القبائل حتى غطت الجزيرة العربية.

ـ نورُ النبوة الذي تنبأت بإشراقه نصوص التوراة، تلألأ من فاران، فأزال مجد قيدار القبلي ودك الجبال الدهرية وآلت إليه مسالك الأزل ووضع الشريعة للناس، واستنارت الأرضُ بمجده. إنه محمد، حفيد قيدار بن اسماعيل. فهو وحده من تحققت به النبوات وليس بسواه من قبله ومن بعده.

ـ وعاصمة النبي هي التي طُلِبَ إليها أن تستنير لأن مجد الله أشرق عليها، وتحولت إليها ثروة البحر وغنى الأمم، وغطت بطاحها كثرة الجمال التي تحمل الذهب واللبان، وعندها اجتمع غنم «قيدار» والبيت الذي أقامه إبراهيم وإسماعيل هو الذي استقر فيه المجد فكان مَجْدَ الدين والدنيا، ففيه قام الإسلام ومنه انتشرت الهداية إلى الأمم.

ـ ولم يعرف التاريخُ غير محمد من تحققت فيه تلك النبوات. فكَان رَجُلَ الحرب الذي دكَّ الجبال الدهرية، وخسفت تحت قدميه آكام التَّقاليد البالية، وفتحت أمامه مسالك الأزل، وزلزل الأرض والبحر واليابسة تحت أقدام الأمم الجاحدة، وأقام بين الشعوب دين السلام.

* * *

٥ ـ ماهو معنى «المعزي» في مراثي إرمياء و«مشتهى كل الأمم» في سفر حجِّي؟:

كلمتا «المعزي ـ في مراثي إرميا» و«مشتهى كل الأمم ـ في سفر حجِّي» هما ترجمة عربية عن اللاَّتينية التي جاءت بدورها ترجمةً عن أقدم نسخة معروضة للتوراة وهي اليونانية؛ وتمثل هاتان الكلمتان في اليونانية «يودوكيا Eudokia، ومعناها الحقيقي في العبرية «ماحماد ـ ماحامود ـ حمْدا ـ حَمِد» التي تستعمل في العهد القديم ضمن الوصايا العشر(١). فإحدى هذه الوصايا «لا تشته زوجة جارك» هي في اللفظ العبري «لُونا حمود إيش رانجا» والكلمة المماثلة للفظة «ماحامود» العبرية هي «يودوكسوس» Eudoxos اليونانية وهي بمعنى المُنتَظَرْ، النفيس، المشتهى، المحبوب، المحترم.

ويعلق البروفسور عبد الأحد داوود بقوله:

«وإنها معجزة فريدة حقا في تاريخ الأديان أن يطلق اسم محمد من بين جميع أبناء آدم على نجل عبد الله وآمنة في مدينة مكة لأول مرة. ولا يمكن أن تكون هناك حيلة زائفة أو محاولة مَّا أو تزوير مَّا في هذا المجال لأن والديه وأقرباءه كانوا وثنيين ولم يعلموا شيئاً عن التنبؤات العبرية ولا عن المخطوطات المسيحية الخاصة بنبيٍّ عظيم كان موعوداً أن يأتي لكي يقيم دين الإسلام، وإن اختيارهم لاسم محمد أو أحمد لا يمكن تفسيره إلا أنه يتعلق بالعناية والإلهام الإلَهي(٢).

* * *

---

(١) ص: ١٦٢ ـ من مؤلف البروفسور عبد الأحد داوود حيث توسع في تتبع هذا اللفظ باللغات القديمة.

(٢) ص ـ ١٦٤ ـ من كتاب المؤلف: ملاحظة على ما جاء عن وثنية أقرباء محمد: «أثبت التاريخ أن عدداً من أقرباء النبي كانوا أحنافاً. وأن الحنيفية لا تلتقي مع الوثنية بل تعارض طقوسها وتحرم عاداتها وعباداتها.

٦ ـ من هوالذي مهَّد يوحنا له الطريق؟:

«أنا أعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحلَّ سيور حذائه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار ـ الذي رفشه بيده وسينقي بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ ـ لوقا ـ ٣/ ١٦ ـ ١٧».

«كما هو مكتوب في الأنبياء سيأتي بعدي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أنحني وأحلَّ سيور حذائه. أنا عمدتكم بالماء أما هو فسيعمدكم بالروح القدس ـ مرقس ـ ١/ ٢ ـ ٧».

هذه الحادثة وردت أيضاً في الآيتين ١١ و ١٢ من الإصحاح ٣ ـ من إنجيل متى دون اختلاف جوهري مما يمكِّن من القول أن رواياتها في الأناجيل الثلاثة متقاربة. غير أن يوحنا أوردها في إنجيله بأسلوب جديد ووقائع جديدة. ونظراً لما لهذه الحادثة من أهمية في التاريخ المسيحي. نوردها بحرفيتها من «يوحنَّا» لتسهيل المقارنة بينها وبين روايات الأناجيل الثلاثة وذلك كما يلي:

«اعْتَرَف يوحنا وأقَّر: إني لست المسيح. فسألوه إذاً ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال لست أنا. النبي أنت فأجاب لا. فقالوا له من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك قال: أنا صوت صارخ في البرية قوِّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبي قالوا له فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ أجابهم يوحنَّا قائلاً أنا أعمِّد بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه. هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحِقٍّ أن أحلَّ سيور حذائه، وفي الغد نظر يوحنا يسُوعَ مقبلاً إليه فقال هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم. هذا هو الذي قلت عنه يأتي بعدي رجلٌ صار قدامي لأنه كان قبلي وأنا لم أكن أعرفه. وشهد يوحنَّا قائلاً قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء».

«فاستقر عليه وأنا لم أكن أعرفه لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً عليه ومستقرا فهذا هو الذي يعمد بالروح الفدس وأنا قد رأيت وشهدت. أن هذا هو ابن الله ـ يوحنا ـ ١/ ٢١ ـ ٢٨».

وبالتدقيق في الروايات الأربع لهذه الحادثة الهامة جدا:

ـ الأناجيل الثلاثة لا تذكر شيئاً عن دلالة المعمدان على شخص المسيح، بأنه

هو الذي يرفع الخطيئة عن العالم، وأنه حمل الله، وأنه هو الذي يبشر المعمدان بقدومه. في حين أن هذه الأوصاف وهذه الدلالة واضحتان وبارزتان في إنجيل يوحنا.

ـ في الأناجيل الثلاثة أن «يوحنا» عمد «المسيح» بالماء في حين أن عمادة المسيح هي بالروح القدس. إنجيل يوحنا[1].

ـ في الأناجيل الثلاثة لم ينف «المعمدان» معرفته بالمسيح. في حين أنه كرر عدم معرفته مرتين في إنجيل يوحنا. حيث أكد أنه لم يكن يعرفه وأنه لم يعرفه إلا بتوجيه ممن أرسله. ولم يستدل عليه إلا بروح القدس الذي رآه نازلاً عليه مثل حمامة استقرت عليه[2].

فكيف يمكن تفسير غياب هذه الوقائع في الأناجيل الثلاثة؟.

مع أن الرواة الأربعة ـ شهود عيان ـ كما يعتقد الكثيرون والحوادث جرت في وقت واحد. ثم اعتُمدت فيما بعد من الأسس التي قام عليها الاعتقاد المسيحي؟.

نعود بعد هذا: إلى استكمال مهمة العنوان وهي محاولة التعرف بشكل تقريبي استقرائي. على من كان يبشِّر به يوحنا المعمدان ويمهِّد أمامه الطريق[3] فقد حدد المعمدان صفات ذلك الشخص وعدد علامات ظهوره وذكر المهمة الرسولية التي كلف بها من الله فقال:

---

(١) عمادة المسيح موجودة في الأناجيل الثلاثة: مرقس ١/٩ ولوقا ٣/٢١ و متى ٣/١٦ وقد توسع فيها متّى حيث دوّن جدلاً بين المعمدان والمسيح: «حينئذ جاء يسوع إلى الأردن من الجليل ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلاً أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي فأجاب يسوع وقال له اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر حينئذ سمح له فلما اعتمد يسوع صعد من الماء «٣/١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦».

(٢) المسيح قريب من المعمدان، لأن مريم واليصابات (والدة المعمدان) نسيبتان وكانتا على تواصل وتزاور حتى إن أليصابات أنبأت مريم بأن الجنين في رحمها يسجد للجنين في رحم مريم ـ لوقا (١/٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤).

(٣) يوحنا المعمدان كان من الأنبياء وقد تكلم في المهد (لوقا ـ ١/٣ ـ ٤). وقال عنه المسيح: «إنه أفضل من نبي ولم يقم بين المولودين من النساء من هو أعظم من يوحنا ـ متى ١١/٩ ـ ١١» تُرى؟! ألم يولد المسيح من امرأة؟؟.

ـ إنه لن يعمد الناس بالماء بل بالروح والنار ـ متى ٣/ ١٠ ـ ١١.

ـ إنه يحمل رفشه في يده وينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن وأما التبن فيحرقه بنارٍ لا تطفأ ـ متى ٣/ ١٢.

ـ إنه الذي سوف تسوَّى سبله وتصبح مستقيمة، فكل وادٍ يمتلىء. وكل جبلٍ واكمةٍ ينخفض وتصير المعوجّات مستقيمة. والشعاب طرقاً سهلة ويبصر كل بشر خلاص الله ـ لوقا ٣/ ٥.

ـ إنه أعظم من يوحنا، لأن يوحنا يصف نفسه بالنسبة إليه: بأنه ليس أهلاً لأن يحل سيور حذائه، ولأن المسيح قال عن يوحنا إنه نبي وأعظم من نبي وليس بين المولودين من النساء من هو أعظم منه ولكنَّ الأصغر في ملكوت السماوات أعظم من يوحنا ـ متى ١١/ ١١.

* * *

تلك ـ العلامات التي اتفقوا جميعا على أنها صدرت عن المعمدان ـ تقود إلى بحث ينطلق في اتجاهين:

أولهما: إنَّها لا تشير إلى شخص عيسى.

الثاني:. إنَّها ظواهر وعلامات تحققت جميعها في شخص النبي محمد.

ففي المنطلق الأول نقول:

١ ـ إنَّ عيسى ابن مريم تعمد بالماء على يد «يوحنَّا بن زكريا» ـ المعمدان» واختتن مثلما تعمَّد وإختتن أبناء اليهود. فلو كان هو الإلّه أو ابن الإلّه؟ أو لو كان هو المبشر به الذي ليس المعمدان أهلاً لحمل حذائه لما تعمَّد على يديه؟ بل لما كان تعمد في الأصل. لأن الكرازة بالمعمودية هي لإعلان التوبة ومغفرة الخطايا. وهذا يحتاجه البشر. أما المسيح فلم تكن عنده خطيئة لأنه ـ في الأصل ـ منزه عنها.

٢ ـ لو كان عيسى هو «الممَّجد» و «مبعوث الله الذي بشر به المعمدان» لتوقَّف المعمدان عن العمادة وسلمها إليه بعد التقائهما ـ ولكان تبعَهُ مثلما يتبع التلميذ معلمَّه. ولكنه ظل يتابع كرازته دون توقف، كما إن المسيح لم يكرز ببشارة ملكوت الله إلا بعد أن

أسلم يوحنا المعمدان إلى المحاكمة: مرقس ١/ ١٤ ومتى ـ ٤/ ١٢ـ ١٧.

«فابتداء عيسى بالكرازة بعد توقف المعمدان عنها، يؤكد على أنها مهمة واحدة لم تتغير ولم تتجزأ. وباستمرار لم ينقطع»[١].

٣ ـ إن تصريح المعمدان بأن من يمهد الطريق له سوف يأتي بعده. هو تصريح يفهم منه أن من سوف يأتي بعده لم يكن من معاصريه. لأن هذه الكلمة «سيأتي بعدي» التي وردت عند متى في الآية ٣/ ١١، وعند مرقس في الآية ١/ ١٢، ويوحنا في الآية ١/ ٢٧ لا تدل على أن القادم موجود حينها بل تدل على أن مجيئه منتظر مع الزمن الآتي. وإعداد طريق الرب وجعل طرقه مستقيمة بحيث تتساوى الجبال بالوديان وتصبح المعوجات مستقيمة. ويبصر كل بشر خلاص الله. هي مهمة تتطلب دورة زمانية كاملة ينشط فيها الدعاة والمصلحون وأطباء العقول والنفوس[٢]. حتى يحققوا نقلة نوعية في المجتمع ويصبح أهلاً لاستقبال العظيم، وهذا كله يستبعد أن يكون المسيح هو مقصود «المعمدان» لأن الحديث جاء بصيغة الغائب المجهول مع أن المسيح معاصر للمعمدان وابن خالته. كما إن المسيح نفسه تسلم مهمة العمادة والكرازة بعد أن «أسلم المعمدان» واستمر يعمِّد وإذ لم يأذن الله أن يكون تمام المهمة على يديه فقد أوكل بها تلامذته وحوارييه فحملوها إلى الأمم من بعده.

٤ ـ قال المعمدان عن «المنتظر» سوف يعمد الناس. ليس بالماء. بل بالروح القدس ونار، وسوف يكون رفشه في يده، فينقِّي بيدره، ويجمع القمح إلى مخزنه. أما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ.

ولكن المسيح:

ـ لم يعمد إلا بالماء.

ـ وقد بقي بيدره من بعده زمناً طويلاً دون تنقية.

---

(١) اتفقت الكنائس على أن عيسى والمعمدان كانا «ابني خالة» وأنهما كانا معاصرين لبعضهما ومتعارفين قبل الرسالة (عبد الأحد داوود ـ ص ـ ١٦٩).

(٢) الدورة الزمنية في المفهوم الصوفي لا تقل عن ستة قرون.

ـ ولم يفرز القمح عن التبن.

ـ ولم يحترق التبن في زمنه.

٥ ـ إن ما ورد على لسان المعمدان هو ترديد لما تنبأ به أنبياء بني إسرائيل. ففي إشعياء وردت ذات العبارات التي كررها المعمدان وذلك في الإصحاح ٤٠/ ٣ ـ ٤.

وفي حجّي: إن مجيء «مشتهى الأمم» يكون بعد أن تتزلزل الأمم والسماوات والأرض والبحر واليابسة ـ حجّي ٢/ ٦ ـ ٧».

وفي ملاخي: «ها أنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله. السيِّد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به، إنه مثل نار المُمحِّص ومثل أسنان القصار(ملاخي ٣/ ١ ـ ٢ ـ ٣)، وما وُضعت نبوءات بني إسرائيل على لسان المعمدان إلا لشدِّ الإنتباه إلى أن المسيح هو الذي تنبَّأ به أولئك الأنبياء، وأن مجيئه لم يكن إلا لإتمام ما جاء في الكتاب. ولكن مسيرة المسيح من بداية تبشيره إلى اللقاء غير الكريم الذي لقيه به اليهود عند دخوله أورشليم إلى تسفيه دعوته ومطالبتهم الجماعية بصلبه وعدم تحقق أي شيءٍ من النبوّات على يديه. ذلك كله يفرض أَحَدَ إحتمالين ليس لهما ثالث:

أولهما: افتراض أن تلك النبوءات لم تكن أكثر من خيالات متصوفة دون أن يكون لها رصيد إلهي.

ثانيهما: وإن كانت وحياً من الله موحى، فإن المسيح لم يكن هو المقصود بها لأنها لم تتحقق على يديه كليا أو جزئياً.

أما في المنطلق الثاني لرؤية ماجاء في الأنبياء:

فإن الذي حمل رفشَهُ بيده ونقّى بيدره من الشوك والزيوان، وحمل القمح الصافي إلى إهرائه وأوقد للتبن النّار الابدية وأطفأ الضلال والزيف، وعمّد الأجساد والنفوس بروح الايمان ونيران الجهاد، وزلزل الممالك والعروش، وكان مشتهى جميع الأمم، فهو محمد بن عبد الله، الذي تحققت في عهده وعلى يديه رسالة الخلاص الأبدي.

ـ إن الكلمات الإنجيلية «تعميد» و «عمدتكم» و «عماد». وردت في الترجمة العربية للدلالة على العملية الطقوسية التي قام بها يوحنا ومن بعده المسيح. وهي تطهير الإنسان من الخطايا بتغطيسه في الماء. والتي لا تزال مستمرة حتى الآن حيث تعتبر أول خطوة على طريق المسيحية يخطوها الإنسان منذ خروجه من رحم أمه.

ولكن التعريب خاطىء:

ـ فالتعميد والعماد لا يعبران بالعربية عن عملية الصباغ بالماء أو التغطيس فيه بل يعبران عن الانتصاب والوقوف مثلما ينتصب العمود. فالعماد والعمود هو الخشبة التي يقوم عليها البيت. وفي حديث أُم زرع (زوجي رفيع العماد ـ أرادت عماد بيته ـ شرفه).

وفي قوله تعالى: ﴿إنها عليهم مؤصدة في عَمَدٍ ممدّدة﴾ أي هي قوية وقائمة (١٠٤/٨ ـ ٩: الهمزة).

وقوله: ﴿خلق السماوات بغير عَمَدٍ ترونها﴾(٣١/ ١٠: لقمان).

والكلمة في الأصل. ترجمت عن اليونانية Babtismos التي تحمل معنى التغطيس في الماء أو الصبغة فيه لذلك عبَّر القرآن تعبيراً يغطي حقيقة معناها فقال عنها «الصبغة» التي تتغير بها الأشكال وتتحول المادة التي كانت مطرح الصباغ إلى صيغة جديدة تختلف عن صيغته السابقة. وبما أنها تستهدف الإنسان لتنتقل به من موقع الكفر إلى موقع الإيمان وجب أن تَعْبُر عن طريق العقل لتستقر نهائيا في القلب. فالصباغُ الذي هو في العادة للقماش صار التعبير به تعبيراً مجازيا عن عملية التكوين العقائدي الجديد. ومن هذه الزاوية تجد الفرق بين عملية التغطيس النصرانية في الماء وبين الصبغة الروحية في الإسلام التي وصفت في القرآن بقوله: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغةً ونحن له عابدون﴾ (٢/ ١٣٨: البقرة). تعبيراً عن الدين الذي يقوم على القلب والروح وليس على المظاهر الجسدية[١].

---

(١) في التفسير: كان بعض النصارى يغمسون أبناءهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ويقولون: هو تطهير لهم. وإذا فعل أحدهم بولده قال: الآن صار نصرانيا فقال تعالى: اطلبوا صبغة الله وهي دين الإسلام (الرازي) وقد جاءت هذه الآية: بعد الآية ١٣٥ ـ التي =

وهنا يتحقق قول «يوحنا بن زكريا ـ المعمدان» وهو يغطُّ الناس في الأنهار والبرك: «أنا الآن أعمدكم بالماء أما من يأتي بعدي فسوف يعمدكم بالروح والنار».

خامساً: الأصل التاريخي للتثليث ـ منشأ التثليث وتبريره:

منذ أواخر القرن الثاني بدأت تفد إلى المسيحية من اليونان والرومان والمصريين وسواهم أعداد غفيرة ممن أناخ عليهم بؤس الحياة وعجز الفكر الوثني عن إدخال العزاء إلى قلوبهم والطمأنينة إلى نفوسهم فتقاطروا إلى المسيحية التي ما فتيء هديرها الإلّهي يتجاوب بلا انقطاع. «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات طوبى للحزانى لأنهم يتعزون طُوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض طوبى للعطاشى والجياع إلى البر لأنهم يشبعون (متى ٥/ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٦)».

ولكن ظاهرة هذا التكاثر المسيحي كانت محكومة بواحد من ظرفين:

ـ إن إيمان هذه الفئات لم يكن مبنيا على ثقافةٍ دينية أو تاريخية أو نظرية فلسفية، بل كان «تلبية وتهدئة» لردود فعل اجتماعية انفعالية ضاقت صدراً بحياة العبودية والاستغلال والاضطهاد فاندفعت إلى المسيحية لتجد عندها وسيلة الخلاص.

ـ أما الثّاني فهو إنّها لم تتخفَّف من أفكارها السلفية بل دخلت إلى المسيحية ومعها ثقافتها الوثنية التي لم تستطع الثقافة الجديدة أن تمحوها وهي ـ وإن بدت في الظاهر قد تخلَّت عنها ـ فإن العقل الباطن ظلَّ مثقلاً بها، حتى إذا جاء الظرف الذي اضطرت المسيحية فيه أن تثبت وجودها «كفلسفة كاملة للحياة وما بعد الحياة» برزت تلك الأفكار الوثنية من مكامنها الباطنة وفرضت نفسها ومنطقها على الفكر المسيحي. فكان لذلك أبْعَدُ الأثر في ظهور المدارس الفكرية المتعددة.

ويثبت التاريخ: أن الأديان في بلاد الرومان كانت ثلاثة:

= استنكرت قول اليهود كونوا هوداً تهتدوا وقول النَّصارى كونوا نصارى تهتدوا فأكدت أن ملة إبراهيم هي الدين الحنيف. والإيمان بما أتى به الأنبياء من وحدة الدين هو الإيمان المقبول (الآيتان ١٣٦ ـ ١٣٧) لكي تأتي الآية ١٣٨ ـ خاتمة ونتيجة لازمة لما تقدم.

ـ (الوثنية ـ اليونانية ـ الرومانية).

ـ (اليهودية).

ـ (المسيحية الناشئة).

وكانت «الغنوستية» التي تكونت من (الوثنية واليهودية وبعض أفكار المسيحية) قد استقطبت نشاط عدد من كبار الفلاسفة والمفكرين الذين عَرَضُوا حُلُولاً وقدموا أجوبةً على جميع تساؤلات الوجود مثل: «خلق العالم» و«مصدر الشر والتحلل منه» و«مصدر الخير واعتناقه» وقد شهد عصر الرسل بدايات الغنوستية حيث تحدث سفر أعمال الرسل عن هذه الفئة واتَّهم داعيتها «سيمون» الغنوستي بممارسة السحر لإدهاش الناس فوصفه بقوله:

«وكان قبلاً في المدينة رجل اسمه «سيمون» يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة قائلا: إنه شيءٌ عظيم وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين هذا هو قوة الله العظيمة. سفر أعمال الرسل ٩/٨ ـ ١٠».

وإذا طوينا من صفحات التاريخ قرابة قرنين من الزمان بعد سيمون نرى «فلسفة اليونان تأوي إلى مدرسة الإسكندرية وتضع نفسها تحت تصرُّفِ شيخها «أمينوس» الذي ارتد عن المسيحية إلى الوثنية. ليخلفه بعد موته تلميذه الإسكندراني أفلوطين الذي ورث أفكار أستاذه. ثم ارتحل إلى بلاد فارس والهند وعاد وقد امتلأ بالتَصوُّف الهندي وفلسفة كرشنا وبوذا وأمضى حياته في نشر فلسفته حول التعرف على منشأ الكون ومُنشِئِه والطبيعة وما وراءها.

لقد أجمع مؤرخو الفكر الديني على أن العامل الحاسم في نشأة «التثليث» المسيحي والفلسفة المسيحية التي قامت عليها هذه العقيدة يعود إلى شخصية أفلوطين الفذة وأفكاره المتحركة وحياته المتصوفة الصادقة التي وصفتها مسجَّلات ذلك الزمان فقالت:

«عاش معيشة القديسين وسط ترف رُوما ورذائلها، فلم يكن يُعنى بجسمه. بل إنه كان يستحي أن يكون لروحه جسد» حتى لقد رفض الوقوف أمام المصورين لأن جسمه ـ كما قال ـ أقل أجزائه شأنا. وفي ذلك إشارة إلى تركيزه على الروح واحتقار

الجسد. وقد حرَّم على نفسه اللحم والخبز والعلاقات الجنسية ويعتبر آخر الفلاسفة الوثنيين العظام وهو ـ كما قالوا ـ «مسيحي بلا مسيح»[1].

«لقد كان ذا نزعة مثالية، ولكنه كان يعترف بوجود المادة، على إنها إمكانية الشكل غير المتشكلة، أما النفس فإنها الطاقة الداخلية التي تعطي للمادة أشكالها. والطبيعة التي هي مجموع الطاقة تنتج كلية الأشكال.

والحقيقة العليا هي التي تنتج الحقيقة الدنيا. فنمو الإنسان الفرد من بداية خلقه في الرحم والتكون البطيء لأعضائه. عضواً بعد عضو، حتى يكتمل نموه هو من عمل المبدأ الحيوي فيه «أو النفس فيه». والجسد يتشكل تدريجيا بقوة توق النفس إلى توجهها، ولكل شيء نفس تخلق صورته المادية الخارجية. وليست تلك الصورة خبيثة إلا لأنها لم تتلق الصورة الناضجة، فهي «تطوُّرٌ وقف دون الكمال» والشرُّ هو «إمكانية الخير» والمادة لا نعرفها إلا عن طريق الفكر (الإحساس ـ الإدراك ـ التفكير). والثالوث البشري يتكون من «الجسم والنفس والعقل» فالجسم عضو النفس .وسجنها معاً. وهي أرقى منه لشعورها بالصلة مع نفس أكبر وأوسع وهي تسعى إلى الكمال عن طريق الفكر لتعود إلى تلك الحقيقة الروحية العليا التي سقطت منها ـ على ما يبدو ـ أثناء كارثةٍ أو محنة حدثت منذ بدء الخليقة».

ولكن. . .؟ «ما هو الإلّه؟ يقول أفلوطين إنه هو أيضاً ثالوث من «الوحدة والفكر والنفس» ومن وراء الكائن الواحد لا نعرف عنه غير أنه موجود. وكل صفة نصفه بها. أو ضمير متحيّف نُحِلُّه محلَّه. هو تحديد غير لائق به. وكل ما نَستطيع أن نسميه به هو إنه «واحد» و«أوَّل» و«خير». ومن وحدته ينشأ العقل الكلي أو العالمي. وهو المقابل لدى أفلاطون «أفكار الله» أو «عقل الواحد».

ولكن الوحدة والعقل الناشىء عنها وإن أمسكا الكون وحفظاه من التفكك فإنهما لا يخلقانه بل يخلقه العنصر الإلّهي الثالث وهو عنصر الحياة الذي يملأ الأشياء جميعها ويكسبها قوتها وصُوَرَها المقررة لها. ولكل شيء نفسٌ تبعث فيه النشاط من الذرة الصغيرة حتى الكوكب الكبير، كلها أجزاء من النفس الكلية.

---

(١) قصة الحضارة مجلد (١١ ـ ١٢) ص ٣٠٠ ـ.

والخلود لا يكون مع تميُّز النفوس الجزئية، ولكن باندماج النفس الجزئية في النفس الكلية التي لا تموت».

والفضيلة...؟! «هي حَركةُ النفس نحو الله، والجمال ليس مقصوراً على التناسق ـ كما قال أفلاطون ـ بل هو غلبة الروح على الجسد والعقل على الأشياء، ولأفلوطين في هذا الموضوع تحديد وتحليل بلغ القمة في حريّة الفكر قال فيه:

«إرجع إلى نفسك وتأمل، وإن لم تجد نفسك جميلا فافعل مع ذلك ما يفعله صانع التمثال. فهو يقطع هنا، ويصقل هناك، ويجعل هذا الخط أخفَّ، وذاك أنقى، حتى ينشأ لتمثاله وجه جميل. فافعل أنت مثل فعله. واقطع كل شيء زائد وقوِّم كل معوج. ولا تنقطع عن نحت تمثالك حتى ترى الطيبة الكاملة مستقرة في الحرم المنقى الطاهر».

ويقول من تتبعوا هذا الفيلسوف: «إنك لَتُحِسُّ في هذه الفلسفة ما تحس به في المسيحية المعاصرة لها. من جوٍّ روحانيٍّ يبتعد بالعقول عن مطالب الدنيا ويتجه بها نحو الله. وليس من المستغرب أن تنشأ في الإسكندرية مدرسة «مسيحية أفلوطينية» لأن المسحية قبلت أقوال أفلوطين حتى كل سطر من أسطره تقريبا وأنت إذ تقرأ ما تركه لنا القديس أوغسطين. وفيلون ـ ويوحنا الفم الذهبي ـ تحسُّ بنَشوة ذلك الصوفي الجليل تروح وتغدو في آثارهم دون قيد أو عائق».

* * *

لقد تقدمنا بهذه المقدمة:

ـ لأن الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة، كانتا أوَّل وأغنى مصدر من مصادر التغذية والدعم لعقيدة «التثليث» عند المسيحية.

ـ ولأن المسيحية لم تكن قبل مجمع نيقيا في عام ٣٢٥ قد استقرت على هذه العقيدة.

ـ ولأن مقررات المجمع المذكور التي وضعت «قانون الإيمان النيقاوي المعمول به حتى الآن» تأثرت بالمخزون الفكري والفلسفي لدى الإمبراطور، وهو مخزون يقوم على الفلسفة الأفلوطينية.

فعلى ضوء ما تقدم نستطيع أن نضع الملامح الأساسية في التثليث المسيحي:

أ ـ قال الدكتور «بوست» في كتابه «تاريخ الكتاب المقدس»: «إن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية «الله الآب» و «الله الإبن» و «الله الروح القدس» فالأقانيم الثلاثة عناصر متلازمة لذات الخالق[1].

ب ـ وكان المجمع المسكوني الذي انعقد في نيقية بعام ٣٢٥ ـ م على أثر الهرطقات الدينية وخاصة «هرطقة أريوس» قد وضع قانون الإيمان النيقاوي بالعبارات المحددة الشديدة الحازمة التالية: «نحن نؤمن بإله واحد وهو الآب القادر على كل شيء وخالق الإشياء كلها ما ظهر منها وما بطن، وبسيد واحد هو يسوع المسيح ابن الله المولود غير المخلوق من نفس جوهر الآب، وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنساناً وتعذب وقام مرة ثانية في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات».

ومن الثابت أن هذا المجمع انعقد تحت سلطة الإمبراطور وإشرافة، وأنه أمر الاساقفة الذين حضروه والبالغ عددهم ٢٠٤٨ أسقفا أن يتناظروا أمامه لينظر الدين الصحيح مع مَنْ مِنَ المتناظرين وقد أخلى لهم داراً للمناظرة. وبالنتيجة التي تكونت بعد جدل طويل غزير انحاز الإمبراطور إلى رأي بولس وفرضه بعد أن وافقه (٣١٨) أسقفا فقط. حيث انفرد بهؤلاء وقال لهم: «لقد سلطتكم اليوم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين».

كما ثبت تاريخيا: أن آريوس ألقى بدعوته في المؤتمر ودافع عنها دفاعاً قويا، فانضم إلى رأيه ما يزيد على سبعماية أسقف وظلوا على موقفهم حيث تابعوا نشره والدعوة إليه في أمصارهم. وكان هذا العدد هو أكبر تجمع في الآراء التي طرحت في المجمع: ونظراً إلى أن «نحِلة آريوس» كما سموها، كانت بداية تحوُّل جذري في تاريخ الكنيسة، يجدر أن نضع أمام القارىء بعض الملامح البارزة من عقيدة هذه النحلة[2].

---

(١) محاضرات في النصرانية للامام محمد «أبو زهرة» ص ـ ١٠٢.

(٢) آريوس هو قس مصري طويل القامة نحيل الجسم مكتئب المظهر ذو منظر تبدو عليه =

يقول آريوس:

١ ـ إن المسيح لم يكن والخالق شيئاً واحداً. بل كان هو الكلمة التي خلقها الله وأسماها أول المخلوقات.

٢ ـ إن كان المسيح من نسل الآب فلا بد من أن تكون ولادته قد حدثت في زمن وهذا يعني أنه ليس مرافقاً للآب من زمن البدء.

٣ ـ وإن كان قد خلق فإنه من مادة غير مادة الخالق.

٤ ـ لقد ولد الروح القدس من الكلمة وهو أقل من الكلمة.

٥ ـ الآب وحده هو الله والإبن مخلوق مصنوع، وقد كان الآب إذ لم يكن الابن.

وقد كان لهذه الآراء مشايعون كثيرون. فالوحدانية التي كان آريوس يجاهر بها لم تنته ولم تنطفىء بمؤتمر نيقية. بل استمر البطارقة السبعماية الذين لعنوا بسببها يعملون للمحافظة عليها. ولكن بالحذر، وممالأة القيصر، وإظهارهم أمامه أنهم من رأيه لكي يكسبوا ثقته وَيَنْفُذُوا إلى نفسه فيقتنع بالتوحيد ويتبنَّاه ويعلن حمايته له ويطرد جماعة «التأليه». وعلى أثر ذلك انعقد مجمع صور بدعوة من أوسابيوس الذي كان مؤيداً لآريوس في الخفاء ومعارضاً له في الظاهر لكي ترفع اللعنة عنه

= خشونة العيش، يحيا حياة الزهاد وكانت خطبه بليغة وحديثه مقنعاً وكان له بين العموم ورجال الدين كثير من المؤيدين. وقد اضطر إلى الانزواء بعد مجمع نيقية ولكن أنصاره ظلوا ناشطين حتى استطاعوا بعد مجمع صور في سنة ٣٣٥م طرد «اثناسي ـ أسقف الإسكندرية» الذي كان من أشد اعدائهم. واستطاعوا أن ينالوا موافقة الإمبراطور على حضور حفل تكريس كنيسة أورشليم الذي انعقد في القسطنطينية وكانوا من الانتشار والقوة بحيث لم يستطع أحد مقاومة طلبهم هذا ولكن العناية الإلّهية حالت دون حضوره الحفل حيث توفي ليلة الاحتفال فيما كان ذاهباً إليه في سنة ٣٣٦ م وهو شيخ في الثمانين من عمره وقد أشاع الأرثوذكسيون أن موته الفجائي كان عقاباً من الله لمنعه من حضوره الحفل. أما الآريوسيون فقد أشاعوا أن موته كان بتأثير سحر الأرثوذكسيين وقد توفي الامبراطور في العام الثاني لوفاة آريوس أي في سنة ٣٣٧م.

وينال رضا الإمبراطوار. وقد حضر المؤتمر عدد كبير من الموحدين، فثارت عاصفة من الجدل بينهم وبين جماعة «التأليه» وعلى رأسهم بطريرك الإسكندرية الذي تطور النقاش معه إلى أن امتدت أيدي الموحدين إلى رأسه بالضرب لإخراج «الوثنية» منه، ولم ينقذه غير حضور إبن أخت الملك الذي خلصه من بين الأيادي. ويتحصل من هذا كله. وهو قليل مما قيل:

١ ـ إن الموحدين كانوا الكثرة الغالبة في مجمع نيقية وفي مجمع صور.

٢ ـ إن فكرة ألوهة المسيح كانت عارضة أما الفكرة الأصل فهي التوحيد.

٣ ـ إن فكرة الألوهة نشأت في كنيسة الإسكندرية وانتشرت منها. فهي التي وجهت إلى آريوس اللعنة الأولى ثم اشتركت في لعنه بمجمع نيقية. وكان رئيسها هو المعارض للوحدانية في مجمع صور.

٤ ـ يقول ابن البطريق في «تاريخه»: لقد غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل والإسكندرية وأسيوط. فوثب أتباعها على اثناسيوس ـ بطريرك الإسكندرية «ليقتلوه فهرب منهم واختفى، وكانوا يثورون بكل أسقف غير موحد. كما وثب أهل بيت المقدس الأريوسيون على أسقفها «كُورَلّس» ليقتلوه فهرب منهم وصْيَّروا «أراقليوس» الأريوسي أسقفا عليها.

٥ ـ لم تظهر ألوهية المسيح «على الأريوسية الموحِّدة إلا بقوه السلطان وهيبته واتِّباع الحيلة وغلبة الفكر الوثني الذي كان يشكل الجانب الأكبر والأعمق من ثَقافة النَّاس وعلى رأسهم الإمبراطور.

٦ ـ إن تأليه «الروح القدس» قد أغفل نهائيا في مجمع نيقية. ولم يتحدث عنه قانون الإيمان النيقاوي بكلمة واحدة. لذلك تردد بين المسيحيين بعد «نيقية» أن «الروح القدس» ليس إلّهاً. كما اكتنف الغموض بشأنه عقول النَّاس. ونظراً إلى أن الإسكندرية هي مهد «الأفلاطونية الحديثة» التي كانت تقول «بتثليث الألوهة». وذلك عن طريق القول بوجود قوّى ثلاث:

ـ القوة الأولى في الكون هي قوة الآب.

ـ والقوة الثانية هي العقل الذي فاض عن الآب مثلما يفيض الإبن عن أبيه.

ـ والقوة الثالثة هي النفس الكلية التي هي الروح القدس.

وقد تحرك الفكر الأفلاطوني الحديث لمواجهة رجل اسمه «مقدونيوس» طفق يجاهر بأن روح القدس مخلوق مصنوع. فشاعت مقالته ولم يجد الناس فيها مروقاً من الدين، فطلب اتباع «نيقية» من الملك أن يأمر باجتماع ليتخذ قراراً يدعم «قانون الإيمان النيقاوي» فوافق على طلبهم ودعا الأساقفة إلى اجتماع القسطنطينية الأول في عام ٣٨١ م فلم يحضره غير مئة وخمسين أسقفاً حيث تقرر فيه بشأن الروح القدس ما يلي:

«ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله. وليس روح الله شيئاً غير حياته. فإذا قلنا إن الروح القدس مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي في زمن ما قبل الخلق. وإذا زعمنا أنه غير حي في زمن ما فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن».

ويقول ابن البطريق في بيان قرارهم: «زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا في «نيقية» الإيمان «بروح القدس» الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والإبن مسجودٌ له وممجدٌ. وثبتوا أن الآب والإبن والروح القدس هي ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه. وثلاث خواص. «وحدية في تثليث» و «تثليث في وحدية». كيان واحد في ثلاثة أقانيم: «آله واحد، جوهر واحد، طبيعة واحدة».

غير أن مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية وإن ثبَّتا العقيدة المسيحية على الأقانيم الثلاثة. المسجود لها فإن عواصف الخلاف الفكري ظلت تهب بين الحين والحين فتحدث الانقسامات العقائدية في صفوف المسحيين. لقد تساءل الناس الذين لبسوا رداء الإيمان النيقاوي بصيغته المثلثة الأخيرة. التي صاغها قرار القسطنطينية: كيف تجتمع في المسيح طبيعتان؟ طبيعة الإلّه وطبيعة الإنسان؟ وكيف يُصلب الله؟ ويعذب ويلعن من قبل أعداء الله؟ وهل كان عاجزاً عن تحقيق النصر ونَشر رسالة الآب بين البشر؟

تلك التساؤلات كانت مهمة المجتمعات والقرون الجدالية التي تلت القرن

الرابع الميلادي وأفرزت كثيراً من الشيع والفرق والأحزاب.

سادساً: جولة خاطفة في إنجيل برنابا:

قدمنا في الفقرات السابقة بعض المبررات التي يبرر المسلم فيها عدم قناعته بصحّة الكتابين الحاليين. وبيّنا أن ذلك يعود في الأغلب إلى فقدان اللغة الأولى والثانية لنصوصهما. وإلى ما أضيف إليهما بعد رحيل الرسولين العظيمين «موسى وعيسى» وإلى أن الله أوحى إلى نبيه محمد، في القرآن، جميع الحقائق الإلهية التي نزلت فيهما وزاد عليها حقائق وكمالات تلبِّي حاجة الإنسان والمجتمعات إلى آخر الزمان فالإيمان به والتمسك بأحكامه هو إيمان بصدق مصدرهما وإلهيةُ تنزيلهما أما حقائقهما الإلّهية فلم يعد من الممكن التماسها إلا من القرآن. الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكان قد مرَّ معنا أن قانون الإيمان النيقاوي، بني على الأناجيل الأربعة، وبالأخص على إنجيل يوحنا، الذي تحدث وحده عن ألوهية المسيح وعن بنوته الحقيقية من الله. فقد تبنى الإمبراطور مقالة «بولس الشمشاطي» التي قامت على مجموع ما في الأناجيل الأربعة[1] ورفض مقالة من تبقى من الأساقفة الذين حضروا المجمع.

وكان أكبر تجمع عقائدي في المجمع هو «التجمع الأريوسي» الذي انضم إلى مقالته سبعماية أسقف. جميعهم موحدون يؤمنون بأن الله وحده هو الخالق، وأن المسيح مخلوق مصنوع لم يكن مع الله في الأزل ولن يبقى معه إلى الأبد.

تلك من الوقائع التي طفحت بها صفحات تاريخ الكنيسة في الغرب والشرق. ولكن التاريخ الذي طرد من بين دفتيه ذلك العدد الضخم الذي أربى على المئة من الأناجيل التي حُرِّمت وحُرِّقت. ولو حقت حتى في صدور المؤمنين بها. فانكتمت مع أنفاسهم، لم يستطع أن يمحو من ذاكرته «الرسول برنابا» ذلك «الحواري الصحابي الجليل» و«الداعية الشهيد» و«صاحب الإنجيل الشهير» الذي توارى في كهوف بعض المكتبات، ناجياً بنفسه من نيران الغضب والحريق، ليظهر في أوائل القرن الخامس عشر. حجّة ـ مدّعمةً بمئات الحوادث والأحداث. عن المسيح نفسه

---

(١) كان عدد الاساقفة الذين قالوا بمقالته ٣١٨ أسقفاً من أصل ٢٠٤٨ حضروا المؤتمر.

ـ على أنه عبد من عباد الله. وعلى أن الوحدانية لله دون شبيه أو شريك.

إن التوحيد الأريوسي، الذي ظل أكثر من قرن سائداً على أغلبية الكنائس المسيحية، لم يأت بمقولاته التوحيدية اجتهاداً من عنده بل كان يستمد أصوله مما رواه برنابا عن المسيح وما تلقاه من إنجيله مباشرة.

فالبطريرك آريوس الذي تفصله عن المسيح ثلاثة قرون. لم يكن من المعقول أن يطرح مقالته بين الناس ويدعو إليها مجاهداً حتى الاستشهاد، معارضاً بها رأي الكنيسة المركزية ورأي الإمبراطور لو لم يكن لديه من الأدلة والأسانيد ما شكَّل عنده تلك القناعة الإيمانية التي يستهان في سبيلها كل صعب.

وفي الظن: إن إنجيل برنابا كان أحد أبرز الأسانيد التي اعتمد عليها آريوس وسواه من الموحدين. فمن هو برنابا؟. وكيف ظهر إنجيله؟. وما هي أبرز نقاط الاختلاف بينه وبين الأناجيل الأربعة وخاصة إنجيل يوحنا؟.

تلك هي التساؤلات التي نحاول في هذه الفقرة أن نقدم عليها الأجوبة كالآتي:

من هو برنابا؟:

إنه ـ باتفاق المؤرخين وآباء الكنيسة ـ قديسٌ من القديسين المسيحيين، وواحد من الرسل، وأحد الدعاة الأول الكبار، الذين قامت عليهم الدعوة بين الامم، خارج فلسطين. وقد اعتبرته المصادر المسيحية من الرسل؛ ففي التعريف بشخصه جاء في الإصحاح الرابع من أعمال الرسل بالآيتين ٢٦ و ٢٧:

«ويوسف الذي دُعي من الرسل برنابا الذي يترجم، ابن الوعظ، وهو لاوي قبرسي الجنس، إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل ـ ٢٦ ـ ٢٧».

ـ فكان يدعى يوسف عندما كان يهوديا لاويا.

ـ ولمَّا صار من الرسل دُعي برنابا. وترجمة برنابا، هي «ابن الوعظ».

ـ وقد باع ممتلكاته ووضع الثمن عند أقدام الرسل للإنفاق على نشر الدعوة

ومعونة الفقراء. وإنك لتجد اسمه يتردد في سفر أعمال الرسل سبع عشرة مرة. كما يذكره بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس.

أ ـ ففي الآيتين ٢٦ و٢٧ من الاصحاح ٩ ـ من الاعمال: يتبنى برنابا تقديم بولس إلى التلاميذ. فقبلوه بعد أن شهد به شهادة أدخلت الثقة إلى نفوسهم به.

ب ـ وفي الآيات ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤ من الاصحاح ١١ ـ: وصف برنابا بأنه كان رجلاً صالحاً ممتلأً من الروح القدس والإيمان لذلك أُرسلَ إلى أنطاكية بمهمة الوعظ والتبشير.

ج ـ وفي الآيات ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ من الإصحاح (١٣). صار إفراز، برنابا وشاول، للعمل في سبيل الدعوة بناءً على طلب الروح القدس.

«وفي الكنيسة بأنطاكية كان هناك أنبياء ومعلمون برنابا» وسمعان ولوكيوس القيرواني ومناين الذي تربَّى مع هيرودس رئيس الربع وشاول. وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس: افرزوا لي برنابا وشاول للعمل الذي دعوتهما إليه فصاموا وصلوا حينئذ ووضعوا عليهما الأيادي ثم أطلقوهما. فهذان إذ أرسلا من الروح القدس انحدرا إلى سلوكية ومن هناك سافرا في البحر إلى قبرص.

وهكذا تجد في هذه الآيات:

- إن اسم برنابا ورد في أول أسماء الأنبياء الذين كانوا في كنيسة أنطاكية.
- وأن اسم شاول ورد في الأخير.
- وأن روح القدس طلب برنابا وشاول باسمهما ليفرزا إلى العمل.
- إن العمل الذي أفرزا إليه حدده روح القدس. وهو الذي دعاهما إليه.

وفي الآيات ٤٣ و٤٤ و٤٦ من هذا الإصحاح يرد ذكر برنابا وبولس كمبشرين واعظين في مجامع الأمم من يهود ودخلاء وسواهم.

كما تحدثت الآية ٥١ ـ عن الاضطهاد الذي لاقاه الرسولان حيث طُرِدا وأُخرجا من المدينة بعد أن اضْطُهِدا وصار إذلالُهُما.

د ـ وفي الإصحاح ١٤ ـ مزَّق الرسولان ثيابهما واندفعا إلى الجمع صارخين:

أيها الرجال: نحن بشر تحت الآم مثلكم نبشركم أن ترجعوا من هذه الأباطيل إلى الإله الحي الذي خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيهما (الآيات ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ من الإصحاح ١٤).

هـ ـ وفي الإصحاح ١٥ ـ رأى الرسل والمشايخ أن يرسلوا من أورشليم إلى أنطاكية وفداً تبشيريا زودوه بكتاب حددوا فيه المصدر الذي اختار الوفد بقولهم:

«رأينا ـ وقد صرنا بنفس واحدة ـ أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبينا برنابا وبولس، لأنه قد رأى الروح القدس، ونحن وجدنا أن لانضع عليكم ثقلاً غير هذه الأشياء الواجبة (٢٥ ـ ٢٨/ ١٥ ـ اعمال)».

«أما بولس وبرنابا فقد أقاما في أنطاكية يعلِّمان ويبشِّران مع آخرين كثيرين أيضاً بكلمة الرب (٣٣ ـ ٣٤/ ١٥ ـ اعمال)».

و ـ وفي أنطاكية اختلف الرسولان بسبب يوحنا الذي يدعى «مرقس» وهو صاحب الإنجيل وابن أخت «برنابا» حيث أصَّر «برنابا» على مرافقته لهما في جولة تفقدية للمدن والمناطق التي ناديا فيها بكلمة الرب. فرفض بولس مرافقته لأنه تركهما من «بمفيلية» ولم يذهب معهما. حينئذٍ افترقا فذهب «برنابا ومرقس» إلى قبرس، وذهب «بولس وسيلا» على سورية وكيليكية يُشدِّدُ الكنائس. (أعمال: ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١/ ١٥)[1].

هذا هو برنابا. الرسول الذي امتلأ بالروح القدس، والذي صدع بالمهمات الرسولية التي تكلف بها من قبل الروح القدس. هو من التلامذة، والحواريين الإثني عشرة الذين انتقاهم المسيح وسماهم رسلاً. فرافق المسيح من بدء مسيرته حتى قيامته. وتناول معه العشاء الأخير، وحضر على جبل الزيتون، ورآه وهو يرتفع إلى السماء بين أحضان الملائكة الأربعة.

فهو ـ عند المسيحيين ـ من الرسل الملهمين.

---

(١) جاء في الآية ١٠ من الاصحاح ١٤ من رسالة بولس إلى كولوسي: أن مرقس هو ابن اخت برنابا، وكان مأسوراً مع بولس.

لذلك كان صدور إنجيل عنه مقبولاً في المنطق بسبب معرفته الوثيقة بالسيد المسيح واطلاعه المباشر على أعماله ومرافقة مسيرته الرسولية دون انقطاع حتى رفعه الله إليه.

ما هو الإنجيل وكيف ظهر؟

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا[1]. في المقدمة التي قدم بها ترجمة هذا الإنجيل للدكتور خليل سعادة في ١٥ ـ مارس سنة ٩٠٨:

«لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ، أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في بيان الكتب التي تحرَّمت قراءتها، فقد جاء من ضمنها (إنجيل برنابا) ومن الثابت تاريخيا أن جلاسيوس تولى البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد ـ أي قبل بعثة النبي محمد».

وقال الدكتور خليل سعادة في مقدمته للترجمة المذكورة:

«إن النسخة الوحيدة المعروفة الآن في العالم التي نُقِل عنها هذا الإنجيل إنَّما هي نسخة إيطالية في مكتبة بلاط ڤيينا وهي تعد من أنفس الذخائر والآثار التاريخية فيها. تقع في مئتين وخمس وعشرين صحيفة سميكة مجلدة بصفيحتين رقيقتين متينتين من المقَّوى يغطيهِّما جلدان لونهما داكن ضارب إلى الصفرة النحاسية ـ ص ٣ ـ».

وقال: «كان الراهب «فرامرينو» قد عثر على رسائل لإيريانوس وفي عدادها رسالة يُنَدِّد فيها بالقديس بولس. وقد أسند تنديده إلى إنجيل القديس برنابا فأصبح الراهب «فرامرينو» منذ ذلك الحين شغوفاً بالعثور على هذا الإنجيل. واتفق أن أصبح مقرباً من البابا سكتس الخامس فحدث أنْ دخلا معا مكتبة البابا، فران الكرى على أجفان قداسته فأحب فرامرينو أن يقتل الوقت بالمطالعة إلى أن يفيق البابا فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه. فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف فخبأ هذه الذخيرة في أحد ردنيه ولبث حتى استفاق البابا فاستأذنه

---

(١) هو منشيء مجلة المنار وناشر إنجيل برنابا ـ لمترجمه الدكتور سعادة.

بالإنصراف حاملاً معه ذلك الكنز. فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق الإسلام على أثر ذلك».

إن رواية هذا الراهب مدونة على النسخة الأسبانية للإنجيل، كما رواها المستشرق سايل في مقدمته لترجمة القرآنٰ وتساءل؟ ما هو الأصل الذي أخذت عنه النسخة الإيطالية؟ وقال: إنه سؤال صعب ولكن الجواب عليه غير مستحيل.

ففي الهوامش، تعليقات بالعربية، دفعت بعضهم إلى القول بالأصل العربي لهذا الإنجيل. ولكن المتمعِّن في هذه التعليقات يجِدُ أنها هي نفسها تنفي أن تكون النسخة الأصل هي عربية لأن ما فيها من ركاكة في التعبير وجهلٍ بقواعد اللغة يؤكد أن كاتبها ليس عربيا. لأن الكاتب العربي الذي يجيد اللغة إلى حد القدرة على ترجمتها للغة أجنبية لا يخطىء تلك الأخطاء الفاحشة فيقدم المضاف إليه على المضاف والصفة على الموصوف مثلاً: مما يحمل على الاعتقاد بأن النسخة الإيطالية مترجمة عن أصل لاتيني أو إيطالي قديم تطرَّقت إليه اصطلاحات طسكانية. وهذا ماثبت عليه رأي الباحثين «لونسدال ولوراراغ» بعد أن طافا على مقالات أعظم الثقات الإيطاليين الذين يؤخذ رأيهم حجة في هذه الأبحاث الأخصائية، أما ما ورد عن بعض علماء ومؤلفي الغرب. من أن هذا الإنجيل هو من وضع إسلامي. فهي أقوال عدا عن أنها لم تؤيد بدليل تجافي المنطق في نواح عدة منها:

ـ الركاكة البارزة في الهوامش التي لا يمكن أن تصدر عن كاتب بالعربية يجيدها إلى حد ترجمتها.

ـ لم يرد لهذا الانجيل ذكر في كتابات علماء المسلمين، ولا في مؤلفات الفكر الديني الاسلامي كافة، مع أنه يشكل حجة قوية لهم في جدلهم العقائدي مع أتباع المسيح. إذ تقوم فيه الأدلة الكاملة على «التبشير بالنبي محمد» وعلى أن المسيح «هو واحد من الأنبياء والمرسلين» وأنه «شُبه لليهود فلم يصلبوه».

ـ لم يرد له ذكر في فهارس الكتب العربية القديمة. عند العرب أو سواهم ولا حتَّى عند المستشرقين، وقد ضمت تلك الفهارس أندر الكتب العربية من قديمة وحديثة. (مقدمة الدكتور سعادة).

ـ إنه وجد في جوٍّ مسيحي خالص، وعندما شاع خبَر ظهوره أحدث ضجَّةً كبرى في أندية العلم والأديان المقارنة الأوربية. فمنذ أواخر القرن السابع عشر تداولته أقلام الكتاب والمفكرين، واحتدم جدل العلماء ومناقشاتهم من حوله. وظل طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر غير معروف في عالم العرب والإسلام في شتى بلدانهم وأمصارهم، فكانت ترجمته الأولى بقلم الدكتور خليل سعادة في العقد الأوَّل من هذا القرن، وقام بنشره منشىء دار المنار الأستاذ محمد رشيد رضا بعام ١٩٠٨.

* * *

والآن؟ ماهي أبرز نقاط التي يختلف فيها هذا الإنجيل عن الاناجيل؟

إن نواحي الاختلاف متعَدِّدة وجميعها من الثوابت العقائدية التي لا تقبل التعديل ولا يمكن التراجع عنها، وبما أنها تتناقض مع ما يقابلها في الأناجيل الأخرى تناقضاً لا يقبل التسوية فإنَّ الحيرة والارتباك يأخذان بمجامع القارىء وهو يطالع عن المسيح روايتين مختلفتين في العمق والأفق. مع أنهما كلتيهما مَرِويتان عمَّن عاصر المسيح وعايشه ورافقه. ولولا التاريخ وخاصةً تاريخ الكنيسة الذي حدثنا مطوَّلاً عن «التوحيد المسيحي» الذي ساد كنائس القرن الرابع الميلادي محمولاً على الفكر الأريوسي القادم مباشرة من الرسل الأول. الذين ظلوا طيلة القرن الأول يكافحون «التأليه البولسي» بجميع وسائل المكافحة دون كلل حتى انهار نفوذه وتقاصر ظله في أواخر القرن الأول، على أثر خراب أورشليم، وتشتت الرسل الدعاة، وسقوط اليهودية سقوطاً سياسياً وفكرياً وسيطرة البوليسيين على أكثر الكنائس.

نقول: لولا تلك الثوابت التي تستطيع اعتبار نفسها الجذر العقائدي للعقيدة الأريوسية بما فيها من إنكار واستنكار للاتجاه البولسي التأليهي. لتسربت الشكوك حول المصادر التي أخذت منها واعتمدت عليها فلسفة آريوس. ولكننا نقف قرب اليقين ـ ونحن نقرأ آريوس فنراه يستمد ضوءه من برنابا ويستعيده فكرة فكرة. عوداً بالمسيحية إلى أصولها التوحيدية الأولى. فلا يختلفان إلا في الأسلوب وطريقة الإيصال، وهو اختلاف فرضته خصوصية الظروف لكل منهما.

ـ فبرنابا سرد وقائع عاينها وتلا أحاديث وخُطَباً عن المسيح سمعها وعاشها فما وجد من حاجة إلى التماس الحجج على الاقناع بها: إنه يروي ما رأى وما سمع وهذا يكفي من حواري رسول امتلأ بالروح القدس ورافق المسيرة الرسولية حتى آخر لحظة.

ـ أما آريوس فقد قرأ وصدَّق وآمن. وطفق يلتمس الحجج والأدلة من عالم الفلسفة والمنطق.

* * *

وبعد: ما هو إنجيل برنابا؟ وهل يمكن العثور فيه على ما يتعارض مع عقيدة المسيحيين في المسيح؟ وفي محمد؟ وهل يتفق مع القرآن في «الكليات» التي يقوم عليها الاعتقاد بوجود الخالق؟.

إنه كتاب: ذو حجم متوسط يتألف من ثلاثماية وعشرين صحيفة بأبعاد ٢٤×١٤س م وباستيعاب متوسطه مئة وخمسون كلمة في الصحيفة الواحدة. عدا الفراغات التي فرضتها حاجة الطباعة، وهو يحتوي على مئتين واثنتين قطعة. سميت كل واحدة منها فصلاً.

ولقد دفعنا ذلك الاستفهام عنه إلى قراءته كلمة كلمة لاستخراج بعض ما فيه من الأقوال والمواقف والروايات التي تختلف عما يقابلها في باقي الأناجيل اختلافاً جعل كلاًّ منهما على طرفي نقيض من الآخر، فكانت لنا الفقرات الآتية نقدمها على سبيل المثال:

١ ـ «لما بلغ يسوع الثلاثين، وفيما كان مع أمه على جبل الزيتون يصلي في الظهيرة، ظهر نور باهر وجوقٌ من الملائكة يقولون: ليتمَّجد الله. فقدم له جبرائيل كتاباً كأنه مرآة. عرف فيه كل شيء وكل نبوة وكل ما سوف يقوله. عندئذ علم أنه نبيٌّ مرسل إلى بيت إسرائيل فكاشف أمه وانصرف عنها لممارسة وظيفته النبوية». (الفصل العاشر).

٢ ـ «خطب يسوع في هيكل أورشليم حتى بكى الشعب من التأثر، ولكن العلماء والكهنة صمَّموا على قتله، إلا أنهم لم ينبسوا بكلمة خوفاً من الشعب الذي

قبله نبيا من الله». (الفصل الثاني عشر).

٣ ـ «صعد المسيح إلى جبل الزيتون وصلّى إلى الله وأعلن عبوديته لله وضعفه ورجاءه بأن ينقذه من حبائل الكهنة الذين يبغضونه ويحاولون قتله» (الفصل الثالث عشر).

٤ ـ «قال يسوع جواباً لفيليبس: إن الله حياة بدونها لا أحياء. عظيم حتى إنه يملأ الجميع وفي كل مكان هو وحده لا نِدَّ لَهُ. ولا بداية ولا نهاية له ولكنه جعل لكل شيء بداية وسيجعل لكل شيء نهاية، لا أب له ولا أم، لا أبناء ولا أخوة ولا عشراء. ولما كان ليس لله جسم فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يمشي ولا يتحرك ولكنه يدوم إلى الأبد بدون شبيه بشري، ولأنه غير ذي جسد وغير مركب وغير مادي وأبسط البسائط، قال فيليبس: لقد كتب في إشعياء: إن الله أبونا فكيف لا يكون له بنون؟ فأجاب يسوع: إن في الأنبياء مكتوب أمثالاً كثيرة يجب أن لا تؤخذ إلا بالمعنى لأنه كل الأنبياء البالغين مئة وأربعين ألفاً الذين أرسلهم الله تكلموا بالمعميَّات بظلام ولكن سيأتي فيما بعد، بهاء كل الأنبياء الأطهار فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله». (الفصل السابع عشر).

٥ ـ «صرخوا جميعهم: اعطنا صحة. فأجابهم يسوع: أيها الأغبياء ألا ترون أني إنسان نظيركم حتّى أفقدكم عقولكم، ادعوا إلّهنا الذي خلقكم» (الفصل التاسع عشر).

٦ ـ «تحدث يسوع عن الختان الذي بدأ من عهد آدم، بعد أن عصى جسدُه روحَه فأخذ شظية من صخر ليقطع جسده، فوبَّخه جبرائيل: فقال آدم لقد أقسمت ولن أكون حانثاً فدلَّه الملاك على زائدة جسده، فقطعها، وهكذا صارت سنة تسلسلت بأبنائه جيلا جيلا ففي عهد إبراهيم كان الذين يختنون نزراً يسيراً، لأن عبادة الاوثان تكاثرت في الارض، وعليه أخبر الله ابراهيم بحقيقة الختان. وأثبت هذا العهد قائلاً (النفس التي لاتختتن جسدها إياها أبدِّد من بين شعبي إلى الأبد). ثم قال: (دعوا الخوف للذي لم يقطع غرلته لأنه محروم من الفردوس» (الفصل الثالث والعشرون).

٧ ـ «كلم الله إبراهيم قائلاً: أنا الله أحد ولا إلّه غيري أضرب وأشفي، أميت

وأحيي» (الفصل التاسع والعشرون).

٨ ـ قالوا له: أأنت إيليا أو إرميا أو أحد الأنبياء القدماء؟ أجاب يسوع كلا. حينئذٍ قالوا من أنت؟ قال: أنا صوت صارخٌ في اليهودية كلها يصرُخُ أعِدُّوا طريق رسول الرب كما هو مكتوب في إشعياء. قالوا: إذا لم تكن المسيح ولا إيليا ولا إشعياء فلماذا تبشر بتعليم جديد وتجعل نفسك أعظم شأناً من مسِّياً؟ فقال: إن الآيات التي يظهرها الله على يدي تظهر أني أتكلم بما يريد الله ولست أحسبُ نفسي نظير الذي تقولون عنه لأني لست أهلاً أن أحل رباطات جرموقه أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية» (الفصل الثاني والأربعون).

٩ ـ «حينئذٍ قال يسوع: ومتى جاء رسول الله فمن نسل من سيكون؟ فأجاب التلاميذ: من نسل داوود فأجاب المسيح: لا تغشُّوا أنفسكم لأن داوود يدعوه في الروح رباً. قائلاً هكذا، قال الله لربي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط أعدائك، فإذا كان رسول الله ابن داوود فكيف يسميه داوود رباً؟ صدقوني لأني أقول الحق لكم: إن العهد صنع بإسماعيل لابإسحق». (الفصل الثالث والأربعون).

١٠ ـ «قال التلاميذ يا معلم: كتب في كتاب موسى إن العهد صُنع بإسحق. أجاب يسوع: هذا هو المكتوب، لم يكتبه موسى ولا يشوع بل أحبارنا الذين لا يخافون الله. ألم تسمعوا ما كلم الله به إبراهيم حينئذٍ؟؟! خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد به الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحق البكر وهو لما ولد كان عمر إسماعيل سبع سنين» (الفصل الرابع والأربعون).

١١ ـ «قال يسوع: ماذا يقول الناس عني؟ أجاب التلاميذ يقول البعض إنك إيليا وآخرون إرمياء وآخرون أحد الأنبياء. أجاب يسوع: وما قولكم أنتم فيَّ؟ أجاب بطرس إنك المسيح ابن الله. فغضب يسوع وانتهره بغضب قائلاً: اذهب عني لأنك أنت الشيطان وتحاول أن تسيء إليَّ، ثم هدد الأحد عشر قائلاً: ويل لكم إذا صدقتم هذا. فستكون لعنة كبيرة من الله على كل من يصدق هذا. وأراد يسوع أن يطرد بطرس فتضرع الأحد عشر لأجله. ولكنه انتهره قائلاً حذار أن تقول هذا الكلام

مرة أخرى لأن الله يلعنك. فبكى بطرس وقال: ياسيد لقد تكلمت بغباوة فاضرع إلى الله أن يغفر لي». (الفصل السبعون).

١٢ ـ «ذاع في الجليل كلها أن يسوع النبي قد جاء إلى الناصرة وعندها قال يسوع للمشلول: لا تخف أيها الأخ لأن خطاياك قد غفرت لك. فاستاء كل من سمع هذا، وقالوا: من هذا الذي يغفر الخطايا؟ فقال يسوع: لَعَمْرُ الله إني لست بقادرٍ على غفران الخطايا ولا أحد آخر فالله وحده يغفر، ولكن أتوسل إليه كخادم له لأجل خطايا الآخرين». (الفصل الحادي والسبعون).

١٣ ـ «حينئذ رفع يسوع يده وقال: لقد ضللتم ضلالاً عظيما أيها الإسرائيليون لأنكم دعوتموني إلّهكم وأنا إنسان ثم صفع وجهه بكلتا يديه وقال: أشهد أمام السماء وأشهِد كل شيءٍ على الأرض، أني بريء من كل ما قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانيةٍ بشرية، وعرضة لحكم الله، ومكابدٌ شقاء الأكل والنوم والبرد والحر كسائر البشر لذلك متى جاء الله ليدين يكون كلامي كحسام يخترق كل من يؤمن بأني أعظم من إنسان». (الفصل الثالث والتسعون).

١٤ ـ «قال يسوع للكاهن بعد أن وقف كل منهما في مكان مرتفع ليراه الناس: قد كُتبَ في عهد الله الحي وميثاقه أن ليس لإلّهنا بداية ولا يكون له نهاية. فأجاب الكاهن: لقد كتب هكذا. فقال يسوع لقد كتب أن إلّهنا برأ كل شيء بكلمته فقط. فقال الكاهن إنه لكذلك. فقال يسوع: مكتوب هناك أن الله لا يُرى وهو محجوبٌ عن عقل الإنسان لأنه غير متجسد وغير مركَّب وغير متغير. فقال الكاهن إنه لكذلك حقا. فقال يسوع: مكتوب أن السموات لا تسعه لأنه غير محدود. فقال الكاهن هكذا قال سليمان النبي يا يسوع. فقال يسوع: مكتوب أن ليس لله حاجة للأكل والنوم ولا يعتريه نقص وأنه في كل مكان وأن لا إلّه إلا هو يفعل كل ما يريد. قال الكاهن هكذا كُتِب. حينئذٍ رفع يسوع يديه وقال: أيها الرب إلّهنا: هذا هو إيماني الذي آتي به إلى دينونتك شاهداً على كل من يؤمن بخلاف ذلك وقال للجموع: إني بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الأرض وفان كسائر البشر وأنه كان لي بداية وسيكون لي نهاية وإني لا أقدر أن أبتدع خلق ذبابة» (الفصل الخامس والتسعون).

١٥ ـ «سأل أندراوس: ولكن كيف يعرف الحق؟ فأجاب يسوع: كل ما ينطبق

على كتاب موسى فهو حق فاقبلوه لأنه لمَّا كان الله واحداً كان الحق واحداً فينتج من ذلك أن التَّعليم واحد. ومعنى التعليم واحد فالإيمان واحد. الحق أقول لكم إنه لو لم يُمح الحق من كتاب موسى لما أعطى الله داوود أبانا، الكتاب الثاني، ولو لم يفسد كتاب داوود لم يعهد الله بإنجيله إلي لأن الربَّ إلَهنا غير متغير ولقد نطق رسالة واحدة لكل البشر فمتى جاء رسول الله يجيء ليطهر كل ما أفسد الفجَّار من كتابي» (الفصل الرابع والعشرون بعد المئة).

١٦ ـ «قال بطرس: أيذهب جسدُنا الذي لنا الآن إلى الجنة؟ أجاب يسوع: احذر يا بطرس من أن تصير صَدُوقيا فإن الصدوقيين يقولون: إن الجسد لا يقوم ولا توجد ملائكة لذلك حرم على روحهم وجسدهم الدخول إلى الجنة ومحرومون من كل خدمة الملائكة في هذا العالم: أنسيتم أيوب النبي وخليل الله كيف يقول: أعلم أن إلهي حي وأني سأقوم في اليوم الأخير بجسدي وسأرى بعيني الله مخلِّصي». (الفصل الثالث والسبعون بعد المئة).

١٧ ـ «فيما كان يسوع صاعداً إلى الهيكل مع جم غفير من الشعب اقترب منه رئيس الكهنة قائلاً: قل لي يا يسوع أنسيت كل ما كنت قد اعترفت به من أنك لست الله ولا ابن الله ولا مسِّيًا؟ أجاب يسوع: لا البتة لم أنس لأن هذا هو الاعتراف الذي أشهد به أمام كرسي دينونة الله يوم الدينونة، فالله خالقنا «أحد» وأنا «عبد الله» (الفصل السادس بعد المئتين).

١٨ ـ وفي الفصول الأخيرة من الكتاب وهي من السابع عشر بعد المئتين. حتى الثاني والعشرين ورد وصف للأيام الأخيرة التي قضاها يسوع في هذه الدنيا:

ـ فيها وصف لخيانة يهوذا ومرافقته للجند إلى مكان اجتماع يسوع مع تلاميذه. وكيف أمر الله سفراءه من الملائكة وهم: جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل بأن يأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ويحملوه إلى حيث وضعوه في السماء الثالثة.

ـ وفيها كيف أتى الله العجيب بأمر عجيب حيث أدخل الشبه على يهوذا فتغير في النطق والوجه وصار شبيها بيسوع إلى الحد الذي اعتقد فيه التلامذة أنه المسيح نفسه. وقد أُلقي القبض عليه ولم يستطع أن يثبت أنه يهوذا، فوقعت عليه الإهانة

والضرب ثم الصلب وكان يصرخ: ياالله لماذا تركتني أنا أموت ظلما والمجرم نجا بنفسه.

ـ ولقد بلغ الشبه حدا جعل التلامذة يظنون أن المسيح لم يكن غير ساحر، لأنه أكد لهم مراراً بقوله: إنه لن يموت إلى وشك انقضاء العالم. لذلك كان الصلب الذي اعتقدوا أنه وقع عليه حقيقة دليلاً على عدم صدق أقواله حينما كان بينهم. حتى إن والدته ومن حضر معها استلموا جسد يهوذا، على أنه جسد يسوع، فدفنوه في القبر الجديد ليوسف بعد أن ضمخوه بمئة رطلٍ من الطيوب. ورجع كل إلى بيته وعاد برنابا ويوحنًا ويعقوب إلى الناصرة مع أم يسوع، أما التلاميذ الذين لم يخافوا الله فقد ذهبوا وسرقوا جسد يهوذا وخبَّأوه وأشاعوا أن يسوع قام في اليوم الثالث فحدث بسبب هذا اضطراب وكتبوا إلى أمه لكي تكف عن البكاء فقالت: لنذهب إلى أورشليم لأراه حتى أموت قريرة العين.

ـ وصعد الملائكة حراس مريم فأخبروا المسيح بخبر أمه، فضرع إلى الله أن يأذن له برؤية أمه وتلاميذه، فأمر الرحمن ملائكته الأربعة المقربين أن يحملوه إلى بيت أمه وأن يحرسوه ثلاثة أيام وأن لا يراه أحد غير الذين آمنوا بتعليمه.

ـ فجاء محفوفاً بالسناء إلى الغرفة التي أقامت فيها العذراء مع أختيها مرتا ومريم المجدلية والعازر والذي يكتب (برنابا) ويوحنا ويعقوب وبطرس فخرُّوا من الهلع كأنهم أموات، فأنهضهم وقال: لا تبكوا لأني أنا يسوع حي لا ميت. فعانق أمه وقال لها: صدقيني لم أمت لأن الله حفظني إلى قرب انقضاء العالم. فظهر الملائكة الأربعة كشموس متألقة ثم قص عليهم قصة الملائكة وكيف ألقي الشبه على يهوذا.

ـ وقال لبرنابا: عليك أن تكتب إنجيلي حتماً وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم واكتب ما حلَّ بيهوذا ليزول انخداع المؤمنين ويصدق كل واحد بالحق. حينئذ أجاب برنابا: إني لفاعل ذلك يا معلم ولكن لا أعلم ما حدث ليهوذا لأني لم أر كل شيء: أجاب يسوع: ههنا يوحنا وبطرس اللذان عاينا كل شيء فهما يخبرانك بكل ما حدث.

ـ وفي اليوم الثالث قال: اذهبوا مع أمي إلى جبل الزيتون لأنني أصعد من

هناك وسترون من يحملني. وبعد أن ودَّعهم عانق أمه قائلاً لها: سلام لك يا أمي توكَّلي على الله الذي خلقك وخلقني. ثم حملته الملائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء.

* * *

بعد تجوالنا بين فصول برنابا، نستطيع الإشارة إلى أبرز ما فيه من تعارض مع الأناجيل الأربعة وخاصة إنجيل يوحنا، وتلخيصها بالآتي:

أ ـ سرده لمناسبات عديدة نفى فيها يسوع أن يكون ابن الله. واستنكر هذه المقالة استنكاراً بلغ به حد البكاء من الخوف. فلطم وجهه بكلتا كفيه. وأراد أن يطرد بطرس من بين التلاميذ لأنه هو اول من افترض هذا الافتراض، وحذره وحذر الناس من أن يقولوا هذا القول، ثم استنزل اللعنة على من يؤمن هذا الإيمان، وأعلن أنه شهيد عليهم يوم الدينونة.

ب ـ سَرْدُهُ للمواعظ والخطب التي ما فتىء يسوع يشير فيها إلى وحدانية الله وتنزيهه عن حاجات الجسد، ونفيه أن يكون له شبيه أو عشير أو ولد. وأنه الخالق البارىء. «الأحد في أزليته» و «الأحد في أبديته» وأنه ـ أي يسوع ـ ليس إلا بشراً لا يستطيع أن يبتدع خلق ذبابة. وأن ما يجري على يديه إنما هو بأمر الله الذي خلق كل شيء بكلمة منه.

ج ـ ان يسوع ليس إلَهاً ولا ابن إلَه. ولم يكن إرميا، ولا إشعياء، ولامسِّيَّا المنتظر، ولا إيليا، ولكنه رسول أرسله الله «الأحد» لكي يهيء طريق «مسِّيَا» القادم من الجنوب من نسل إسماعيل.

د ـ إن عهد الله مع ابراهيم، كان في اسماعيل، لأن إسحق لم يكن مولوداً آنذاك. فاسماعيل هو البكر وهو أول المختتنين في بيت إبراهيم، وهو الذبيحة التي كان إبراهيم عازماً على تقديمها إلى الله، فصار افتداؤها بالذبح العظيم.

هـ ـ إن يسوع لم يعذب ولم يصلب بل رفعته الملائكة إلى السماء بعد أن ألقي شبهه على يهوذا فوقع عليه العذاب والصلب.

* * *

والمُمْعِن في هذه الفقرات يرى أنها تتعارض وتتناقض مع الثوابت العقائدية عند أتباع السيد المسيح في النواحي التالية:

١ ـ إن كلمة «الآب» التي تكررت على لسان يسوع بنى أتباعه عليها فكرة الخطيئة الجدية وفكرة الفداء عنها، فالجنس البشري مثقل بخطيئة أبيه آدم عندما عصى ربه في الجنة فاستحق الطرد منها. وهذه الخطيئة ظلت راكبة أعناق البشر غير مقدر لها أن تزول إلا بتقديم فداء على مستواها فما يحلها ـ كبش أو ثور ـ أو إنسان. بل لا بد من ذبيحة أو فداء. يستطيع أن يمحوها عن أبناء آدم. لذلك ترفق الله بأعز مخلوقاته ـ الإنسان ـ وأرسل ابنه الحبيب لكي يصلب ويعذب فيفتدي بالآمه وصلبه، خطيئة آدم ويحرر الجنس البشري من هذا الرق الأبدي.

ونحن هنا: ليس من شأننا أن ندخل في نقاش مع هذه الأفكار التي يعجز المنطق عن إيجاد تبرير لها، فإننا نقولها بأسلوب خاطف:

ما دام، الذي ارتكب المعصية هو آدم وقد نال جزاءه فطرد من دار الصفاء والهناء إلى دار الكثافة والشقاء. فلماذا يرسل الله ابنه الحبيب ليعذب ويصلب تكفيراً عن خطيئة لم يرتكبها؟ وتحريراً منها لرقاب لم تشارك فيها؟ ولماذا كانت رحمة الله في حاجة إلى هذا الثَّمن؟ ولماذا لم يقم واحد من أبناء آدم أو أكثر بهذا بالافتداء عن أبيهم فتكلف بها ابن الله؟.

لذلك: فهم برنابا وسواه من كلمة «الابن» و «الآب» معناهما المجازي وليس معناهما البيولوجي، وهذا ما عبَّر عنه يسوع في قوله لفيليبس:

إن ما جاء في إشعياء من أن الله «أبونا» لا يعني حرفيا أننا أبناء الله بل هو مثل من الأمثال الكثيرة التي تصدر عن الأنبياء والتي ينبغي أن تؤخذ بالمعنى لا بالحرف فالله وحده، لا نِدَّ له، ولا بداية ولا نهاية، ولا أم ولا أب، ولا أبناء ولا إخوة، ولا عشراء، وهو غير ذي جسد، وغير مركب، وغير مادي، وهو أبسط البسائط، يدوم إلى الأبد بدون شبيه بشري، لأنه هو صانع الأبد.

٢ ـ إن وحدانية الله وتنزيهه عن الشبيه والشريك وتفرده بالخلق والانشاء، وإعلان المسيح أنه عبدٌ من عباده وبشر من مصنوعاته، يتعارض مع قوانين الإيمان

المسيحي التي اعتبرت يسوع والروح القدس، من جوهر الله، مُمَجَّدين، مسجوداً لهما. ليس لهما بداية ولن يكون لهما نهاية. فمن قال إنهما من جوهر غير جوهر الله أو إنه كان زمنٌ لم يكونا فيه، أو سيكون زمن لن يكونا فيه أو إنهما مخلوقان وليسا مولودين، فهو كافر ويستحق الطرد الكنسي.

٣ ـ إن إسماعيل هو ذبيحة إبراهيم لربه. لأنه ابنه البكر، وقد أكد يسوع ذلك إذ أوضح أن إسماعيل كان في السابعة من عمره عندما وقعت عليه رؤيا أبيه. فيما لم يكن إسحق قد وُلد بعد. وهذا يتعارض مع معتقدات اليهود التي أورثوها إلى النصارى، تمسُّكاً منهم بزعم انحصار ميراث النبوة والكتاب في نسل إبراهيم من إسحق ثم يعقوب.

٤ ـ إن نفي الصلب عن يسوع لم يبنه برنابا على الخيال والتكهن بل على ما رآه عيانا وسمعه شخصيا وعاشه وعايشه حتى النهاية:

ـ فالمسيح كان يقول دوماً: إن الله حفظه من الموت إلى قبيل انتهاء العالم. وقد كرر هذا القول بعد عودته من السماء لمشاهدة أمه وتلاميذه. مذكراً إياهم بما كان قد قال. مؤكداً أنه حي لم يصلب ولم يمت. هنا تتعرض عقيدة الخطيئة والفداء وتحرير الجنس البشري إلى هزة عنيفة. لأن الإيمان بها شرط لقيام الانتماء المسيحي في صدر المنتمي لا يستثنى منها أحد.

ـ وإن كان المسيح قد حمل إلى السماء تنزيهاً له عن الصلب. فممَّا لا شك فيه أن الذي صلب ورأى فيه الناس جسد يسوع وسمعوا منه صوته إنما هو يهوذا الذي كفر بعد إيمان وخان بعد ائتمان. فكان جزاؤه العذاب والصلب في الدنيا والجحيم الأبدي في الآخرة.

٥ ـ هذا الإنجيل يمتاز عن الأناجيل الأربعة امتيازاً صارخاً في التفكير المتنوع السامي والحكمة العميقة الواسعة. والعبارة الدقيقة المحكمة، والمعاني المتماسكة المنسجمة. فهو إلى جانب كونه في مستوى متقدم بين الكتب العقائدية التي رسمت الطريق إلى الله. بوضح وصدق، هو كتاب في المواقع الأولى بين كتب الأدب والفلسفة والحكمة. فأنت إذ تعبر إليه ـ بعد صفحات منه ـ تجد نفسك مأخوذاً بهذه المعرفة الواسعة بالتوراة بالقريب منها والبعيد محيطاً بها إحاطةً كاملة بحيث يستدعي

منها الشواهد بسهولة فائقة. ذلك كله يقطع في اليقين أن مؤلف هذا الإنجيل هو برنابا الداعية اليسوعي الشهير مؤسس أكثر الكنائس الأولى، الذي ظل مكرساً داعياً بين الأمم حتى مات. سارِداً على مسامعهم ما تلقاه من أقوال يسوع ومواعظه ومارآه رؤية العين من الآيات التي ظهرت على يديه.

ـ في حين أن صاحب الإنجيل الثاني ـ مرقس ـ الذي هو ابن أخت برنابا، لم يكن من الحواريين الإثني عشر الذين تتلمذوا للمسيح واختصهم بالزلفى إليه بل هو من السبعين المختارين الذين ألهموا بالتبشير، وهو ـ كما وصفه سفر أعمال الرسل ـ أصغر سنّاً وأدنى رتبة وتأثيراً دعائيا من خاله ومن بولس. وان افتراق هذين الرفيقين الرسولين كان بسبب مرقس الذي رفض بولس اصطحابه معهما في حين أن برنابا أصر على ذلك(١).

ـ وصاحب الإنجيل الثالث «لوقا» الطبيب أو المصور فقد كان من تلاميذ بولس ورفاق دروبه ولكنه لم يشاهد يسوع ولم يتتلمذ على يديه.

ـ ويوحنا الذي اختلفوا ـ كما مر معنا ـ في تحديد شخصيته: هل هو يوحنا الحواري الذي أحبه يسوع كثيراً؟ أم يوحنّا آخر لا يمت بصلة إلى الأول؟ وقد أورد في الإنجيل عبارات تشعر بأن المؤلف هو «تلميذ المسيح يوحنا» ـ «أحد حوارييه» وذلك لشد الإنتباه إلى مؤلّفه وإعطائه القيمة والتقدير. خاصة وقد ثبت في أكثر المراجع التاريخية أن هذا الإنجيل كتب في أواخر القرن الأول أي إن يوحنا الحواري لو كان حيّاً لكان تجاوز التسعين من عمره مما يوجب الحذر حول ما رواه استذكاراً من حافظةٍ جثم عليها قرن من الزمان فأتى على مساحات غير قليلة من مناطق اختزانها وقوة حفاظها على الأحداث ومارافقها من خطب ومواعظ(٢).

* * *

---

(١) جاء في «مروج الاخبار في تراجم الأبرار» عن مرقس وإنجيله ما يلي: صنف هذا الإنجيل بطلب من أهالي رومية وكان مؤلفه ينكر ألوهية المسيح هو واستاذه الحواري بطرس. (محاضرات في النصرانية ـ ص ٤٧).

(٢) كنا في الفقرة (ثانيا ـ ١) أوردنا الرأي الحرفي لدائرة المعارف البريطانية في هذا الإنحيل.

الفصل الخامس

جدال القرآن لليهود في المسيح وأمه مريم

توطئة: يذكر القرآن آخرة المسيح بأسلوبين.

بحث أول: أسلوب التصريح والتعليم.

بحث ثان: أسلوب جدال اليهود.

خاتمة: لا ينكر القرآن قتل المسيح وصلبه بل يؤيدهما.

التوطئة

يقول المؤلف: «يتحدث القرآن عن المسيح بأسلوبين:

أحدهما تعليمي: يصرح فيه مراراً بموت المسيح ورفعه حياً إلى السماء.

والثاني جدالي: يصف فيه خيبة اليهود في صلبه فينفي عنه القتل والصلب. ولكن العقيدة الإسلامية تقوم على الأسلوب الأول المدعوم بالشهادات العديدة. وليس على الأسلوب الثاني الذي ليس له من القرآن غير جزءٍ مبتور من آية واحدة لم تتكرر.

لذلك: قسم المؤلف هذا الفصل إلى البحثين «الأول» و«الثاني» ثم أتبعهما «بالخاتمة».

* * *

ونحن قبل حوارنا مع كل بحث على حدة نود لفت نظر القارىء إلى عدم وضوح غاية المؤلف من هذا الفصل إذ لم نستطع الوقوف على غاية محددة. اللهم إلا إذا أراد أن يقدم من القرآن دليلاً على تضارب أخباره عن اليوم الأخير للمسيح في هذه الدنيا والوصول بعد ذلك إلى تغليب الاتجاه الذي يتفق مع العقيدة المسيحية في مسألة الصلب.

البحث الأول

أسلوب القرآن بتعليمه في آخرة المسيح

١ ـ قال المؤلف:

ـ «تشكل الآية ١٩/ ٣٣ من سورة مريم شهادة على حقيقة إيمان القرآن بالمسيح» **﴿والسلام علي يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾**.

كما صرَّحت الآية ٣/ ٥٥ ـ آل عمران بأن بعث المسيح كان بعد موته مباشرة **﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا. . .﴾**.

ـ والسلام على المسيح يشمل سلام الله كله فهو يعني المعرفة والشمول وصفة المتكلم أما السلام على يحيى فهو نكرة وفي صيغة الغائب، وهذا تكريم إلهي لم يحظ به أحد من الأنبياء فهو ميزة للمسيح على المرسلين والعالمين كافة.

٢ ـ وقال:

ـ إن الآيات من ٣٣ ـ ٦٤ من آل عمران هي خلاصة حوار القرآن مع وفد نجران، وهو يمثل إعلان عقيدة القرآن في المسيح التي تلخصت في الآية ٣/ ٥٥ ـ من هذه السورة، ففيها يخاطب الله عيسى بأنه متوفيه ورافعه إليه وذلك مَكْراً باليهود الذين مكروا بعيسى وقتلوه فبعثه الله من بعد موته حيا ورفعه إلى السماء.

ـ والمكر اليهودي في الآية ٣/ ٥٤ منها يجد تفسيره وتوضيحه في الآيات ٤/ ١٥٦ ـ ١٥٧ ـ ١٥٨ ـ من سورة النساء. **﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً(١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وماقتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا(١٥٧) بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما(١٥٨)﴾**.

٣ ـ وقال: وفي الآيات من ٥/ ١١٢ ـ ١٢٢ من سورة المائدة تصريح في محاسبة الرسل عندما يجمعهم الله يوم الدين(١٠٩) والمسيح من بينهم فقد جاء في الآية (١١٦): **﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي**

إلّهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق...﴾، ﴿ما قلت إلا ما أمرتني به أنِ اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد(١١٧)﴾. فجواب المسيح ـ كما فهمه المؤلف ـ ينطوي على ثلاثة أمور:

الأول: تصريحه أنه لم يعلم غير التوحيد.

الثاني: إنه كان شهيداً على أمته طوال وجوده فيها، أما بعد وفاته فقد صار الله هو الرقيب.

الثالث: إنه يقوم بالشفاعة لأمته (١٢١).

* * *

مقولات المؤلف الثلاث (١ ـ ٢ ـ ٣) وإن وردت هنا في باب «لزوم ما لا يلزم» فإن لنا عليها ملاحظات نوجزها بالآتي:

١ ـ الآية ١٩/ ٣٣ من سورة مريم هي أول نُطْقٍ صدر عن عيسى عليه السلام، وهي تتمة لآيات تحدث فيها عن نفسه فقال: إنه واحدٌ من عباد الله، آتاه الله الكتاب وجعله نبيا. ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا والسلام علي يوم وُلدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾(١٩/ ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ مريم). وهكذا في ـ عرف القرآن وفي يقين المسلمين ـ كان أول ما نطق به عيسى هو إقراره بالعبودية لربه وتبرئته لأمه مما نسب إليها من فاحشة، وكونه مأمورا بالفرائض الدينية مثل الناس، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا ويموت ويبعث مثل سائر المخلوقين.

٢ ـ والآيات التي تمثل العقيدة الإسلامية في المسيح هي الآيات التي أنبأ الله فيها المسيح إنباءً مباشراً بالمصير وهي الآية ٣/ ٥٥ ـ آل عمران و٥/ ١١٧ ـ المائدة. وفي كلتيهما يغادر المسيح هذه الدنيا «بالوفاة» إذ يتوفاه الله. وثمة اختلاف كبيرٌ بين مفهوم «الوفاة» ومفهوم «الموت». فقد ترد «الوفاة» في غير معنى «قبض النفس» وفي معاجم اللغة معان عديدة لهذا المفهوم: حيث جاء في لسان العرب. «تَوَفّي الميْت»

هو استيفاء مدته التي وفيت له وعدد أعوامه وأيامه في الدنيا، و«توفيت عدد القوم إذا عددتهم كلهم» وفي قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ أي يستوفي تمام مدد آجالها في الدنيا. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ هو من توفية العدد. و أما توفي النائم فهو استيفاء وقت عقله وتمييزه إلى أن نام.

٣ ـ والسلام الذي جاء في القرآن على «يحيى» و «عيسى» هو سلام متماثل، رافق كلا منهما في الأيام الثلاثة الأهم من عمر الإنسان وهي: يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث، فكلاهما: سار السلام معه في هذه الأيام الثلاثة، وكلاهما يبعث حيا.

ولكن المؤلف: يأبى إلا أن يأخذ جميع السلام القرآني ليضعه بين يدي (عيسى عليه السلام) وهذا التعنُّت هو الذي أوجب علينا معارضته بالملاحظات الآتية:

أ ـ إن السلام الذي ورد بخصوص يحيى (عليه السلام) في الآية ١٩/ ١٥ ـ من سورة مريم. ورد على لسان الباري عزَّ وجل ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا﴾ في حين أن السلام على عيسى ورد على لسانه بصيغة إخبارية: ﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾ (١٩/ ٢٣: مريم).

ب ـ خلافاً لرأي المؤلف فإن سلام الآية ١٥ ـ يمكن تقديمه على سلام الآية ٢٣ ـ لأنه صادر عن الله جل جلاله. وفي هذا الموضوع روي عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن أنه قال: إن يحيى وعيسى (عليهما السلام) التَقَيَا فقال له عيسى: استغفر لي فأنت خيرٌ مني. فقال له الآخر: أنت خير مني: فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك (ابن كثير).

٤ ـ والآيات التي اعتمدها المؤلف لإثبات قتل اليهود للمسيح، عن طريق الصلب، لا تفيد أن القرآن سردها على أساس أنها هي المعبرة عن حقيقة تقييمه للمسيح.

ـ ففي الآية ٣/ ٥٥ ـ آل عمران أكد القرآن بخطاب إلهي مباشر إلى عيسى (عليه السلام) أن الله هو الذي يتوفاه وهو الذي يرفعه إليه، فواقِعَتَا الوفاة والارتفاع حصلتا بقوة الله وليس بقوة عيسى الذاتية، وهما تتمان من الله وليس من اليهود. وليس في هاتين الواقعتين ما يدل على القتل أو الموت. ولو كان القرآن مؤيداً

ومصدقاً مقالة «الصلب المادي» و«الدفن المادي» و«القيامة الجسدية من القبر بعد ثلاثة أيام» لذكر ذلك أو لسكت عما روته النصارى فيما بعد. ولكنه بدلاً من هذا: وصف غياب المسيح عن الدنيا باستيفاء أيامه فيها فيكون «التوفي» من الله ومنه يكون أمر «الارتفاع» بالمسيح.

ـ ثم تأتي الآية ٤/ ١٥٧ ـ من سورة النساء. لتؤكد على تكذيب اليهود تكذيبا قاطعاً في مزاعم القتل والصلب، والتأكيد في الوقت ذاته، أن الذي صلب هو من وقع عليه شَبَهُ المسيح: **﴿وما قتلوه يقينا﴾** (١٥٧) **﴿بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** (١٥٨).

٥ ـ أما اعتماد المؤلف على شرح الإمام الرازي للآية ٣/ ٥٥ ـ آل عمران. حيث قام بتحليل مفهوم «الوفاة» و«الرفع» فإنه اعتماد ساقه المؤلف بأسلوب المغالطة. لأن الإمام الرازي قال في الصحيفتين ٦٢ ـ ٦٣ من المجلد الرابع: «إن إلقاء الشبه على الإنسان يثير إشكالات معرفية عدَّد منها ستة وجوه:

أحدها: ما تواتر عند النصارى واليهود من أن الصلب كان صلبا جسديا حقيقيا نفذ في المسيح وأن الشبيه المصلوب بقي حيا على الخشبة مدة من الزمن، فلو كان غير عيسى لأظهر الجزع[1]. ولكن الرازي نفسه ردَّ على هذا الإشكال في ذات الصحيفة ٦٣ ـ فقال:

«قد يكون الذي ألقي عليه شبه عيسى، من المؤمنين به، وقد يكون ممن أفقدهم الله القدرة على البوح[2]. على أن هذه الاشكالات هي من الأمور التي تتطرق إليها الاحتمالات من بعض الوجوه. ولما ثبت بالمعجز النَّاطق القاطع صدق محمد (ص) في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الإشكالات معارضة للنص القرآني القاطع».

---

(١) يرجى العودة إلى الفقرة خامساً، التي اوردنا فيها نبذة عن برنابا، وفيها رواية كاملة عن المحاولات البائسة التي بذلها «الشبيه يهوذا» لاقناع اليهود أنه ليس المسيح، ولكن المشابهة وصلت بالجميع حد القناعة المطلقة أنه هو المسيح وليس يهوذا.

(٢) إن ما جاء عن الإمام الرازي يعطي الدليل على أن إنجيل برنابا لم يكن معروفاً في ديار الإسلام. وإلاّ كان قد توقف عند الشبه، مثلما توقف برنابا.

٦ ـ وفي الآيات من ٥/١١٢ ـ ١٢٠ ـ من المائدة:

ـ تأكيد على الوفاة من قبل الله مباشرة.

ـ وعدم وجود كلمة «الموت» أو «القتل».

ـ وتأكيد على أن المسيح بعد أن رفعه الله إليه من هذه الدنيا لم يبق له إشراف ولا رقابة على تابعيه. فقد كان شهيداً عليهم مادام فيهم. فلما توفاه الله صار هو الرقيب والشهيد على كل شيء.

ـ بقي أن نقول:

أشار المؤلف إلى الآيتين: ١٢١ و ١٢٢ من سورة المائدة وحملهما حكماً شرعيا ـ وهو: «انفراد المسيح بالشفاعة لأمته يوم الدين ١٢١». ولكن المؤلف أوغل في الخطأ:

ـ لأن سورة المائدة تنتهي بالآية ١٢٠ ـ وليس فيها الآيتان ١٢١ و ١٢٢ ولقد عدنا إلى جدول الخطأ، والصواب في نهاية كتاب المؤلف ملتمسين له عذراً مطبعيا، فلم نجد.

ـ ولأن آيات المائدة التي تحدثت عن عيسى (عليه السلام)، التي هي من الآية ١١٢ ـ ١٢٠ لاتتضمن شيئاً عن شفاعته لأمته.

ـ ولأن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله. (١٠/ ٣ و٦/ ٧٠ و٢٠/١٠٩ و١٩/٨٧). فللّه الشفاعة: ﴿قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض﴾ (٣٩/ ٤٤: الزمر).

* * *

البحث الثاني

أسلوب جدل اليهود في آخرة المسيح

يعتمد المؤلف هنا على:

ـ آيات من سورة النساء ٤/١٤٩ حتى ١٦١.

ـ وآيات من سورة آل عمران ٣/ ٥٥ ـ ١٥٥ .

ـ ومن سورة البقرة ٢/ ٨٧ .

وقد سبقت منّا مناقشة بعض مقولات المؤلف في هذا الموضوع مما يغني عن التكرار ويوجب الاقتصار على ما لم تدركه المناقشة وهو يتلخص بالآتي:

١ ـ قالت بعض فرق النصارى: إن المسيح «كلمة الله» حل على عيسى يوم بدء دعوته وفارقه يوم استشهاده، فالصلب والقتل وقعا على عيسى الجسد وليس على عيسى المسيح «كلمة الله»

ولكن القرآن لم يشاطرهم هذا القول ولم يؤيدهم في هذا الرأي.

ـ بل أعلن بأن عيسى هو المسيح من قبل أن يظهر من رحم أمه.

ـ وأعلن أنه تكلم في المهد وهذه من خصوصيات المسيح ـ الكلمة ـ لا من خصوصيات عيسى الإنسان العادي.

ـ وقال دون تفريق بين عيسى والمسيح: إن الله هو الذي توفاه ورفعه إليه.

ـ وهو دون تفريق بينهما الذي وقع شبهه على المصلوب. فوقع الصلب على سواه.

٢ ـ وإنْ من أهل الكتاب ـ إلا ليؤمنن به قبل موته: ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ـ ٤/ ١٥٩ : النساء».

«قبل موته».

عاد المؤلف بالضمير إلى المسيح ليأخذ من الكلمة إقراراً قرآنيا بأن الموت تحقق بالصلب الذي وقع على المسيح. ولكن الآية بكاملها تعني وتدل على أن أهل الكتاب الذين كابروا في المسيح فرفضوه، والذين غالوا فيه فألّهوه. لن يموت أيا منهم إلا بعد أن يؤمن. أي يصدق بحقيقته.

فالعود بالضمير في كلمة «موته» إلى كل فرد من أهل الكتاب هو أقرب إلى مرمى الآية وذلك بقوة الأسباب الآتية:

أ ـ إنها تنسجم مع التوجه القرآني عامة، الذي تحدث مراراً عن وفاة المسيح بيد الله.

ب ـ إذا كان المقصود «بموت المسيح» مغادرته الدنيا فقد غادرها والأكثرية العظمى من أهل الكتاب غير مؤمنة به بل ظلت تناصب أتباعه العداء وتلاحقهم، فلم يتسن لهم شيء من الإطمئنان والاستقرار إلا بعد ثلاثة قرون من المكابدة والكفاح والتضحيات. وبذلك يكون صرْف الآية إلى «موت المسيح» وذهابه من الدنيا عبثاً لفظياً، يجل عنه القرآن، لأنه منقوضٌ بالواقع.

ـ روي عن شهر بن حوشب قال: قال الحجّاج إني ماقرأتها إلا وفي نفسي شيئاً منها، يعني هذه الآية، فإني أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه وقالوا: يا عدُوَّ الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول آمنت أنه عبد الله. وتقول للنصراني أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه هو الله وابن الله، فيقول: آمنت أنه عبد الله. فأهل الكتاب يؤمنون به ولكن حيث لا ينفعهم الإيمان. (الامام الرازي عن محمد بن علي بن الحنفية).

٣ ـ وفي «شُبِّه لهم» أورد المؤلف ما يعتبر «تحايلاً على اللفظ» يوقع الآية في ضيق وضرر وحرج. سواءٌ في اللفظ أم في المعنى، ولقد حِرْتُ في معرفة ما يرمي إليه من هذه العبارة:

«أما قصة الشبه، أي ألقى الله على أحدهم شبه عيسى فظنوه إياه. فهي قصة ناتجة عن تحريف مقصود لحرف القرآن فالقرآن لا يقول «شبه له» أي لعيسى. بل شُبِّه لهم أي لليهود ولا يعني التعبير «شبه لهم» أن عيسى شبه لهم «بل إن الأمر شبه لهم» أي ظنوا ذلك» (ص ـ ١٢١ ـ من المؤلف).

قلت:

ـ إما إن المؤلف يقول مالا يُفهم.

ـ وإما إننا لا نفهم ما يقول.

ثم عدت الى ما سبق من أبحاث، فوجدت، أنني بلغت في تفهم غايات المؤلف، وإدراك أبعاد أقواله. إلى الأدق من الدقيق فيها. فقلت: إذن هو الذي يقول ما لا يفهم. إما ضلالاً منه وإما تضليلاً دفعه إلى السير في الضباب كيلا يرى منه غير الشبح.

والآن: لنُمعِن قليلاً في المنظور القرآني:

ـ إن المسيح توفاه الله ثم رفعه إليه.

ـ والصلب وقع على آخر ألقى الله عليه شبهاً من المسيح. فظن اليهود أنه المسيح حتى وقع في هذا الظن يوداس ـ يهوذا نفسه الذي قبَّل الشبيه دالاً عليه بالقبلة. وهو يظن أنه يقبل المسيح ويدل اليهود عليه[1].

ـ وفعل «التشبيه» ورد في القرآن بصيغة المجهول «شُبِّهَ» وهو ينطوي على حلول صفات المشبه به (المسيح) على الآخر (المشبَّه) فأصبح المشبَّه هو الذي خَالَه اليهودُ «المسيح المشبَّه به». والمشابهة هي المماثلة والمحاكاة.

فما ندري وجه الفائدة من الفذلكة اللغوية التي تقدم بها المؤلف. لأن مقصود الآية الذي استقر في أذهان كل من قرأها من أهل الأرض كافة، هو أن شبه المسيح وقع على شخص آخر نُفِّذ فيه حكم الصلب. بالرغم مما توارثه اليهود والنصارى بالتواتر من اعتقاد وقوع الصلب على جسد المسيح.

ـ لأن النبأ القرآني صادر عن الله، أما التواتر اليهودي والنصراني فإنه يفتقر إلى الإسناد الصحيح حيث يفصل الزمن بين الحادثة والرواية بمسافة لاتقل عن مئة وخمسين عاماً.

ـ ولأن المؤلف يتحدى القرآن بالقرآن ممَّا يلزم بالتقيد فيه دون سواه.

٤ ـ وينسب المؤلف إلى الإمام الرازي أنه قضى على قصة الشبه قضاءً مبرماً عندما قال في الصحيفة ٦٣ ـ من المجلد الرابع (٧ ـ ٨).

«والإشكال الخامس أن النصارى على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح وغلوِّهم في أمره. أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً، فلو أنكرنا ذلك كان طعْناً فيما ثبت بالتواتر والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد وعيسى وسائر الإنبياء».

ولكن لو تدلَّى المؤلف بإحدى عينيه فقط إلى منتصف الصحيفة نفسها من

---

(١) هذا إذا تجاوزنا رواية برنابا التي أكدت على أن الشبه وقع على يهوذا وأن الصلب نفذ فيه.

المجلد ذاته لوجد أن هذا القول ليس للرازي ولكنه واحد من الإشكالات التي قال الرازي إنها تداولت بين الناس.

أما قول الرازي في هذا الإشكال الذي هو خامس الإشكالات المسرودة فهو:

«والجواب على الإشكال الخامس أن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين. ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز، والتواتر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم ـ الصحيفة ذاتها».

٥ ـ أما الآيتان ٢/٨٧ البقرة و٣/١٨٣ آل عمران. فقد حاول المؤلف أن يستخرج منهما إقراراً قرآنيا على أن القتل وقع على المسيح فقط، وأن التكذيب وقع على غيره من الأنبياء.

ـ ﴿**ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون**﴾ (٢/ ٨٧: البقرة).

فالرسل الذين قسمتهم الآية إلى فريقين:

هم: جميع الرسل من عهد موسى ومن جاء بعده حتى عيسى.

والتكذيب: وقع ضد فريق من الرسل دون أن يتطور إلى القتل.

ولكن التكذيب الذي اقترن بالقتل كان على فريق منهم وليس على جميعهم.

وقد تركت لنا موروثات اليهود وسواهم قصص الذين قتلهم اليهود، وعلى سبيل المثال زكريا ويحيى، وليس في الآية ما يفيد وقوع القتل على عيسى.

ـ إنَّ ورود فعل «قتلتم» بصيغة الماضي وفعل «تقتلون» بصيغة الحاضر هو الذي أثار الإشكال عند المؤلف، وهو لو تدبَّر لغته العربية بما تستحق من الاهتمام لوجد أن المراد هنا هو استحصال الحال الماضية في النفوس وتصويرها في القلوب لشدة الجرم وفظاعته.

وإيراد هذه الصيغة يتكرر في القرآن مثل ﴿**كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم فريقاً كذّبوا وفريقاً يقتلون**﴾ (٥/ ٧٠: المائدة).

وإذ يقول المؤلف «وليس من شهادة على قتل المسيح أصرح مما في الآية ٣/١٨٣». يضطرنا إلى قراءتها والاستزادة منها والعودة إلى تفسيرها لنجد أنه لم يراع في قوله جانب الدقة والموضوعية، إذ قرأ على السريع واستوعب على الأسرع. فكان في الأمرين بعيداً عن الآية: أما هي: فإنها لا تفيد شيئاً عما قاله المؤلف:

﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألاَّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربانٍ تأكله النار قل قد جاءكم رسلٌ من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين﴾ (٣/ ١٨٧ : آل عمران).

فما قصة القربان؟ وماهو المقصود «بالذي قلتم» و«ما هو المغزى العام؟».

أ ـ قال عطاء: كان بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون التروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط البيت والسقف مكشوف فيقوم النبي في البيت ويناجي ربه وبنو إسرائيل خارجاً واقفون حول البيت فتنزل نار بيضاء لها دويٌّ خفيف ولا دخان لها، فتأكل القربان.

وقد روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في كعب بن الأشرف وكعب بن أسد، ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وزيد بن التابوت وفنحاص بن عازوراء وغيرهم أتوا إلى رسول الله وطلبوا منه مثل هذا القربان.

ب ـ ظلت هذه العادة في اليهود حتى ارتفعت وزالت ببعث المسيح.

ج ـ بينت هذه الآية أن الآيات نزلت على الرسل «بما قاله اليهود» ومع ذلك أخبرت أن أولئك الرسل كان قد قتلهم اليهود، لذلك يستنكر القرآن قتلهم مع أنهم أتوا بالبينات التي طلبها اليهود.

د ـ يدل ذلك كله على أن فعل القتل الذي أخبر به القرآن وقع على الرسل الذين قُتلوا بالرغم من انهم استجابوا لما طلب منهم من بينات وهذا لا ينطبق على المسيح ـ الذي صلب ـ كما يقول المسيحيون، لأنه ندد بالكفر والفساد ومخالفة الشريعة.

* * *

خاتمة

إن القرآن لا ينكر قتل المسيح وصلبه بل يؤيده

خاتمة هذا الفصل كادت أن تعبر عنها المقدمة عند المؤلف. فهو داعية الخير والإصلاح بين المسلمين والمسيحيين وحبذا لو اتفق المخبر مع المظهر، ولكنه المتشبث على الدوام بكل حرفٍ مسيحي ليس عن المسيح فقط بل عن تابعيه وتابعي تابعيه.

يقف المؤلف على ربوة من قناعاته الموروثة ويطل على المسلمين طالباً أن يخفّوا إليه متخفّفين من تقديسهم للقرآن والرسالة والرسول. ففي تصرفهم الحكيم هذا ينبلج فجر الوفاق الذي يدعو إليه. ليس ثمَّة من عقبة مانعة ـ كما يقول ـ يكفي «لوثر الجديد» أن يحذف المسلمون من القرآن كل ما يتعلق بنفي الصلب عن المسيح وأن يؤمنوا بأنه قتل قتلاً مادياً، وسفك دمه المقدس بأيدي أعداء الله، وأنه ـ في ذات الوقت ـ إله ابن إله، مولود غير مخلوق، كان ولم يكن زمان ولا مكان، وسوف يبقى ولا زمان ولا مكان وله يسجد الأحياء والأشياء.

فقط بهذه التصرفات البسيطة التي لا تكلف المسلمين عناءً كبيراً ولا تكبدهم خسارة تذكر يتحقق الالتقاء ويزول الاختلاف.

والمؤلف متساهل جدا، ونزيه جدا، فهو يتغاضى عن الحذف المثير مستبدلاً به إقراراً عقائدياً بأن هذه الآيات وأمثالها أقحمت على القرآن، فلم ينزل بها وحي ولا نطق بها نبي، وما على قارىء القرآن إلا أن يقفز عنها بعينيه فلا يعيرها تقديراً ولا اهتماماً.

والمؤلف، لا ينسى أن يذكّر المسلمين كافة بأنهم إن فعلوا هذه أو تلك فقد فازوا بالمسيح الذي سما استشهاده على كل استشهاد، واستحقوا الانتساب إليه.

«فخلوده وحده حيّاً مع الله في السماء رفعه على المخلوقين جميعا» ص ١٢٤ المؤلف.

لسنا من مؤيديك أيها الأستاذ الحداد. وفي الظن أنك لن تجد مؤيدين إلا بين صفوف الحاقدين المتحزّبين.

ولقد مرَّ مَعَنا في فقراتٍ سابقة أن عقيدة المسلم تقوم على الإيمان بالإنبياء وبما أنزل عليهم من الله، دون تفريق بينهم، وأنهم جميعاً ـ في يقينه ـ إخوة أبناء علاَّت، دينُهم واحد وشرائعهم شتى، وأن اختلاف مظاهر ظهورهم بين الناس كان مراعاةً لاختلاف الزمان والمكان وتطوُّر الإنسان، وإذا كان ثمة من تفضيل وتفاوت في المراتب بينهم فذلك من أمر الله وليس من أمر العباد الذين أمروا أن يؤمنوا بهم دون تفريق بين أحدٍ منه.

﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داوود زبورا﴾ (١٧/ ٥٥: الإسراء). **﴿وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾** (٥٧/ ٢٩: الحديد). **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾** (٣/ ٣٣: آل عمران).

الفصل السادس

جدال القرآن لوفد نجران في المسيح وأمه

توطئة: جدال وفد نجران موزع على سور.

بحث أول: الفصل الأول من جدال وفد نجران «آل عمران».

بحث ثان: الفصل الثاني من جدال وفد نجران «النساء».

بحث ثالث: الفصل الثالث من جدال وفد نجران «المائدة».

خاتمة: جدال القرآن لوفد نجران ليس جدال المسيحية الرسمية.

توطئة

جدال وفد نجران موزع على سور

يقول المؤلف: ظلت المسيحية بعيدة عن معركة الجدل التي ظلت محتدمة بين القرآن واليهود حتى أواخر العهد المدني وبالتحديد حتى عام الوفود ٦٣١ م. ففي ذلك العام تحقق النصر للمسلمين في تبوك، وكانت الحجاز قبل ذلك قد دانت للنبي وتم الفتح الأعظم لمكة. وانطلقت البعوث إلى اليمن وشمال الجزيرة. في ذلك العام قدم وفد نجران إلى النبي بغية الاستطلاع عن مدى إيمانه بالمسيح وأمه وقيام معاهدة أمانٍ وعهد معه، فكان في ذلك الفصل الأول من الجدال الذي ورد في آل عمران.

أما «الفصل الثاني» فهو فصل الأحاديث المروية وتكفيرات الوفد. في «سورة النساء».

و«الفصل الثالث» جاء في «سورة المائدة» على شكل تعليقات على مقولات الوفد بعد سفره ويتبين جليا أن الفصلين الأخيرين ليسا من أصل التنزيل. بل أُقحِما عليه استجابة للأسباب الآتية:

أ ـ لم يجادل القرآن من الطوائف المسيحية غير وفد نجران الذي كان على مذهب «اليعقوبية» وهي بدعة قضت الكنيسة بحرمانها واعتبارها هرطقة كما طاردت أتباعها وحرّمت كتبهم ومقالتهم، لذلك لا تعتبر هذه الطائفة ممثلة للمسيحية الرسمية.

ب ـ إن الجدال حصل مرّة واحدة؛ ولم يحصل ثلاث مرات. ولكن آياته وزعت على السور الثلاثة للإيهام بأن الجدال مع المسيحية استمر طيلة العهد المدني أي منذ نزول آل عمران وأن استمراريته ظلت محاذِيةً وموازيةً للحوار مع اليهودية.

ج ـ إن الحروب التي توجت باجتياح الجيوش الإسلامية للديار المسيحية اجتياحاً أدى إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية وفرار «هرقل» من بلاد الشام. تركت في نفوس الجانبين المتحاربين عواطف لدودة لم تستطع لجنة جمع القرآن وكذلك الخليفة وكبار القادة أن يتحرروا منها أثناء الجمع والتصنيف، فوضعوا في الكتاب آيات وأجزاء من آيات جعلت المسيحية في مستوى واحد تقريبا مع اليهودية. في مناهضة الرسالة والكفر. مع أنه لم يقم جدال إلا مع وفد نجران ولم يُجادل ذلك الوفد باسم المسيحية الرسمية[1].

---

(١) جاء في الجلالين: أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع، أن النصارى أتوا إلى النبي (ص) فخاصموه في عيسى فأنزل الله الآيات من الآية الأولى حتى بضع وثمانين آية من سورة آل عمران. وقال ابن إسحاق، نزلت فاتحة آل عمران حتى رأس الثمانين منها في وفد نجران الذين قدموا يسألون النبي عن عيسى وأمه وقد أيّده في «المناسبة» ابن كثير، وجاء في وصف الوفد أنهم قدموا في ستين راكباً منهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، فدخلوا مسجد الرسول وعليهم ثياب الحبرات (جبب وأردية) ويقول من رآهم من أصحاب النبي: «ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم»، وعندما حانت صلاتهم صلُّوا في مسجد الرسول متجهين إلى الشرق فكلم منهم رسول الله أبو حارثة بن علقمة. والعاقب عبد المسيح، والأيهم، وهم من النصرانية ـ على دين الملك ـ مع اختلاف أمرهم يقولون: «إن المسيح هو الله» و«هو ولد الله» و«هو ثالث ثلاثة». فالذين احتجُوا أنه الله، فلأنه كان يحيي ويخلق ويبرىء وينبىء بالغيوب والذين احتجوا بالثلاثة لقوله: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فلو كان الله وحده لقال فعلت وأمرت وخلقت وقضيت. والذين احتجوا بأنه ابن الله فلأنه ولد من دون والد وتكلم في المهد. وقد نزلت آيات القرآن في الأقوال الثلاثة. وعندما طلب النبي من ممثلي=

هذه الفقرة: هي خلاصة مقتبسة عن آراء المؤلف أفرغها في الصحائف ١٢٦ـ ١٢٧ ـ ١٢٨ و١٢٩ و١٣٠ ـ من كتابه.

بحث أول

الفصل الأول: من جدال وفد نجران ـ آل عمران ٣٣ ـ ٦٤

يمكن تلخيص ما قاله المؤلف في هذا البحث بالآتي:

١ ـ خلافاً لما اتفق عليه المفسرون: ليس نزول الآيات الأولى من سورة آل عمران حتى الثمانين منها بمناسبة «وفد نجران» لأن فاتحة السورة وواقعها يشهدان

الوفد أن يعلنوا الإسلام قالوا: قد أسلمنا قبلك قال: كذبتم فإن ما يمنعكم عن الإسلام ادعاؤكم أن لله ولداً وعبادة الصليب وأكل الخنرير. قالوا: ومن أبوه يا محمد؟ فصمت الرسول فأنزل الله في ذلك قولهم واختلاف أمرهم بدءاً من بدء آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. وفيها: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (٥٩) وفيها: «ولادة يحيى» و«ولادة مريم» و«تبشيرها بالمسيح» و«ما جرى للمسيح مع الحواريين واليهود» و«خطاب الله لعيسى بأنه متوفيه ورافعه إليه» إلى أن يأتي الأمر إلى النبي بالمباهلة ﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ (٦١) وفي الغداة:

حضر رسول الله وقد احتضن الحسين، وأخذ بيد الحسن، وفاطمة خلفه وعلي خلفها وهو يقول: إذا دعوت فأمّنوا. فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة. فقالوا يا أبا القاسم: رأينا أن لا نباهلك وأن نقرّك على دينك، قال فأسلموا، فأبوا، فقال: أناجزكم القتال. قالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة. ولكن نصالحك على أن لا تردّنا عن ديننا ولا تغزونا على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة، ألفاً في صفر وألفاً في رجب، وثلاثين درعاً عادية، فصالحهم وأضاف الإمام الرازي على هذه الوقائع:

«وروي أنه عليه السلام «خرج في المرط الأسود (العباءة) فجاء الحسن فأدخله، ثم الحسين فأدخله ثم فاطمة ثم علي فقال الرسول: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وهي رواية ـ كما قال ـ:

كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث ـ الإمام الرازي ـ ص ٧١ ـ من المجلد الرابع.

بأن الآيات الأولى من ١ ـ ٣٢ هي في جدال اليهود. وقد ميز القرآن النصارى من بني اسرائيل «عن عامة اليهود، فوصفهم» «بالراسخين في العلم ـ (٧)». «وأولي العلم قائماً بالقسط» «والذين يشهدون أن الدين عند الله الإسلام ـ (١٨ ـ ١٩)».

ولكن القوم ـ يقول المؤلف ـ: خلطوا بين النصارى والمسيحيين فوقعوا في الشبهات. والسورة كلها ليس فيها من الجدال مع وفد نجران غير قصص آل عمران وهي:

أ ـ من ٣٤ ـ ٣٧ في مولد مريم وعصمتها من الخطيئة.

ب ـ من ٣٨ ـ ٤١ في وصف يحيى «سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين»[١]. وأن رسالته هي «التصديق بكلمة الله» والدعوة لها. أي الدعوة للمسيح لأن المسيح هو كلمة الله.

ج ـ من ٤١ ـ ٥٧ في اصطفاء مريم وكفالتها في حداثتها وبشارة الملاك لها بقوله: ﴿بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين﴾ (٣/ ٤٥ ـ ٤٦).

«فكون المسيح كلمة الله، رفعه على المرسلين اجمعين لأنه عين كلمة الله»[٢].

﴿وهو من المقربين﴾ أي من الملائكة المقربين ـ (النساء: ١٧١).

«وحده ولد على الهدى والنبوة ـ يكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين» (٤٦).

ومنذ مولده ـ يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل(٤٨). أي إن ما تعلمه هو الوحي والتنزيل كلاهما، فلا وحي ولا تنزيل بعدَهُ وبعد الإنجيل الذي هو القمة والكمال فلا يقال بعد وحي عيسى وإنجيله ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ (الإسراء: ٨٥).

---

(١) الحصور هو الممتنع عن النساء فلا يشتهيهن.
(٢) تفسير الآيتين ٣٩ و ٤٥ ـ للرازي.

د ـ من ٤٩ ـ ٥١ وَصْفٌ لمعاجِز المسيح. وتوضيح لغاية رسالته (تصديق التوراة ـ ٥٠) وإعلان التوحيد الكتابي (٥١).

هـ ـ وآخرة المسيح هي في الآيات (٥٢ ـ ٥٥).

ومنها يتضح: أن الاسلام الحق الكامل هو من المسيح وفي المسيح وللمسيح. فلا إسلام في القرآن سواه لذلك قال: (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا بك إلى يوم القيامة ـ ٥٥)[1].

و ـ ومصير العالم والتاريخ قائم على الإيمان بالمسيح ـ (٥٦ ـ ٥٧).

ز ـ وفي الآية ٥٨ ـ «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم». تأكيدٌ على أن مصدر القصص هو الإنجيل لأنه الذكر الحكيم هو الإنجيل.

* * *

تلك كانت خطوات ومواد المناظرة الأولى.

ـ تمسك القرآن بالتوحيد.

ـ وتمسك أهل نجران بإلهية المسيح.

٣ ـ فكانت المباهلة هي المناظرة الثانية وقد استنكف الوفد عنها. ويمكن إيجاز «إيمان الوفد» و«الردود عليه» بالآتي:

ـ «الإعجاز المميز في كون المسيح ولد من غير أب» ورد القرآن عليه بمثال آدم (٥٩ ـ ٦٠).

ولكن المؤلف يرد على القرآن والنبي فيقول: «وفَاتهم جميعاً أن الخلق بدأ وهو من عمل الله ـ لا معجزة فيه ـ إذ المعجزة هي «خرق العادة» ففي خلق آدم لاتوجَدُ معجزة بل المعجزة في مولد المسيح من أم بتول ـ[2]. ويورد تفسير الجلالين.

---

(١) ص ١٣٣ ـ من المؤلف.
(٢) ص ١٣٤ من المؤلف.

ـ التحكيم بالمباهلة وقد امتنع عنها أهل نجران.

ـ الدعوة إلى كلمة سواء ـ (٦٤).

وسوف ننفرد مع فقرات هذا الفصل من البحث كلا منها على حدة.

١ ـ كيف خلط القوم بين النَّصارى والمسيحيين؟

قال المؤلف: النصَّارى من بني إسرائيل خصوصيتهم في القرآن. فهم الموصوفون فيه تمييزاً عن غيرهم بأنهم «أهل العلم» و«أولو العلم قائماً بالقسط» و«المقسطون» و«الأمة القائمة» و«خيرُ أمةٍ أخرجت للناس» و«عباد الرحمن» و«المنقون». ومع ذلك خلط القوم في التعرف عليهم والتعريف بهم. فلم يفرقوا بينهم وبين اليهود حيناً والمسيحيين أحياناً[١].

هذا الطرح كان قد طرحه المؤلف وكرَّره دون ملل. وشدَّنا معه إلى التكرار على مضض منَّا.

ـ ففي البحث الأول من الفصل الثاني (المبدأ الثاني والمبدأ الثالث). طرح هذه المفاهيم من خلال الآيات الواردة في سور «آل عمران» و«الأعراف» و«الصف» و«الإسراء» و«هود» و«الفرقان».

ـ وفي البحث الأول من الفصل الثالث طرح المفاهيم ذاتها من خلال الآيات الورادة في سورتي «فاطر» و«العنكبوت». .

وفي البحث الثاني من الفصل الثالث ـ نفسه ـ أعاد نفس ما تقدم به واستعاد آيات آل عمران.

وهنا يعتمد على الآيات ذاتها من آل عمران. وفي حينها: وعند كل عنوان وقفنا مدققين بأقوال المؤلف. مستعيدين قراءة الآيات قراءة مباشرة أولاً: ومن ثم عوداً بها إلى الأصول اللغوية والشرعية والمناسبة التاريخية وبيَّنا في حدود الإمكان أوجه الغلط والشطط عند المؤلف وقدمنا الأدلة اليقينية من التاريخ وأصول المنطق

---

(١) يقصد بكلمة القوم: أتباع القرآن.

على أن تلك المفاهيم والتعابير لم تأت في القرآن تخصيصاً بفئة واحتجاباً عن سواها بل هي مفاهيم عامة أبوابها مشرعة لاستقبال من توافرت فيهم شروطها.

فالناس في حاجة على الدوام إلى وجود «أهل العلم» و «المقسطين» وعِنايةُ الله ـ على الدوام تدفع إلى الوجود هذا الطراز الجايل من البشر. لكي تبقى شعلة الحق والإيمان في توهُّج دائم. ومن العبث الفكري، بل من الجحود لنعمة الله والكفران بعدله، أن يكونَ «أولو العلم» و «الراسخون فيه» قد انقرضوا من الوجود بانقراض «الأبيونيين»[1].

* * *

٢ ـ سورة آل عمران ـ كلها مخصصة للحديث عن اليهود:

كل آيات السورة البالغة مئتين نزلت في جدال اليهود وتسفيه مواقفهم ما عدا الآيات من ٣٣ ـ ٦٤ التي أقحمت عليها أثناء عملية الجمع العثماني وهي التي كوَّنت الفصل الأول من جدال النبي مع وفد نجران ـ ص ـ ١٣١ ـ من المؤلف.

هذا ما قاله المؤلف ثم أضاف:

ـ إن رسالة يحيى ـ بمنطق القرآن ـ هي التصديق بكلمة الله والدعوة إليها أي التصديق بالمسيح والدَّعوة إلى الإيمَان به.

ـ إن كون المسيح «كلمة الله» يعني أنه في منزلة فوق المرسلين. وهو ليس «كلمة الله» كغيرها ولكنه «عين كلمة الله» و«ذاتها» كما قال الإمام الرازي في تفسير الآيتين ٣٩ ـ ٤٥.

ـ والمسيح وحده ولد على الهدى والنبوة فلا وحي بعده ولا تنزيل بعد إنجيله (٤٨).

ـ فالإسلام الحق الكامل هو في المسيح لا إسلام في القرآن سواه ومصير العالم والتاريخ الإنساني قائم على الإيمان بالمسيح (٣/ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧).

---

(١) طائفة من النصارى الإسرائيليين، التي أثبت التاريخ انقراضها، عقيدة ومعتقدين، منذ القرن الرابع الميلادي. (قصة الحضارة ـ لوول ديورانت ـ).

ـ إن مصدر قصص القرآن هو الذكر الحكيم والذكر الحكيم هو الإنجيل (٣/ ٥٨).

أما ملاحظاتنا على هذه الأقوال فتتلخص بالآتي:

أ ـ كنّا في الفقرة «ثانياً» من «البحث الثالث» من «الفصل الثاني» استعرضنا آيات سورة آل عمران بدءاً من بدئها حتى الآية ٢٠٠ وهي آخر آياتها. وذلك لاختبار مدى الصحة والدقة فيما قاله المؤلف بالصحيفة ٤٦ ـ من «أنه إذا رُفِع قصص آل عمران ـ من ٣٣ ـ ٦٤ ـ المُقْحَم على السورة تظهر السورة جميعها حلقات متصلة في جدال مع اليهود.

وبعد أن استعرضنا مواضيع هذه السورة في سبع عشرة فقرة اتضح أن المؤلف لم يمكث على الخطأ الذي وقع فيه بل انتقل منه إلى ارتكاب التجني.

وهنا إذ يكرر مقالته تلك نلتمس من القارىء أن يعود إلى تلك الفقرات التي نعتمدها في ردِّنا عليه.

ب ـ في «محطة الاستراحة وفك الإرتباط» تقدمنا بدراسة مستفيضة وعن الإنجيل من خلال سبع فقرات ناقشنا في الفقرة (٦) منها: «دعوة يوحنا المعمدان) وموقعه الرسولي وقمنا بتحليل أقواله المثبتة في الأناجيل فتعرفنا منها على الشخص الذي كان يمهد له، وهو ـ كما صرح ـ لا يعرفه وليس معاصراً له. وسوف يأتي بعده لكي يعمد «بالروح ونار» وفي رأينا أن تلك الفقرة هي ما نستطيع تقديمه الآن في دحض رأي المؤلف وقوله «إن رسالة يحيى كانت الدعوة إلى المسيح وتمهيد الطريق أمامه». مما يغني عن التكرار.

ج ـ أما قول المؤلف بأن ما جاء في القرآن من أن المسيح «هو كلمة الله وروح منه» يعتبر اعترافاً منه على أن المسيح فوق جميع الأنبياء والمرسلين. خاصة وقد اتفق المفسرون ـ كما يقول ـ على أنه ليس «كلمة الله فحسب» بل «كلمة الله عينها وذاتها» وفقاً لما جاء في تفسير الرازي ومع أننا كنا في «البحث الأول» من «الفصل الرابع» وضعنَا دراسةً مستفيضة عن مقولة المؤلف «في انتساب القرآن إلى الإنجيل وأهله «وحللنا في الفقرة «ثالثاً» من البحث المذكور معنى الكلمة وقلنا:

بما أن المؤلف خصص الفصل الثامن للحديث عن «شخصية السيد المسيح في القرآن» ووضع للكلمة عنواناً مستقلا هو «المسيح هو أيضاً كلمة الله» لذلك فضلنا أن لا نستبق المناسبة وأرجأنا التفصيل في هذا الموضوع إلى حينه. وهنا نكرر الموقف والإرجاء غير أننا لن نترك البحث قبل العودة إلى تفسير الرازي للآيتين ٣٩ و٤٥ من آل عمران وذلك في الفقرات التالية:

١ ـ التعبير الوارد في الآيتين ٣٩ و ٤٥ هو «بكلمة منه» ففي الآية ٣٩ (ومصدقاً بكلمة من الله) وفي الآية ٤٥ ـ (يبشرك بكلمةٍ منه..).

٢ ـ لقد أورد الرازي وجوها متعددة في تفسير الآية ١٧١ من سورة النساء ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته...﴾ وليس من بين تلك الأوجه أي تفسير قال: إنَّ المسيح هو «كلمة الله عينها. أي الأزلية. الأبدية غير المخلوقة» ولكن الرازي رجح رأي من فسَّر بقوله: «إن المسيح خلق بكلمة الله وهو قوله كن. من غير واسطة الأب. لذلك سمي كلمة كما يسمى المخلوق «خلقاً» والمقدور «قدرة» والمرجو «رجاءً» «والمشتهى» «شهوة» وقال: «هذا باب مشهورفي اللغة».

٣ ـ وفي تفسيره لهذا التعبير في الآية ٤٥ ـ أورد الرازي وجوها عدة:

ـ منها: استرجاعه لتفسير الآية ٣٩.

ـ ومنها: إن السلطان العادل يوصف بأنه ظل الله في أرضه وبأنه نور الله لأنه سبب لظهور ظل العدل والإحسان كذلك كان المسيح سببا لظهور كلام الله بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمَّى بكلمة الله على هذا التأويل.

ـ ومنها إن الله تعالى قادرٌ على الممكنات بأسرها ومنها تركيب الأجسام على وجه يحصل فيه الحياة والنطق والفهم وهو قادر على إيجاد الشخص من غير نطفة. ولقد دحَضَ القرآن مقولة النصَّارى فقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(٣/ ٥٩).

وقد تعمَّق الرازي في هذا الموضع فقال: «وأما على أصول الفلاسفة فالأمر في تجويزه ظاهر. ويدل عليه وجوه:

الأول: إن الفلاسفة اتفقوا على أنه لا يمتنع حدوث الإنسان على سبيل التوالد من غير تولد لأن في بدن الإنسان استعداداً لقبول النفس النَّاطقة التي تدبر بواسطة حصول المزاج المخصوص في ذلك البدن. فحصول أجزاء العناصر على القدر الذي يناسب البدن غير ممتنع بل عندما يحدث الامتزاج يكون حدوث الكيفية المزاجية واجباً وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجباً.

الثاني: إننا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد كتولد الفأر من المدر[١]. والحيَّات من الشعار[٢]، والعقارب من الأباذورج[٣] واذا كان كذلك فتولد الولد لا عن طريق الأب أولى ألاَّ يكون ممتنعاً.

الثالث: إنَّ التخيُّلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة. فما المانع من أن يُقال إنه لما تخيلت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد برحمها.

٤ ـ بعد ذلك كله يختتم الرازي تفسيره فيقول:

«أما قوله تعالى بكلمة منه. فلفظة «من» لا تفيد التبعيض هنا. إذ لو كانت بمعنى التبعيض لحملت معها نسبة «التجزؤ والتبعُّض» إلى الله وكان الله بهذا محمّلاً للافتراق والاجتماع. وهو منزه عن ذلك. بل المراد من كلمة «من» هنا هو ابتداء الغاية وذلك لأنه في حق عيسى عليه السلام لمَّا لم تكن ولادته بواسطة الأب. صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخلقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة الله مبدءاً لظهوره وحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا كما يتوهمه النصارى والحلولية ـ ص ٤٢ ـ المجلد الرابع ٧ ـ ٨).

وهكذا:

ـ نرى المؤلف حرّف على الإمام الرازي قوله فنسب إليه ما لم يصدر عنه.

---

(١) المدر هو الطين، أو العِلْكُ الذي لا وحل فيه، واحدته، «مَدَرَة».

(٢) الشجر الملتف في وطاءٍ من الأرض.

(٣) يقولون: مثلي لا يخفى عليه أبازيرك ـ أي الزيادة في القول. والأبازير جمع أبزار وتأتي بمعنى التوابل.

ـ واستخدم ذلك «المحّرف» استخداماً غير كريم.

أما نحن: فلنا أن نوضح أننا لم نستعرض آراء الرازي لإعلان القبول بها أو رفضها فذلك مجاله في موقع آخر ولكنا أتينا بها تبرئة للرازي ممَّا اتهمه به المؤلف. وتأكيداً للقارىء على وجوب الحذر من مقولا ت المؤلف ومنقولاته فقد لمسنا فيها عدم المصداقية العلمية على الدوام.

د ـ ومن الآيات ٤٨ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧ ـ من سورة آل عمران استخرج المؤلف المبادىء العقائدية الآتية:

«إن المسيح وحده على الهدى والنبوة فلا وحي ولا تنزيل بعده وكمال الكتاب بالمسيح».

«إن الإسلام الحقيقي هو في المسيح. فلا إسلام في القرآن سواه ومصير العالم والتاريخ قائم على الإيمان به».

هذه مقولات لم يطرحها المؤلف لأول مرة بل كان قد طرحها من قبل في «البحث الثاني ـ من الفصل الرابع» وكنا جابهناه بملاحظاتنا في حينها وهو هنا يكررها ولكنه يتوسع ويفصِّل ويضع للإنسان ثوابت يحتاجها ـ كما يقول ـ في كل زمان. ولكي يوهمنا أنه يقرأ جديداً في الفكر والتحليل استقدم آياتٍ من القرآن لم يعتمدها في طروحه السابقة. لذلك: وسيراً على خطّة كتابنا تتبَّعناه حيث ثقفناه فوقفنا عند هذه الآيات نستطلعها اليقين كالآتي:

١ ـ ﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ (٣/ ٤٨).

﴿إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهِّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾ (٣/ ٥٣).

﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ (٣/ ٥٦).

﴿وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين﴾(٣/ ٥٧).

فالكتاب والحكمة لا يعنيان في القرآن أن الله حجز هذا التعريف للدلالة على الإنجيل فقط والتأكيد على أن لا كتاب بعده وأنه القمة والكمال في الدين والإيمان حتى آخر الزمان. لأننا إن سرنا معه في اعتبار الكتاب والحكمة اسمين للانجيل ولا يشيران إلى مدلول آخر، اضطررنا إلى قراءة الآية وفهمها كالآتي: «ويعلمه الإنجيل والإنجيل والتوراة والإنجيل» وهذا تكرار معيب في اللفظ والمعنى.

لذلك، ينبغي أن نعود إلى ما فهمه الرعيل الأول الذين عاصروا التنزيل وكانوا حريصين على الإحاطة بكل ما فيه والوقوف على معنى كل تعبير من تعابيره وخاصة تلك التعابير والكلمات التي كانت تتعلق بالعقائد والديانات والقيم. فإنهم أقرب إليها وأجدر بفهمها منا سواء من ناحية اللغة التي كانت عندهم سليقة لا اقتباساً أم من ناحية الوقوف على حقيقة المعنى لوجودهم بين يدي صاحب الرسالة (ص).

إن الإمام الرازي يقول:

«هذه الأمور الأربعة المعطوفة بعضها على بعض في الآية» الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل. هي أمور مستقلة كل بذاته مفصول عن سواه بحرف العطف الذي يعني التتابع بعد الانقطاع. والأقرب عندي أن يقال: المراد بالكتاب هو تعليم الخط والكتابة والمراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الاخلاق لأن الحكمة في الإنسان هي معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به. ثم بعد علمه بالخط والكتابة وإحاطته بالعلوم الشرعية والعقلية «علّمه التوراة» وما ذلك التأخير في تعليمها إلا لوجود الأسرار الألهية العظيمة فيها مما يقتضي استباق تعليمها تعلّمَ العلوم الكثيرة ثم جاءت مرحلة التعليم الرابعة وهي «تعليم الإنجيل» لأن من حاز المراتب الثلاث السابقة عَظُمت درجته في العلم فإذا أنزل الله بعد ذلك كتاباً آخر فهو الغاية القصوى» (ص ـ ٤٨ من المجلد الرابع ٧ ـ ٨).

وقد أيد هذا الشرح ابن كثير في مختصر التفسير (المجلد الأول ـ ص ٢٨٤).

وكنا: قدمنا في الفقرة «سابعاً» من «البحث الثاني ـ من الفصل الرابع» دراسةً موسّعةً في المعاني القرآنية لمفهومي الكتاب والحكمة ورفدنا دراستنا بمسندٍ لغويٌ وتاريخي. نؤثر لفت النظر إليها بدلاً من تكرارها.

مما نقدم ومما أتينا على ذكره سابقاً يتبيَّن مدى المغَالطة التي بُنيت عليها أفكار المؤلف.

هـ ـ وبعد:

فالمؤلف نسي نفسه ونسي الناس ـ على ما يبدو ـ وهو يقول:

«إن تعبير «الذكر» في القرآن يعني الإنجيل وحده».

«وإن قصص القرآن جميعها هي من الإنجيل كما أخبرت الآية (٥٨) **﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾**.

ـ فالذكر: هو القرآن باتفاق الأكثرية العظمى ممن تخصصوا في علوم القرآن. وقد وصف «بالحكيم» لأنه يتضمن الحكمة في تأليفه نظمه ووفرة علومه وفي قول: إن الحكيم، يعني المحكم، الذي أُحكِم عن تطرق الخلل إليه (أحكمت آياته ـ هود ـ ١). ولم يخرج عن هذا التفسير إلا قول من قال: «قد يكون المراد «بالذكر الحكيم» هو اللوح المحفوظ الذي أنزل الله منه الكتب المقدسة ومنه. صار الإخبار بالقصص.

ـ بالإضافة إلى ما سبق فثمَّة أدلةٌ قرآنية تستبعد أن يكون الذكر وصفاً محجوزاً للإنجيل ففي الأنبياء٢١/ ١٠٥ : **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** فالذكر هنا هو كتابٌ نزل قبل زبور داوود.

«وفي سورة الحجر ـ ١٥/ ٩» **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون﴾**. فالذكر هنا هو القرآن. «وفي وسورة يَس ٣١/ ٦٩» **﴿إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين﴾**.

وفوق هذا كله لن يستطيع قارىء الإنجيل أن يعثر فيه على قصص القرآن الأمر الذي ينفي أن يكون الإنجيل هو المصدر الذي استقى منه القرآن تلك القصص.

٣ ـ المباهلة ـ عقائد الوفد والردود عليها:

كنا، أوردنا في هامش «توطئة هذا الفصل» قصة حضور وفد نجران إلى النبي، وألمحنا في تلك الرواية إلى الحوار الذي قام بينه وبينهم والذي انتهى إلى تشبث كلٍّ منهما بموقفه، مما حدا بالنبي إلى تحديهم بالابتهال إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين وبعد أن وافقوا مبدئيا على «المباهلة» عادوا فنزلوا على نصيحة وتحذير

أساقفتهم وامتنعوا عنها، وعادوا إلى ديارهم بمعاهدة الأمان لقاء الجزية السنوية.

ونظراً لما لتلك المناظرة العقائدية من أهمية، ونظراً إلى أن المؤلف تصرف فيها على هواه، فعرضها بما يتفق مع رغباته ثم وظفها لصالح تلك الرغبات.

وجدنا من المفيد تقديم عرض موجز للمواضيع التي طرحها الوفد أمام النبي، وردود النبي عليها.

١ ـ سألوه: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ قال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله. قال: أجل، فقالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أُنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل بالآية: ﴿**إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩) الحق من ربك فلا تكن من الممترين(٦٠)**﴾[١].

وفي رواية أخرى[٢]: قدم أسقف نجران والعاقب، فعرض عليهما الإسلام، فقالا إنا كنا مسلمين قبلك. قال: كذبتما إنه منع منكما الإسلام ثلاث: قولتكما: اتخذ الله ولدا. وأكلكما لحم الخنزير، وسجودكما للصنم ـ الصليب. قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فما رأى رسولُ الله ما يرد به عليهم حتى أنزل الله الآية: ﴿**إن مثل عيسى...**﴾.

٢ ـ وقد وردت للوفد مقالات:

ـ بعضهم قال: إن عيسى هو الله لأنه كان يحيي ويخلق ويبرىء وينبىء بالغيوب.

ـ وبعضهم قال: إنه ولد الله لأنه ولد من دون أب.

ـ وبعضهم قال: إنه ثالث ثلاثة لأن القرآن يروي أحاديثه فيقول: قلنا، فعلنا، جعلنا، ولو كان واحداً لقال: قلت، فعلت، جعلت.

فأخذ الرسول يناظرهم فقال:

---

(١) عن طريق العوفي عن طريق ابن عباس (الجلالين).
(٢) طبقات ابن سعد عن الأزرق بن قيس.

ـ أليس الله حياً لا يموت؟ وأن عيسى يأتي عليه الموت؟ قالوا بلى.

ـ ألستم تعلمون أن الله قيِّم على كل شيء يكلؤه ويحفَظُه ويرزقه؟ فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك؟ قالوا: لا.

ـ ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلاَّ ما عُلِّم؟ قالوا لا.

ـ إن ربنا صوَّر عيسى في الرحم فحملته امرأة كما تحمل أية امرأة ووضعته مثلما تضعه أية امرأة ثم كان يُطعَمُ الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا بلى. قال فكيف يكون كما زعمتم؟ قالوا ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه. قال بلى: قالوا فحسبنا.

فنزلت الآيات الأولى من سورة آل عمران.

﴿الله لا إلّه إلا هو الحي القيوم(٢) نزَّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل(٣) من قبل هدى للنَّاس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام(٤) إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء(٥) هو الذي يصوِّركم في الأرحام كيف يشاء لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم(٦)﴾.

موضحةً عقائد المسلمين في التوحيد ومبيِّنة ردودهم على عقائد النصارى.

ـ فهو الحي القيوم، أي الواجب الوجود لذاته، وكل ما عداه محدث ومخلوق. وفي هذا رد على مقولتهم في ألوهية عيسى. إذ إنه ولد ولادة وكان يأكل ويشرب ويُحدِث وانه لم يدفع القتل عن نفسه. بل رفعه الله عنه وخلصه منه بِرَفْعِهِ إليه وذلك ينفي عنه حياة الأبد وقيومية الله.

ـ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي ذلك إشارة إلى كمال علم الله ونقصان العلم عند جميع من عداه، وفي هذا ردٌّ على مقولة النصارى بألوهية عيسى لأنه كان يخبر ببعض الغيوب. فهو لا يعلم إلاَّ ما علِّم. وهو لم يُعَلَّم كل المغيبات في الأرض والسماء.

ـ ﴿وهو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ فدل بذلك على أن هذه صفة لم يشاركه فيها أحد. وهذه القدرة في الخلق والإحياء. مستقلة عن «خلق شيء من الطين كهيئة الطير». «وكيف يشاء» دليل على أن تصوير الخلق في الأرحام يتم كما يشاء الله، فقد يشاء أن يتم دون واسطة نطفةٍ من الأب. وقد يشاء أن يتم بنفخة في جبلة من الطين (عيسى، وآدم). ذلك: خاضع لمشيئته، هو قادرٌ على تنفيذه بالشكل والطريقة التي يراهما.

ـ وفي انتهاء الآية بـ ﴿لا إلّه إلاّ هو العزيز الحكيم﴾ عودة على تأكيد كلمة «التوحيد وزجرٌ لفكرة التثليث».

هذا، وقد أورد بعض المفسرين عدداً من اللطائف المعنوية في هذه الآيات منها:

ـ إن تحديد علم الله بما في الأرض والسماء لا يفسر على أن علمه قاصر عن سواهما. بل لكي يشترك الحس مع العقل في إدراك عظمة الله التي أحاطت بعظمة السماوات والأرض.

ـ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء. قال الواحدي: التصوير هو جَعْلُ الشيء على صورة. والصورة هيئة حاصلة للشيء عند إيقاع التأليف بين أجزائه. وأصله من «صاره، يصورَّه» إذا أماله. فهي صورة لأنها مائلة إلى شكل أبويه. ومثل قوله تعالى: ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصُرْهُن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم أدعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ (٢/ ٢٦٠: البقرة). وتسمية موقع الجنين «رَحِماً» فهو للدلالة على الرحمة(١).

* * *

وفي خاتمة البحث قال المؤلف:

«قال الجلالان(٢) وعليه جميعهم: إنَّ شأن عيسى الغريب كشأن آدم من غير

---

(١) الرازي ـ المجلد الرابع ٧ ـ ٨ ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٢) الجلالان ص ١٣٤.

آب ولا أم. وهو تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم وأوقع في النفس. وفاتهم جميعاً أن الخلق بداء وهو عمل الله لا معجزة فيه إذ المعجزة هي خرق العادة كما حدَّد السيوطي نفسه.

ففي خلق آدم ليس من معجزة بل المعجزة في مولد المسيح من أم بتول، فمولده آيةٌ له[1].

وفي قول المؤلف تكمن المغالطات الآتية:

١ ـ إن الله خلق آدم لا ليتحدَّى أو يعارض أو يخرق بخلقه عادة سابقة، لذلك لا يوصف بأنه معجزة في ذاته، لأن الإعجاز عمل معجز للآخرين، ولا آخرين مع الله في خلقه، والمعجزة والإعجاز يكونان بين البشر وعلى أيديهم بتقدير الله وقوته وعلمه، لكي تتم بهما الرسالة ويتحقق بالاستناد إليهما التصديق.

٢ ـإن «المَعْجِزَة» بفتح الميم وكسر الجيم وفتحها، هي «مَفْعَلَة» من العجز. أي عدم القدرة والسيوطي عندما قال: «إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة إنمَّا يعني «معجزات الأنبياء» التي زودهم بها الله لأداء رسالاتهم فقال ـ والقول للسيوطي في ذات المرجع:

«وهي إمَّا عقلية وإمَّا حسية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لِقِلَّةِ بصيرتهم. أما معجزات الرسالة الإسلامية فهي عقلية وذلك لتبقى على الدهر. قال النبي (ص) ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله عليه آمن البشر وإنمَّا كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» ـ أخرجه البخاري.

ويضيف:

«ومعنى هذا أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض عصورهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، أما معجزة القرآن فهي مستمرة إلى يوم القيامة، خارقةُ العادة في الأسلوب والبلاغة والإخبار بالمغيبات. فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر».

---

(١) الاتقان ـ الجزء الثاني ـ ص ١٤٨.

٣ ـ إن عيسى لم ينسب إلى نفسه عملية تصوُّره في رحم أمه بدون أب، لذلك لا يمكن أن تصنَّف ولادته من المعاجز التي تمت على يديه. متحدِّيا بها خصوم دعوته. وما هذا إلا لأن تصويره في رحم أمه هو من عمل الله الذي صوره كما شاء، مثلما خلق آدم من الطين، وخلق الشياطين من النار، وخلق الملائكة من الهواء.

* * *

بحث ثان

الفصل الثاني: من جدال القرآن لأهل نجران ـ النساء ١٧٠ ـ ١٧٢

حدد المؤلف مواضيع هذا الفصل بالآتي:

أ ـ في سورة النساء تقع السلسلة الثالثة من جدال القرآن لليهود.

ب ـ في الفصل الأخير منها المنشور في الآيات (١٦٢ ـ ١٧٥) حملة على المشركين (١٦٦) واليهود (١٦٧) أقحموا فصلاً صغيراً من الجدال مع وفد نجران (١٧٠ ـ ١٧٢) والإقحام ظاهر لأن الجدال كله كان ضد اليهود والمشركين لتشكيكهم بتنزيل القرآن (١٦٥).

ج ـ في الآيتين (١٧٠ ـ ١٧٢) تَتَّضحُ «الثُّنائية» في شخصية المسيح.

ـ فهو «كلمة الله».

ـ وهو «روح منه».

وهذان الوصفان يختلفان عن «كلمة الله الخلاَّقة» وعن «من روحنا» ويتفق القرآن بذلك مع النصرانية التي اختلفت مع المسيحية التي «أوَّلت فاتحة إنجيل يوحنا» بأن «كلمة الله» تعني أن المسيح هو نطق الله الذاتي الذي تجسّد من مريم.

ـ في الآية (١٧١) يقرن المسيح مع الملائكة المقربين وكذلك بالآية ٣/ ٤٥ ـ آل عمران فقبل أن يلقى في رحم مريم كان ملاكا اسمه «كلمة الله».

د ـ إن التوحيد القرآني في الآيات ١٧٠ ـ من سورة النساء و١٠١ من سورة الأنعام و٣ ـ من سورة الجن، يلتقي مع معنى «كلمة الله ـ لوغس» الذي هو نطق الله

الذاتي الذي يصدر صدوراً روحياً غير مخلوق.

١ ـ مواضيع سورة النساء:

قال المؤلف: «إن سورة النساء بكاملها تشكل ـ بعد سورتي البقرة وآل عمران ـ السلسلة الثالثة من جدال القرآن مع اليهود.

لهذا رأينا أن نختصر أمام القارىء طريق العودة إليها وذلك باستعراض مواضيعها ليكون بين يديه انطباع عن مدى الأخطاء والتجاوزات في ما يطرحه المؤلف من أقوال.

١ ـ فالآيات من ١ ـ ٤٣ ـ تحدثت عن التشريع والعلاقة الأسرية.

٢ ـ والآيات من ٤٤ ـ ٤٧ ـ وصفت وصفاً مجرداً بأسلوب بعيد عن الجدل. كفر اليهود وعنادهم.

٣ ـ والآيات من ٤٨ ـ ٥٥ ـ تحدثت عن المشركين والكافرين بشكل عام.

٤ ـ والآيات من ٥٦ ـ ٩٤ ـ تضمنت المواعظ والنصائح منها ما هو عام ومنها ما هو خاص.

٥ ـ والآيات من ٩٥ ـ ١٠٦ ـ في الجهاد والصلاة والسفر والحرب.

٦ ـ والآيات من ١٠٧ ـ ١٢٢ ـ في النهي عن جدال الذين يختانون أنفسهم. وفي وصف كفرهم ونفاقهم ـ وفي المشركين الذين اتخذوا الشيطان وليّاً لهم، وتنذر الجميع بجهنم التي لن يجدوا منها محيصاً.

٧ ـ والآيات من ١٢٣ ـ ١٢٦ ـ تحدثت عن الجنة التي وعد الله فيها من آمن وعمل صالحاً واسلم متَّبعاً ملة إبراهيم.

٨ ـ والآيات من ١٢٧ ـ ١٣٠ ـ عما يجب أن يقوم بين الزوجين من علاقة حسنة.

٩ ـ والآيات من ١٣١ ـ ١٤٩ ـ تحدثت عن جبروت الله وحذرت المؤمنين من أساليب التضليل التي يتَّبعها الكفار والمنافقون وخطورة موالاتهم.

١٠ ـ الآيات من ١٥٠ ـ ١٥٢ ـ فيها وصف وتعريف لمن يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم بأنهم هما الكافرون حقاً. وهذا الوصف يكاد أن يكون مستهدفاً جماعتي اليهود والنصّارى.

١١ ـ الآيات من ١٥٣ ـ ١٦٢ ـ فيها سرد قصصي عن اليهود. ورد كمثال على الكافرين الذين سبقت الإشارة إليهم في الآيات السابقة حيث وصفت مطاليبهم التعجيزية لموسى، ونقض الميثاق، وكفرهم وادعاءهم قتل عيسى. وعقاب الله لهم بتحريم الطيبات عليهم. إلا أن الآية ١٦٢ ـ تستثني الراسخين بالعلم منهم الذين آمنوا بالقرآن وبما أنزل قبله.

١٢ ـ الآيات من ١٦٣ ـ ١٧٠ ـ أخبرت النبي أن الله أوحى إليه كما أوحى إلى نوح والنبيين من بعده منهم من قص عليهم أخباره ومنهم من لم يقصص، وتختتم الآية ١٧٠ ـ بنداء إلى كل الناس أن الرسول محمداً جاءهم بالحق. وتطلب منهم الإيمان برسالته، ففي ذلك كل الخير لهم.

١٣ ـ الآيات من ١٧١ ـ ١٧٥ ـ نداءٌ توجَّه بشكل محدود ومخصوص إلى الذين يغالون في الدين ويقولون إن المسيح هو ثالث ثلاثة. فيحدد لهم بأن المسيح هو «رسول الله» و «كلمته ألقاها إلى مريم» و «روح منه». ويؤكد على وحدانية الله وتنزيهه عن أن يكون له ولد وهو مالك السماوات والأرض. وما المسيح وحتى الملائكة المقربون بمستنكفين عن عبادته وعن أن يكونوا عبيداً له.

١٤ ـ الآية ١٧٦ ـ وهي آية الكلالة.

تلك هي المواضيع التي تحدثت بها وعنها آيات سورة النساء. ليس فيها جدال عقائدي مع اليهود. بل ليس فيها ذكر لليهود إلا في موضعبن هما:

ـ في الآيات من ٤٤ ـ ٤٧ ـ التي وصفت كفر اليهود.

وفي الآيات من ١٥٢ ـ ١٦٢ ـ التي قدمتهم كمثال على الذين كفروا بالله ورسله. الذين كانت تحدثت عنهم الآيتان ١٥٠ ـ ١٥١ ـ وقد جاء النص بأسلوب قصصي لا أثر فيه للحوار.

٢ ـ إقحام النصارى:

قال المؤلف: «وإنك لتجد أنهم أقحموا فصلاً صغيراً من جدال وفد نجران في السلسلة الثالثة من جدال القرآن مع اليهود. أما الآيات فهي ١٧١ ـ ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ وقد حشرت حشراً لا يتفق في الموضوع والمناسبة مع ما سبقها» ص ١٣٥ ـ من المؤلف.

وهذا القول تواجهه الملاحظات الآتية:

أ ـ لا يوجد أي مستند تاريخي أو فقهي يدعم مقولة المؤلف في تجزئة مواضيع الحوار مع وفد نجران وتوزيعها على سور ثلاث. وما كان في مقدور جامعي القرآن بعهد عثمان أن يبدلوا في ترتيب الآيات أو يغيروا مواقعها من السور. لأن ذلك كله تمَّ من قِبَل النبي. ولذلك سمِّي هذا العمل عند جميع الفقهاء والمفسرين وعلماء القرآن «بالعمل التوقيفي» لأنه كان وقفا على الرسول (ص). ويبدو أن المؤلف نسي ما كان قاله في ص ـ ٢٦ ـ من هذا الكتاب وهو بالحرف:

«الإجماع والنصوص المترادفة متفقان على أن ترتيب الآيات توقيفي. وعبارة السيوطي في كتاب الإتقان (١/ ٦٢ ـ ٦٣) واضحة: «إن ترتيب الآيات في سورها بتوقيفه (ص) وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين».

وأضاف المؤلف: قولاً كتبه بحرف مميَّز بليغ الحبر وهو: «فبلغ ذلك حد التواتر» فكيف يستقيم تأكيده على أن الإجماع والنصوص متفقان على أن ترتيب الآيات في السور هو توقيف على النبي ومع زعمه بحصول «خيانة للأمانة» استهدفت الترتيب ذاته نُقِلت بمقتضاها آيات من أماكنها في السور إلى أماكن أخرى في سور أخرى؟

ب ـ الجدال مع وفد نجران كان حادثة مفردة تحددت في الزمان والمكان والموضوع وانتهت بمعاهدة الأمان والجزية. ولكن الدين المسيحي ظل دينا بمعتقداته وطقوسه، وكذلك ظل الدين اليهودي بمعتقداته وطقوسه. وظلَّ التابعون من كلا الدينين يثيرون مناسبات الجدل العقائدي فظلت مهمة القرآن مستمرة لم تتوقف وهي نشر الدين الصحيح والتنديد بالآراء والعقائد والعادات التي لا تتفق

معه، والدعوة إلى الكلمة السواء التي ترفض الوحدة أو الاتحاد مع العقائد التي تتعارض مع وحدانية الله وتنزيهه. وأحقية يوم الحساب. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لذلك: استمرَّ نزول الآيات على النبي متحدثة عن اليهود ومفندة معتقداتهم، وعن النصارى مفندة معتقداتهم وطقوسهم استمراراً للمهمة الرسولية التي ترافقت مع النبي حتى قبضه الله إليه. وما كان في مقدور أحدٍ أن يتجرأ فيعدل أو يبدل أو يرفع أو يضع في أمر كان قد صدر عن رسول الله (ص)، ولو وجدت مثل هذه الجرأة عند البعض لكتِمَتْ أنفاسها على الفور من مئات الآلاف المؤمنة التي وجدت مجدها الروحي وخلاصها الأبدي في القرآن آية آية وكلمة كلمة وحرفاً حرفاً.

٣ ـ ٤ ـ الثنائية في المسيح والتقاء القرآن مع المسيحية في معنى كلمة الله:

بما أن المؤلف خصص كامل الفصل الثامن لتحليل المفاهيم «رسول الله» و«كلمة الله» و«روح منه» وشرح عقيدة القرآن في المسيح ـ كلمة الله ـ وذلك كله من خلال «توطئة وبحثين.

لذلك رأينا إرجاء مناقشة الفقرتين ٣ ـ ٤ إلى حين دراستنا للفصل الثامن بسبب وحدة الموضوع والطرح والتحليل.

بحث ثالث

الفصل الثالث من جدال وفد نجران ـ المائدة ـ

يعالج المؤلف في هذا الفصل المواضيع الأربعة الآتية:

١ ـ عاد إلى الإقحام مرة ثانية. ولكنه إقحام آخر فهنا ـ كما يقول ـ صار إقحام اليهود في سورة تخصص الجدال فيها مع النصارى. «وسورة المائدة هي السلسلة الرابعة من جدال اليهود ما بين فصول عديدة تشريعية وجهادية واجتماعية وأخلاقية وسياسية وشخصية. ولكن اليهود لم يكن لهم وجود مادي أو سياسي أو عقائدي في زمن نزول سورة المائدة، لذلك يأتي الجدال معهم في هذه السورة إقحاماً، فيما كانت السورة مخصصة للجدال والمناظرة مع وفد نجران ـ ص ١٤٠ ـ».

٢ ـ يقدم التعليق الأول على المناظرة مع وفد نجران مستنداً إلى الآيات ١٧

ـ ٧٢ ـ ٨٠ ـ المائدة.

٣ ـ ثم يتلوه التعليق الثاني بالاستناد إلى الآيات من ١١٢ ـ ١٢٢ من السورة ذاتها.

٤ ـ ثم يضع خاتمة للفصل يصوغها على شكل نتائج اقتضتها طبيعة توجهاته، وأفرغها في قوالب الثوابت اليقينية التي خلصت من الشك والجدل.

* * *

أولاً: الإقحام اليهودي:

أ ـ ليس لنا إلا أن نعيد ما قلناه عن مزاعم الإقحام بشكل عام سواء بالنسبة إلى اليهود أم بالنسبة إلى النصّارى.

لأن الإقحام هو نقل آية أو آيات من مكانها إلى مكان آخر أو سور أخرى. وقد ثبت بالتواتر والإجماع أن ترتيب الآيات في أماكنها من كل سورة كان وقفاً على رأي النبي وأمره وإرشاده دون معارضة أو مشاركةٍ من أحد. وما قبض الرسول (ص) إلا وقد كمل القرآن نزولاً وترتيباً فكَمُل معه الدين ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾ (٥/ ٣: سورة المائدة)[١].

ب ـ أما قول المؤلف: «إنَّ الجدال مع وفد نجران ورد في سورة المائدة متوسطاً غمرة الجدال مع اليهود (٧٥ ـ ٨٠)».

فهو قول يعني أن ما قبل هذه الآيات وما بعدها هو جدال مستمر مع اليهود. ظل متواصلاً بدون انفصال. حتى تدخلت آيات الجدال النصراني وأخذت لنفسها مكاناً على شكل الجمل الإعتراضية التي تفصل في العادة بين قسمين متكاملين

---

(١) قال أصحاب الآثار: إنه لما نزلت هذه الآية على النبي لم يعمر بعد نزولها إلا واحداً وثمانين يوماً. ولم يحصل بعدها في الشريعة زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة. وكان ذلك جارياً مجرى إخبار النبي عن قرب وفاته. وفي ذلك إخبار عن الغيب (الرازي).
أما السيوطي فقد أورد روايات عديدة تختلف في تحديد الآية أو الآيات التي كانت آخر ما نزل من القرآن على أنه مما لا جدال فيه أن الآيات وزعت على السور بحين نزوله. دون مراعاة لوقت النزول وذلك بتدبير النبي وترتيبه.

لموضوع واحد.

غير أن عودة خاطفة إلى ما قبل وما بعد الآيات المذكورة تبين لنا مدى المصداقية في قول المؤلف.

ـ الآيات من ٥١ ـ ٧٢ تضمنت المواضيع الآتية:

١ ـ من ٥١ ـ ٥٨ ـ خطاب إلى الذين آمنوا يحذرهم من موالاة اليهود والنصارى. وحضٌ لهم على موالاة الله والرسول والمؤمنين. والمثابرة على الصلاة. والابتعاد عمن يستهزئون بها.

٢ ـ ويستمر تحذير المؤمنين وإرشادهم من الآية ٥٩ ـ ٦٣ حيث يتخللها وصفٌ لمن لعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَة الطاغوت.

٣ ـ وفي الآية ٦٤ ـ عرض لما يقوله اليهود عن الله. وإعلان تكفيرهم.

٤ ـ وتأتي الآيتان ٦٥ ـ ٦٦ لتتحدثا عن أهل الكتاب عامة ولتؤكدا على أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل لأدخلهم الله الجنات وكفَّر عنهم السيئات وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

٥ ـ وتحض الآية ٦٧ ـ النبي على تبليغ الرسالة ثم تليها الآية ٦٨ ـ لتؤكد على أن أهل الكتاب ليسوا على شيء حتى يقيموا التوراة والإنجيل.

ويأتي في الآية ٦٩ ـ تطمين لمن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٦ ـ وفي الآيتين ٧٠ ـ ٧١ ـ وصف لما آل إليه بنو اسرائيل.

٧ ـ ثم تطل الآيات ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٤ ـ ٧٥ لتتحدث عن المسيح والمسيحية.

ج ـ بعد تلك المجموعة من المواضيع السابقة للتخصيص مع النصرانية تأتي الآيات الآتية:

١ ـ الآيتان ٧٦ ـ ٧٧ وهما استمرار للحديث عن النصرانية وتنديد للغلو في الدين.

٢ ـ الآيات ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ ـ تحدثت عن أسباب اللعنة التي أوقعها داوود وعيسى على الذين كفروا من بني إسرائيل.

٣ ـ الآيات من ٨٢ ـ ٨٦ ـ وقد تضمنت الموازنة بين عداوة اليهود للذين آمنوا ومودة النصارى لهم.

وهكذا..! بعد استعراض عدد غير قليل من الآيات السابقة واللاحقة للآيات (٧٢ ـ ٧٥) لم نعثر على غمرة الجدال مع اليهود كما زعم المؤلف. ولم نجد تزاحماً في المناكب بين آيات اليهود والنصارى بلغ إلى حد الإقتحام وشق الصف.

بل وجدنا مواضيع عديدة: ليست حواراً ولا جدالاً، وليست مع اليهود فقط. حتى إن ما خص اليهود منها هو يسيرٌ من كثير.

مما يحتِّم على القارىء أن يظل على حذر شديد وهو يقرأ هذا المؤلَّف. الذي لم يراع أصول النقد ولم يأخذ بِقواعد الاستشهاد والاقتباس، وكثيراً ما ينسب مقولاته واجتهاداتِه إلى كبار المؤلفين والمراجع، وهم أبرياء، وذلك ابتغاء إسباغ. اليقين لاقواله واعتمادها دون تحفظ وكثيراً أيضاً ما يتوسع في الاقتباس أو يقتطع منه بأسلوب البتر والتشويه محكوماً على الدوام بنوايا غير كريمة.

* * *

ثانياً: التعليق الأول:

أطلق القرآن تكفيرين قاطعين: في الآيات ١٧ ـ ٧٢ ـ ٧٣ ـ ٧٥ ـ ٧٨ ـ ٧٩ من سورة المائدة:

أولها: تكفير لمن قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم. (١٧ و٧٢).

الثاني: تكفير لمن قالوا: «إن الله ثالث ثلاثة» (٧٣ وما بعدها).

وهاتان المقولتان صدرتا ومازالتا تصدران عن النصّارى. ولكن المؤلف يرى غير ذلك. وإنه ليظل يرى حتى لا يرى شيئاً، وإليك أقواله:

أ ـ الطائفة «اليعقوبية» وحدها هي التي قالت بأن الله هو المسيح، لذلك انصب التكفير القرآني عليها. دون سواها من الفرق والطوائف والشيع المسيحية

وخاصة الفرق الثلاث. «الكاثوليكية، والأرثوذكسية، والبروتستانتية». ويعتمد في قوله على «الرازي والجلالين».

ب ـ إن تاريخ الكنيسة، بما فيها الكنيسة اليعقوبية، يشهد أنَّ أحداً لم يجعل من أم المسيح أحد التثليث.

ج ـ اليعقوبية وحدها نادت «بالوحدانية في المسيح» وقد كفرتها المسيحية واعتبرها المجمع المسكوني الرابع المنعقد في خلقيدونية بعام ٤٥١ م فئة ضالة.

أما المسيحية الرسمية فقد ظلت تقول: «بالثنائية في المسيح» «والكلمة صارت بشراً وسكن بيننا» وقد أيد القرآن هذه الثنائية بقوله «إن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه».

على أننا قبل أن نفرد مقولتي التكفير ببحث خاص لكل منهما نود تنبيه القارىء إلى خطأ المؤلف في ترقيم الآيات مما اضطرنا إلى التصحيح، فعندما يجد القارىء تباينا بين الأرقام التي دونّاها والأرقام التي اعتمدها المؤلف ليطمئن إلى دقة وصحة ترقيمنا، لأننا عدنا إلى الآيات وتأكدنا منها، نفياً للخطأ والجهالة . . .

والتكفيران يشيران إلى أن المقصود بهما هم النصارى.

فمنهم من قال: «إن الله هو المسيح» ومنهم من قال: «إن الله ثالث ثلاثة».

وهما من المقولات التي طرحت في المجامع المسكونية المتتالية: مجمع نيقيا، ومجمع القسطنطينية. ومجمع خلقيدونية وفيما يلي مناقشة المؤلف في ما قاله حول التكفيرين المذكورين:

التكفير الأوَّل:

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً. . .﴾ (٥/ ١٧: المائدة).

﴿لقد كفرالذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرَّم عليه الجنة﴾ (٥/ ٧٢).

ـ قال المؤلف: «تلك المقالة ليست مقالة المسيحية الرسمية بطوائفها الثلاث (الكاثوليكية، والأرثوذكية، والبروتستانتية). بل هي بدعة ضالة أطلقتها فرقة «يعقوب البرادعي» فكفَّرتها المسيحية الرسمية واستقر الإيمان المسيحي الرسمي على دستورالمجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية بعام ٤٥١ ـ م» (ص ١٤٠ ـ من المؤلف)[1].

ـ وقال: «إن المسيحية الرسمية تقول بالثنائية في المسيح فيردد القرآن مقالتها ترديد الصدى للصوت، وفي مجمع خلقيدونية تستقر المسيحية الرسمية على الثنائية في المسيح». (ص ١٤١ ـ المؤلف).

وقبل أن نستدعي ما في مكتبنا عن تاريخ الكنيسة والطوائف المسيحية بمقولاتها، عدنا إلى الجلالين والرازي وابن كثير. فوجدنا:

ـ الجلالين ينسب إلى اليعقوبية قولها بتأليه المسيح، ولكنه لا ينفي مثل هذا القول عن سواها.

ـ وابن كثير يقول في المختصر عند تفسير الآيتين ١٧ و ٧٢ من سورة المائدة، إنهما نزلتا في تكفير فرق النصارى، أي ليس في تكفير فرقة خاصة.

ـ والرازي يقول في تفسير الآية ١٧ ـ :

«في الآية سؤال: وهو أن أحداً من النصارى لا يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم فكيف حكى الله عنهم ذلك مع أنهم لا يقولون به؟».

«وجوابه: إن النصارى يقولون: إن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى (عليه السلام) فاقنوم الكلمة إمَّا أن يكون ذاتا أوصفة، فإن كان ذاتاً فذات الله حلت في عيسى واتحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإلّه على هذا القول، وإن قلنا إن الكلمة عبارة عن صفة، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول، ثم بتقدير انتقال أقنوم الكلمة الذي هو «العلم» عن ذات الله إلى ذات عيسى يلزم خُلُوُّ ذات الله من العلم. ومن خلا من العلم لا يكون إلّهاً، فحينئذٍ يكون الإله هو عيسى على قولهم.

---

(١) لم يقدم المؤلف دليلاً كنسيا، بل اقتصر على شرح الرازي والجلالين.

فثبت أن النصارى وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول إلا أن حاصل مذهبهم ليس إلا ذلك» ـ الرازي ـ المجلد السادس ـ الجزء ١١ ـ ١٢ ـ ص ١٥١.

أما في تفسيره للآية ٧٢ ـ من السورة ذاتها: فقد كرر بأن بعض فرق النصارى يقولون: «بحلول الله تعالى في ذات عيسى». وقال:

«إن اليعقوبية من النصارى الذين يقولون «إن مريم ولدت إلَهاً...» ص ـ ٥٠ ـ من المجلد السادس».

بعد ماتقدم، نعود إلى مغالطة المؤلف التي زعم فيها أن التكفير القرآني استهدف اليعقوبية فقط، واستبعد المسيحية الرسمية الممثَّلة آنذاك بفرقها الثلاث (الكاثوليكية ـ الأرثوذكسية ـ البروتستانتية).

أما مغالطته، فهي تقوم على استغفال القراء، واطمئنانه إلى كسلهم عن تَتَبُّعِهِ، وإلقاء القبض عليه وهو في حالة التلبس:

ـ فالفرق الثلاث التي عددها لم تكن عند نزول القرآن قائمة على وجه الاستقلال. لأنَّ الكنيسة لم تنقسم إلى شرقية وغربية إلا بحلول منتصف القرن التَّاسع الميلادي. أما قبل ذلك التاريخ فقد كانت المسيحية تلتف حول كنيسة واحدة تتمتع بسلطة عامة على اتباع المسيح. وكان الأساقفة من شتى كنائس الأرض المعروفة يلتقون في مجمعات مسكونية[1] كلما دعت الحاجة. فتصدر عنها بصفتها ممثلة للعالم المسيحي مقررات ذات إلزام أممي يسري على جميع المسيحيين فلا يخرج عنه غير الهراطقة.

ـ أما البروتستانتية التي وردت في أقوال المؤلف، فقد انتظر ظهورها عدة قرون بعد انقسام الكنيسة حيثُ ظهرت على يد «لوثر» داوود الثورة الدينية[2] المولود في عام ١٤٨٣ ـ م تتويجاً لجهود وثقافة وجهاد ونضال استمر حتى الموت إلى أن بلغ قمة «الفكر الإصلاحي» في المخطوط الذي صاغه على شكل رسائل متسائلة

(١) إن مجمع أفسس المسكوني المنعقد في ٤٣١ ـ م هو الذي اصدر القرار القاضي بأن «مريم والدة الله» ومقرراته استمرار لقانون الإيمان النيقاوي ومجمع القسطنطينية. (ابن البطريق).
(٢) التعبير لصاحب قصة الحضارة «وول ديورانت ـ ص ـ ٩ ـ المجلد ٢٣ ـ ٢٤ ـ جزء ٢ ـ».

وجّهها إلى البابا وعلّقها على باب الكنيسة[1].

* * *

بعدما تبين مقدار الشطط في زعم المؤلف بأن القرآن استبعد من فضاء دعوته فرق الكاثوليكية، والأرثوذكسية، والبروتستانتية. وحصر جداله وهمه واهتمامه باليعقوبية.

نود أن ننشر شعاعاً من الضوء على المجمع المسكوني الرابع الذي انعقد في خلقيدونية وقرر «الثنائية في المسيح» وكفر وطرد من يقولون بأنه إله ـ كما زعم المؤلف.

وهذه المهمة تقتضي أن نعود بالحوادث بَعْضَ الوقت إلى الوراء... لنسير بها بعض الوقت إلى الأمام. وذلك في سياق من التسلسل الزمني كالآتي:

أ ـ انعقد مجمع نيقية في عام ٣٢٥ ـ م تحت سلطة وإشراف الإمبراطور قسطنطين الكبير، وانتهى إلى إصدار «قانون الإيمان النيقاوي» الذي تبنى رأي ٣١٨ ـ أسقفاً من بين الأساقفة الذين اجتمعوا وكان عددهم ٢٠٤٨ ـ

كانت المسيحية في بعض كنائسها تصارع أفكار «آريوس» وعدداً من الأفكار التي تسلّلت إلى العقل الديني ففتنته عن بعض قناعاته. وأهم ما كان يهدد وحدة العقيدة قول «آريوس»: «إن الآب وحده هو الله ـ والابن مصنوع مخلوق. وقد كان الآب إذ لم يكن الابن». فانتشرت مقالته التي دعمها بقوة الحجة. وبلاغة العبارة وتناسق المنطق، وأصبح لها مشايعون كثيرون في فلسطين ومقدونية والقسطنطينية وأسيوط، وصار أساقفة تلك الكنائس يعظون الناس على أساس هذا المعتقد. فكان مجمع «نيقية» محاولة لرأب، هذه الصدوع وصدر عنه قرار تاريخي بعبارات موجزة

(١) بلغ عدد الرسائل خمساً وتسعين علقها في كنيسة «ڤيتنبرغ» وتحدى فيها هذا الراهب العالم المسيحي بأسره في أن يناظره بها. وقد تطورت دعوته فكانت عنوان الإصلاح الديني الذي بدأ في بداية القرن السادس عشر وقد سمي أتباعه. «البروتستانت» أي المحتجون نظراً لأنهم قدموا احتجاجا إلى البابا ضد قرار الحرمان الصادر بحقه في سنة ١٥٢١ ـ م ولا يتسع المقام لتعداد مبادىء الإصلاحات التي قامت دعوته على أساسها.

بليغة وحاسمة أطلقوا عليه اسم «قانون الإيمان النيقاوي» لأنه حدَّد العقيدة التي فرضها المجمع على المسيحيين. وقد دوَّن صاحب كتاب «تاريخ الأمة القبطية» النَّصَ الحرفي لهذا القانون في كتابه وهو:

«إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه أو أنه لم يوجد قبل أن يولد أو أنه وجد من لاشيء أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير الآب. وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغير أو يعتريه ظل دوران».

ـ فالمجمع توصل بقراره النهائي هذا إلى فكرة «المسيح الإله» الذي كان قبل الزمن. ومولود غير مخلوق. وهو من جوهر الله. غير قابل للتغير، وإنه مع الله في الزمن من الأزل إلى الأبد.

ـ وهذا يعني إن بقية الأساقفة البالغ عددهم ١٧٣٠ ـ أسقفاً كانوا ضد هذا الرأي، أي كانوا موحدين لله ومؤيدين بأغلبيتهم لمقالات آريوس. ولكن سلطة الأمبراطور طغت على المجمع فتبنت رأي الـ ٣١٨ ـ واعتمدت القرار على إنه قانون لا يجوز اختراقه، وقضت على رافضيه بالطرد والتشتيت. بعد أن أغلقت بَيعهم وكنائسهم، وحرَّمت وحرَّقت كتبهم، ونشرت قانون نيقية. عباءةً غمرت بها الكنائس كافة.

ب ـ وفي عام ٣١٨ ـ م اقتضت ظروف العقيدة أن يتجمع أساقفة المسكونة في القسطنطينية لتحديد ماهية «الروح القدس» لأن مجمع نيقية كان قد فصل في ماهية المسيح واعتبره إلّها لأنه ابن الله ومن جوهره القديم. إلا إنه لم يتعرض للروح القدس، أهو إلّه أم روح مخلوق غير إلّه.

لذلك اجتمع في القسطنطينية مئة وخمسون أسقفاً واتخذوا قرارهم متأثرين بالفلسفة التي وضعَهَا أفلوطين، والتي اطلق عليها اسم «الأفلاطونية الحديثة» لأنها ورثت فلسفة التثليث من أفلاطون وطوَّرتها وقالت بوجود قوىً ثلاث تسيطر على الكون: «قوة المكوِّن الأول ـ الواجب الوجود» و«قوة العقل الذي فاض عنه كما يفيض الابن عن الآب». و«قوة النفس العامة التي خلقت الحياة في الأحياء»

وقد أورد ابن البطريق في تاريخه نص قرار القسطنطينية وشرحه فقال:

«زادوا في الأمانة التي وضعها الثلاثماية وثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا في نيقية، الإيمان بروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن مسجود له وممجَّد. وثبَّتُوا أن الآب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاثة خواص. وحدية في التثليث وتثليث في وحدية. كيان واحد من ثلاثة أقانيم. إلّه واحد. جوهر واحد، طبيعة واحدة».

وبالرغم من أن هذين القانونين حدَّدا بشكل قاطع ألوهية المسيح والروح القدس. فقد ظل الفكر المسيحي يعاني صعوبة تصور كيفية اجتماع الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية في شخص المسيح.

ج ـ لذلك ما لبث أن ظهر البطريرك نسطوريوس مُعلِّماً بين الناس «أن ربَّنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حدِّ ذاته. بل هو إنسان مملوءٌ من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً منكراً وما خضع لرغبة».

وقد انتشرت مقالته بين الناس حتى أصبحت خطراً يهدد «قانون الإيمان النيقاوي» وتعديلاته في مجمع القسطنطينية، فاجتمع في أفسس بعام ٤٣١ ـ م مئتان من الأساقفة قرروا: «إن مريم العذراء والدة الله. وإن المسيح إلّه حق وإنسان معروف بطبيعيتين، متوحد في الأقنوم» ولعنوا نسطوريوس ونفوه إلى مصر بعد أن جردوه من منصبه الديني.

د ـ ولكن: مذهبه لم يندرس. بل وجد مكاناً لنشاطه في الشرق. (العراق ـ الموصل ـ الفرات ـ الجزيرة).

وقد طرحت فيما بعد كنيسة الإسكندرية مذهباً جديداً في المسيح. هو أنه ذو طبيعة واحدة اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت لا طبيعتان.

وكانت قد حلَّت على سُدَّةِ الملك الروماني «ملكة» فأمرت هي وزوجها بعقد مؤتمر عام. فانعقد تحت إشراف زوج الملكة مجمع خلقيدونية» في عام ٤٥١ ـ م حضر فيه ستماية وثلاثون أسقفا، فكان المجمع الرابع المسكوني الذي حدد العقيدة في المسيح على شكل اتحاد الطبيعتين في شخص الرب يسوع المسيح. هكذا:

«إننا باتفاق الأصوات تابعي الآباء الإلّهيين نعلّم أن يُعترف بالمسيح الواحد ذاته ابن الله الوحيد بطبيعتين غير ممتزج ولامتغيِّر ولا منفصل ولا مفترق غير منفصل إلى وجهين أو منقسم، ولكنه هو الابن الوحيد ذاته والإلّه الكلمة الوحيد»[١].

إنَّ قرار هذا المجمع وضع الأساس الذي قام عليه اختلاف الكنائس منذ عهده إلى يومنا.

ـ فهو يقول إن في المسيح طبيعة لاهوتية يشارك فيها الله دون انفصال أو افتراق، وطبيعة إنسانية يشارك فيها النَّاس.

ـ والنسطوريون يقولون: إن طبيعة المسيح مكونة من العنصر الإنساني.

ـ ومؤتمر أفسس الثاني يقول: إن طبيعته مكونة من العنصر اللاهوتي.

هـ ـ في هذه الأثناء ظهر «يعقوب البرادعي» الداعية إلى المذهب المصري القوي الحجة. الصلب العقيدة. وطفق منذ أواسط القرن السادس يجول في البلاد الرومانية يدعو إلى مذهب الكنيسة المصرية الذي لخصه صاحب كتاب «تاريخ الكنيسة في مصر» بالآتي: «كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلَّمت إيمانها من كِيرَلُّس وديسقورس، ومعها الكنائس الحبشية والسريانية والأرثوذكسية، تعتقد بأن الله ذاتٌ واحدة. مثلثة الأقانيم. أقنوم الآب، وأقنوم الابن، وأقنوم الروحِ القدس. وإن الأقنوم الثاني ـ الابن ـ تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء فَصِيرَ هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال. وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة[٢].

و ـ إن المجامع التي أتينا على ذكرها:

ـ هي التي تقوم عليها العقيدة المسيحية الحاضرة لأنها ذات صفة مسكونية عامة أما ماتلاها من مجامع، فلم تحظ بالإجماع المسيحي. ويخطىء في حق

---

(١) تاريخ الكنيسة ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٢) محاضرات في النصرانية ص ـ ١٤٥ ـ.

التاريخ الكنسي والتاريخ العام من يظن أنَّ العقيدة التي يعتنقها المسيحيون حاليا هي ذات العقيدة التي تلقوها من المسيح مباشرة دون أن تطرأ عليا زيادة أو يصيبها نقصان.

فقد ثبت أنها مرت في ظروف من الجدال العقائدي الخصامي طوال خمس قرون، ومشت خطوة خطوة معتمدة في كل خطوة على قرار مسكوني.

- فأول هذه القرارات رسَّخ صفات الألوهية في المسيح.
- وثانيها أضاف ألوهية الروح القدس.
- وثالثها أثبت اجتماع الإنسان والإله في المسيح.
- والرابع قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين.

ز ـ وفي سنة ٦٦٧ ـ م ظهر «ماريوحنا مارون» الذي نادى بالطبيعتين في المسيح. ولكنه ذو مشيئةٍ واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد. فرفض البطارقة ذلك واتفقوا على الإقرار، والإيمان: بطبيعتين ومشيئتين وفعلين للسيد المسيح وأقنوم واحد ولعنوا من خالف هذا[١].

واجتمع المجمع القسطنطيني الثالث في عام ٦٨٠ ـ م بحضور مئتين وتسعة وثمانين أسقفا واتخذ القرار التالي: «إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث ـ الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله في أقنوم واحد ووجه واحد يعرف «تماماً بناسوته» «تماماً بلاهوته» في الجوهر الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد، وشهدوا كما شهد المجمع الخلقيدوني أن الإلّه الابن في آخر الأزمان اتَّخذ من العذراء مريم القدسية جسداً إنسانيا بنفس ناطقة عاقلة وذلك برحمة من الله محب البشر ولم يلحقه في ذلك اختلاط ولا فساد ولا فرقة ولا فصل. ولكن هو واحد يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، ومايشبه الإلّه أن يعمله في طبيعته، الذي هو الابن الوحيد الكلمة الأزلية المتجسدة التي صارت لِحقِّه لحماً كما يقول الإنجيل المقدس، من غير أن تنتقل من مجدها الأزلي، وليست بمتغيرة ولكنها بفعلين ومشيئتين وطبيعتين إله

---

(١) محاضرات في النصرانية ١٤٧.

وإنسان. وبهما يكمل قول الحق وكل واحدةٍ من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها فتعملان بمشيئتين غير متضاربتين»[1].

* * *

بعد هذه الجولة، التي فرضتها علينا طبيعة البحث. نعتذر للقارىء عما هدرنا من وقته ونعود إلى التذكير بأقوال المؤلف ثم نعرضها على الحقائق التاريخية التي أوردنا خلاصتها آنفاً. لنرى مقدار المصداقية فيها، فقد قال المؤلف بالفم الملآن:

ـ إن الذين قالوا بألوهية المسيح هم الفرقة اليعقوبية دون سواها (ص ـ ١٤٠).

ـ وإن ثورة القرآن على القائلين بالتأليه. في سورة المائدة هي صَدىً صَوْتِيٌّ لثورة المسيحية الرسمية ضد القائلين بهده المقالة. وقد تمثل التنديد المسيحي الرسمي بالتأليه في القرار الصادر عن المجمع المسكوني الرابع بخلقيدونية في عام ٤٥١ ـ م (ص ١٤١).

ـ وإن مقالة المسيحية الرسمية بفرقها الثلاث (الكاثوليكية، والأرثوذكسية، والبروتستانتية لا تقول بالتأليه بل ترفضه وتحاربه. لذلك لا يمكن أن تكون آيات القرآن موجهة إلى هذه الفرق ـ (ص: ١٤١).

ولكن؟ تبيَّن من ثوابت التاريخ الكنسي والتاريخ العام:

ـ أن القول بألوهية المسيح أخذ وضعه الأممي الإلزامي بموجب القانون النيقاوي في عام ٣٢٥ ـ الذي استبعد ما سواه من الأقوال والمعتقدات.

ـ إن مجمع القسطنطينة في عام ٣٨١ ـ م زاد مقالة «نيقية» تأكيداً وأضاف إلى سدَّة الألوهية، الروح القدس. وأقام عقيدة التثليث التي اعتبرت الأقانيم الثلاثة كياناً واحداً، إلَهاً واحداً، جوهراً واحداً وطبيعة واحدة.

ـ إن مجمع أفسس طرد نسطوريوس مثلما كان مجمع نيقية طرد آريوس، وأعاد التأكيد على أن العذراء مريم هي «والدة الله» وأن المسيح إله حق وانسان معروف بطبيعتين وأقنوم واحد.

---

(١) تاريخ ابن البطريق.

ـ إن مجمع خلقيدونية سار على نفس النهج ولكن بألفاظ مختلفة: «إنه ابن الله الوحيد والإلّه الكلمة الوحيد. وهو يشارك الله في الطبيعة اللاهوتية دون انفصال أو افتراق.

ـ أما اليعقوبية فيبدو أن تقييم المؤلف لعقيدتها ـ مبني على الجهل المطلق لها. لأن تلك العقيدة لم تخرج خروجاً نهائيا عن قانون نيقية بعد أن اتخذ وضعه النهائي في مجمع القسطنطينية الذي وضع عقيدة التثليث في شكلها النهائي.

لهذا كله: تبدو أطروحات المؤلف ومقولاته عن «الألوهية» و«اليعقوبية» و«براءة الطوائف المسيحية الثلاث من فكرة التأليه». كله من باب القفز فوق حقائق التاريخ وواقع العقائد.

وما نظن أن في مقدور المؤلف أن يقنع أي شخص ينتمي إلى إحدى الطوائف الثلاث في أن الأقنوم الثاني هو غير ما وصفته مقررات نيقية والقسطنطينية وخلقيدونية والقسطنطينية بعام ٦٨٠ ـ م.

لذلك لا يمكن فهم خطاب القرآن إلا أنه موجه إلى جميع من قال بألوهية المسيح وإلى جميع من يعتقد بأن لله شريكاً أو ولداً وإلى جميع من يؤمن بالتثليث الإلهي. وكل من يعتقد أن المسيح يستنكف عن أن يكون عبداً لله. لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً من دون الله. إنما يقع تحت شمول الخطاب القرآني.

وهي أحكام قرآنية قائمة في مواجهة تلك العقائد. مادام للقرآن وجود.

* * *

التكفير الثاني:

أما التكفير الثاني فقد أطلقه القرآن على القائلين بأحد القولين:

ـ ﴿**إن الله ثالث ثلاثة**﴾ ـ ٥/ ٧٣.

ـ إن المسيح وأمه مريم إلّهان. ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله**﴾. ٥/ ١١٦.

وقال المؤلف تعقيبا على هذه الآيات وردّاً عليها:

١ ـ لم يرد في تاريخ المسيحية جمعاء من جعل من مريم أم المسيح إلَهاً مهما بالغوا في إكرامها (ص ـ ١٤٢).

٢ ـ التثليث المسيحي. حتى اليعقوبي، هو التوحيد الخالص، وذلك على خلاف التعبير القرآني. «ثالث ثلاثة» الذي يفيد التعدد.

٣ ـ الوحدانية في المسيح نادت بها اليعقوبية، أما الثنائية فيه فقد نادت بها المسيحية والقرآن على السواء، ففي المسيحية «الكلمة صار بشراً وسكن فيما بيننا». وفي القرآن: «عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.» (ص ـ ١٤٢ وما بعدها).

* * *

١ ـ في مريم أم المسيح:

لقد كان من بين الفرق النصرانية التي دعيت إلى حضور المجمع المسكوني في «نيقية» الفرقة «المريمية» التي تسمى أيضاً «الشيعة البربرانية» وكان لها أساقفتها في المؤتمر، وقد طرحوا عقيدتهم ودافعوا عنها وهي «ألوهية المسيح وأمه مريم»(١).

ولم يذكر المؤرخون أن الفرق التي حُرِّمت عقائدها في مجمع نيقية. قد قبلت مقرراته واقلعت عن آرائها. بل انزوت أو هاجرت إلى مناطق من العالم بعيدة عن سلطان الكنيسة المركزية وظلت تعمل على نشر عقائدها. في العلن أو الخفاء. تبعا لتوافر ظروف الأمن.

لذلك كان نفي المؤلف لوجود هذا التيّار العقائدي في المسيحية كافة. لا يفسر إلا بواحد من تفسيرين:

ـ إما إنه لم يطلع اطلاعاً كافيا على تاريخ الطوائف المسيحية.

ـ وإما إنه يريد اصطياد قناعة القرّاء على حساب الحقيقة التاريخية.

---

(١) محاضرات في النصرانية ـ ص ١٢٨ ـ نقلاً عن تاريخ ابن البطريق.

٢ ـ مقارنة بين «التثليث المسيحي» وبين «ثالث ثلاثة في القرآن»:

أ ـ التثليث من وجهة النظر المسيحية:

قال الدكتور «بوست» في تاريخ الكتاب المقدس «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية، الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى روح القدس التطهير».

وهذا يعني:

ـ إما أن ذات الله تتلازم فيها هذه الأقانيم كعناصر تكوُّن.

ـ وإما أن هذه الأقانيم أشخاص متغايرة والتلازم في الجوهر.

وجاء في قانون الإيمان النيقاوي الذي يتفق عليه المسيحيون:

«نؤمن بإلّه واحد، أب واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى. وبرب واحد، يسوع الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله، إلّه حق من إلّه حق مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر الذي كان به كل شيء، والذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنّس، وَصُلب وتألّم، وقُبر وقام من الأموات في اليوم الثالث ـ على ما في الكتب ـ وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الرب، وسيأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات. ونؤمن بالروح القدس المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الابن يُسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء».

وجاء في تفسير «بشارة لوقا» للقس إبراهيم سعد:

«إن ولادة الابن من الله، ليست ولادة طبيعية ذاتية من الله وإلا قيل «ولد الله» وليست للتفريق بينهما في المقام كبراً أو صغراً أو زماناً أو جوهراً ولكن لبيان عمق المحبة بينهما وإظهار التماثل في الذات وفي الجوهر كما يكون بين الأب والابن الطبيعيين. فالمسيح هو الشخصية الدائمة باعتباره الوارث لكل شيء والذي منه وبه وله كل الأشياء».

وفي خاتمة تفسيره قال:

«وقد يراد بالعلاقة بين الآب والابن معان كثيرة غير معدودة. فكشف «المفسر» بهذين القولين وخاصة بالعبارة الأخيرة المربوطة بحرف «قد» التي إن دخلت على المضارع أفادت تقليل وقوعه. ما لم يكن مقترناً بالدليل»[1].

نقول: لقد كشف المفسر بذلك عن تردده في الوقوف على معنى واحد ينطوي على الحقيقة كاملة، والقس «إبراهيم سعد» يلتقي في غموض الرؤية مع صاحب «رسالة الفروع والأصول»[2]. إذ قال بعد أن استنفد الحجج في بيان عقيدة التثليث بدءاً من الملامح الغامضة التي جيء بها من التوراة[3] واستنباطاً من الأقوال العابرة في أناجيل يوحنا ومتى ومرقس[4]:

«قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ونرجو أن نفهمه أكثر جلاءً في المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات وما في الأرض، أما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية».

وقد كنا أوردنا بياناً رسميا عن الكنيسة المصرية تضمن رؤيتها للتثليث هي والكنائس الحبشية والأرمنية والأرثوذكسية قالت فيه:

«كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسملت إيمانها من كِيرَتُس و «ديسقورس» ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والأرثوذكسية تعتقد أن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم: أقنوم الآب. وأقنوم الابن. وأقنوم الروح القدس. وإن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء مصيّراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة».

* * *

(١) مثال الخالي من الدليل: قد يصدق الكذوب. ومثال المقرون بالدليل. «قد يعلم الله ما أنتم عليه».
(٢) هو القس بوطر.
(٣) إشعياء ٧/ ٤ و ٩/ ٦.
(٤) متى ٣/ ١٨ و٨/ ٢٣ ـ ٢٧ ويوحنا ١/ ١ ـ ٣ ـ ٤ و٢٠/ ٢٨.

ومن يتتَّبع الأدبيات المسيحية من أواخر القرن الرابع وبالتحديد منذ أن وضع مؤتمر القسطنطينية بعام ٣٨١ ـ م عقيدة الأقانيم الثلاثة موضع الدستور الذي يجب أن يلتزم به ويؤمن به كل مسيحي فلن يعثر في جميع تلك الأدبيات على بيان كافٍ يلتقي مضمونه مع المنطق على صعيد القناعة.

ـ فمن مجمل ماقدمناه من أمثلة يتبين بجلاء أن الأقانيم شخصيات متغايرة.

ـ فالاقنوم الثاني «الابن» كان الكلمة والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله (يوحنا ١/ ١). والكلمة صار جسداً وحل بيننا (يوحنا ـ ١/ ١٤).

هذه الحقيقة الإنجيلية أفادت أن «الكلمة الله» تعلّقت بالجسد. أي صارت لها ذاتيات الجسد ولوازمه وملزوماته وصفاته والطوارىء التي تطرأ عليه. وهذا لا ينسجم مع تنزيه الله عن «الحلول» و«الحاجة» و«التغير» و«الخضوع للظروف». وقد أضيفت إلى واقع التكوُّن حقيقة أخرى وهي إن الأقنوم الثاني «كلمة الله ـ المتجسدة» حملت في وقت واحد خصائص اللاهوت وخصائص الناسوت.

ـ والروح القدس الذي هو الرب المحيي المسجود له والممَّجد مع الآب والابن[1]. يتحرك وحده مستقلاً عن الأقنومين الآخرين، فيمتلىء به الأقنوم الثاني، ويمتلىء به التلامذة ويبقى بعد ارتفاع الابن مرافقاً للتلامذة والرسل والمبعوثين يغمر صدورهم بالإيمان وينير لهم الطريق ويزودهم بإمكانية «المعجزات والخوارق» التي كانت مثيلاتُها تظهر على يد المسيح (عليه السلام).

فكيف استقل هذا الأقنوم عن الأقنومين الأول والثاني؟ مع أن الثلاثة في المفهوم الكنسي العام «تثليث في وحدية» و«وحدية في تثليث» و«كيان واحد في ثلاثة أقانيم» «إلّه واحد ـ جوهر واحد ـ طبيعة واحدة[2]؟.

فهل حل الأقنومان الأول والثاني مع الأقنوم الثالث في أمكنة حلوله؟ على التلامذة؟ والمرسلين السبعين مع الروح القدس؟ أم إن هذا الأقنوم انفصل عن وحدة

---

(١) قرار القسطنطينية ٣٨١ م.
(٢) قرار القسطنطينية.

الثالوث ليرافق التلامذة والمرسلين السبعين في حلِّهم وترحالهم طيلة أعمارهم؟.

عند هذه التساؤلات المحرجة تستغلق فكرة «التثليث المسيحي» وتزداد غموضاً، وتبعد عن التصوُّر. ويبدو الجمع بينها وبين الوحدانية من الأمور الشديدة الصعوبة.

* * *

بعدما تقدم ومن أجل المقارنة نستعيد قراءة هذا الموضوع في القرآن فنجد:

ـ إن ما جاء به القرآن لم يكن «بِدْعاً» ليس له أساس بل هو التعبير العقائدي عند مختلف الطوائف التي آمنت بالقانون النيقاوي وقانون القسطنطينية.

ـ إن تعبير القرآن «إن الله هو المسيح» تعبير مسيحي صرف. أقرته مجامعهم والتزمت به كنائسهم إذ اتفقت على أن المسيح «إله حق، مساوٍ للآب في الجوهر، مولود غير مخلوق مع الآب يسجد له ويمَّجد»[1]. وقالت بما جاء في يوحنا: «في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله»[2].

ـ إن تعبير القرآن بالأسلوب العددي «ثالث ثلاثة» لا يخرج عما قالته مقررات المجامع المسكونية: «فذاتُ الله مثلثة الأقانيم. أقنوم الآب. وأقنوم الابن. وأقنوم الروح القدس»[3].

لذلك نستطيع قبل مغادرة هذه الفقرة أن نقول:

إن ما جاء به المؤلف كان متحيِّفاً. بعيداً عن القرآن والإنجيل. عاجزاً عن فهم أيٍّ منهما سواءٌ لجهة «التوحيد المسيحي» أم لجهة نقد «التعابير القرآنية» واتهامها «بالقصور عن إدراك معنى الوحدانية في التثليث».

٣ ـ الثنائية في المسيح عند المسيحية والقرآن:

قال المؤلف: «الوحدانية لم تنادِ بها اليعقوبية. أما الثنائية فقد نادت بها الفرق

---

(١) قانون الإيمان النيقاوي.

(٢) يوحنا ١/١.

(٣) بيان الكنيسة المصرية.

المسيحية كافة. ما عدا اليعقوبية. وقد ردد القرآن هذا النداء ترديد الصدى للصوت ـ ص ١٤٢ ـ من المؤلف».

وفي مناقشتنا لهذه الأقوال نقدم ما يلي من ملاحظات:

أ ـ كنا عندما استعرضنا باختصار ظروف بعض المجامع الكنسية وخاصة «المسكوني منها» وأتينا على ذكر وتحليل مقرراتها، استدعينا من خلال عنوان «التكفير الأوَّل» بعض المراجع التي أفَادتنا بأن «يعقوب البرادعي» لم يخلق طائفة جديدة. بل ظهر في القرن السادس كأكبر داعية إلى مذهب الكنيسة المصرية، ثم وضعنا بين يدي القارىء دستور هذا المذهب الذي نقلناه بالحرف عن كتاب «تاريخ الكنيسة القبطية». نحيل إليه ونضيف:

ـ إن الخلاف بين الكنيسة المصرية (اليعقوبية فيما بعد) لم يكن حول ذات الله المثلثة الأقانيم، كما لم يكن حول الأُقنومين الأول والثالث. بل حول طبيعة الأُقنوم الثاني التي رأت اليعقوبية فيها طبيعة واحدة ومشيئة واحدة صارت من تجسد الروح القُدس ومن مريم العذراء (اللاهوت+ ناسوت) في جسد واحد ـ وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة[1].

أي: إن اليعقوبية بمقتضى هذا النص ـ لم تناد بالوحدانية ـ ولم تخرج عن عقيدة (الاهوت+الناسوت) ولم تختلف عن سواها إلا في اتحاد الطبيعتين بالمسيح.

ب ـ أما الثنائية في المسيح التي تقول بها الأناجيل[2] ومن بعدها الكنائس كافة، واعتبارها أساس ماجاء في القرآن **﴿إن عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾**[3].

فذلك قول من المؤلف لنا عليه قول نوجزه بالآتي:

١ ـ إن عبارة الإنجيل لاتنطوي على الثنائية في «الكلمة» فالكلمة كان في

---

(١) محاضرات في النصرانية ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٥.
(٢) يوحنا ١/١.
(٣) النساء ـ ١٧١.

البدء. أي لم يكن قبل الكلمة شيء لأن البدء لاسابق له.

و«الكلمة كان عند الله» أي مستقرة في الله.

و«كان الكلمة الله» أي هي ذات الله.

فأين الثنائية في هذا القول؟.

وإن كان المؤلف يقصد بما صدر عن المجامع المسكونية في تفسير القوى الإلَهية التي ظهرت في ناسوت المسيح على أنها طبيعتان، لاهوتية مع الله، وناسوتية مع الإنسان، فإنها ليست ثنائية بمعناها الحقيقي. فالاقنوم الثاني بطبيعتيه المذكورتين يشكل واحداً من عناصر التثليث أو الذات الإلهية.

وليس القول بالطبيعتين للشخصية الواحدة. دليل الثنائية الشخصية، لأنهما متحدتان بلا انفصال ولا تجزئة ولا ظهور لإحداهما بمعزلٍ عن الأخرى، فلولا المسيح الإنسان لما ظهر معاجز المسيح الإلَه ولولا معاجز المسيح الإلَه لما كان للمسيح الانسان أي امتياز عن سواه.

وهذا التعبير «في البدء كان الكلمة» هو تعبير فلسفي استحدثه واستقل به إنجيل يوحنا دون بقية الأناجيل ودون دليل على صدوره عن المسيح.

فإذا وضعنا هذه الحقيقة في الاعتبار واضفنا إليها أن هذا الإنجيل هو رابع الأناجيل وآخرها، وأن المؤرخين مجمعون أنه كتب ما بين ٩٥ ـ ٩٨ ميلادية، وأن دائرة المعارف البريطانية كانت من بين الجهات العلمية التي عكفت على دراسة الإنجيل وتدقيق مصادره وصحة انتسابه وإسناده قد صرحت بأنه مزوَّر أراد به صاحبه مضادة اثنين من الحواريين هما القديسان يوحنا بن زبدى الصياد الذي استودعه المسيح أمه وهو على الصليب ومتَّى العشار[١].

نقول: إذا وضعنا هذه الأمور في اعتبارنا ونحن نقرأ فلسفة يوحنا صاحب الإنجيل نشعر بضرورة التسلح بالحذر والتريث في إصدار الأحكام.

---

(١) كنا بحثنا هذا الموضوع في فصل «الاستراحة وفك الارتباط» تحت عنوان أولاً: التحرك الانجيلي من البدايات حتى الاستقرار.

٢ ـ أما «الكلمة» في الآية القرآنية، فلا ينصرف معناها إلى الإلّه أو الأقنوم. إن كلمات الله هي مخلوقاته التي لا تعد ولا تحصى.

ـ ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ (١٨/ ١٠٩: الكهف).

ـ ﴿ولو أن ما في ألارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ (٣١/ ٢٧: لقمان).

فكلمات الله لا تتجسد لتكون «ذات الله» كما جاء في الإنجيل ولكنها تتجسد لتكون خلقاً من مخلوقات الله. إنها بمقتضى القرآن داخلة في شمول قوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾[1].

ـ و﴿كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ قال أهل التفسير: ليس الكلمة صارت عيسى ولكن بالكلمة صار عيسى.

ـ و﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمةٍ منه﴾ أي بالكلمة التي جاء بها جبريل فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى (ع).

وقال الإمام الرازي في تفسير للآية ٣/ ٤٥ من آل عمران: «إن كل علوق وإن كان مخلوقاً بواسطة الكلمة «كن» إلا أن ما هوالسبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى (ع) وهو الأب. فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما أن من عليه الجود والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة إنه محض الجود ومحض الكرم وصريح الإقبال».

أما القول في الحرف «من» في الآية «بكلمة منه. . . » إن لم تكن الكلمة ذات المتكلم فإنها بموجب حرف «من» بعض منه، والتبعيض لا تجوز نسبته إلى ذي الجلال وقد رَدَّ العلماء على هذا القول:

«إن «من» في الآية لا تعني التبعيض، لأن من كان قابلاً للتبعيض بذاته، يكون

(١) ابن كثير في تفسير الآية ١٧١. سورة يس، الآية: ٨٢.

قابلاً للاجتماع والافتراق. أي يكون محدثاً والله لا يليق وصفه بالمحدث أو قبوله للتبعيض. لذلك كان المراد «بمن» هنا هو ابتداء الغاية ـ(الإمام الرازي).

مما تقدم: يتضح أن الموازنة التي أجراها المؤلف بين الآيات الأولى من إنجيل يوحنا وبين آيات القرآن. لإثبات قيام المشابهة والمحاكاة. وترديد القرآن لما جاء في الإنجيل مثلما يتردد الصوت بالصدى. هي موازنة مغلوطة تفتقر إلى دقة الفهم، والقصور عن إدراك المعاني الحقيقية في كلا الكتابين.

* * *

ثالثاً: التعليق الثاني على مناظرة أهل نجران ـ المائدة ١١٢ ـ ١٢٢:

هذا التعليق الذي استغرق الصحائف ١٤٢ ـ ١٤٧ ـ عند المؤلف لم يأت بغير التكرار لما سبق من أفكار لذلك نكتفي بوضع الملاحظات التالية:

١ ـ ليس لدينا اعتراض على استعراض المؤلف للنعم التي أنعم الله بها على عيسى. والمعجزات التي كرّمه بها. وهي التي عددتها الآيات من ١١٢ ـ ١١٨ من سورة المائدة. فقط نود تخفيف وتيرة الغلو عند المؤلف الذي رأى في تعداد معاجز المسيح في القرآن إقراراً منه بأنه «الوحيد الفريد على العالمين والمرسلين والمخلوقين»(١).

ـ فقد كنا ـ أثناء تحليلنا ـ لشخصية «يوحنا بن زكريا» ذكرنا ما قاله عنه المسيح: من أنه لا يوجد بين من ولدتهم النساء من هو أفضل من يوحنا. وأشرنا معلقين. على أبعاد هذه الشهادة الصادرة عنه (عليه السلام) بتساؤلنا: ترى؟ ألم يتجسد المسيح بالولادة من إحدى النساء؟ ألا تقوم العقيدة الرسمية في المسيح على أنه «مولود بالتجسد من مريم مثل باقي المولودين». وهو غير مخلوق؟ وهل يرمي المسيح إلى تفضيل يوحنا عليه؟.

ـ كما كنّا ذكرنا أن المعجزات، لم تكن دليل سبق نبي على نبي أو سموٍّ قدره عليه. لأن المعجزات كانت تعطى إلى الأنبياء ليخترق بها النبي ـ العادات السائدة.

---

(١) ص ـ ١٤٣ من المؤلف.

ويُظهر عجز الآخرين عن مُعْجِزه فيسقط ضلالهم ويتهاوى كفرهم، لذلك كانت جميع المعجزات مُسايِرةً لظروفها، فما كانت معجزات عيسى لتحل محلَّ معجزات موسى ولا كان العكس.

ـ ولقد بَيّنا أن انسياب الحياة في «العصا» وهي جمادٌ تحوَّل إلى ثعبان رهيب يلتف على الثعابين التي تسعى فيتلقفها واحداً واحداً. هي ظاهرة أصعب في التصور من عودة الحياة إلى جسد كان حيّاً منذ وقت يسير. ولا تقل في التصور عن بعث الحياة في كتلة صيغت على هيئة الطير. فالله الذي خلق الأشياء من لاشيء. وأوجد الوجود من العدم. وملك الأرض والسماء وما بينهما. يطلق الآيات على أيادي الأنبياء ليفلج بها حجة المحتجين، وينهي ضلال الضالين.

٢ ـ أما قول المؤلف بأن جميع المسيحيين يكفِّرُون تأليه مريم (ص ـ ١٤٤ من المؤلف)[١]. فقد كنا أخذنا بيده وسرنا سوية إلى مؤتمر «نيقية» ودللناه على الأساقفة «المريميين» الذين كانوا ينادون بتأليه عيسى وأمه مريم، وكانوا يشكلون إحدى الشيع المسيحية التي أرسلت ممثليها من الأساقفة، لكي يعرضوا معتقداتها ويدافعوا عن أفكارها بين المؤتمرين. وإن كان المؤتمر في النهاية تبنى آراء «بولس الشمشاطي» فيما يتعلق بمساواة المسيح مع الله في القدم والأبد والخَلْق والجوهر والإنشاء. ورفض بقية العقائد «غير المؤلهة» و«غيرها مما لم تتفق آراؤها مع آراء الشمشاطي «فإن الشيعة» «المريمية» انزوت مثل الشيع الأخرى لتمارس نشاطها العقائدي بين الناس بعيداً عن سلطة الكنيسة المركزية وسلطان الإمبراطور.

ولقد استغربنا من المؤلف نسيانه لنفسه: فهو في الصحيفة ١٤١ ـ نفى عن المسيحيين كافة أن يكون قد مرَّ في تاريخهم من ألَّه مريم. ولكنه في الصحيفة ١٤٤ ـ لا ينفي وجود من يقول: «بالتأليه» ولكنه يعتبره كافراً. وحبذا لو أخضع نفسه لمراقبة نفسه، فلا ينقض في صحيفة لاحقة ما كان اعتمده في صحيفة سابقة.

٣ ـ تعرض المؤلف إلى قصة المائدة في القرآن:

---

(١) قال المؤلف: «إن تاريخ المسيحية يشهد كله بأن أحداً لم يجعل من مريم إلها». ص ١٤١.

﴿إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين(١١٢) قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين(١١٣) قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآيةً منك وارزقنا وأنت خير الرازقين(١١٤) قال الله إني مُنزِّلها عليكم فيمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين(١١٥)﴾ (المائدة).

قال المؤلف: «المائدة في القرآن هي القربان المسيحي الوارد في يوحنا ـ ٦ ـ وفي أعمال الرسل ـ ١٠ ـ ص ـ ١٤٤ ـ منه».

وهذا القول ينطوي على خطأٍ شديد.

ـ فَالمائدة في القرآن هي واقعة مادية سردها القرآن، ووصف نزولها من السماء، وردد التزام أصحابها بأن تكون عيداً لأولهم وآخرهم، وهي مطلب طلبه الناس تعجِيزاً للمسيح وامتحاناً لرسالته، فابتهل إلى الله أن يمنحه هذا الطلب بِنِدَائه الخاشع: ﴿اللهم ربنا أنزل علينا...﴾ ففي قوله: «اللهم» نداء. وفي قوله: «ربنا» نداء ثان. وفي قوله: «تكون لنا» صفة للمائدة. ونيست جواباً للأمر.

ـ أما في إنجيل يوحنا. فلا يوجد شيء مما يقوله المؤلف. لقد جاء في الإصحاح ٦ بالآيات من ٦ ـ ١١:

«ورفع يسوع عينيه ونظر أن جمعا كثيراً مقبل إليه فقال لفيليبس: من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ أجابه فيليبس:

لا يكفيهم خبز بمئتي دينار. ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً.

قال واحد من تلاميذه وهو أندراوس أخو سمعان ـ بطرس: هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء؟ فقال يسوع: اجعلوا الناس يتكئون. وكان في البيت عشب كثير، فاتّكأ الرجال وعددهم نحو خمسة آلاف، وآخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ أعطوا المتكئين، وكذلك من السمكتين بقدر ما شاؤوا ـ (٦/٦ ـ ١١).

هنا: يختلف الطلب ويختلف الطالب. ويختلف المطلوب منه. فالخبز

والسمك. لا ينزلان من السماء. والمسيح لم يبتهل إلى الغلام. لكي يقدم السمكتين وأرغفة الشعير. والذين أكلوا لم يطلبوا أن يقدم لهم الطعام مبادرة منهم.

ـ وأما ماورد في الإصحاح العاشر من أعمال الرسل. فهو رؤيا رآها بطرس لم يُذكر أنها تحققت في الواقع. ذلك كله يجعل الغلط والتجاوز مرافقين للمؤلف في فهمه للقرآن وموازناتِهِ لآياته بآيات الإنجيل.

٤ ـ وفي التثليث عاد المؤلف إلى «وصم القرآن بالخطأ» في فهم فلسفة التثليث المسيحي عندما قرأ فيه «التعدد في الإله» الذي استنكره وكفَّر القائلين به، فهو يقول في القرآن: «ولو أدرك فلسفة التثليث إدراكاً صحيحاً لوجد أن الوحدانية فيها هي الوحدانية لديه. فالحرف عندهما واحد ولكن الاختلاف بينهما هو في التأويل (ص ١٤٦)».

لقد كنا في الفقرة ٢ ـ من عنوان «التكفير الثاني» أَفْرَدْنَا موضوعا مستقلاً وازنًا فيه بين «التثليث المسيحي كما هو وارد في قانون الإيمان النيقاوي وتعديله بقانون القسطنطينية» وبين وصف القرآن في سورة المائدة بعبارة «ثالث ثلاثة» واستذكاره له، ثم عرضنا مبادىء وأسس الوحدانية في القرآن التي حاول المؤلف أن يراها على صورة «التثليث» بحيث تتفق معه في الحرف وتختلف في التأويل.

فتبين لنا من بعد ذلك ما يلي:

ـ إن القرآن فهم التثليث المسيحي في العمق، وأحاط بفلسفته إحاطة كاملة لا يمكن أن تقاس بها إحاطة المؤلف أو سواه. وإن من يعيد قراءة القوانين التي أصدرتها المجامع المسكونية يجد أن التعدد هو التفسير الصحيح والمنطقي لمفهوم «الأقانيم الثلاثة».

ـ وأن موازنة المؤلف بين القرآن والإنجيل تقوم على الأخطاء الشديدة في اللغة والتاريخ.

٥ ـ وفي خاتمة هذا الفصل (السادس) يلخص المؤلف، ما سبق أن أطلقه من أفكار تقريباً للقارىء وتسهيلاً له فيقول:

أ ـ اليعقوبية هي الطائفة الوحيدة التي قالت بألوهية المسيح. وهي طائفة كافرة

طردتها جميع الكنائس.

ب ـ إن القرآن لم يعرف ولم يتَّعرف على غير اليعقوبية دون باقي الطوائف المسيحية الأخرى.

ج ـ القرآن حاور اليعقوبية من موقع نصراني، أي إنه كدعوة نصرانية حاور وجادل وكفَّر بدعةً مسيحية. ولم يحاول أو يجادل أو يكفر المسيحية.

ويتساءل باستنكار: إذ كيف يجادل نفسه؟ (ص ـ ١٤٧).

وكنا في البحث تعرضنا بالدراسة المستفيضة للفقرتين (أ ـ ب) فلا نرى من حاجة إلى الإعادة.

أما قوله: بأن القرآن حاور اليعقوبية «من منطق ومنطلق كونه نصرانيا» يجادل ضد بدعة على المسيحية. فإنه جرأة ـ هي التهور بعينه ـ على الحق والواقع والمنطق والتاريخ وأدب العلم.

وليس لنا تجاه هذا «الاجتراح» غير الإلحاح على ضمير القرّاء وصبرهم لكي يقرأوا ما كتب وما كتبنا، تاركين عقابَه بين أيديهم.

وعقاب العلم، هو تسفيه الرأي الدعي ـ والقول المرسل والكلام اللامسؤول.

الفصل السابع

تشريع القتال بحق المسيحيين العرب في تبوك
ـ التوبة ـ ٣٠ ـ ٣٥

توطئة: محاولة إخضاع المسيحيين العرب في الشمال إلى الإسلام.

بحث أول. الواقع القرآني لشرعية جهاد المسيحيين بين «براءة» و «التوبة».

بحث ثان: الواقع التاريخي: أسباب النزول في غزوة تبوك.

بحث ثالث: الشبهة على صحة الفصل (براءة ٣٠ ـ ٣٦).

بحث رابع: المعنى المحدود لشرعة قتال المسيحيين.

خاتمة: الفصل (٣٠ ـ ٣٥ من براءة) هو تشريع لقتال العرب المسيحيين في تبوك.

توطئة

محاولة إخضاع المسيحيين العرب في الشمال للإسلام

«من فم إسرائيل ندينها».

لِنْطوِ المراجع موقتاً، وَلْنُمسِك في يد الحداد. سيراً على الأقدام في كتابه، ليقرأ بنفسه كيف تجاوز نفسه، وقفز من فوق أقواله، ليستقر على أرض جديدة.

١ ـ لقد ظل من أول الكتاب حتى مشارف ثلاثة أرباعه ـ تقريباً ـ يقدم الدليل يسعى وراءه الدليل. مرفوداً بالقرائن التي تصيَّدها من هنا وهناك. ليثبت أن الإسلام لم يتعرف إلى المسيحية ولم يحاورها ولم يدخل ديارها ولم يجادلها إلا بالسيف.

فصاحب الرسالة لم يتصل معها غير مرتين:

مرة عن طريق المهاجرين إلى الحبشة. ومرة عن طريق وفد نجران.

فالأولى كانت «هجرة من وجه المشركين» والثانية «كانت جدالاً في العقيدة».

كما إنه لم يلتق مع المسيحية في قتال إلا في «مؤتة» و«تبوك».

فالقتال الأول كان غزواً فاشِلاً، والقتال الثاني كان ثأراً مُظَفَّراً.

وفي المرات الأربع كانت الطائفة اليعقوبية هي الطرف الآخر، الذي أثار الجدال وكان الخصم في القتال، وهي طائفة مرتدة عن الدين المسيحي. مطرودة من الكنائس محرومة من نعمة المسيح.

أما مسيحية الدين الرسمي، والعقيدة الرسمية، فقد كانت بعيدة عن النبي لم تتصل معه ولم يتصل معها. ولم يتعرف أحدهما على الآخر أو يعرف عنه شيئاً على الإطلاق.

لذلك يمكن الجزم بأن جميع ما جاء في القرآن من تنديد بالنصارى، وتكفير لهم. وتحذير من موالاتهم لا يستهدف المسيحية الرسمية ولا يتجه إلا إلى طائفة اليعقوبيين.

تلك الفكرة مبثوثة في كتاب الحداد، حتى لتكاد أن تكون هي الفكرة الرئيسية التي يقوم عليها الكتاب. وجميع ما صدر من كتب هذه السلسلة. ويمكن لأي قارىء أن يلتمسها في العديد من الصحائف.

أمّا الهدف الذي يرمي إليه. فقد أطل علينا في بداية الكتاب على خجل واستحياء. ثم مالبث أن أصبح بعيون مستديرة ورؤوس ثلاثة:

أولها: الإسلام والنبي والقرآن، ثلاثة أقانيم تشكل الدعوة إلى المسيحية. فما كان من المنطقي أن تثور عاصفة من الجدل بينهما وهما اثنان متكاملان[1].

الثاني: وهذه الدعوة ليست من وحي الله ولا تدخلت بها السماء. بل خططتها

---

(١) في ص ١٤٧ من كتابه قال: كيف يتجادل القرآن والمسيحية، وهل يجادل الإنسان نفسه؟.

ونفذتها عبقريات بشرية أرادت «أن تعود الشيخوخة المسيحية إلى صباها في جزيرة العرب»[١].

آما النصوص القرآنية فهي ترجمة واستنساخ عن الكلمة الأعجمية الإنجيلية وأما الأسلوب النبوي في الحياة الذي ميّز النبي بين الناس فقد كان تقليدا ومحاكاة لحياة رسل المسيحية وقديسيها.

الثالث: إن قرّاء القرآن من المسلمين وغيرهم يعتنقون الخطأ من المعتقدات والقناعات العلمية منذ أن قُبِض النبي (ص)، وما عليهم لكي يتبينوا الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلا أن يقرؤا ما كتبه «الأستاذ الحداد» ورفيقه في السلاح «أبو موسى الحريري»[٢].

وإذ ذاك سوف يدركون أن عقيدة «التثليث» و«تأليه المسيح» التي ألصقها القرآن بالنصارى لم تكن في يوم من الأيام عقيدة المسيحية الرسمية بطوائفها الثلاث، الأرثوذكسية، والكاثوليكية، والبروتستانتية، ولم يَكُنْ خطاب القرآن وتنديدُه بهذه العقائد موجها إلى كنائِسِها بل كان ـ دوماً ـ وإياها معاً في محاربة اليعقوبية وتكفيرها.

تلك أعزُّ الأفكار عند المؤلف. وهي التي دخل بها الرهان مع المسلمين خاصة. ومع جميع من كتب وألَّف وقرأ عن الإسلام والقرآن بشكل عام.

فإذا ثبت أمام قارئيه، بالقرائن والأدلة التاريخية:

ـ أن النبي لم يكن محجوباً عن معرفة المسيحية.

ـ وأن لقاءاته الفكرية والعسكرية لم تقتصر على اليعقوبية من أتباع المسيح.

ـ وأنه حاور جميع الطوائف الأخرى، باللسان أولاً وبالسنان ثانيا.

إذا ثبت أن ذلك من حقائق التاريخ، يغدو الأساس الذي بنيت عليه تلك

---

(١) نرجو ألا يفهم من هذه العبارة أننا نذكِّر بالعنوان المعروف «رجوع الشيخ إلى صباه».
(٢) هما وجهان لعملة واحدة، سوف نبيِّن «مادَّتها المعدنية الرخوة».

الأكداس من الكتب التي أطلقها المؤلف منذ سنوات، وما زالت حتى الآن بينهم تسعى.

نقول: إذا سقطت مقولات الحداد تسقط كتبه، وتنحدر إلى مستوى سقط الكلام الذي قام على التحزُّب، دون مراعاة للمنطق والتاريخ.

٢ ـ بعد هذا نلتمس من القارىء أن يستعيد بعض فقرات من «توطئة الفصل السابع» لدى المؤلف ليرى كيف حكم على نفسه بالضَّحالة التاريخية، لقد قال حرفيا: «إن قبائل عديدة من العرب كانت على الدين المسيحي، وإن الصدام الأول كان بين المسيحيين العرب وبين المسلمين، وإن غالب سكان مشارف الشام كانوا نصارى خاضعين لنفوذ دولة نصرانية مسيحية كبرى»(١).

هذا يعني:

ـ أن المسيحية بشتى طوائفها كانت موجودة في جزيرة العرب. ومشارف بلاد الشام. هي مناطق من الجزيرة العربية تقع قريباً من بلاد الشام. كان يستوطنها بنو غسان ـ بالإضافة إلى مشارف العراق من أرض الجزيرة التي كان يستوطنها اللخميون فهؤلاء جميعهم نصارى كما كان ثمة قبائل عربية منتشرة في أنحاء الجزيرة من الشمال إلى الجنوب.

ـ وذلك الانتشار لا يمكن أن يكون «يعقوبيا» صرفاً.

ـ بالإضافة إلى رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانتا تحطان بالعرب. شتاءً في الجنوب وصيفاً في الشام. وذلك في كل عام حاملة من الشَّام واليمن وما بينهما ما يمكن حمله من السلع الاقتصادية والثقافية والفكرية.

وإذ يعترف المؤلف بالانتشار المسيحي، في مناطق ابتداء الدعوة الإسلامية ومناطق انتشارها، فهو ينقُضُ تأكيده بأن النبي لم يلتق بالمسيحية ولم يعرف عنها شيئاً.

ومع هذا فلن نكتفي في أدانته استناداً إلى أقوال تساقطت منه في غفلةٍ عنه. بل

---

(١) ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

سوف نعود به إلى تاريخ ليس بين يديه إلاّ أن يخضع له ويقبل بما فيه إنه تاريخ الكنيسة المسيحية الذي جاءت فيه هذه الفقرات:

«لقد بدأ دخول المسيحية إلى البلاد العربية في زمان الرسل. والرسول بولس بشر فيها بالإنجيل[1] وفي القرن الثالث بشر هناك «أوريجان» وكان انتشار المسيحية عظيما في البلاد العربية في القرنين الرابع والخامس. ففي سنة (٣٢١ ـ م امتدت المسيحية إلى العربية السعيدة عند العمريين (القبيلة المتحضرة) فأرسل إليهم الإمبراطور «قونستانسي» ثيوفيل الهندي. الذي كان منذ صغره يعيش في القسطنطينية بصفة «رهن» وتربى على المسيحية، ورُسم أسقفا وكانت غاية الإمبراطور من العربيين. حرية الدين لأجل التجار المسيحيين الذين كانوا يتجرون معهم. ويبني لهم عدة كنائس. وقد تسنى. «لثيوفيل» أن يعمل أكثر من هذا بكثير فاعتنق المسيحية على يده رئيس العمريين. وقد انتشرت المسيحية بين القبائل العربية البدوية بواسطة وعظ النساك ساكني القفار والرهبان القاطنين على حدود فلسطين وبلاد العرب. ولقد كان العرب أحيانا يأتون جماعات إلى إيلاريون لينالوا بركته وكان الكثيرون يعودون من عنده مسيحيين. والناسك موسى كان له تأثير عظيم على العرب البدو. حتى إن ملكة إحدى القبائل[2] عندما طلبت الصلح في حربها مع الرومان اشترطت تنصيبَهُ أسقفا لشعبها. والبارافيتموس. في بدء العصر الخامس نصَّر قائد إحدى القبائل العربية الذي سيم أول أسقف باسم بطرس لأجل الكنائس الحربية (كنائس الغزوات) وسمعان العامودي بجهاداته الغريبة على العامود أدهش البدو حتى عدُّوه شخصاً غير أرضي ورهبان سيناء الذين سكنوا هنا في العصر الرابع عملوا على نشر المسيحية بين القبائل العربية المحيطة بهم ونجحوا. وفي العصر الرابع كانت بعض قبائل البدو مسيحية بكل معنى الكلمة... (انتهى)[3].

هذا هو الثابت في التاريخ الكنسي.

والسؤال هو: كيف كان ذلك الانتشار المسيحي؟ وما هي مرجعيته العقائدية؟

---

(١) أي قبل اليعقوبية بخمسة قرون.
(٢) قبيلة مافي.
(٣) ص ـ ١٩٤ ـ ١٩٥ من تاريخ الكنيسة.

هل كان الجميع على المذهب اليعقوبي فقط؟ أم كانوا ينتمون إلى مذاهب شتى؟ وهل كان النبي والقرآن جاهلين بتلك المذاهب؟.

وإن كان المؤلف مضطرب القناعة في تحديد المصادر التي استقى منها القرآن قصصه وأخباره. فمرد ذلك يعود إلى أنه لا يرى أي ارتباط بين القرآن وبين السماء. فهو دائب لا يكل ولا يتوقف. يقرأ الآيات فيفَكك كلماتها ويفرك الحروف والإشارات ليكتشف دليلاً ولو كان من الهوام والزواحف في الأدلة فَلا يجد...

أما المسلمون فلم يستنطقوا القرآن ليعرفوا مرجعيته المعلوماتية. إنه كتاب صدر عن علم الله الذي وسع الزمان والمكان والإنسان فَما تحده الجغرافيا المكانية ولا السُكانية لجزيرة العرب. وقد أنبأهم الله عنه فقال: إنه لا ينطق عن الهوى. وكفاهم ذلك علما ويقيناً.

من هنا نجد أن الاختلاف يمتد على مسافات شاسعة بين «الحداد» وبين «كل مسلم». ومن هنا تبدو دعوة الحداد إلى الحوار، صَفْرَةٌ في واد أو نفَخةٌ في رماد. لأنها تفتقر إلى مصداقية النية. وتوفر القناعة والتكافؤ والعدالة والاعتدال في فهم الإسلام.

* * *

الأبحاث الأربعة للفصل السابع:

الأبحاث الأربعة التي جاء تعداد مواضيعها سابقاً تقع من كتاب المؤلف كالآتي:

البحث الأول: من ص ١٥١ ـ ١٥٢.

البحث الثاني: من ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

البحث الثالث: من ص ١٥٥ ـ ١٦١.

البحث الرابع: من ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

الخاتمة: من ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

ونظراً إلى أن هذه الأبحاث تركَّزت على نقد وتحليل «تشريع القتال بحق

المسيحيين» حيث عمدت إلى آيات «التوبة» تستنطقها عمَّن أشارت إليهم ونزلت فيهم، واستبعدت أن يكون قتال «مسيحيي ذلك الزمن» كان بموجب تلك الآيات جهاداً مقدساً يحقق سعادة الدارين. لأن القرآن لم يعرف غير المسيحية العربية. وهذه لم تعرف من المسيحية غير البدعة اليعقوبية، وهي هرطقة كفَّرتها المسيحية الرسمية وحاربتها، فالتقت في هذا مع دعوة الإسلام وجهاده.

ونظراً إلى أن الأبحاث المذكورة ـ وإن تعدَّدت ـ تشكل وحدة موضُوعية عبَّرت عنها سورة التوبة بشكل إجمالي ـ كما يقول المؤلف ـ.

ثم إن خاتمة هذا الفصل انتهجت نهج خواتيم الفصول السابقة. وهو اختصارٌ وتلخيصٌ وتذكيرٌ بأفكار أبحاث الفصل.

لذلك وضعنا دراسة نقدية واحدة لهذه الأبحاث الأربعة، عرضنَا فيها مقولات المؤلف ووجهة نظرنا في كل مقولة كالآتي:

١ ـ قال المؤلف: سورة التوبة رقم ٩ ـ ليست سورة واحدة بل سورتان:

الأولى: «براءة» وتضم الآيات من (١ ـ ٢٩).

الثانية: «التوبة» وتضم الآيات من (٣٠ ـ حتى آخر السورة).

هذا التقسيم ينفرد به بالمؤلف وحده إذ لا سابقة له في ما تعدد من آثار.

ويبدو أن تعدد المواضيع في هذه السورة هو الذي سبب الإشكال عند المؤلف.

أما نحن فقد عُدْنَا إلى المراجع نستطلعها الوضوح والدقة فوجدنا:

ـ أن الآيات التي تحمل في القرآن اسم «التوبة» هي مئة وتسع وعشرون آية.

ـ وقد سميت «براءة» أيضاً.

ـ كما أن صاحب الكشاف أورد عدداً من الأسماء كانت تطلق على هذه السورة، وهي جميعها من الأسماء الصفاتية التي تنطوي على معنى محدد مثل: «المقشقشة» و«المبعثرة» و«المشردة» و«المخزية» و«الفاضحة» و«المثيرة» و«الحافزة» و«المنكِّلة» و«المدمدمة» و«سورة العذاب».

قال: ففيها التوبة على المؤمنين. وهي تقشقش من النفاق أي تبرىء منه. وهي نبعثر عن أسرار المنافقين وتبحث عنْها وتثيرهم وتفضحهم وتشردهم وتُخْزيهِمْ... الخ.

وقال ابن عباس: إنها الفاضحة. مازالت تنزل فيهم وتنال منهم حتى خشينا أن لا تدع أحداً.

ولقد تساءلوا عن سبب إسقاط البسملة من أولها، فجاءت أجوبة عديدة.

ـ قال أحدها: لقد اختلف الصحابة فيما إذا كانت تشكل مع الأنفال سورة واحدة لأنهما تضمنتا تشريع القتال، لذلك لم تفصل البسملة بينهما.

ـ وقال آحدها: إنّه تعالى ختم الأنفال بموالاة المؤمنين بعضهم بعضاً. ﴿والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم﴾ (٨/ ٧٥: الأنفال). ففي هذه الموالاة تأكيد على الانقطاع عن الكفار بالكلية، ثم جاء التصريح بهذا المعنى في أول سورة «التوبة» بقوله: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (٩/ ١: التوبة).

فتركت كتابة البسملة للتنبيه على التفريق بين المؤمنين والمشركين.

وعن علي بن أبي طالب رواه ابن عباس قال: «لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان. وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان»[1].

٢ ـ إن قول المؤلف، بأن «الآيات من ١ ـ ٢٩ ـ من السورة «نزلت في تشريع القتال ضد المشركين العرب ولم تنزل لقتال المسحيين، خارج الجزيرة العربية. (ص ـ ١٥١ ـ من المؤلف).

ولكن هذا القول ـ لا يستند إلى مرجع ـ ولا ينسجم مع الحرف القرآني:

ـ فالآية ٢٩ ـ التي صنفها في آخر سورة «براءة» تضمنت أحكاماً بمجاهدة غير

(١) الأقوال الثلاثة عن تفسير الإمام الرازي.

المشركين العرب. ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (٩/ ٢٩).

ـ فالمشّبهة اليهود والنَّصارى الذين يعتقدون بحلول كلمة الله في عيسى لا يؤمنون بوحدانية الله.

ـ واليهود والنصارى لا يؤمنون بالبعث الجسماني، فهم المعنيون بـ «لا يؤمنون باليوم الآخر».

ـ وكلاهما لا يحرِّمان ما حرمه الله في القرآن.

ـ وكلاهما لا يدينان بالإسلام، والدين عند الله الإسلام.

هؤلاء هم أهل الكتاب ويتبعهم ويُعَامَلُ بسنَّتهم «الصابئة» و«السامرةُ» و«المجوس» لقول النبي (ص) «سُنُّوا بهم سُنَّةِ أهل الكتاب».

هذه الأصناف العقائدية الخمسة. يعرض عليهم الإسلام. فإن أبوا تفرض عليهم الجزية مع بقائهم على عقائدهم، فإن أبوا كان قتالهم لا معدًّى عنه[١].

٣ ـ يتردد المؤلف في «أحكامه» فلا يكاد يستقر على حكم حتى يرحل عنه إلى سواه ثم لا يجد حرجاً في العودة مرة ثانية إن كانت طبيعة البحث تحتمل العودة.

وفي القواعد الكلية: «التردُّد في القول يوجِبُ ردَّهُ على صاحبه»[٢].

فهو ـ كما تقدم ـ يحدد «براءة» من الآية ١ ـ ٢٩. ويحدد التوبة بأنها جميع ما تبقى من السورة. ولكنه لم يلبث غير القَليل حتى قال في البحث ذاته بالصحيفة ١٥٢ ـ:

«إن براءة هي في قتال المشركين وتمتد من ١ ـ ٣٨ ـ ».

---

(١) سبق الحديث عن حوار النبي مع نصارى نجران إذ عرض عليهم الاسلام فابوا، فعرض المباهلة فأبوا، فقال أناجزكم القتال. فقالوا لا طاقة لنا عليه ولكن نصالحك على الجزية كما إن النبي أخذ الجزية من مجوس هجر وقال: سنوا فيهم سُنَّة أهل الكتاب.

(٢) من القواعد الكلية.

«وإن التوبة هي في قتال المسيحيين وتمتد من ٣٩ ـ ١٢٠».

ـ وقد كنا بينا أن الآية ٢٩ ـ نزلت في حكم «أهل الكتاب» ومن طبقت عليهم سنة أهل الكتاب، وذلك بعد أن فصَّلت الآيات السابقة حكم المشركين في إظهار البراءة منهم وفي وجوب مقاتلتهم وتبعيدهم عن المسجد الحرام.

ـ ثم استمرت الآيات حتى ٣٨ ـ في سرد ضلالات «أهل الكتاب» حيث ذكرتهم بالإسم وعدَّدت نواحي الضلال في معتقداتهم، فعزيرٌ هو ابن الله عند اليهود، والمسيح هو ابن الله عند النصارى، والطائفتان اتخذتا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله والمسيح ابنَ مريم. وهما تريدان أن تطفئاً نور الله بأفواهما. وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق. وأحبارهم ورهبانهم يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله. ثم تأتي الآية ٣٨ ـ فتستنفر الذين آمنوا إلى الجهاد في سبيل الله وتتلوها في تأكيد النفرة الآية ٣٩ ـ.

٤ ـ إن توزيع الآيات المئة والتسع والعشرين على سورتين «براءة ـ ١ ـ ٣٨» و«التوبة من ٣٩ ـ ١٢٠» وتحديد كل منهما بموضوع مستقل عن الآخر، هو تحديد وتوزيع غير مدروس إذ لا يؤيده الواقع القرآني.

ـ تبين في الفقرة السابقة أن الآيات من ٢٩ ـ ٣٨ لم تنزل في عهد المشركين من العرب، بل نزلت في حكم أهل الكتاب وضلالاتهم، فذكرتهم بالإسم وأشارت إلى الأحبار والرهبان.

ـ أما باقي آيات السورة وهي إحدى وثمانون آية. فإنها تضمنت مواضيع عديدة. إضافة إلى موضوع غزوة تبوك وما تفرع عنه:

أ ـ فالآيات من ٥٨ ـ ٦٠: هي في تحديد الصدقات وأوجه توزيعها.

ب ـ والآيات من ٦١ ـ ٦٩: في أوصاف المنافقين وتصرفاتهم عامة.

ج ـ والآيات من ٧٠ و٧١ و٧٢: فيما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات.

د ـ والآيات من ٧٣ ـ ٨٠: عودة إلى وصف المنافقين والكفار وتوجيه النبي إلى أسلوب التعامل معهم.

هـ ـ والآيات من ٨١ ـ ٩٩ : عن غزوة تبوك وعن الذي تقاعسوا واعتذروا عن الاشتراك بها وما تفرع عن هذا الموضوع.

و ـ الآية ١٠٠ ـ: تخصصت في إعلان الرضا عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

ز ـ الآية ١٠١ ـ: وصف للمنافقين من المدينة الذي مَرَدُوا على النفاق.

ح ـ الآيات ١٠٢ ـ ١٠٥ : تحدثت عمّن اعترفوا بما أذنبوا وعن قبول توبتهم، بعد أن تطهروا بالزكاة.

ط ـ الآية ١٠٦ ـ: عودة إلى المتخلفين عن غزوة تبوك وإرجاء أمرهم إلى الله[١].

ي ـ الآيات ١٠٧ ـ ١١٠ ـ: تحدثت عن مسجد الضرار، ووازنت بينه وبين مسجد قباء الذي اسس على التقوى من أول يوم[٢].

ك ـ الآيتان ١١١ ـ ١١٢ : وُصف فيها المجاهدون الذين اشترى الله منهم أنفسهم بأن لهم الجنة.

ل ـ الآيات من ١١٣ ـ ١١٦ : في التحذير من الاستغفار للمشركين ولو كانوا ذوي قربى.

م ـ الآيات من ١١٧ ـ ١١٩ : في مَنْ ضَعُفَ إيمانه في «ساعة العسرة» أَثناء السفر إلى تبوك حيث تاب الله عليهم وعلى الثلاثة الذين مرَّ ذكرهم آنفاً.

ن ـ الآيات من ١٢٠ ـ ١٢٢ : في استكبار تخلف أهل المدينة عن غزوة تبوك.

---

(١) قال ابن عباس هم ثلاثة (مرارة بن الربيع) و(كعب بن مالك) (وهلال بن أمية).

(٢) مسجد قباء بناه المسلمون في المدينة ومسجد الضرار بناه ـ أبو عامر ـ الراهب. الذي ذهب إلى هرقل لمنحه معونةً عسكرية يحاربَ بها محمداً. وطلب منهم أن يبنوه ريثما يعود. وعند الانتهاء منه جاؤوا إلى النبي وطلبوا منه أن يصلي فيه ولكنه استمهلهم إلى الغد. فنزلت آية التحذير من الصلاة فيه، فأرسل النبي من هدمه (ابن كثير ـ والرازي).

س ـ الآيات من ١٢٣ ـ ١٢٩: كان يستطيع الأستاذ الحدَّاد في هذه الآيات أن يجد حلاً للمعضلة التي يراها من دون حل. وهي تساؤله عن المستند القرآني الذي استند إليه المسلمون في حروبهم مع المسيحيين خارج الجزيرة العربية. فهذه الآيات قدمت إليه الجواب:

﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (١٢٣).

فقد اتفق المحققون على أن في هذه إرْشادٌ إلى إسلوب القتال وطريقته. فقد كانت الآية (٣٦) من التوبة أوجبت على المؤمنين كافة أن يقاتلوا المشركين كافة. ثم جاءت هذه الآية محددة خطة القتال المرحلية ومبينة طريقه الأصوب، وهو أن يبتدؤوا من الأقرب فالأقرب(الذين يلونكم) منتقلين بعدها إلى الأبعد فالأبعد. وكما كان أسلوب الدعوة على هذا الأساس **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** (٢١٤: الشعراء). هكذا الحال مع القتال، حيث سُيِّرت بعوث الغزو على هذا الترتيب، فحارب النبي قومه أولاً، ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ثم انتقل الى غزو الشام، وعندما فرغ الصحابة بعده من غزو الشام دخلوا العراق، والغزو من المواقع القريبة هو أول وأصلح لأسباب عديدة منها إن غزو البعيد وترك القريب يكشف الجيش، ويعرض الذَّراري للغزو. وإن التجهيز للأقرب يتطلب الجهد والانفاق الأقل.

وهكذا عدَّد الفقهاء أسباباً عديدة أخرى لإيجاد الغزو الأقرب(١).

فالمشركون كافة:

ـ هو مفهوم لم يجمد على مشركي قريش والعرب بل تجاوزهم إلى كل شِرْك في أي مكان.

ـ والكفار مفهومٌ يشمل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر. وبذلك ينطوي فيه كل كافر بالإسلام من يهود ونصارى ومن سارت فيهم سنة أهل الكتاب.

ـ وترتيب القتال ضد الكفار والمشركين كافة يقوم على خُطَّة الأقرب فالأقرب

---

(١) الرازي وابن كثير.

يليهما الأبعد فالأبعد. إنَّما هو تشريع بالجهاد المستمر لأن الإسلام لم يأت ليقف عند جدران الجزيرة العربية. ممنوعاً من الخروج إلى الدنيا. بل جاء إلى الناس كافة:

﴿يا أيها النَّاس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم﴾ (٤/ ١٧٠ : النسَاء).

﴿قل يا أيها النَّاس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (٧/ ١٥٨ : الاعراف).

والرِّسَالَةُ لم يكن لها أن تقف عند المشركين و «عبدة الأوثان» و «هرطقة النصارى». بل جاءت إلى أهل الكتاب ومن سارت فيهم سنة أهل الكتاب أيضاً.

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل﴾ (٥/ ١٩ : المائدة).

﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾ (٤/ ٧٩: النساء).

لذلك كله نَقُول للأستاذ الحداد:

ـ لو قرأت سورة التوبة جيداً لما قسمتها إلى سورتين.

ـ ولو أمعنت فيها جيداً لوجدت عدداً من المواضيع غير «البراءة من المشركين» وحرب «المسيحيين العرب».

ـ ولو دققت قليلاً في الآية ٣٦ ـ والآيات ١٢٣ وما بعدها لوجدت تشريع الحرب ماثلاً في هذه الآيات التي أوجبت استمرار الجهاد ضد الكفر والشرك، بدءا من قريش ثم الجزيرة، قاطبةً. ثم تجاوزاً إلى بلاد الروم والفرس وبلدان العالم كافة.

٥ ـ قال المؤلف: «إن تشريع القتال هو تشريع آني. محدود في المكان والزمان. فهو لا يتجاوز الجزيرة، ولا يمتد بعد وفاة النبي. ولم يرد في القرآن أو سواه ما يوجب أن يكون تشريع قتال المسلمين للمسيحيين تشريعاً مطلقاً. كما إن القرآن لم يحض عليه غير مرة واحدة هي في سورة التوبة».

ـ أما إن القرآن لم يتحدث عن هذا الجهاد غير مرة واحدة وفي سورة التوبة، فهو قول تُعارِضُهُ آيات من القرآن من غير سورة التوبة منها:

﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾ (٥ : التوبة).

﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا. . .﴾ (٤/ ٨٩: النساء).

﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السَّلَمَ ويكفُّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهم وأُوْلائِكُمْ جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ (٤/ ٩١ : النساء).

﴿قاتلواْ الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ (٩/ ٢٩ : التوبة).

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾(٨/ ٣٩: الأنفال و٢/ ١٩٣ ـ البقرة).

ـ وأما القول بعدم تشريع القتال ضد المشركين والكافرين بعد تبوك فإنه قول:

ـ كنا ناقشناه من قبل وبينا أنه غير موثق.

ـ وإن هذا التشريع لو كان محدوداً بغزوة تبوك لما استمر على ذات الوتيرة الدينية المؤمنة مجتازاً ببعوث بلاد الروم والفرس وآسيا الصغرى وإفريقيا وإسبانيا وصقلية وفرنسا والهند والصين[1].

٦ ـ قال المؤلف: جاء في الإتقان ٢٨/١ أخرج مسلم عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت هي: ﴿إذ جاء نصر الله والفتح﴾ (أي سورة النصر) وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة: إنَّ آخرما نزل هو سورة المائدة، وفي حديث عثمان. براءة هي آخر القرآن نزولاً ـ ص ١٥٥ ـ المؤلف.

وبعد العودة إلى الإتقان للسيوطي ـ الجزء ١ ـ ص ـ ٢٨ تبين:

---

(١) نرجو ألا يغيب عن البال أننا نسير مع أقوال المؤلف كيفما سار وندور معه كيفما دار وأن تشريع الجهاد وماترتب عليه من حروب إنما هو حديث عن ماضٍ يفصلنا عنه ثلاثة عشر قرناً.

أ ـ أن الصحيفة ٢٨ ـ لا تتضمَّن شيئاً عن آخر ما نزل من القرآن.

ب ـ إن آخر ما نزل من القرآن جاء في فصل معرفة آخر ما نزل من القرآن ـ النوع الثامن» ويقع في الصحائف: ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ وفيه روايات عديدة منها:

ـ ما أخرجه البخاري عن ابن عباس وعمر: أن آخر ما نزل هو آية الربا ـ ص ٣٥.

ـ ما أخرجه النسائي عن طريق عكرمة عن ابن عباس أن آخر ما نزل: ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه**﴾ ـ ص ٣٦.

ـ ما أخرجه مسلم عن ابن عباس قال: آخر سورة نزلت هي ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾.

٧ ـ قال المؤلف: إن مضمون سورة النصر يدُلُّ على أنها من عام الوفود ـ ص ١٥٥.

هذا القول يخالف رأي الأغلبية من العلماء والمفسرين ومؤرخي الدعوة.

فهم مجمعون تقريباً على أنها نزلتْ في فتح مكة لذلك اجتمع فيها النَّصر والفتح: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**....﴾.

فهما لم يجتمعا إلا في فتح مكة.

ففي «بدر» تحقق النَّصر دون الفتح.

وفي إجلاء بني النُّضير تحقق الفتح دون النصر.

ولكنَّ زمن نزولِ: «إذا جاء....» مُخْتَلَفٌ عليه.

فمنهم من قال: نزلت قبل فتح مكة، وهي إنباءٌ مسبق للنَّبي بالفتح الأكبر. لذلك جاء الإخبار مسبوقاً بظرف زمان مستقبلي «إذا» التي لا تستعمل مع الماضي مما يرجِّح أن الفتح عند نزول السورة كان من منتظرات المستقبل.

* * *

٨ ـ قال المؤلف: «تتعدد الأحكام في القرآن بالنسبة إلى الموضوع الواحد، حتى تبلغ درجةَ التناقض والتهافت.

ـ ففي سورة المائدة، الآية ٨٢، يقول عن النصارى ﴿. . . **ولتَجِّدن أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون**﴾.

ـ وفي سورة التوبة: ﴿**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرَّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون**﴾ (٩/ ٢٩). ﴿**وقالت اليهود عُزَير ابن الله وقالت النَّصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾ (٩/ ٣٠). ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدو إلّهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون**﴾ (٩/ ٣١: التوبة).

ويضيف المؤلف:

أ ـ التناقض بين آية المائدة وآيتي التوبة لا يمكن تعليله إلا بافتراض أنَّ أحدهما دخيلٌ غير شرعي على القرآن. ولما كانت آية المائدة أقدمُ من آيتي التوبة. ولما كانت مشاعر الجفاء والعداء بين المسلمين والمسيحيين تجاوزت الصدور إلى السيوف في عهد جمع القرآن فإن اقتحام التنزيل بالقول الدخيل كان بآيتي «التوبة» وأمثالهما.

ب ـ إن آيتي التوبة وخاصة ما تضمنتاه من فرض الجزية. مُخالِفٌ لروح القرآن كله وناسخ لها من الناحية العملية. إذ بموجبها ولكي يخرج القرآن من مأزق التناقض. لا بدَّ من إلغاء آيتي التوبة أو اعتبارهما متأخرتين في النزول عن آية المائدة التي تعتبر ناسخةً لهما ولأمثالهما من الآيات التي نالت من المسيحية الرسمية. (انتهى قول المؤلف).

ويبدو أن وجهة نظر المؤلف تكونت لدى قراءته السريعة للآيات. دون الانتباه إلى أسباب النزول والأحداث التي صيغ منها تاريخُ تلك الفترة. وهو لو تعمق قليلاً

في الأحداث لوجد أنَّ المبرر الشرعي للقتال والجزية كان قائماً لدى أبناء ذلك الزمن.

إذ لو كانت آية «المائدة» هي دستور تشريعي دائم بين المسلمين والمسيحيين كافة أينما وجدوا وأنى وجدوا، لكانت جميع الحروب والمواجهات والفتوح الإسلامية آنذاك أعمالاً خالف بها المسلمون أحكام دينهم. وهذا لم يكن في المنظور الإسلامي على الإطلاق، لا على مستوى العلماء والفقهاء ولا على مستوى القادة والخلفاء ولا على مستوى النَّاس البسطاء.

جميعهم كانوا ـ من المنظور العقائدي ـ يرونها جهاداً، ويرون الجهاد باباً من أبواب الجنة. وجميعهم كانوا يرون أن الدين عند الله الإسلام، وأن معارضيه من أهل الكتاب لا يعفيهم من مناجزة القتال إلا دفع الجزية.

وإن دفع الجزية يعني أن دافعها دخل في العهد والذمة. فهو ذمي يحفظ عليه دينه. وتبقى عليه طقوسه. وتحوطه حماية المسلمين ورعايتهم، وينال في ديار الإسلام ما يناله المسلم من حرية في التعلم وممارسة الفعاليات الاقتصادية التي يرغبها.

ـ محققا للمساواة بين الذمي الذي يدفع والمسلم الذي يدافع.

ـ ومحققا للمبدأ العظيم «لا إكراه في الدين» وهو المبدأ الذي لم تعرفه اليهودية ولا المسيحية مع معارضيها، حتى المعارضين من الداخل، ومن يقلب صفحات التاريخ يجد أن كثيراً من قرارات الحرمان والهرطقة كانت تترافق مع إجراءات القمع والقتل والتشريد الجماعي.

٩ ـ وقال المؤلف: «ظاهرتان تتعارضان في شرعة القتال بالقرآن:

الأولى: إنها النص الوحيد الذي يشرع لقتال النصارى. وقد كان النبي دعا وفد نجران إلى المباهلة والملاعنة. ولم يدعه إلى القتال.

الثانية: الجزية ترد ـ تاريخياً ـ لأول مرَّة في القرآن فليس لها سابقة في الإمبراطوريات على رعاياها المستعبدين لذلك يغلب في القناعة أن «نصَّ الجزية» أقحم على القرآن عند جمع عثمان.

ففي الظاهرة الأولى:

١ ـ القتال في سبيل الله هو واحد من دساتير الشريعة الإسلامية يلجأ إليه بعد استنفاد السبل الأخرى وهي رفض دعوة الإسلام والإصرار على العقائد الخاطئة. والامتناع عن الجزية بالنسبة إلى أهل الكتاب ومن جرى مجراهم وقد ترافق هذا الدستور مع حاجة الدعوة منذ بدء غزواتها. ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم... واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله...**﴾(٢/ ١٩٠ ـ ١٩١ و١٩٣ البقرة).

قال ابن عباس: ويكون الدين لله أي يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان. وقد ثبت في الصحيحين أن النبي (ص) قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

ولو قمنا بإحصاء الآيات التي اعتبرت القتال في سبيل الله جهاداً لا تفضله عند الله فضيلة. لوجدنا أن تلك الآيات بالمئات مما يدحض مقولة المؤلف من أن القتال لم يرد إلا في سورة التوبة وعلى أثر غزوة تبوك وبسببها ومن أجلها فقط.

﴿**يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال...**﴾ (٨/ ٦٥: الانفال).

هذا نداءٌ من الله في تحريض المؤمنين على القتال في سبيله.

٢ ـ والقتال الذي نزل تشريعه في القرآن هو محفوفٌ بالشروط والمحاذير وقيام الظروف الملزمة. وذلك ضماناً لعدم الإساءة في استخدامه. وهذا كله لم تعرفه الحروب اليهودية وسواها. فالغزو اليهودي لأرض كنعان الذي امتد مئتي عام ترافق مع القتل والتدمير الشامل. وما نظن أحداً بغَافل عما حفلت به التوراة من مآس يصعب على الضمير الإنساني تصورها.

٣ ـ والقتال مكتوب على المجاهدين: أي هو في الكتاب عند الله. وما كان لجامعي القرآن أن يكتبوه من عندهم ولو أرادوا لما تم. ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم...**﴾ (٢/ ٢١٦: البقرة).

﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم...﴾ (٢/٢٤٦: البقرة).

أما الظاهرة الثانية:

وهي ظاهرة الجزية نقول فيها:

أ ـ إن كانت آيات سورة التوبة التي منها آية الجزية (٢٩) آخر ما نزل من القرآن ـ كما قال المؤلف ـ فإن مباهلة وفد نجران وفرض الجزية عليهم كان سابقاً لآية التوبة. لأن المباهلة وردت في سورة آل عمران وقد تمَّت في عام الوفود أي قبل وفاة النبي بسنة أما التوبة أو براءة فإن أيام النبي لم تتجاوز الثمانين بعد نزولها.

ب ـ لقد أوردنا سابقاً موضوع المباهلة وأسباب فرض الجزية حيث ثبت في المراجع أن وفد نجران رفض المباهلة. ثم رفض الإسلام الذي دُعِيَ إليه. ثم أعلن عجزه عن قتال المسلمين. وعرض عرضاً تلقائياً أن يدفع الجزية مقابل معاهدة تضمن له أمان النفوس وحرية المعتقدات والطقوس وسلامة الثروة والمال[١].

من ذلك يتبين أن أول جزية وضعت في الإسلام كانت على وفد نجران.

وأنها وَضعت باقتراح الوفد وبطلبه بعد أن عجز عن الخيارات الأخرى.

ثم صارت تشريعاً تعاقديا بين دافع الجزية وقابضها.

يلتزم الأول بدفعها في مواعيدها.

ويلتزم الآخر لقاء ذلك. إقرار الدافع على دينه وحمايته واحترام حقه في ممارسة طقوسه وفعالياته الاقتصادية وإعفائه من الأعباء العسكرية.

ج ـ قال المؤلف: «إن مضامين شرعة قتال المسيحيين مشبوهة، وإن موجبات التشريع تتناقض مع القرآن كله. وقدم تحليلاً للآيتين ٢٩ و٣٠ من سورة التوبة تضمن تفسيراً وتوضيحاً للشروط التي وضعتها الآيتان والتي يجب أن يُبَرَّر بها أي قتال وتوصل بتفسيره إلى أن أيّاً من هذه الشروط لم يكن متوافراً في المسيحيين

---

(١) هامش توطئة الفصل السادس.

وبالتالي لم يكن لقتالهم، عصر ذاك، مبرر شرعي ـ ص ١٥٨ ـ ١٥٩»[١].

وفيما يلي شيء من التفصيل حول هذه الشروط وحول قول المؤلف في كل منها.

١ ـ إنهم لا يؤمنون بالله، فاليهود مشبهة في أكثريتهم، والمشبه يزعم أن لا موجود غير الجسم وما هو حال فيه. فالموجود بلا جسم لا وجود له في نظرهم.

ولما كان من ثوابت الدين الإسلامي أن الله ليس جسماً ولا حالاً في الجسم. فإن قولهم يخرجهم من دائرة الإيمان بالله.

أما احتجاج المؤلف بما جاء في الآيتين ١١٣ ـ ١١٤ من إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر فيرد عليه بأن هاتين الآيتين ابتدأتا بالحرف «من» لقيام حالة التجزئة ونفي التعميم.

﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة...﴾.

فالتبعيض بمن، ينفي الكلية والشمول. ويَكون الذين وُصِفوا «بأنهم الأمة القائمة من أهل الكتاب..» هم القلة القليلة منهم التي أسلمت وحسن إسلامها.

وهذه الأمة، لا يشملها تشريع الحرب بسبب إيمانها وحسن إسلامها.

هذا، مع التنويه بأن التوراة التي تعتبر قانون الإيمان اليهودي. خلت نهائيا من الحديث عن اليوم الآخر والحساب والعقاب الأبدي كما خَلَت أدبيات اليهود عن أي ذكر لدار غير دار الدنيا ثم إن «ملكوت الله» الذي يتردد في أناجيل المسيحيين وأدبياتهم هو «مملكة الله» التي سوف يأتي المسيح لإقامتها في هذه الدنيا وهم بانتظارها منذ ألفي عام.

د ـ «إنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله».

---

(١) الآيتان هما: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون(٢٩) وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون(٣٠)﴾ (التوبة).

أي ما ورد تحريمه في القرآن وسنة النبي (ص)، لأن القرآن نسخ الكتب السابقة بما فيها من محرمات ووضع القواعد النهائية للتحريم والتحليل والشريعة.

والنسخ القرآني لهذه الكتب ليس نفياً لما فيها من شرائع قديمة ولكنه تحرك اقتضته طبيعة التطور فقد كان التوراة والإنجيل من قبل القرآن هدى للناس. ﴿**نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**﴾ (٢/ ٣ ـ ٤: آل عمران).

لذلك وتطبيقاً للمبدأ الذي فرضته السماء على الأرض نزل تكليف أهل الإنجيل ليحكموا بما أنزل الله فيه (٥/ ٤٨).

بالرغم من أن المسيح جاء مصدقاً للتوراة بشكل صريح، وبالرغم من أنه لم يأت لينقض كما ثبت عن لسانه:

﴿**وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدىً ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون. وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**﴾ ﴿**واحذرهم إن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك..**﴾ (٥/ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ المائدة).

من هذه الآيات الأربع ترتفع العلامات البارزة التالية:

١ ـ إن عيس ابن مريم جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة.

٢ ـ لقد أوتي الإنجيل يتضمن «الهدى والنور، وموعظة المتقين، ويتضمن التصديق بالتوراة».

٣ ـ ومع هذين التصديقين (في كتاب عيسى وسنته) أُمِر أهل الإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيه. والمفهوم المعاكس لهذا الأمر ألاّ يحكموا بما أنزل الله في التوراة إن كان متعارضاً مع الإنجيل أو كان قد تجاوزه الزمن.

٤ ـ ثم أنزل القرآن على النبي. مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه وناسخاً له.

٥ ـ وهو ـ أي النبي ـ مع تصديقه لما بين يديه من كتاب ـ أي التوارة والإنجيل ـ مأمور بأن يحكم بما أنزل الله في القرآن، وقد حذره الله من الوقوع في حبائلهم فيفتنوه عما أنزله الله إليه.

٦ ـ ولقد جاء التحذير من الافتتان بأهْوائهم مرتين في الآيتين (٤٧ و٤٨) مُتَرَافِقاً مع الأمر في اتباع أحكام القرآن والتقيد بما أنزل الله فيه. والتأكيد على أن العودة إلى سواه هو سقوط في أشراك أهل الكتاب وخروج عن الحق.

٧ ـ ولا حاجة إلى مزيد من التأكيد على أن الذين فُرض الحذر منْهم هم اليهود والنصارى. لأن القرآن أوضح المغزى من تعابيره «التصديق بما بين يديه من الكتاب» و«التحذير من أن يفتنوه» وذلك عندما قال: ﴿**لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً**﴾ (٥/ ٤٨: المائدة).

فتبين من هذه الآية: «أن المقصود هو كتاب التوراة والإنجيل».

هـ ـ «ولا يدينون دين الحق».

أي لا يدينون بالإسلام الذي هو الدين عند الله ـ في نظر القرآن ـ ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ (٣/ ٨٥: آل عمران).

وقد مرَّ معنا: «أن أهل الكتاب لا يُجادلون بالسيف إلا إذا رفضوا الإسلام ورفضوا إداء الجزية».

كما مرَّ معنا تاريخ فرض الجزية ومبرراته وآثاره على الصعيدين العقائدي والسياسي.

و ـ أورد المؤلف الآية (٣٠) على أن ما نسب فيها إلى اليهود والنصارى هو الذي برَّر قتالهم ومنح الشرعية لهذا القتال حين وصف بالجهاد في سبيل الله.

﴿**وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النَّصارى المسيح ابن الله...**﴾ (التوبة: ٣٠).

ومع اعدم اعتراضنا على هذا الاعتبار من حيث المبدأ. ننوه بأن حكم هذه الآية يندرج في مفهوم الشرط الأول. ﴿**الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾.

ز ـ أورد المؤلف الآية (٣١/ التوبة) التي جاء فيها:

﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم...**﴾.

وقال: إن إنزال المسيح منزلة الأحبار والرهبان هو قول لا يقوله القرآن. ومع ذلك فإن سقوطهم. في هذا الشرك لا يبرر قتالهم: «فلا إكراه في الدين ـ كما يقول القرآن» و«النبي وادع وفد نجران ولم يقاتلهم ـ ص ١٦٠ من المؤلف».

عاد المؤلف من جديد إلى المنطق الديماغوجي.

فأي شرك يجب على الإسلام أن يقاومه بجميع أنواع المقاومة. أشد من أن يُتخذ مع الله أو من دونه ربٌّ؟ سواءٌ أكان حِبْراً أم راهباً أم كان المسيح؟.

أليس في هذا مظهر من مظاهر الكفر بالله الموجب للمقاومة؟.

ثم كيف فهم المؤلف من الآية أنها تساوي بين المسيح والرهبان؟ وكيف قرأها؟ وهي تقول بصراحة: «إن من اتخذ مع الله رَباً أو من دونه سواءٌ أكان راهباً أم حِبْراً أم المسيح ابن مريم، هو مشرك بالله؟.

ح ـ وقد قرأ الآية (٣٢) قراءة سطحية وخاطئة[1] إذ قال: لاحظ دقة التعبير «بأفواههم» «إنّها دعوة باللسان لا بالسنان».

فالمؤلف، لم يعط اهتماماً للبلاغة والبيان والمجاز العظيم.

إن القرآن أراد بهذا البيان أن يظهر مدى استحالة الأمل في القضاء على الإسلام فجاء بهذا التشبيه المركب الخارق الذي يبدو تجاهه كل تشبيه قاصراً.

فأنت إذا أردت أن توضح مدى عجز المكابر عن تحقيق أمانيه واستحالة هذا التحقيق تقول له معابثاً: إنّما أنت في تصديك إلى عمل ما لا يمكن عمله. كذلك

---

(١) الآية: ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾(٩/ ٣٢: التوبة).

الأحمق الذي حاول أن يكنس الجبال بالريش أو ذلك المغرور الذي جرَّب أن ينقش قارات الأرض على فصٍّ خاتم.

ط ـ كما استغرب من القرآن أن يتهم الأحبار والرهبان بأكل اموال الناس بالباطل[1] وقال: كيف يكون الأمر كذلك والقرآن يقول: **﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾** (٥/ ٨٢: المائدة). غير أن استغراب المؤلف هو ـ في الحقيقة ـ موضع الاستغراب. لأنَّ من يتفرس في الآيتين يجد فيهما بعداً عن التعميم.

ففي آية المائدة: **﴿ذلك أن منهم قسيسين ورهباناً. . .﴾** دليل على أنَّ القرآن ذهب إلى وجود البعض منهم وليس جميع قسِّيسيهم ورهبانهم.

ففي المسيحيين «قسيسين ورهباناً لا يستكبرون. ولكن ليس الجميع.

وما ندري ما يقوله المؤلف في الأموال الطائلة التي تؤخذ لتخفيف الشرائع والأحكام وغفران الذنوب؟.

وتلك التي كانت تدفع ثمنا لصكوك الغفران وشراء البيوت في الجنة أو الأرض التي سوف يقيم الدافع عليها بيته في الفردوس؟.

وما ندري ما يقوله المؤلف في هذا الثراء العظيم والأطيان الواسعة والعيش الرغيد الذي كان يتنعم به الأحبار والرهبان في بَيعهم وكنائسهم؟ وهل كان يمكن أن يقال في تلك المظاهر المنافية لتعاليم المسيح إلاَّ ما قاله القرآن فيها؟.

٨ ـ اعتمد المؤلف على الآيات ٢٩ و٤١ و٢٩٠ و٢٩٤ من سورة البقرة والآيتين ٩٠ و٩١ من سورة النساء والآية ٨ ـ من سورة الممتحنة. لإثبات أن تشريع الحرب في الإسلام هو تشريع دفاعي لِردِّ بَغْيٍ وعدوان. أو لمقاومة الطعن في الدِّين

---

(١) **﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ويكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾**(٩/ ٣٤: التوبة).

والفتنة عنه أو الوقوف في وجه حرية الدعوة إليه وممارسة شعائره ومناقضته (ص ١٦٢).

وقال: «بما أن حرب تبوك كانت مقابلةً وثأراً من بغي سابق عليها، لذلك كانت مفردة مرهونة بمناسبتها وليس لها أن تنزل في منزلة التشريع العام في التعامل مع أهل الكتاب. كما إن آيات الحرب تتعارض في المبدأ وفي التَّقنين عن الروح القرآنية الماثلة في سُوَرِهِ».

وقد عدنا إلى الآيات، التي أقام المؤلف مقولته استناداً إليها، فوجدنا:

أ ـ الآيتان ٢٩ و٤١ من سورة البقرة لا تتضمنان شيئاً عن تشريع القتال.

ـ بما أن آخر آية من سورة البقرة هي الآية ذات الرقم ٢٨٦ لذلك لم يكن من الممكن إيجاد الآيتين ٢٩٠ ـ ٢٩٤ فيها.

ـ وجدنا مقصود المؤلف في الآيات ١٩٠ ـ ١٩١ ـ ١٩٢ ـ ١٩٣ من السورة ذاتها[(١)].

ب ـ كذلك عدنا إلى تاريخ نزولها فوجدنا أنها أول آيات القتال التي نزلت في المدينة (ابن كثير). وفي تفسيرها تعددت الأقوال.

ـ فمن قائل: إنها منسوخة بقوله: **﴿قاتلوا المشركين كافة﴾** ـ ٩/ ٣٦. و **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾** (٩/ ٢٩) **﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾** (٩/ ٥).

ـ ومن قائل: إنها تهييجٌ وإغراءٌ بالأعداء الذين أعدوا كل العدة لمحاربة الإسلام وأهله منتظرين سانحة مواتية لذلك جاء فيها **﴿واقتلوهم حيث**

---

(١) ﴿قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين(١٩٠) واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين(١٩١) فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم(١٩٢) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان على الظالمين(١٩٣)﴾.

ثقفتموهم. . .﴾ أي لا تنتظروهم حتى يتكامل استعدادهم فيهاجموكم.

ـ أما ما جاء من النهي عن الاعتداء في الحرب ﴿**ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾.

فليس منعاً من القتال. ولكنه تحذير من الإفراط في العنف والمبالغة في الاندفاع.

فقد مُنِع على المسلم في الحرب وبعد النصر أن يرتكب «المثلة» و«الغلول» و«قتل الصبيان والنساء والشيوخ وأصحاب الصوامع والأديرة» و«تحريق الأشجار وتخريب البيوت والزروع» و«قتل الحيوان» ذلك جميعه ما كان يتبعه النبي (ص) في حروبه وما كان يوصي به المقاتلين قبل كل غزوة(١).

ج ـ وليست هذه الآيات ولا آية الممتحنة (٨) بِخَارِجَةٍ عن هذا الإطار التشريعي الأخلاقي.

وعلى كل حال فَإنْ كان يمكن تسمية الآيات التي تحدثت عن القتال آيات تشريعية فإن هذا التشريع لم ينزل دفعة واحدة بل تحرك مع الزمن والتطور واستقر على آيات سورة التوبة التي اعتمدت عليها حروب الفتوح، والتي لم ينزل بعدها شيء معدل.

---

(١) جاء في صحيح مسلم أن رسول الله (ص) كان يقول: «اغزوا في سبيل الله: قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع».

الفصل الثامن

شخصية السيد المسيح في القرآن

توطئة: الثنائية القرآنية في شخصية المسيح.

بحث أول: الواقع القرآني في حقيقة المسيح.

بحث ثان: التحليل الصحيح لعقيدة القرآن في المسيح.

بحث ثالث: العقيدة القرآنية في المسيح متشابهة.

توطئة

الثنائية في شخصية المسيح

يواجه المؤلف في هذا الفصل أقسى الظروف لأنه يواجه ساعة الحسم.

لقد حان الوقت ـ في نظره ـ إلى المصارحة. فهو بعد أن استبعد من القرآن حالة المواجهة العقائدية و«الحربية» بين الإسلام والمسيحية ووضع الفوارق في الاعتقاد بين المسيحيين والنصّارى، ورأى أنَّ ما في القرآن من نصوص تندِّد بالعقيدة في المسيح هي دخيلةٌ ومدسوسة وضعت تلبيةٌ للعواطف التي أضرمتها حروب الفتح. وبيَّن أن الإسلام لم يجابه المسيحية ولم يلتق بها وما كان مخَّولاً أن يواجهَها، لأنه لم يأت إلا من أجْلها ولم يدعُ إلا بدعوتها ولم يهدف إلا لتجديد الحياة في أوصالها بجزيرة العرب.

نقول: بعد أن انتهى المؤلف من تهيئة القارىء إلى تقبُّل الفكرة «الأم» أطلقها وخصص لها الفصل الثامن بتوطئته وبَحْثَيْهِ وخَاتِمتِه، وهذه الفكرة هي «الثنائية في المسيح».

ففي التوطئة: يقدم تمهيدا يلخص ما سيأتي من أقوال، وينطلق من الآيتين

١٧٠ ـ ١٧١ من سورة النساء. مستخرجا منهما عقيدة القرآن في المسيح وهي «الثنائية» في شخصه، حيث يأخُذُ القرآن بأسلُوبه المعجز.

فالمسيح:

هو عيسى ابن مريم.

وهو كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، أيْ إنه كلمة الله قَبْلَ أن يُلْقَى إلى مريم، أي إنه ذاتٌ لا مجَّردَ كلام أَوْ أمر. فهو موجودٌ قبل مريم وهو ابنُها بصفته «عيسى».

بحث أول

الواقع القرآني في حقيقة المسيح

يقول المؤلف: المسيح هو «عيسى ابن مريم» و«كلمة الله» اسم تكوَّن من صفتين في ترادفٍ مخصوص بالمسيح ومقصورٍ عليه. وهو ثنائِيَّةٌ دون تعدد ولا تجزئة تشير إلى الوحدانية الصمدانية في المسيح.

ويقسم البحث إلى قسمين:

أولاً: البشرية في المسيح متأتِّيَةٌ من كونه ابن مريم.

ثانياً: الإلّهية في المسيح متأتِّيَةٌ من كونه مع الله ذاتاً واحدة. فهو كلمته وروح منه.

والمؤلف:

يضع القرآن ـ دوماً ـ أمام عينيه.

القرآن ـ دائماً ـ هو مجال نشاطه الجدالي.

لقد نضج ما في القِدْر بعد أن مكث على نار المؤلف مئةً وسبعين صحيفة، وباتت المكاشفة في المسيح واجبة ـ كما يقول ـ.

ولقد اجتاحت هذه المكاشفة فَصلين كاملين (الثامن والتاسع). و«فصل الخطاب الأخير» أي ما يزيد على ثمانين صحيفة.

ولعل ما في هذه الفصول الثلاثة هو الأعسر والأشد إرباكاً للمؤلف بسبب دقة المواضيع، وشدة حساسيتها، وتعدُّد المقالات فيها، لذلك قدرنا أنها سوف تتقاضى منا جهوداً بالمستوى ذاته، غير أن ما يسَّر المهمة والمهمة المضادَّة، أن ساحة المعركة قائمة بين نصوص القرآن، فمن تلك النصوص تنطلق أفكار المؤلف ومنها أيضاً يصدر الرد على تلك الأفكار.

وبالرغم من أن الفصول الثلاثة تجتمع في قاسم مشترك هو «شخصية المسيح» عليه السلام، وكان يمكن إدراج الرُدود عليها في فصل واحد، فقد آثرنا أن نتتبَّع المؤلف في الفصول والأبحاث والمواضيع تسيهلاً لمهمتنا، وجعل الأفكار من كلا الجانبين أكثر قرباً من القارىء.

بعد ذلك نَعُود إلى هذا البحث الذي استعرض المؤلف فيه مقالات القرآن في عيسى (ع) فخرج من تلك المقالات بوحدانية صمدانية مبنية على ثنائية هي كونه «ابن مريم» وكونه «كلمة الله وروح منه» ص ١٦٧ ـ من المؤلف.

أولاً: المسيح بصفة كونه ابن مريم:

لقد أتى المؤلف باثني عشر بنداً مبنية على آيات من القرآن يدل بها على أنها نزلت في المسيح بصفة كونه «ابن مريم». أي «كونه بشراً» فهو بمقتضى بشريته تصح فيه الولادة والموت والبعث. و«أن يكون عبداً لله ومَثَلاً لبني اسرائيل» و«أن يعيش على الأرض مثل الرسل» و«أن يكون من ائمة الدين» و«أن يُقَفَّى به على الرسل ويدخل بينهم في باب المفاضلة» و«أن يكون رسولاً مصدقاً للتوراة وأن يكون مثله كمثل آدم» و«أن يدخل في ميثاق الله مع النبيين» و«أن يوحى إليه كما أوحي إلى النبيين» و«أن لا يكون إلَهاً فيقدر الله أن يهلكه إذا أراد» و«أن يستنكر اتخاذه وأمه إلهين».

تلك الأوصاف القرآنية في المسيح ليست هي موضوع الخلاف مع المؤلف.

غير أن المؤلف لا يرى فيها التعبير الحقيقي عن المسيح، لأنها لا تمثل غير الجانب البشري منه. في حين أن المسلمين لا يرون هذا التفريق.

بل يرون أن المسيح نفسه في كثير من المناسبات أعلن أنه بشر رسول، وأن

علمه لم يكن محيطاً بعلم الله. ففي متى يقول المسيح: «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا ملائكة السماء إلا أبي وحده ـ ٢٤/ ٣٧».

وفي الإنجيل ذاتِه أيضاً يتعبد المسيح لله بقوله: «في ذلك الوقت أجاب يسوع وقال احمدك أيها الآب رب السماء والأرض... كل شيء قد دُفِعَ إليَّ من أبي ـ ١٠/ ٢٦ ـ ٢٨».

فهل تحمدُ الذاتُ ذاتها؟ وهل تَدفع إلى نفسها الإمكانات والقوى؟.

ثانياً: المسيح هو أيضاً كلمة الله:

أورد المؤلف آيات من «آل عمران» و«النساء» و«التحريم» و«الاعراف». مستدلاً منها أنَّ: «الترادف بين كلمة الله وروح منه» يقطع قطعاً مبرماً أنَّ ما يعنيه القرآن هو: أن كلمة الله هي ذاته، وكلمة منه أي إنه من ذات الله وروح منه، وهذا الروح منه تعالى الذي اسمه وصفته وذاته أنه كلمته موجود قبل مريم، فهو كلمته ألقاها إلى مريم ـ ١٧٣ ـ من المؤلف».

ويتابع المؤلف: «وقول القرآن «وروح منه» فريدٌ في القرآن يَدُلّ على مصدرِه أنه ذات الله ـ ص ١٧٣.

والآن!! مع المؤلف في استعراض للآيات التي اعتمدها.

أ ـ آيات آل عمران ـ ٣/ ٣٩ ـ ٤٥:

ـ الآية ٣٩ ـ ﴿**فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنَّ الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيّداً وحصوراً ونبيا من الصالحين**﴾.

لقد اختلف المفسرون في المقصود «بكلمة من الله». وذلك لأنها جاءت نكرة وتدل على مفردةٍ من جمع.

والذين قالوا: إنّها تعني المسيح فلأن المسيح خلق بكلمة «كن» دون واسطة الأب. فلما كان تكوينُه من غير واسطة «البذر» سمي كلمة مثلما يسمى المخلوق خلقاً، والمقدورُ قدرةً، والمرجُوُّ رجاءً، والمشتهى شهوةً، وهذا بابٌ معروفٌ في اللغة.

والكلمة وردت في القرآن في معان عدة دون خصوصية بالمسيح:

منها: قوله تعالى: ﴿وكذلك حقَّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾ (غافر: ٦).

وقوله: ﴿ولكن حقَّت كلمة العذاب على الكافرين﴾ (الزمر: ٧١).

وقوله: ﴿وتمت كلمة ربك لأملأن جهنَّم من الجنَّة والنَّاس أجْمَعين﴾ (١١/١١٩: هود).

وهكذا لو تتبعنا هذه الكلمة في القرآن لوجدناها في أربع وعشرين آية بصيغة المفرد وبمعانٍ عديدة

الآية ٤٥ ـ : ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾.

فالمقصود هنا لا يختلف عما هو في الآية ٣٩ ـ وقد ذهب البعض إلى أن الله تعالى قادرٌ على الممكنات بأسرها، ومنها إيجاد الشخص من غير نطفة فقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (٣/٥٩: آل عمران).

وقال مجيباً على الاندهاش الذي غَمَر زكريا وعلى تساؤله:

﴿قال رب أنَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكبر عِتِيّاً قال كذلك قال ربُّك هو على هيِّنٌ وقد خلقتك من قبلُ ولم تكُ شيئا﴾ (١٩/٨ ـ ٩: مريم).

ب ـ آيات سورة النساء ـ ٤/١٧١ ـ ١٧٢:

﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنَّما المسيحُ عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إلهٌ واحدٌ سبحانه أنَ يكونَ له ولد له مافي السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا(١٧١) لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً

لله ولا الملائكة المقرَّبون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا(١٧٢)﴾.

قال المؤلف مفسراً هاتين الآيتين:

«فالمسيح هو في ذاته السامية كلمةٌ منه تعالى. فمصدَره ليس من الأرض بل من السماء وقبل إلقائه إلى مريم هو «من الملائكة المقربين» فهو ينزل من السماء ليُولَد من مريم ص ١٧١».

ولكنَّ المعاني التي تنبثق من هاتين الآيتين هي غير ما استخرجه المؤلف:

١ ـ فيهما نهي عن المغالاة في المسيح، فالمغالاة فيه تَقَوُّلٌ على الله بغير الحق.

٢ ـ وفيهما وصف للمسيح بأنه مخلوق من مخلوقات الله، لن يستنكف هو وحتى الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً لله، ومن يستنكف عن عبادته منهم أو من سواهم فيسحشرهم الله إليه جميعاً.

٣ ـ فكيف يكون مع الله ذاتاً واحداً. وهو في ذات الوقت واحداً من عبيده؟!؟.

٤ ـ لقد وردت كلمة «ولا الملائكة المقربون» معطوفة على المسيح بالواو التي تعني «المغايرة» مما يدل على أن القرآن لم يعتبر المسيح من الملائكة المقربين ـ خلافاً لما جاء في المؤلَّف ـ.

٥ ـ إن كلمة الله في القرآن لم تقتصر على المسيح ولم تتوقف عنده، فكلمات الله لا حدود لها ولا حصر: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾** (١٨/١٠٩: الكهف). **﴿والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله﴾** (٣١/٢٧: لقمان).

٦ ـ فيها تنديد بالتثليث: أما معنى «ولا تقولوا ثلاثة» فهو نهي ينطوي على الزجر. لأن النصارى أثبتوا لله ذاتاً موصوفة بصفات ثلاث، إلا أن هذه الصفات هي ذوات بدليل حلولها في عيسى وفي غيره، وانتقال الصِّفة الثالثة (روح القدس) إلى

التلامذة الرسل والمبعوثين السبعين. فإذا قرأنا في القرآن: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام.... العالم.... الحي.... القادر... المريد...﴾ فإننا نفهم منها تعدُّد الصفات لأن كلَّ لفظٍ يعطي مفهوماً يختلف عن المفهوم الآخر.

ج ـ آية التحريم ـ ٦٦/١٢:

﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾.

فأكثر القراءات بل جميعها إلا ما ندر. قَرَأَتْ «بكلمات ربها» وليس «بكلمة ربها كما قال المؤلف» والكلمات تعني الشرائع والصحف.

مثل قوله: ﴿وإذا ابتلى ابراهيم ربُّهُ بكلمات فأتمهنَّ﴾ (٢/ ١٢٤: البقرة).

أما تعابير «من روحنا» و «روح منه» و «روحنا» فهي تعابير وردت في آيات عديدة.

ـ وهنا في هذه الآية: جاء التعبير بتكليف جبريل إلى القيام بعملية النفخ في درع مريم من روح الله فكان الحمل «عيسى عليه السلام» من هذه النفخة.

ـ وفي الآية ٤/ ١٧١ النساء «وروح منه» دل التعبير عن عيسى الذي وصف بأنه روح من الله. لكونه تولد من غير أب، وذلك لتشريفه والدلالة على طهارته. ومثله في الخلق: ﴿كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (٣/ ٥٩).

وفي تفسير هذه الآية يضع الإمام الرازي اللطيفة الآتية:

«قال الحكماء: إنما خلق الله آدم من تراب لعدة وجوه، أولها: ليكون متواضعاً. والثاني: ليكون ستاراً. والثالث، ليكون أكثر التصاقاً بالأرض لأنه مخلوق لخلافة الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (٢/ ٣٠). والرابع، لإظهار القدرة فخلق الشياطين من النار لأنها أضوأ الأجسام وابتلاهم بظلامات الضّلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف الأجسام وأعطاهم كمال القوّة والشدة، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام وأعطاه المعرفة والمحبة والنور والهداية، وَخَلق السماوات من أمواج مياه البحار وجعلها معلّقة في الهواء.

والخامس، خلق الإنسان من تراب ليكون مُطفِئاً لنار الشهوة والغضب والحرص، فإن هذه النيران لا تُطفأ إلا بالتراب، وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طيناً. **﴿إني خالق بشراً من طين﴾** (ص ـ ٧١). **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾** (المؤمنون: ١٢). والسلالة بمعنى: «المفصولة» لأنها تُسَلُّ من ألطف أجزاء الطين ـ الرازي ـ تفسير الآية ٥٩ ـ آل عمران.

ـ وفي الآية ٤٢/ ٥٢ من الشورى: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا. . .﴾**.

هذا التعبير «يعني القرآن» فقد سميَ هنا «روحاً لأنه يفيد الحياة والعلم من موت الجهل والكفر».

ـ والآية ٥٨/ ٢٢ ـ المجادلة: **﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾**.

فتعبير الروح هنا: هو الإيمان والنصر، فقد نزلت في الصَّحابة الذين التقوا في بدر بأقربائهم، فقاتلوهم وقتلوهم في سبيل الله(١).

ـ والآية ١٩/ ١٧ ـ مريم **﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾**.

هنا تعني جبريل.

ـ والآية: ٣٢/ ٩: السجدة. **﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**.

فالتعبير هنا: نفخ فيه من روحه: أي نفخ الحياة. وقد أضيفت الروح إلى

---

(١) قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة الذي قتل أباه ـ الجراح ـ يوم أحد، وعمر الذي قتل خاله العاص بن هشام يوم بدر، وأبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز، فقال النبي «متِّعنا بنفسك»، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيد، وفي علي وحمزة وعبيدة قتلوا عتبة وشيبة والوليد فهؤلاء الذين لم يوادوا أقاربهم غضباً لدين الله.

البارىء للتشريف وذلك للدلالة على سمو منزلة الروح التي عبَّرت عن مرحلة ما بعد التسوية بحيث أصبحت قادرة على تلقي السمع والبصر والفؤاد. انظر إلى الآيات:

﴿الذي أحسن كل شيء خَلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ (٣٢/ ٧ ـ ٨ ـ ٩: السجدة).

وهنا دليل حاسم على فساد استدلال المؤلف بأن عيسى هو «ابن الله» لأنه موصوف «بروح منه» حيث تبَيّن من «ونفخ فيه من روحه» أنَّ روحَ كلِّ أحد هي من روح الله[1] أي ملك الله. مثلما تقول: عبدي وداري.

ـ والآية ١٧/ ٨٥: الإسراء: ﴿ويسألونك عن الروح قل الرُّوح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾.

فتبين أنها حادثة واقعةٌ بتخليق الله وأمره وتكوينه.

ـ والآية: /٣٨: النبأ: ﴿يوم يقوم الرُّوح والملائكة صفا. .﴾.

وقد نقلوا عن علي بن أبي طالب أنه قال: «الروح هي مَلَكٌ له سبعون ألف وجه لكل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله بتلك اللغات كلها، ويخلق الله من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة»[2].

د ـ آية الأعراف ـ ٧/١٥٨:

﴿قل يا أيها النَّاس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن باالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾.

هنا «كلماته» وليس «كلمته» كما جاء عند المؤلف[3].

---

(١) الرازي في تفسير الآية ٩ من السجدة.
(٢) اسناد هذه الرواية إلى علي ضعيف لأن النبي لم يكن عنده علمٌ عن الروح فكيف يكون عند علي ولم يتلق الوحي؟.
(٣) وردت بالجمع عند الرازي وابن كثير والجلالين كما لم نعثر..............=

والكلمات تعني «المعجزات» هنا.

لذلك سُمِّيَ عيسى «كلمة» بسبب ولادته «المعجزة».

والمعجزات هي ما ظهر في ذات الرسول ومن مخارج ذاته[١].

* * *

بحث ثان

التحليل الصحيح لعقيدة القرآن في المسيح

قال المؤلف: «المسيح آيةٌ في وجوده كُلِّه مختلِفٌ عن الآيات التي وردت في القرآن وذلك لأن السلام واقعة في مولده وموته والبعث حيا إلى الأبد. فهو آية الله في الخلق منذ مولده المعجزة وأمه معه آية. **﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾** (الأنبياء: ٢١/ ٩١) ـ ص ١٧٣ ـ ١٧٤ من المؤلف».

والآن، فلنقم بالموازنة السريعة بين:

ـ الآيتين ١٩/ ٢١ ـ مريم و٢١/ ٩١: الإنبياء، اللتين اعتمدهما المؤلف لبيان الخصوصية والتفرد.

ـ والآيات ٢/ ٢٥٩ البقرة و٢٥/ ٣٧ الفرقان و٢٩/ ١٥ العنكبوت و٤٣/ ٤٨ الزخرف[٢].

وذلك لاكتشاف ما إذا كان تعبير «الآية» في القرآن مخصوصاً بالمسيح وأمه أم إنه ورد في سواهما وفي مناسبات أخرى.

١ ـ **﴿قال كذلك قال ربك هو على هيِّنٌ ولنجعله آية للناس ورحمة منّاً وكان أمراً مقضيا﴾** (١٩/ ٢١: مريم).

٢ ـ **﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّ وأنظر إلى حمارك ولنجعلك آيةً**

= عليها «مفردةً» في جميع ما قرأنا من مصاحف.

(١) الرازي.

(٢) آية: أي علامة للنّاس على قدرة الخالق إذ ولد من غير أب (للرازي وابن كثير).

للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزُها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ (٢/ ٢٥٩ : البقرة)[١].

﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾ (٢٥/ ٣٧: الفرقان).

﴿فانجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آيةً للعالمين﴾ (٢٩/ ١٥ : العنكبوت).

﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾ (٤٣/ ٤٨ : الزخرف).[٢].

وغير هذه الآيات تضمن القرآن ما لايقل عن أربعماية مكان وردت فيها «الآية» بصيغة المفرد وبصيغة الجمع ويوجد بينها قاسمٌ جامع هو أنها جميعها «مجعولة» وأن جاعلها هو «الله» ففي أية صيغة من الصيغ:

- جاء وصف المسيح لوحده.

- أو وصفه مع أمه بأنهما آية للعالمين.

ترد هذه الصيغ «مثل غيرها» مسبوقة بفعل الجعل الذي أوجدها أي ما كان لها أن تجعل نفسها بنفسها آية.

لقد قسم المؤلف هذا البحث إلى قسمين:

القسم الأول: ميزات المسيح العامة.

القسم الثاني: ميزات المسيح الخاصة.

لذلك سوف نخص كلاً منهما بدراسة مستقلة.

* * *

(١) نزلت في عزير (بعهد نبوخذ نصّر) الذي أماته الله مئة عام ثم أحياه فرأى حماره في مربطه منذ مئة عام ورأى طعامه لم يتفسخ ورأى كيف خلقت عظامه ثم صار اللحم يكسوها فكان إحياؤه بعد موته آية للناس.

(٢) الآيات التي أرسل بها موسى كانت تتتالى الأكبر فالأكبر.

أولاً: ميزات المسيح العامة:

وميزات المسيح العامة تندرج فيهاالمواضيع الآتية:

١ ـ أسماء المسيح الثلاثة.

٢ ـ أوصافه الثلاثة.

٣ ـ خصائص رسالته الثلاث.

٤ ـ صفاته البشرية الثلاث.

٥ ـ ميزات رسالته الثلاث.

٦ ـ مواقفه من سيرته «الثلاثة».

٧ ـ الحالات في شخصيته «الثلاث». هكذا أوردها المؤلف في الصحيفتين ١٧٤ ـ ١٨٦.

«مُتَعدِّداتٌ ثلاثِّية» مثلَّثةٌ دوماً. فهل يرى المؤلف أن «التثليث في مكوِّنات هذه الشخصية واقعة ينفرد بها المسيح عن سواه من الأنبياء والرسل؟ وهل نسي «الثنائية في المسيح» التي رصد لها نصف كتابه؟ وهل يرى أن مبدأ التثليث واجب الوجود في كل أمر؟.

أولاً: أسماء المسيح الثلاثة:

قال المؤلف: للمسيح أسماء ثلاثة: «المسيح» و«عيسى» و«ابن مريم».

ـ «فالمسيح» ورد على «العَلَمِية» ولم يرد لَقباً».

ـ و«عيسى» «نزل من السماء» وهو أشم.

ـ «وابن مريم» على البدلية أو العلمية، وهو لقب شرف ورثه القرآن عن الإنجيل، وكان أهل الناصرة يُنَادونه بهذا اللقب.

وتلك خصائص انفرد بها من دون العالمين ـ ص ١٧٦ ـ من كتابه. وقد

استعرض المؤلف. مقالات كثيرة في أسباب إطلاق هذا اللقب على عيسى ابن مريم (ص ـ ١٨٦ ـ ١٨٧).

غَير أن دارسي القرآن فهموا من تعبير «المسيح» أنه «لقب وصفة» وليس اسماً على العلمية[١].

ففي تفسير الرازي:

ـ أصل كلمة المسيح عبراني «مشيحا» فتعرَّب وتغيَّر لفظه، وأصل عيسى عبراني وهو «يشوع» مثل (موسى ـ موشى ـ وميشا).

ـ وقال آخرون إنه مشتق، أما تسمية عيسى بالمسيح فقد أوردوا تعليلات كثيرة منها، أنه كان يبرىء صاحب العاهة بمسحة في يده، أو أنه كان يمسح الأرض في الترحال، أو أن جبريل مسحه بجناحه صوناً له من مس الشيطان. أو إنه مسح بالبركة، أو إنه خرج ممسوحاً بالدهن من بطن أمه.

ـ إن يحيى بن زكريا، نزل اسمه من السَّماء أيضاً.

ـ كما نزل اسم إسحق:

﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾ (١٩/٧: مريم).

﴿فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوْرا ونبيّاً من الصالحين﴾ (٣/ ٣٩: آل عمران).

﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشَّرنَاها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾(١١/ ٧١: هود).

﴿وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين﴾ (٣٧/ ١١٢: الصافات).

فأنت ترى:

---

(١) الرازي في شرح الآية ٤٥.

ـ أن يحيى نزل اسمه من السماء ولم يكن له من قبل سميا، في حين أن عيسى والمسيح اسمان عبرانيان متداولان.

ـ وأن يحيى وُلد ومعه النبوة فهو «سيد» و«حصور» و«نبي من الصالحين» وهي صفات لم تجتمع في سواه.

ـ وإن إسحق ويعقوب نزل اسماهما من السماء. وأن إسحق بُشِّر به والده إبراهيم «كنبيٍّ» من الصالحين.

ـ أما قول المؤلف بأن القرآن ورث لقب «ابن مريم» عن الإنجيل كما كان يسميه أهل النَّاصرة (مرقس ـ ٦/٧). فهو قول لا يجد له مستنداً حتى في الإنجيل نفسه:

ـ ففي مرقس وردت بالآية ٣ ـ من الإصحاح ٦ ـ : «أليس هذا هو النجار ابن مريم واخوه يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان؟» وهو تساؤل لا ينم إلا عن استكبار ما ظهر منه.

ـ وفي لوقا ورد في الآية ٢٣ ـ من الإصحاح ٤ ـ: «وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه، ويقولون أليس هذا ابن يوسف؟.

ـ وفي يوحنا ورد في الآية ٤١ ـ من الإصحاح ٦ ـ : وقالوا أليس هذا يسوع ابن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه؟.

ـ وفي لوقا وردت الآية ٤٩ ـ من الإصحاح ٢ ـ : «فلما أبصَراه اندَهشا وقالت له أمه لماذا فعلت يا بنَّي بنا هكذا هو ذا أبوك وأنا كنَّا نطلبك معذبين».

وهكذا، نستطيع القول: إن المؤلف إن لم يكن ملوماً في مقالاته عن المسيح. فهو ملوم في تجريد العالمين منها كلا أوجزءاً.

* * *

ثانياً: أوصاف المسيح الثلاثة:

وللمسيح في القرآن أوصاف ثلاثة، يفسر بَعْضُها بعضاً. فتجعل من «نبوة المسيح ورسالته» فوق النبوات والرسالات:

ـ فهو عبد الله، والمقصود بعبوديته «النبوة وطاعة الله والقدوة للناس» و هذا لقب خاص بالمسيح[1].

ـ وهو النبي الذي قُفِّي به على الأنبياء. فهو خيرهم وآخرهم. أما محمد فهو خاتم النبيين. أي مصدق لهم[2].

ـ وهو الرسول على الإطلاق في حين أن غيره رسول على التخصيص[3].

والآن فلنعد إلى القرآن لنبين مدى الصحة في نسبة هذه الأوصاف على المسيح على وجه التخصيص والتفضيل والفوقية.

أ ـ العبودية لله، وهي حالة من الخضوع والتسليم تشترك فيها الكائنات جميعاً:

﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافَّات﴾ (٢٤/ ٤١: النور).

﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ (١٧/ ٤٤: الإسراء).

والأنبياء يخضعون لله جميعاً، فقد وردت في القرآن آيات كلُّها تضمنت كلمة مشتقة من «عبد» وكلها جاءت بمعنى العبودية والتبعية والعجز أمام الله.

﴿عبدِنَا يوم الفرقان﴾ (٨/ ٤١). **﴿عبدَنَا داوود﴾** (٣٨/ ١٧). **﴿عبدَنا أيوب﴾** (٣٨/ ٤١). **﴿عبدَه زكريا﴾** (١٩/ ٢). **﴿ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾** (٣٨/ ٣٠). **﴿نوح إنَّه كان عبداً شكورا﴾** (١٧/ ٣).

فهل يكفي هذا القليل من الآيات للدلالة على أن عبد الله ليس لقباً خاصّاً بالمسيح وحده؟.

---

(١) ص ـ ١٧٧ من المؤلف.
(٢) ص ـ إشعياء ٥٣ وأعمال الرسل ٣/ ٢٦.
(٣) ص ١٧٦ ـ، ص ـ ١٧٧.

ب ـ أما النبي، فلسنا في حاجة إلى استدعاء الآيات التي تحدثت عن الأنبياء. ولكن وقفتنا مع المؤلف هي عند الفرق بين «الأنبياء» و«النبيين»، فعيسى خاتم الأنبياء ولكن محمداً خاتم «النبيين». والفرق ليس عند اللغويين، ولا عند المفسرين بل عند المؤلف فقط. وهو فرق شديد ـ في نظره ـ إذ أن محمداً بهذه الصفة ليس نبيا ولكنه مصدِّق للنبي.

بالطبع لم يسأل المؤلف نفسه:

ـ إن كان الاسم المفرد من «النبيين» هو نبي؟ أم هو مفرد خاص يحتفظ به المؤلف لنفسه.

وإن كان جمع هذا المفرد (نبي) يأتي على «أنبياء ونبيين».

وبالرغم من هذه الأقوال التي تدخل في باب العبث اللفظي سوف نمسك بيدها ونحن نلج عتبات القرآن المقدسة، لنجد ما يلي:

ـ فقد وردت كلمة «النبيين» جمعاً «للنبي» في ثلاث عشرة آية. بينما لم ترد كلمة «الأنبياء» إلا في أربع آيات.

ـ وفي اللغة «النبوة» و «النباوة» و «النبي» ما ارتفع من الأرض. وقد اشتق اسم النبي منْها لأنه أرفع خلق الله. وبه يُهتَدى. ولأنه يُنبيء عن الله. ولأنه شُرِّف على الخلق.

وقال الزجّاج: القراءة المجتمع عليها في الأنبياء والنبيين ـ طرح الهمزة.

ج ـ ويزداد العبث اللفظي عند المؤلف في قوله: «إن عيسى (ع) رسول الله على الإطلاق لذلك جاءت رسالته فوق الرسالات».

هذا القول لو نسبه المؤلف إلى نفسه لقلنا هذا شأنه. فالله يهدي من يشاء. ولكنه أتى به من القرآن. مستدلا على «الإطلاق الرسولي اللامحدود» بالآيتين:

﴿إني رسول الله إليكم﴾ (الصف: ٦)[1]. و**﴿أن آمنوا بي وبرسولي﴾** (المائدة:

---

(١) كان الخطاب في «إليكم» يشير إلى بني إسرائيل الذين كان يخاطبهم المسيح.

١١١)[1]. في حين أن هاتين الآيتين تقيّدان وتحدّان من الإطلاق الرسولي، وتتقيدان بمن يوجه إليهم الخطاب وهم ليسوا كل البشر.

أما محمد، فقد أمره الله في القرآن أن يعلن عن مدى رسالته:

﴿قل يا أيها النَّاس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (٧/ ١٥٨).

﴿وأرسلناك للنَّاس رسولاً وكفى بالله شهيدا﴾ (٤/ ٧٩).

وهكذا نستطيع القول أيضاً: إن المؤلف إن لم يكن ملوماً في إيمانه برسالة المسيح ـ وهذا إيماننا ـ فهو ملوم في فهمه الخَاطىء لآيات القرآن، وقراءتها على وجه متحزب وغير كريم.

ثالثاً: خصائص رسالته الثلاث:

امتازت رسالة المسيح بثلاث، كانت لها خصائص انفردت بها وسمت على سواها من الرسالات وهي:

١ ـ لقد نَال الوحي والتنزيل بكاملهما ـ منذ مولده ـ فلا يقال فيه «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ـ (١٧/ ٤). لأنه أوتي كل العلم.

٢ ـ وتأيد بروح القدس. فتكلم في المهد وكهلاً.

٣ ـ وأوتي المعجزات البينات التي لم تؤت لغيره، «الخلق» و«الإبراء» و«الإحياء» و«علم الغيب» (ص ـ ١٧٧ ـ ١٧٨ ـ ١٧٩ ـ من المؤلف).

ـ أما في الأولى ـ احتجاز الوحي والتنزيل:

فما نحسب أن أحداً غير المؤلف أنكر أو ينكر على الرسل والأنبياء بعض وحي الله وتنزيله. إذ لا يعقل أن يكون الوحي الإلّهي قد استنفدته رسالة عيسى (ع)، وأن اللوح المحفوظ لم يكن لديه شيء للتنزيل غير الإنجيل. لذلك اقفر نهائياً بعد رحيل الإنجيل عنه.

---

(١) الخطاب إلى الحواريين. والآية الصحيحة هي رقم ١٢ من المائدة: ﴿أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برُسلي﴾.

هذا القول الجزاف ـ من المؤلف ـ يجعل النبوات والرسالات من عهد آدم، التي خاطبت الناس بألسنة الوحي ووضعت بينهم الشرائع المنزلة.

نقول: بمقتضى هذا القول الجموح ـ تسقط إلى الحضيض جميع النبوات والرسالات.

والآية: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾ هي تتمة للآية ١٧/٨٥ ـ من الإسراء. نزلت جواباً عن السؤال التعجيزي الذي سأله اليهود إلى النبي عن الروح، فنزلت الآية: **﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾** فقال اليهود: لقد أوتينا التوراة ومن أوتيها أوتي علماً كثيراً: فنزلت الآية: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾** (١٨/١٠٩: الكهف).

هذه العبارة القرآنية تنفي أن يجتمع علمُ الله أو يحد. أو يحصى. أو يبلغ مداه أحد[١].

ويروى في قصة موسى والخضر أن الخضر، قال ياموسى: ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر[٢].

ومرة أخرى بالاستناد إلى منطق الحداد نقول: كان الله في عون الذين صُنِّفوا أنبياءَ ورسلاً، كيف يكون حالهم إذا حلَّ عليهم حكم الحداد وجرَّدهم من الوحي والتنزيل والعلم.

ـ وأما في الثانية ـ تأييد المسيح بروح القدس ـ والكلام في المهد:

فقد كنا ذكرنا شيئاً من المعاني التي يتركب منها معنى التأييد و«الروح» و«القدس»، وسوف نستكلمه في البند ٣ ـ من «ثانياً ـ ميزات المسيح الخاصة».

غير أن ذلك لا يمنعنا من أن نقول هنا كلمةً مختصرة، هي:

---

(١) كنا في البحث الأول تحت عنوان «أولاً ـ المسيح بصفته ابن مريم» أوردنا إشارة من إنجيل متى يعلن فيها المسيح أنه لم يكن محيطاً بكامل علم الله (متى ـ ٢٤/٣٧ و١١/٢٦ ـ ٢٧).

(٢) ابن كثير والرازي.

ـ الروح القدس، مثلما أيَّد المسيحُ أيَّد سواه. فقد كان رفيقا، وناصحاً، وملقناً للأنبياء والرسل، ولم يكن مستقراً ـ على الدوام ـ في ذات الله ـ كما تقول الفلسفة المسيحية. بل كانت له إمكانية الاستقلال والانتقال من شخص إلى شخص. فقد امتلأ به التلاميذ والرسل السبعون. وأتباعهم وأتباع الأتباع. وبه صنعوا المعجزات والآيات.

ـ وكلام المهد الذي ورد في القرآن. لم يرد في الإنجيل بالنسبة إلى المسيح. بل إلى يحيى بن زكريا ـ يوحنا المعمدان ـ. حيث جاء في إنجيل لوقا «وفي اليوم الثامن جاؤوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا فأجابت أمه لا بل يسمَّى يوحنا فقالوا لها ليس أحدٌ تسمَّى بهذا الاسم ثم أومأوا إلى أبيه ماذا يريد أن يسمَيه. فطلب لوحاً وكتب اسمه «يوحنا» فتعجب الجميع وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلَّم وبارك الله. فوقع خوفٌ على كلِّ جيرانهم وتُحدِّثَ في هذه الأمور جميعها في كل جبال اليهود فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين: أترى ماذا يكون هذا الصبي؟ لوقا ـ ١/ ٦٠ ـ ٦٦.

ـ وأما الثالثة ـ الخلَق والإبراء والإحياء وعلم الغيب:

ـ وسوف نتوقف عند كل منها. لقد أثبت القرآن معجزة خلق الطير من الطين:

﴿وإذْ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ (٥/ ١١٠: المائدة).

فالعملية تمت على مرحلتين:

ـ مرحلة الخلق والتخطيط التمثالي من الطين.

ـ ومرحلة نفخ الحياة في التمثال.

وكلتاهما تكرَّر فيهما إذنُ الله.

وهذه المعجزة التي أوتيها المسيح ـ لم ترد في الإنجيل ـ بل وردت في القرآن دون أن تتكرر، وما الحرص على ذكر «الإذن الالهي». فيها مرتين إلا للدلالة على إضافة الفعل إلى الله.

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾ (آل عمران: ١٤٥). أي: إلاَّ إذا خلق الله الموت فيها.

ـ وإخراج الموتى إحياءٌ لهم. كان يتم بالنداء يوجهه المسيح باسم الله وقوته فيخرج الميت من قبره مستجيباً للنداء. ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ (٥/ ١١٠: المائدة).

ولا تقلُّ معجزة ابراهيم عن هذه المعجزة:

﴿وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى. قال أوَلم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فَصِرهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ (٢/ ٢٦٠: البقرة).

ومعنى: «صِرْهن إليك» أي اذبحهُنَّ ونتِّف ريشَهُنَّ وقطِّعْهُنَّ ومزِّقْهُنَّ واخلط بعضَهنَّ ببعض ثم جزِّئهن إلى إربعة أجزاء واجعل كل جزءٍ منهن على جبل ثم ادعهن إليك يأتين كما كُنَّ قبل الذبح[1].

وإذ قلنا: إن هذه المعجزة ـ المَكْرُمَةَ. لا تقل عن معجزة المسيح.

فإننا نرى ثمَّة فارقين بينهما:

ـ إن عيسى ما كان له أن يصنع مثال الطير من الطين إلا بإذن الله. في حين أن العملية التي سبقت عودة الحياة إلى أطيار إبراهيم كانت بقوّته.

ـ إن دعاء عيسى لإخراج الميت كان بإذن الله. وكذلك في إحياء الطير الطيني. في حين أن الله لم يقل لإبراهيم «وادعهُنَّ إليك بإذني».

ونحن: لا نفاضل، وليس لنا ذلك. ولكننا نهيب بالأستاذ الحداد أن ينظر إلى كل الاتجاهات.

ـ وإبراء الأمراض:

---

(١) ابن كثير.

ليستُ أكبر إعجازاً من دخول إبراهيم في أتون النار فصارت عليه برداً وسلاماً.

ولا من وضع موسى يده في جيبه ليخرجها بيضاء من غير سوء.

ولا في تحُول العصا إلى ثعبان يلتقف ثعابين السحرة.

ولا في ضربة واحدة من عصا موسى لينشق بها البحر حتى القرار. وينفرج عن طريق واسعة. عبر عليها مئات الألوف من الإسرائيليين مع مواشيهم. ومن الجانبين يقوم حائط من الماء ممسوك بقدرة الله عن الانهيار. ثم يعود الصدع إلى الالتئام. فينطبق على فرعون وجنوده. ويبيدهم جميعاً.

ـ أما علم الغيب عند المسيح.

فقد ورد في القرآن مقصوراً على **﴿الإنباء بما يأكلون وبما يدخرون﴾** (٣/ ٥٠ : آل عمران).

وإنها لمعجزة ولكنها:

ليست دليلاً من القرآن على علم الغيوب. كان عند المسيح. فذلك سرٌّ الله وحده لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

رابعاً: صفَات المسيح البشرية الثلاث:

تلك الصفات قال المؤلف عنها: «هي صِفَاتٌ ثلَاثَ في بشرية المسيح، انفرد بها على العالمين والمرسلين جميعاً». (ص١٧٩ ـ ١٨٠).

وهذه الصفات هي:

ـ الزكي: (١٩/ ١٨: مريم) ـ أي الطاهر من الذنوب. المولود على العصمة الأصلية منذ الحبل به. ثم عاش على العصمة الفعلية في حياته. وبذلك تختلف عصمته عن عصمة الأنبياء التي لم تكتب لهم إلا في الوحي والتنزيل. أما في الرسالة والسيرة الشخصية فلم يكونوا معصومين. وخاصة النبي العربي الذي كان له من الذنوب ما تقدم وما تأخر. (الفتح: ٢) ص ـ ١٨٠ ـ من المؤلف).

ـ والمبارك: (١٩/ ٣٠: مريم). فهو رجل الصلاة ورجل الزكاة من كل إثم لذلك يعتبره الصوفيون سيد الألياء بل خِتْمَ الأولياء.

ـ والبتول: وُلد بتولاً. وعاش بتولاً. وارتفع إلى السماء بتولاً. وهذه خاصة انفرد فيها عن البشر.

ونحنُ مع تأكيدنا على سموٍّ شخصية المسيح، وسموِّ الإيمان بها. فإننا لا نستطيع أن نتساق مع أحكام المؤلف، ـ التي ينسبهاإلى القرآن ـ . فالسيد المسيح الذي كرمه الله بهذه المواهب الإلَهية. لم يقل عن نفسه ولم يقل عنه القرآن أنه حجبَّها عن النَّاس وخاصة الأنبياء والرسل.

فالزكي:

صِفةٌ أضيفت إلى جهات عديدة أفراداً وجماعات.

﴿ألم تر إلى الذين يُزكوُّن أنفسهم بل الله يُزكيٍّ من يشاء ولا يظلمون فتيلا﴾ (٤/ ٤٩: النساء).

أي لا يترك لأحدٍ من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل إلا احتسبه الله له[(١)].

﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (٣/ ١٦٤: آل عمران).

وقد نزلت في النبي الذي يتلو على المؤمنين آيات الله ويزكيهم (أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) فتطهر نفوسهم من الخبث والدنس السابقين[(٢)].

وقال: **﴿أقتلت نفساً زكيَّة بغير نفس لقد جئت شيئاً نكرا﴾** (١٨/ ٧٤: الكهف). و**﴿قد أفلح من زكاها﴾** (٩١/ ٩: الشمس).

---

(١) الفتيل: هو ما يكون مثل الخيط في شق النواة.

(٢) ابن كثير.

والمبارك:

أيضاً هي صفةٌ يمكن أن يُكَرَّمَ بها الآخرون.

﴿وقـل ربِّ أنـزلنـي منـزلاً مبـاركـاً وأنـت خيـر المنـزليـن﴾ (٢٣/٢٩: المؤمنون)[١].

﴿فلمَّا أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾ (٢٨/٣٠: القصص).

﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ (٤٤/٣: الدخان).

والبتول:

صفةٌ أطلقها المؤلف على المسيح مستدلاً بها على ارتفاعه فوق «حاجات الرجال» إلى «جنس حواء».

وهذا خطأٌ في اللغة ولا أصل له في القرآن.

فالبتول من «البتل» أي القطع.

والبتول والبتيل والبتيلة من النخل هي «الفسيلة» المنقطعة عن أمها. والبتول للنساء هي المنقطعة عن الرجال ولا أرَبَ لها فيهم. لذلك سميت أم المسيح «البتول» وشَذَّت تسمية «فاطمة بنت الرسول بوصفها «بتولاً» لا نقطاعها عن نساء أهل زمانها. ونساء الأمة عفافاً وفضلا وديناً وحسباً. والانقطاع إلى العبادة يسمى «التبتُّل».

فالبتوُل صفة لا تطلق على الذكور. كما إن القرآن لم يصف المسيح بهذه الصفة. بل جاء في القرآن وصف يحيى بن زكريا بأنه ﴿سيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين﴾[٢]. (٣/٣٩: آل عمران).

---

(١) نزلت في دعاء النبي نوح.

(٢) الحصور هو المانع نفسه من النساء المعصوم عن الفواحش والقاذورات.

خامساً: ميِّزات رسالة المسيح الثلاث:

«ميِّزات ثلاث ينفرد بها المسيح في رسالته ويتميز بها على المخلوقين أجمعين ـ ص ١٨٢».

وهي:

ـ إنه مثلٌ في الحياة لبني إسرائيل والعالمين. في حين أن النبي العربي «أسوةٌ حسَنَةٌ في الجهاد».

ـ والمسيح هو وجيهٌ في الدنيا وفي الآخرة.

ـ والمسيح من المقربين. أي من الملائكة المقربين.

ففي هذه الميزات نضع الفقرات الآتية:

أ ـ ﴿ولما ضُرِب ابنُ مريم مثلاً إذا قَوْمُكَ منه يصُدُّون﴾. ﴿إن هو إلا عبدٌ أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ (٤٣/ ٥٧ ـ ٥٩: الزخرف)[1]. ولكن مناسبة الآية تقول:

ـ إن الذي ضرب عيسى مثلاً هو «ابن الزِّبَعْرَى» في محاجَّتِهِ للنبي.

ـ وهو ـ أي عيسى ـ وإن ضُرب مثلاً. ليس إلا عبداً من عباد الله أنعم الله عليه فجعله مثلاً لبني إسرائيل. وجعله آية بأن خلقه من غير أب. مثلما خلق آدم وشرَّفه

---

(١) مناسبة نزول هذه الآية هي: أن ابن الزِّبعري القرشي المشرك حضر إلى النبي يجادله في الآية ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم﴾ ـ الأنبياء ـ ٩٨» قائلاً له أهذا خاصَّتُه لنا ولألهتنا أم لجميع الأمم قال بل لجميع الأمم قال ابن الزبعري خصمتك ورب الكعبة: ألست تزعم أن عيسى نبي؟ وتثني عليه وعلى أمه خيراً وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرا والملائكة يعبدون أيضاً فإن كان هؤلاء جميعا في النار فقد رضينا أن نكون معهم نحن وآلهتنا. فارتفع صخب الناس وضجيجهم (يصدون) للقول المفحم الذي قاله ابن الزبعري فنزلت الآية: ومعناها عندما ضرب ابن الزبعري عيسى مثلا وجادل النبي به بدأت قريش بالفرح والضجيج ـ (الرازي).

بالنبوة وصيَّره عبرة ـ ثم اتبع ذلك بقوله: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون﴾ (٤٣/ ١٠: الزخرف).

فليس في هذه الآية تَفَرُّدٌ بالمنزلة على العالمين.

ونحن ـ مع تأكيدنا على علو منزلة المسيح ـ لم نجد في الآية ما وجده المؤلف من المعاني.

كما إن في القرآن آيات عديدة مماثلة. ضُربت الأمثال بجهات عديدة دونما قصد أو تركيز على التقديس.

مثل: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون. ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجلٍ هل يستويان مثلاً. الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٣٩/ ٢٧ ـ ٢٩: الزمر).

﴿ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة﴾ (١٤/ ٢٤: إبراهيم).

﴿وضرب الله مثلاً قريةً كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا..﴾ (١٦/ ١١٢: النحل).

﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ (٢٤/ ٣٤: النور).

وإذ يوازن المؤلف بين عيسى (ع) والنبي (ص) مفضلاً ومقدما الأول على الثاني بالاستناد إلى أن الله جعل من عيسى مثلاً لبني إسرائيل، بينما النبي العربي ـ كما يقول ـ وصفه بأنه أسوة حسنة في الجهاد والفرق بين الصفتين كبير ـ كما يقول ـ:

ولو أعاد المؤلف النظر في آيات القرآن لوجد عشرات الأمثال التي ضربت للناس وليس المسيح غير واحد منها ضربه الله لبني إسرائيل. ولكن «الأسوة» التي تعني «القدوة» لم توهب لأحد من الناس. أنبياء وغير أنبياء. إلا «لابراهيم ومحمد».

ـ ففي سورة الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان

يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (٣٣/ ٢١).

ـ وفي سورة الممتحنة: **﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم مما تعبدون من دون الله﴾ (٦٠/ ٤). ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ (٦٠/ ٦).**

فالتخصيص في «المثل لبني إسرائيل». لا يفهم منه التفضيل والتقدم على «المثل الثاني» المضروب إلى النَّاس كافة ممن يرجون الله واليوم الآخر ويذكرون الله كثيراً.

* * *

ب ـ وصفة «وجهياً» لم ترد في القرآن مقصورة على المسيح (ع) وحده.

ففي سورة الأحزاب، وُصف «موسى» بالوجاهة عند الله.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ (٣٣/ ٦٩).

بقي أن نَستعيد المعاني التي تنصرف إليها كلمة «وجيه».

فالوجيه: هو ذو الجاه والقدر والشرف.

يقال في الرجل إنه وجيه أي صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان.

وقد اشتقت في اللغة من الشرف والكرم لأنه أشرف ما في الإنسان هو وجهه. فجعل الوجه استعارة للكرم والكمال.

وفي التفسير: «كان كل من موسى وعيسى وجيهاً بالنبوة في الدنيا والشفاعة وعلو المنزلة في الآخرة ـ الرازي».

* * *

ج ـ «ووصف المسيح بأنه من الملائكة المقربين، بل هو وجيههم. أي هو منهم بمثابة الوجه من الانسان، أكثر الجسد شرفاً وكرماً وكمالاً ـ ص ١٨٢ ـ من المؤلف».

وقد استند في معلومته هذه إلى الآية ١٧٠ من سورة النساء.

فعدنا إليها لنجد:

﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ (٤/ ١٧٢ : النساء).

فالحكم ـ بمقتضى هذه الآية ـ . هو أن المسيح والملائكة المقربين. لن يستنكفوا ولن يستكبروا أن يكونوا عبيداً لله. وأنهم وسواهم في حكم واحد. عند الاستنكاف. وهو أن الله يحشرهم إليه جميعاً.

وقد ورد الحكم واحداً للمسيح والملائكة المقربين. الذين هم «الثمانية حملة العرش على عظمته» وهم «المطلعون على اللوح المحفوظ».

هؤلاء، على علو منزلتهم. لن يستنكفوا عن أن يكونوا عبيداً لله فهل يعقل أن يستنكف المسيح وهم أعلى مقاماً؟.

هذه معاني الآية التي اتخذ المؤلف منها درعاً لأقواله، ليس فيها ما يدل على أن المسيح (ع) من الملائكة المقربين. أو أنه وجيههم. ومتقدمٌ عليهم في العلم والفضل والوجاهة عند الله.

* * *

سادساً: مواقف المسيح الثلاثة في سيرته:

«والسلام على المسيح ترافق مع سيرته الناسوتية منذ أول لحظة حتى آخر لحظة في هذه الدنيا، عبَّر عنها بقوله في الآية ٣١ ـ من سورة مريم: **﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾**.

«فالفروق بين هذا السلام وبين غيره الذي منحه إلى آخرين، كثيرةً وعميقة. ذلك أن السلام على المسيح هو سلام الله كله، لأنه ورد معرفاً بالألف واللاَّم فيما جاء سواء بصيغة النكرة والتبعيض. أما الشمول والكمال ففي السلام على المسيح كبُرهان على انفراده ومنزلته الوحيدة ـ ص ١٨٢».

هذه هي أقوال المؤلف. وهذا هو فهمه للسلام الذي ألقي على المسيح في القرآن. ولكنها تتعارض مع القرآن في النص والمعنى والمنطق.

أ ـ إن سلام الله كله. هو من الشمول والاتساع والقيُّوميَّة. بحيث لا يستساغ القول بأنه استقر وتجمع وتحدَّد وانحصر في شخص المسيح. إذ لا يمكن التصور بأن يد الله قد فرغت من السلام. بعد أن استقر في شخص المسيح بكليته. لأن مثل هذا التصور ينافي ويلغي العقائد الأخرى.

ب ـ وإن كان سلام الله قد تجمد عند شخص واحد، في القرآن. فمن أين وكيف جاء السلام في باقي الآيات: (١١/ ٦٩ و١٣/ ٢٤ و١٤/ ٢٣ و١٥/ ٤٦ و١٦/ ٣٢ و١٩/ ٤٧ و٢٠/ ٤٧ و٢٧/ ٥٩ و٣٧/ ٧٩ ـ ١٠٩ ـ ١٢٠ ـ ١٣٠ ـ ١٨١) وغيرها؟.

وهل جاء هذا السلام المتعدد الاتجاهات من الله أم من المسيح؟ وإن كانت من الله الذي يمنح السلام دون سواه، فمن أين له وقد أفرغ المؤلف يديه منه؟.

ج ـ وإذ يقول المؤلف: «وحده المسيح جاء في القرآن أن الملاك جبريل بشَّر به قبل مجيئه (ص ـ ١٨٣).

فإنه غفل:

ـ عن يحيى الذي بُشِّر به أبوه زكريا وهو قائم يصلي في المحراب» (٣/ ٣٩: آل عمران).

ـ وعن اسماعيل: «الغلام الحليم» الذي بُشِّر به أبوه ابراهيم. (٣٧/ ١٠١: الصافات).

ـ وعن اسحق الذي وصف قبل مجيئه بأنه نبي من الصالحين. (٣٧/ ١١٢: الصافات).

ـ وعن امرأة ابراهيم التي بشرتها الملائكة ـ أكثر من ملاك واحد ـ باسحق ومن وراء إسحق يعقوب ـ (١١/ ٧١: هود).

د ـ وانتصار المسيح على سلطان الموت، بأن ألقى الله عليه الشبهة. فظن اليهود أنهم قتلوه، ولكن الله رفعه إليه. هذا الانتصار احتوى سلام الله كله. ولم يحظ بمثله أحد من الأنبياء والمرسلين وسائر المخلوقين. هذه الأعجوبة التي كرم

الله بها المسيح، وجعلها ترافقه. هي واحدة من أعاجيب الله التي تبدو تجاهها هذه العجيبة متواضعة. فالذي يبدأ الخلق ثم يعيده، والذي يرفع السماء بغير عمد، ويخلق الكائنات، لا يكبر عليه، أن يرفع المسيح إليه ويمنع عنه الصلب والعذاب.

هـ ـ ولقد وازن المؤلف بين الآيتين ١٥ و٣٣ ـ من سورة مريم.

الأولى: ١٩/ ١٥ وفيها حديث القرآن عن يحيى بقوله: ﴿**وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا**﴾.

والثانية: ١٩/٣٣ وفيها حديث عيسى عن نفسه بقوله: ﴿**والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا**﴾.

فانتهى المؤلف إلى تفضيل السلام الذي خص عيسى.

ولكن الجمهور على خلاف هذا الرأي، لأن عيسى سلَّم على نفسه. في حين أن الله هو الذي سلَّم على يحيى. وقد مرَّت معنا رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن بن علي: أن عيسى تحاور مع يحيى فطلب كل منهما من الآخر أن يستغفر له فقال عيسى استغفر لي لأنك الأفضل: أنت سلم الله عليك بينما أنا سلمت على نفسي.

سابعاً: الحالات الثلاث في شخصيته:

هي حالات ثلاث في شخصية المسيح بحسب القرآن، قال المؤلف عنها إنها «تجعل المسيح أقرب إلى أن يكون خالقاً من أن يكون مخلوقاً ـ ص ـ ١٨٦».

وهي:

ـ وأيدناه بروح القدس.

ـ وإذ تخلق بإذني.

ورافعك إليّ.

أ ـ فالروح القدس: هو مفهوم ظل غامضاً غير محدد الأوصاف ولا الموقع اللاهوتي. حتى استقر الرأي في مجمع القسطنطينية بعام ٣٨١ ـ م على تمجيده وتأليهه واعتباره الرب المحيي المنبثق عن الآب الذي هو مع الإبن ممجَّدٌ ومسجود

له[1]. ولكنه في القرآن ذو معنى مختلف، فهو قوة من الله يؤيد بها من يشاء من عباده.

وقيل: إن هذه القوّة هي جبريل (عليه السلام) لأنه مخلوق من هواء نوراني لطيف (الرازي ـ تفسير الآية ٣/ ٨٧).

وقيل: أضيفت الروح إلى «القدس». من باب إضافة الموصوف إلى الصفة عندما يستغرقها فيقال «حاتم الجود» و«رجل الصدق» وهنا أضيفت الروح إلى القدس للتشريف.

ويكاد ينعقد الإجماع عند قرّاء القرآن ومفسريه، أن الروح القدس هو جبريل مستشهدين بالآيتين ١٠١ ـ ١٠٢ من سورة النحل).

﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنمّا أنت مفترٍ بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين﴾ (١٦/ ١٠١ ـ ١٠٢ : النحل).

فروح القدس هو جبريل (عليه السلام). لأنه هو الذي نَزل بالقرآن إلى النبي.

وقوله «من ربك» لإيضاح صلة القرآن بالله، أي إن جبريل لم يأت بشيء من عنده، يستوي في ذلك من حيث المصدر «الآيات المُبدلة والآيات البديلة».

لهذا وبالاستناد إلى هذه الرؤية القرآنية يعتقد تابعوا القرآن أن الله يؤيد بجبريل من يشاء من عباده: **﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده﴾** (١٦/ ٢ : النحل).

﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ (٢٦/ ١٩٣ ـ ١٩٤ : الشعراء).

والتأييد: من الأيد أي القوة والمعونة. فصدور فعل التأييد هو عن الذات

---

(١) كنا في الفقرة ٧ ـ الأصل التاريخي للتثليث ـ وضعنا دراسة عن هذا المفهوم.

الإلّهية بدليل «عود الضمير» في وأيدناه إليها وإلى جميع من أيدهم الله بروح منه غير عيسى[1].

ب ـ وخلق الطير: كان لمرة واحدة وردت في القرآن ولم ترد في الإنجيل. ولكنها وردت مقيدة بأمر الله، ومنفّذة لإذنه وإرادته، فالخالق هو الله. والمسيح هو الوساطة التي ظهرت بها هذه الحادثة أمام النّاس.

وقد مرَّ معنا أن إبراهيم أخذ بأمر الله أربعة من الطير فذبحهنَّ وأزال عنهن الريش، وقطّعهن وعركهن (صِرْهن إليك) حتى صرن كتلة واحدة، ثم قسم الكتلة إلى أربعة أقسام فوضع كل قسم على رأس جبل ثم استدعاهنَّ إليه باسم الله فتجمعت أعضاءُ ومكونات كل طير حتى عاد إليه طيراً كما كان.

تلك العجائب وأمثالها. وضعت إمكانياتها مع الأنبياء دعماً لرسالاتهم وتأييداً لهم، وقد اختلفت ما هياتها من رسول إلى رسول. وفقاً لما تطلبته حاجة كل عصر من العصور.

ج ـ وما الرفع إلى السماء. وإلقاءُ شبه المسيح على شخص آخر وقع عليه الصلب. إلا إحدى الكرامات والمعجزات التي أيد الله بها نبوّة المسيح ورسالته، وهي معجزات تطلبتها طبيعة المجتمع في عصره.

بعد هذا ننبّه إلى الغلو الذي استولى على فكر المؤلف حيث يقول: «إن حالات التأييد بروح القدس، وخلق الطير، وارتفاعه إلى السماء، واختصاصُه بالقدرة الإلّهية على الخلق والإحياء، ترفعه فوق المخلوق إلى صلة ذاتية خاصة بالخالق نفسه ـ ص ١٨٤ ـ ١٨٥).

إذ نسي أن المسيح يقول عن نفسه:

---

(١) ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾. «٥٨/ ٢٢ ـ المجادلة، ﴿واذكر عبدنا داوود ذا الأيد إنه أواب﴾ ـ ٣٨/ ١٧ ـ ص، و﴿السماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾ (٥١/ ٤٧: الذاريات).

ـ إنه ولد ولادة بيولوجية محكومة بالموت والبعث الذي يحكم بهما كل مخلوق.

﴿والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا﴾.

وإنه إذ يموت. فالله الخالق لا يموت، لأنه هو خالق الموت وخالق الحياة. وإنه إذ يبعث، فالله وحده بيده البعث والنشور، واليه المصير.

ـ وإن من كان محكوماً بقانون الولادة والموت والبعث. قد ترتفع منزلته عند الله فيكون صالحاً أو وليّاً أو نبياً أو ملاكاً، غير أنه في جميع الحالات يظل صنعةَ الصانع الذي أبدعه، وخلِقةَ الخالق الذي خلقه.

* * *

ثانياً: ميزات المسيح الخاصة الذاتية:

هي أيضاً ثلاث يقول المؤلف: «لقد خُصَّ بها المسيح فرفعته فوق المخلوقين بصلةٍ خاصة ذاتية بالخالق ـ ص ١٨٧».

ولكن! لماذا غاب عن المؤلف؟ أن الأنبياء جميعاً ـ بالمفهوم القرآني ـ أوجدهم الله، طرازاً أرفع من المخلوقين. وأقام بينه وبينهم صلة خاصة منبثقة عنه. فما كان لنوح وابراهيم وموسى قبل المسيح أن يقوموا بما قاموا من به المذهلات لولا تلك الصلة الخاصة الذاتية التي كانوا يَدْعُونها فتأتي ويسألونها فتجيب. والمسيح (ع) واحدٌ من هؤلاء، ما كان له أن يلد نفسه بنفسه. بل تكوَّن بكلمة الله، واحتاج إلى رحم سكن فيه، وتغذى من دمه وظل تحت سيطرة قانون التكوين الجنيني تسعة أشهر مثل الآخرين، وما كان له ـ بالمفهوم القرآني ـ أن يظهر أيّة معجزة إلا بإذن الله وأيده[١]، فهو وسواه ـ فقراء إلى الله ـ والله هوالغني الحميد[٢] وإن جاءت آيات كل نبي[٣] مواتيةً للظروف التي كانت سائدة في المجتمع،

---

(١) الأيد هو القوة والعون.
(٢) ١٥/٣٥ ـ فاطر.
(٣) الآية هي المعجزة.

وجميعها ـ بما فيها آيات عيسى ـ بصائر[1] فإن آية محمد(ص) هي القرآن بما احتواه من علوم وإعجاز معرفي ولغوي. تجاوز «حاسة البصر» ليبقى قائماً في البصيرة على الزمن. وإن كان الإعجاز في البينات «البصائر» مضى مع الزمن فلم يبق غير الأحاديث والروايات، فإن الإعجاز القرآني ما زال منذ أربعة عشر قرناً يتداوله أبناء آدم فيشعرون تجاهه بالعجز ذاته عن بلوغه أو تحدِّيه بمثله.

ومع هذا كله: لايزال المسلمون في أنحاء الدنيا يعتبرون أن اصطفاء الله لمحمد وتكريمه بالكتاب الذي هيمن على جميع الكتب، لم يرفع محمداً إلى مرتبة الخالق. بل ظل في نظر المسلمين. عبد الله ورسوله وليس إلا بشراً يوحى إليه بما يقول ويفعل.

وبعد...!. فلنقف بعض الوقت مع «ثلاثية» المميزات الذاتية ـ كما سمَّاها المؤلف ـ ولنخفف شيئاً من غلوِّه وغلوائه لعلَّنا نستطيع الأخذ بيده إلى رحاب الوحدانية في الله.

ـ إنه مسيح الله.

ـ إنه كلمة الله.

ـ إنه روح منه تعالى.

ولقد اقتضت هذه الثلاثية من المؤلف جهوداً كثفها في ثلاث عشرة صحيفة[2].

أ ـ إنه مسيح الله:

«إنه المسيح» في الحرف القرآني وكفى. فمن أين جاء المؤلف بتعبير «مسيح الله»؟.

لقد تعددت الأقوال في تحقيق «معنى كلمة المسيح» ولو جاءت في القرآن «مسيح الله» لما حصل التعدد. ولكنه في القرآن. «عبد الله» و«الرسول الذي

---

(١) أي يدركها الناس ويؤمنوا بها بعد أن يشاهدوها مشاهدة عينية حسية.

(٢) من ١٨٦ ـ ١٩٧.

قد خلت من قبله الرسل» و «كلمة من الله ألقاها إلى مريم[1].

واختلاف المفسرين في توضيح المقصود من هذه الكلمة. ناجمٌ عن اختلاف الثقافة والرؤية عندهم. أما نحن فليس مفروضاً علينا. قول معيَّن. لأنهم مجتهدون لا مشرعون، لذلك نستطيع ـ دون تجاوز أو طعن ـ أن نقول: إن القرآن لم يخصص المسيح بموقع فوق موقع النبوة، ولم يُعْفه من أن يكون عبداً لله أو في منجى من مثوله أمام الدّيان يوم الدين. كما إن صلته بالخالق، أو بتعبير أدق، «صلة الخالق به» [2] لم ترفعه عن مستوى الرسالة والمأمورية لتحط به على العرش مع الله أو بدونه. لأن هذه الصلة هي التميُّز الذي جعل من أحدٍ من الناس نبيا ينطق بالآيات البينات ويأتي بالمعجزات.

والمسيح في القرآن هو «المسيح عيسى ابن مريم» أي يشار إليه بالثلاثة: المسيح وعيسى وابن مريم.

وقد اتفقوا جميعاً على أن الإسم هو عيسى. وان المسيح هو صفة لما كان ظاهراً فيه وما ظهر منه[3]. وابن مريم هو نسبة للدلالة على أنه كان (عليه السلام) مُحْدَثاً بالكلمة دون واسطة الأب.

ب ـ إنه كلمة الله:

وهو تعبير قرآني يستحسن معه الطواف على مراجع اللغة والتفسير لاستخراج المعنى الحقيقي له.

ففي اللغة:

ـ الكلام هو ما كان مكتفيا بنفسه مثل الجملة التامة. والكلمة هي جزءٌ منه غير

---

(١) الآيات بالتسلسل ١٧٢/٤ و ٧٥/٥ و ٤٥/٣.

(٢) إن الله هو الذي يتصل بأنبيائه إما مباشرة «كموسى» وإما بواسطة الوحي والأنبياء ينتظرون الوحي دون أن تكون لهم يد في تقديم أو تأخير أو توقيت مجيئه.

(٣) إما لأنه كان يمسح الأرض في التجوال، أو لأنه كان ممسوحاً من الذنوب، أو لأنه كان يمسح بيده على من به العاهة فيبرؤه. وإما لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وإما لأنه ممسوح بجناح جبريل.

مكتفٍ بنفسه. ولقد سمي القرآن «كلام الله» و«كلمات الله» و«كَلِمُهُ» وكلامُه لا يحدُّ ولا يعد وهو ـ بالمذاهب الإسلامية السائدة ـ أزلي غير مخلوق.

ـ والكلمة قد تتجاوز التعريف الحرفي لتعني «مقالاً» أو «قصيدة» وفي قوله تعالى: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ (٤٣/٢٨: الزخرف). أي: «كلمة التوحيد» جعلها الله في عقب إبراهيم وذريته.

وفي الحديث الشريف عن النساء «استحللتم فروجهن بكلمة الله» إشارة إلى الآية: فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» (لسان العرب).

ـ وفي التهذيب في ترجمة «مسيح» في قوله تعالى: «بكلمة منه اسمه المسيح» قال أبو منصور: سمَّى الله ابتداء أمْرِهِ كلمةً، لأنه ألقى إليها الكلمة، ثم كوّن الكلمة بشراً، ومعنى الكلمة هو معنى «الولد» أي: «إن الله يبشرك بولد اسمه المسيح». وقال الجوهري: وعيسى (عليه السلام) «كلمة الله» لأنه لما انتُفِعَ به في الدين كما انتَفِعَ بكلام الله سمي باسم الكلام كما يقال: سيف الله، وأسدُ الله.

وفي القرآن:

١ ـ ﴿إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾(٣/ ٤٥: آل عمران).

٢ ـ ﴿إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً لكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين﴾ (٣/ ٣٩: آل عمران).

٣ ـ ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾ (١٩/ ٧: مريم).

٤ ـ ﴿وتمّت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنّة والناس أجمعين﴾ (١١/ ١١٩: هود).

٥ ـ ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولوجئنا بمثله مددا﴾ (١٨/ ١٠٩: الكهف).

٦ ـ ﴿ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾ (١٠/ ٨٢: يونس).

ففي هذه الآيات وردت «الكلمة» وكل منها تعبر عن معنى:

- ففي الآية(١) جاءت الكلمة وسيلة البشارة بالمسيح، وبذلك كان القصد هو التبشير، وكانت الكلمة واسطة الإيصال أي الإخبار بموضوع التبشير الذي هو «المسيح عيسى ابن مريم».

- وفي الآيتين اللتين فيهما التبشير بيحيىٰ. والفرق أن يحيىٰ جاء بوساطة الأب. أما المسيح فقد جيء به بقول الله «كن فيكون» ومثلُهُ في التكوُّن دون والد كمثل آدم. خلقه الله من تراب (أي صورةً من الطين على هيئةٍ ثم نفخ فيه وقال له «كن فكان».

- وفي الآية (٤) عبرت الكلمة عن قضاء الله.

- وفي الآية (٥) عبرت عن كلمات الله التي لايحصيها عد.

- وفي الآية (٦) كلمات الله هي عنوان الحق ووسيلة إظهاره.

- وثمة الآية ٤٢/ ٢٤ ﴿**ويمح الله الباطل ويحق الحق، بكلماته**﴾ (الشورى). فسروا: أن كلمات الله تحق الحق أما محو الباطل فلا يحتاج إلى كلمات مخصوصة. لأن إحقاق الحق يؤدي إلى محو الباطل أولاً وإظهار الحق ثانيا.

وهكذا من تنوُّع معاني «كلمة الله» في القرآن وفي اللغة يمكن القول: إن الكلمة ليست الفكرة بذاتها بل المعبرة عن الفكرة. وإن عملية الانتقال من الوجود الذهني إلى الوجود المادي هو «التجسد» أو «المرحلة الثالثة».

وفي الآية ٣/ ٤٥: آل عمران: كانت الولادة من مريم هي المرحلة الثالثة من تكون المسيح (ع).

ج - إنه روح منه تعالى:

تتبَّع المؤلف هذا التعبير في القرآن فرأى أن يقسمه إلى موضوعين:

أولهما: الواقع القرآني في تعابير الروح.

والثاني: تفاسيرهم لقوله «وروح منه».

ففي واقع القرآن:

وجد أن تعابير الروح تنوعت وتعددت في المعاني والدلالات السبع الآتية:

١ ـ تعبير بأسلوب هو: ما بين المجاز والحقيقة ٥٨/ ٢٢: المجادلة و ١٢/ ٨٧: يوسف.

٢ ـ كناية عن روح الإنسان ٣٢/ ٩: السجدة و ١٥/ ٢٨ ـ ٢٩: الحجر.

٣ ـ ملاك الوحي الذي نزل على النبي العربي في غار حراء ١٦/ ١٠٢: النحل و ٤٢/ ٥٢: الشورى. وهو غير قوله في عيسى: ﴿**وأيدناه بروح القدس**﴾ (٢/ ٨٧ ـ ٢٥٣). كما إن تفسير المسلمين يتعارض مع الآية السابقة لها(٥١).

٤ ـ هو ا لملاك الذي بشر مريم بالمسيح ١٩/ ١٦: مريم و٢١/ ٩١: الأنبياء. و٦٦/١٢: التحريم.

٥ ـ العلمية في صلةٍ مع الوحي ٤٠/ ١٥: غافر و١٦/ ٢: النحل.

٦ ـ العلمية في صلةٍ مع الملائكة ١٦/ ٢: النحل و٩٧/ ٤: القدر و٧٠/ ٤: المعارج. و٧٨/٣٨: النبأ.

٧ ـ الروح كذات المسيح وقد جاءت في ثلاثة تعابير:

ـ التعريف القاطع ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١: النساء.

ـ التأييد بروح القدس ٢/ ٨٧ ـ ٢٥٣: البقرة. و٥/ ١١٣: المائدة.

ـ النفخ «ونفخنا فيها من روحنا» فَالنافخ هو ملاك البشارة والمنفوخ هو المسيح.

وفي تفاسيرهم «لروح منه» و«كلمة الله»:

استعرض المؤلف فقرات من تفاسير المفسرين «الجلالين». و«البيضاوي» و«الرازي» وقال عن الرازي: «إنه جَمَع تفاسير المفسرين» التي اتفقت على أن تعبير «روح منه» يؤدي إلى إتصاف المسيح بالمعاني الفريدة الآتية:

ـ تعبير عنه أنه غاية في الطهارة.

ـ وأنه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم.

ـ وأنه كان رحمة من الله على الخلق.

ـ وأنه روح من الأرواح العالية الشريفة.

ذلك احتل في كتاب المؤلف من ص ١٨٧ ـ ١٩٧. وبعد دراستنا لها والعودة بمضَامينها إلى الحرف القرآني أمكن أن نضع الإشارات التالية:

أولاً: قال المؤلف: لقد فسَّر الجلالين «وأيدهم بروح منه ـ ٥٨/٢٢: المجادلة» بقوله: إن الروح هنا تعني النور كما جاء في المرجع ذاته في تفسير: **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾** (١٢/٨٧: يوسف). فالروح هنا: تعني الرحمة (ص ـ ١٨٩).

لقد عدنا إلى الجلالين فوجدناه خالياً تماماً ممَّا ذكره المؤلف عن آية «المجادلة» فاستعنَّا بتفسير الرازي فوجدنا فيه: «أي نصرهم على عدوِّهم وسمى تلك النصرة روحاً لأن بها يحيا أمرهم». ولا يختلف لفظ «الرُّوح» عن «الرَّوْح» فكلاهما تعبير عن رحمة الله وفضله وفَرَجِهِ.

ثانياً: قال المؤلف: إن هذا التعبير دل على روح الإنسان بالكناية في الآية ٣٢/٩: السجدة والآية ١٥/٢٩: الحجر. **﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** (ص ـ ١٩٠).

وقد عدنا إلى الرازي فوجدنا: «نفخ فيه من روحه أي الروح التي هي ملكه كما يقول القائل داري وعبدي».

ويضيف: «إن النصارى يفترون إذ يقولون إن عيسى كان روح الله فهو ابنه ولا يعلمون أن كل واحد روحه روح الله، فالله أعطى الإنسان من روحه وليس من جسمه. على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى: **﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾**[(١)].

---

(١) سوف نعود إلى معاني الروح عند دراستنا للبحث الثاني من الفصل التاسع.

ثالثاً: إن «روح القدس» في الآية ١٦/١٠٢: النحل و «الروح الأمين» في الآية ٢٦/١٩٣: الشعراء. و«روحاً من أمرنا» في الآية ٤٢/٥٢: الشورى.

تشير إلى معنى واحد هو جبريل (ع) ومع ذلك فثمة تعارض و تناقض مع معنى الروح في الآية ٤٢/٥١: الشورى (المؤلف ص ١٩٠).

ولو تتبّع المؤلف هذه الآيات في المراجع التفسيرية لاتضح له الآتي:

ـ إن معنى الروح في الآية ٤٢/٥٢ ليس جبريل(عليه السلام) بل «القرآن» بدليل أن جبريل هو الذي قام بعملية الإيحاء وموضوع الايحاء كان القرآن الذي جعله الله نوراً يهدي به من يشاء من عباده.

ـ لا يوجد تناقض بين الآيتين ٥١ و ٥٢ من سورة الشورى:

فالآية ٥١ **﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾**.

والآية ٥٢ ـ **﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾**.

فخطاب الله للبشر لا يتم إلا بالوحي.

والحالات الثلاث الواردة في الآية (٥١) كلها وحي. حيث تتم الحالة الأولى بالقذف المباشر في القلب فيمتلىء بالإلهام الإلّهي، وقد سمي في الآية «وحيا» أي مباشراً.

ويتم في الثانية بأن يسمعه الشخص بأذنيه دون وساطة مثلما حصل مع موسى (ع) في قوله تعالى: **﴿إني أنا ربك فاستمع لما يوحى﴾**.

أما في الثالثة فإن الوحي يصل بوساطة شخص آخر. «أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء».

تلك هي حالات الوحي: والوحي الذي ورد في الآية (٥٢) هو أحدها لأن «الشخص الآخر ـ جبريل» الذي نزل بالوحي فألقى منه ما أذن به الله فكان القرآن.

الذي أطلق عليه اسم «روح» كناية عن أنه يمنح الحياة من موت الكفر. وهذه التسمية هي في باب «تعريف الشيء بصفته» كأن نقول: «جاء الفياض» وأنت تعني رجلاً بالغ الكرم.

رابعاً: **﴿ونفخنا فيه من روحنا﴾** و**﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾** (٣٨/ ٧٢: ص).

وفي هذا توضيح قرآني: لعملية الخلق التي لا تتم إلا بأمرين، التسوية، ثم نفخ الروح.

فالتسوية عملية مادية تستهدف صنع الجسد، الذي يتولد من الأخلاط المادية، التي يراعى كل منها بمقدار كما تراعى المدة التي يتحول فيها هذا المزيج إلى وضع مادي يقبل النفس الناطقة.

وأما النفس فإليها أشارت الآية «ونفخت فيه من روحي».

أما كيفية النفخ كما جاء في الرازي. فالأقرب إلى التصور هو أن جوهر النفس عبارة عن أجسام شفافة نورانية، علوية العنصر، قدسية الجوهر تسري سريان الضوء في الهواء، والنار في الفحم.

ومع هذا كله، فإن كيفية النفخ» من الأمور التي لم يؤكد عِلْمَها أحدٌ.

هذا ولا بد من الإشارة إلى فساد قول القائل بأن «من» في الآية تفيد أن النفخ، هو في مجمله إطلاق جزء من روح الله في الهيكل الذي تمت تسويته، لأن ذلك القول يؤدي إلى التبعيض والتجزئة، وهذا لا يجوز افتراضه في ذات الله لأن التجزيء هو للمركبات والمحدثات وليس للذات الإلهية البسيطة المنزهة عن التركيب.

خامساً: «والآيات التي ورد فيها مفهوم **﴿ونفخنا فيها من روحنا﴾** (الأنبياء: ٩١).

لا يتعارض مع ما ورد في الآية ٦٦/ ١٢ ـ التحريم، لأن الإشارة في هذه الآية أفادت بأن معنى النفخ هو خلق الحياة، فالروح كناية عن الحياة. **﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾**(١٢). ولأن الإشارة بكلمة «روحنا» في

الآية ١٧ ـ من سورة مريم هي لجبريل الذي يسمى روحاً لأنه خلق من الروح. وقيل لأنه رسول إلى الأنبياء، فيه تحيا الأديان. ﴿**فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا**﴾(١٩ ـ ١٧).

ولا يختلف المعنى من حيث الأصل في الآية ٩١ من الأنبياء، فالنافخ هو جبريل لأنه الروح فقامت الحياة في رحم مريم من ذلك النفخ فكان عيسى (ع) والضمير في «فيه» يعود إلى عيسى وذلك كقول الزَّمَّار نفخت في بيت فلان وهو يريد ـ طبعاً ـ أنه نفخ في المزمار في بيته. حيث كان مع الحاضرين في البيت.[1]

سادساً: وتساءل المؤلف بقوله: من هو الروح؟ في الآيات ٢ ـ النحل و ٤ ـ القدر و ٤ ـ المعارج و ٣٨ ـ النبأ؟ ﴿**تنزَّل الملائكة والروح**﴾ (٤/٩٧: القدر) ﴿**تعرج الملائكة والروح**﴾ (٤/ ٧٠: المعارج).

وما كان له أن يتساءل مادام أنه الزم نفسه بالتفسير. ولوعاد إليه لوجد أكثر المفسرين متفقين على أن جبريل هو المقصود. فقد ذكر مُفْرَداً عن الملائكة للدلالة على تعظيم قدره، كما لو كان سيدهم.

سابعاً: ولسنا نرى اختلافاً وتناقضاً بين الآيات السابقة وبين الآية ٤٠/ ١٥: غافر، ولا نقر قول المؤلف بوجود هذا الاختلاف لأن الموصوف:

«بأنه رفيع الدرجات، وذو العرش، ويلقي الروح من أمره». هو الله جل جلاله.

وهذه الآية ١٥ من سورة غافر هي تتمة للآيتين ١٣ و ١٤ منها:

﴿**هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون(١٤) رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق(١٥)**﴾[2].

---

(١) ينبغي التذكير دوما أننا والمؤلف نفسر ونحلل آيات القرآن من وجهة النظر الإسلامية فقط دون نقد أو موازنة مع وجهات نظر أخرى.

(٢) رفيع الدرجات: هو الله.

ثامناً: أما الإشارة الأخيرة فهي حول تفسير المؤلف للمفاهيم «روح القدس» و«روح منه» و«نفخنا فيه من روحنا» الواردة في آيات القرآن. وقد أرجأنا مناقشتنا لها ـ كما سبق ـ إلى البحث الثاني من الفصل التاسع. وهو البحث الذي خصصه المؤلف لهذه المفاهيم وذلك تفادياً للتكرار والإطالة.

* * *

الفصل التاسع

هل من تثليث في القرآن

توطئة: الواقع القرآني ما بين الظاهر والباطن.

بحث أول: «الثلاثة» بحسب القرآن ليست من المسيحية في شيء.

بحث ثان: الله والكلمة والروح بحسب القرآن.

خاتمة: في القرآن تثليث باطن غير الثلاثة.

توطئة

الواقع القرآني ما بين الظاهر والباطن

في التوطئة استحضارٌ مختصر لما سوف يأتي من أفكار.

ـ ففي ظاهر الآيات ٤/ ١٧١ ـ النساء و ٥/ ٧٦ ـ ١١٩ ـ المائدة. ما يدل على وجود التثليث وعلى صراحة تكفيرالاعتقاد به.

ـ غير أن تفاسير المفسرين تحمل في طياتها «تثليثا لا شك فيه» فالكلمة والروح كائنان قريبان من الله (المطلق) وبعيدان عن المخلوق (المحدود).

ـ فالتثليث في ظاهر القرآن ليس من المسيحية في شيء. ولكنه في باطن الآيات ومن معاني «الله والكلمة والروح» حقيقة ثابتة لا شك فيها. (ص ـ ٢٠٠).

تلك هي أقوال المؤلف:

لم تفاجئنا غرابة المنطق فيها ولا التناقض الذي بينت عليه، لأننا ألفنا أسلوبه في التفسير والتحليل طوال مسيرتنا معه.

والآن؟!. كيف سيتقدم إلينا بالباطن القرآني، الذي يدحض الظاهر وينقضه؟.

وكيف تسنى لهذا المؤلف أن يصل إلى قاع الحرف القرآني ويفهم منه ليس أكثر مما فهمه سواه بل غير ما فهمه سواه من بين جميع القراء والعلماء والمفسرين؟ وهل اعتمدت أحكامه ياترى على مراجع؟ أم إنها المواهب ذاتها التي تفتق عنها ذلك الرأس البديع مثلما تتفتق الصخور عن الينابيع؟.

أسئلة: سوف نجد أجوبتها في البحثين الأول والثاني من هذا الفصل.

بحث أول

«الثلاثة» بحسب القرآن ليست من المسيحية في شيء

١ ـ مقدمة:

القول بالثلاثة يقابله التكفير في سورتي النساء والمائدة. وهو تكفير ذو موجباتٍ ثلاثة:

فالأول: تكفير من يقول: «ثلاثة» (١٧٠ ـ ١٧١ ـ من سورة النساء).

والثاني: تكفير من يقول: «إن الله ثالث ثلاثة» (١٩ ـ ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٨٠ ـ المائدة).

والثالث: تكفير من اتخذ المسيح وأمه إلهين من دون الله (١١٩ ـ المائدة).

وهذه التكفيرات يقول المؤلف: لا تطال المسيحية، لأن التثليث المسيحي تفسير منزل لحياة «الحي القيوم» في «وحدانيته الصمدانية» فلا تعدد في الجوهر الإلّهي الفرد ولا اتخاذ ولدٍ من خلقه. إنما التثليث المسيحي هو «تثليث صفات الله الكيانية الوجودية» وهي «النطق الذاتي و الروح الذاتي» فهي في ذات الله صفات ذاتية لا هي عين الذات ولا هي غيرها.

فالقول بالثلاثة ليس تعددا في الله الواحد. بمقتضى معنى التثليث المسيحي (ص ٢٠١ حتى ٢٠٤).

تلك الأقوال: من شأنها ـ لو كانت صحيحة ـ أن تضع الإسلام في مأزق لا مناص منه ولاخلاص.

ففي منطق المؤلف، يبدو القرآن عاجزاً عن فهم «المقالة المسيحية» فهو

بالرغم من أنَّ تلقاها واضحة المقاصد صحيحة المصادر، فهمها خطأً وأفهمها خطأً.

كذلك يبدو من خلال منطق المؤلف ـ أن مصداقية القرآن مع نفسه ومع أتباعه وغير أتباعه هي موضع شك، لأنه وضع بين الناس أحكاماً متناقضة متهافتة. أحدها دلت عليه الألفاظ بوضوح لا يشوبه لبس وهو ينتهي بالكثيرين إلى الكفر. والثاني مخبوء وراء ظواهر الكلمات ويجعل من كفَّار الظاهر أئمة المتقين.

وفي هذا كله ـ ما فيه ـ من طعنٍ على عصمة القرآن ومصداقيته.

ترى كيف قرأ القرآن؟ وكيف فهم ما قرأ؟.

هذا ما سوف نراه في الفقرات التالية:

* * *

٢ ـ التكفير الأول:

قال المؤلف: إن تكفير القرآن للمقالة بالثلاثة أتى بعد التعريف الوافي بالمسيح في الآيتين ١٧١ ـ ١٧٢ من سورة النساء. «بأنه ابن مريم» وأنه **﴿كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد﴾**. **﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾**[١]. وذلك لأن القول بالثلاثة يتعارض مع وحدانية الله «الواحد» و «المنتزه عن اتخاذ الولد» و «الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما» و «عبادته واجبة على الجميع **﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا﴾**. (١٩/٩٣: مريم).

ولذلك كان من شأن هذا التعارض أن يؤدي إلى الكفر.

غير أن المقالة «بالثلاثة» تطال غير المسيحية، كما يقول المؤلف، والمسيحية بريئة من التعدد لأنها لا تقول بالتعدد في الجوهر الإلَهي الفرد. ولا تقول بأن الله

---

(١) ورد الملائكة المقربون في الآية لانتشار عبادة الملائكة عند بعض الفئات فقرن بين وجوب عبادة الله على الملائكة مثلما هو واجب على المسيح وفي ذلك رد على عبادة الفئتين.

اتخذ له ولداً من خلقه. بل التعدد لديها هو في «صفات الله الكيانية الوجودية الثلاثة» ص ٢٠١ ـ .

ويبدو أن المؤلف يرفض دستور الإيمان النيقاوي، ودستور القسطنطينية اللذين أقرّا الثلاثية الإلهية بأسلوب تعددي لا بأسلوب صفاتي، وألزما بها مسيحيي الأمم.

ـ فالمسيح مولود من جوهر الأب غير المخلوق لأن «مخلوقيته» تقود إلى تصور زمن لم يكن فيه، وزمن لن يكون فيه. وهذا لا يصح في المسيح الأزلي والأبدي مع الله.

ـ إن روح القدس هو روح الله، وليست روحه إلا حياته، وهو غير مخلوق.

ـ الآب والإبن والروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجوه وثلاث خواص. وحديّة في تثليث وتثليث في وحدية.

وقد كنا تحدثنا عن هذين المجمعيْن في فصل محطة الاستراحة ـ فقرة ٧ ـ وأشرنا في الهامش إلى ما قاله الدكتور بوست في تاريخ الكتاب المقدس: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الآب والله الإبن والله الروح القدس».

كيف يستطيع العقل أن يدرك مغازي عبارة المؤلف: «صفات ذاتية لا هي عين الذات ولا هي غيرها؟ وكيف يمكن إيجاد الإنسجام بينها وبين مقررات نيقيا والقسطنطينية؟ وكيف يزول التناقض بين هذا «الإثبات والنفي» عند المؤلف. وبين قول الدكتور بوست: إن الله هو الآب. والله هو الإبن والله هو الروح القدس؟. وإن كان هذا التعدد هو في صفات الله الكيانية الوجودية (ص ٢٠١ ـ المؤلف).

فهذا يعني أن الكيان الوجودي لله. يتكون من الثلاثة معاً. في حالة من التلازم الواجب بحيث لا تستغني إحدى الصفات عن البقية؟ كما لا نستطيع الاستقلال وإلا انفرط الكيان الصفاتي الوجودي ولكن:

الروح القدس يتمتع بحرية التجول بين المسيح والتلامذة والرسل فينتقل مستقلا دون قيد زماني أو مكاني كما حدثتنا الأناجيل وأعمال الرسل.

إذا كانت هذه «الأحجية» عقيدة فكم من البشر يستطيعون إدراكها وفهم مضامينها؟.

ليت المؤلف حاول بعض الشيء تفكيك هذه الطلاسم بدلاً من عرضها بهذا الأسلوب الذي إن دلّ على شيء فهو إن صاحبه غير محيطٍ بأبعاده.

ليته تحدث قليلاً عن ذات الله. في الزمن الذي كان الروح القدس مستقراً في التلاميذ والمبعوثين؟ هل كان بصفتين (الآب والابن؟ فقط).

وحينما كان المسيح ومعه الروح القدس؟ هل كانت ذات الله مجردة عن صفتيها الكيانيتين الوجوديتين؟.

٣ ـ التكفير الثاني والثالث:

أشار المؤلف إلى الآيات: ٧٢ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٦ ـ من سورة المائدة، وقال معقّباً:

«إن القرآن كفَّر الذين قالوا إن الله هو المسيح والذين قالوا إن الله هو ثالث ثلاثة. ولكن هذا التكفير مقصور على من يعتقد «بألوهية المسيح الإنسان» و«ببنوة المسيح الإنسان» و«بصفته الأقنوم الثاني وهو في طبيعته الناسوتية» (ص ـ ٢٠٢).

لأن هذه المقالات هي مقالات البدعة اليعقوبية التي رفضتها الكنيسة وكفَّرتها وطردتها ثم جاء القرآن متَتَبِّعاً بآياته خطى الكنيسة في هذا التكفير. وبذلك يقول المؤلف ـ نستطيع إدراك الإتفاق العقائدي بين الكنيسة المسيحية والقرآن. (ص٢٠٢ ـ ٢٠٣).

ولكننا لن نستعيد من جديد أقوالنا وأقوال المؤلف «بهذا الموضوع» فهي مفصلة في البحث الثالث من الفصل السادس من الكتاب تحت عنوان (ثانياً ـ التعليق الأول). وقد تمَّ فيها استعراض التكفيرات القرآنية لعقيدة التثليث.

كما إننا كنا في بحث سابق أوضحنا خطأ المؤلف إذ نَفَى أن يكون قد ظهر في تاريخ المسيحية من قال بألوهية مريم، وطلبنا منه العودة إلى محضر مجمع نيقيا الذي حضره ٢٠٤٨ ـ أسقفا وكان من بين الطوائف الممثلة فيه. عدد من الأسافقة

المريميين أو البربرانيين الذين طرحوا في المؤتمر عقيدتهم في تأليه السيدة العذراء للنقاش.

بحث ثان

الله، وكلمته، وروحه، بحسب القرآن

١ ـ قال المؤلف:

«فلنتوقَّف عند معطيات التثليث في القرآن لنتبيَّن فيما إذا كانت تتضمن الإشارة إلى تثليث في الله تعالى ص ٢٠٥».

أما المعطيات القرآنية فقد حددها المؤلف في فقرات سبع.

ـ الأولى والثانية والثالثة والرابعة، تدور حول استبعاد أن يكون الله قد اتخذ ولداً. ووجه الاستبعاد مبني على استحالتين: «استحالة الاستيلاد» و«استحالة الاتخاذ» ولا يعلق المؤلف على الآيات القرآنية بما يستحق التوقف عنده.

ـ الخامسة فيها عَوْدٌ إلى الاتخاذ من جديد، ولكن بحكم آخر. فهو بعدما أشار إلى آيات استحالة الاتخاذ (١٠١ ـ الأنعام و٣ ـ الجن و٢ ـ الفرقان). عاد ليكتشف وجود هذه الإمكانية في الآية ٤ ـ من الزمر.

والخطأ الذي وقع المؤلف فيه كان مزدوجاً:

أولهما خطأ في قواعد الإعراب اللغوي. قاد إلى خطأ في فهم الآية.

فالآية: **﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾**(٤: الزمر).

والأداة الشرطية «لو» هي حرف امتناع لامتناع أي انتفاء الاصطفاء لا نتفاء إرادة الله له. وفي هذا: جواب شديد على من يقول بأن الله اتخذ ولدا.

فهو لو أراد ذلك، لاصطفاه اصطفاءً من بين خلقه أي واحداً من مخلوقاته إذ تمتنع المساواة بينهما فلا يعقل أن تقوم مساواة بين الخالق ومخلوقاته. وهنا رفضٌ «للمساواة في الجوهر بين الآب والإبن» التي يقول بها دستور الإيمان النيقاوي ودستور القسطنطينية.

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا. أن دَعوْا للرحمٰن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إنْ كلُّ من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدّا وكلهم آتيه يوم القيامة فرْدا﴾(مريم: ٨٨ ـ ٨٩ ـ ٩٠ ـ ٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥).

فهل بعد هذا النفي والتأكيد على فظاعة الادعاء بالبنوّة لله؟ من مجال إلى القول بأن القرآن لم يستبعد اتخاذ الولد؟.

وهل بعد هذا التأكيد يقبل القول من المؤلف أو سواه بأن المسيح (ع) غير مخلوق؟ وأنه ابن الله الذي أُعفي من المثول مع عباد الله جميعاً أمام الرحّمن يوم الدين؟.

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا أتي الرحّمن عبدا لقد احصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا. . .﴾.

فالكل بدون استثناء خاضعون لهذا القدر الإلّهي، والمسيح لا يمكن أن يكون إلا من الذين هم في السماوات أو في الأرض. فهو بالتالي ممن وقع عليهم الإحصاء والعد. وشمله حكم المثول بين يدي الله.

ـ أما الفقرة السادسة فهي مأخوذة من الآيات ٨١ حتى ٨٥ ـ من الزخرف.

﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين سبحان ربِ السماوات والأرض رب العرش عمّا يصفون وهو الذي في السماء إلّه وفي الأرض إلّه وهو الحكيم العليم وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجعون﴾.

لقد فهم المؤلف من هذه الآيات أغرب الفهم وأبعده عن الفهم، فقال: كل استنكار القرآن ينصب على استحالة الولد لله من خلقه. أما في سرِّ ذاته فوق المخلوق وقبل الخلق وبدون أي صلة بين الخالق والمخلوق، فالقرآن لا يستنكر أبوة الله في ذاته من ذاته لذاته تليق بذاته في وحدانيته الصمدانية ص ٢٠٧ ـ».

الأحاجي يعضُّ بعضُها أعقاب بعض.

فما عليك أيها القارىء وأنت تستعيد عبارات المؤلف إلا أن تمسك رأسك بيديك وتغمض عينيك وتشطب من ذاكرتك أن السيدة مريم العذراء حبلت مثلما تحبل النساء وقضت مثلهن تحت ظروف الحبل الطبيعية تسعة أشهر لتلد مثلما تلد غيرها، ولتنجب ذلك المولود الذي سماه الله عيسى.

يجب عليك أن تشطب هذه الوقائع من رأسك ومن الأناجيل وجميع الكتب وذلك كمرحلة أولى ثم لتدخل بعد ذلك إلى المرحلة الثانية لتأكلك الدهشة والقصور الذهني عن إدراك هذا الذي لا يدرك.

قد يقول المؤلف: لماذا لا تفهمون ما يقال؟.

وإذ ذاك سوف نجيبه: ومن يستطيع أن يضع حلاً لهذا المجهول الرياضي؟[1] «أبوة الله في ذاته من ذاته لذاته تليق بذاته» فكيف تتكون ذات الله من ذاتها؟ وكيف تكون أبوة الذات لذاتها؟ وهل توجد لله ذاتان إحداهما مكوِّنة والثانية مكوَّنة؟ واذا اجتزنا هذا الأخدود تواجهنا «كيْفان».

الأولى: كيف تخترع الذات من ذاتها ذاتاً لذاتها؟.

الثاني: وكيف يتسنى أن يكون هذا «المُختَرَعُ» بمستوى ذات الله؟ أي كيف يمكن افتراض الذات اللائقة المتعددة لله؟.

اللهم: أعنَّا وأعن قراء الحداد على الصبر الجميل.

ـ وفي الفقرة السابعة: يقفز المؤلف ليجد ضالته في الآيات من / ١ ـ ٤ من سورة البلد.

﴿لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾.

فقال: أليس معنى: «ووالد وما ولد: أن الحرف القرآني انتقل من حَيِّزِ التقدير في آية الزخرف إلى حيِّز الواقع في آية البلد؟.

---

(١) قال سائل لأبي تمّام لماذا لا تقول ما يُفهم فأجابه: وأنت لماذا لا تفهم ما يقال.

لقد وجدها. ورحم الله أرخميدس.

ففي هذه الآية ـ كما يقول ـ صراحة قاطعة في أبوة الله لابنه عيسى المولود غير المخلوق.

ومن المؤسف والغريب أن يجد مؤلف لديه من الشجاعة الأدبية ما يسمح له بوضع أحكام ونظريات لها خطرها الكبير بالاستناد إلى عبارة عابرة أو كلمة طائرة!!؟ فيقرأها مع الخطأ المقصود ويفسِّرها مع الخطأ المقصود؟!.

ولكن؟!. ما لنا ولهذا الأسى الذي لم يُجْدِ مع هذا المؤلف منذ أول سطر في كتابه؟.

ولنعد إلى آيات سورة البلد، لنجد أن التفسير الذي عليه جميع المفسرين لها هو:

ـ أن البلد «مكة» لما لها من الفضل. فهي أم القرى وفيها مقام إبراهيم ومصلاَّه، الذي جعله الله مثابةً للناس وامنا.

ـ وأنت حلٌّ بهذا البلد. هو الجزء الثاني من القَسَم، جاء في صيغة الخطاب للنبي الذي حلَّ في مكة فازدادت به فضلاً ورفعة.

ـ ووالد وما ولد، هو الجزء الثالث والأخير من القَسَم. فقد يكون المقصود به إبراهيم الخليل وما ولد من ذرية منها النبي محمد (ص) وقد يكون المقصود آدم وذريته من البشر الذين هم أغرب خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والنطق والتدبير واستخراج العلوم.

٢ ـ المسيح ـ «كلمة الله، وروحه»:

لقد بحثنا هذين المفومين بالتفصيل، في «البحث الثاني من الفصل الثامن، تحت عنوان «ميزات المسيح العامة» ـ الثلاثية الدائمة في أسماء المسيح وأوصافه وخصائص رسالته وصفاته البشرية وميزات راسلته ومواقفه في سيرته والحالات الثلاث في شخصيته.

وهي «ثلاثية» ابتدعها خيال المؤلف ليلتقي بها مع «مبدأ التثليث» الذي ناقشناه في حينه.

بقي أن نقول بالصدق المطلق أننا لم ننطلق في ما تقدم من منطلقٍ خصامي، ولم يكن وارداً في اهتماماتنا أن نتصدى بالرد والنقد لهذا المؤلف لو أنه عبر عن وجهة نظر خاصة به. ولكنه جاء بمقولاته مسندة إلى القرآن.

وطفق يتهم قراءه وأتباعه بأنهم منذ أربعة عشر قرناً. كانوا ضحيَّة تزوير «فيه» وشهادة زورٍ في «جمعه وتدوينه» وأن الحقيقة الدينية سوف تبقى فريسة الجدال المرير إلى أن يعرف أهل القرآن أن طريق الخلاص الوحيد، هو النصرانية التي دعا إليها نبيهم العظيم.

فكان لا بد لنا من أن نقول كلمتنا وما كانت غايتنا الدفاع عن الإسلام بمقدار ما كانت للنقد العلمي والاستقصاء عن مدى ما تحمله نظريات المؤلف من صواب وخطأ.

تقاريظ

البحاثة الأديب المحامي أحمد عمران.

سلام من الله عليك ورحمته ورضوانه.

قرأت بإمعان دقيق،« كتاب القرآن والمسيحية في الميزان» الذي استعرضت فيه النقد والتحليل، كتاب «القرآن والمسيحية» وأعجبت به أيما إعجاب. فقد كنت بحق طيلة صفحاته التي جاوزت الخمسماية، فارساً من أبرز فرسان الحقيقة. تتبعت «الأستاذ الحداد» كما قلت. فصلاً فصلاً، وفاصلة فاصلة، وأزحت هلاهيل الألفاظ التي اختبأت من ورائها نواياه، واسقطت عنه حتى ورقة التين، التي كانت تستر خبيئته. وأبرزت وجه الحق في آيات الكتاب بعيداً عن التحزب السلفي والفكر المعتقل. وطفت مع قراء «الحداد» على مراجعه. شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وبينت كم حاول هذا«الحداد» أن يلوي أعناق الآيات، وأن يحوّر في أحاديث النبي وروايات الرواة. وإن يزيّف وقائع التاريخ وثوابته لكي يخيط من هذا التراكم الحقود، ثوباً جديداً للفكر والقيم الإسلامية.

فجزاك الله خيراً عن الحق والحقيقة.

ولن أتكتم على ما لمسته، من إعجاب الكثيرين، واندهاشهم بكتاب «القرآن والمسيحية» حين قرأه منفرداً قراءة مباشرة، ودون عود به إلى المراجع ونصوص الآيات، فالقليل منهم من كرس من الوقت ما كرسته، وبذل من الجهد ما بذلت، وقدم من البحث والتحليل ما قدمت، لذلك وقعوا فريسة التضليل والإستغفال الذي صيغت به مقالات الكتاب جميعها. كما لن أخفي غبطة الذين قرؤك في «الحقيقة الصعبة في الميزان» وأنت تجلو عن عيونهم غشاوة «أبي موسى» وترد عليه اطروحاته ما بين قتيل وجريح هارب من العدالة. لقد كان الميزان الذي جاء عنواناً مؤشراً

لكتابك والكتابين اللذين اصدرتهما من بعده معبراً عن واقعين بارزين.

أولهما: دلّ على مهنة المحاماة التي مارستها اربعين عاماً بلا انقطاع تبحث عن الحق، مهما صعبت مسالك الوصول إليه، تدافع عن المظلوم مهما ضاقت في وجهه السبل. ونحن الذين عرفناك عن قرب، عرفنا فيك شرف هذه المهنة وموقعها السامي في حياة المجتمع وأفراده.

ثانياً: دل على أن كتابك يقدم نفسه إلى كل قارىء محاكمة حقيقية كاملة« للحداد وأبي موسى»و مؤيدي أفكارهماو مروجي أثارهما. وهي محاكمة ـ داعت ـ إلى أبعد الحدود ومبادىء الحياة واعتمدت العلم والفكر الحر دليلاً لا تحيد عنه. فقد حافظت على أقوال «الحداد والحريري» بالحرف ودلّت على مكانها من كتابيهما بالصفحة والسطر، وانبرت إليها تحليلاً بالكلمة والعبارة والنتيجة. ثم تركت الحكم إلى القاضي العادل الذي هو القارىء الواعي المنصف على الدوام.

وثمة ثناء ـ أرجو ألا يخجلك ثنائي ـ ينبغي أن يعلن. وهو أنك لم تسع لكي تنال بهذة المهمة والجهود القيمة أي مال أو نوال. فما رجوته وما ترجوه هو أن يضع الله ذلك في ميزان الحساب. فكان أقصى اهتمامك هو انتشار الفكر الصحيح، واندحار الفكر الفاسد، لذلك قمت بإهداء نسخ الكتاب إلى كل راغب في القراءة، متتبع للحقيقة.

أيها المجاهد في سبيل الحق.

دمت ودامت السلامة لهما، فكرك وقلمك، لكي يظلاّ رافدين كريمين من روافد الفكر الحر والكلمة الصادقة.

إن المكتبة العربية أشرعت أبوابها وأعدت واجهاتها لاستقبال هذا الانموذج من الؤلفات، تقدمها أنت وأمثالك من رواد الحقيقة الصعبة.

محمد ياسين عبد الرحمٰن

طرطوس

إنه لمن الأسهل علينا أن نقول: ليس هو
من أن نقول: كيف هو...!

درج المؤلفون على أن يقدم لأعمالهم كتّاب ورجال فكر، تألقت اسماؤهم وانتشرت أفكارهم على ساحات العقول فغدت المقدمات هي القطب تدور الرحى حوله وعليه تعتمدوأصبحت عبارة: «قدَّم له فلان» عامل دعاية يحدّد سعة الإنتشار وتعدد الطبقات.

وهذا العمل الضخم الذي قام به مشكوراً، ومحتلاً مراتب التقدير السامية، الأستاذ أحمد عمران ليس بحاجة إلى مقدمات تمهّد له وتعرّف به، وتزيد من ثقله النوعي.

فهو بحيث قوة الحجة، ووضوح الأدلّة، ودقّة الإسناد، وسعة الإطلاع لا ليستجدي من أي كان، قلماً مهما ارتفع مقام هذا القلم مناصرة ودعماً وتأييداً.

هذا العمل هو بكل إيجاز ووضوح تصدي رجل قانون تجري روح العدالة والقسط في عروقهلمجرم مقنّع، حاقد، فقد السيطرة على نفسه في التعبير عن إنفعالاته في محاولة لإغتصاب العقول الساذجة وإخصابها بلقاح أفكاره المجافية للحقيقة والمنطق والتأريخ.

- فالقرآن الكريم ساحة التصدي.
- والمدعو «حداد» مخطط ومصمم باسم مؤسسته لوقائع الحدث ومنفذ له.
- والأستاذ عمران رجل القانون يتصدى للجريمة لتواري المجرم في مقابر أوليائه.

ـ والحداد يهدف إلى غاية يحاول بلوغها متدرعاً بآي الذكر الحكيم فيقدم ويؤخر ويحرّف، ويغالط، ويجتزىء، ويفتري على الذكر وعلى التاريخ وعلى هيكل الإسناد.

ـ والأستاذ عمران يقول له وبكل بساطة «من فمك أدينك» وذلك بتقديم النّص القرآني الكامل للآيات وتفسيرها عند العلماء والأئمة وتوضيح مدلولاتها ومراميها ومناسباتها داعماً ذلك بالتاريخ الموثّق الذي لا تطاله شبهة وبفقه اللغة لغة القرآن الذي يجهله الحداد.

ـ والحداد يجعل من كتابه منبر دعاية لعقيدته يجللُه بشتى السجف التي يأبى جوهر عقيدته ألوانها وأشكالها بل ويرفض حتى مجرد وجودها على كون الكهف الذي احتضن عظمة العشاء الأخير.

ـ والأستاذ عمران يقول له وبكل بساطة: إقراء تاريخ عقيدتك. عُدْ إلى المجامع الكنسية التي هي القناديل التي ترسم درب المسيرة إبحثْ عن الأناجيل التي حُرِّقت وعن الرسل والحواريين الذين أُهملوا وعن أمراء الكنيسة الذين أغنوا الفكر الديني والفلسفي والعلمي والإجتماعي والحضارة الإنسانية وعن مصيرهم ومصير أعمالهم وأتباعهم وهم الأكثرية الساحقة.

عُد إلى التاريخ وتبصَّرْ، ترى حقيقة إيمان قسطنطين، ومراميه السياسية الرومانية، في دعم الأقلية من الرهبان، وتكفير الأكثرية والتنكيل بهذه الأكثرية صاحبة أرقى المدارس الفكرية.

ـ والحداد يقدّم أناجيل مَنْ جاؤوا بعد أكثر من قرن من غياب السيد المسيح.

ـ والأستاذ عمران يقول له وبكل بساطة: على رسلك يا صاح وهل من جاءوا بعد كل هذا الزمن أصدق إيماناً وروايةً، وأكثر قداسة من الحواريين الذين عاشوا مع «المعلم»، وحضروا «مؤتمر القمة» الذي لا تدركه قمة ـ حدث العشاء الأخير ـ والذين اجتمع بهم السيّد بعد القيامة؟! ومنهم الرسول«برنابا» و «والذين تناولوا من يد المعلم الكريمة جَسده ودمه خبزاً وخمراً» سيظل توهجهما القدسي ساطعاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لهذا ولكثير غيره أقول: إن هذا العمل الرائع هو بحق:

أ ـ رحلة إلى الينابيع التي تدفقت منها أنهار الهدى حاملة مقومات الحياة الفكرية والعلمية إلى إنسانية الرضيع غذاءً متصاعد الكم والنوع والكيف، مطَّرد التلاؤم مع الإستعداد البشري عبر تطور الإنسان، لهضم الغذاء المادي والفكري والروحي.

ب ـ فهو نزهة ممتعة وكبيرة الفائدة على صفحات الأنهار المتدفقة من تلك الينابيع الغزيرة ترسم أمام الأبصار والبصائر مجاري تلك الأنهار ومتعرجاتها وشلالاتها وازبادها في منحدرات مجاريها ودوران أوانيها حول محور كل هوَّة تعترض سيرها في المنبسطات.

ج ـ وهو حملة تطهير مظفرة ضد التماسيح والزواحف التي تهدد البيئة وتعيث في حرم الأنهار فساداً، حملةٌ مسلحةٌ بأكمل وأوثق وأمتن الشباك وصنارات الصيد، ووسائط الغوص إلى الاعماق حيث اللآلىء تشير إليها وتحرسها صدفات الأسانيد وصحيح الأحاديث، ودقة التوثيق، وأنفة التجرد، وإيمان الصيّاد بقوة أشرعته وكفاءة عدته.

د ـ وهو ندوة ثقافية تُمتِّعُ الحضور بمشاهدة الأوابد على جدرانه هيكل سليمان، وكنيسة القيامة، والبيت العتيق، يبثها الكاتب المبدع بواسطة فانوسه الساحر ـ قلمه ـ على شاشة البصائر تاركاً لعدسته حريّة التسرب إلى ما وراء السجف إلى الجذور حيث تتفيأ آيات التوراة والإنجيل تحت أغصان شجرة تنزيليه مهيمنة لا يحدها شرق ولا غرب ولا شمال ولا جنوب، سرحة القرآن المؤتمن على حقيقة تاريخ وجوهر الأديان ورسالاتها، والقاء بردة القداسة على منكبي التاريخ القصة والقصة التاريخ.

هـ ـ وهو مباهلة عجيبة بين رجل قانون سلاحه الأدلة والمنطق السليم وبين حاقدٍ مغتر لم يجرؤ على إبراز هويته لعدم قناعته الشخصية بحقيقة وصدق مقولته.

و ـ وهو صومعة تأمل يسمو إلى مرتبة العبادة، يتقلص معه الزمن وتقصر

المسافات وتتجمع الأفعال اللامتناهية العدد تحت ضوء «الكلمة»، «الكلمة» التي أوجدت ممكن الوجود.

ز ـ وهو عملية تنقيب وبعث لكثير من الدُّرر الكريمة التي توارت تحت ركام النسيان والإنهيارات الفكرية التي غمرت سِير أبطالٍ كانوا كبنات صرح الحضارة وصانعي ومضات التاريخ الروحي.

ح ـ وهو تصد وقائي لوافدة تهدد العقول والعقائد والتاريخ فالبيت الذي لا تدخله الشمس يدخله الداء وقاتل الروح اشدُّ خَطراً من قاتل الجسد ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾.

فالخوف ليس على القرآن المحفوظ من قِبَل من نزَّله وإنما الخوف على العقول الساذجة البسيطة المؤمنة التي تتلقى كل ما يرمى إليها من اللقاح الفكري فلا تمحص ولا تدقق، وهكذا تظل قلاعها مفتوحة الأبواب أمام غزو الأفكار المضللة التي تعبث بمبادئها وتغتصب عقولها وتهدم صروح عقائدها.

ولما كانت شعوب العالم الثالث التي تشكل الدول والشعوب الإسلامية جزءاً كبيراً منها، أقول: لما كانت هذه الشعوب ضعيفة الثقافة ومحدودة الإمكانيات بشكل عام، وخاصة على مستوى الطبقة الكادحة التي تشكل أكثرية هذه الشعوب، فإن غذاءها الفكري مصدره السمع والنقل الخاليين من كل أشكال التمحيص والدقيق، فهي بذلك عرضة لمخاطر الأوبئة الفكرية وقديماً قيل: «درهم وقاية ولا قنطار علاج».

من هذا المنطلق تبرز قيمة كتاب الأستاذ أحمد عمران وضرورة العزف على أوتاره من قبل المؤسسات العقائدية المسلمة وغير المسلمة من أولئك الذين درسوا القرآن وتدبروه ووعوا بعض إعجازه، وحلّقوا على أجنحة آياته إلى حيث الحقيقة والمطلوب.

أيها القارىء الكريم هذه نُسيمة ريدانية مرَّت فوق قارورة العطر فحملت إليك وعداً بأنك سوف تنعم بالرَّوح والشذى وأنت تشم عرف عرار «أم القرى» وبطاح يثرب وثنيّات الوداع، وداع الظلمة واستقبال النور الآتي إليك مويجات

ونسيمات نسيمات تتسرب إلى رئة وجدانك كلما قلبت صفحةً من صفحات هذا الكتاب حاملة إليك الاحساس والشعور بأنك تشرف من علٍ على الارهاصات والإجتهادات والمباهلات والأحداث التي خطت المنعطفات التاريخية ورسمتها لك ريشة نسر فنان طالما داعبت الأجواء الفساح.

أيها القارىء الكريم، كل بصير يعرف النور ويحيا في نعمائه، ولكن من الأسهل على كل بصير أن يقول: «هذا ليس النور»، من أن يقول: «كيف هو النور».

سـليمان زريـق
١٩٩٤/٧/١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخ المهذَّب الأستاذ المحامي أحمد عمران دام توفيقه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد . . . فقد اطّلعت على كتابكم القيّم في الرد على «الإسلام دعوة نصرانية» و«القرآن والمسيحية» ومن خلال قراءة متأنية لشطرٍ منه، وجدت نفسي أمام باحثٍ قدير، وكاتبٍ متمكن، وناقد جريء، ومحاورٍ صلب وبحق فإنّ كتابكم هذا يمثل دراسة قرآنية معمّقه، ومقاربة علمية ناضجة تعبّر عن فهم إسلامي آصيل، ورؤية إيمانية بصيرة، وقد استطاع البحث وبكفاءة متفوقة جداً أن يسقط تلك الهرطقات الزائفة حول الإسلام والقرآن، وإنني أهنيء الأستاذ القدير أحمد عمران على نجاحه الكبير في هذا الكتاب ـ كما في كتابه الآخر: الحقيقة الصعبة في الميزان ـ وعلى لغته العلمية، واسلوبه المتميز، مع دعواتي له بمزيد من العطاء والتوفيق والتسديد، كما اتمنى أن تجد هذه الدراسة النفيسة طريقها إلى كل الباحثين والمفكرين وإلى كل المثقفين.

أخوكم
عبد الله الغريفي
في ٢٧/٣/١٤١٥هـ

تحية

إلى: «الحقيقة الصعبة في الميزان»(١)

و: «القرآن والمسيحية في الميزان»(٢)

صيغا بأبلغ حجةٍ وبيان ... وتمسكاً بالقسط والميزان
وسمها باسم الله في درب الهدى ... زهواً، بنور الحق والإيمان
حجج كنور الشمس باهرة السّنا ... تجلو وتخمد حيرة الحيران
وأدلة عين اليقين نصاعةً ... قامت من الإنجيل والقرآن

* * *

مهلاً أبا الحداد دربٌ شائك ... رسمت خطاه أصابع الشيطان
دربٌ عريق بالتحيز والهوى ... وخلت مسالكه من الوجدان
وتبرجت فيه الخطيئة جهرة ... وتراقصت فيه بنات الحان
وتعطلت منه المكارم جملة ... فغدا سبيل جنايةٍ أوجاني
أبديتما في الذكر رأياً ظالماً ... ونفيتما عنه هدى الرحمان
ولبستما ثوب الخصام تعنتاً ... وسعيتما بالبهت والبهتان
وقصدتما التاريخ سعي مؤمل ... فيما يفيد ولو سراب دخان
لم تبق منه قريبة وبعيدة ... في سالف الآماد والأزمان
وترددت من حول كل منكما ... يا حبذا الإنسان من إنسان

---

(١) الحقيقة الصعبة في الميزان وضعت رداً على كتاب «قس ونبي» لأبي موسى الحريري.

(٢) القرآن والمسيحية في الميزان، وضعت رداً على كتاب «القرآن والمسيحية للأستاذ الحداد».

هـذا الـذي عنـت العلـوم لعلمـه ... وأبـان وجـه الحـق للعميـان
وغـدا بـه ركـب الـزمـان مـروراً ... آيـات حكمتـه بكـل مكـان
حتـى تصـدى جـاهـداً ومجـاهـداً ... كـرمـى لـوجـه الـديـن والـديّـان
رجـل يـديـن لـه اليـراع وحكمـة ... نشـرت عبـاءتهـا علـى الأكـوان
سَلِـسُ البيـان كـأنمـا هـاروتِـه ... ينسـاب فيـه مثـالثـاً ومثـانـي
ألقـى عصـاه فطهـرت مـادنسـوا ... واسّـاقطـوا فـي لجـة النيـران
فبـدا بـه وجـه الحقيقـة نـاصعـاً ... خلـوا مـن الأوضـاد والأدران
وغـدت مـوازيـن العـدالـة والحجـا ... تعنـو لحكمـة أحمـد العمـران

الفقير لله سبحانه
محمد إبراهيم أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وآله، وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فنعتقد ـ نحن المسلمين ـ بوجود إله نؤمن بوحدانيته، وبأنه خالق العوالم كلها، ما نشاهده منها، وما غاب. وأنه وضع في هذه العوالم النواميس الكونية التي تحكم مسيرته، والتي يسعى الإنسان لإكتشاف ما هو موجود منها في عالم الشهادة. كما نؤمن باليوم الآخر الذي يحاسب فيه كل إنسان على عمله، وبالملائكة، والكتب، والرسل.

ومن الرسل الذين نؤمن بهم ونجلّهم عيسى عليه السلام، الذي نؤمن بأنه مثل آدم، خلقه من تراب، وأنه عبد الله، والمبارك، والمؤيد بروح القدس، والوجيه في الدنيا والآخرة، والمقرّب، والصالح، ورسول الله، وكلمته القاها إلى مريم، وروحٌ من الله. كما نؤمن بأن أمه مريم صدّيقة، وأنه وإياها آية، وأن الله أيدّه بمعجزات كثيرة منها: أنه كلم الناس في المهد، وكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، ومنها: أنه شفى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى بإذن الله، وأنه كان ينبىء الناس بما يأكلون، وبما يدخرون، علامة على نبوته. ونؤمن بأن الله أنزل عليه مائدة من السماء، وأن الله رفعه إليه. كما نعتقد أن الله آتاه الإنجيل، مثلما آتى موسى التوراة من قبل هدى للناس.

ونعتقد ـ أيضاً ـ أن الدين الذي جاء به الأنبياء واحد، وإن اختلفت الأحكام الشرعية. وأن الأنبياء جميعاً جاؤوا بدعوة التوحيد، مؤيدين بمعجزات تدل على صدق نبوتهم، وكان خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله، وقد أيّده الله بمعجزات حسية، وبمعجزة عقلية خالدة هي القرآن الكريم.

ونؤمن بأن القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلّم، أُنزل من اللوح المحفوظ. إلى بيت العزّة في السماء الدنيا، ثم نزل مفرّقاً على محمد صلى الله عليه وآله وسلم على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكان بدء نزوله في ليلة مباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك.

كما نعتقد أن القرآن الكريم نزل وحياً إلى محمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله، بواسطة الروح الأمين، روح القدس جبريل، ليكون هدى للمتقين، وإنه الكتاب الذي أُحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير قرآناً عربياً. وأنّ ذكر هذا القرآن والبشارة به، وبمحمد عليه الصلاة والسلام وعلى آله، وردت في زُبُر الأولين. وإنه ورد مصدّقاً للكتب السابقة. كما نعتقد أن ما جاء فيه من قَصص الأنبياء إنما هو واقع تاريخي مضىٰ، تحدث عنه القرآن لإثبات إعجازه، ولاثبات نبوة محمّد عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وللعبرة والموعظة، كما أنه جاء يصحح التحريف الوارد في التوراة في شأن أنبياء بني إسرائيل، ويوافق الوقائع التي لم تأتِ محرّفة فيها. ونعتقد أن القرآن الكريم نقل بالتواتر، حفظاً في صدور المسلمين، وكتابة في سطور كتبهم، نقله جمع عن جمع يستحيل معه تواطؤهم على الكذب، وأنه لم يدخله أي تحريف فلا مبدّل لكلمات الله. وأن القراءات القرآنية المأخوذ بها منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشافهة، ولا يمكن لأي مسلم أن يتعلم هذه القراءات ـ وهي العلم بكيفيات أداء كلمات القرآن واختلافها ـ إلا شفاهاً من رواتها المتقنين حتى نصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما نؤمن بوجود الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، وبموافقة آيات القرآن الكريم للمراحل التي مرت بها الدعوة، وبإجابة كثير من آي القرآن على وقائع كانت تحدث في حياة الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام، بعد بعثته في مكة، أو هجرته إلى يثرب، وعلى أسئلة كانت توجه إليه. وأنّ ما جاء فيه في مجال الكونيات وغيرها من العلوم لا يمكن أن يأتي مناقضاً للإكتشافات العلمية، وهو ما أثبته الواقع العلمي حتى يومنا هذا.

وفي كل ما ذكرت عن نبوة محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام، وعن القرآن الكريم، نفترق عن الحدّاد في كتابه «القرآن و المسيحية».

لقد توصّل الكاتب تحت هذا العنوان إلى نتيجة مفادها: إن القرآن دعون نصرانية، وإنه ترجمة للكتب السابقة في الأرض، وليس رسالة من السماء. ومن خلال هذه النتيجة أوصل القارىء إلى نتيجة أخرى تنفي نبوة محمد عليه السلام بل ترى فيه أحد منفذي البدعة الجديدة،وكل ذلك تم تحت عنوان عريض مبهر (في سبيل الحوار الإسلامي المسيحي).

لقد اتبع الحدّاد في عرضه لما توصل إليه من نتائج منهجاً تقوم خطوطه العريضة على أساس من وجود تحريف في القرآن الكريم اخترع له مصطلح «إقحام». فهناك ـ حسب رأيه ـ آيات مقحمات في سِوَر خارج زمن تنزيل هذه السور، وهناك إقحام لاسم النصارى في آيات سبع، أعاده إلى زمن من التدوين وظروف الفتح الإسلامي لديار المسيحية، ورأى في منهجه أنه مع إسقاط اسم النصارى من هذه المواطن تستقيم صحة التنزيل، ثم إنه ـ ولغرض في نفس يعقوب كما يقول المثلُ ـ «أقحم» علياً عليه السلام في دعواه، عندما استشهد بمصحفه المكتوب وفق ترتيب النزول وبقوله «رأيت كتاب الله يزاد فيه» كما رأى أن للسياسة المعادية لأهل البيت يداً في جمع القرآن وفي نسخه. وإن ترتيب السِوَر من عمل الصحابة، واستدل على ذلك بتواريخ الوقائع التاريخية، وبتواريخ نزول السِوَر.

وفي هذا المجال يمكننا أن نقول موافقين رأي الأستاذ أحمد عمران، إن الحدّاد يحاول أن يعمّق شقّة الخلاف ما بين السنة والشيعة من خلال ما ذكر، وهو في ذلك واهم. فوجود مصحف خاص وفق ترتيب النزول عند علي لا يعني أبداً نفي ترتيب القرآن بحسب السِوَر وفق ما نراه في المصحف العثماني الموجود بين أيدينا.

ولو حدث أي (إقحام) أو تبديل أو تحريف في النص القرآني لوجدنا الإمام يقاتل الناس على تحريفه، وهو ما لم نجده في النصوص التاريخية، ولا في الآثار الواردة عن علي، بل وجدنا العكس من ذلك، وجدنا نصوصاً هامة أوردها الأستاذ عمران في كتابه تدل على تأييد الإمام لعملية نسخ المصاحف في عهد عثمان. ولعلّ خير شاهد معاصر نقدمه تأييداً لما نقول هو أنّ الشيعة جميعاً تقرأ المصحف العثماني (أي المنسوخ في عهد عثمان) ولا نجد عندهم مصحفاً غيره. وحسبنا أن نجد نفي فكرة تحريف القرآن في كتاب مرجعهم الأعلى الإمام أبي القاسم الخوئي

ـ رحمة الله ـ الكتاب الموسوم بـ(البيان في تفسير القرآن).

أمّا ما ورد عن الإمام علي من قوله «رأيت كتاب الله يزاد فيه» فقد يقصد بقوله هذا أن بعض الصحابة ـ مع النقص الواضح في وسائل الكتابة آنذاك ـ كان يكتب تفسيراً لكلمة، أو جملة قرآنية، في آيةٍ ما إلى جانب الكلمة، مما يوهم أن هذه الكلمة من القرآن. وقد ورد مثال ذلك في الكتب التي أعتمدها الحدّاد مرجعاً، وهو أن أحد الصحابة كتب كلمة (صالحة) في مصحفه بعد سفينة في الآية /٧٩/ من سورة الكهف ﴿**وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً**﴾ على سبيل التفسير.

ولقد ذكرت المصادر التي استند إليها الحدّاد أن المصحف المنسوخ في عهد عثمان جرّد من الشروح والتفاسير.

ولقد أورد الأستاذ أحمد عمران في كتابه من الأدلة ما يثبت أن ترتيب الآيات في السور عمل توفيقي لا دخل لصحابة الرسول عليه وعلى آله وعليهم ـ الصلاة والسلام فيه. وهنا يجب أن ننبه إلى أن أكثر سور القرآن لم تنزل دفعة واحدة، وأنه كانت تنزل الآية أو الآيات من سورة ثم تتنزل بعض آية أو آية، أو آيات من سورة أخرى. ويأمر الرسول عليه السلام بوضعها في مكانها من السورة. وعندما تم نزول القرآن ظهرت هذه اللوحة النورية الرائعة التي جُمعت بعد ذلك بين دفتي المصحف. وما ذكرنا يدُل على اعجاز القرآن من جهة، ويرد على التسلسل التاريخي، ولتاريخ نزول السور، الذي افترض الحدّاد من خلالهما (إقحام) النصوص في غير المكان الذي نزلت فيه.

أما الأحرف السبعة فقد اختُلف في تفسيرها كما فصل الأستاذ أحمد عمران في كتابه. وقد ذكر الحدّاد «أنّ الأحرف السبعة الأخرى قد أسقطها عثمان ومنع تلاوتها» متناسياً أن المصحف العثماني كتب دون نقط أوشكل فاحتمل أوجهاً من الأحرف السبعة.

ولقد قدّم الأستاذ أحمد عمران في كتابه القيّم «كتاب القرآن والمسيحيّة في الميزان» عرضاً دقيقاً لآراء السيد الحدّاد، وتتساءل كما تساءلتُ «هل هو شخص أو مؤسسة؟» وسواء كان هذا أو تلك، فإنه يذكّرنا بأبي موسى الحريري «المؤسسة

وليس الشخص» وعندما نقرأ العملين نستشعر من خلالهما محاولة هدم التفاهم الإسلامي المسيحي.

لقد عاش المسيحيّون العرب في بلاد العرب والإسلام منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا إلى جانب المسلمين إخوة في الإنسانية، واستقبل العربُ مسيحيي الأرمن في ديارهم مكرمين، تجمع الجميع الأرض التي جعلها الله ذلولاً، ووصايا المسيح، وإرشادات محمد عليهما السلام، وتجمعهم الآمال والآلام المشتركة. لهذا كان من الطبيعي أن نجد مفكري المسيحييّن يحيون تراث لغة القرآن في مواجهة التتريك. وأن نرى مناضلين كالمطران كبوجي، ومطران كنيسة القيامة، يقاومون الإحتلال جنباً إلى جنب مع شيخ المسجد الاقصى، وكان من الطبيعي أن نرى دم المسيحيّ يمتزج بدم المسلم في تراب فلسطين، حيث يقاوم هؤلاء الإحتلال الإسرائيلي، والمد الصهيوني الذي يستهدف المسيحييّن والمسلمين على حدّ سواء. وما نراه في التاريخ من ظلم واقع أحياناً من بعض السلاطين على المسيحيين إنّما نجم عن فهم خاطىء لمقاصد الإسلام أو عن ردود فعل تفرضها السياسة لا المبادىء.

إن الحاجة تدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى وحدة الأمة، وهنالك أكثر من جامع يجمع المسيحيين والمسلمين. فإضافة إلى ما ذكرت نقف اليوم صفاً واحداً في مواجهة الأمبريالية التي تهدف إلى السيطرة على العالم الثالث، ونهب ثرواته، وتجويع أطفاله حتى الموت، وهو يخالف بشكل جوهري تعاليم المسيح ومحمد عليهما السلام.

وإذا كان الأستاذ أحمد عمران قد قدم لنا سابقاً كتاباً قيماً بعنوان «الحقيقة الصعبة في الميزان» رد فيه على المؤسسة الصهيونية «مؤسسة أبي موسى الحريري» فإنه يقدم لنا اليوم كتابه القيم الثاني بعنوان «كتاب القرآن والمسيحية في الميزان» وقد اتبع في كتابه الذي قرأت مخطوطته منهجاً علمياً متميزاً، تتبع فيه الكاتب، وأورد مقالاته،ثم رد عليها رداً موضوعياً، ودحض آراءه بالأدلة المناسبة، بعد أن فنّد هذه الآراء، وبيّن ما فيها من الخطل ومجافاة الحقيقة. ولعل من الإنصاف أن أذكر أنني ما فكرّت بدليل للرد إلاّ وجدته في المخطوطة مما يدلّ على الجهد الذي بذله الأستاذ عمران في العودة إلى المراجع المتعددة مما أغنى الكتاب وجعل منه

مرجعاً يفيد المسلمين في الدفاع عن دينهم وإسلامهم.

وإنني إذا اتوجه إليه بالشكر على هذا العمل الجليل، لأدعو الله في الوقت ذاته أن يوفقه لما فيه خدمة الإسلام والمسلمين، ووحدة الأمة.

والله من وراء القصد.

٢٣/ رجب/ ١٤١٥هـ
محمد كامل حاتم
٢٥/ كانون الأول/ ١٩٩٤م
الأمين المساعد لجامعة تشرين
والمحاضر في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الله والحقيقة بين تجاذب الأهواء وتدافع الميول

جاء «كانت الألماني»، وأكّد أن الله موجود متعالٍ عن التجربة، ولا يعرف إلاّ بالعقل، وجاء نصر حامد أبو زيد، فقال: أوّل الأفعال الإلهية، إيجاد العالم، إي إخراجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود - حسب تعبير أبي حامد الغزالي - وهذا الفعل يعدُّ بمثابة افتتاح للتّاريخ وقال آخر: (الله تجسيد الخير الأخلاقي والفضيلة الأخلاقية) والخير والفضيلة هما صفات فاعلة. وجاء أصحاب مذهب وحدة الوجود ليثبتوا الله في الطبيعة، ورفضوا العنصر الخارجي لها.

أما ابن عربي فقد جاء ليقول: إن للحق في كلّ خلقٍ ظهور، فهو الظاهر في كلّ مفهوم، وهو الباطن عن كلّ فهم، إلاّ عن فهم من قال: إن العالم صورته وهويته وكان (سبينوزا) من أصحاب هذا المذهب، مذهب وحدة الوجود ولكنه تحول عنه إلى نظرية مثالية فقال بوجود العالم في الله.

أما بيغور فإنه ينكر تدخل الألهة في شؤون العالم، وقول: هدف المعرفة تحرير الإنسان من الجهل والخرافات، ومن الخوف من الألهة والموت.

وفسروا هدف المعرفة، فقالوا: هو بلوغ الحقيقة الموضوعية. وبحثنا عن الحقيقة الموضوعية، فإذا بالموسوعة الفلسفية تقول عنها: هي محتوى المعرفة الإنسانية الذي لا يتوقف على أرادة الذّات ورغبتها، والحقيقة لا تقوم بإرادة الناس ورغبتهم بل تتحدد بمحتوى الشيء المنعكس، وهذا هو ما يجدد موضوعيتها. ومبدأ الحقيقة الموضوعية موجه ضدَّ جميع التصورات المثالية الذاتية الممكنة عن الحقيقة التي تقوم الحقيقة عندها على يد الإنسان، وتكون نتيجة الإقتناعات بين الناس. هكذا قالوا عن الحقيقة الموضوعية. ولكن فيما نرى نجد أن الحقيقة وزعها أصحاب الأرآء إلى حقائق مختلفة التسميات والصفات والإنتماءات فقالوا بالحقيقة

الأبدية، وعرفوها أنها اصطلاح يشير إلى عدم إمكان دحض حقائق معينة خلال تطور المعرفة. ويمكن اعتبارها مرادفة للحقيقة المطلقة.

وقالوا بالحقيقة المزدوجة، وعرفوا هذا المصطلح أنه يشير إلى الإستقلال المتبادل لحقائق الفلسفة واللاهوت، وقد ظهرت هذه النظرية في العصور الوسطى، عندما سعى العلم للاستقلال عن الدين.

وقالوا بالحقيقة المطلقة والنسبية، فقالوا: هي مقولتان من مقولات المادية الجدلية، تحددان تطور المعرفة، والعلاقة التي تكشفت بين ما هو معروف، وما سيصبح معروفاً مع تطور العالم، وقالوا: تقوم نظرية الحقيقة المطلقة والنسبية بالأجابة على السؤال: هل يمكن للأفكار الإنسانية التي تعكس الحقيقة الموضوعية أن تعبّر عنها دفعة واحدة، وككل بدون شرط وبصورة مطلقة؟ أم أنها لا يمكن أن تعبر عنها إلاّ على نحو تقريبي.

وقالوا بالحقيقة الواقعة، وعرفوها أنها هي أي شيء يوجد ويتطور ويتضمن جوهره الخاص وقوانينه الخاصة، وينشأ عن فعله الخاص، وتطوره الخاص، وهذه الحقيقة الواقعة هي الواقع بكل تعيّناته.

وبهذا المعنى لا تختلف الحقيقة الواقعة عن كل ما هو ظاهر ومتخيَّل ومتوهم فحسب، وإنما تختلف أيضاً عن كلّ ما هو منطقي ومعقول بحت.

أما ابن عربي في خصوص الحكم فيقول: الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها متكثرة بأسمائها وصفاتها، لا تعدد فيها إلاّ بالإعتبارات والنسب والإضافات.

وجاء أحدهم ليقول: إن وجود الله هو مفتاح كلّ ما وراء الطبيعة، فإذا اعتقدنا بوجود الله، لم نر صعوبة في الإعتماد بالخلق وبالملائكة، أو بحالة الإنسان الأبدية وعمله اللانهائي، ويرون أن كل الصعوبات التي يجدها الإنسان الطبيعي في الدين، تتلخص في أمرين: الأول في العقل، والثاني أنها فوق الحس.

وعلى سؤال.. ما هو العقل؟ يجيبون، : هو آلة عجيبة، بها يعيش الإنسان: ويميز بين الأمور، يستنتج نواميس للأخلاق والآداب يجري عليها..

ونجد أن دارون، الذي آمن بهذا التعريف، قد اختلف مع «مار بولس» الذي تقدمه بزمنٍ غير قصير، فقد أظهر مار بولس، إنه من المستحيل على العقول البرهنة بحقيقة ما نادى به ـ يعني بولس ـ وذلك لأن الحقائق لا تدركها العقول، فإن العقل لا يعني شيئاً عن القيامة ولا عن الخلود، ولا عن حياة الإنسان بعد الموت. وقد اتفق الجميع على أنه ليس بين العلوم كلّها ما يوُصلُ إلى حقائق راهنة، سوى الرياضيات.

من خلال ماسقناه في هذه السطور من الآراء التي تختلف وتتناقضُ أحياناً وتتفق وتتماشى أحياناً، أدركنا أن الإيمان بالله موجود، وأن هذا الإيمان ينصبّ على ذاتٍ، ذات وجود غير مدروك بالرؤية، ولكنه مدروك بالعقل..

ولجأنا إلى العقل، وتابعنا مسيرته، ولكنه وقف عند حدود لم يستطع تجاوزها، فلجأ المفكرون إلى تقسيمه إلى عقول تنبثق كلها عن العقل الأول، ولكن العقول هذه بمختلف مراتبها عجزت عن إعطاء الحقيقة المقنعة عن عقل العقل، أو عن إدخال القناعات الأخيرة إلى تفكير الإنسان..

واختلفوا حتَّى على الإنسان نفسه، فمنهم من قال: إن الإنسان صالح بالطبع، ولذلك فهو يقوم بالتقرب إلى الآلهة. ومنهم من قال: إن الإنسان شرير بالطبع وكلّ ما يفعله شر.

فإذا كان الإنسان يختلف عن الإنسان، هل هو صالح؟ أم شرير؟ وكان الإنسان هذا هو الذي يبحث عن الله؟! فكيف لا يختلف على معرفة الله؟ وعلى تعريف ذاته؟ وإذا كان العقل في الإنسان هو آلة القيادة إلى المعرفة، التي تنتهي عند الحقائق المقررة، قد وقف عاجزاً عن الولوج إلى ما وراء إدراكه، فلجأ إلى تقسيم الحقيقة إلى حقائق، كما لجأ إلى تقسيم العقل إلى عقول. فقالوا بالحقيقة الأبدية، وبالحقيقة الموضوعية، وبالحقيقة المطلقة وبالحقيقة النسبية، وبالحقيقة المزدوجة، وبالحقيقة الجدلية، وبالحقيقة الواقعية وغير ذلك من تقسيمات باتت جميعها بغير نتيجة حاسمة، وبغير رؤيةٍ ساطعة، فإذاً من اين نطلب المعرفة التي منها نؤمن بالله؟ ومن اين نطلب العقل الذي به نهتدي إلى الله؟ ومن أين ندرك الحقيقة التي هي النور المضيىء إلى الإقرار بذات الله؟!

إذا كان الأمر كذلك، وإذا كان الغموض يواجهنا من كلّ الجهات، وطرق البحث جميعها عرضة للتعثر والإنزلاق، من اين لنا أن نصل إلى المحطة الأخيرة التي هي الحقيقة بكليتها، الحقيقة التي لا تحتاج معها إلى برهان، حيث تكون هي برهان ذاتها ودليل وجودها.

وإذا كان العقل ـ وهو مما يعتمد عليه كل باحث، ويركّز على معاييره ومقايسه كلُّ محتج ـ إذا كان العقل هذا ـ ومنذ بدأ الإيمان بالعقل حاسماً في كل النزاعات والقضايا المختلف على توازنها ـ لم تحمل موازينه قسطاس الفصل بين ما هو معقول، وبين ما هو غير معقول، ووقف متردداً في إعطاء الرجحان بين كفتيه عند الباحثين عن الحقيقة.

إذا كان ذلك كلّه مضافاً إليه العلم، العلم الخارق الذي من شأنه أن يحيط بكل ما هو غامض ومستغلق، العلمُ بأضوائه الكاشفة، وأشعته النافذة، وقف لاهثاً في متاهاته ومجاهيله فلا هو مقتنع بما أدرك، ولا هو قادر على اكتشاف ما يحجبه المجهول، فهو في عناءٍ دائم، ينتقل من معلوم إلى مجهول حتى لم يبق أمامه إلاّ سبحانه وتعالى.

والإنسان ـ كما يقولون ـ مخلوق سؤول، محب للإستطلاع، جُبل عقله على البحث والتنقيب، لا يهدأ له بال، ولكنه يغوص دائماً في أعماق المجهول، جرياً وراء المعرفة، وكأن حياته رحلة استكشاف، دأبه البحث والدرس، ويلازمه التساؤل والإستقصاء ملازمة الظل للجسد.

لماذا كل هذا؟ لأنه يشعر في قرارة عقله أن شيئاً خفياً يبحث عنه في داخله، هذا الشيء الخفي هو القدرة الكاملة التي تتصرف في كلّ شيء، بسيطاً كان، أمركباً، حقيراً كان أو جليلاً، هذه القدرة التي لا يعجزها شيء، اسماها (إلهاً) بينه وبين نفسه.

وهذا المصطلح من التسميات الذي هدته فطرته إليه، بقي شيئاً غامضاً، لم تستطع فطرته إعطاء صورة مادية تليق به، وتتناسب مع جلال القدرة التي يراها في كل شيء، ولا يستطيع إنكارها ولا بدَّ لهذه القدرة من قادرٍ، فمن هو هذا القادر؟

وأين يوجد؟ وما هي صفته؟ ومم يتركب عنصره.

أسئلة محيّرة، ومجهول قد أستعصى، وغامض فشل حياله كلّ توضيح.

هكذا بدأ البحث عن الله، وهكذا ذهب الباحثون إلى تحديد صفاته، ومكان وجوده واشغلوا أنفسهم في معرفة الغاية من انبثاق هذا الوجود عنه، لأنه لا يفعل شيئاً عبثاً، ولا بد من غاية عون في تنظيم هذا الكون، وهندسته الرائعة.

وحيال عجز هذا الإنسان السؤول المحب للإستطلاع، المجبول عقله على البحث والتنقيب. حيال ذلك كله، لجأ هذا الإنسان إلى أخذ معلوماته عن هذا الإله مباشرة ومن هنا كانت حكاية موسى على طور سينا، ومخاطبته للإله مشافهة(١)وأخذ تابوت العهد وعرضه على بني إسرائيل الذين كثيراً ما ساورهم الشك به لولا الآيات التسع التي عوقبوا بها.

وكذلك كانت حكاية السيد المسيح الذي تنبأ اشعياء أحد كتّاب التوراة وأحد انبياء بني إسرائيل بولادته من العذراء، الذي قال عن نفسه أنا هو المسيّا، والذي قال: هوذا بالأثم صُوِّرْتُ وبالخطيئة حبلت بي أمي.

والمسيحيون يعتقدون بعبارة (لقد تكلم الله) وبهذه الوسيلة وصلت كلمة الله إلى أنبياء كثيرين، منها (والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا).

ومن هنا صور القول بأن المسيح هو (كلمة الله) واعتبر كلامه وحياً من الله، فكان يحدث تلاميذه وشعب بني إسرائيل بمجد الله وعظمة الله الذي أرسله، ويحذّرهم من مخالفته وعصيانه.

وكذلك حمل محمد بن عبد الله (ص) وحي الله إلى عباده، فصدّق من صدّق وأنكر من أنكر، إلاّ أن محمداً لم يدع أن تلقى الوحي مشافهة من ربه ولابنوته من الله.

---

(١) في التوراة، سفر العدد احتجاج /٢٠/ وكلم الرب موسى قائلاً: خذ العصا واجمع الجماعة انت وهارون أخوك وكلّما الصخرة امام أعينهم أن تعطي ماءها، فتخرج لهم ماء من الصخرة وتسقي الجماعة ومواشيهم، وقد أشار القرآن إلى هذه القصة.

ولو كانت ذات الله بهذا الوضوح المتكامل، لما احتج إلى إرسال الرسل ولا إلى نبوات الأنبياء، ولكن الله شاء أن يبقى كنزاً مخفياً، واختبر عباده بالطاعة عن طريق تبليغ رسالته إلى الناس بواسطة الرسل عن طريق معرفته بما هو مثبوت بين خلقه من آثار صنعته، وجلال قدرته، ولو تجلى لهم بحقيقة ذاته لما أنكره أحد، ولما عرف من يؤمن به عن طريق معرفته كقادر ومريد وفعّال، ومن ينكر عليه ذلك، ويعتبر الوجود المادي هو كل شيء في هذا الوجود، وهذه الحالة ادّت بكثير من أصحاب الآراء إلى الحيرة، ولولا ذلك لما سمعنا ابن عربي يقول:

وجـــودُ وحسبـــي أن أقـــول وجـــودُ   لـــه كـــرمُ منـــة علـــيّ وجـــود

ولما رأينا سبينوزا يقول بوجود العالم في الله بعد أن كان ينكر تدخل الألهة في شؤون العالم، انسجاماً مع رأي بيغور، ولما رأينا أصحاب مذهب وحدة الوجود يثبتون الله في الطبيعة، ويرفضون العنصر الخارجي للطبيعة.

ولولا ذلك أيضاً لما تخبط الكثيرون في تحديد هدف المعرفة، ومنهم بيغور الذي يقول: هدف المعرفة تحرير الإنسان من الجهل والخرافة، ومن الخوف من الآلهة والموت.

وفسر غيره هدف المعرفة، فقال: هو بلوغ الحقيقة الموضوعية. وإذا كانت الحقيقة الموضوعية: هي محتوى المعرفة الإنسانية الذي لا يتوقف على إرادة الذات ورغبتها.

وإذا كانت برأي آخرين، هي بلوغ الحقيقة الموضوعية، فهل للحقيقة الموضوعية مكان خارج إرادة الذات ورغبتها؟! وما هي الحقيقة الموضوعية إذا لم تكن تجسيداً للذات، وبحثاً عن جوهرها وعناصرها وهول وجودها.

والذات الإنسانية بما تحمله من قوى عقلية، لم يغب عنها، أنّ لوجودها حقيقة بقيت وحدها في منأى عن إدراكه، ومستعصية على كواشف علمه، وهو مؤمن بإحساسه في وجودها وقيمومتها.

ومن هنا نشأ الخلاف بين الباحثين عنها، والمنقبين في كهوفها، لإستشفاف

الأشعة المبهرة في ظلماتها. فنحن في مواجهة حادّة بين الأخذ فيما جاء به الملهمون من الشعراء الإلهيين، وبين عدم الأخذ بها، لأن سفارة الملهمين هؤلاء بقيت غير قادرة على تفتيت الشك في قلوب الآخرين الذين لم تستوعب عقولهم الحياة الأخرى، وزاد في تمسكها بالشك أن الأمر كما نرى لعبت به أهواء خاصة، وخصوصية ذاتية حملت إلينا الوحي الأول مموهاً تتشابك فيه إرادة الخالق والمخلوق.

ولما كانت التوراة هي أول كتاب يشار إليه في عالم الوحي، وهو المنطلق لكتابة التاريخ حملت من نصوص الوحي ما لا ينطبق عليه الوحي، ومن نصوص التاريخ ما لا يتفق مع التاريخ، كان الأخذ بها على الوجه المبسوط فيها أمراً غير وارد في مقاييس العقل ومرفوضاً عنده.

والتوراة بحالتها الحاضرة وبعد أن مر على غربلتها الآف السنين، وبعد أن تعاقب على تدقيقها ملايين الأشخاص، بقيت غير قادرة على توضيح ما يتناقض فيها مع الوحي وما يتعارض فيها مع منطق التاريخ.

إن من يقرأ التوراة في هذه الأيام ويتأمل في شواهدها الهامشية، والمقدمة الصغيرة التي وضعها مترجموا الكتاب المقدس، يجد الإشارة إلى ما هو موجود وما هو محذوف. ولقد وصل إلى عالمنا أن الترجمة التي تقوم بها طائفة لا تأخذ بها طائفة أخرى، فما معنى هذا؟.

وقد تنبه ونبه الأستاذ أحمد عمران إلى هذا، وتتبع تاريخ التوراة تتبعاً واعياً، ولجأ إلى المصادر المعتمدة في هذا الموضوع، فنقل عن قصة الحضارة وغيرها فقال: كيف كتبت أسفار التوراة؟ واين كتبت؟ ذلك سؤال يرد لا ضير فيه، ولكنه سؤال كتب فيه خمسون الف مجلد، وسوف نفرغ منه هنا في فقرة واحدة لنتركه بعدها من غير جواب، وقال: لقد خصص المؤلف ـ يعني مؤلف قصة الحضارة ـ ثلاثة فصول من كتابه، هي الخامس والسادس والسابع، سرد فيها باختصار شديد مسيرة التوراة في التاريخ. وقد اقبس الأستاذ أحمد عمران منها الفقرات التالية.

أ ـ بعد أن شاعت عبادة الآلهة الأجنبية في الشعب اليهودي، وتراخت روابطهم مع (يهوه) فكر الكهنة، بأن يقوموا بعمل تنظيمي، يوقف هذا التدهور:

فانتحلوا رسالة إلى الشعب، نسبوها إلى الله، وقدموها في صورة سنن إلهية، تبعث المشاعر الدينية والخلقية من جديد، وقد إنظمّ الملك (يوشيا) إلى هذه الدعوة حيث أبلغه الكاهن (حلقيا) في السنة الثامنة عشرة من حكمه، إنه وجد في سجلات الهيكل ملفاً عجيباً، قضى فيه موسى بنفسه في جميع المشكلات التاريخية والخلقية التي كانت مثار جدل وخلافٍ بين الكهنة والأنبياء، فدعا (يوشيا) إلى اجتماع حضره كبارهم مع الآلاف من الشعب، وتلا عليهم سفر الشريعة الذي أبلغه إياه (حلقيا) واقسم على طاعة هذا السفر بما فيه، فتأثر الشعب، وجاشت عواطفه فاغتنم (يوشيا) هذه السانحة، واستعان بها لتحطيم مذابح الآلهة المنافسة (ليهوه)، واخرج من الهيكل الآنية المصنوعة للبعل، وأقصى كهنة الأصنام الذين يوقدون للبعل والشمس والقمر وأجناد السماء.

وبعد أن أشار الأستاذ عمران إلى العملية التي بموجبها منع تقديم الأبناء والبنات إلى النار تقرباً إلى الآله (مولك)، وتحطيم المذابح التي أقامها سليمان لكموش وملكوم وعشتروت، وألمح إلى ما جرى بعد العودة من الأسر البابلي، من حاجة ماسة إلى وضع تنظيم إداري، يقيم كيان الوحدة بين الشعب، ويفرض النظام، ويعترف بسيادة الفرس، وإصدار قواعد حكم ديني، اعتمد على التقاليد الموروثة، وأقوال الكهنة المتواترة، وقيام الكاهن (عزار) عام ٤٤٤ قام بالدعوة إلى اجتماع خطير، وشرع هو وزملاؤه اللاويّون بالقراءة في سفر شريعة موسى على مدى سبعة أيام، أقسم الكهنة والشعب على أن يتخذوا هذه الشرائع دستوراً لهم.

كما أشار الأستاذ عمران إلى ما وُضع بعد تلك الأسفار معتمداً على مصادر تاريخية غير مشكوك بها.

إن من يقرأ هذا التاريخ ويتابع ما فيه من أحداث وضعت بالإتفاق بين يوشيا الملك، والكاهنين (حلقيا) و (عزرا) ندرك بكل وضوح اللعبة الخفية التي قام بها هؤلاء لتدعيم الحكم من خلال أسفار منسوبة إلى الآلهة لتكون دستوراً إلهياً معمولاً به في إدراة أموال الشعب، وتنظيم اموره، وضبط تعامله وعلاقاته.

وإذا صحّ هذا فأنّى لنا أن نقول بالوحي والكلام الإلهي، وكيف لنا ونحن أمام هذه العملية المصطنعة، أن نتهم الديانات الأخرى بمثلها، وأن نروّج للشك في

آخر رسالة سماوية جاءت خاتمة لكل الرسالات لم يغير النسخ فيها ولم يبدل.

وماذا يقول من يرى معتمداً على غير الصحيح، إن هناك قرآنان أحدهما محمدي وآخر عثماني ويعتمد على خلق مغايرة بينهما، في حين أن القرآن لم تلعب به لغة الترجمة ولا أهواء المترجمين، ولا ألاعيب الحكام والكهنة والمنافقين.

إنّ الأستاذ أحمد عمران في كتابه هذا فضح غاية الأستاذ الحدّاد التي جاءت مكشوفة صريحة في (قس ونبي) لأبي موسى الحريري، الذي ناقشناه الحساب في كتابنا (أضواء على الحقيقة الصعبة) كما ناقشه الأستاذ عمران في كتابه (الحقيقة الصعبة في الميزان) هذا بالنسبة للتوراة. أما بالنسبة إلى الإنجيل، فقد قال الأستاذ عمران في تفسيره: الإنجيل مثل الإكليل والإخريط، وقيل أن اشتقاقه من النجل الذي هو الأصل فيقال: كريم النجل، أي الأصل والطبع.

وفي التعريف به ككتاب، قال: هو مجموع لأخبار عن شخصية المسيح وعمّن حوله منذ أن كان جنيناً في رحم أمه، إلى ما بعد صلبه وقيامه وارتفاعه إلى السماء. هذه الأخبار جمعها تدور حول موضوع واحد، وكل قول أو عمل مرهون بظرفه الزماني والمكاني، وقد رويت من رواة اربعة، طبعاً بعد استبعاد بقية الأناجيل وتحريمها وتحريفها بعد أن تبين تناقضها وفساد روايتها ووضوح شبهتها. ولا يستطيع اتباع الإنجيل إنكار ذلك فعن تاريخهم أخذنا وعنهم نقلنا.

وهذا أيضاً يعزز موقفنا في عدم الأخذ بمصداقية النصوص التي خضعت لتصرف الرواة والمترجمين وأصحاب الأغراض والأهواء الذين زعموا أن القرآن دعوة نصرانية، والقرآن دين إنجيلي، وأخيراً نتفق مع صاحب إحياء علوم الدين بأن العلم الأعلى والأشرف، علم معرفة الله تعالى فإن سائر العلوم تراد له، ومن أجله، وهو لا يراد لغيره، وطريق التدريج فيه الشرقي من الافعال إلى الصفات، ثم من الصفات إلى الذات، فهي ثلاث طبقات، أعلاها علم الذات، ولا يحتملها أكثر الأفهام، ولذلك قيل: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذات الله».

وهذا يتفق مع قول العلامة أديسون الذي يعتبر مكتشفاً عظيماً في هذا العصر، قال: لا يسع من اطلع على أسرار الطبيعة أو درس علم الكمياء إلاّ وأن يعتقد أن وراءها فكراً سامياً، إني مقتنع بذلك وأنه ليخطر لي أني سأتمكن يوماً ما من التعليل

عن ذلك الفكر السامي بعملية من عمليات النواميس الطبيعية كما اجري عملية رياضية.

ومعرفة الله هذه لا تتأتى إلاّ من خلال ما ذكرناه من أثر الكتب الإلهامية التي نختلف على شرعيتها: لا أريد ولم أرد من وراء كل ما كتبته اسباغ الإطراء والمدح على مؤلف هذا الكتاب ولا على هذا الكتاب، وكفاه أنه ينطبق عليه قول المتنبي:

وإذا استقـــام الشـــيء قـــام بنفســـه وصفـات نـور الشمـس تـذهـب بـاطـلاً

المحتويات



المؤلف في سطور

ـ أحمد عمران «الزّاوي» ولد في مطلع عام ١٩٣٠ في قرية تابعة لصافيتا من الجمهورية العربية السورية والزّاوي رمز للعائلة وجدّها القديم الشيخ عمران الذي بنى من ماله الخاص زاوية في القرية للعبادة والصلاة ثم استمر في الإنفاق عليها وأورث أولاده هذا الواجب.

ـ تلقى الأبجدية الأولى لدى «كتّاب القرية» ثم التزم توجيهاً من والديه «بالقرآن الكريم» و«نهج البلاغة» وكتب «الشرتوني» في اللغة العربية.

ـ وفي عام ١٩٤٥ التحق بالجمعية الغرّاء في دمشق مع عدد من أبناء الأسر الدينية في المحافظة.

ـ درس لنفسه مناهج «الإعدادية» فأخذ شهادة الكفاءة في عام ١٩٤٧ والشهادة الثانوية في عام ١٩٥٠ وشهادة الحقوق من الجامعة السورية في صيف ١٩٥٤. وفي ١/١/١٩٥٥ سجّل محامياً في نقابة المحامين باللاذقية. وكان طيلة المدة من عام ١٩٤٧ حتى تفرّغه للمحاماة يدرّس مادة الأدب العربي للصفوف الثانوية فيما هو يتابع تحصيله لنفسه.

ـ في شباط ١٩٦٨ انتخب أمين سرّ النقابة في اللاذقية. وحينما توحدت النقابات انتخب عضواً في النقابة المركزية كما انتخب نقيباً فرعياً لفرع النقابة في طرطوس.

وقد تجدد انتخابه عضواً مركزياً لمرة ثانية وظل رئيساً للفرع حتى أواخر صيف ١٩٨٥ كما انتخب عضواً في اتحاد المحامين لدورتين. وحينما احتفل الاتحاد بالعيد الذهبي على مدرج الجامعة السورية في دمشق بتاريخ ٢٠/١٢/١٩٩٤ بمناسبة

مرور خمسين عاماً على قيامه كان المؤلف أحد المكرمين الذين قدم إليهم درع الإتحاد مع شهادة التقدير.

ـ بسبب انصرافه الكلي إلى مهنة المحاماة اقتصر نشاطه الأدبي على المناسبات إلى أن اضطرته ظروفه الصحية إلى التخفيف من نشاطه المهني والعكوف على الكتابة.

... انني أشهد لهذا المؤلف المحقق أنه قد نجح في تأكيد موضوعيته الفكرية وأسلوبه العلمي في النقاش والحوار من خلال قراءتي لبعض نصوص الكتاب، وهو كثير، ورأيت فيه الحجة البالغة والنقد المتزن والنظرة الشاملة. مما أرجو للمسلمين أن يروا فيه الكتاب الذي يكشف حقيقة اللعبة الفكرية في كتابه «القرآن والمسيحية» وطبيعة المنهج الذي اعتمده الحداد في كتبه الأخرى. كما آمل أن يتسع له صدر المفكرين المسيحيين الذين يمكن لهم أن يجعلوا من هذا الكتاب تجربة حوارية وأساساً لحوار علمي موضوعي جديد من خلال النتائج التي وصل إليها وهي أن الإسلام دين مستقل لم ينفصل عن المسيحية في موقع البدعة، ولا يلتقي معها في أفكارها العقيدية التي يعتبرها كفراً وضلالاً في الوقت الذي يدعو فيه المسلمين إلى الكلمة السواء. في الخطوط العامة للعقيدة التي ينطلق البحث في التفاصيل من خلال الروحية التي تتحرك منها نحو اللقاء.

ويبقى الحوار الإسلامي - المسيحي حاجة على مستوى الواقع الإنساني كله في مواجهة تحديات المادية التي يرفضها الفريقان والاستكبار العالمي الذي يحارب الدين كله. في الإسلام وفي المسيحية، لتكون تلك المواجهة للتحديات المادية والاستكبارية هي الكلمة السواء.

ويبقى للمؤلف الفاضل أنه كان ناقداً موضوعياً في فكره ومنهجه وأسلوبه. فله منا التحية والتقدير. والدعاء بالنجاح لمؤلفه في الفائدة العامة والانتشار الكبير حيث يجد فيه القراء من مسلمين ومسيحيين. الفائدة الكبيرة في فهم الإسلام والمسيحية بطريقة علمية رائدة.

العلامة السيد محمد حسين فضل الله